# تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

# تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

إعداد و تحقيق

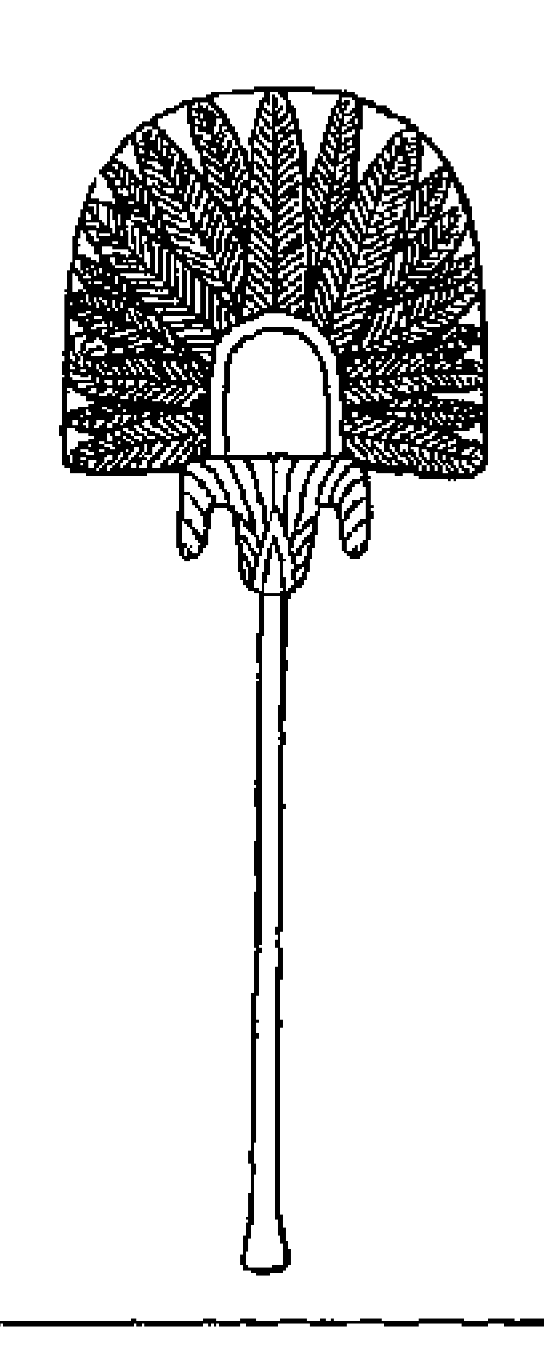
عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثالث

المجلد الثانى

من مار مرقس حتى البطرك ٣٨ بنيامين الأول ٦٢٢ / ٦٦١م

مكتبة مدبولى



# تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين
من خلال مخطوطة

## تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

الجزء الثالث/ المجلد الثانى


إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

# تاريــــخ مصـــر

من بدايات القرن الأول الميلادى

حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

# تاريـــخ البطاركـــة

## لساويرس ابن المقفع

الجزء الثالث/ المجلد الثانى

إعداد وتحقيق:

## عبد العزيز جمال الدين

الإخراج الفنى:

تامر ومصرية عبد العزيز

الطبعة: الأولى ٢٠٠٦

الناشر: مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ ٥٧٥٦٤٢١. تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

رقم الإيـــداع: ٢٠٠٥/١٣٤٣٧

الترقيم الدولى: 977-208-549-6

الجمع التصويرى والتنسيق الداخلى:

دار جهاد ـ ٢٦ ش اسماعيل أباظة ـ

لاظوغلى ـ ت: ٧٩٦٤٧٨٣

# تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين
من خلال مخطوطة

# تاريخ البطاركة

لساويرس ابن المقفع

---

الجزء الثالث، من خايال الثانى [٨٤٩/ ٨٥١م] إلى يوحنا [١١٨٩/ ١٢١٦م]

---

المجلد الثانى


إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين



الناشر:
مكتبة مدبولى
٢٠٠٦

## الاب كيرلس البطرك وهو
## من العدد السابع والستون
## [ ١٠٧٨، ١٠٩٢م]

ولما تنيح الاب انبا اخرسطودلوس البطرك في السنة الحادية والاربعين من مملكة المستنصر بالله امير المومنين في ايام امير الجيوش [الأجل الافضل] المقدم ذكره، كانت النوبة في اقامة البطرك للكهنة والاراخنة المصريين ورهبان دير ابو مقار، فسار

---

المغربي الوزير من الإصلاح بين السودان والأتراك، وخرج السودان على أثر ذلك إلى شبرا دمنهور[١].

لم تستمر الهدنة بين الأتراك والسودان طويلاً، وتجددت الإشتباكات المسلحة بينهما عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، واستطاع الأترك بقيادة ناصر الدولة بن حمدان أن يهزموا السودان بالإسكندرية في موضع يعرف بالكرم، وقتل نحو ألف من السودان وهرب من بقي حياً، ثم تم الصلح بينهما بعد ذلك[٢].

وهذه أول مرة يرد فيها اسم ابن حمدان مقترناً بقيادة الأتراك، وهو الحسن بن حمدان أبو محمد التغلبي الأمير ناصر الدولة ذو المجدين[٣]. وهو من أسرة الحمدانيين التى قضى الفاطميون على حكمها في حلب، ومع ذلك فقد ولى بعض الحمدانيين مناصب في ولايات الشام، وعين ابن حمدان هذا في ولاية دمشق سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م، إلا أنه عاد إلى مصر سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، وتولى في وزارة اليازورى حكم الريف بشرقية وغربيه فكان يجبى

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ج٢ص ١٣، أبو المحاسن : المصدر السابق ج٥ ص ١٨ـ ١٩، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٧٦.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ص ٧٤.
(٣) المصدر نفسه ج٥ص ٢٠.

جماعة من الاساقفة وهم انبا قزمان اسقف نوسا [مركز أجا]، وابا يوحنا اسقف سخا [مركز كفر الشيخ] المعروف بابن الظالم، وابا مرقس اسقف ابو صير، وابا مرقوره اسقف مصيل، وانبا غبريل اسقف بسطه وهو كرسي الخندق، وانبا خايال اسقف قطور[مركز طنطا]، وابا تادرس اسقف خربتا [كوم حماده بالبحيرة]، واباناا جرجه اسقف ابطوا(*)، وابا يوحنا اسقف اتريب [مركز بنها]، وابا مرقس اسقف البلينا وابا بطرس اسقف

(*) ابطوا: كانت عاصمة لمملكة الوجه البحرى قبل عهد مينا. تقع الآن ضمن مركز دسوق محافظة كفر الشيخ.

---

الجوالي[١]. ويبدوا أنه أعيد مرة أخرى إلى ولاية دمشق في رجب سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ومنها خرج في ٦ ربيع الأول سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م، بناء على أوامر الخليفة، على رأس جيش كثيف جاءه من مصر، لأجل إعادة خطبة المستنصر إلى حلب، التي سيطر عليها معز الدولة ابن مرداس، ولكنه انهزم عنها في مستهل شعبان واصيب بضربة شُلت منها يده. وبقيت المدينة تحت سيطرة المرادسيين[٢]. ويعود ابن حمدان إلى مصر ، كأنه على موعد مع القدر، ليقود الأتراك في فتر ة حاسمة من تاريخ دولة الفاطميين، وكانت أسرته تتولى زمام الأتراك وأمراءهم منذ عهد الحاكم بأمر الله[٣].

وبعد عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م، نقطة تحول هامة على طريق تزايد نفوذ الترك، الذين تقووا بهزيمتهم للسودان مرتين، فقد استغلوا عدم مقدرة الدولة على سداد رواتبهم بسبب نقص النيل عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م. وهو بدء ما عرف بالشدة المستنصرية، وطالبوا بزيادة وجباتهم، ومنعوا السوادن من أرزاقهم، فتفاقم الوضع من تزايد أعداد السودان الذين بلغوا ٥٠ألف رجل ما بين فارس ور اجل[٤].

---

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٣-٣٨٤.
(٢) ابن ميسر : المصدر السابق ص ١٠-١٢. ويذكر د. ماجد أن ابن حمدان توجه إلى حلب عام ٤٥٠هـ، وعاد منهزماً عنها عام ٤٥٢هـ. انظر : ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٨٤.
(٣) د. ماجد : المرجع السابق - ص ,٣٨٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ ص ٢٧٣، د. ماجد: المرجع السابق - ص ٣٧٧.

البهنسي [البهنسا] وابا مقاره اسقف القيس [مركز بني ضرار]، وابا مينا اسقف البنوانين [مركز المحلة الكبرى]، وغيرهم من الاساقفة والكهنة، وبعض كهنة الاسكندرية وجماعة من المصريين ومضو الى دير ابو مقار واقامو مقدار شهرين يرتادو من يصلح للبطركية، فلم يتفق لهم. فنهض بعض الاساقفة ومعهم شروط الراهب الارشي دياقن بدير ابو مقار ومضو الى دير ابو كما لياخذو قديس الله بسوس الراهب بالحقيقة الذى تقدم ذكر فضايله وعجايبه،

---

عندئذ لم يكن السودان بحاجة إلى أوامر المستنصر التى بعثت لتغريبهم بالأتراك، فأجتمعوا وحضروا من شبرا دمنهور إلى الجيزة، وانتهت الحروب التى دارت بين الطائفتين بهزيمة السودان وفرارهم إلى الصعيد[1].

كان فرار السودان إلى الصعيد، إنسحاباً تكتيكياً، لإعادة ترتيب الصفوف، وتأهباً لجولة أخرى من الصراع، وبالفعل تجمع السودان هناك وبلغ عددهم نحو ١٥ ألفاً ما بين فارس وراجل فقلق من ذلك الأتراك ودخلوا يشكون إلى المستنصر بالله فاغتنمت أم الخليفة الفرصة وأمرت بعض عبيدها السودان فهاجموا الأتراك وقتلوا منهم. على أثر ذلك بدأت حملة تصفية جسدية للسودان الذين بقوا فى القاهرة والفسطاط، ولم يبق إلا السودان الذين فروا إلى الصعيد، وفريق آخر كان فى الإسكندرية، التى حاصرها ابن حمدان فطلبوا الأمان، ورتب ابن حمدان عليها من يثق به[2].

أعطت إنتصارات الأتراك الجديدة ، زخماً لابن حمدان الطامح إلى السلطة، فاستهان بالخليفة الذى أضحى بلاحماية بعد هزيمة السودان، وبدأ استعداءه للخليفة فى عام ٤٦٠هـ/٦٧ـ١٠٦٨م، عندما طلب زيادة رواتب الأتراك من ٢٨٠٠٠ دينار شهرياً إلى

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ــ ج٢ص ١٧ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ص ٢٧٣ .
(٢) ابن مسير : المصدر السابق ــ ج٢ص١٧ ،المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ ، د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ــ ص ٩٠ .

فلما هموان يمسكوه صاح عليهم واخذ حجارة
يدق بها صدره حتى كاد ان يقتل نفسه ثم قال: انا
ابن مملوك تجعلونى بطرك لا تطلبونى انا ولا مقاره
الامنوت الذى قد هرب منكم واختفا ولا تتعبو فان
بطركهم هوذا هو عندهم في الاسكنا بدير ابو
مقار. وكان انبا اخرسطودلو نيح الله نفسه قد
تحدث مع قس عندنا باسكندرية مكفوف
[معكوف] في كنيسة السيدة اسمه رجا فقال
القس المذكور للاب انبا اخرسطودلوس: حسره

---

٤٠٠,٠٠٠ دينار، مع علمه بخواء خزينة الدولة بسبب اضطراب الأحوال وعدم زراعة الأرض[١]. وألح الأتراك فى طلب رواتبهم، وحاصروا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ثم اقتسموا الأعمال، وساروا بعد ذلك إلى دار الوزير أبى كدينة مطالبين بالأموال فاعتذر بخروج البلاد عن سلطة الخلافة، وافلاس الخزينة، فأمروه بإعلام الخليفة بمطالبهم، فخرجت الرقعة بخط المستنصر مكتوب بها:

أصبحت لا أرجو ولا أتقي — إلا إلهي وله الفضل

جدى نبي وإمامي أبي — وقولي التوحيد والعدل

المال مال الله ـ والعبد عبد الله. والإعطاء خير من المنع. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

واعتذر الخليفة بأنه لم يبق عنده شئ، فاضطره الأتراك إلى إخراج ذخائر الخلافة وبيعها، فأخذ يخرجها تدريجياً وهم يأخذون التحف والذخائر «لأنفسهم بأيديهم ويثمنونها بأقل القيم، وأبخس الأثمان»[٢].

(١) ابن ميسر: نفس المصدر – ص ١٧، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ـ ج٨ص ١١٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

عليك يا ابونا القديس الفاضل كيف يعدمك هذا الشعب ومن اين يجدو مثلك. فقال له: يجلس بعدى على هذا الكرسى راهب جيد اسمه جرجه وهو جران فى ضيعة من اعمال البحيره تسمى افلاقه [مركز دمنهور]. وحدثنى انا الخاطى ابو البركات ابن زوين (ناقل هذه السيره[*]) من القلاية البطركية لنفسه ولولده ابو اليمن ابن بنوب وهو يوميذ كاتب القلاية المذكورة في بطركية الاب القديس ابا يوحنا [يوأنس]

(*) كاتب هذه السيرة أبو البركات ابن زوين.

---

لم يقف السودان خلال هذه الفترة مكتوفى الأيدى، فتغلبوا على الصعيد وأكثروا السلب والنهب والقتل حتى ضج الناس بالشكوى منهم، عندئذ سار الأتراك إليهم فى شهر رمضان سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م وبلغت نفقتهم من ديوان الخليفة مليون دينار أيضاً، إلا أنهم هذه المرة هزموا أمام السودان، فعادوا إلى الجيزة[1].

إتهم الأتراك المستنصر بمساندة السودان بالأموال، وجهروا له بالسوء من القول، فنفى تقديمه يد العون للسودان، ثم أجبروه على أن ينفق فيهم مليون دينار أخرى عوضاً عما ضاع من أموالهم.

وبذلك تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، وعادوا إلى محاربة السودان، ونجحوا فى استئصال شأفتهم نهائياً، وتفرد الأترك وابن حمدان بالأمور وتحكموا فى الدولة حتى عام ٤٦١هـ/١٠٦٨-١٠٦٩م[2].

ولم تفلح محاولات التخلص من ابن حمدان، فقد هاجمه صيرفى ولم يتمكن إلا من جرحه ، فقبض عليه وشنق[3]، وكان ذلك بتدبير المستنصر وأمه.

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٧.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ١٨ . المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٦ ، د. راشد البراوى: حالة مصر ـ ص ,٩١

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٢ ص٨٣.

البطرك [رقم ٧٢] فى سنة ست وستين وستماية للشهد عن [ابيه بنوب] وكان كاتب القلاية قديماً عن ابا كيرلس البطرك)، انه كان الاب انبا اخرسطودلوس البطرك جعل ابهامه على فم القرابة(*)، وكان القس المصلح [المُعيّن] بطركاً وهو ابا كيرلس الى جانبه لانه من قسا [قساوسة] الاسكنا، فصلب به على جبينه وقال له: ايتهسك. وتفسيره دهنتك. وعجايب الله فى قديسيه الذى يظهر لهم المخفيات. فلما توفا انبا اخرسطودلوس

(*) القرابه : قارورة زيت للتعميد غالباً. وكانت فى الغالب على شكل قارب.

---

سعى ابن حمدان، لإسقاط الخلافة نهائياً، لأنه اتفق مع رجل من الأشراف هو أبو طاهر حيدرة بن الحسن الحسينى الذى نفاه والى دمشق بدر الجمالى، وكان هذا الرجل محبباً للناس وتلقبه العامة المسلمين بأمير المؤمنين، على أن يوليه الخلافة لنسبه الصحيح، وتحالفا لأجل ذلك مع بعض العرب واستقل ابن حمدان بقسم من الجيش وخاصة طائفة الأكراد التى ربما كان تاج الملوك شادى زعيمها(١).

وبصورة واضحة تحول ابن حمدان منذ عام ٤٦١هـ من متمرد تحت دعوى حماية حقوق الأتراك، إلى متمرد على الخليفة الفا طمى وحتى الأتراك. فقد أعمته أطماعه الخاصة عن الحفاظ على قوة الأتراك عناصره الفاعلة فى إرباك أمور الخلافة، واستأثر لنفسه واتباعه المقربين من الاكراد بما كان يخرج من أموال وذخائر المستنصر، وبدأ يتصرف فى الأمور بمفرده كسيد مطلق السلطان، وخاصة أنه قام بتقسيم دور المكوس والجبايات على قواده «حتى لم يبق للدولة دخل يعول عليه ولامال فى القياصر يرجع إليه(٢)».

رأى الأتراك أنه لو زالت دولة الفاطميين، أنهم سيفقدون نفوذهم فتحركوا باتجاه تدعيم

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٣، د. ماجد : ظهور خلافة – ص ٣٨٦.
(٢) ألمقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٨.

شنع [اشيع] فى اسكندرية بان راى الجماعة قد
اتفق على ان يجعلوا مقاره الامنوت [بطركاً]
وانهم قد سارو كلهم الى الدير لياخذوه، فقال رجا
القس المذكور لى : ما هكذى قال لى ابى أبا
اخرسطودلوس. فلما لم يجدوه ووصل اليهم الخبر
الصحيح بالذى قد جعل قال: حقاً هكذى قال
لى. واما الاساقفة والارشى دياقن الذين مضو الى
دير ابو كما فانهم عادو من يومهم الى ديرهم
واخبرو الجمع بما جرى لهم مع القديس بسوس

---

الخليفة، بهدف التخلص من ابن حمدان، ورفعوا الأمر إلى الوزير وقالوا إن كل ما يخرج من الخليفة يقصره ابن حمدان على أتباعه ولايعلمهم منه شئ ، فطلب الوزير منهم التخلى عن مساندته والعمل على إخراجه من مصر فوافقوه على ذلك، وشرع المستنصر فى تنفيذ الاتفاق، فطلب من ابن حمدان الخروج من القاهرة، وامتثل ابن حمدان للأمر لما أيقن إنحياز الأتراك للخليفةو، وخرج إلى الجيزة فانتهبت دوره ودور أصحابه وحاشيته[1].

ولكن ابن حمدان لم تعيه الحيل، فتحالف مع القائد تاج الملوك شادى على قتل الوزير خطير الملك، والدكز الذى قاد الأتراك ضد ناصر الدولة، حتى تتاح لهما فرصة التفرد بالسلطة واتفقا على أن يقوم شادى ورجاله بقتل الوزير والدكز عند مرورهما بشارع بين القصرين فى الطريق لقصر الخليفة، ونما إلى علم الدكز تفاصيل الإتفاق فالتجأ إلى القصور واستجار بالمستنصر فى الليل. بينما أقدم الوزير فى موكبه صباحاً فبادره تاج الملوك وجنوده فقتلوه، وأرسل إلى ناصر الدولة فحضر إلى القاهرة[2]. آنذاك لم يكن للحرب بد، فلبس المستنصر عدة الحرب عملاً بمشورة الدكز وقاد الجند وعامة الشعب أيضاً، واستطاع أن يهزم ابن حمدان ويقتل الكثير من أتباعه، ففر ابن حمدان إلى البحيرة واستجار ببنى سنبس من قبائل

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨، د. البراوى: المرجع السابق ـ ص ٩١.
(٢) ابن ميسر المصدر السابق ـ ص ١٨ ـ ١٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٧٩.

وما قال لهم، فصلو واكثرو الابتهال الى الله سبحنه في ان يرشدهم الى الذى قد اصطفاه لهذا الامر، فذكرو جماعة ولم يتفقو على واحد منهم الى ان دخل لهم راهب قس في دير ابو مقار كهل اسمه جرجه، فلما راوه القا الله جل اسمه في قلوبهم اجمعين الاتفاق على تصييره، فقامو اليه كلهم واخذوه كرهاً والبسوه الثوب واسموه كيرلس وهو يبكى ويقول : انا ابن ثانية ما اصلح لهذا الامر. فلم ينثنو عنه وكان ذلك في يوم احد

---

العرب وتزوج منهم[1]، فتقوى بهم وبقبائل قيس ولواتة، وانضم إليه بعض المشارقة، وبدأ يستعد لجولة جديدة من الصراع[2].

ووجد ناصر الدولة نفسه بعد انفضاض الأتراك من حوله فى طور جديد من النزاع مع الخلافة يصعب خلاله الأستيلاء على الحكم بمجرد التحالف مع بعض القبائل العربية فلجأ إلى الاستعانة بقوة كبيرة يسعدها إسقاط خلافة الفاطميين، وهى السلاجقة، فبعث الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن النجارى رسولاً منه إلى السلطان ألب أرسلان بالعراق فى عام ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠م، طالباً منه مدداً عسكريا ليقيم الدعوة للخلافة العباسية بمصر[3].

هنا شمر المستنصر بالله عن ساعد الجد، إنقاذاً لخلافته من السقوط، فجهز جيشاً كبيراً من

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ـ شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٢ ـ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
والسنابسة بطن كان يقيم بالبحيرة من أعمال مصر وينتسب إلي لبيد بن سنبس بن معاوية بن ثعل بن عمرو بن الغوث طئ بن أملان من القحطانية . انظر عمرو رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٤٩٩ـ ج٢ ص ٥٥٦.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ١٨ـ١٩، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٧٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٤ـ ١٥، د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٨٧.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٢.

الرفاع وسارو به الى اسكندرية وكرز بها فى الثانى والعشرين من برمهات سنة سبع ماية اربعة وتسعين للشهد، ثم سار الى مصر فانفذ انبا يعقوب اسقف مصر الى شيخ ابو الفضل يحيى ابن ابرهيم، وهو يوميذ متولى ديوان الابواب بمصر ومتولى ديوان الصناعة [الاسطول]، واعلمه بوصوله الى كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر [الروضه]، فانفذ له عشارى [قارب] موكبى سلطانى فركب فيه هو ومن معه وعدا الى مصر فاجتمع على الشط

---

الأتراك وقسمه إلى ثلاثة فرق، لكل منها مقدم، والأرجح أن هذا التقسيم كان تقسيما بحكم الأمر الواقع،إذا أنه راعى فيما يبدو وجود ثلاثة قواد رئيسيين بين الأتراك، فجعل كلاً منهم على رأس فرقة.

ويفسر ذلك أن كل مقدم عمل بمفرده على هزيمة ابن حمدان طمعاً فى أن يعود إليه الفضل فى هذا العمل مما يدعم موقفه فى السيطرة على الدولة. ولم يدخل الجيش الحرب مدججاً بروح «المركزية»، فهزمت أول فرقة أمام ابن حمدان وأعراب البحيرة وقتل أفرادها واستولى على أسلحتها، وتلى ذلك إنهزام الفرقة الثانية لم تكن على علم بما حدث ثم تقدم ابن حمدان فأجهز على بقية الجيش[1].

بعد هذه الإنتصارات الباهرة أخذ ناصر الدولة فى تدعيم قواته بفضل ما غنمه من الأترك، وعاث فى البلاد فساداً وأعمل السلب والنهب والقتل، فأثار الذعر فى الوجه البحرى، الذى أصبح تحت سيطرته الكاملة ، وكون لنفسه دولة داخل الدولة، غير خاضعة لنفوذ الخليفة، بل وخطب فيها للخليفة العباسى القائم بأمر الله[2].

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣، ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢٠.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٠، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣٠٣، د. السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية ـ ص ١٨٧.

[الشاطئ] من العامة خلق كثير، وطلع الى القاهرة وبين يديه القراة حتى وصل الى القصر ودخل هو ومن معه من باب البحر حتى وصلو الى باب القاعة، فخرج اليه مامون الدولة عنبر الحرانى الاستاذ، وهو يوميذ صاحب الرسالة، وقال له: امير المومنين يرد عليك السلام. فصقع [فركع] الى قرب الارض ثم اخذه ودخل به وحده الى مولانا المستنصر بالله امير المومنين وعنده امه واخته جالسين وبين ايديهم طيب كثير فضحموه

---

ولم يكن ذلك آخر ما فى جعبة ابن حمدان، فقد أعقب سيطرته على الوجه البحرى بممارسة ضغط اقتصادى شديد على مركز الخلافة، القاهرة ، بقطع الميرة عنها، إضافة إلى أن استمرار الحروب أدى إلى عجز الفلاحين عن زراعة الأرض فاشتدت الحالة على الناس[١].

وأتى الحصار الاقتصادى ثماره سريعاً، إذ ارتفعت الأسعار وثار الشعب، فخاف المستنصر من ثورته وخشي أن يسلمه إلى ابن حمدان، ووافق الأتراك على الإذعان لشروط ابن حمدان، وأصبح هو فى قصره كالمحجور عليه[٢]. وعقد الأتراك المصالحة مع ابن حمدان فى عام ٤٦٣هـ ٧٠ ـ ١٠٧١م بسبب نقص الغذاء وعدم زراعة الأرض وانتشار الأوبئة[٣].

وتم الاتفاق على أن يظل ابن حمدان بالبحيرة، وترسل له الأموال التى تقرر له، وأن يكون تاج الملوك شادى نائبه فى القاهرة ، وهو الذى يضمن نفاذ الأموال اليه.

وبفضل هذا الاتفاق دخلت الغلال إلى القاهرة والفسطاط، فطابت قلوب الناس، ودام الأمر على ذلك لمدة شهر واحد ، إختلف من بعده الأتراك مع ابن حمدان، فجاء من البحيرة

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٥ .
(٣) د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ٩١.

[فضمخوه] من ذلك الطيب وقالو بارك علينا
وعلى قصرنا فبارك عليهم ودعا لهم ففرحو به
وقالو له جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا، ثم
خرج ووقف على باب القاعة وامر بطرس اسقف
دقميره ان يقر الدعا فقراه وبارك هو ايضاً ودعا،
وخرج والقراة بين يديه الى دار الاجل [الأفضل]
امير الجيوش فلقى منه اجمل ملقا واجلسه وادناه
واكرمه وطيب نفسه فدعا له دعا كثير، وامر
بطرس الاسقف المذكور فقرى الدعا هناك ايضاً

---

بعساكره إلى مصر وحاصرها في ذى القعدة وأحرق وخطف النساء من الطرق، ثم عاد إلى البحيرة[1] بعد أن وعده الأتراك فيما يبدو بتطبيق نفس شروط الصلح السابقة.

إلا أن تاج الملوك شادى أخل بالتزاماته المالية تجاه ناصر الدولة، فزحف الأخير بالعربان إلى الجيزة، واستدعى شادياً وبعض المقدمين فخرجوا إليه مطمئنين، فقبض عليهم، وألقى العربان النار في الفسطاط ونهبوا وسلبوا[2]. وفى هذه المرة نجح الجيش الذى جهزه المستنصر في هزيمة ابن حمدان ومطاردته هو وأتباعه، فعاد إلى البحيرة مرة أخرى[3].

كان ذلك يعنى إنهياراً لاتفاق ٤٦٣هـ، الذى نص ولاشك على إعادة الخطبة للمستنصر، فقام ناصر الدولة بقطع خطبة المستنصر من الوجه البحرى وخطب مرة أخرى للقائم العباسي وراسله في بغداد، يطلب منه أن يجهز له الخلع والألوية السوداء (شعار العباسيين)، «فاضمحل أمر المستنصر وتلاشى قدره»[4].

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر- ج٢ ص ٢١، المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٢ ص ٣٠٥.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر- ج٢ص ٢١.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا -ج٢ص ٣٠٦.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق - ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق - ص ٣١٦.

على باب المجلس، وكان والى مصر قايم بين يدى مولاه امير الجيوش فامره ان يخرج ويركب معه حتى ينزل الى مصر والى حيث يريد وان يراعيه ويخدمه ويقضى حوايجه ما دام بمصر، فخرج مكرماً مبجلا ونزل الى كنيسة السيدة المعلقة بمصر بقصر الشمع وكرز فيها، ثم طلع بعد ايام الى كنيسة السيدة بالقاهرة بحارة الروم وكرز فيها، ولما خرج فى الصوم الكبير الى دير ابو مقار حكا لى من كان معه هناك من الاساقفة انه لما رفع

---

ثم حدثت معارك بين المشارقة (الاتراك) والمغاربة عند كوم الريش بالقرب من القاهرة عام ٤٦٤هـ/ ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وقتل فى هذه المعارك ١٢ ألفاً من الفريقين[١].

وساعدت هذه الفتن وضعف شخصية الخليفة، ابن حمدان على تفكيك الجبهة الموالية للخليفة، فاستمال كثيراً من الأتراك، وأيقن عندئذ عجز المستنصر عن مقاومته فى ظل تدهور الأحوال الاقتصادية وتفشى الأوبئة، فدخل مصر بعساكره فى شعبان ٤٦٤هـ/١٠٧٢م[٢].

ومن الفسطاط، أرسل ابن حمدان إلى القاهرة ليطلب الأموال من الخليفة، فوجد رسوله الخليفة جالساً على حصير بغير فرش ولاأبهة، وليس عنده غير ثلاثة من الخدم، فلما أدى الرسالة قال له المستنصر، أما يكفى ناصر الدولة أن أجلس على هذه الحال؟ فبكى رسول ناصر الدولة ونقل إلى موفده ما رأى، فرق له وقرر للخليفة نفقة شهرية مائة دينار، «ومارس الحكم بنفسه، وأصبح الخليفة مجرد مسمى بلا معنى»[٣].

وكانت أول خطوة لناصر الدولة تصفية حساباته مع أم المستنصر فقبض عليها وعاقبها غير

(١) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ـ ص ٣٧٧.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ص ٢١، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣١٦.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٢١.

قليلة [إناء] الميرون المقدس فى اسكنا ابو مقار يوم الخميس الكبير فاضت القليلة على يديه وعلى المذبح حتى تعجب الحاضرين ومجدو الله جل اسمه، وبعد هذا وصل توما القس المقدم ذكره فى هتور سنة سبع مایة خمسة وتسعين للشهدا ومعه الرسالة السنوديقا باسمه واوصلها اليه وقريت فى كنايس مصر وذكر اسمه على هياكلها ودعى له فيها فى اوقات الصلوات والقداسات كما جرت العادة، وكتب له رسالة سنوديقا جواباً عن رسالته

---

مرة حتى استصفى أموالها ويقال إنها فرت إلى بغداد مع بعض أهل المستنصر[1]، وإن كان ذلك أمراً مستبعداً بحكم العدواة التقليدية مع الدول العباسية.

وتمهيداً لإزالة الخلافة الفاطمية من مصر عمل على إخلاء القاهرة من أعوان المستنصر الأقوياء والذين يمكن أن يقفوا حجر عثرة فى سبيل ذلك، فكان يوليهم الأعمال ثم يعزلهم منها بمجرد وصولهم إليها ولايمكنهم من العودة مرة أخرى إلى القاهرة[2].

وأخذ ابن حمدان يعد العدة لإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة وإسقاط اسم المستنصر من الخطبة، الأمر الذى أثار مخاوف الأتراك من ضياع مكانتهم التى تمتعوا بها فى الدولة الفاطمية، إذا ما أقيمت الدعوة لبنى العباس وصارت ولاية تابعة لخلافة بغداد والسلاجقة الأقوياء، فعملوا على قتل ابن حمدان، وتزعم هذا الأتجاه صهر ناصر الدولة «الدكز» التركى الذى كان متزوجاً من ابنه ناصر الدولة، وتشارك مع الأمير يلدكوز أو يلدكوشى ، ونجحا فى جمع رأى الأتراك على ذلك[3].

وتولى الدكز هذه المهمة، لأن ناصر الدولة يأمن له لكونه صهره فاصطحب معه غلام له

---

(١) المصدر نفسه المكان نفسه.

(٢) ابن الأثير: الكامل ـج١٠ص ٢٧ ـ٣٠.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـج٢ص ٣٠٩.

وكان ابا كيرلس البطركى فى اكثر اوقاته فى كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر فى الموضع المعروف بالمختارة مقيما فى الجوسق الذى فيها، وكان يشتهى ان يكون مقامه فى الريف فلا يقدر لكثرة الرسل الواردين من بلاد الحبشة والنوبة والعايدين اليها وحاجة السلطان الى حضوره عنده فى كل وقت، وكان سلمون(*) ملك النوبة قد ترك المملكة وعزل نفسه عنها وسلمها لجرجه ابن اخته وانفرد هو للعبادة والنسك. فلما كان فى السنة الثانية من

(*) سلمون ملك النوبة يترهب سراً في أحد اديرة الصعيد.

---

«أبو منصور كمشتكين» ويلقب بحسام الدولة بعد أن أطلعه على جلية الأمر ودخلا على ناصر الدولة، فى مستهل شهر رمضان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م.

والفراشون ينفضون البسط ليقعد عليها، وهو يمشى فى صحن الدار، فمشى الدكز معه ثم تأخر عنه وضربه فى خاصرته «بيافروت» وهو سكين مغربى، فعاجله كمشتكين بضربة قطعت رجليه ثم حزت رأسه(١). وبذلك وضعت نهاية لحياة ناصر الدولة الذى لم يكن قط ناصراً لدولة الفاطميين. ثم قام الأتراك بتتبع أقارب ناصر الدولة ورجاله حتى أبادو هم وقطع ابن حمدان قطعاً، وأنفذت كل قطعة إلى بلد(٢).

إلا أن الستار لم يسدل مع مقتل ابن حمدان، إلا لينفرج عن فصل جديد، أخذ فيه الأتراك دور ابن حمدان، فقد أرادوا أن يجنوا ثمار انتصارهم على عدو الخلافة، فدخلوا على المستنصر ومعهم رؤوس اعدائه وطلبوا الاموال، فرد المستنصر بأن الأموال أخذها ابن حمدان وأن الخلاف كان بينه وبين الأتراك، وأنهم هم الذين نقضوا العهد معه، ولكن الأمر استقر على ما جرت عليه العادة، إذ أخرج المستنصر من خزائنه قطعاً من المرجان وعروضاً أخرى حمل ثمنها إلى الدكز ورفقته(٣).

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢١.
(٢) المصدر نفسه ـج٥ ص ٢١ ـ٢٢، ابن المصدر السابق - ص٢٢، المقريزى: المصدر السابق ـ ص ٣٠٩ـ٣١٠.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـج٥ص ٢٢.

بطركية انبا كيرلس مضى سلمون المذكور الى وادى يعرف بالقديس ابو نفر ليتعبد هناك فى بيعة على اسمه، بينها وبين اطراف النوبة مسيرة ثلثة ايام وبينها وبين اسوان مسيرة عشرة ايام، وكان والى اسوان يوميذ اسعد الدولة شاردكين القواسى، فاتاه احد اخوة كنز الدولة وقال له: يا مولاى تريد امضى اخذ سلمون الذى كان ملك النوبة واتيك به. قال له: نعم، فاخذ معه عشرون رجلا وركبو النجب وسارو فى خفية حتى وصلو الى البيعة

---

ومارس الأتراك منذ بداية عام ٤٤٦هـ/١٠٧٣م، الضغط على الخليفة، وكان على رأسهم سلطان الجيوش يلدكوز التركى والأمير الدكز ومعهم الوزير أبى كدينة. وخاب ظن المستنصر فى أن يكون فى مقتل ابن حمدان راحة له.[١] وبلغت سيطرة الدكز حداً مكنه من فرض حظر الدخول إلى القاهرة أو الخروج منها، ولعله سعى إلى الملك[٢].

أيقن المستنصر أن مصير خلافته أصبح فى مهب الريح، فقد تحالف عليه الأتراك بعد فناء معظم السودان والمغاربة، واستبد به اليأس فلم يجد مخرجاً إلا باستدعاء بدر الجمالى من عكا بفلسطين عله يستطيع إنقاذه من تسلط الدكز والأتراك[٣].

قبل بدر المهمه بشريطة أن يقدم بعسكر من الارمن وأن لايبقى أحداً من عساكر مصر ولاوزرائها، فأجابه المستنصر إلى ذلك[٤].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ــ ج٢ ص ٣١١.
(٢) د. ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ــ ص ٣٩٢.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ــ ج٥ص ٢٢، د. راشد البراوى: المرجع السابق ــ ص ٦٩. وبدر الجمالى هو بدر بن عبد الله، وكان مملوكاً لجمال الدولة بن عمار أحد ولاة طرابلس الشام، فعرف بالجمالى نسبة إليه وبدر من أصل أرمنى تمكن بجده وحزمه من التنقل فى المناسب حتى ولى دمشق وصور عام ٤٤٥هـ/١٠٦٣ وحارب بأمر الخلافة المتمردين فى حلب ودمشق ثم تولى ولاية عكا فى سنة ٤٦٢هـ/٦٩ـ١٠٧٠ وبقى بها حتى طلب المستنصر نجدته .د. ماجد: المرجع السابق ــ ص ٣٩٣.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق ــ ص ٢٢.

بوادى ابو نفر وكبسوها بغتة فاخذو سلمون المذكور واحضروه الى اسعد الدولة فسيره الى القاهرة، فلما وصل اليها تلقاه كلمن فيها من الامرا والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل الى القاهرة اكرمه امير الجيوش وانزله فى دار حسنة وحمل اليه الكسوة والفرش والانية، واقام على هذه القضية مقدار سنة ثم تنيح ودفن فى دير القديس مارى جرجس بالخندق.

وقسم الاب انبا كيرلس مطراناً للحبشة وهو

---

سار بدر إلى مصر عام ٤٦٦هـ (ديسمبر ١٠٧٣م) فى مائة مركب ومعه جنوده وعبد الله ابن المستنصر الذى فر إليه أثناء الأحداث وذلك رغم تحذيره من حالة البحر فى الشتاء، ولكن الظروف الجوية واتته ودامت كذلك أربعين يوماً وصل بعدها إلى دمياط[1]. وأقام مدة بدمياط، اقترض خلالها مالاً من تجار تنيس ويقال افترضه عليهم، ثم قدم عليه سليمان اللواتى[2] وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأوسعهم حالاً، حاملاً معه الغلال، وأمن له الطريق حتى وصل إلى قليوب على مقربة من القاهرة.

ومن هناك طلب من المستنصر القبض على يلدكوز حتى يتمكن من دخول القاهرة، فبادر المستنصر إلى القبض عليه[3].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا – ج٢ص ٣١١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـج٥ص ٢٠.

(٢) اللواتيون من أعراب غرب مصر وفروعهم بنو هالى وبنو سليمان وبنو منكنيت. انظر : عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب – ج٣ص ١٠١٧.

(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣، المقريزى: المصدر السابق ـ ج٢ص ٣١٢، ويذكر د. ماجد أن لواته قاومت بدراً عند نزوله إلى دمياط وأنه قتل منهم الألوف وعلى رأسهم سليمان اللواتى (ظهور خلافة الفاطميين ص ٣٩٣) والواقع أن بدر الجمالى قاتلهم بعد ذلك كما يستفاد من ابن ميسر ـج٢ص ٢٤) ومن سياق ماورد فى سجل من المستنصر إلى حاكم اليمن على بن الصليحى بتاريخ المحرم سنة ٤٦٣ هـ ـ انظر د. ماجد : السجلات المستنصرية ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ص ١٨٤. ويمكن إرجاع تعاون لواته مع بدر الجمالى عند نزوله إلى أن اللواتين كانوا حلفاء ابن حمدان الذى قتله الأتراك.

شاب عالم اسمه سويرس ابن اخت بقطر المطران المتوفا، وكان قد تربا هناك مع خاله المذكور، وكان اوعد امير الجيوش بمواعيد[وعود] كثيرة حتى تقدم لابا كيرلس بتقدمته وقسمته، وقال انه يواصله بالهدايا من هناك ويدع الملوك تطيعه. فلما سار ووصل الى بلاد الحبشة قاومه قوريل الذى ذكرناه آنفا، وان الاب اخرسطودلوس قال لامير الجيوش انه لم يقسمه وانه مغتصب الكهنوت وخاصمه وناصبه. ثم جمع هذا قوريل ماله وسار

---

بعدها دخل بدر القاهرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وأرسل كل أمير من أمرائه إلى قائد من قواد الدولة ليلاً، وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح وقد أحضر من رؤوس أمراء الدولة شئ كثير فقبض على بقية الأتراك وتتبع المفسدين حتى قضى عليهم وفر ابن يلدكوز إلى الشام[١].

وبعد القضاء على الأتراك بات واضحاً أن خطة بدر تقضى أولاً باسترداد السلطة المركزية لهيبتها فى العاصمة، القاهرة، وتخليصها من إسار السيطرة التركية ثم التوجه بعد ذلك إلى أقاليم الدولة، للسيطرة عليها. فقتل جماعة من أماثل حكامهم ووزرائهم واتجه إلى الدلتا فحارب فى شرقها وغربها اللواتيين والعرب حتى قضى على كل من سولت له نفسه الأنتقاص من سيطرة الحكومة الكاملة[٢].

**٤. نقص فيضان النيل:**

لم يصل النيل خلال المجاعات التى وقعت فى عصر المستنصر، إلى حد القحط، كما وأنه لم يقل عن ١٦ ذراعاً إلا فى مرتين (٤٤٦، ٤٦٠هـ) وتعدى خلالها ١٥ ذراعاً، ولذا فليس بإمكاننا أن نحمل الفيضان وزر هذه المجاعات، وتعد مسؤوليته عنها مسؤولية محدودة وجزئية،

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٢٣.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٤، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣١٤ ـ ٣١٦.

الى[ مملكة] دهلك(*) وكان معه مال كثير فقبض عليه صاحب دهلك واخذ جميع ماله وسيره الى [الأجل الافضل] امير الجيوش ، فلما وصل الى القاهرة احضره الى مجلسه ثم استقصا عنه فعلم صحة ما قيل فيه فاعتقله في خزانة [سجن] البنود مدة ثم ضرب عنقه في سنة ثمان ماية وستين للشهد، ثم وصلت كتب من سويرس المطران يعلمه ان بلاد الحبشه قد تمهدت وزال ما كان فيها من الفساد، وان الملك ووزراه واهل مملكته

(*) دهلك: من ممالك النوبة في ذلك الوقت.

---

ولعل ذلك هو الذى حدا بالمقريزى أن يورده فى آخر قائمة أسباب الشدة المستنصرية، بل إنه يزيد الأمر تفصيلاً فيقول إن من أسبابها«عدم من يزرع ما شمله الرى»[1] أى موت الكثير من الفلاحين. هذا إلى جانب ما كان يقوم به عرب لواته من نهب وسلب منطقة الدلتا.

تبدأ سلسلة مجاعات عصر المستنصر بواحدة وقعت عام ٤٤٤هـ/٥٢ـ١٠٥٣م، ولايمكن أن يكون سببها قصور النيل[2]، كما يقول المقريزى إذ بلغت زيادة النيل فى هذه السنة ١٧ذراعاً و٥ أصابع وهو حد لايمكن القول معه بأن النيل ناقص رغم تسليمنا بأن ذلك غير كاف لزراعة جميع الأراضى.

ولذا وجب البحث عن عامل آخر كان له التأثير الأقوى فى نشأة هذه المجاعة، ويشد الإنتباه

(١) المقريزى: إغاثة الأمة – ص ٢٣ . ويذكرBroklmannأن سبب الشدة المستنصرية هو الإنخفاض فى فيضان النيل، انظر Broklmann. op. cit.p. 162 ويذهب د. ماجد نفس المذهب مستشهداً فى ذلك بقوائم النيل التى أوردها أبو المحاسن فى الجزء الخامس من النجوم الزاهرة.
وتؤكد رواية القلقشندى أن مسؤولية الفيضان عن المجاعة كانت محدودة حيث يذكر أن الفيضان لم يوف خلال العامين الأولين، ثم وفى النيل فى السنة الثالثة وقام إلى الخامسة ثم نزل فى وقته فلم يوجد من يزرع لقلة الناس، وأنه وفى فى السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة. القلشندى ـ ج٣ص ٢٩٦ .
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢١٧ ، الخطط ـ ج١ص ٣٥٦.

واصحابه وجميع رعيته كان لهم عدة نسا [نساء]
لكل واحد منهم وانه لم يزل مع الملك يردعه عن
هذا ويلاطفه ويعضه [يعظه] الى ان ابعد عنه
جميع نساه ولم يبق له سوى زوجة واحدة مع ام
اولاده، وانه اجتهد في ان يخلي الزوجة ويبقى مع
ام اولاده فقط فلم يقدر فقال له قد خليت نساى
كلهم واما هذه فما اقدر اخليها ولا لى عنها صبر
لشدة محبتي لها، وانه فسح له في ذلك وتغافل
عنه خوفاً من ان ينحرف الامر معه، وانه فعل

---

أن المخازن السلطانية لم يكن فيها شئ من الغلال، فاشتدت لذلك المسغبة[1]. وأن سبب ذلك هو تغيير الوزير اليازورى عندما كان قاضياً لبضائع المتجرد أو المخازن السلطانية.

والمتجرد عبارة عما يباع للديوان من بضائع يحتاج إليها وتدر الربح أيضاً[2]، وكانت الدولة تشترى في كل عام بمائة ألف دينار غلالاً، وكان هذا الأحتياطى يوزع وقت الحاجة على الطحانين والخبازين[3] وكان وجود هذا المخزون كفيلاً بمنع التجار من التفكير في التلاعب بالأسعار[4].

ويعنى ذلك أن هذا المتجرد لم يكن هدفه الرئيسى الربح بل كان التخفيف عن كاهل الشعب وخاصة وقت الأزمات، ولكن اليازورى لم يفهم ذلك، ونظر إليه نظرة التاجر الذى يروم الربح، لا نظرة رجل الدولة المسؤول، فذكر للخليفة أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين ولربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها فتتعفن في المخازن.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ١٢٤، الخطط ـ ج١ ص ١٠٩.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ ص ١٠٩.
(٣) د. عبد المنعم ماجد: امرأة مصرية تتزعم مظاهرة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى – مقال بالمجلة التاريخية المصرية – القاهرة ١٩٧٧ ـ مجلد ٢٤ـ ص ٣٥.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٢٧٤ـ٢٧٥.

كذلك مع اهل مملكته ومقدمين دولته وساير رعيته وتركو كلهم ما كانو يعتمدو عليه من اتخاذ كثرة النسا، وسال فى كتابه ان يكتب البطرك كتاباً الى الملك واهل مملكته ووزراه ورجال دولته يعظهم فيه ويعلمـــهـم ان هذا هو الصـــواب ويمنعـــهـم من التمسك بعادات العتيقة ويذكر لهم التعاليم الروحانية من الكتب المقدسة العتية والحديثة ويشرح فيه ما يصح قوله عندهم ويقوى امره فى نفوسهم وينتفعو به فى دنياهم واخرتهم، فاجاب

---

وزين للخليفة أن يقيم متجراً لاكلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة، ولايخشى عليه من التغير فى المخازن لانحطاط سعره، فأمضى المستنصر ما رآه اليازورى واشترى للمتجر الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما إلى ذلك[1].

و لقد وجد اليازورى فى حادثة عابرة مبرراً لمشورته تلك ، إذ قام أحد باعة الخبز ببيع خبزه بسعر أقل من السعر السائد فى السوق وذلك خوفاً من كساده إذا برد، فعاقبه عريف الخبازين بمعرفة عونين من الحسبة أغراماه عشر ة دراهم. فشكا البائع ذلك إلى القاضى (اليازورى) الذى عزل العريف وكافأ البائع الذى ذهبت بعقله المكافأة، فأخذ يرخص فى سعر خبزه والباعة يتبعونه خوفاً من الكساد، فنزل سعر الخبز من أربعه أرطال بدرهم ، فخيل لليازورى أن ذلك قانون سوف يدوم[2].

إلا أن الإختيار الحقيقى لهذه السياسة التى انتخبها اليازورى تجاه المخزن كان فى عام ٤٤٦هـ/٤٥٤ـ١٠٥٥م، عندما وقعت مجاعة كان سببها إنخفاض النيل(١٥ ذاعاً و١٤إصبعاً حسب الدواداری) وصحب هذه المجاعة إنتشار للوباء بين السكان، ولم يكن فى المخازن إلا

---

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ب ج٢ص ٢٢٥.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ١٧ـ١٩.

سواله وكتب كتاباً كما يجب على اوفا مما راد وانفذه اليه مع الرسل الذى وصلو اليه بكتبه. ولما خلت عدة كراسى من اساقفتهم اقسم لهم اساقفة جدد ولم ياخذ شرطونية بالجملة وقطعها اصلا واشترط على كلمن يقسمه ان يكون نصف ما يتحصل فى الكرسى للاسقف والنصف لقلاية مارى مرقص الانجيلى عن الرسم القديم، واوقف ما يتحصل من بعض الكراسى على دير القديس ابو مقار وهى دميره وابو صير بنا ودمنهور والاهناسيه،

---

جرايات من فى القصور ومطبخ السلطان وحواشيه فقط.[1] نتيجة لتخلى الدولة عن دورها فى شراء الغلال.

حاول اليازورى أن يوقف الكارثة، ولم يكن الرجل الذى تنقصه الفطنة والحصافة، فاتجه إلى مخازن التجار فختم عليها واستولى على ما بها من الغلال، إذ كان التجار يقومون بشراء الغلال قبل حصادها من عمال النواحى مقابل ضمان التجار لسداد خراج الدولة دون أن يجهد العمال أنفسهم فى مطالبة الفلاحين ومطالبتهم بالتعجيل فى الدفع، ثم يحمل التجار الغلال إلى مخازنهم بعد الحصاد[2].

وقامت الدولة بشراء الغلال المصادرة، وأربحت التجار فى ثمنها $\frac{1}{8}$ دينار، ونقلت الغلال بالمركب إلى مصر وأودعت المخازن السلطانية، وسعر القمح كل تليس بثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير، وحدد اليازورى تمويناً لمصر والقاهرة مقداره يومياً سبعمائة تليس لمصر وثلثمائة للقاهرة، فاستقرت الأحوال لمدة عشرين شهراً حتى دخلت الغلة الجديدة فزال الغلاء[3].

(١) المقريزى: اتعاظ ـ ج٢ص ٢٢٦، وإن كان المقريزى فى الخطط(ج١ص ٣٥٦) يذكر ذلك فى حوادث ٤٤٧هـ، والأصح أن ذلك حدث فى سنة ٤٤٦هـ حسبما ذكر فى إغاثة الأمة ـ ص ١٩ـ٢٠.

(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ص ١٩ـ٢٠، اتعاظ الحنفا ـ ج٢ ص ٢٢٦.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٢٦.

وكتب كتبها وشرط فيها شروط يقويها، وسلمها للرهبان قومة الدير المذكور. واوقف ايضا نصف كرسي رشيد ونصف كرسي مصيل على بيعة القديس ماري مرقس الانجيلي وانفذ المال الذى حصل من نصف الكرس[يين]وصرفه على بناء كنيسة القديسين] باسكندرية المعروفة بالقمحا على يد «بمين» القمص لانه كان رجلا فيه خير وهو من اقرباه، واعمر كنايس كثيرة. فلما كان فى سنة ثمان ماية واثنين للشهدا اجتمع اساقفة من بحرى

---

وتحسباً لاحتمال إستمرار نقصان النيل، طلبت الدولة الفاطمية من الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع Constntine IX Nonamochos إمداد مصر بالقمح لمواجهة المجاعة التي استمرت حتى وفاة الامبراطور عام ٤٤٧ هـ / ٥٥ ـ ١٠٥٦م، فلما خلفته ابنته تيودورا Theodora اشترطت إشتراك مصر في معاهدة دفاعية هجومية مع بيزنطة، فرفض اليازورى، لأن حاجة مصر للغلال مسألة مؤقتة رهن بفيضان النيل[١].

وحاول المستنصر أن يؤدب تيودورا لمنعها الغلال، فجهز عسكراً بقيادة مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم وتبعهم بعسكر ثان وثالث، ونودى فى سائر الشام بالغزو إلى بلاد الروم[٢]. ونزل ابن ملهم قريباً من فاميّه فحاصرها وجال فى أعمال إنطاكية وسبى ونهب، فأخرج البيزنطيون ثمانين قطعة بحرية حاربت ابن ملهم وهزمته وأسر هو وجماعة كثيرة[٣].

سعى المستنصر بعد ذلك إلى إصلاح العلاقات مع دولة بيزنطة فبعث فى سنة ٤٤٧ هـ/ ٥٥ ـ ١٠٥٦م ، أبا عبد الله القضاعي برسالة إلى القسطنطينية، فوجد بها رسول طغرل بك

(١) د. راشد البراوى: المرجع السابق ـ ص ١٠١.
(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٧.
(٣) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.

واراخنه من مصر وقالو للاب القديس انبا كيرلس: انت ياابونا القديس روحانى لكن هوذا يصحبك من يفسد احوال الشعب وليس يصلح لمثل هولآ ان يصحبوك لانهم يشينوك. قال لهم: ومن هولآ الذين تكرهو صحبتهم لى، قالو له: جرجه اسقف ابطوا وابرهام اسقف دبقو ويستس الذى كان راهب وقلع الاسكيم وتزوج بامراة، وبنوب الكاتب وابو الكرم الراهب، هولآ الخمسة لا ينبغى ان يكونو لك اتباعاً. وجرى لهم معه خطوب فى هذا

---

السلجوقى، وقد أتى من العراق وسمح له بالصلاة فى مسجد القسطنطينية والدعاء للخليفة العباسى، فما كان من الخليفة الفاطمى إلا أن قبض على جميع ما بكنيسة القيامة ببيت المقدس، فازدادت العلاقات المصرية ـ البيزنطية سوءاً[1].

وصحب هذه المجاعة وباء شديد أودى بحياة الكثيرين وخاصة فى عام ٤٤٧هـ ـ ٤٤٨هـ[2] حتى إن عطاراً باع فى يوم واحد ألف قارورة شراب[3]. وقدر من مات فى مصر فى سنة ٤٤٨هـ / ٥٦ ـ ١٠٥٧م بألف إنسان كل يوم[4]. ويذكر أن ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور فوجدوا عند الصباح موتى أحدهم على باب النقبة والثانى على رأس الدرجة، والثالث على الثياب التى كورها[5].

وساعد على تفاقم الأزمة عام ٤٤٨هـ أن الأموال فى القصر خلت نتيجة للإنفاق لأجل

(١) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٣٠، وشمل الوباء والقحط بغداد والشام أيضاً. ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حيدر آباد وسمى عام ٤٤٨هـ ـ فيها بعام الجوع الكبير. انظر: الذهبى ـ تاريخ الإسلام ـ مجلد ١٦ـ ص ٢٠٠.
(٣) ابن المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ـ ج٨ص ٧٩.
(٥) أبو الفدا: البداية والنهاية ـ ج١٢ ص ٦٨.

الى ان كتبو مدرج [وثيقة] وثبتو فيه ابعاد هولآء عنه، واخذو خطه فيه بالرضا بما تضمنه، فلما مضو عنه لم يرى اعتماد برايهم على ذلك والا صار كأنه من تحت امرهم وكأنهم الحاكمين عليه، واحتشم ايضاً من ابعاد المذكورين وقد خدموه وصحبوه وصار لهم عليه خدمة فابقاهم على حالهم، الا ابو الكرم الراهب فانه ابعده لذميم طريقته.

وكان بعض الاساقفة البحريين عند قسمة هذا الاب كيرلس يعتقدو ا نه يكون مدبر برايهم ويكونو

---

تجهيز المؤيد فى الدين الذى أرسل لدعم ثورة البساسيرى الذى أقام الدعوة للفاطميين فى بغداد[1].

وقد خلط المقريزى بين هذه المجاعة والشدة المستنصرية، حيث ذكر أنها امتدت سبع سنواءت بدءاً من عام ٤٤٧هـ[2].

ولم تكن مصر وحدها هى التى تعانى من المجاعة والوباء. فقد حدث بمكة سنة ٤٤٧هـ مجاعة. بسبب اعتمادها على ما ترسله مصر من الطعام والغلال وعدم إرسال الطعام إليها فى هذه السنة وبلغ سعر الخبز عشرة أرطال بدينار، ثم اختفى الخبز، فأشرف الناس والحجاج على الهلاك، ولم ينقذهم إلا الجراد الذى ملأ الأرض فأكلوه ثم خفت وطأة الأزمة برحيل الحجاج عن مكة[3].

وفى عام ٤٤٨هـ عمّ الوباء والغلاء مكة والحجاز وديار بكر والموصل وخراسان والجبال وسائر بلاد الشام وأكل الناس الميتة فى العراق[4].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ص ٨، عن ثورة أبى الحارث أرسلان بن عبدالله البساسيرى. انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان ـ ج١ص ١٧٢ـ ١٧٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٥.
(٣) ابن الأثير: كامل ـج٨ص ٧٣.
(٤) المصدر السابق ـ ص ٧٩، أبو الفدا: المصدر السابق ـ ج١٢ص ٦٨.

مستحوذين على كل الامور لانه كان فى بداية امره
قليل العلم مثل ديمتريوس الاب الآول بل كان
كاهناً جيد لانه كان قساً فى اسكنا دير ابو مقار،
فلما صار بطركاً لم يتم لهم ما ظنوه، ولازم قراة
الكتب وتفسيرها، حتى انى دخلت اليه انا الخاطى
فوجدت تفسير الاناجيل الاربعة بين يديه، فسالته
عن كلام كثير من الاناجيل المقدسة ففسره احسن
تفسير مالا تصل معرفة اكثر الاساقفة والكهنة اليه،
ومن جملة بركاته وفضله وقدسه وما

---

واستمر الغلاء والوباء فى عام ٤٤٩هـ / ٥٧ ـ ١٠٥٨م فى العراق وبخارى وأذربيجان والأهواز، وخلت أكثر دور بغداد وسدت على أهلها أبوابها بما فيها وأهلها موتى وأكل الناس الجيف والكلاب بل والآدميين[١]. وكان سبب هذا الوباء قلة الأغذية والجوع فنبشت الأموات وأكلتها الناس[٢].

وتعرضت مصر عام ٤٥٤هـ / ١٠٦٣م لانتشار وباء الطاعون، فمات فى عشرة أشهر كل يوم ألف إنسان[٣]. ويبدو أن سبب هذا الوباء كان الإرتفاع الكبير لفيضان النيل (١٩ ذراعاً، و١٢ إصبعاً).

إلا أن كل هذه الوقائع المريرة، تتضاءل أمام جسامة أحداث المجاعة التى اجتاحت مصر لمدة سبع سنوات بدأت فى عام ٤٥٧ هـ واشتهرت هذه المجاعة باسم الشدة المستنصرية التى يقال إنه لم يحدث مثلها منذ زمان يوسف عليه السلام[٤].

وسبب بداية هذه المجاعة هو قصور ماء الفيضان ـ إلى حد ما ـ فارتفعت الأسعار وأعقب

(١) أبو الفدا: المصدر السابق – ج١٢ ص ٧٠– ٧١.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا – ج٢ص ٢٣٥.
(٣) أبو المحاسن: المصدر السابق ـ ج٥ ص ٧٤.
(٤) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ـ ج٣ص ٣٨٢ .

تفـضل الله تعـالى به على خلقـه من اجـابة دعـاه
فيهم ان مآ النيل المبارك منذ صار بطركاً والى الآن
يزيد عن حـد الوفـا، والرخـا يتـزايد والأمن شـامل
لجـميع هذه البـلاد وسـاير طرقـاتهـا وبراريهـا نهـار
وليل، فشـوش الشـيطان خزاه الله بعض اسـاقفـة
بحرى وهـم بنى الظالم وغيرهم، فاجتمعوا بيسيب
[بنامين] خـولى بسـاتين الاجل امير الجيـوش وكـان
خـصيـصاً به [مقـرباً]، ووقعـو بالاب البـطرك عنده

---

ذلك الوباء حتى تعطلت الأراضى عن الزراعة[1]. وظل النيل بعد هذه السنة يمدّ وينزل فلا يجد من يزرع[2].

ولا شك أن نزاعات الجند التى شلت يد الحكومة، وأخلّت بالأمن، هى التى جعلت من هذه الأحداث كارثة حقيقية طال أمدها إلى سبع سنوات، وبلغت أقصاها فى عام ٤٦٢هـ / ٦٩ ـ ١٠٧٠م، فعظم الجوع واشتد الوباء وانتشر السلب والنهب[3]. ولعل مـرجع ذلك الحصار الاقتصادى الذى فرضه ابن حمدان على القاهرة والفسطاط.

وخلال هذه السنوات، إنهارت القوة الشرائية للنقود، وارتفعت أسعار السلع الغذائية بشدة، حتى إن حارة بالفسطاط بيعت بطبق خبز، كل رغيف فيه بمنزل فعرفت لذلك بحارة الطبق[4]. ومثل أحد الأغنياء أمام المستنصر ليشكو من أنه اشترى أردباً من القمح بسبعين ديناراً، فنهبه منه العامة حتى لم يبق منه سوى سبعين حبة قمح، أى كل حبة بدينار واحد[5]. وهناك قصة أخرى مشابهة مفادها أن امرأة اشترت تليس دقيق بعقد جواهر قيمته ألف دينار،

(١) المقريزى: أغاثة الأمة ـ ص ٢٣.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٣٧.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٢٠، أبو المحاسن: المصدر السابق ج٥ص ٨٤.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧.
(٥) المصدر نفسه ـ ج٢ص ٢٩٩.

لاجل انه فسخ ما كانو قرروه معه، ورفعو رقاع
على يده لامير الجيوش [الأجل الافضل] في
البطرك على قضايا قرروها فيما بينهم وبين يسيب
[بنيامين] بحكم معرفته الاشياء التي تتفق على
امير الجيوش ويميل الى قبولها، وكان الاب البطرك
قد سار الى دميره بعد استيذان السلطان وكرز
كنايس في الريف واقام بها عدة شهور، فلما رفع
المذكورين فيه الى امير الجيوش انفذ اليه يامره

---

وعندما تحركت به من الفسطاط فى طريقها إلى القاهرة، وسط الحراسة المشددة التى كانت معها، هجم الناس عليها فنهبوه فلم يتبق لها سوى حفنة من الدقيق فعجنتها وشوتها فصارت قرصة حملتها وتوصلت إلى أحد أبواب قصر الخليفة ووقفت على مكان مرتفع وبيدها القرصة وصاحت: يا أهل القاهرة أدعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الله الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار[1].

وحركت الحادثة الأخيرة، مشاعر المستنصر بالله، وربما يكون قد خشى ثورة العامة عليه مع تزايد تمرد الجند وعصيان ابن حمدان، فأحضر الوالى وتهدده وتوعده إذا لم يظهر الخبز فى الأسواق بالقتل والنهب. فخرج الوالى من بين يديه وأحضر من الحبس قوماً من المحكوم عليهم بالإعدام وألبسهم ثياب التجار، ثم جمع تجار الغلة والخبازين والطحانين، وعقد مجلساً عظيماً وأحضر أحد المجرمين فقال له «ويلك ما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان إلى أن خربت الأعمال ومحق الغلا، فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية؟ أضرب رقبته» فضربت رقبة الرجل وفعل نفس الشىء مع رجل ثانٍ فخاف التجار والطحانون والخبازون ووعدوا الوالى بإظهار الغلة وإدارة الطواحين وعمارة الأسواق بالخبز مع تخفيض

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٥، أنظر: د. ماجد: امرأة مصرية تتزعم مظاهرة (مرجع سابق).

بالدخول [عليه] وان يكون صحبته جميع اساقفته يدخل الى مصر، واستدعى من تيسر حضوره من الاساقفة، فاجتمع عنده منهم بمصر سبعة واربعين اسقفاً، منهم اساقفة بحرى اثنين وعشرين اسقف، واسقف مصر، واسقف الجيزه، واسقف الخندق، واثنين وعشرين من اساقفة الصعيد وهذه اسماوهم: ابا يعقوب اسقف مصر، وابا غبريال اسقف الخندق، وابا حزقيه اسقف وسيم والجيزه،

---

الأسعار ليباع الخبز رطلاً بدرهم، فرفض الوالى ذلك السعر، فقالوا : رطلين بدرهم، فأجابهم إلى ذلك، فوفوا بعهدهم[1].

ويدل ذلك على مدى خطورة الدور الذى لعبه الإحتكار التجارى أثناء المجاعة وأهمية دور الحكومة المركزية فى معالجة الأمر.

ونظرا لسوء العلاقات مع بيزنطة منذ عام ٤٤٧هـ ، فإن أنظار الخلافة إتجهت إلى أماكن أخرى من بلاد الخلافة لاستيراد الطعام، الذى فقد فى مصر سنة ٤٦٤هـ / ٧١ ـ ١٠٧٢م ، فجاء الطعام بالمراكب من صقلية والمهدية[2] (تونس).

ولاشتداد المسبغة وطول أمدها لجأ الناس إلى أكل نحاتة النخل، بل طبخوا جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين[3]. ثم أكل الناس الحيوانات الأليفة، فبيع الكلب ليؤكل بخمسة دنانير[4]. والقط بثلاثة دنانير[5]. ولم تسلم دواب الخليفة، حتى لم يبق له سوى ثلاثة أفراس

(١) المقريزى: إغاثة الأمة – ص ٢٥ـ٢٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٧ـ٣٠٧.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـج٢ص ٢٩٧، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٣ـ٢٤، الخطط: ج١ص ٣٣٧.
(٥) أبو المحاسن: المصدر السابق ـ ج٥ص ١٦.

اساقفة بحرى يوحنا اسقف دمياط، تاودرس اسقف سمنود، صمويل اسقف تنيس، ميصاييل اسقف دمياط، تاودرس اسقف تلبانه، يونس اسقف دميره، خاييل اسقف ابو صير، يسطس اسقف صهرجت، خاييل اسقف منوف، يونس اسقف طندتا، خاييل اسقف نوسا، خاييل اسقف البرلس، غبريال اسقف نستروه، مقاره اسقف صا، مقاره اسقف بنا، تاودرس اسقف خربتا، غبريال اسقف دمنهور،

---

بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة، وحدث أن وزير المستنصر ترك على باب القصر بغلته وليس معها إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، فلم يقدر على دفعهم لضعفه من الجوع، وذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، إذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم[1].

وتعدى الأمر إلى أكل الجيف والميتات ثم لحوم الآدميين. فقد اعتادت طوائف من أهل الفساد أن تسكن بيوتاً قصيرة السقوف، قريبة من المارة، تمكنها من خطف المارة بواسطة خطاطيف وحبال أعدوها لذلك، ليقوموا بعد خطف الضحية بضربة بالأخشاب حتى يتمكنوا من تشريح لحمه وأكله[2].

ويبدو أن قصص أكل لحوم البشر ليست من نسج خيال الكتاب، إذ أورد لنا ابن دقماق

(١) أبو المحاسن : ج٥ص ١٥-١٦، المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٤.

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ـ ج٢ص ١٩ـ٢٠، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٢٩٦. وظاهرة أكل لحوم البشر لم تكن قاصرة على مصر مثلما رأينا فى الوباء والمجاعة التى اجتاحت بغداد عام ٤٤٩هـ، وكان الحصار الاقتصادى والعسكرى يدفع بالسكان إلى أكل الميتة، مثلما حدث لطرسوس التى حاصرها البيزنطيون حتى سقطت فى أيديهم عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م. انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد أبو ريدة ـ القاهرة ١٩٤٠ـ ج١ص ٨، ابن الجوزى: المنتظم ـ ج٨ص ١٧٩.

مرقوره اسقف مصيل، رفاييل اسقف سرسنى، يسطس اسقف رشيد، تاودرس اسقف اتريب، مينا اسقف البنوانين، وبقى منهم من لم يحضر لوجعه، خاييل اسقف قطور، تاودرس اسقف سنجار، بطرس اسقف دقميره، بفام وقزمان اسقفا الواحات. واساقفة الصعيد وما يليه: يعقوب اسقف اطفيح، دانيال اسقف طموه، صمويل اسقف اهناس، متاوس اسقف الفيوم، بفام اسقف القيس،

---

اسمين لزقاقين بالفسطاط لهما صلة بهذه القصص، أولهما زقاق البواقيل الذى يعرف أيضاً بزقاق الندافين حيث كان جماعة يقفون أيام الشدة المستنصرية «تحت القبو هناك فمن مربهم ندفوه ونزعوا ما عليه ورموه فى بئر هناك»، والآخر هو زقاق العكامين حيث كان «أناس يعكمون الناس باكر فى أفواههم ثم يحملونهم إلى زقاق القتلى ليقتلونهم فيه فسمى بذلك»[1]. وصارت لحوم الآدميين سلعة رائجة يقوم الطباخون ببيعها مطبوخة بعد أن يذبحوا ضحاياهم من الصبيان والنساء[2].

وربما كان أكل الجيف والميتات ولحوم البشر، هو الذى ساعد على انتشار الوباء الذى كثرت ضحاياه حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم فألقوهم فى الحفر جماعات وهالوا التراب عليهم، أو قذفوا بهم فى النيل دون أكفان[3].

ويقدر البعض أن هذا الوباء أفنى ثلثى أهل مصر، خاصة وأن الجدرى إنتشر بين الأطفال حتى أفنى منهم ٢١,٠٠٠ طفل فى شهر واحد[4].

---

(١) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ـ مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ ـ ج٤ص ١٦ـ ١٨.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ١٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣ـ٣٠٧.
(٤) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية – ص ٩٥.

بطرس اسقف البهنسى، بينوده اسقف طحا، خاييل اسقف الاشمونين، اسحق اسقف انصنا، مرقوره اسقف قوص قام [قزقام]، اندونه اسقف اسيوط، افرهام اسقف شطب، متاوس اسقف فاو [فاو]، كليدس اسقف اخميم، مرقس اسقف البلينا، قلته اسقف هو، مرقوره اسقف الاقصرين، بمون اسقف ارمنت، تاودرس اسقف اسنا، بفام اسقف اسوان، يوحنا اسقف دندرا، بدير اسقف قوص. فلما علم

---

وإزاء هذه الكوارث، اضطر الأثرياء إلى الهرب الشام والعراق هرباً من الجوع والفتن، وعلى رأس هؤلاء التجار من ابتاعوا ثياب المستنصر وذخائره وآلاته التى باعها الأتراك من خزائنه، وتركزت حركة الهجرة فى عامى ٤٦٢هـ، ٤٦٣هـ، (١٠٦٩ـ١٠٧١م)(١).

ويستفاد من المصادر التى ذكرت تاريخ ٤٦٤هـ/١٠٧١ـ١٠٧٢م كنهاية لهذه المجاعة أن الأزمة الاقتصادية إنفرجت بعض الشئ بمقتل ابن حمدان عام ٤٦٥هـ، وإن ظلت حالة البلاد فى اضطراب حتى وضع بدر الجمالى حداً لذلك بقدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ.

وفى أواخر عهد المستنصر تأخرت زيادة النيل فى سنة ٤٨٢هـ/ ٨٩ ـ١٠٩٠م فأرسل الخليفة بطرك الأقباط ميخائيل بهدية إلى الحبشة، التى أمر ملكها بفتح سد يجرى منه الماء إلى مصر، ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاث أذرع. وخلع المستنصر على البطريرك عند عودته(٢).

وفى خلافة المستعلى بالله (٤٥٧ـ٤٩٥هـ/١٠٩٤ـ١١٠١م) عانت البلاد من مجاعتين خطيرتين، أولهما كانت فى عام ٤٩٠هـ/٩٦ـ١٠٩٧م وانتشر معها الوباء (٣). ولم تذكر

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٢ص ٣٠٣، الخطط ـ ج١ص ٣٣٧، ابن الأثير: الكامل ـ ج٨ص ١٠٨.
(٢) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية ـ ص ٢٣٧.
(٣) ابن ميسر : المصدر السابق ـ ج٢ص ٣٧، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٩.

امير الجيوش باجتماعهم احضرهم الى بستانه الكبير بظاهر القاهرة فى يوم السبت الثالث والعشرين من مسرى سنة ثمان ماية واثنين للشهد الموافق لسنة خمس وسبعين واربع ماية الخراجية، فخاطبهم بكلام شديد انطقه الله به وامرهم ينظمو له مجموع قوانين الدين ويعرضوه عليه(*)، وعطف على البطرك فاكرمه وبجله وعظم قدره وامره قدامهم وتقدم له بالانصراف الى بيعته، فلما

(*) أمير الجيوش يطلب من رؤساء القبط أن يكتبوا له قوانين الكنيسة والاديرة.

---

المصادر التاريخية سبباً لهذه المجاعة ، ولكن من خلال إستقراء مقياس النيل نستطيع أن نرجع هذه المجاعة إلى النقص النسبى فى ماء الفيضان الذى بلغت زيادته ١٦ ذراعاً و٢١ إصبعاً حسب الدوادارى، وهذا أقرب للمنطق من الزيادة التى أوردها أبو المحاسن (١٧ ذراعاً وإصبعاً واحداً).

والثانية وقعت فى سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩ ـ ١١٠٠م، مع إشتداد الوباء الذى أودى بحياة كثير من السكان [١]. والسبب أيضاً هو نقص زيادة النيل (١٥ ذراعاً و١٥ إصبعاً حسب الدوادارى وهذا أكثر قبولاً من ١٨ ذراعاً و١٥ إصبعاً التى أوردها أبو المحاسن).

وعاشت البلاد مجاعتين أيضاً فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ/١١٠١ـ١١٣٠م) وقعت أولى هذه المجاعات فى وزارة الأفضل بن بدر الجمالى، ووصل سعر القمح فيها إلى كل مائة أردب بمائة وثلاثين ديناراً[٢].

وربما يرجع سبب هذه المجاعة إلى نقص فيضان النيل، حيث بلغ ١٥ ذراعاً وإصبعاً ثم هبط

(١) المقريزى: المصدر السابق ـ ج٣ ص ٢٥، الخطط ـ ج١ص ٣٥٦.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٦ـ ويذكر ابن إياس أن ثمن الأردب كان ٣٠ ديناراً (ج١ص ٦٣).

خرجو من بين يديه انفرد منهم اولك الذين كتبو الرقاع الى امير الجيوش فى البطرك وهم خمسة نفر: يوحنا، ومرقس اولاد الظالم، ويونس اسقف دميره، وخاييل اسقف ابو صير، ومقاره اسقف القيس. واجتمعو بالشماس ابى غالب بمين ابن تيادر ابن مرقوره السنجارى على عمل قوانين اخترعوها اكثرها من العتيقة واطالو فيها واكثرو منها، وعمل الاب انبا كيرلس والاساقفة الذين معه

---

الفيضان بعد ذلك فشرقت البلاد[1] .وإن كانت قوائم النيل لاتحوى فيضاناً بهذا الأنخفاض فى عهد الأمر بأحكام الله ولايوجد بالمصادر التاريخية تحديد واضح لسنة هذه المجاعة، التى وقعت فى وزارة الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتل عام ٥١٥هـ/ ٢١ـ١١٢٢م[2]. أللهم إلا إذا كانت تلك السنة التى ذكر عنها السيوطى أن القمح «عز بها ثم هان»، وهى سنة ٤٩٧هـ/٣٠ـ١١٠٤م [3]، تكون هى نفس السنة التى قال عنها ابن إياس إن الغلاء دام فيها نحو ستة أشهر، إنخفضت الأسعار بعدها وكثرت الغلال [4]. (فيضان النيل فى هذه السنة كان ١٧ ذراعاً و١٣ إصبعا).

ويرجع الفضل فى تفادى هذه الأزمة إلى السياسة الحكيمة التى اتبعها القائد أبو عبد الله ابن فاتك، الذى لقب فيما بد بالمأمون البطائحى فقد قام بالختم على مخازن الغلات، وخير أصحابها بين البيع منها بسعر ثلاثين ديناراً لكل مائة أردب، أو الختم عليها حتى الدخول الغلة الجديدة ، فأجابه بعض التجار إلى ماطلب ، ثم قام بعد ذلك بتقدير ما

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور – ج١ص ٦٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٢٢٢.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة ـ ج٢ص ١٥٤.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ـ ج١ص ٦٣.

قوانين مختصرة وكان «يسيب» [بنيامين] الخولى لبساتين السلطان المقدم ذكره قد تعصب لخصوم البطرك فى يوم حضورهم البستان عند [الأجل الافضل] امير الجيوش واظهر العناية بهم بحكم قربه من السلطان وهو الذى كان يرفع رقاعهم اليه، فعتبه بطرس احد تلاميذ البطرك على ذلك وخوفه من الاثم فيه، فجرى على التلميذ من يسيب [بنيامين] ما يكره وخاطبه بالقبيح ، وقال

---

تحتاجه البلاد يومياً من الغلال ليصرف من المخازن بالسعر الذى حدده، فانخفضت الأسعار[1].

وفى هذه السنة أرسل البطرك للحبشة بسبب نقص الفيضان إلا أن توجهه لم يفد شيئا[2].

وفى عام ٥١٠هـ/١٦-١١١٧م هبت على مصر رياح مترية دامت ثلاثة أيام، فأهلكت كثيراً من الناس والحيوانات[3].

وفى آواخر عهد الآمر، وبعد القبض على المأمون البطائحى ومصادرته عام ٥١٩هـ/٢٢-١١٢٣م ثم قتله عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م[4]. إرتفعت الأسعار حتى وصل سعر أردب القمح إلى دينار واحد[5].

(١) المقريزى: إغاثة الأمة - ص ٢٦-٢٧، اتعاظ الحنفا - ج٣(هامش٤) ص ٦٦- ٧٦. جاء في بدائع الزهور أن الوزير وقت هذه المجاعة كان المأمون البطائحى، إلا أن المقريزى ذكر أن الوزير كان الأفضل، وقال أن القائد أبا عبد الله بن فاتك، عرف بعد ذلك بالمأمون البطائحى عندما صار وزيراً . انظر: ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٢) ابن إياس: المصدر السابق - ج١ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ - ج٨ص ٣٠٥.

(٤) أبو المحاسن: المصدر السابق - ج٥ص ١٧٠.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٣٣، ويستفاد ذلك من عبارة المقريزى «وكان الناس قد ألفوا الرخاء أيام الأفضل والمأمون».

لى ابا سيمون اسقف تنيس انه لطف بيسيب ليهد
غضبه فما فعل، وتفاقم الامر بينه وبين التلميذ الى
ان خرج ابونا البطرك من البستان يسمع ماجرى
فكلم يسيب بكلام لين فلم يرعوى [يرتدع]
وجرى بينه وبين البطرك خطاب الى ان قال له
البطرك: يايسيب اذا كان لك سلطان الارض
فالمسيح سلطان السما والارض معى. ونزل عن
دابته وضرب مطانوه «ليسيب» فى دهليز البستان ،

---

ومثل المجاعة السابقة، لايوجد تاريخ محدد لها، سوى أنها حدثت فى أواخر أيام الآمر بأحكام الله [1].

ويرجح أن هذه المجاعة حدثت عام ٥٢١هـ/١١٢٧، حيث سجلت زيادة النيل أدنى مستوى لها بعد عام ٥١٩هـ، وهو ١٦ ذراعاً و١٥ ذراعاً و١٥ إصبعاً طبقاً لابن أيبك الدوادارى.

أما أول مجاعات خلافة الحافظ لدين الله (٥٢٤-٥٤٤هـ/١١٣٠-١١٤٩م) فقد كانت فى سنة ٥٣٢هـ/٣٧-١١٣٨م، فى وزارة الأفضل رضوان بن ولخشى[2]. ويحيط الشك بما ذكر عن سبب نقص الفيضان [3] فى هذه المجاعة، إذ أن النيل بلغت زيادته ١٧ ذراعاً و٣أصابع (ابن أيبك) أو ١٨ ذراعاً و١٢ إصابعاً (أبو المحاسن) وربما كان السبب هو تأخر الزيادة فقط أو عدم زراعة بعض الأراضى.

ولايستبعد أن يكون وراءها الوزير ابن ولخشى، الذى كان يحاول النيل من مركز الخليفة وتأليب الرعية عليه، فحينما أمر الخليفة الحافظ لدين الله بفتح الأهراء، والبيع منها للناس بسعر منخفض، لم يمتثل الوزير لهذا الأمر مما جعل الحافظ يسعى لقتله فيما بعد [4].

(١) المقريزى: الخطط - ج٢ص ٢٩١.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة - ص ٢٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٦٥ - ١٦٦.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٦٥ - ١٦٦.

فبكا جماعة من النصارى الذين كانو هناك لما ابصرو البطرك القديس يضرب المطانوه «ليسيب» الخولي، ولم يمتغص [يمتعض] من ذلك ولا استقال [قلل] منه. ونزل الاب كيرلس ومن معه من الاساقفه الى كنيسة الشهيد الجليل ابو مرقوره بمصر، فلما كان يوم السبت اخر مسرى مثل الذى ضرب فيه الاب البطرك المطانوه «ليسيب» الخولى انتهى الى امير الجيوش عن يسيب الخولى

---

وإن كان الوزير قد حاول علاج هذه المجاعة عن طريق تأديب محتكرى الغلال الذين يرفعون الأسعار وأمرهم بتوريد ما يحتاج إليه كل يوم من الغلال ، وأشرف على نفاذ ذلك بنفسه حتى إنخفضت الأسعار [١]. ويبدو أن ذلك الإجراء كان فى العام التالى ٥٣٣هـ/٣٨-١١٣٩م، حينما تزايد إرتفاع الأسعار حتى بلغ أردب القمح ثلاثة دنانير، واضطر الوزير كذلك إلى إخراج الغلال التى سبق أن رفض إخراجها بأمر الخليفة وإن كان ذلك بعد أن فسدت وأرادوا رميها فى النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين ديناراً كل مائة أردب، كذلك الأرز الذى يبع بعشرة دنانير المائة أردب، فوجد الناس بذلك الطعام الفاسد ما يسد رمقهم [٢].

وآخر المجاعات التى وقعت فى عهد الحافظ، كانت طويلة نسبياً، إذ استمرت ثلاث سنوات من ٥٣٦إلى ٥٣٨هـ، وصحب المجاعة وباء فى العامين الأولين وإن بلغ مداه فى عام ٥٣٧هـ/٤٢ـ١١٣٤م.

وكان ابتداء ذلك فى شهر شعبان سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م، فبلغ سعر القمح تسعين درهماً للأردب، والدقيق مائة وخمسين درهماً للحملة، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والشعير سبعة

---

(١) المقريزى: أغاثة ،الأمة ـ ص ٢٧.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا - ج٣ص ١٦٨.

ما انكره واغضبه واسخطه عليه، فركب لوقته الى البستان وامر بيسيب الخولى فضربت رقبته فى الموضع الذى ضرب له الاب القديس فيه المطانوه فى مثل تلك الساعة بعينها، فتعجب جميع الناس من ذلك وازداد الاب كيرلص عندهم جلالة وعظمة، وانتهى الخبر الى الاجل امير الجيوش فقال: حقا قد كان يترب [يدس] على البطرك وجماعته عندى ويعين خصومة عليه

---

دراهم الوبية، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم، والجبن كل رطل بدرهم، ولم يقدر أحد على شراء الدجاج لارتفاع ثمنه [١].

ويبدو أن سبب هذه المجاعة هو الإنخفاض النسبى لماء الفيضان(١٦ ذراعاً و١١ إصبعا) وهو حد وإن كان لايعنى القحط، إلا أنه يمكن أن يكون كذلك مع حكومة مركزية منهارة، وهوما كان واقعاً بالفعل، فبعد الأزمة التى أثارها رضوان بن ولخشى وانتهت بقتله، لم يستوزر الحافظ أحداً حتى عام ٥٣٦هـ/حينما بدأت المجاعة المصحوبة بالوباء[٢]. واستمرت لعامين حسبما ذكرنا سابقاً.

أما سبب إرتفاع الأسعار فى العام الثالث ٥٣٨هـ/٤٣ـ١١٤٤م فيرجع إلى خروج محمد ابن رافع اللواتى بالبحيرة على سلطة الخلافة، وإن كان قد قتل بعد عدة مواقع على يد والى البحيرة طلائع بن رزيك، وأدى هذا الاضطراب ولاشك إلى إرتفاع الأسعار[٣].

---

(١) بن ميسر: المصدر السابق ـ ج٢ص ٨٥، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط ـ ج١ص ٣٥٧.
(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ـ ج٢ص ٨٦، المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٣ص ١٧٨.

ولم يميل قلبى الى قبول قوله. واشتهر هذا الامر
حتى ان الاجـل الافضل ابن امير الجيوش كان
له شى عـلى معاملين له فى ضيعة تعرف بالبيهو
[مركـز سمالوط] فانكروه ولم يقومو به، فقال:
امـضـو بهم الى البطـرك يمسكو طرف ثوبه
وصليبه ويحلفو ويروحو ما اريد منهم شى غير هذا
لانه بالامس احرم يسيب الخولى فسخط مولاى
عليـه وقـتله . ثم ان الاجل اميـرالجـيوش امـر

---

ووقع الغلاء فى خلافة الفائز بنصر الله (٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ/ ١١٥٤ ـ ١١٦٠م ووزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ٥٥١هـ/٥٦ـ١٠٥٧م، ولايمكن القول بأن سبب هذه المجاعة إنحفاض فيضان النيل [١]. الذى وصلت زيادته إلى ١٧ ذراعاً و٨إصابع . ولعل مرد ذلك إلى إحتكار الغلال، فارتفعت أسعارها [٢].

ولجأت الحكومة إلى إخراج الغلال من الأهراء بكميات كبيرة، وفرقتها على الطحانين مع تخفيض الأسعار، ومنعت الإحتكار، كما تصدق الصالح طلائع نفسه وغيره من الأمراء ، بما نفس عن الناس، ولم يستمر الحال على ذلك سوى مدة يسيرة، حتى «فرج الله وهجم الرخاء» [٣].

وكان من أثر إتجاه الصالح طلائع إلى ممارسة الإحتكار والاتجار فى الغلال أن وقع الغلاء وارتفعت الأسعار فى عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م فى خلافة العاضد لدين الله [٤].

---

(١) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧، اتعاظ ـ ج٣ص ٢٢٩.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٣٩.
(٣) المقريزى: إغاثة الأمة ـ ص ٢٧ـ ٢٨.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ـ ج٤٤ص٣٢. والغريب أن ابن تغرى بردى يذكر أنه لما توفى الصالح طلائع مقتولاً سنة ٥٥٦هـ حزن الناس عليه لحسن سيرته ـ النجوم الزاهرة ـ ج٥ص ٣٤٥.

باحضار البطرك وجماعة الاساقفة الى مجلسه بعد ان اقامو بمصر انيف وعشرين يوم، فلما صارو ين يديه خاطبهم بكلام جميل واكرمهم وقال لهم: كونو كلكم شرع واحد ولا تختلفو وطيعو مقدمكم وكونو مثله ولا تكنزو فضة ولا ذهب وصدقو بكلما يحصل لكم كما اوصاكم المسيح، وهذه القوانين التي عملتوها ما احتاج اليها وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم انتم علمها لما بلغنى

---

## أهل الذمة المصريين فى العصر الفاطمى الاول(*)

سبق احتلال الفاطميون لمصر ارسال الدعاة الشيعة لها لكى يستميلوا مسلميها من السنة إلى جانبهم، وقد نجحوا في ذلك بشكل ساعد على سهولة غزوهم لمصر. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هناك جيوب سنية كبيرة داخل مصر خاصة ين القبائل البدوية من العرب واصحاب المصالح والعصبيات القديمة، مما دفع السلطة الفاطمية بعد استقرارها بمصر إلى التودد لأهل مصر من القبط حتى يديروا لهم دولاب الدولة.

ولقد وضح ذلك عند الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وكذلك عند الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ /٣٨٦هـ = ٩٧٥ / ٩٩٦م) الذى كان متزوجاً من نصرانية ملكانية تمكنت من رفع مكانة أخوين لها حتى صار أحدهما بطركاً على الاسكندرية فى سنة٣٩٠هـ = ١٠٠٠م. والثانى بطركاً على القدس سنة ٣٧٥هـ = ٩٨٥م.

أما فى خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ / ٤١١هـ = ٩٩٦ / ١٠٢٠م) فقد بدأت الأمور فى أول عهده كما لو أنها أستمراراً لحكم العزيز بالله ثم أخذت تتراوح بين الأضطهاد والرضى لأهل مصر من القبط. ومن الامثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد ابن ابراهيم

(*) انظر: أهل الذمة فى مصر في العصر الفاطمي الاول والثاني. تأليف: د. سلامه شافعي محمود. سلسلة تاريخ المصريين. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٥.

من بعد عهدكم بها وبقراتها. وكان يخاطبهم الهاماً من الله تعالى لانه سبحانه كان ينطقه بحكم انه ملك كما قال سليمان الحكيم: ان يد الله على قلب الملك. ثم قال امضو وصلو على. وامر احد اصحاب دواوينه وهو ابو الفضايل ابن العبيدى وقال له: اخرج معهم واكتب ثبات [كشف] بما يحتاجه كل واحد منهم ليكتب لهم المناشير بكلما يحتاجوه. فخرجو من عنده مسرورين ونزلوكلهم الى بيعة القديس ابو مرقوره

---

النصراني وقدمه على سائر الكتاب في دولته وأمرهم بطاعته، غير أنه لم يلبث أن قتله في سنة ٣٩٣ هـ = ٩٨٣م تحت دعوى ميله للنصارى واسناده مناصب الدولة اليهم، واختلاسه لأموال الدولة.

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما في سياسته الادارية، حرصا على انتظام العمل بالدواوين، وليس بدافع التعصب. فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا، ولكن قتله بسبب الأخطاء التي ارتكبها. كما أمر بقتل أبي غالب ـ أخ فهد ـ متولي ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه، ومع ذلك فان الحاكم بأمر الله أرسل في طلب أولاد فهد وخلع عليهم، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (١).

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد ـ فان أبا الفتح منصور بن مقشر الطبيب ـ وهو من المقربين إلى الحاكم ـ قد توسط للافراج عنهم، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم، وعاد كل واحد منهم إلى وظيفته (٢).

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٨٥، ص ١٨٦.

ـ ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة. مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ، ورقة ٦٦.

المذكورة وقدسو فى ذلك اليوم السبت والاحد غده وكـان لهم يومين عظيـمين لم يسـمع بمثلهـمـا، وسارو الى كراسيهم بعد ذلك وهم مسرورين. ومن بعد هذا كتب راهب يسمى فرج رقعة الى امير الجيوش يقول فيها: ان لابى السرور ابن الابح عند اسقف الخندق مال اودعه اياه فى حياته وان جميع الاساقفة ما منهم الا ومن عنده وديعة لواحد من المنافقين فان امرت بالشد منى استخلصت ذلك

---

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يعدو أن يكون اجراء وقائيا، كثيرا ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب. ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجراء بعد مقتل أبي عبد الله الحسين بن طاهر ابن الوزان (ت جمادى الأخرى سنة ٤٠٥هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤساء الدواوين، وسألهم عما يتولاه كل منهم، ثم أمرهم بالعودة إلى وظائفهم والتفانى فى عملهم [١].

ويعلق ستانلى لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة، وقسوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم. بقوله: «ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز»[٢].

وان كان البعض يقول ان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى فى مصر، وأنهم أصبحوا فى ذلك الوقت مهملين فى الدولة [٣].

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ٤١٠.
(٢) لين بول: سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن ابراهيم، طبع بالقاهرة ١٩٥٠، ص ١٣٥.
(٣) جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م القاهرة سنة ١٩٥١م . ص ١٣٥.

منهم وحملته اليك. فامر بالشاد منه وعلى يده في احضار الاساقفة فخرج واخذ من وجده منهم ولم يزل الخطاب يتردد معهم الى ان استقر على جميع الاساقفة بالاعمال القبلية والبحرية اربعة الف دينار، من إساقفة بحرى الفى دينار، من اساقفة قبلي الفي دينار. وكتب امير الجيوش منشور لفرج الراهب وجعل له فيه على كل واحد من الاساقفة بحرى في كل سنة خمسة دنانير واخذها منهم في

---

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة، وكان صبيا فى السابعة عشر من عمره، لذلك أخذ نفوذ عمته ست الملك سند النصارى القوين فى مصر يظهر من جديد ويتزايد بصورة واضحة، اذ كانت هى المدبرة لشئون الدولة وسياستها فى تلك الفترة(١).

واستطاع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له، فلقد أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وثقته فى جميع موظفى الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم فى وظيفته، غير أنه فى نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفى الدولة توخى العدل والسهر على خدمة الرعية، والقضاء على الفساد. غير أنه جد فى اصلاح الجهاز الادارى للدولة، فأجرى عملية تطهير فى كل فروع الادارة الحكومية، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب المصالح الشخصية، وأبعد كل من شك فى اخلاصه وولائه للخلافة(٢).

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١.

(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

ـ ابن القلانس : المصدر السابق ، ص ٨٣.

تلك السـنة، وقـامـو بالمال اولا فـاولا، ولزم الاسـاقـفـة بالوجـه القـبلى خـسـارة فى الجـعل خمس مـاية وخمسين دينار وتخلـصـو اجمـعين بعد [أن] نالهم صعوبة عظيمة ، وكان الاوحد بن امير الجيوش مقيم باسكندرية كما قلنا بدياً وكان من جـملة من يصـحـبـه رجل من الجند يعـرف بجمال الدولة طعان صهر تاج العرب واخوه علم الدولة ولدى [بدر] الجـمـالي [الارمنى] الـذين قـتلهـمـا اميـر الجيـوش، فـافـسـد هذا الرجل راى

---

كما كان كبار موظفى الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة. فقد كان الوزير على بن أحمد محبا للنصارى، متسامحا معهم، وحسنت العلاقة بأهل الذمة بوجه عام. وموجز القول فان خلافة الظاهر لاعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة، وهذا ما عبر عنه مؤلف سير البيعة المقدسة بقوله: «وكان فى أيامه هدوء وسلامة عظيمة... وكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين» [١].

وفى خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة. فقد سيطر النصارى على دواوين الدولة، وقد عبر عن ذلك المؤلف السابق ذكره بقوله ان «جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينه وتدبير أمورها كلهم نصارى، وهم الملاك النافذ أمرهم» [٢]. كما ازداد نفوذ اليهود فى قصر الخلافة، وقد تمثل ذلك فى أبى سعيد التسترى ـ متولى ديوان أم الخليفة المستنصر ـ وفى الدور الخطير الذى قام به فى عزل الوزير الأنبارى وتعيين الوزير الفلاحى. كما استبد التسترى بأمور الدولة وسياستها فى وزارة الفلاحى، مما دعا الفلاحى إلى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩هـ = ١٠٤٧م، ولم ينج الفلاحى من غضب أم المستنصر، فأوعزت إلى ابنها

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦١، ٦٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، ورقة ٧٥.

الاوحد فى ابيه وحسن له ان يعصيه وينافق عليه ففعل ذلك واظهر النفاق وجاهر به، فارسل اليه ابو الفرج ابن المعزى ليردعه عن هذا فلم يلتفت اليه، ثم سار أيضاً اخوه الافضل(*) وخاطبه ولاطفه وقبح عليه فعله وعرفه ما فيه من سو السمعةعنه فلم ينفع فيه الخطاب، فعاد الى القاهرة من غير ان يبلغ منه غرض، فسار اليه امير الجيوش [بدر الجمالى] بعساكر عظيمة ونزل على اسكندرية

(*) الأفضل: تولى الوزارة وامور البلاد بعد وفاة ابيه بدر الجمالى واستبد بالناس والملك وجمع فى يده كل السلطان دون الخليفة المستعلى بالله الفاطمي.وهو يمثل فى تاريخ هذه الفترة علامة تحول فى السلطة من الخليفة إلى الوزراء وفى عهده سقطت انطاكية فى=

---

بعزله، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م. كما كان لأبى نصر هارون التسترى ـ أخ أبى سعيد ـ نفوذ كبير داخل قصر الخلافة، فقد تدخل بصورة سافرة فى شئون الدولة، الأمر الذى أدى إلى اتهامه بالانحياز إلى جانب أعداء الدولة من المرداسيين، والى مصادرة أمواله ومعاقبته، ثم بموته سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م [(١)].

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولى المناصب الكبرى، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى الوزارة سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها فى السنة التالية [(٢)].

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم فى خلافة المستنصر مع أهل الذمة، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف عليهم، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة والى الاسكندرية صديقا لأقباط مصر، محبا لهم ومهتما بأمورهم [(٣)].

ومجمل القول أن أهل الذمة تمتعوا بنفوذ كبير فى خلافة المستنصر، وإذا كان قد أصابهم

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر، تحقيق هنرى ماسيه ـ القاهرة ١٩١٩م. الجزء الثانى ، ص ١ ـ ٣.
(٢) ابن ميسر: نفس المصدر، جـ٢، ص ١٥.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.

وحاصرها واقام الحرب بينهما قريب من شهرين، ثم استقر بينهما الصلح وخرج الاوحد الى ولده [والده] ودخلا جميعاً الى اسكندرية، ثم سار الاوحد عنها ونزل على [بلتاج] وبقى امير الجيوش فى اسكندرية، فاستدعى شهود المدينة ومقدميها وقال لهم: انتم ساعدتم ولدى على مخالفة السلطان وحسنتم له ذلك وقتلتم رجال السلطان وجنوده وخسرتموه الاموال. وجرت بينهم خطوب

= يد الصليبيين سنة ١٠٩٨م = ٤٩١هـ، كما استولوا على القدس في السنة التالية، و ظلت الحروب قائمة بين الصليبيين والأفضل حتى سقطت كل الشام ماعدا عسقلان التى ظلت فى ايدى الفاطميين. وعندما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥هـ، أحضر الوزير الأفضل طفل للمستعلى يدعى علياً وجعله خليفة ولقبه الأمر بأحكام الله. ومنذ هذا الوقت حارب المذهب الفاطمي مما ادى إلي قتله على يد عبدالله البطائحى الذى تولى الوزارة بدلاً منه.

---

مكروه أو تعرضوا لأذى، فقد كان ذلك في فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى النصف الثانى من عهده [(١)].

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من أهل الذمة المناصب الكبرى فى الدولة ـ وعلى رأسها منصبى الوزارة والوساطة ـ كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة، ونتائجها بالنسبة للمجتمع المصرى بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ مصر.

## الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

**يعقوب بن كلس:**

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول. وهو من أهل الذمة الذين أسلموا، ومن أعظمهم شأنا، ولذلك أهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين.

فهو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن داود ابن كلس، الوزير الكامل المكنى

(١) الأنبا ميخائيل: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٧٩.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق ، ص ١٤٠.

كثيــرة فخافو على نفوسهم، ولم يزالو يتلافو
امـرهم مـعـه الى ان اسـتـقـر على جـمـيع اهل
اسكنــدرية مـاية وعشرين الف دينار، حمــلت اليه
سوى ما صار اليه من جهة اخرى، وسار عنــها فى
شــهـر ابيب وعـاد هو وولده الاوحـد الى القـاهرة،
واقـام بهـا وهو كـالمستـوحش من ابيـه الى شـهـر
برمهات سنة ثمان ماية واثنين للشهدا، فسـعى به
الى ابيه امير الجيوش وقيل له: قد قرر مع جمـاعة
من الامرا ان يقتلوك، منهم شجاع الدولة صـاف

---

«بأبى الفرج» ولد ببغداد ونشأ بها، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب، ثم انتقل مع أبيـه من بغداد إلى الشام ليعمل بالتجارة [١]، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢م عمل وكيلا للتجارة بهـا [٢] وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر إلى مصر سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م وفى مصر اتصل بكافور الأخشيدى، حيث كان يبيعه ما يطلبه من البضائع والأمتعة، ويحال بثمنها على ضياع مصر [٣].

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصل بحيـاة أهله، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة فى معرفة الضيـاع، لذلك اتسعت تجارته وذاع صيته، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه، فعينه فى ديوان الخاص، ثم أسند إليه مهمة الاشراف على النواحى المالية فى دواوين الحكومة ومراجعة

---

(١) العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ، ورقة ٤١٨.
ـ ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠هـ، الجزء الثالث، ص ٩٧.

(2)Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid Caliphs, Vol. I. p. 17.

(٣) النويرى: نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة، الجزء ٣٦، ورقة ٤٩.

المكين صاحب بابل[مركز تلا]، ومرهف الدولة سور الملحى، وحصن الدوله صاف الحصنى، وجماعة غيرهم، فقبض امير الجيوش على جميعهم وقتلهم، وقبض على ولده الاوحد واعتقله فى خزانة [سجن] عنده فى داره وجعل فى رجليه طوبة حديد، وكان ذلك فى يوم الجمعة العاشر من برمهات المذكور.

وفى هذه السنة توفى الوزير ابو الفرج محمد

---

مستنداتها قبل عرضها عليه. وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة فى الادارة، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال: «لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا» (١).

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما، فأحضر من علمه شرائع الإسلام سرا، وفى يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م أشهر اسلامه، ولزم الصلاة، وواصل دراسته للدين الاسلامى والفقه والتشريع (٢).

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه طمعا فى الوزارة وحبا فى المنصب واشتياقا إلى الولاية (٣).

وفى عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور ـ المعروف بابن حنزابة ـ وما أن توفى كافور سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م حتى أصدر ابن حنزابة أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه. غير أن ابن كلس استطاع

---

(١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٣٢.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢٦، جـ٦، ص ٢٦.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٣٢.
ـ سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ١١ ، ورقة ١٥٢.

ابن جعفر المعزى قبل اعتقال الاوحد بشهور، واقام الاوحد فى الاعتقال سنة ونصف الى ان انتهى الى امير الجيوش والده عنه وهو معتقل امر لم نعرفه فى اخر مسرى سنة ثمان مايه وثلثة للشهدا، فقطع الطعام والما عنه خمسة ايام النسى(*)، ثم امر من دخل اليه فى الموضع الذى هو معتقل فيه فخنقه حتى مات وذلك فى ليلة النيروز.

(*) أيام النسى: هى الشهر الأخير فى السنة القبطية والمكون فى الغالب من خمسة أيام تقع بين يومى ٢٤، ٢٨ أغسطس سميت بأيام النسى. أما ليلة عيد النيروز فتوافق ٢٩ أغسطس عام ١٠٨٧م.

وكان الاب انبا كيرلس قد كتب قوانين وانفذها

---

بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالأفراج عنه، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب [(١)].

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمى قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين إليه والذين يخدمون بالبلاط الفاطمى، وعاونه فى تدبير فتح مصر، ثم جاء معه عند قدومه إلى مصر [(٢)]. أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلى أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه [(٣)]، فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة، ويتمتع بثقته لكفاءته ولمبالغته فى طاعته [(٤)].

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة فى عهد المعز لدين الله [(٥)]، بينما ترى

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤ ، ص ٥٥.
- العينى: المصدر السابق، جـ١٩ ، ورقة ٤١٩.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
- العينى: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٤) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٤٩.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
- ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤ ، ص ٥٥.
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ٣، ص ٣٥٧.

الى الصعيد وقريت فى الكنايس بمصر وساير الاعمال ، فلم تقبلها اهل الصعيد ولا تخلو عن قوانينهم، فقالو له اصحابه: انت قد انذرتهم وتخلصت من الخطية فتغافل عنهم. وفى سنة ثمان ماية واثنين للشهدا كتب سجل وقرى فى الايوان الكبير بالقصر بان تشد جميع النصارى زنانير سود، وكذلك اليهود وتكون اطرافها صفر ليتميزو عن النصارى، وان تكمل الجزية على

---

الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد العزيز بالله [1]، الا انهم اختلفوا فى تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا إلى فريقين:

فريق يرى انه تقلد الوزارة للعزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م [2]، وفريق آخر يرى انه تقلدها فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨هـ [3].

هذا بينما يحدد المقريزى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧هـ تاريخا لتقلده الوزارة[4].

---

(١) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢) النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩)، المقريزى (الخطط، جـ٢، ص٩٥، العينى (عقد الجمان، جـ١٩، ورقة ٤١٩)، أبو المحاسن (النجوم جـ٤، ص ١٥٨)، ابن ايبك (كنز الدرر جـ٦، ورقة ١١٤)، وابن العماد (شذرات الذهب جـ٣، ص ٩٧).

(٢) ابن القلانسى: (الذيل، ص ٣٢)، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١ ورقة ١٥٢) أبو المحاسن (النجوم، جـ٤، ص ١٥٨)، ابن أيبك كنز الدرر، جـ٦، ورقة ١١٤).

(٣) ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٦، ص ٢٧.
- النويرى: المصدر السابق جـ٢٦، ورقة ٤٩.
- العينى: المصدر السابق جـ١٩، ورقة ٤١٩.

(٤) المقريزى: خطط جـ٢، ص ٥.
- المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٦٨.

الجميع دينار وثلث وربع دينار(*)، وكان السبب فى ذلك قاضى يعرف بابن الكحال وهو يوميذ مستخرج الجوالى.

(*) أي حوالى دينار و$\frac{7}{12}$ من الدينار = ١,٥٨ دينار.
وهكذا كان علم الحساب في ذلك الوقت لا يرقى إلى جمع الكسور فيفصلها كما فى النص.

وكان امير الجيوش مويد فى الحروب حتى ان الغز(*) فى سنة ست وستين واربع ماية الخراجية وصلو الى صهرجت [مركز ميت غمر] فى الفى فارس مقاتلة وملكو الشرقية وعدى بعضهم الى المحله ونهبوها وقتلو اكثر اهلها، وملكو الغربية حتى

(*) هجوم الأتراك الغز على مصر.

---

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المعز قد تفانى فى خدمته وطاعته، وفى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣هـ «قلد المعز الخراج، ووجوه الأعمال جميعها، والحسبة، والسواحل، والأعشار والجوالى، والأحباس، والمواريث والشرطتين، وجميع ما ينضاف إلى ذلك، وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون» (١).

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين، وعظم منزلته في قصر الخلافة، واقبال الناس عليه، لم يترك مجالا للمؤرخين لابراز الدور الذى قام به عسلوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشرف على الدواوين مدة خلافة المعز. كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومى فى الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التى جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد المعز.

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة فى عهد المعز، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزيز بالله فى أول المحرم سنة ٣٦٧

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا الجزء الأول تحقيق جمال الدين الشيال، ص ١٤٤،١٤٥.

انتهو الى برما [مركز طنطا]، وكان مقدمهم سلار
اسمه اطسز ويعرف بالافشيش، ومعه اخوته
والمامول [العتاد] ومعهم ناصر الجيوش ابن
بلدكوش، فخرج اليهم امير الجيوش فظفر بهم
وقتلهم وانهزم الافشيش فى نفر يسير الى الشام
وقتل اخوته المذكورين وناصر الجيوش، وعاد امير
الجيوش الى القاهرة وعسكره مويد منصور فرحا
مسرور، وكان معظم عسكر امير الجيوش ارمن.

---

هـ/ تاسع عشر أغسطس ٩٧٧م وأول من خوطب بالوزارة فى عهد الفاطميين. ثم منحه العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب «الوزير الأجل»، وأمر الا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به(١).

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣هـ / أكتوبر ٩٧٣م، هو اعلان المزاد عن الضياع والأراضى وسائر وجوه الأعمال التى تريد الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام. وقد حررت العقود بالمبالغ المطلوبة على ا لأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رسا عليهم المزاد (٢).

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياته المالية، وهذه الأمور هى:

أولا، العمل على زيادة ايرادات الدولة عن طريق المزاد لكل ما تريد الحكومة تضمينه، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخراج متبعا نظام القبالات(٣) أو الالتزامات. وهو النظام المعمول به فى أنحاء الدولة (٤).

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥. (٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٣) خلاصة هذا النظام أن يتعهد شخص بجباية الضرائب فى قرية أو عدة قرى أو كور، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين، البراوى حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ٣٢.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.

فلما كان في ابيب سنة ثمان ماية وثلثة للشهد وصل من القسطنطينية الى اسكندرية مركب فيه رجل شاب له تجمل واصحاب وغلمان قيل عنه انه بطرك الارمن(*) واسمه اغريغوريس وانه ابن اخت بطركهم القديم وانه من بني سنحاريب الملك، وان خاله فوض اليه البطركية وانفذه الى ديار مصر واعطاه اعضا جليلة من اعضا القديسين وصلبان ذهب وغير ذلك، وكان قد وصل الى هذه الديار قبله راهب ارمني قديس يعرف بالمناكيس ودخل

(*) وصول بطرك للأرمن إلى مصر بسبب اعدادهم الكبيرة في جيش بدر الجمالي.

---

ثانيا: زيادة عدد الضياع المطروحة للالتزام والقبالات فى المزاد العلنى [1].

ثالثـا: تحديد وتقدير الضرائب للمتقبلين والملتزمين والضمان، وكذلك ما يصرف على الأراضى وتطهير وحفر الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم، وتأكيدا لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى [2].

رابعا: التشدد فى مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهى ماتسمى بالبواقى [3] ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت ايرادات الدولة زيادة كبيرة، وبلغ جملة خراجها فى سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م أربعة ملايين دينار [4] وتحدثنا بعض المصادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج فى يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار، ورغم أن هذا المبلغ مبالغ فى تقديره، الا أن المقريزى سيستنكر هذه السياسة المتشددة فى تحصيل الخراج بقوله «وهذا شئ لم يسمع قط بمثله فى بلد» [5].

---

(١) المقريزى: نفس المصدر، ونفس الصفحة، ص ١٤٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٨١ ــ ٨٢، جـ٢، ص ٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ٣٣٤.
(٥) المقريزى: الخطط. جـ٢، ص ٥.
ــ : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٧.

الى برية ابو مقار واجتمع ببسوس الراهب القديس
وفرح بما رآه من قدسه، ثم وصل الى اسكندرية
وجادلناه في الدين فعرفنا صحة امانته الارتدكسية
واستقامة ديانته المسيحية، وكان لابس حديد على
جسمه وفوقه مسح شعر، ورايته يوماً وقد اتوه
بشاب يعذب من شيطان كل يوم فاحضر قسيسين
ارمنيين فقرو عليه كتب وانجيل يوحنا على قصرية
[وعاء] فيها مآ واقلبها عليه فخرج الشيطان منه
وبرى، ورايته بعد ذلك عنده بالقاهرة وهو يتعلم

---

على أن أهم أعمال ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة - عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى [١]، وهو العملة التى كانت متداولة قبل مجئ القاطميين إلى مصر. اذ امتنع ابن كلس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذا ضريبة الخراج بالدينار الراضى، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى، فانحط الدينار الراضى، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر[٢].

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الاصلاح المالى الجديد ومغزى هذا الاصلاح الذى يعد فى الوقت نفسه أساسا لسياسة ابن كلس المالية.

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلى على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣م، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة فى مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التى تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه[٣]، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى [٤]. وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية

(١) نسبة إلى الخليفة الراضى العباسى.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
(٣) عبد الرحمن فهمى: موسوعة النقود العربية وعلم النميات، الجزء الأول (فجر السكة العربية)، ص ١٩٨.
(٤) البراوى: المصدر السابق، ص ٣٠٣.

ويكتب فى لوح عاقلا سليما. ثم وصل بطرك
الارمن الى مصر ولقى من امير الجيوش ملقا حسن
ونزل فى كنيسة السيدة مرتامريم الذى للملكيه
بارض الزهرى بجانب كنيسة ابو قزمان الشهيد
الجليل التى لليعاقبه عند القنطرة التى بين القاهرة
ومصر وصار ساكناً بها ومقيما فيها الى الان، ثم
اجتمع بالاب انبا كيرلص البطرك فاكرمه وفرح به
واعترف له بالامانة الارتدكسية الصحيحة التى هى
امانتنا معشر اليعاقبه بحضرة الجمع الكبير الذى

---

امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهما، بينما صرف الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف، فاضطر الناس إلى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته [١]، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها فى هذه المضاربة مشترية بالسعر الذى حددته[٢].

وكان هذا الاجراء المالى يرمى إلى زيادة مالية الدولة عن طريق الربح الناتج من فرق الوزن بين الدينارين، وذلك بسحب الدنانير الراضية ـ الأكثر وزنا والأشد نقاوة ـ واجبار الناس على بيعها واستبدالها بالدينار المعزى ـ الأقل وزنا ـ فخسر الناس من أموالهم الشئ الكثير[٣].

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة فبمجرد توليه الوزارة، أحكم سيطرته على الدواوين، ونقل مقرها من قصر الخليفة، واتخذ من داره مقرا لها، ثم أنشأ ديوان «العزيزية» يختص بشئون الخليفة العزيز، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) عبد الرحمن فهمى: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٠٢.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٤٦.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٠٤.

كان في قلاية ابونا انبا كيرلس البطرك في ذلك اليوم، واشتهر عند جميع الناس صحة اجتماع القبط والارمن والسريان والحبشة والنوبة على الامانة المستقيمة الصحيحة التي اتفق عليها الابا القديسين الفضلا وخالفها نسطور ولاون ومجمع خلقدونيه.

وفي خامس النسي سنة ثمان ماية واربعة للشهد توفي انبا يعقوب اسقف مصر وكان مدة مقامه

---

والجهابذة لادارتها والحق بها خزانة للكسوة، وخزانة للمال، وخزانة للدفاتر، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها «ناظر» للاشراف عليها(١).

ورتب ابن كلس في داره الحجاب، وحصن داره بالحرس الخاص، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة، وأفرد لكل طائفة من العلماء، والأدباء والشعراء، والفقهاء، والمتكلمين، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات ـ كما أنشأ مجلسا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها، وكان يبت فيها بنفسه، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم (٢).

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقرا لادارة أقاليم الدولة في مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب (٣)، وأناب عنه في تلك الأقاليم عمالا، وعيونا له يكتبون إليه بأخبار الولاة (٤)، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور في هذه الأقاليم من أحداث، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) فعول عليه في محاسبة العمال (٥).

(١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٥. (٢) ـــ: نفس المصدر، ص ٦.
(٣) ـــ: نفس المصدر والجزء، ص ٥.
(٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٥) علي ابراهيم: تاريخ جوهر الصقلي، ص ٧٨.

على الكرسى اربعة وعشرين سنة، وكان قبل
اسقفيته ارشي دياقن في دير ابو يحنس بوادى
هبيب ودفن في [بركة] الحبش بمصر، واجتمع
مقدمي الشعب على اختيار جماعة من الرهبان
بالديارات الى ان وقع اختيارهم على اثنين [إما]
سنهوت الشماس بدير ابو بيشيه او بمين الارشي
دياقن بدير ابو يحنس، فسيرو رجل يعرف بابى
سهل الصهرجتى اليهما، فاختفى سنهوت عنه،

---

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة إلى ابن كلس [١]، وانه كان «متمكنا من صاحبه» [٢]، وأنه «غلب على العزيز» [٣] وأنه «لم يبق لأحد معه كلام» [٤].

فما هي حقيقة الأمر؟، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس في دولة الفاطميين.

لقد تقلد ابن كلس الوزارة ـ كما سبق الاشارة ـ من أول المحرم سنة ٣٦٧هـ، ولقبه العزيز في رمضان سنة ٣٦٨هـ/ ابريل ٩٧٨م بلقب «الوزير الأجل» وخلع عليه، ثم أصدر مرسوما في المحرم سنة ٣٧٣هـ/ يونية ٩٨٣م أن يبدأ في مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات

(١) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٥، ابن القلانسى (الذيل، ص ٣٢).
سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ١٥٢)، ابن ظافر (أخبار الدول المنقطعة، ورقة ٥٤)، النويرى (نهاية الارب، جـ٢٦، ورقة ٤٩).
(٢) بيبرس الدودار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء السادس. مخطوطة مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧، ورقة ٢٧٣.
(٣) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ١٥٢.
(٤) العينى: المصدر السابق، جـ ١٩، ورقة ٤١٩.

ومضى الى دير ابو يحنس لياخذ «بمين» فوجد
سنهوت مختفياً هناك، فاخذه هو والذين سيرو معه
لاخذه ووصلو به الى كنيسة ميكاييل المختارة التى
بجزيرة مصر [جزيرة الروضه] وانبا كيرلص يوميذ
مقيم به، واجتمع الكهنة والاراخنة والشعب
فقسموه فى يوم الاحد الثانى عشر من بابه سنة
ثمان ماية واربعة للشهد وهى سنة سبع وسبعين
واربع مايه الخراجية، وكرز فى كنيسة القديس

---

النافذة عنه [١]، فكان يكتب عليها: «من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى فلان» [٢]. بل ان العزيز بالله رفع إلى وزيره رفعة سنة ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م يقول فى أولها: «سلم الله الوزير وأبقى نعمته عليه» ولم يكن ذلك الا تقديرا للرجل ومكانته. وفضلا عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياع بمصر والشام، وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريما له [٣]. كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقعمق (ت ٣٩٩هـ) صاحب المجون والنوادر[٤]، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها، فهذا جعفر بن فلاح ـ القائد المغربى ـ يكتب إلى ابن كلس قائلا:

ولى صديق ما مسنى عدم ... مذ نظرت عينه الى عدمى
أعطى وأقنى ولم يكلفنى ... تقبيل كف له ولا قدم [٥]

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م موقفا عدائيا

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٢) ابن ظافر: المصدر السابق، ورقة ٥٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) الثعالبى: يتيمة الدهر، جـ١، ص ٣٢٦، ٤٢٧.
ـ ابن العماد: المصدر السابق، جـ٣، ١٥٥.
(٥) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٤ ص ٥٩.

سرجيوس بقصر الشمع يوم الاحد التاسع عشر من بابه المذكور وكان جيد الامانة عالم طاهر فاضل متواضع مليح الكهنوة.

ولما كان فى سنة ثمان وسبعين واربع ماية الخراجية وصل اخو مطران الحبشة بهدية لم يحسن موقعها عند امير الجيوش ولا اعجبته، فلما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين منه استدعى ابا كيرلس البطرك فحضر ومعه عشرة اساقفة وابو

---

من الكتاميين ـ وهم الدعامة التى قامت عليها دولة الفاطميين ـ وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستئثاره بالسلطة والنفوذ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه، مما أدى إلى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات إلى أن يسقط المغاربة ويستخدم الأتراك والأخشيدية[١].

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة ادارية فإن الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة مايستطيع به فى الوقت المناسب وفى اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره، ليصحح خطأ أرتكبه وليعيد الأمور إلى نصابها، بل ويجرده من جميع مناصبه وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله إذا لزم الأمر.

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلس وهو فى أوج عظمته. ففى سنة ٣٧٣هـ /٩٨٣م توفى القائد التركى أفتكين، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله، ومن أخص خدمه وحجابه، مما دفعه إلى الترفع على الوزير ابن كلس ومقاطعته، فصارت بينهما العداوة والكراهية، وثارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلس ظناً منه أنه قد دسّ السم لأفتكين فأتهمه بذلك وأمر باعتقاله، وعزله من منصبه فى

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٥٦.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.

مليح مينا ابن زكريا صاحب ديوان الابواب بمصر
وكان لقبه الشيخ الاثير نجيب الدولة ومكينها، فلما
دخلو الى الاجل امير الجيوش وجدو اخو مطران
الحبشة قايم هناك ، فلما جلسو قال لهم امير
الجيوش: انتم جعلتم اخو هذا مطران الحبشة ولنا
عنده مال وقد كان بذل ان يبنى مساجد في بلاد
الحبشة ويحمل الهدايا وقرر اشيا كثير فما فعل
وانفذ شي يشبهه. وكان من جملة الاساقفة

---

شوال سنة ٣٧٣هـ [(١)]، ونقل الدواوين من دار الوزير إلى قصر الخلافة [(٢)]، ورد النظر في أمور الدولة إلى خير بن القاسم [(٣)]. ولم يكتف العزيز بكل ذلك، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومحا اسمه من الطراز [(٤)].

ولبث ابن كلس في الاعتقال عدة شهور، فارتبكت أمور الدولة، وساءت أحوالها، مما اضطر العزيز بالله إلى اطلاق سراحه سنة ٣٧٤هـ / ٩٨٤م. واعادته إلى الوزارة والخلعة عليه، كما أصدر مرسوما برد ما أخذ من أمواله وزاد عليها، واعادة اسمه إلى الطراز، وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريما له [(٥)].

ولا يعني هذا الحادث الا التأكيد على أن الخلفاء الفاطمين الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة

---

(١) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٢٨.
- النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ٢٦٢.
- النويرى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٨، ٤٩.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤.
- المقريزى: أتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٦٢.

الحاضرين افرهام اسقف دبقو المعروف بالصعيدى الذى هو اصل كل صداع، اذ كان البطرك اقسمه على دبقو ولم يدخله كرسى ولا ابصره ولا كرز فيه ولا قدس على هيكل منه قط كما يجب فى القانون، وصار كاتبه وبهذا الحكم صار مبغضاً لرياسة الكهنوت، وهو الذى كانو الاساقفة قامو عليه وامتعضو منه وكتبو مدرج بانه لا يصلح لهذا وانه واثنين اخر لا يجب مقامهم فى صحبة البطرك

---

العليا فى أيديهم، وان الوزراء مهما كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية فى الدولة، كما يؤكد أيضا ـ رغم ما يذكره مؤرخو مصر الاسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس ـ ان الوزير كان يأتمر بأمر الخليفة، وينفذ سياسته وان وزارة ابن كلس كانت وزارة تنفيذ، ولم تكن وزارة تفويض. ولقد حرص ابن كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له، كما حرص دائما على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان يحاول أعداؤه الوشاية به والطعن فيه [١].

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا الحركة العلمية فى العصر الفاطمى الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا أسرة النعمان ـ التى أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعى ـ فى تدريس وارساء مبادئ الفقه الشيعى [٢]. فقد ألف ابن كلس وصنف «الرسالة الوزيرية»، وهى كتاب فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيل، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه من الخليفتين المعز والعزيز، وكان هذا الكتاب من المراجع التى

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦.
(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الأصر عن قضاة مصر، القسم الثانى. تحقيق د. حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١)، ص ٤٠٩.

لما ظهر من طريقتهم الردية، واخذو خطه كما قلنا
فيما تقدم . فاقلب هذا افرهام رايه وقال له كيف
ترضى ان تحكم عليك الاساقفة حتى وقعت
الخصومة بين البطرك وبين الاساقفة؟. وكتبو فيه
الرقاع، وهو كان السبب فى جميع الاساقفة وما
جرى عليهم، وهو الى الان معكس جميع امور
الاب البطرك لانه راهب قديس، وكلما نالهم من
شقاق وخلف. فقال افرهام المذكور للاجل امير

---

يعتمد عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التى كان يدرسها الفقهاء[1].

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر، اذ يذكر المقريزى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءآت، وكتاب فى الأديان، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة [2].

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثاء، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى، يتناظرون بين يديه، وكان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزيز التف حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه[3].

وبذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته. فكان يجلس فى يوم الجمعة، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه [4].

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٧٣ .
ـ المقريزى: الخطط ، جـ٢ ، ص ٥ ,٦ .
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ٢ ، ص.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢ .
(٤) ـــــ: نفس المصدر.

الجيوش يا مولاى هذا المطران ما اصلح الا بامرك،
فقال له تكذب انت وهذا الشيخ. يعنى البطرك
فسكت الجمع، ثم قال امير الجيوش: يجب ان
تسيرو اسقفين حتى تبنا المساجد فى بلاد الحبشة
وتقام الدعوة وتحمل الهدية وتقرر الهدية على هذا
خمسون سنة ولا يقررو هدية هم بالخيار، وقد صارو
يقطعو فى تلك البلاد على المسلمين التجار
وغيرهم الطريق فيمنعهم البطرك من ذلك والا فانا

---

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم (١).

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية، ولذلك امتدت اليها يد الاصلاح والتعمير، وتحت اشرافه ادخل كثيرا من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط. وفى هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (٢). كما اتخذ من جامع الحاكم، وهو الجامع الذى وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب الاسماعيلى، واجتمع فى ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان يجرى بالجامع الأزهر (٣).

وفى العصر الفاطمى الاول اشتهر الجامع الازهر كأعظم جامعة علمية اسلامية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الوزير العالم يعقوب ابن كلس. ففى سنة ٣٧٨هـ = ٩٨٨م وافق العزيز باله ـ بناء على اقتراح ابن كلس ـ على تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية ومركز للدراسات

---

(١) ــــــ: نفس المصدر.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٦، ٢٤٨، ٢٤٩.
ـ خطاب عطية: التعليم فى العصر الفاطمى الأول (القاهرة ١٩٤٧م) ص ١٠٠، ١٠١).
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٧٦.

اعرف ما افعله، فقال الاب البطرك: يا مولاى ايش لى انا فى قطع الطريق انا [لست] خفير، فامر ان يقام [يطرد] هو والاساقفة فاقيمو من المجلس على اقبح صفة، وامر باخو المطران يحبسوه فاعتقلوه فى خزانة البنود، وامر ان تكتب اسما الاساقفة الذين حضرو فلما كتبت اسمايهم خرج اليهم حاجبين موكلين عليهم بدينارين كل يوم حتى يكتبو الى ملك الحبش ويقررو مسير اسقفين منهم،

---

الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيلى، وعين بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء، وخصص لهم الرواتب الشهرية المجزية، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكناهم، وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الاسبوعية عقب انتهاء صلاة الجمعة وحتى صلاة العصر، وبالغ العزيز فى تكريم هؤلاء العلماء، فبذل لهم العطايا، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوان البغال تقديرا لهم، ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقدم لهم الصلات والمنح كل عام مكافأة وتشجيعا لهم [1].

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر، وخصص لهم الرواتب الشهرية، واهتم بزيادة اعداد الكتب والمؤلفات، فعين كتابا لنسخ الكتب ومراجعين لمقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفاظا على التراث [2]. كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون اليه، فأسس مسجدا بداره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ

(١) ـــــ: نفس المصدر، ص ٢٧١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٦٤.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

فنزلو والترسيم معهم الى كنيسة السيدة المعلقة بمصر، وكان الاب البطريرك يعطيهم كل يوم الجعل يدفعوه للمترسمين ولم يدعهم يخسرو شي. وكتبو الكتب وقررو مسير مرقس اسقف وسيم والجيزه وتادرس اسقف سنجار، وكان قد نال بنى المعمودية خوفاً عظيم لشدة هيبة امير الجيوش وما جرى منه على الاساقفة الى ان لطف الله سبحنه بوصول هدية حسنة من عند باسل [باسيل] ملك

---

لخدمتهم، ودعا إلى مائدته أهل العلم ووجوه الكتاب، وأقام مثل هذه المأدب فى شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فاذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب(١).

ونافس الوزير ابن كلس قاضى القضاة على بن النعمان القيروانى فى نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضى وأحكامه الفقهية بالدرجة التى جعلت القاضى ابن النعمان يبطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير فى التقليل من شأنه وأهميته (٢). كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التى لا تنحو نحوا شيعيا، وكان نصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الاعدام، ونصيب مؤلفاتهم الحرق أو الاهمال(٣).

وبوفاة ابن كلس سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م فقدت الدولة الفاطمية واحدا من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهد وافر فى رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية.

(١) المقريزى: نفس المصدر والصفحة.
(٢) ابن حجر: المصدر السابق، ص ٤٠٩.
(٣) القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥.
- خطاب عطية: المصدر السابق ، ص ٩٦.

النوبة ومعها ولد الملك الذى كان قبله وتوفا ليجعله البطرك اسقفاً، لان عادتهم اذا مات الملك لا يجعل ولده ملكاً عوضه بل يجعل ابن اخته(*)، فاستدعى الاجل امير الجيوش الاب البطرك ابا كيرلص القديس والعشرة الاساقفة المذكورين فى يوم الاربعا السابع والعشرين من امشير، فدخلو اليه وهم خايفين فامرهم بالجلوس واكرمهم . واكرم البطرك وادناه وطيب قلبه وخاطبه بجميل، واحضر

(*) حول نظام وراثة سلطة الملك فى مملكة النوبة.

---

**عيسى بن نسطورس:**

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمى أحدا الوزارة بعد ابن كلس، وانما أنشأ منصبا جديداً هو منصب «الوساطة» (١).

ويأتى عيسى بن نسطورس فى مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت فى تاريخ تقليده الوساطة(٢) ، الا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلس المتوفى فى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م بين كبار رجال دولته، وعهد بادارة الشئون المالية للبلاد إلى عيسى بن نسطورس وهو نصرانى من أقباط مصر (٣)، ثم ما لبث أن رفعه الى منصب الوساطة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها، «وخاطب سائر

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٣٨.
- أبى السرور البكرى: عيون الأخبار ونزهة الأبصار، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا، ورقة ١٤٧.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٩٠.
- العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢١.
(٣) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٥.

اخو المطران، واتفق للوقت ان رفع اليه تاجر من المسلمين رقعة يشكو فيها انه قطع عليه الطريق فى بلاد الحبشة واخذ ماله، فاحضره بحضورهم واستفهم منه قضية حاله فانطقه الله تعالى بان قال اخذ مالى فى بلاد الحبشة وقبض الملك على سورس المطران قبل ان يوصلنى الى حقى، فقال له امير الجيوش: اذا كان المطران قد قبض عليه فكيف يقدر يوصلك الى حقك ومع هذا فالملك

---

الكتاب عن العزيز، وخاطبه سائر الأولياء وكافة الناس فى مهماتهم وتوقيعاتهم» [١]. كما عين العزيز بالله منشابن القزاز اليهودى نائبا له على الشام [٢].

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الحازمة، وكفاءته الادارية، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج [٣]. ويرى الانطاكى أن ابن نسطورس «رسم أيام نظره رسوما جائرة، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه» [٤] بينما يقول Mann «وكان عيسى قاسي القلب مرابيا، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب» [٥].

**فهد بن ابراهيم:**

ويأتى أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى ـ وهو من أبناء ريف مصر ـ كواحد من كبار موظفى الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها فى سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التى تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧هـ/

---

(١) ا لمقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٨٣.

(2) Lane-Poale : AHistory of Egypt in the Middle Ages, p. 119.

(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

(٤) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٠.

مقنصل ببلاده. ثم إلتفت الى اخو المطران وقال
له: كان اخوك قد شرط لنا على نفسه ان يبنى فى
بلاد الحبشة اربع مساجد وما فعل. فقال له: يا
مولاى قد بنا [ المطران] فى المواضع التى استطاع
البنا فيها سبعة مساجد وامرها مشهور والحبشة
هدموها وارادو يقتلوه وان الملك لما بلغه هذا قبض
على المطران واعتقله، فقال الاجل امير الجيوش:
مبارك. ثم قال للبطرك والاساقفة: ايش

---

٩٩٧م[1] إذ عول برجوان على كاتبه أبى العلاء فهد بن ابراهيم فى النيابة عنه ولقبه بالرئيس، فقام بتدبير أمور الدولة وأحكم سيطرته عليها[2].

وأبدى فهد نشاطا كبيرا فى خدمة برجوان، فكان يجلس فى الدهليز الأول بقصر الخلافة فى عهد الحاكم بأمر الله ينظر فى الشكاوى والتظلمات للبت فيها [3]، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة، «فيخرج الأمر بما يكون العمل به»[4].

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبى العلاء فهد[5]. ولما ازداد نفوذ برجوان، واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة، قتله الحاكم فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ [6].

وبعد قتل برجوان استدعى الحاكم بأمر الله أبا العلاء فهد ابن ابراهيم وأمنه، وقال له:

---

(1) Mann: Op. cit., Vol I, p. 19.

(٢) الانطاكي : المصدر السابق، ص ١٨١.
(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، جـ٤، ص ٥٩.
(٤) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص٣.
(٥) ابن القلانسى: المصدر السابق ، ص ٥٤.
(٦) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٨٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣.

فعلتم. فقالو: قد كتبنا الكتب قبطي وعربى فامر
من شيت يقراها ويفسرها بين يديك. فقال: انتم
عندى ثقات وانا اراعيكم واوثركم اكثر من جميع
النصارى فمن يسير منكم بهذه الكتب مع كتابى
ورسولى. فقالو: هذين الاسقفين. واشارو اليهما
فنظرهما وقال: مبارك. وامر لهما بنفقة، وامر
الحاجبين الذين كانا مترسمين على الاساقفة ان
يرتفعا عنهما ولا يعترضا لهم وطيب نفوسهم

---

«أنت كاتبى، وصاحبك عبدى، وهو كان الواسطة بينى وبينك، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه، فجازيته عليها بما استوجبه، فكن أنت على رسمك فى كتابتك، آمنا على نفسك ومالك»[1]. ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم: «أن هذا فهدا، كان أمس كاتب برجوان عبدى، و هو اليوم وزيرى، فاسمعوا له وأطيعوا، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم، وتوفروا على مراعاة الأعمال، وحراسة الأموال»، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يدى الحاكم، وأجابوا بالسمع والطاعة [2].

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة فى خلافة الحاكم بأمر الله، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية فى الدولة، الا أن حديثه الذى وجهه إلى كبار موظفى الدولة كان أمراً صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه فى تنفيذ سياسته الجديدة.

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر، ولقبه بقائد القواد، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة. فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة

---

(١) ا لمقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، الجزء الثانى، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، ص ٢٦.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٦.

واكرمهم وخرجو من بين يديه مسرورين شاكرين
لله تعالى، وحكى لى بعض الثقات الخيرين ان
الاجل امير الجيوش قال فى كتابه الى ملك الحبشة
«ان لم تفعل كذا وكذا وإلا هدمت البيع التى
بارض مصر»، فكتب اليه الجواب يقول: «اذا
هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب
مكة وحجارتها جميعها واوصلته اليك كله ومتى
ضاع منه طوبة واحدة انفذت اليك وزنها ذهب».

---

وينظران فى الأمور، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة. غير أن فهد لقى حتفه فى ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله[١].

وتتضارب الروايات فى أسباب مقتل فهد. فيرى مؤلف «سير البيعة المقدسة» أن الحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد، وحرق جسده لأنه لم يجبه إلى اعتناق الإسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع [٢]. وبينما يرى ابن القلانسى أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العداس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبى طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم، وأشارا إلى الثروة التى جمعها، وما اقتطعه لنفسه من اقطاعات عديدة. ووعد الرجلان الحاكم بأمر الله بالعمل بدلا منه أن تخلص منه، على أن يقوما بتوفيرمبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه[٣].

**منصود بن عبدون:**

هو واحد من كبار رجال أهل الذمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة، وتولى ديوان الشام

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٥.
ـ المقريزى: الخطط جـ٢، ص ١٣، ١٤، ٣٠.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
(٣) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٩.

وكان من امر ابو الطيب سهلون ابن كيل الظالم وظلمه للناس ومصادرته لهم واعتقالهم فى خزانة البنود وتسليط ابو الحارث كاتب الخزانة عليهم وحثه على عقوبتهم بانواع العقوبة ما هو مشهور معلوم، وكان يوميذ يتولى ديوان المجلس ويجلس في قبة الخراج بالقصر السعيد، فاخرجني ابو الحرث يوماً من الاعتقال واوقفنى بين يديه، وقال لي: قد ضجرت مما يقول لى الشيخ ابو الطيب ابن

---

قبل توليه منصب الوساطة في مصر، ووصف بأنه «كان رجلا نصرانيا خبيثا جلدا» [(١)]. وقد اشتهر بمقدرته الادارية والمالية، ولمع نجمه في دواوين الحكومة وأصبح مقربا من قصر الخلافة[(٢)] في الحادى عشر من صفر سنة ٤٠٠هـ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبدون النصرانى في منصب الوساطة وقرئ سجله على الحاضرين [(٣)] ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب «الكافي» [(٤)]، و كتب له سجلا بذلك... وحمل على بغلتين تكريما له [(٥)]. كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر في أمور الدولة [(٦)] فجد ابن عبدون فى جمع أموال الدولة ومواردها مماجعل الحاكم بأمر الله يمتدحه بقوله:

«ما خدمني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون، ولقد جمع لى من الأموال ما هو

---

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٦١.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٤) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٦٩.
(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٦) ـــــ: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

الظالم، عاقب موهوب ابن مفرج السكندرى
وولده وزوجته وابو الخير ولد ابو السرور ابن الابح
الى ان يقومو للسلطان بماله الذى كتبو خطوطهم
به. وحلف لى على هذا ايمان عظيمة ان المذكور
حثه على هذا دفعات كثيرة، ثم حلف ابو الحارث
قايلا لى: ان لم تحضر الى عشية هذا النهار كذا
وكذا وذكر دنانير كثيرة لا قدرة لى عليها لاعاقبن
والدك قدامك فى هذه العشية. فقلت له : يا

---

خارج فى أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار [١]. وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه «ديوان المفرد» تودع فيه الأموال المصادرة لمن يغضب عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بأمر الله مصادرتها[٢].

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون فى رابع المحرم سنة ٤٠١هـ / ثامن عشر أغسطس سنة ١٠١٠م لكيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من شحناء، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر فى تحريض الحاكم بأمر الله عليه، بالدرجة التى جعلته لا يكتفى بعزله، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أعماله وحساباته، ثم اعدامه فى الشهر التالى، ومصادرة أمواله [٣].

**زرعة بن عيسى بن نسطورس:**

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبدون، عين أحمد بن محمد القشورى الكاتب فى

(١) ـــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٥٢.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٨.
ـ ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦٢.
ـــــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٤، ص ٨٥.

مولاى هو مطروح وقد قارب الموت لشدة ما ناله منك من العقوبة فان أنت استدعيت به مات.
فاعاد القسم وكان اذا اقسم يفعل ما يقسم عليه، وعلمت ان الذى قاله عن ابن الظالم صحيح للمشهور من سو افعاله معى ومع غيرى، وكان هذا الخطاب غداة يوم الاثنين التاسع والعشرين من برمهات سنة اربع ماية وثمنين الخراجية. ثم اخرج معى رجلين لاطوف واحصل الدنانير التى التمسها،

---

منصب الوساطة. الا أنه فى اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله، وعين مكانه الكاتب النصرانى زرعة بن عيسى بن نسطورس، وأنعم عليه فى سابع ربيع الآخر من تلك السنة بلقب «الشافى»[1].

وظل زرعة فى منصبه حتى وفاته فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ. وكان قد استطاع بحسن ادارته ومهارته السياسية أن يحوز على ثقة قصر الخلافة، كما كانت علاقته وطيدة برجال الجيش وكتاب الدولة[2].

**صاعد بن عيسى بن نسطورس:**

يعتبر صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد فى هذه الأسرة يلى الوساطة، اذ سبق أن تولاها أبوه عيسى، ثم أخوه زرعة من قبل. وقد تولى صاعد الوساطة فى آخر شوال سنة ٤٠٩هـ، وظل فى منصبه حتى قتل فى رابع ذى الحجة من تلك السنة [3]. وعندما أسندت اليه الوساطه لقب «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذواليدين»[4].

---

(١) القلقشندى: المصدر السابق، ص ٣، ص ٤٩٠.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٦.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ١١٤.
(٤) المناوى: الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى، القاهرة ١٩٧٠، ص ٥٠.

فنزلت الى مصر وقصدت كنيسة الست السيدة المعلقه بقصر الشمع وطلعت الى حيث صورتها، فوجدت هناك ابو الفتح ابن رفاييل الكاتب وكان هو ايضاً مطالب مثلي، فبكينا بين يديها وقلنا: مثل هذا اليوم بشرك الملاك غبريال بخلاص بني البشر، وفي مثل هذا اليوم نحن نسالك لا تغفلي عنا. وكان كثير على هذا ابن الظالم بمصر والقاهرة والريف وكل موضع لاجل ما فعله مع

---

**ابو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاحي:**

تولى الوزارة في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الإسلام وخلع عليه في الحادى عشر من رمضان سنة ٤٣٦هـ خلفا للوزير الحسين بن على الانبارى. وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب، ذلك أنه في أيام الحاكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودى أحدهما أبو نصر بن سهل التسترى وكان يحترف الصيرفة، والثانى أبو سعيد (أبو سعد) ابراهيم وكان يشتغل بالتجارة، وكانت أم المستنصر بالله جارية سوداء، اشتراها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله من أبى سعيد ابراهيم، وأنجب منها ابنه المستنصر [١] ولما صارت الخلافة إلى ولدها قدمت أبا سعيد، وما لبث أن أصبح ناظرا لديوان أم الخليفة ومن المقربين إلى المستنصر، وعلى صلة وثيقة بأمه التى كانت ذا نفوذ عظيم فى أوائل حكم ابنها[٢].

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢ ص ١.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) ناصرى خسرو: سفرنامة د. يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٥، ص ٦٤.
- ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص١.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩٥.
- على حسن الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية، ص ١٦٢.

بنى المعمودية وغيرهم، وكذلك ابو الحارث ايضاً فاظهر الله فيهما اعجوبة للوقت، وبينما نحن فى الكنيسة المذكورة تواصلت الاخبار من القاهرة بالقبض على ابن الظالم وابو الحارث واعتقالهما فى دار شمس الدولة كمش، فنالنا وجميع الناس سرور عظيم، ولما كان غداة يوم الاربعا اخرجا على جملين إلى خارج باب النصر وصلبا على صاريين ورميا بالنشاب حتى ماتا، وقبضا على اخوته

---

وحدث أن تولى الانبارى الوزارة، وساءت علاقته بأبى نصر وأخيه أبى سعيد التسترى الذى شكا إلى أم الخليفة فحرضت ابنها المستنصر ضد ابن الأنبارى لعزله من الوزارة، وتعيين أبى صدقة ابن يوسف الفلاحى مكانه [1].

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التسترى ونفوذه بصورة رهيبة، اذ أشرف على الفلاحى الوزير، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ [2].

وبايعاز من أبى سعيد التسترى، وبتحريض منه، استطاع الفلاحى أن يكيد للأنبارى الوزير السابق، ويتهمه بالاختلاسات المالية، وينتقد سياسته السابقة، حتى تمكن منه، فقبض عليه وصودرت أمواله، ثم قتل [3].

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطاع أن يتخلص من أبى سعيد فحرض الجند الأتراك عليه، فاتهموه بدس السم لقائدهم ريحان، وقتلوه ثم مثلوا بجثته، وذلك فى الثالث

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١.

ـ السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، القاهرة ١٣٢٧هـ. جـ٢، ص ١١٦.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٥٤، ٤٢٣.

الاسقفين يوحنا ومرقس وشددوهما للعقوبة حتى كتبا خطوطهما بالفي دينار، وخرجا ومعهما مترسمين في كل يوم بخمسة دنانير، واقاما مدة لم يحملا الى امير الجيوش الا خمس ماية دينار بعد ان اخذو منها المترسمين ستماية دينار جعل[اتاوة]، ولما وقف امرهما ودخلا الى مصر امر الاجل امير الجيوش باعتقالهما في حبس الشرطه بالقاهرة، ولم

---

من جمادى الأولى سنة ٤٣٩هـ/السادس والعشرين من أكتوبرسنة ١٠٤٧م، وبهذا انفرد الفلاحي كلية بأمور الدولة. الا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف، فأمر بتعيين أبي نصر التستري ـ أخ أبي سعد ـ خزانة الخاصة، وعين ولد أبي سعد في أحد الدواوين [١].
كما أن أم المستنصر حقدت على الوزير الفلاحي وثارت عليه، لاعتقادها أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل أبي سعد، ولم تزل تدبر له الدسائس وتكيد له، حتى قبض عليه، واعتقل في خزانة البنود، وانتهى أمره بقتله في الخامس من المحرم سنة ٤٤٠هـ/العشرين من يونيه سنة ١٠٤٨م[٢].

**ابو على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى:**

تولى الوزارة في الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦هـ. وكان الرجل يهوديا، ثم اعتنق الاسلام وحفظ القرآن [٣] وأسند اليه الأشراف على بيت المال قبل أن يلى الوزارة. وعندما تقلد منصب الوزارة لقب «بعلم الكفاة» وقد ظل في منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧هـ[٤].

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢.
(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٨٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٢.
(٤) السيوطي: المصدر السابق، جـ٢، ص ١١٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

يزالا فيه مدة طويلة الى ان سيل فيهما فافرج
عنهما وخرجا الى كراسيهما على عادتهما.

وبلغنى عما جرى قديماً ما يجب ان اذكره وهو
ان كتاباً وصل من الخليفة ببغداد الى الاستاذ كافور
الاخشيد، وهو يوميذ والى مصر جرياً وخراجاً،
امره ان يعمل تقدير بارتفاع [عوايد] مصر وما
معها وجميع نفقاتها لسنة واحدة، فعمل فاشتمل
على جملة مبلغها ثلثة الف الف ومايتى الف

---

**أبو سعد منصور بن أبي اليمن بن سورس بن مكرواه بن زنبور**

كان أبو سعد منصور واحدا من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة. وقد كان أبوه ناظر الريف وهو على دين النصرانية، وظل ولده هذا على دينه، فلما تقلد الوزارة اعتنق الإسلام، وخلع عليه[1]، غير أن النصارى ينكرون اسلامه [2]. وقد تولى الوزارة أياما قليلة، ولقب بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف عميد الخلافة محب أمير المؤمنين». غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطمأنهم، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة لرواتب الجند[3].

## إزدهار الصناعات والفنون على يد المصريين فى الفترة الفاطمية

مما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد

---

(١) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦.
(٢) ابن ميسر: جـ٢، ص ٣٣.
(٣) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٦، ٢٦٧.
ـ مشرفة: المرجع السابق، ص ١٤٢.

ونيف وسبعين الف دينار، وعمل النفقات والكساوى فكانت ازيد من الارتفاع بمايتى الف دينار، فاحضر كافور وزيره الذى هو ابن كلا [يعقوب بن كلس][*] وقال له: ما الذى يجب ان نفعل فى هذا العجز، فاشار عليه ان يحطه من واجبات ارباب الرواتبماية الف دينار ويزيد فى ضرايب المكوس ماية الف دينار ليصير ارتفاع السنة سوى بسوى. فلما خرج من عنده احضر كافور

(*) يعقوب ابن كلس ٣١٨ - ٣٨٠هـ= ٩٣٠ - ٩٩٠م.
يعقوب ابن يوسف ابن ابراهيم ابن هارون ابن كلس، أبو الفرج: وزير، من الكتاب الحساب. ولد فى بغداد. سافر به أبو ه إلى الشام ثم انفذه إلى مصر فاتصل بكافور الاخشيدى، فولاه ديوانه بالشام ومصر. كان يهوديا فأسلم فى =

---

الأجنبية، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى [١]، هذا فضلا عن اهتمام الدولة بالاشراف الدقيق على هذه المصانع [٢] وأهتمامها بتوفير الخبرة المدربة، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الذين كانوا يعملون بها [٣]، كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية. ويذكر ناصرى خسرو على سبيل المثال: «أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسائة دينار ذهب مغربى»، مكافأة له لدقة صنعتها وجمال منظرها [٤]، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى فى النهاية إلى زيادة الانتاج وحسن الصنعة[٥].

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظرا لما يجبى عليها من ضرائب[٦].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩، ٤٠.
(٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣١.
- سميكة : دليل المتحف القبطى، جـ١، ص ١١٨.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٤٣.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٥) زكى محمد حسن: المصدر السابق، ص ٨٠.
(٦) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.

الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا المومن النصرانى الناظر فى اعمال مصر، وهو الذى تقدم ذكره فى سيرة الاب افرهام البطرك، وقال له: قف على هذا العمل وشير على بما افعله من الصواب والعدل من السلطان للخلق. فقال: سمعت بخبره وفهمته وما يجوز لى كلام فيه. فالزمه واقسم عليه بان يقول ما عنده واعلمه بما اشار به الوزير ابن كلا[س]، فقال: اما انا فقد الزمتنى واستحلفتنى

= ايامه سنة ٣٥٦. ثم هرب إلى المغرب فخدم «المعز» الفاطمى سنة ٣٦٣. وفى سنة ٣٦٨ لقبه المعز بالوزير الاجل. ثم جاء مصر فى خدمة العزيز ابن المعز فولى وزارته. كان يعقد المجالس فى الجامع العتيق ويشرح المسائل الفقهية على حسب المذهب الفاطمى. توفى فى ايام العزيز.

---

وقد ساعد توفر خامات النسيج فى مصر على ازدهار هذه الصناعة، فالكتان تتوفر زراعته فى ريف مصر، والصوف المصرى يتوفر فى مناطق الفيوم وأخميم، وأسيوط لكثرة تربية الأغنام فى تلك المناطق(١).

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج، وأنتج النساجون الاقباط أفخر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التى ليس فى «جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة» (٢)، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقى أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة (٣)، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التى صنعت بها، فهناك الثياب التنيسية، والشطوية، والدمياطى، والدبيقى (٤) والشرب الاسكندرى (٥)، والقماش القيسى والبهنساوى(٦).

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
(٣) المقدسى: المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.
ـ ناصر خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٥، ص ٧٩.
(٥) المقريزى : الخطط ، جـ١، ص ١٦٢.
(٦) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٢، ١٣٤.

ان اذكر ما عندى فانا اقول بحسب ما يلزمنى من نصحك ان الذى اشار عليك بان تحصر ارزاق ارباب الرواتب الذين هم فى عول الله سبحنه وفى عولك فقد اغرى بك واراد قبح السمعة عنك لان الله اجرى ارزاقهم على يديك فمتى فعلت بهم هذا قطع بك، واما ما اشار به عليك من الزيادة فى ضرايب المكوس المستقرة فالذى اسس اصل هذا وفرعه قد عرف مقعده فى جهنم لان احداث



اناء من صنع اسيوط.

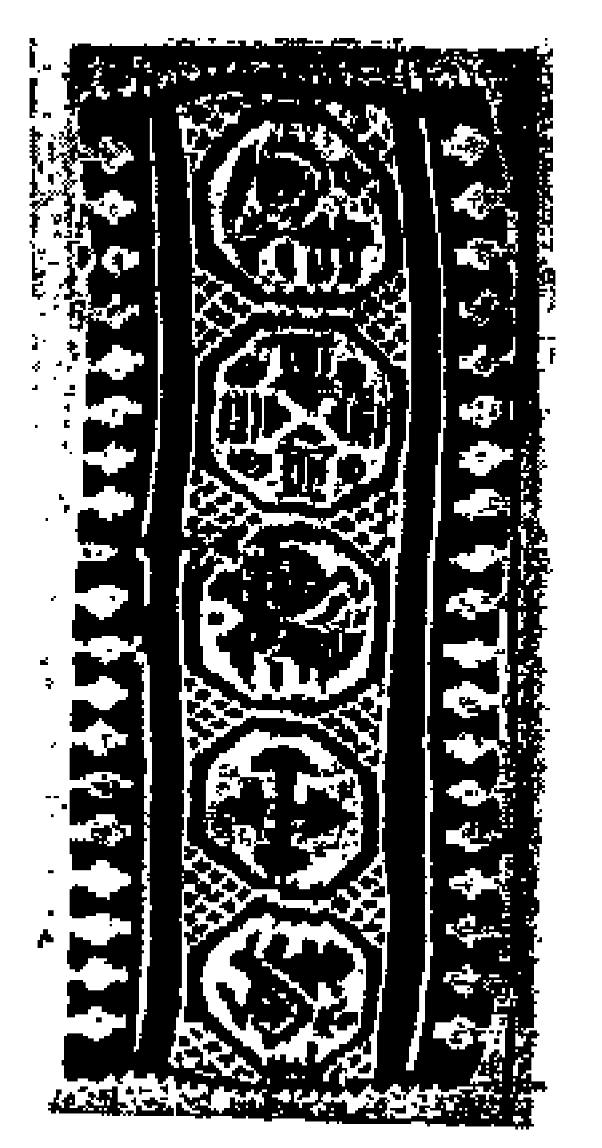
---

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا «بحسن زيهم ولطافة صناعتهم»[١]، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن الصناعية الكبرى فى ذلك العصر. ولا يبالغ ناصرى خسرو عندما يذكر «أن السلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على ان يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون»[٢]، وهما من أهم وأفخر منسوجات تنيس.

واذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التى كانت تضم حوالى الخمسين ألف نسمة من السكان[٣] وآلاف المناسج، فماذا عن دمياط التى كانت «أحذق صناعا وأرفع بزا، وأنظف عملا»[٤].

وأما أسيوط فكان يصنع بها «عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم»[٥]، هذا بينما كانت تصدرمنسوجات أخميم إلى أقصى البلاد»[٦].

(١) أبن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨.
(٤) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٧٠.
(٦) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٣.


نسيج مصرى من العصر الفاطمى.

الرسوم يبعد من الله. فاعجبه قوله وعرف نصحه له وكان خصيصاً به، فلما اتاه الوزير ابن كلا[ س] ثانى يوم امر حاجب الحجاب بالقبض عليه وان يعاقبه الى ان يقوم بالعجز من ماله، وقال له: اردت ان تسى سمعة المقصوص [اى المحكى عنه] وتقبح سيرته فى خدمة مولاه. ثم وقع توقيع بان يوضع من اصول الضرايب الثلث من المكوس، وامر الشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا ان يذيع ذلك

---

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم الا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التى أنتجتها آلاف المصانع التى عمل بها الصناع الأقباط ومنها:

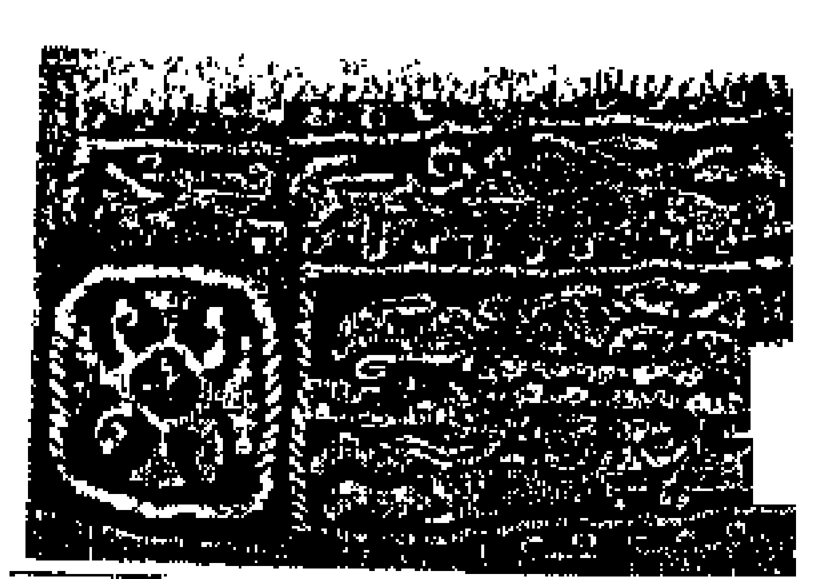
**الدبيقى:**

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب إلى قرية دبيق، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التى كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل(١)، كما كانت الثياب الدبيقية من أهم منسوجات مدينة أسيوط التى غلب على سكانها الأقباط (٢).

ولشهرة الثياب الدبيقية (الدبيقى) أطلق هذا الاسم على منسوجات أخرى مثل الدمقس والنسيج الحرير المشجر والثياب الكتانية، ولجودة الثياب الدبيقية أطلق هذا الاسم على احدى قرى بغداد اسم دبيقية، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من انتاج مصانع دبيق المصرية ليقبل الناس على شرائها (٣).

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٢٥.
ـ البراوى : المرجع السابق، ص ١٣٢.

فى ساير ديار مصر، ففعل ذلك وكتب به الكتب وانفذها الى جميع البلاد، فزاد الارتفاع فى تلك السنة اربع ماية الف دينار. ودعى على الوزير ابن كلا فى مكة ودعى فيها للشيخ ابو اليمن قزمان ابن مينا، وكتب لعنة الوزير المذكور على الحيطان.



سجادة مصرية من الفترة الفاطمية.

وكان بالقاهرة رجل سريانى يعرف بابن الطويل فسكن هو وجماعة من السريان معه فى الحسينية التى بظاهر القاهرة المرسومة بسكن الارمن

---

القصب:

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة، وكان ينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودوقايات ومما يلبس النساء، ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس[1]، أما القصب الأبيض فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط، ويبلغ قيمة الثوب الأبيض وليس فيه ذهبا ثلاثمائة دينار[2].

الشرب:

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابى، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر، واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة أجود أنواع الشروب الفاخرة[3].

كما كان الصناع الأقباط يصنعون بدبيق العمائم الشرب المذهبة وفيها رقمات (رسومات) منسوجة بالذهب. وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة فى خلافة العزيز بالله الفاطمى سنة

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٢٢٥.
(٢) ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص ٥٣، ٥٤.
(٣) ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٤٣.
ـ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول ، ص ٨٧.

العسكرية، فامر امير الجيوش بان لا يسكن فى
الحسينية الا الارمن فقط، فاخرج منها ابن الطويل
السريانى والسريان الذين معه، فوقف لامير الجيوش
برقعة يساله فيها ان ينعم عليه بكنيسة ياوى فيها
في دير الخندق من الكنايس الخالية التى هناك هو
والسريان الذين معه، فاجاب سواله وامر انبا
غبريال اسقف الخندق باجابته الى ما طلبه، فدفع
له كنيسة هناك على اسم بولا ابن يسطس الشهيد

---

٣٦٥هـ/ ٩٧٥م [١]، وكان فى «ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب، كل زنة درهم فضة، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة» [٢].

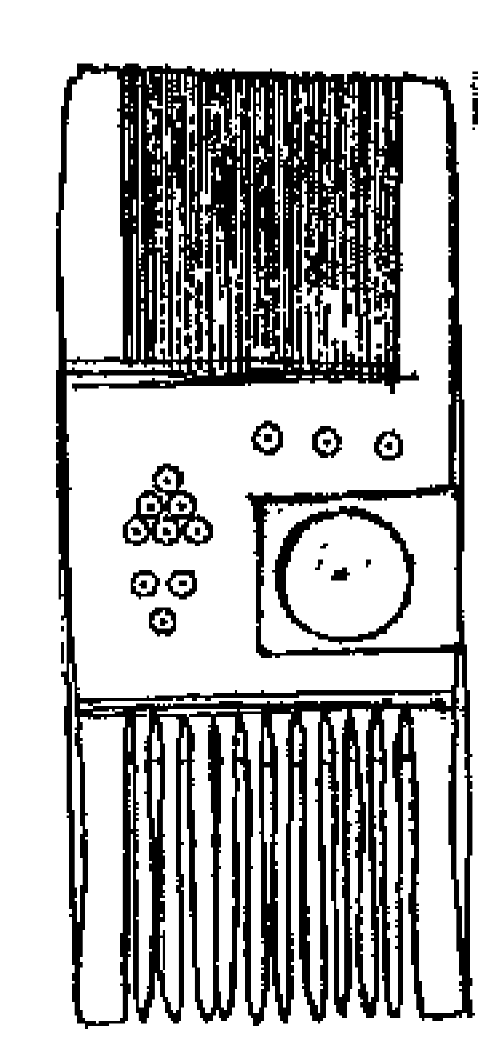
**البدنة:**

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذى كان يصنع للخلفاء، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا فى صنع ملابس الخلفاء، ولا يدخل فى هذا الثوب من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير أو قيتين، وفيه من الذهب أربعمائة دينار، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة إلى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق، ويبلغ قيمة الثوب الألف دينار [٣].

وكان ثياب البدنة ينسج فى مصانع الحكومة، ولا يصرح ببيعه، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشترى بدنة فأرسل أعوانه إلى تنيس بعشرين ألف دينار لكى يحصل على ثوب من البدنة، فمكثوا بتنيس عدة سنوات، ولكنهم فشلوا فى الحصول على بدنة واحدة من كسوة الخلفاء [٤].

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ١ ، ص ٢٢٦
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ١ ، ص ١٦٢.
(٣) كتاب الاستبصار: ص ٨٧.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق ، ص ٣٨.


مشط من الخشب لنسج الصوف.

وجسده فيها، وكان فى هذا الدير كنيسة على اسم ابو مقار فجعل فيها الاسقف المذكور قرط [برسيم] لدابته، فمضوا جماعة من الارمن ووقفو للاجل امير الجيوش برقعة وقالو فيها ليس لنا بيعة نصلى فيها وفى دير الخندق عدة كنايس لاصحابنا اليعاقبة وهى مغلقة لا يحتاجو لها ولا يصلو فيها وقد جعل اسقفها احدتهن مخزناً للقرط، فانفذ امير الجيوش وكشف عن ذلك فوجده حقاً كما قالو، فامر

---

**القباطى:**

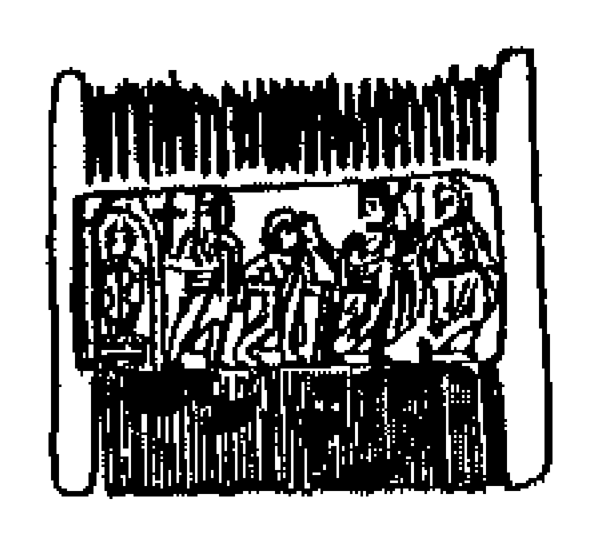
وهو نسيج من الكتان أو التيل، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطى، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نسبة إلى قبط مصر الذين اشتهروا بمهارتهم فى صناعة النسيج [1]، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة[2].

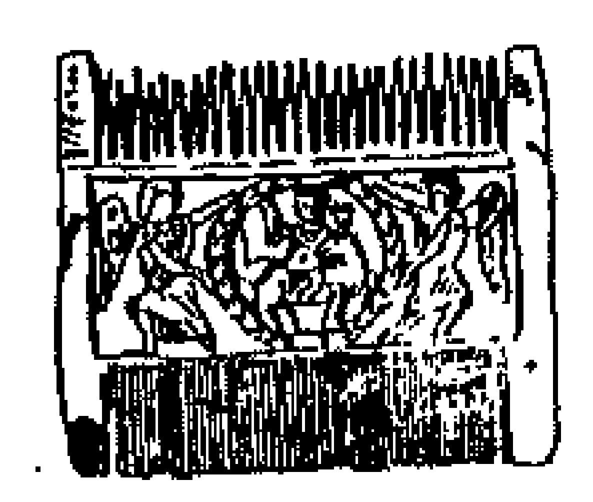
**البوقلمون:**

أحد أنواع المنسوجات التى اشتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج فى تنيس ، ويذكر ناصرى خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج فى مكان آخر فى ذلك العصر آلا فى مدينة تنيس. وهذا القماش يمتاز بألوانه البراقة، ويظهر فى ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار، وكان يصدر إلى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه[3].

(1) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام، ص ٣٤٩.
(2) بيبرس الدوادار: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ٢٩٠.
(3) ناصرى خسرو: المصدر السابق ، ص ٣٨.

الاسقف ان ينقل القرط ويدفعها لهم ليعمروها ويصلو فيها فاخذوها. وهي الان باقية بايدى الارمن يخدموها ويصلو فيها، واظهر الله فيها عجايب كثيرة على يد شهيده مارى جرجس وفى غيرها من الكنايس التى على اسمه. منها انه قيل عن رجل بدوى من بنى خلاف دخل كنيسته بدملو [مركز قوسنا] ووقف يحارب صورته فقتله للوقـ[ـت ومات]. وفى كنيسته بديرابو يحنس





امشاط خشبية للشعر.

---

**العتابى:**

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغدادحيث كانت تنسج العتابية، ثم استحدث هذا النسيج فى مصر وصنع فى عصر الفاطميين [١].

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين إلى تلك الدول، ومجئ التجار الأجانب إلى مصر أثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد إلى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى. ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات، مثل الخسروانى، والطميم، والأرمنى، والكردوانى والسندسى، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى[٢].

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام [٣]، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز والاسكندرية بالحرير السكندرى [٤].

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحيكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف

(١) البراوى: المرجع السابق، ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٤.
(٣) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٤١٨.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٣٦.

بوادى هبيب غابت صورته عنها بسبب غلام باعه يوحنا الراهب بعشرة دنانير حتى اعادها الشماس على الراهب واخذ الغلام فعادت الى كيانها. [وفى ] بيعته بدير العسل [مركز المينا] ظهر فيها عجايب كثيرة حدثنى بها بنى خصيب يطول شرحها، وظهر فيها نور فى اليوم الثانى من هتور عند عبورى بها، وبيعته التى فى برنبال من اعمال ابوان عجايبها كثيرة مشهورة، وبيعته بقطور [مركز

الفارس المصرى. نسيج صوف

---

والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية، وكذلك أفخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم [1].

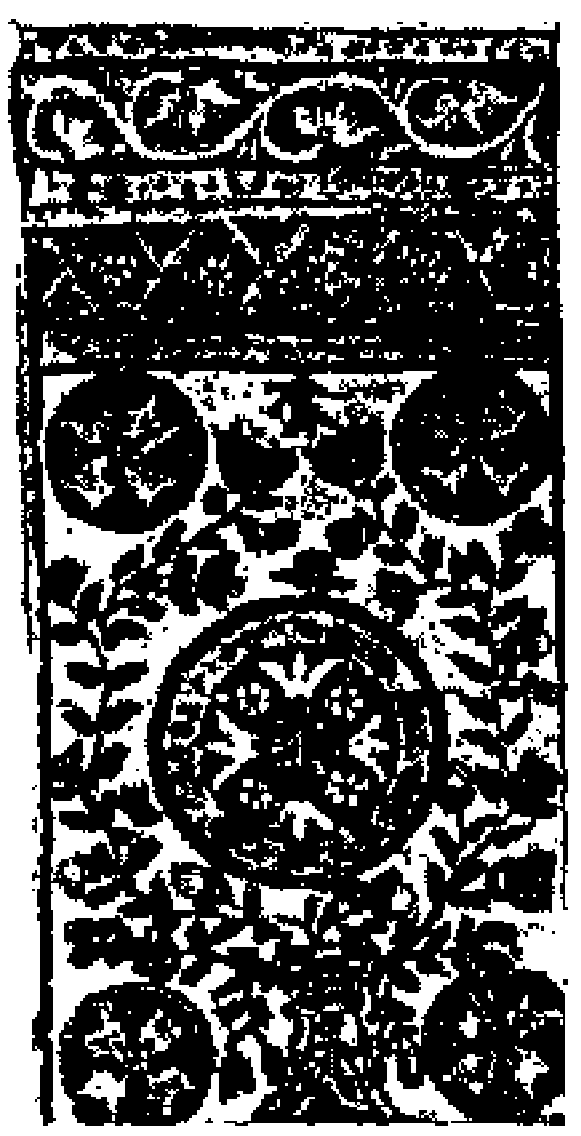
واذا كان الخلفاء الفاطميون قد أنشأوا دور الطراز «مصانع النسيج» فى كثير من المدن المصرية، وأنهم استخدموا الصناع الأقباط فى هذه الدور، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التى يستعملها القبط[2].

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة فى العصر الفاطمى الأول، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الحريرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبنى والأخضر. وكانت الوحدات الزخرفية هى بعينها تلك الوحدات التى كان يستعملها النساج قبل العصر الفاطمى، وكل ما هنالك من فرق هى أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقى الذوق وتقدم الفن [3].

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية [4]، على

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١٨.
(٢) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨.
(٣) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٦.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٣٨.

طنطا] الكثيرة العجايب، وحكى لى عبد المسيح القس الدهتورى [الدهشورى] انه مضى اليها وطلع الى صورة مارى جرجس وقطع راس فتيلة القنديل ووقف ينتظر القيم يأتيه بسراج ليقدها وانه نزل على البيعة نوراً ابيض فى ثلثة مواضع ووقد الفتيلة. وعجايبه كثيرة جداً لا تحصى ولا يقدر احد يشرحها على كيانها لكثرتها رزقنا الله شفاعته وبركات صلاته فانها جليلة مقبولة.



سجادة من الصوف.

---

نساجي هذا العصر كانوا أميل إلى استخدام صور الحمامة فى زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا فى وضعها، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره إلى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط، وأن هذا الطائر كان محببا اليهم، ويرمزون به إلى الروح القدس(١).

وكان الاتجاه العام فى زخرفة المنسوجات فى بداية العصر الفاطمى الأول يرمى إلى العناية بالزخارف الخطية التى كانت تمتاز بجمالها وتنوعها، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة، ثم تأتى زخرفة الرسوم فى المحل الثانى، الا أنه فى خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا فى الإتساع، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا. فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة، فرسمت الزخارف أكبر فى الحجم من الكتابة، فوضع النساج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل(٢).

واستمر التأثير القبطى فى الزخرفة على المنسوجات قائما، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجرى / الحادى عشر والثانى عشر الميلادى إلى أن كانت السيادة للخط

(١) مرزوق: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) ـــــ : نفس المرجع، ص ١٢٢.

وانا اذكر ما رايته في بيت المقدس وغيره وهو المقبرة والاقرانيون بالقدس المحروس، وراس القديس الجليل مارى مرقس الانجيلى باسكندرية، وجسد القديس ساويرس بدير الزجاج، وجسد القديس مارى جرجس فى كنيستـه التى [فى] بلد من اعمال فلسطين تحت المذبح. وفى الديارات بوادى هبيب الثلثة ابو مقارات(*). وبهما ابسيت وزينون الملك وولده وبويحنس وبوبيشا، وابو كما وابو

(*) الثلاثة بو مقارات هم: ابو مقار الكبير، ابو مقار القس، ابو مقار الراهب.

---

النسخ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها، وصارت أشكالا تقليدية لا تمت إلى الطبيعة بصلة كبيرة (١).

وكانت أسماء الخلفاء تنسج فى الأقمشة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت فى عهدهم، وشارة من شارات الملك، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته واشارة إلى رضاء الخليفة عنه (٢).

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره فى الطراز تكريما له (٣)، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل فى دار الطراز، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه(٤).

**(ب) الصناعات الخشبية:**

بلغت الدقة فى الحفر على الخشب والصناعات الخشبية مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط فى عصر الفاطميين، اذ كانت الريادة فى هذا الميدان لأهل البلاد من القبط(٥).

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ٢٨.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٧، ١١٨.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٤.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص١٣٩.
(٥) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
ـ على حسنى الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية، ص ٢٢٩.

موسى ويعقوب الفارسى المقطع وقبر الأريا وابو بولا وطلما[*]. وفى دير برماوس اصبع مارى سويرس. وباسكندرية ايضاً قبور اليشع النبى وارميا النبى وبطرس المعترف ودم بطرك اسكندرية بطرس الشهيد واثار مارى مرقس الانجيلى وقبور جماعة من الشهدا، وفى دير سنجار جسد تكلة الرسوله العذرى وجسد فيلاتاوس الشهيد. وفى مصر جسد القديس اباهور [باهور] واخته مهرابيل. وجسد ابو

(*) طلما : هى طمويه حيث تسمى كنيسة القديس بول باسم بول الطمولى.

---

ونظرا لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوربا [١]، وذلك عن طريق تجار أمالفى وجنوة والبندقية[٢]، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى، أما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان، كما استوردت مصر خشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو [٣] فمصر بالرغم من ندرة الاخشاب بها إلا أنها قدمت أروع الاعمال الفنية الخشبية عبر التاريخ ويكفى أن نذكر هنا تمثال شيخ البلد المشهور. ويمكننا أن نسحب نفس القول على الذهب وما صنع منه فى مصر.

وبرع الصناع المصريون فى استخدام الأخشاب وبخاصة فى عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من حشوات جميلة [٤]، بجانب تصنيع كافة الأثاثات الفاخرة والتحف الخشبية الرائعة.

ونقش الصناع الأقباط نفس الزخارف التى نراها على خشب الجوامع والأثاث. ففى

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.

(٢) عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م، غير مطبوعة ، ص ١١٠.

(٣) حسنين ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ٤ ، ص ٣٩٤.

(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٠.

يحنس بسنهوت الشهيد وبرباره القديسة، وفى دير الخندق جسد ابو بوله ابن يسطس، وفى دير ابو شنوده اخميم اجساد التلميذين برتلوماوس وسمعان القانانى من جملة الرسل الاثنى عشر وابو شنوده الاب القديس، وفى دير الشمع جسد ببنوده الشهيد الجليل، وفى اسيوط جسد اكلوده الشهيد فى كنيسة مارى بقطر وقبر ابو يحنس فولوبس وجسد بفام، وفى دير ابو السرى الذى فى شطب

---

المتحف القبطى قبة مذبح أصلها من كنيسة المعلقة، وعلى جزئها السفلى عقود وصلبان فى فروع نباتية محفورة حفرا دقيقا تذكر بالزخارف الجصية فى الجامع الأزهر، مما يدل على ازدهار صناعة الحفر على الخشب ابان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من المصريين.

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الاعجاب فى عصرى الظاهر والمستنصر وانتجت أيدى الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقى فى عصر الفاطميين(1).

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها: النقوش البارزة، والنقوش بطريقة التفريغ، وثالثة بتعشيق الخشب وتطعيمه بالعاج، ورابعة بالخرط، كما كانوا أيضا مهرة فى التطعيم بالعاج والصدف، وطريقتهم فى ذلك أن ينقشوا قطعة العاج أولا على انفراد، ثم يثبتونها فى اطار من الخشب قبل تركيبها فى الموضع المعد لها(2).

ومن أبدع الأمثلة الباقية للتحف الخشبية ـ الحفر على الخشب ـ فى بداية العصر الفاطمى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة بمصر القديمة ـ وهو معروض الآن بالمتحف القبطى

---

(1) ــــــ: نفس المصدر، ص ٢٠٧.

(2) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

جسد الشهيد تادرس الامير قاتل الثعبان وهروفس الاسقف معه على دكة فى بيت المذبح، وفى طمبدى جسد الشهيد ابا بيما فى ديره، وفى دير ابا نوب انيف وستين راهب شهدا، واثارات سيدنا المسيح ووالدته القديسة [مريم] بديار مصر فى عدة مواضع منها كنيسة المعلقة بمصر وكنيستها المعروفة بالدرج بمصر ببنى وايل، وفى بسطه ومَنية طانا وسموسه وجبل الكف ودير بسوس



قطعة من النسيج مصور عليها الشهيد تادرس قاتل الثعبان.

---

بالقاهرة وهو يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا، والزخارف المحفورة متنوعة الموضوعات لطيور وحيوانات مفترسة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص، يتخلل تلك الزخارف صلبان، بجانب تفريعات نباتية تشكل مع غيرها من الرسوم وحدات زخرفية كاملة، وتعتبر حشوات هذا الحجاب أجمل ما بقى من صناعة خشبية فى العصر الفاطمى، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر فى الخشب على يد الصناع من القبط فى عصر الفاطميين(١).

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التى شاعت فى الحفر على الخشب فى بداية العصر الفاطمى مستمرة خلال القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وفى مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التى عثر عليها فى مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتى يرجع تاريخ تصنيعها الى العصر الفاطمى الأول، نرى زخرفة حافلة بالرسوم

(١) ــــــ: نفس المرجع، ص ١٤٧.
ـ ديماند : المرجع السابق، ص ١١٩.
ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام، ص ٤٥٢.
ـ ــــــ: كنوز الفاطميين، ص ٢٠٤.



حفر على الخشب يمثل ميلاد المسيح.
كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

والاشمونين وفيلس وقوصقام [قوزقام] وجبل اشنين [مركز مغاغه] والمحرقه[مركز منفلوط] ومنها عاد الى مصر، وفى قفط ابو امسا، وفى الخصوص دير مارى بقطر الشهيد، وفى انصنا جسد القديس ابو قلته وشهدا كثير، وفى سمسطا ابو هروده الشهيد وفى قبلى ابو تيج جسد ابو بيشه الشهيد، فى كنيسته ومعه جسد يسه الشهيد وهما تابوتين، وفى اهناس ابو هليا الشهيد، وفى «قوص قام» ابو

---

المختلفة، لكن الحفر والرسوم فى تلك المجموعة أقرب الى الطبيعة، وأكثر اتقانا من مثيلها فى أوائل العصر الفاطمى وأقرب الى الواقعية، ونرى تأثير الأسلوب القبطى فى الفن واضحا كما هو فى استخدام الرسوم الآدمية والحيوانات والطيور (١).

واذا كان الكثير من الصناع الأقباط برعوا فى الصناعات الخشبية، فانه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية(٢).

فاذا ما انتقلنا الى الريف فاننا نجد أن المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم النجارون من القبط، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادى/ الثانى عشر الهجرى (٣)، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية فى صناعة ما يلزم الأهالى والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية (٤)، والى عهد قريب كاد أن يكون كل نجارى القرى المصرية من الأقباط (٥).

---

(١) ديماند: المرجع السابق، ص ١١٩، ١٢٠.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٥٩.
(٣) سمكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.
(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٥) سميكة : المرجع السابق، جـ١، ص ١٤٥.

هليتس الشهيد [أبو هلياس] وفى دير غربى قوص ابو بسنده، وغربى الدير عين ما، وفى دفرى [مركز طنطا] ابو اسحق الشهيد، وفى البنوانين ابكرجون. هذا ما رايته وتباركت به انا الخاطى واضع هذه السيرة سو مالم اراه مما يطول ذكره.

وحكى لى ابو البدر بطرس ابن مقاره ان صبى راهب لحقه عارض فى البهلس ببرية ابو مقار افلجه واخرسه، فحملوه الى القديس بسوس بدير ابو



حفر على الخشب يمثل العشاء الأخير.
كنيسة أبو سرجه ـ القاهرة ـ

(ح) صناعة المعادن والعاج:

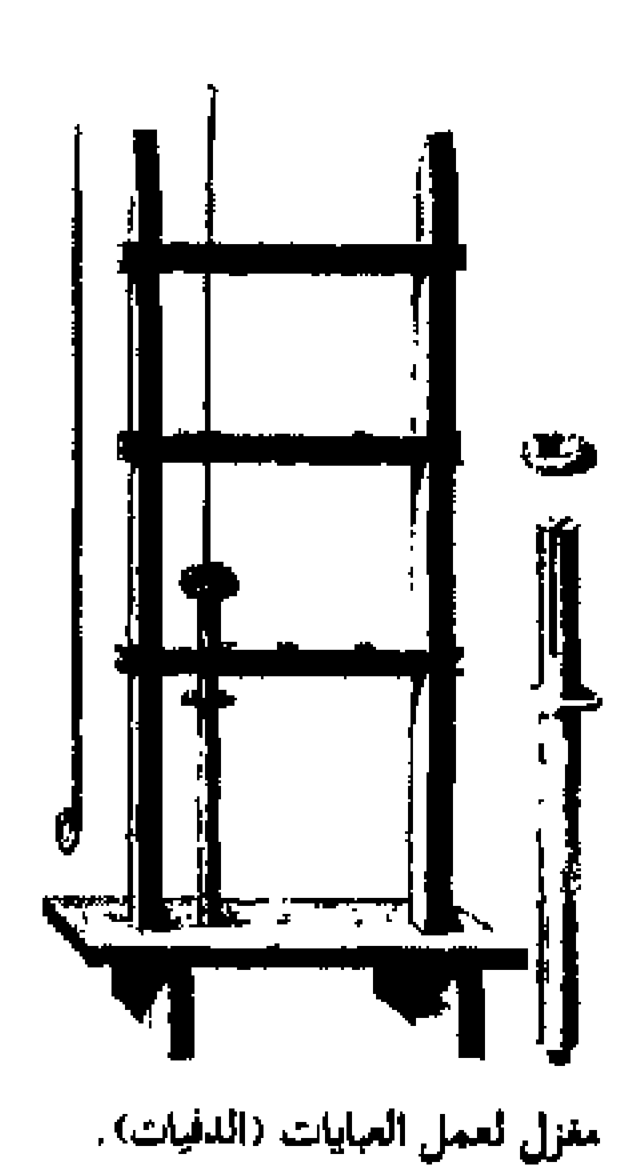
برع المصريون فى صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها اذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التى عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة، هذه الصناعة التى بلغت أرقى درجات الفن والجمال فى القرنين الرابع والخامس الهجريين. فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتى ترجع إلى عصر الفاطميين.

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصة الأقباط مهارتهم الفائقة فى استخدام الذهب والفضة فى صنع أدوات الترف والحلى والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وكثير من التحف التى رصعت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها ورقيها فى ذلك العصر(١)، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة.

وكثر استخدام النحاس فى صناعة الأوانى والأدوات المنزلية، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية فى خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى

(١) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٨٩، ٩٠، ٩١.
ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.

كما فجعله في كنيسة السيدة التي في الجوسق واقام عنده ثلثة ايام ، فذكر الصبي انه ابصر ثلثة شخوص خارجين من باب الهيكل فقالو اثنين منهم للاخر وهو مقدمهم اقضي حاجة بسوس في هذا الصبي، فدفعه برجله وقال له قم فقام الصبي صحيحاً مسوياً متكلماً، وللوقت ناداه بسوس من اسفل قبل ان يراه قايلا يا فلان انزل فنزل الصبي يسعى اليه وقد برى وسجد على رجله وتحدث بما


مغزل لعمل العبايات (الدفيات).

---

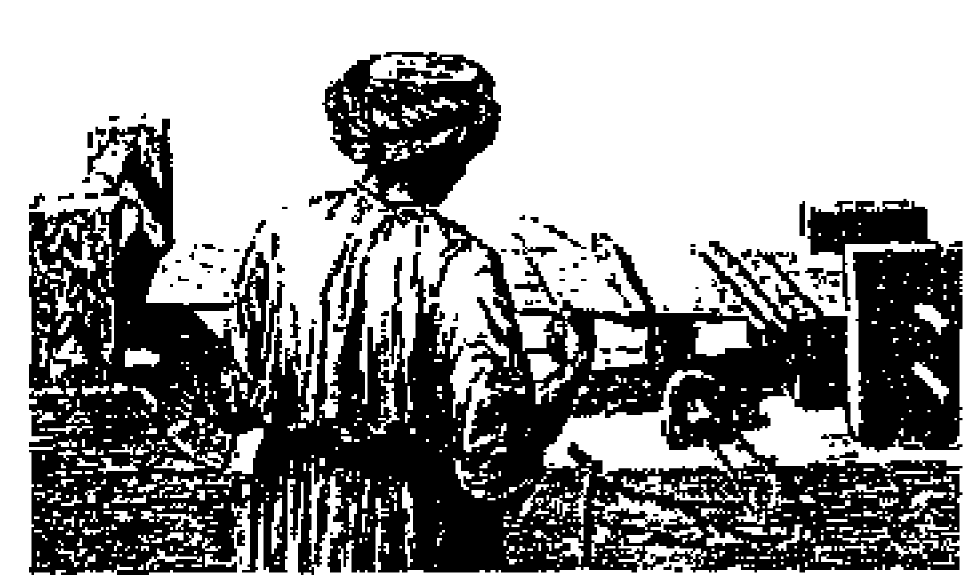
تشتمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صناعتها)، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطائه صورة السيد المسيح مصلوبا)، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية، هذان بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية، وكذلك وجدت عدة مسارج نحاسية. ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باسم الصانع والتاريخ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدام الصانع معدن النحاس في عمل النقوش عليها، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التي عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصناع من الاقباط الذين برعوا في هذه الصناعة[1].

كما استخدم هؤلاء الصناع البرونز في صناعة المباخر وصنابير الأواني وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التي عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير[2].

---

(١) سميكة: المرجع السابق جـ١، ص ٩٠، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١١١.
(٢) زكي محمد حسني : كنوز الفاطميين، ص ٢٣٤.
ـ البراوي: المرجع السابق، ص ١٧٣.

راه وسمعه. وحكى لى داوود ابن عبيد ان انسان وجد فى محله ابو على رجلا نصرانى اخرس مفلوج فحمله على دابة الى القديس بسوس بدير ابو كما وانه صلى عليه ثلثة ايام بلياليها فخرج من عنده ماشياً على رجليه متكلماً وعاد الى محلة ابو على يمجد الله وشاهدوه الناس صحيحاً ناطقاً.



مغزل لصناعة احزمة الوسط (المنطقة).

وفى يوم الاحد الثامن من بابه سنة ثمان ماية وثمانية للشهد حدثت زلزلة عظيمة بانطاكية وهى

---

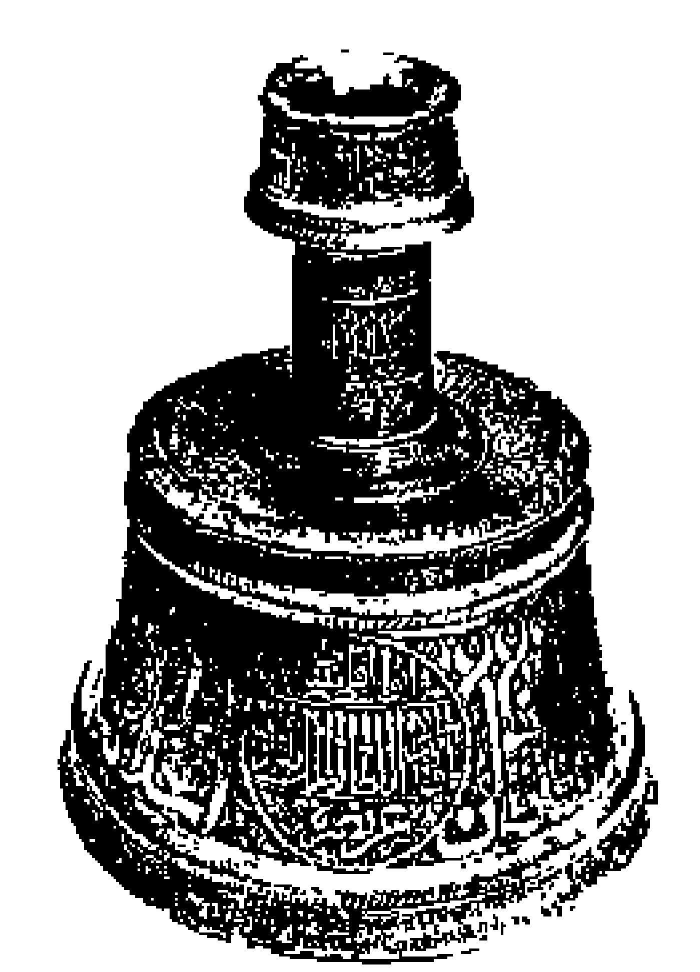
وفى خرائب الفيوم عثر على عدة أبواب من الخشب صنعت اطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين، ورسوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة القبطية واليونانية، وعليها اسم الصانع، ومعظمها يرجع إلى القرنين الرابع والخامس الهجريين[١].

وعرف عن الصناع المصريين دقتهم ومهارتهم فى التكفيت اذ وجدت فى القاهرة عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تطلى به أوانى النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس فى مصر على هذا الصنف من المصنوعات [٢].

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة [٣]، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى فى ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية، ففى مدينة الفسطاط عرفت صناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وبلاد المغرب [٤]، ويتحدث المقريزى عن «المناخ السعيد» وهو الذى كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من

---

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٤٢.
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٥.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٢.
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٤.



شمعدان من النحاس للسلطان الأشرف أبو النصر قايتباى.

يوميذ فى ملك الغز فسقط منها اثنين وثلثين برجاً من باب البحر الى باب فارس وانخسف بعضها ودخل النهر العظيم المعروف بالعاصى اليها وشق وسطها، وتحدثوا الناس بان رجلا وضع علماً فى كتاب وقراه جماعة من الناس يذكر فيه بان سنة خمس وثمانين واربع ماية الهلالية تحدث امور عظيمة وينقص الما وتخرب البلاد، فابطل الله حكمته وما قاله واتى بخلافه وصعد الما وفاض

---

الأسلحة [(١)]. ويذكر ناصرى خسرو ان الصناع فى مدينة لتنيس كانوا «يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين» وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية [(٢)] ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الاقباط، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة، فقد وجد فى كنيسة أبى سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى [(٣)].

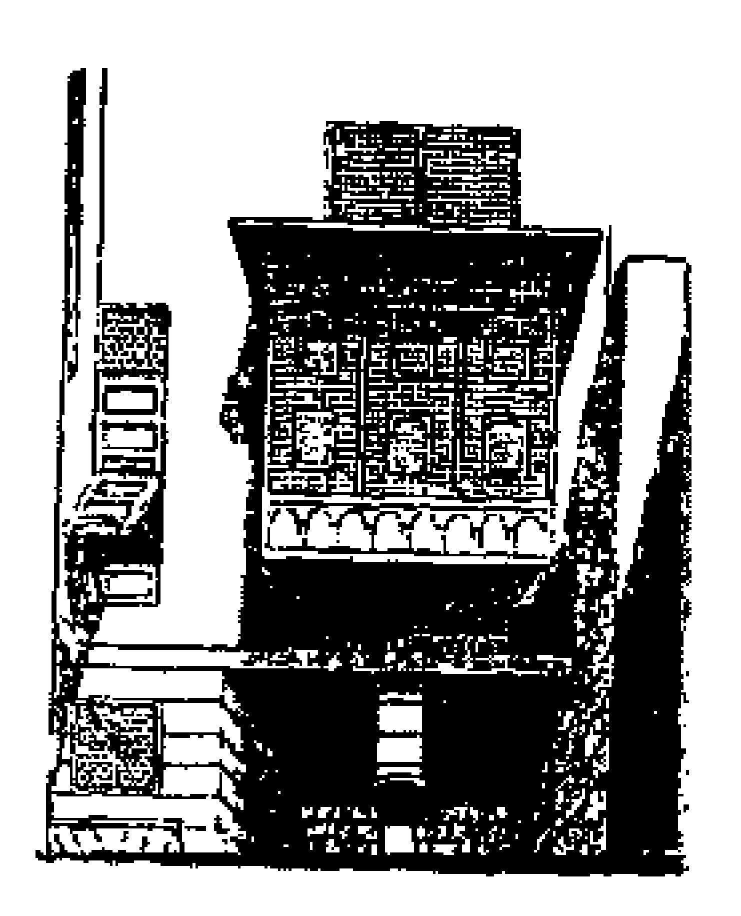
وقد استخدم العاج فى صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمة بالعاج[(٤)].

وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى يتحدث ناصرى خسرو عن «أنياب الفيل» المستورد من زنجبار والتى شاهدها فى أسواق مدينة الفسطاط، كما رأى الأمشاط ومقابض السكاكين والتى عدها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده بأسواق مصر [(٥)].

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٤٤٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) سميكة: المرجع السابق، جـ١ ، ص ١٠٠.
(٤) البراوى: المرجع السابق ، ص ١٧٤.
(٥) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.

على الارض وزاد عن الحد حتى غطا اراضى لم يصعد عليها الما من سنين، وزرعت البلاد وتزايد الرخا حتى ابيع القمح بالريف عشرة ارادب بدينار بالكيل الدوار، واكثر من ذلك بالنواحي البعيدة من البحر ولله الشكر دايما.

كان الغز قد ملكو مدينة القدس المحروس وقد كذبو نزول النور فى كنيسة القيامة المقدسة على المقبرة الشريفة، فلما علمو صحة نزوله فى كل



صناعة الشبابيك والمشربيات الخشبية.

---

وكان التطعيم أكثرن المجالات التى استخدم فيها العاج على يد الصناع من القبط، إذ أن صناعة النقش على العاج التى برع فيها الصناع الأقباط تمركزت فى الأقاليم التى يكثر فيها السكان الأقباط [1].

(د) صناعة الورق والتجليد:

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحتكر هذه الصناعة طوال عصر الولاة، وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق البردى من القبط، غير ان صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى، وحل الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين محل البردى فى الكتابة[2].

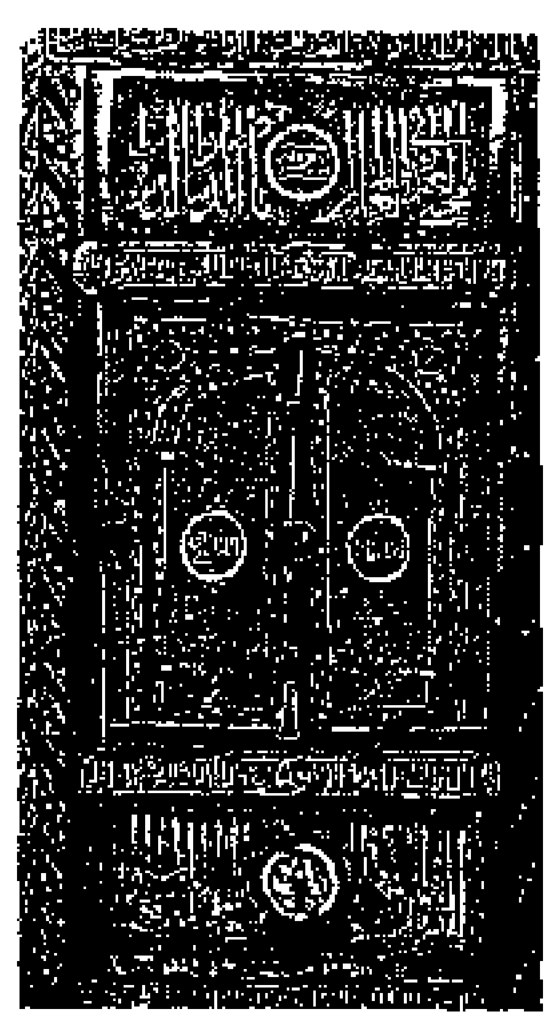
ومع مجئ الفاطميين إلى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم الى خزانة الكتب الفاطمية لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة

---

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٢٢٥.

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٣، ص ٣٢٥.

ـ متز : الحضارة الاسلامية فى ق ٤هـ، جـ٢، ص ٣٠٨، ٣٠٩.


قائمة من اربعة ضلف يوضع عليها صينيه بالصفحة المقابلة.

سنة راعو النصارى المقيمين فيها واستخدمو فى عمالة البلد رجلا نصرانى يعقوبى محب للمسيح يعرف بمنصور البلباتى وله زوجة مثله وهو معونة [معاون] لكلمن يصل الى القدس من النصارى من مصر وغيرها من الافاق، واجتهد الى ان أعمر كنيسة اليعاقبه الارتدكسين فى القدس وكتب الى الاب البطرك يساله انفاذ من يكرزها، واستقر «مصير» احد الاساقفه لتكريزها فتوجه فى برمهات

---

اسلامية فى ذلك العصر [١]، وأصبحت «دار الحكمة» مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت الى الحركة العلمية بصلة[٢].

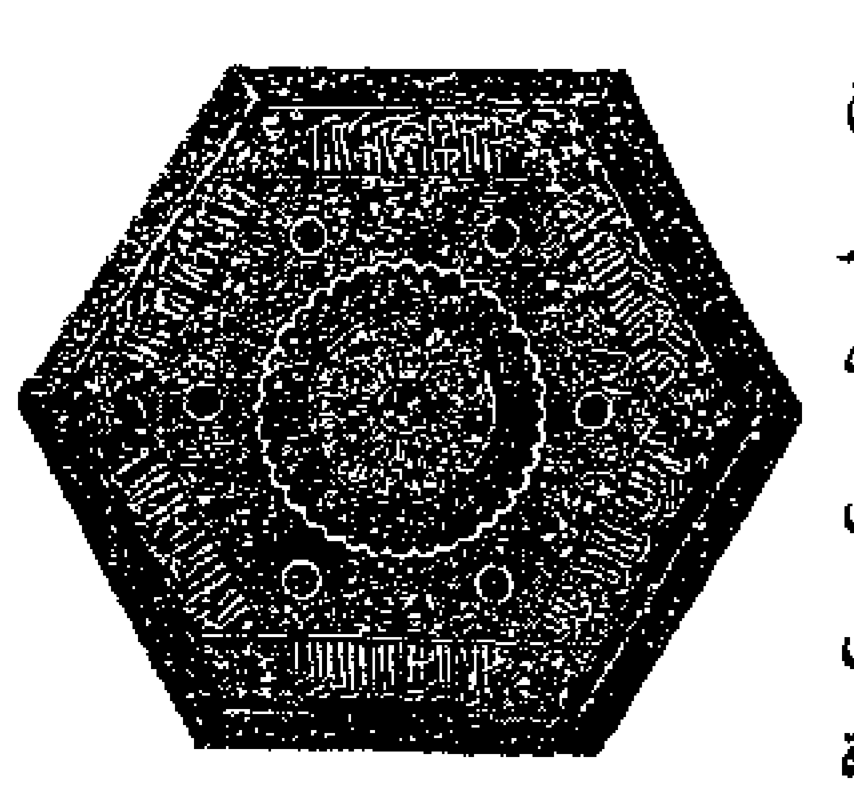
وكان لكبار رجال الدولة من أهل الذمة سواء من اعتنق منهم الاسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز فى هذا المجال، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام فى خلق نواة الجامعة الأزهرية التى كانت مركز اشعاع فى مصر الفاطمية [٣]، كما أنشأ ابن كلس فى قصره خزانة للدفاتر، وجعل على رأسها ناظرا للاشراف عليها، ووفر لها جماعة من النساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر [٤].

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية

---

(١) البراوى : المرجع السابق، ص ١٦٠، ١٦١.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص٣٣٢.
ـ سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٢) عنان: تاريخ الجامع الآزهر، ص ٥٠.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٣٢.
(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ٣١، ٣٢.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥.

سنة ثمانماية وثمانية للشهد، وفي هذه السنة تنيح مرقس اسقف البلينا وهو مقدم جميع الاساقفة، وكان الاب البطرك انبا كيرلص قد تأخر عن الدخول الى برية ابو مقار في هذه السنة، وكان ينتقل من دير الشمع غربي طموه الى جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر الى كنيسة المعلقة بقصر الشمع، وكان لا يفتر من قراة الكتب المقدسة وكان اكثر قراته في تفسير



والصينية مصنوعة من النحاس المكفت بالفضة. وهي تخص الملك الناصر قلاون بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة.

---

والمخطوطات النادرة، أو الكتب العلمية التي قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقربا اليهم(١).

كذلك امتلأت كنائس وأديرة الأقباط بنفائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة إلى العربية، هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب. وعلى الرغم من أن ا لكثير من الكتب والمخطوطات التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها، الا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطي بالقاهرة ودار البطريركية القبطية بمصر(٢).

وقد استعمل الأقباط البردى في الكتابة حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق التي استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة. ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان، وتاريخه يرجع إلى سنة ١١٨١م،

---

(١) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٤٥، ٥٤٨، ٥٤٩.
(٢) سميكة: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٨، ٣٩.

الاناجيل المقدسة الاربعة بالقبطى حتى فهم منها شيا كثير وتكلم عليه، انا المسكين يوحنا ابن صاعد القلزمى ناسخ هذه السيرة(*) اعرف حقيقة ما تضمنه هذا الفصل، وذلك انى مضيت اليه فى كنيسة ميكاييل المختارة يوم الاحد لاتبارك [لأتبارك] منه واتقرب فيها فوجدته قد نزل من الجوسق وهو جالس فى الكنيسة فسلمت عليه واخذت بركته ففرح بى وبارك على واكرمنى، وكان رزقنى الله

(*) ناسخ هذه السيرة هو يوحنا ابن صاعد القلزمى.

---

ثم استعملوا أخيرا الورق الكتان [1]، وهو نوع من الورق المطبوخ من الكتان والقطن. وكانت الفسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق [2].

وكانت عملية التجليد تشمل الجلدة الخارجية والبطانة والحرير، كما استعمل الورق فى البطانة، واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحرير والديباج والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف [3].

وقد عثر على بعض الجلود التى ترجع الى القرن الرابع الهجرى، وهى عظيمة الشأن، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها، ففى بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهذبة تقليدية تتخذ أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منه نرى آثار رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة. ويرى علماء الآثار الاسلامية أنه من الصعب التمييز بين جلود العصر الفاطمى والجلود التى صنعت فى القرن الذى سبق قدوم الفاطميين الى مصر، لأن التطور كان بطيئا، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت فى هذا العصر، وازدهر الفن طبقا لناموس العرض والطلب [4].

(١) ــــــ: نفس المرجع السابق، ص ٣٩.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٣) ــــــ: نفس المرجع والصفحة.
(٤) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٠٧، ١٠٨.

بركة صلواته، وهو راهب قديس روحانى متواضع وديع زاهد جداً باغض للقنية [لتملك المال] يصدق [يتصدق]بجميع ما يحمل اليه من الكراسى على الضعفا، ومنه ما يصرفه فى عمارة الكنايس والديارات، ومنه ما يصوغ به انية فضة رسم الهياكل المقدسة، ومنه ما يعين به النصارى المصادرين ويفكهم من العقوبة حتى انه لما تنيح لم يوجد له دينار ولا درهم، وكان افعاله كلها حسنة



حفر على الخشب. متحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

---

(هـ) صناعة الزجاج والبلور الصخرى والخزف:

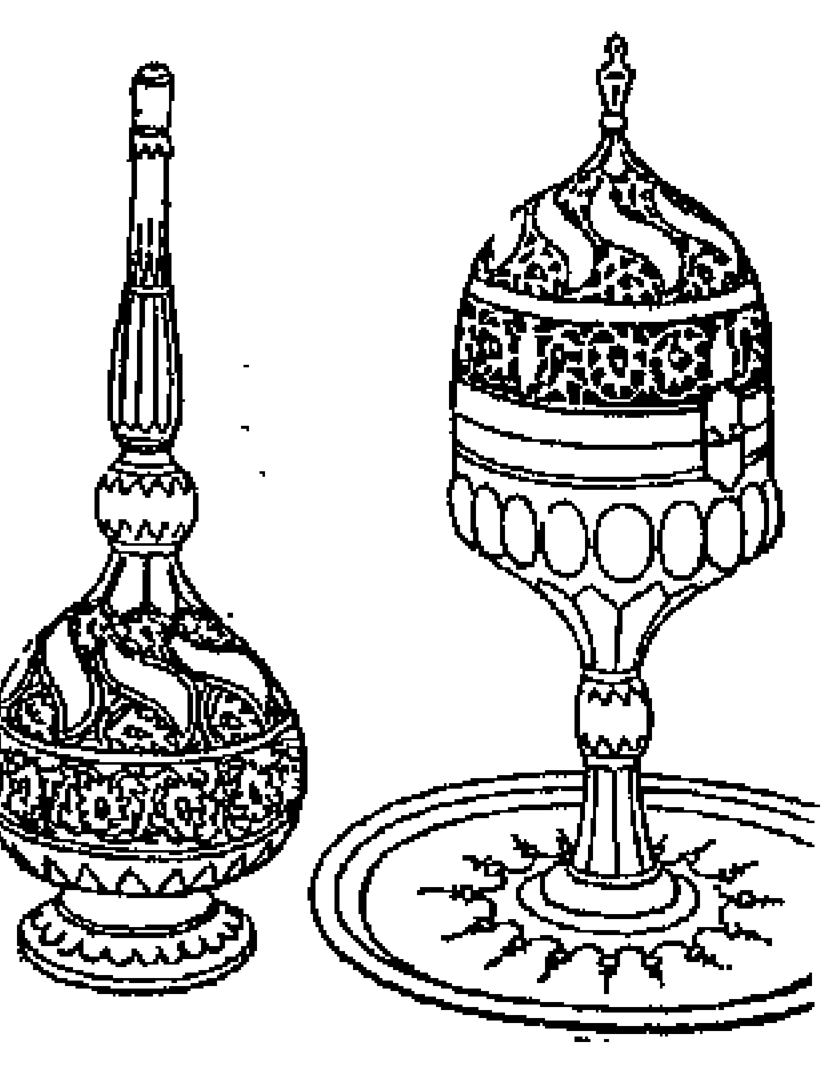
بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن فى عصر الفاطميين. وكثر الطلب عليها نظرا لضخامة النهضة العمرانية التى عمت البلاد، وتعدد الأغراض التى استخدم فيها الزجاج، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفساط ، والفيوم، والأشمونيين، والشيخ عبادة (بكورة البهنسا، المنيا الآن)، والاسكندرية [(١)]، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية فى كثير من المدن مثل مدينة حابو، وكوم بلال، وقوص، وأيدوس، وأخميم، وأسيوط ، والمنيا، والبهنسا، واهناسيا المدينة، وهوارة، وأطفيح، وسقارة وميت رهينة، وكوم الأتريب [(٢)].

وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هى الزجاج المذهب المزين بزخارف لها بريق معدنى، التى حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخرى [(٣)].

أما عن صناعة البلور الصخرى، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته «بسوق القناديل» بالفسطاط، فقد رأى معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال «وكان

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام، جـ٤، ص ٣٩٧.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ص ١٥٦، و كذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة.
(٣) ـــــــ: المرجع السابق، ص١٦٩.

جميلة، وكان حلو المنطق مقبول الصورة صايم الدهر كثير الصلاة، لا ياكل مما يعمل فى قلايته لتلاميذه شياً من الالوان الا لون واحد يقدم له فى زبدية، اما من الحبوب او من البقول يستعمل منه اليسير من العشا الى العشا، فجلست بين يديه وتحدثت معه الى ان اجتمعو الكهنة فسالوه وسالته بمطانوات حتى قدس وتقربنا كلنا من يده الطاهرة وهو يدعو لكلمن يتقدم الى القربان بالقبطى



قمقم ومبخرة من النحاس.

---

يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الأحمر [1]، وكان وجود البلور الصخرى في مصر سبباً في انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية، وفى خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين في بيت المال صندوقا من الصناديق التى نهبت من قصور المستنصر ذات يوم، وهو مملوء بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش ويبدو أنها كانت لشراب الفقاع [2].

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذى البريق المعدنى الذى كان فخر صناعة الفخار فى مصر الفاطمية، وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى على أيدى الصناع المصريين، فصنعوا منه الأزيار الكبار والأوانى المستعملة فى حفظ العطور والبخور وكثيرا من الأشياء التى يستخدمها الناس، كما امتلأت الخزائن فى قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية[3].

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذى يصنع منه الخزف [4]، أن توافر انتاج الأوانى

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٥٩.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ٤٤.
(٣) ــــــ: نفس المرجع، ص ١٥٧.
ـ ديماند : المرجع السابق، ص ٢١٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق: ص ٥٣.

ويبارك عليهم، فلما سرح[صرف] الشعب وخرجو هممت بالخروج فخرج الى بطرس مقدم تلاميذه وقال لى : ابونا يقول لك بمطانوه اجلس حتى اخرج من المذبح، فجلست الى ان خرج فقال لى بمطانوه: اطلع عندى اتحدث معك اليوم وانس بك. فقلت: السمع والطاعة. فطلعت معه الى الجوسق وابا افرهام كاتبه، وكان بعد الظهر وقدمو التلاميذ المايده فاكلت انا وابا افرهام، وجاو بالنبيذ



إناء من الزجاج الأزرق صنع بالفسطاط وهو النموذج الوحيد المعروف من هذا الطراز.

---

الخزفية الممتازة، وقد شاهد ناصرى خسرو فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التى بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الاناء، وكان التجار يضعون ما يبيعونه فى أوانى من الخزف بدلا من الورق(١).

وكان أشهر صانعى الخزف فى مصر الفاطمية مسلم وسعد، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والآدمية والنباتية فى زخرفة الأوانى الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (٢).

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذى البريق المعدنى قبل العصر الفاطمي، ولا سيما فى رسوم الحيوانات(٣).

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الآدمية العنصر الأساسى فى زخارف العصر الفاطمى، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق، ذلك أن الفن القبطى ترك أثرا واضحا فى زخرفة الخزف، وهناك قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم السيد

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٢) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥٧.
(٣) ديماند: المرجع السابق، ص٢١٦.

فامتنعت من شربه لانه كان زمان الصيف وانا اكره استعماله فى الصيف، ثم جلست بين يديه لاتحدث معه فاعلمه انبا افرهام انى ما شربت شى فعتبنى على ذلك، فاعلمته انى اتاذى بشربه فى الصيف، فقال لى : ثلثة اقداح ما تضرك، فقلت: يا مولاى اذا كان من يدك المقدسة ما يضرنى بل ينفعنى غاية المنفعة، فاشار الى التلميذ فناوله قدح فبارك عليه وناولنى اياه فقمت وقبلت يديه واخذته منه



سلطانية من الزجاج الصخرى
من العصر الفاطمى والأيوبى.

---

المسيح، وحولها اكليل النور المعروف، وهذه القطعة من انتاج مدرسة سعد، ونظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعدا كان من سلالة الأقباط [1].

أما عن صناعة الفخار الذى كان يصنع من الطين، فكانت صناعته واسعة الانتشار فى بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمى، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشياء التى كان يستخدمها العامة [2].

(و) صناعة الخمور:

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الفاطمى الأول من ازدهار وانتعاش، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة فى الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفة التى كثرت فى ذلك العصر، وما شاب هذه الاحتفالات من مظاهر الفرح قد أدى إلى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس.

لذلك انتشرت صناعة الخمور انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها، وازدهرت تلك الصناعة

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق: ص ١٦٧.



طبق من الخزف الصينى صنع بالفسطاط .

وشربته وكذلك الثانى والثالث، ثم اخذنا فى الحديث فى العلوم الشرعية وشرف مذهبنا وجلالته وحسن اوصافه وقوانينه وما فيه من فنون التواضع والتفضل والمحبة، وانساق حديثنا فيما هذا سبله الى ان ذكرنا ما انعم الله تعالى وما ظهر من عظم محبته لجنس البشر حتى انه جل اسمه ارسل ابنه الوحيد الازلى معه الكلمة الخالقة فاتحد بطبيعتنا واخذ منها جسداً صيره معه واحداً وبرز من امراة

---

فى المراكز الصناعية والتجارية الكبرى فى مصر، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمور، وكانت الاسكندرية والفيوم بوجه خاص من أهم مراكز تلك الصناعة(١).

كما وجدت معاصر الخمور فى المدن الصناعية الكبرى كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناع من القبط(٢)

وفي ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصة في موسم نضج محصول العنب، «ففي شهر مسرى يكون وفاء النيل، وفيه يعصر قبط مصر الخمر» (٣) وكان معظم الانتاج من النبيذ في الريف يستهلك محليا ولا يصل منه المدن الكبرى الا كميات قليلة، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ فى المدن لكثرة الاقبال عليها (٤).

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر الخمور فى مصر، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دائما فى وفاء الخراج على ما ينتجونه من الخمر وما يبيعونه منه في عيد الشهيد(٥).

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٥، ص ٧٨.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٧٢.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، ص ١٢٩، ٣٦٧.
(٥) ـــــ: نفس المصدر، ص ٦٧، ٦٨.

عذرى طاهرة من غير زريعة بشر، وولد منها الاه تام وانسان تام ولم تفك خواتيم عذرتها المطهرة بل بقيت عذرى بتول كما لم تزل، وكانت ولادته المقدسة فى زمان محدود وشهر معروف ويوم معلوم، وكان [هذا اليوم] مشهور مفهوم، وارتضع منها اللبن بانسانيته وهو مطعم كل الخليقة بلاهوته، وكان ينشو فى القامة والحكمة، كما قال لوقا الإنجيلى انه قبل الالام بناسوته وهو منشى



لبق من الخزف الصينى صنع بالفسطاط.

---

وفى الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يعصر الرهبان النبيذ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخل الدير [١]، كما أن بعض هذه الأديرة كان مقصد الناس للنزهة والتسلية [٢].

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمور، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا فى المجتمع لارتفاع ثمنه [٣]، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاع، وهو نوع من البيرة كان شائعا فى القاهرة ابان عصر الفاطميين [٤]، كما كانوا يشربون المزر والنيدة، وكانا يصنعان من القمح والشعير[٥]، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا [٦].

والواقع أن صناعة عصر الخمور كانت منتشرة فى أنحاء مصر وكان الانتاج وفيرا، وليس أدل على كثرة الخمور وانتشارها فى البلاد من تلك الكميات التى كانت تباع فى ناحية شبرا

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٩٦.
ـ ابن فضل الله العمرى: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٣٧.
(٢) ــــــ: نفس المصدر، جـ١، ص ٣٧٣.
(٣) البراوى: المرجع السابق، ص١٨٤.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٤٩.
(٥) البراوى: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٦) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، جـ١١، ورقة ٤٠٢.

الخلايق ما يرى منها ومالا يرى بلاهوته، ثم ذكر عظيم فضله علينا بما احتمله عنا فى جسده الماخوذ منا وصبره على ما ناله فيه من اليهود والمخالفين من الهوان والالام والصلب والتسمير على الخشبة وغير ذلك مما الاناجيل المقدسة تشهد به حتى الى الموت والدفن فى المقبرة المقدسة، وان الله الكلمة احتمل هذه الاوصاف والنقايص كلها فى جسده الذى اخذه من طبيعتنا وهو متحداً به



جزء من طبق خزف صينى عليه رسم المسيح.

---

وحدها والتى بلغت قيمة ما بيع منها فى أحد أيام عيد الشهيد بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا [١].

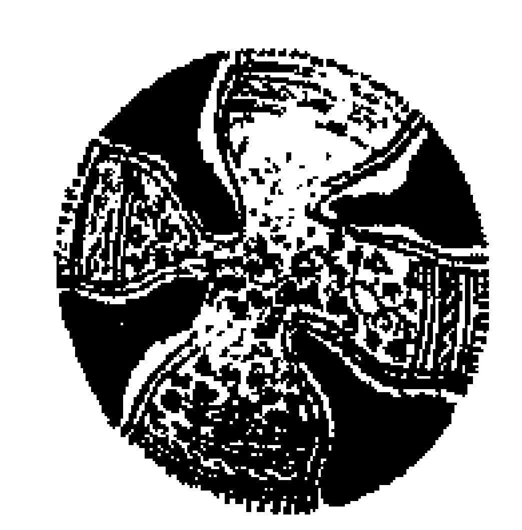
وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمور فى بداية العصر الفاطمى، فان صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من انتاجها والتضييق عليها الا فى القليل النادر أيام خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله الفاطمى، عندما كانت تصدر الأوامر بالغاء بعض الأعياد أو تقييدها، ثم العودة اليها مرة ثانية.

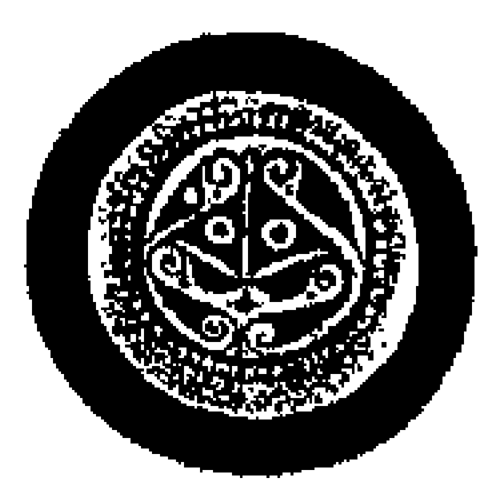
وفى سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م منع الحاكم بأمر الله من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحر (لا نخفاض النيل)، وبيع المسكرات ومنع الفقاع، وفى شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المشتغلين بالفقاع وضربهم وشهر بهم لمخالفتهم أوامره [٢]. وفى سجل أصدره فى ربيع الآخر سنة ٣٩٩هـ أمر بألا يحمل شئ من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشئ منه ولا بشئ من الفقاع والترمس الخمر، وأمر بقتل من يضبط سكرانا [٣]، وفى صفر من العام التالى شهر بجماعة بعدها ضربوا بسبب الفقاع والترمس[٤].

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٩.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.
(٣) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣٤١.

لم يفارقه طرفة عين منذ حلوله فى الاحشا البتولية والى حين صعوده الى السما والى ابد الابدين. فقلت: يا ابونا القديس ادام الله تعميرك، هذا الجسد الماخوذ من جبلتنا من لحم ودم مرتمريم العذرى القديسة الذى حملته فى احشاها تسعة شهور والله الكلمة متحداً به وصيره ومعه واحداً ولم يفارقه ولا يفارقه ابد، ولدته فى بيت لحم فى زمان اوغسطس ملك الروم وولاية هيرودس على





طباق من الخزف الفاطمى والأيوبى.

---

ولقد وصلت الينا صورة من سجل أصدره الحاكم فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ، نهى يه الكافة عن الالمام بالمسكر، أو شربه، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه، قليلة كثيرة، كما نهى عن اقتنائه أو عمله واعتصاره، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين وامره [١].

وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء اقامتهم للشعائر الدينية فى الأعياد، على أن لناس لم يلتزموا بذلك، ففى موسم العنب من هذا العام أخذ الناس فى اعتصاره سرا مما دعا لحاكم بأمر الله الى تغريق العنب فى النيل [٢].

واذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ـ حيث يصنع ن الأخيرين المسكر ـ قد تدهورت صناعتها فى خلافة الحاكم بأمر الله الذى أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقبها وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين فى مجالها، فان هذه الصناعة قد انتعشت من جديد فى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره من القوانين المحرمة لشرب المسكرات، فأقبل الناس على احتسائها وارتياد الملاهى، بل ان الخليفة الظاهر

(١) رسائل الدعاة: مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٧ عقائد ونحل، ورقة ١٠، ١١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

ارض الشام بعد خليقة ابونا ادم بخمسة الف وخمسماية سنة وراوه الناس ولمسته ايدى البشر ونالته الالام والضرب والهوان والصلب والتسمير على الخشبة والموت والدفن فى القبر وكل النقايص التى تشهد بها الاناجيل المقدسة، كيف ينساغ لمن له فهم وعقل ان يقول عنه ما يوجب افتراقاً او يحدث شكوكا. قال: لا، ففرحت بما سمعته منه وعرفت انه قد قرى الكتب الالهية



ابريق من الخزف.

---

نفسه أقبل على شرب الخمر، و مجالس الطرب والغناء، فازداد حب الناس لحياة اللهو والمغانى وشرب المسكرات[1].

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمى مزيدا من اقبال الناس على شرب الخمور، وبالتالى ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها.

فكان الخليفة المستنصر بالله يشرب الخمر، ويسقيها الناس، وكان يخرج فى كل سنة مع النساء والحشم الى جب عميرة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس[2].

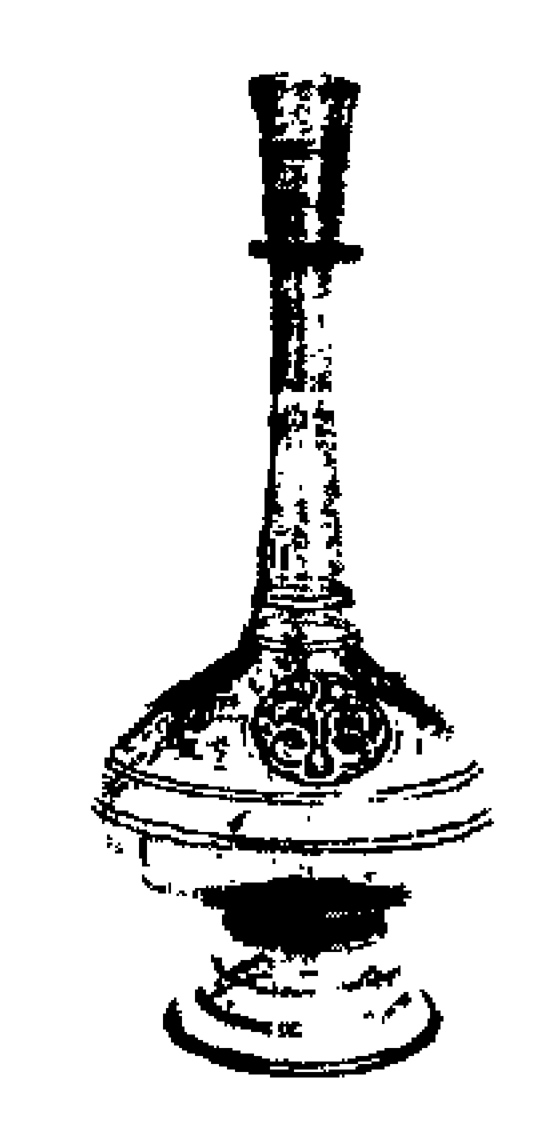
هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله فى أيام الرخاء من اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمتنزهات، وطلب الناس شرب المسكرات مما أدى إلى ازدهار وانتعاش صناعة النبيذ والزبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكرا.

**(ز) صناعة السكر والعسل:**

شهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول انطلاقة كبيرة فى صناعة السكر والعسل، فقد

(١) المقريزى الحنفا، جـ٣، ص ١٢٩.
ـ ــــــــ: الخطط ، جـ١ ، ص ٣٥٣، ٣٥٤.
(٢) ــــــــ: الخطط ، جـ٢، ص ١٦٢.

وتفاسيرها وفهمها، وانما اوردت هذا فى هذه السيرة تصديقاً لما قاله واضعها عن الاب انبا كيرلص المذكور انه قرى التفاسير وفهمها وتكلم عنها، قال واضع هذه السيرة، وتنيح الاب القديس انبا كيرلص المذكور نيح الله نفسه الطاهرة ورزقنا بركة صلاته فى يوم الاحد الثانى عشر من بوونه سنة ثمان ماية وثمانية للشهد وهى سنة احدى


زجاجة للعطور صنعت فى العصر الفاطمى.

---

عرفت البلاد فى هذا العصر العديد من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التى شدت اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم، بجانب ما أدخله الفاطميون من تقاليد وما جرت به العادة فى شتى المناسبات على عمل الاسمطة التى زخرت بألوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى، كما كانت الولائم تعتبر من وسائل التسلية فى هذا العصر، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والفطائر والكعك [١].

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعه السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل فى العصر الفاطمى الأول مدينة الفسطاط[٢]، والفيوم [٣]، وقفط [٤]وسمهود [٥]، وأسيوط [٦]، وترنوط[٧]، وفى بعض هذه المراكز كالفيوم وأسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط.

(١) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٦.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٣) أبو عثمان الصفدى : المصدر السابق، ص ٣٩، ٤٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٦) ياقوت: المصدر ا لسابق، جـ١، ص ١٩٣.
(٧) البراوى: المرجع السابق، ص ١٧٨، حاشية ١.

وثمانون واربع ماية الهلالية بعد ان تناول القربان المقدس، وكانت مدة بطركيته منذ وضع اليد عليه فى دير ابو مقار اربعة عشر سنة وثلثة شهور ونصف، ودفن فى كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر صلواته معنا امين، وحمل جسده بعد ذلك الى دير ابو مقار بوادى هبيب المقدس والمجد لله دايماً ابداً.



طبق من الصينى عليه رسم لحيوان برأس إنسان.

* * *

---

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل فى مدينة الفسطاط، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل فى حوزة عدد من اليهود القطنين في تلك المدينة الصناعية الكبرى [١]، واشتهرت مدينة قفط بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره [٢]، كما كانت أسيوط تنتج سائر أنواع السكر [٣] ويتضح مما ذكره أبو عثمان الصفدى أن معاصر القصب كانت منتشرة فى بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحى كان أصحابها من الأقباط، وأن تلك المعاصر كانت تتكون من حجرتين وتدور بالأبقار [٤].

وعرف عن سمهود أنها كانت «كثيرة المعاصر لقصب السكر»[٥]، وكان لكثرة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها.

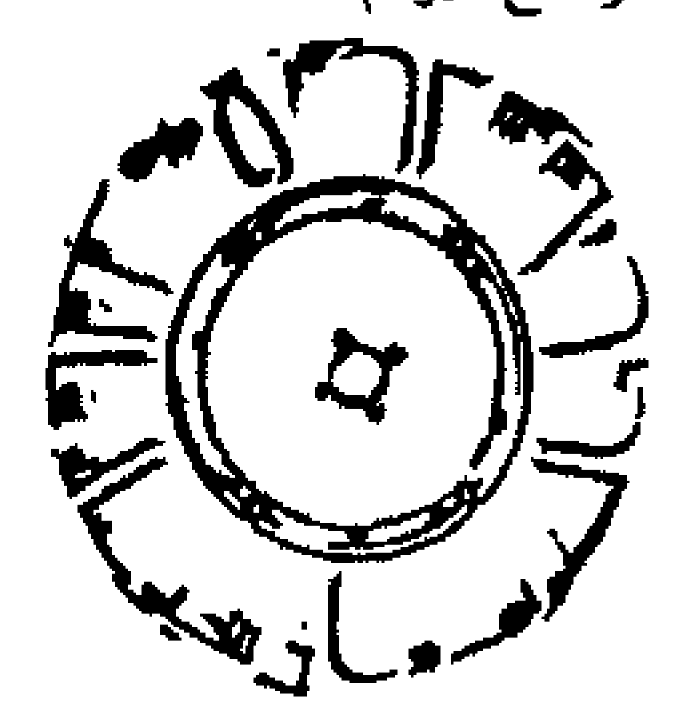
غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات ابان خلافة الحاكم بأمر الله، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات، اذ كان يتخذ من العسل مسكراً،

(١) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ٤١، ٤٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٢٣١.
(٣) ياقوت: المصدر السابق، جـ١، ص ٢٥١.
(٤) الصفدى: المصدر السابق، ص ٢٩، ٤٠.
(٥) ابن ظهيره: المصدر السابق، ص ٦٤.

(*) نبـذة هامـة حـول البطاركـة السـابقين واللاحـقين وكـتـاب ونساخ سيرهم.

## باسمك يارحمن ابتدى(*)

قـال يوحنا ابن صـاعـد بن يحـيى ابن مـينا المعروف بابن القلزمى الكاتب انى لما كملت نسخ جميع ما وضعه الابا القديسين المتقدمين من سير البيعة المقدسة وهى ستة وعشرون سيرة وما جرى فيـها للابا البطاركة باسكندرية وهم سبعة وستين بطركا اولهم مرقس الانجيلى واخـرهـم ابا كيـرلص الشانى القـديس الروحـانى، وجـعلت ذلك فى ثلثة



طبق شفاف عليه كتابه بالبنى والأسود. صنع الفسطاط.

---

مما دفع الحـاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقة كمـيات ضـخـمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت، وحددت الكميـة للمستهلك عند الشـراء، بل قل وجـوده فى الأسواق، وارتفع ثمنه لكثرة الطلب عليه، بالدرجة التى كان يعادل ثمن أوقية بدينار فلم توجد[1].

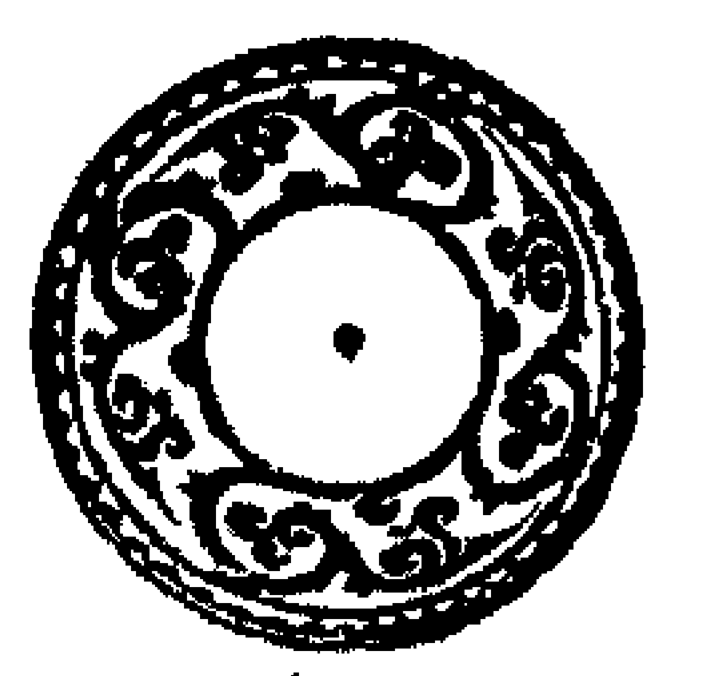
وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر التـرف واللهـو، وزاد الطلب على السكر والعسـل، مما أدى الى انتـعـاش تلك الصناعة، وانتاج كميات كبيرة منها، ويؤكد هذه الحقيقة فى عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله «وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا» [2].

### النشاط التجارى للمصريين من أهل الذمة

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره فى ازدهار الحركة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى الاول، ففى هذا العصر كثرت الحاصلات الزراعية نتيجة للاهتمام بالزراعة، وازدهر الكثير من الصناعات، وزاد الطلب عليها، كمـا توفـر عنصـر الامن وشـمل الجميع العدل والطمأنينة، وأحكمت الرقابة على الأسواق، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الاجانب الذين يفدون الى مصر العديد من الامتيازات، كما منحوهم حق الاقامة فى فنادق خاصة بهم، بل

(١) ابن أيبك: المصدر السابق، جـ٦، ورقة ١٧٢.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٠.

اجزا، الجزو الاول سبعة عشر سيرة لستة واربعين بطرك اولهم مرقس الانجيلى واخرهم انبا خايال الاول، والجزء الثانى خمسة سير اولها السيرة الثامنة عشر واخرها الثانية والعشرين واخبار تسعة بطاركة اولهم انبا مينا واخرهم اثناسيوس، والجزء الثالث الذى فيه هذه الكراسة من جملة اثنى وعشرين كراس وما قبلها الى اخر الكراريس اربعة سير واخبار اثنى عشر بطركا اولهم سبعة وستين



طبق شفاف عليه كتابة بالأسود صنع بمصر.

---

والسكن فى أحياء خاصة [1]، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والخانات، هذا بجانب انشاء أسطول تجارى مصرى ساعد على تنشيط الحركة التجارية [2]، ومما ساعد على ذلك أيضا نشاط أهل الذمة من التجار الذين استخدموا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنهم التجارية فى خدمة الحركة التجارية المحلية والعالمية [3].

وكان التجار من أهل الذمة فى مصر على درجة كبيرة من المهارة فى الأعمال التجارية، كما وجدوا فى سياسة التسامح الدينى واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام فى هذا المجال.

ففى مجال التجارة الداخلية زخرت القرى التى يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها، فكانت «منية الأمراء» على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة[4].

---

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) البراوى: المرجع السابق، ٢٠٩ ـ ٢١٤.
(٣) القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر، ص ٩٠.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ١٢٩.

بطركا منهم من رايته وسمعت كلامه وحضرت قداساته، وتحدثت مع بطركين وهم انبا اخرسطودلوس وانبا كيرلص نيح الله نفوسهما ورزقنى بركة صلواتها، شكرت الله تعالى على ما نعم به على من وجود هذه السير ومعونته لى جل اسمه على نسخها بكمالها، ووجب على ان اكتب واشرح سير من رايته بعد انبا كيرلص البطرك نيح الله نفسه الطاهرة الى حين كتب هذا المسطور وهو

---

كما كان سوق بلدة «بموية» بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع، وكانت تلك البلدة زاخرة بالعطارين ودكاكين البزازين [١].

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنيس ـ تلك المدينة الصناعية الكبرى التى يغلب على أهلها السكان الأقباط ـ كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار، ويرابط فى مينائها حوالى ألف سفينة [٢]، أما فى المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنها أهل الذمة سوق لسد حاجة القاطنين بها [٣].

واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال. ويذكر ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل الى أحد التجار النصارى الأثرياء أثناء احدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد، يطلب منه امداد المخازن الحكومية بالغلال «أما نقدا، وأما قرضا» فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله: «أن لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات»، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله: «أن كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار [٤]،

(١) الصفدى: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٨، ٣٩.

(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٠.

(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٣.

انبا مقاره، والتجيت الى رحمته تعالى ومعونته وتوفيقه كما الفت من احسانه وجعلتها على مقتضى السير التى قبلها ومن الله نستمد المعونة.

## السيرة السابعة والعشرون من سير البيعة المقدسة انبا ميخاييل البطرك وهو من العدد الثامن والستون(*)

[١٠٩٢ / ١١٠٢م]

(*) جلس هذا الاب على كرسى البطركية فى مملكة المستنصر، وبعد جلوسه بسبعة اشهر مات المستنصر وملك بعده ولده المستعلى، وكان وزيره الأفضل ابن امير الجيوش بدر الجمالى الارمنى.

ولما تنيح الاب القديس الروحانى انبا كيرلص

---

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قفط[١].

ولما كان بيع الخمور محرما على المسلمين بحكم الشريعة الاسلامية فان أهل الذمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات، كما كان فلاحو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج والجزية على ما يبيعونه من خمر وخاصة في يوم الاحتفال بعيد الشهيد، فكان يباع فى هذا اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا، ويذكر المقريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر في يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة[٢].

ولكن نتيجة لقرارات الحاكم بأمر الله السابق ذكرها سنة ٤٠٢هـ = ١٠١١م أضير التجار من أهل الذمة المصريين المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها، بل ان الحاكم تشدد فى تلك الفترة مع أهل الذمة المصريين فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع أهل الذمة المصريين بالبيع والشراء كما جرت به العادة[٣].

---

(١) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٦٨، ١٢٩.

(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧.

الثـانى، قـدس الله روحـه الطاهرة ورزقنا بركـة صلواته، كانت النوبة للاسكندرانيين فى تخيير من يقيموه على الكرسى الرسولى عوضاً منه، فاجتمع اراخنتهم ومقدمى كهنتهم للنظر فى ذلك وتخير من يصلح لهذه الرياسة الجليلة، ومكثو اياماً فلم يتفق رايهم على شى، فخرجو الى الريف واجتمعو بالاساقفة وفا وضوهم فى ذلك ولم يزل الخطاب يتردد بينهم مدة طويلة فلم يستقر لهم راى فيمن

---

واشتغل أهل الذمة اليهود بتجارة الرقيق، الا أنه فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م أصدر الحاكم بأمر الله سجلا حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق وأباحها للمسلمين. وشدد على النخاسين وتجار الرقيق فى المنع من بيع العبيد والاماء لأهل الذمة [١]، ثم كرر هذا الأمر فى السجل الذى أصدره فى عام ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وأمر بتتبع أثار المخالفين لأوامره [٢].

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م ألغيت جميع القيود التى تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة، فمارسوا نشاطهم التجارى فى حرية مطلقة، وكان بعضهم مقربا من دار الخلافة، ويذكر ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر أن أبا سعيد التسترى التاجر اليهودى «كان مقربا من السلطان» الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة [٣].

وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التى نجح فيها أهل الذمة، وخاصة اليهود.

فقد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا

---

(١) المقريزى/ اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢٨٦.

(٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.

يقدموه عليهم، فدخلو الاراخنة وجماعة من
الاساقفة الى مصر ونزلو في كنيسة الشهيد ابو
مرقوره واجتمعو بجماعة من الاساقفة الصعيدين
الذين وصلو الى مصر لهذا السبب وسمو جماعة
من الرهبان وغيرهم فلم يستقر في نفوسهم اقامة
واحد منهم وتقرر رايهم ان يسيرو الى الديارات
المقدسة بوادى هبيب ويجتمعو بالابا الرهبان على
الصلاة والتخير لمن يصلح للكرسى الرسولى،

---

سهل التسترى، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية، وكان واحدا من كبار التجار الاثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة. أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق. وقد اكتسب هذا الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانتهما، واظهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار [١].

وقد تمتع تجار الجواهر والصيارفة بالأمن والطمانينة فى عصر الفاطميين، وكانوا «لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شئ منها[٢]، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية [٣].

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى. ولقد تعجب المقدسى من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل الفسطاط. أما ناصرى خسرو فانه كان يقدر عدد السفن الراسية حول

(١) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٢٣.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢١٢.

فسارو الى هناك واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار وذكرو اسما [أسماء] جماعة من الرهبان الذين في تلك الديارات المقدسة، واقامو اياما يتناظرو فى ذلك ويرجح ارايهم فلم يتفقو على من يقيمـوه ريسا عليهم الى ان ذكر بعض الاساقفة صمويل الحبيس الذى فى قلاية ازرى(*) وكان سريانى، فاذعنو الى ان يصيروه بطركا واتفق رايهم على الرضا به، ثم سارو الاساقفة وفيهم ابا سنهوت

(*) أزرى: من الاماكن المندرسة. وبالبحث تبين أنها كانت واقعه بأراضى ناحية كفر الباجة ضمن أعمال جزيرة بنى نصر مركز كفر الزيات وخربت وهرب من بقى=

---

مدينة تنيس بألف سفينة منها «ماهو ملك للتجار وكثير منها للسلطان»[1]، كما يذكر أنه رأى في الفسطاط نصرانيا من كبار أثرياء مصر امتلك اعدادا من السفن، وقيل ان مراكبه وأمواله، وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن سفنه كانت تسير في النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانى والمراكز التجارية الواقعة على النيل [2].

## دور أهل الذمة المصريين فى التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر في العصر الفاطمى الأول احتلت مركزا ممتازا فى مجال التجارة الأولى في العالم [3]. ولذلك أصبحت موانيها على البحرين الأحمر والمتوسط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية[4].

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجى إلا فى القليل النادر،

---

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٢) ــــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.

(٣) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٣ .

(٤) البراوى: المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٤.

ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ .

اسـقف مـصـر الطاهر الفـاضل واسكندرانيين والشـمـاس الفـاضل ابو غـالب يـمن ابن تيـدر ابن مرقـوره السنجـارى، وتوجهـو من دير ابو مقـار الى ازرى فقبل وصـولهم اليها حـضر عندهم من ذكر لهم صـمـويل الحـبيس السـريانى المقـدم ذكـره ان امانته مفسودة وانه يعتقد فى جسد سيدنا المسيح الماخـوذ من الطاهرة العذرى القـديسـة مـريم الذى اخذه من لحمـها ودمها وصيره واحد معه واحتمل

= من سكانها، إلا أن اسمها ظل باقيا فى جداول المساحة المالية باسم أزرى، كـمـا ورد فى دليل سنة ١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م وفى سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٣م أختفى اسم أزرى بعد ضم زمامها إلى قرية الباجية ومن سنة ١٢٧٤ هـ = ١٨٥٧م وردت باسم الباجية ثم فى سنة ١٨٧٠م وردت باسم كفر الباجة.

---

فإن أهل الذمة وخاصة يهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ فى هذا الميدان[١]، وذلك أن التجارة كانت من أهم الأعمال التى فى أيدى اليهود، وحرصوا على الاشتغال بها[٢]، وكـان ليهـود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب، فأسهموا برؤوس أموالهم فى تجارة أبناء عمومتهم اليهود الراذانية[٣]، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين الشرق والغرب، ويحملون معهم من الغرب إلى مصر وبلاد الشرق السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخز والفراء والسمور، كما كانوا يستأثرون بأهم ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجوارى البيض، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون معهم المسك والعود والكافور والبهار والدراصينى وغيرها من السلع[٤].

(١) سيدة كاشف وحسن محمود: مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ـ القاهرة ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م، ص ٢٣٠.
ـ سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، ص ٢٩٣ .
(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٢ .
ـ سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، ص ٤١ .
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٣٢ .
(٤) متز: المصدر السابق، جـ ٣ ، ص ٣١٣ .
ـ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

فيه الالام المحيية والصلب والموت والدفن وغير
ذلك من الامور البشرية اللايقة ناسوته وصنع فيه
الايات الباهرة والعجايب المعجزة الالهية اللايقة
بلاهوته وجميعها لهذا المسيح الواحد، اعنى
غيرمخلوق اعنى الجسد، ويقول انه مساو للاهوته
الخالقة، وان سيدنا المسيح فى يوم الخميس الفصح
الكبير لم يفصح مع تلاميذه على خروف ولا اكله
وغير ذلك مما قيل عنه. فلما سمعو هذا امتنعو عن

---

وكان يهود مصر من أنشط تجار العالم فى هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب، إذ كشفت وثائق الجنيزة من امتلاكهم للسفن التجارية[1]، كما وفد إلى مصر كثير من يهود لشرق المشتغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها[2]. واتخذ بعضهم من مصر مستقرا له. وعلى سبيل المثال، فإن يعقوب بن كلس اليهودى عمل وكيلا للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل قدمه إلى مصر، ثم رحل إليها فى عهد كافور الاخشيد، وواصل احترافه للتجارة، فاشتهر مره، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة فى مصر فى عهد الفاطميين [3]. كما أن لأخوين اليهوديين أبا سعيد إبراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التسترى كانا من أشهر وأنبغ تار الشرق الذين استوطنوا مصر، ويرجع أصلهما إلى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التى كان معظم تجارها من اليهود، واشتغل الاخوان فى تجارة الشرق وبخاصة فى تجارة الرقيق لتحف والجواهر، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخدم أبا سعيد فى ابتياع ما يحتاج إليه صر الخلافة من سلع الشرق[4]، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بما يلزم

---

(1) Goite in: Jewish Arabe New York, 1955 , p. 107.

٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٦٩ .

ـ متز: المرجع السابق، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .

٣) النويرى: المصدر السابق، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

٤) المقريزى: الخطط، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .

المضى اليه واثنى رايهم عن تصييره وضجرو
الاسكندرانيين من طول مقامهم وغيبتهم عن
اهلهم واولادهم وتشتيتهم عن منازلهم واوطانهم
وان الشتا هجم عليهم فعولو على الرجوع الى
اسكندرية بلا بطرك وان يوخرو ذلك الى وقت
اخر، فمنعوهم الاساقفة من ذلك، واشارو عليهم
بالصبر والمقام معهم ولو اسبوع اخر، فلعل يتوجه
لهم ما يعتمدو عليه، فلم تطيب نفوسهم بالمقام

---

قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع. ولقد ربح أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة. وقيل أنه لم يكن يعرف مدى غناه إلا الله»[1].

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب[2]، فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية إلى مصر، كما كانت السفن التجارية من «الممالك النصرانية كافة» تفد إلى الموانى المصرية وبخاصة الأسكندرية، ولقد شاهد بنيامين التطيلى فى ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والدول الأوروبية المعروفة فى ذلك الوقت، كما شاهد التجار الوافدين إلى مصر من شمال أفريقية، وجزيرة العرب ، وبلاد الهند، والحبشة، واليمن ، والعراق، والشام، وبيزنطة، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابل والعطور وجميع السلع التى يحملها تجار الشرق إلى مصر[3]. كما وجد أثناء زيارته لمصر أعدادا ضخمة من اليهود الذين يقطنون فى الموانى المصرية والمراكز التجارية والصناعية وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء[4].

(١) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٥ .
(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٣) بنيامين التطيلى: المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٤) بنيامين التطيلى: نفس المصدر، ص ١٧٣ .

وعولو على المسير الى مدينتهم، فقال لهم انبا
سنهوت اسقف مصر ايها الاخوة المباركين قد
علمتم اجتماعنا معكم منذ وصلتم الى مدينتنا
والى الآن على ما توثروه واننا لم نفعل شيأ الا
باتفاق معكم عليه من المسيرالى دير ابو مقار ومن
التوجه الى ها هنا ومن الرضا بتصيير هذا الحبيس
بطركاً عليكم وعلينا وكل هذا كان باتفاقنا
اجمعين، والآن فقد سمعتم من [ كا]ن وانتم بقوله

---

ويذكر ابن ميسر أن بدر الجمالي عند قدومه إلى مصر سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م نزل دمياط
نيس، واقترض من تجار تنيس ـ وكان معظمهم من القبط ـ أموالا كان فى حاجة إليها[١].

وإذا كان أهل الذمة قد امتلكوا رؤوس الأموال، فإنهم قد امتلكوا ـ أيضاً ـ القياسر ، وأن
ض هذه القياسر قد أوقفت على الأديرة. ويستدل على ذلك من عبارة وردت فى مرسوم
سدره الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م بتجديد عمارة دير القصير ورد
وقاف التى كانت محبسة على الدير من ضياع وقياسر[٢].

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل فى مجال التجارة الخارجية فقد كان الانبا
هام السوريانى ـ قبل أن يصبح البطريك الثانى والستين (٩٧٤/ ٩٧٨م) للكنيسة القبطية ـ
، كبار التجار الأثرياء، وتردد إلى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها. وكان يمد الخليفة
ـز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون إليه من بضائع وأمتعة، ومن ثم نشأت
لاقات وثيقة بين الأنبا إبرهام والخليفة المعز ورجال دولته[٣].

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود فى مصر قد أسهموا بنصيب كبير فى تجارة الكارم

[١] ابن ميسر: المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٢٢ .
[٢] الانطاكى: المصدر السابق ، ص ١٣٠ .
[٣] ساويرس: تاريخ البطاركة. انظر ص ٤٢٦ وما بعدها من هذا الجزء (الثالث).

فساد امانة هذا الرجل الذى وقع الرضا منا ومنكم به، وانه لا علم له ولا فهم ولا قرا شيأ من كتب الله، ولو كان قرا الكتب المقدسة لعلم منها فساد ما يعتقده، فان فاتحة انجيل يوحنا يقول: فى البدء كان الكلمة والكلمة لم يزل عند الله والاه هو الكلمة، فاتضح بهذا القول انه اله بالحقيقة. ثم قول المسيح من فاه الطاهر فى انجيل يوحنا مخاطباً لليهود: انسان يقول لكم الحق الذى سمعه من

---

طوال عهد الفاطميين، جنبا إلى جنب مع التجار المسلمين، إذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان. كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجارى واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس(1). وكانت سفنهم تجوب الموانى التجارية الكبرى التى تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى والبحر المتوسط. فكان يهود الشرق يفدون الى مصر لأعمال تجارية (2). كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهم الى موانى البحر المتوسط التجارية (3)، مما أدى الى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التى وجدت بتلك الموانى، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك الجاليات، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم، بل كانت هناك مشاركة فى الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد فى كثير من الأحيان (4). وحقق هؤلاء التجار أرباحا كبيرة وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم. وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم. بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام فضلا عن الرقيق

---

(1) القوصى: المرجع السابق، ص ٧٩، ٨٢، ٨٤.
(2) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص١٦٩.
(3) ______ : نفس المصدر، ص ٥٠، ٧٧، ٩٠.
(4) القوصى المرجع السابق، ص ٢١٥.

الله، فاوضح بقوله هذا انه انسان، فصح لنا من قوله انه الاه وانسان معاً مسيح واحد لا اثنين، فاما قوله عن جسد مخلصنا الذى اخذه من العذرى مريم ابنة داوود وابرهيم المخلوقين انه غير مخلوق فهذا اعتقاد من يقول بالفنطسه(*) والخيال والشبح، وليس هذا اعتقاد احد ممن يدين الله بدين النصرانية، وكتب الله المقدسة تشهد بأن الكلمة الله خلق له جسد فى بطن العذرى مرتمريم

(*) الفنطسة: هى كلمة غير عربية ولعلها لاتينية دخلت اللغة المصرية كأحد المؤثرات الناتجة عن الحروب الصليبية ونحن ننطقها الآن «فنتازيا».

---

الذى كان يصدر الى أوربا حيث يباع بأسعار مضاعفة [١]. كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الافريقى فى ذلك الوقت [٢]. فقد اشتغل فى تلك التجارة يهود مصر [٣].

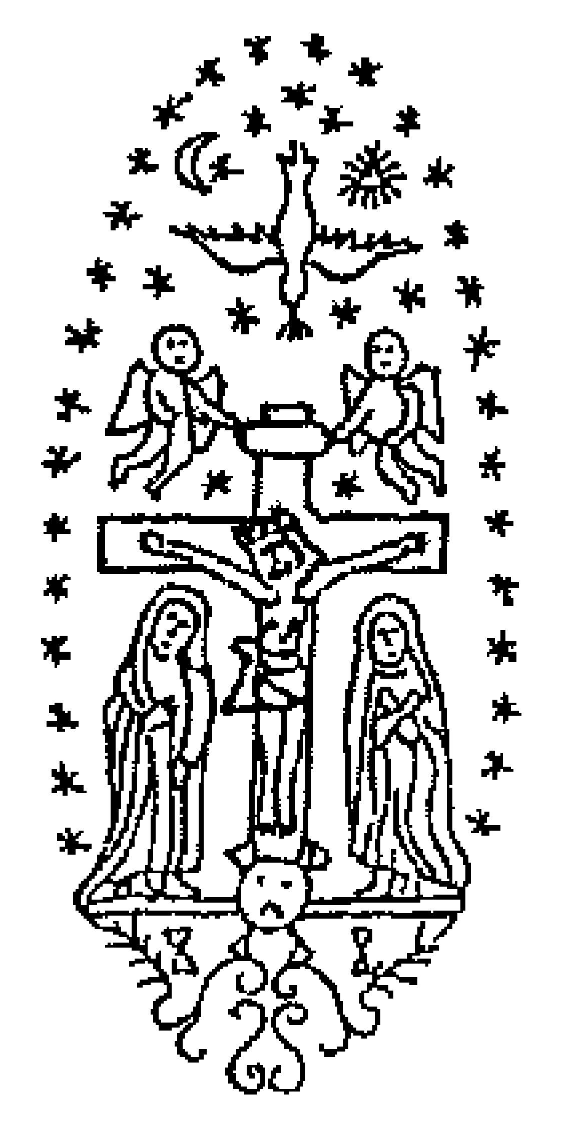
ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق، ولم تكن تلك السع تستهلك جميعها محليا، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب. كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التى اكتسبت شهرة فى الأسواق العالمية [٤].

ويرى المؤرخون ـ من واقع وثائق الجنيزة ـ أن غالبية اليهود الرازانية الذين انخرطوا فى تجارة الشرق قد قل دورهم فى مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى. وأن دورهم أخذ فى الاضمحلال بعد أن دخلت الحكومة الفاطمية فى علاقات ومعاهدات تجارية مع المدن والدول الأوروبية [٥]. وفضلا عن ذلك فقد

(١) ــــــــ نفس المرجع ، ص ٩٤، ٢١٣.
(٢) سيدة كاشف وحسن محمود: المرجع السابق ، ص ٢١٤.
(٣) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٤) ــــــــ : المرجع السابق ، ص ١٩٧، ١٩٨.

(5) Goitein : Op. cit., p. 107.

من غير زريعة بشر وصيره معه واحد وراوه الناس جسوه ولمسوه واكل معهم بالحقيقة وشرب ومشى بينهم وتعب وجاع وعطش وسهر وتالم وصلب ومات وقبر، وفعل كل الافعال البشرية التى تشهد بها الاناجيل المقدسة ما خلا الخطية، وقام من الموتا وظهر لتلاميذه واوراهم اثار المسامير في يديه ورجليه وطعنه بالحربة في جنبه، وجسو جسده ولمسوه كما قال لهم: جسو والمسو فان الروح ليس



وشم يمثل صلب المسيح.

---

استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين فى مصر والهند واليمن[1]. ويبدو أن اليهود الذين استقروا فى مصر قصروا نشاطهم على التجارة الداخلية والنشاط المصرفى والأعمال المالية [2]. كما اعتنق بعضهم الاسلام حفاظا على مكاسبهم المالية التى كانوا يحققونها من الاشتغال فى هذه الأعمال، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له من وقت لآخر من اضطهاد[3] ونهب.

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل الذمة فى مصر قد شاركوا فى الحياة الاقتصادية، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة فى العصر الفاطمى الأول..

## الحياة الاجتماعية والدينية للمصريين من أهل الذمة

## (أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

**- القبط واليهود فى مصر فى العصر الفاطمى الأول:**

عندما احتل العرب مصر كان معظم أهلها فى ذلك الوقت من الأقباط، والى جانبهم أقلية

---

(١) متز : المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣١٣.
- القوصي: المرجع السابق ، ص ٩٠، ١٦٤.
(٢) عاشور : المرجع السابق . ص ٤١ .
(٣) القوصي: المرجع السابق.ص ١٦٤ .

له عظم ولا لحم كما ترون لى ، واكل معهم وشرب بعد القيامة ليثبت فى نفوسهم صحة قيامته وحقيقة انسانيته وانها بعد القيامة باقية بحالها لم يستحيل الى اللاهوتية. والشهادات على صحة هذا كثير جداً، فمنها انجيل متى البشير ان الملاك قال ليوسف لا تخف يا يوسف ان تقبل خطيبتك مريم فان الذى تلده هو من روح القدس، وفسره القديس يوحنا فم الذهب وقال: ان روح القدس

---

من اليهود. كما كان يعيش فيها بعض الطوائف التى تنتسب الى شعوب أخرى كانت أهمها طائفة الروم الملكانيين[١].

وفى السنوات الأولى من الغزو سكن العرب المدن الكبرى وظل سائر قرى مصر بأيدى القبط، ثم بدأوا يزحفون الى الريف، وينتشرون فى ريف مصر رويدا رويدا. وعلى الأخص ابتداء من القرن الثانى للهجرة حيث كثر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة.

وقد قام الأقباط فى ريف مصر بعدة ثورات فى سنوات ١٠٧هـ، ١٢١هـ، ١٣٢هـ، ١٥٠هـ، ١٥٦هـ، وكان الدافع الى قيامهم بتلك الثورات، عدم رضاهم عن سياسة الولاة المالية [٢]. وعادة ما كان يتبع اخماد تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط الى الدين الاسلامى، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة ـ فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ـ من تعريب الدواوين، واحلال المسلمين محل الموظفين من أهل الذمة فى الوظائف[٣].

---

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦٤.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٣) سيدة كاشف: المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٠.

هو الذى خلق الجسد فى بطن مريم، جسد الكلمة
هو من فعل الروح القدس. وقال القديس ساورس
بطريرك انطاكيـة فى تفسيـر انجيل يوحنا ايضـاً:
لاجل الثـوب الغيـر مـخيط من فـوق هكذى ان
الثوب المنسوج من فوق الغير مخيط يدل على
جسد يسوع المسيح، انه مخلوق من روح القدس
من فوق من غير زريعة بشر. وقال بولس الرسول
فى رسـالتـه الى افـسس: وتتـجـددو بروح قلوبكم

---

واسقـاط الجزية عن كل من يعتنق الاسلام أثر كبيـر فى تحول كثيـر من القبط الـى الاسـلام(١).

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ ـ فى عهد الخليفة المأمون ـ التى قام بها الفلاحون الأقباط فى الوجه البحرى ـ وخاصة أهالى البشمورـ بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم. ولما استفحل أمر هذه الثورة، جاء الخليفة المأمون الى مصر للعمل على قمع الثورة واخمادها وسار بنفسه على رأس قواته التى نجحت فى اخماد الثورة فى صفر سنة سنة ٢١٧هـ (٢).

وبانتهاء تلك الثورة التى كانت أكبر وآخر الثورات التى قام بها الفلاحون الأقباط، دخل كثير منهم فى الاسلام (٣).

ثم جاء قرار الخليفـة المعتصم سنة ٢١٨هـ باسقـاط العرب من ديوان العطاء، وقطع أعطيات من فى الديوان منهم، فأصبح العرب لايتميزون عن أهل البلاد الامن الناحيتين الدينية واللغوية، وفقدوا مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية، مما اضطرهم الى الانتشار فى الريف

---

(١) ـــــــــ: نفس المرجع، ص ٢١١ـ٢١٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٧٩، ٨٠.
ـ سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٢٠٩ـ٢١١.
(٣) المقريزى: المرجع السابق، ص ٨١.

وتلبسو الانسان الجديد الذى خلق من الله ببر
وحق وطهارة. وقال فى رسالته الى قولاسايس :
اخلعو الانسان العتيق مع جميع افعاله والبسو
الانسان الجديد الذى يتجدد بالعلم شبه خالقه.
وقال اغريغوريس صانع العجايب اللاحق بالرسل
فى الحرم الثانى عشر: من قال ان جسد المسيح
غير مخلوق ولا يقر ويعترف ان الله الكلمة الغير
مخلوقاً قبل الناسوت المخلوق وتجسد واتحد كما هو

---

بصورة أكثر مما كان عليه الأمر فى القرنين الأول والثانى الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة، وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عن الاشتغال بها وزاحموا أهل البلاد فيما بقى لهم من أرزاق.

غير أنه ـ فى القرن الرابع الهجرى ـ يذكر ابن حوقل أن «معظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف. وأهلها نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة»، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال [١]. كما يذكر أبو الصلت أن:«سكان أرض مصر أخلاط من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبط، وروم، وعرب، وأكراد، وديلم، وحبشان، وغير ذلك من الأصناف، الا ان جمهورهم قبط» [٢]. أما المقدسى الذى زار اقليم مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فيقول أن «عامه ذمته نصارى يقال لهم القبط، ويهود قليل»[٣].

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة دار الحياة ببيروت، ص ١٥٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ ، ص ٤٧.
وأبو الصلت هو أميه بن عبد العزيز أبى الصلت العلامة الأندلسى الذى زار مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى خلافة الآمر بأحكام الله، وتوفى سنة ٥٢٨هـ(عنان: تاريخ الجامع الأزهر، ص ٥٧).
(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.

مكتوب فليكن محروماً. وتفسيره من قوله: كيف يقولون ان جسد المسيح غير مخلوق لا يتالم ولا يطعن جسده بحربة ولا يلمس، والمسيح لما قام من الموت أورى تلاميذه اثار المسامير وشاهدو الطعنة والجسد الذى لمسوه، دخل اليهم والابواب مغلقة ليظهر لهم قوة لاهوته وحقيقة ناسوته. وقال القديس بوليدس بطرك رومية في رسالته الى ديونوسيوس : نعترف بالمخلوق لاتحاد الخالق به لما

---

كما كان النصارى يشكلون غالبيه سكان القرى مثل «أبنوب» و«طنبدى» من قرى الصعيد[١]، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها[٢]. وفى الوجه البحرى وجدت أيضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر سكانها[٣].

فاذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية، نجد أن أهل مصر القبط كانوا غالبية. فمدينه تنيس التى يقدر ناصرى خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها[٤]. كما كانت مدينة دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطئ البحر[٥]. أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى ـ والتى تقع بين تنيس ودمياط ـ فقد كان أكثر سكانها من الاقباط[٦].

كما أن مدن الصعيد الكبرى كاسيوط وأخميم ـ على على سبيل المثال ـ كانت غالبية

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ١٥٥.
(٢) أبو عثمان الصفدى: المصدر السابق، ص ١٣، ٦٣، ١٠٥، ١٠٧.
(٣) المقريزى: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٤) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٩.
(٥) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.
(٦) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

اجتمع بالمخلوق طبيعة واحدة ثابتة قايمة من الجهتين لما نعلمه من خلقتنا نحن البشر، وان من الجهتين من النفس والجسد طبيعة واحدة ثم شخص واحد يدعى انسان. وقال ايضاً فى رسالته الى برسطوليس: ليكن محروم كل الذين يقولون ان جسد مخلصنا ليس هو من مريم ويقولون انه من السما وانه غير كاين. وقال يوحنا فم الذهب فى (الميمر) الذى قاله على الميلاد الذى اوله: سراً

---

سكانها من المصريين القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية فى مصر الفاطمية [١].

هذا بينما نجد بنيامين التطيلى الذى زار مصر حوالى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، أى فى أواخر العصر الفاطمى يقدر تعداد اليهود فى مصر ببضعة آلاف. فحسب تقديره كان فى المحلة حوالى خمسمائة يهودى، وفى بلبيس ثلاثة آلاف، وفى أبى تيج مائتان، وفى دمياط مائتان، وفى حلوان ثلاثمائة، وفى قوص ثلاثمائة، كما قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بألفى يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلما [٢]. ولابد أن عدد يهود مصر فى العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين، اذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود ـ بعد أن تظاهروا بالاسلام ـ فى يوم واحد فى عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى[٣].

كما كشفت وثائق الجنيزة عن حقيقة هامة، وهى أن اليهود لم يعيشوا فى الموانى والمدن

(١) زكى محمد حسن: كنوز الفاطميين، ص ١١٦.
(٢) بنيامين التطيلى: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

عجيب مثل صانع حاذق اذا وجد شياً جيد يصنع
منه انا[ء] جيد هكذى سيدنا لما وجد جسد
العذرى المقدس ونفسها المقدسة خلق له منها
هيكلا له نفس، كما شا جسد ناسوتى من البتول
لبسه وظهر اليوم ولم يانف من نقيصة الطبيعة ولم
يحدث له رزيه لما اتحد بلباس طبيعتنا والمخلوق ربح
مجد عظيم لما صار هيكلا للخالق وكما (انه)
غيرممكن فى البدى يقام الانسان قبل ان ياخذ

---

الرئيسية السالفة الذكر فقط، بل عاشوا فى الريف المصرى أيضا، ولعبوا دورا هاما فى التجارة والأعمال المالية (١).

أما فى الواحات، فقد كان الغالب على الفرفرون (الفرافرة) السكان من القبط، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢).

ولم تمدنا المصادر التاريخية التى وصلت الينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى مدينة الفسطاط، وان كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٣).

أما فى القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة. فعندما اختطت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها، وأختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٤). ويذكر الأنطاكى أنه كان للروم

---

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٦٤.
(٢) ابن حوقيل: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) سيدة كاشف وحسن محمود: مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين، ص ٢١٤.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٣، ص ٣٥٧.

التــراب بيـــده، هكذى الاناا[ء] الذى هلك ليس
يمكن ان يخلق دفعة اخرى الا ان يصير لباسا
لخالقه، فلاجل هذا لم يخلق له هيكلا من شيا
اخر ولم يخلق جسدا اخر ليلبسه حتى لا يظن انه
يجعل نقيصة للخلق الذى لادم. وقال القديس
اغريغوريس التاولوغس اسقف انيزينزو فى الميمر
الذى قاله على الميلاد المقدس الذى اوله: المسيح
ولد لنا اليوم يالهذا التدبير الجديد الذى لله، يا

---

لكانيه حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها، وهدمت مبانيها، وجلوا منها الى الموضع
مروف بالحمراء، فعملوا لهم بها حارة، واتخذوا منها موضعا لسكناهم [1].

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجودرية - نسبة الى احدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر
له -، وظلوا مقيمين بها، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلواتهم،
يهزءون بالمسلمين، ويسخرون منهم، ويخوضون فى الديانة الاسلامية، ويتعرضون الى ما
ينبغى سماعه، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلا وأحرقها، ثم أفرد لهم حارة
يلة [2]. وأمرهم فى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م بأن يلزموا حارتهم، وألا يخالطوا المسلمين فى
حاراتهم[3].

وكان الصناع الأجانب يسكنون فى المناخ السعيد بالقاهرة، ويظهر أن هؤلاء الصناع
جتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السمحة ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى
لذين علموهم مختلف الصنائع والحرف المصرية [4].

---

(١) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤.
(٣) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٣.

لهذه الوحدانية الغير ممتزجة العجيبة، الازلى فى كل مكان تكون والغير مخلوق خلق كما هو مكتوب ان اعترفو لرسولى وكاهنى الذى يعترف به يسوع الموتمن عند من خلقه. وقال ايضاً فى ميمره على الامانة: من قال انه خرج من العذرى مثل جواز [الماء] يجرى فقط ولا يعترف انه خلق جسده ووحده منها بلاهوته لانه خلق بلا ذكر بناموس الخليقة فهو محروم.، وقال ابوقلس اسقف

---

أما مدينة الاسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات إجنبية مختلفة، وكان لكل جالية فندق خاص بها [١].

وكان الغزو العربى لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت منتشرة فى مصر ذلك الوقت، فأصبحت الدروس تقرأ فى الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية، وبعد أقل من نصف قرن من الغزو تقريبا بدأ العرب يتجهون الى تعريب الدواوين لعدم معرفتهم باللغة القبطية، وقد بدئ فى تعريب الدواوين فى مصر سنة ٨٨هـ ٧٠٦م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك، مما اضطر المصريين العاملين فى دواوين الحكومة الى تعلم اللغة العربية حفاظا على الوظائف التى كانت بأيديهم[٢].

وعلى الرغم من أن اللغة العربية أخذت فى الانتشار، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها، الا أن عامة أهل مصر يتحدثون القبطية» [٣].

وكان القبط يتكلمون القبطية بلهجات متعددة، فاللهجة البحرية كانت تستعمل فى

---

(١) سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٠٣.

(٢) سيدة كاشف: مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٧٩.

(٣) المقدسى: المصدر السابق، ص ٢٠٣.

كسلس فى ميمره على الميلاد بمحضر من نسطور فى القسطنطينية: يا ايها الاحشا الذى خلق فيه السلاح المقاوم للموت لاجلنا . وقال ابيفانيوس اسقف قبرص فى كتابه الكبير المسما المرسا: اخذ جسده من مريم العذرى بلا زريعة بشر وخلق هذا الجسد المقدس، كما قال واتى من امراة واخذ الذى لنا. وقال القديس كيرلس بطرك اسكندرية الاول فى رسالته الى سرجس [سرجيوس]: ليس

---

؟سكندرية وما جاورها والدلتا ووادى النطرون ، ثم أصبحت اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية ىنذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى الخامس الهجرى [1].

ويذكر المقريزى أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون « القبطى الصعيدى» ـ لهجة الصعيدية ـ وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون الا القبطية صعيدية، وأن لهم أيضا معرفة باللغة الرومية«اليونانية» [2].

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضرون أفراح المسلمين ويطوفون فى سواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهللون ويغنون قبطية صعيدية [3].

وفى الصعيد كانت هناك أيضا لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التى كانت ستعمل فى أخميم واللهجة الأسيوطية ، واللهجة الفيومية التى كانت تستعمل فى الفيوم. وأما ى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشمورية [4].

---

(١) زكى شنودة: المرجع السابق، ص ١٠.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٥ ـ ٥٥٦.
(٣) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ٣٠٥.
(٤) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١١.

هــو مسـتقيـم ان يـقال ان الجـسـد انتقل الى
طبيـعـة اللاهـوت أو أن الـكلمـة انـتـقل الى
طبيـعـة الناسـوت وكـما ان هذا غـير ممكن وهو
غـيـر منتقل ولا مـتبـدل هكـذى الاخر ليس هو
ممكـن ان ينتـقل شـي المخلوق الـى جـوهر طبيعة
اللاهوت لان الجـسد مخلوق جسد المسيح، نقول
عنه انه صـار جـسـد الله، وقـال ساويرس المجـاهد

---

وفى القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية . فقد كتب البطريك الملكانى سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية، كما أن كاتبنا ساويرس بن المقفع أواخر القرن الرابع الهجرى /أواخر القرن العاشر الميلادى) أسقف الأشمو نين كتب مؤلفه الذى بين ايدينا هنا «سير الآباء البطاركة» باللغة العربية أيضا، هذا بجانب القيام بجمع الوثائق اليونانية والقطبية وترجمتها الى العربية [١].

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملين فى المعاملات الخاصة الى أن بطل استعمالهما فى القـرن السابع الهجر ى /الثالث عشر الميلادى . ففى هذا القرن أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب السائدة وإن ظلت اللغة القبطية مستعملة حتى القـرن الثامن عشر[٢].

---

(١) سيدة كاشف: مصر ى فجر الاسلام، ص ١٨٠.

(٢) زكى شنودة: المرجع السابق، جـ١، ص ١٣.

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب فى القرى البعيدة فى الصعيد الأعلى حتى القرن السابع عشر الميلادى (القرن الحادى عشر الهجرى)، وفى القرن الثامن عشر الميلادى بدأ الأقباط يكتبون اللغة القبطية بحروف عربية، وفى القرن التاسع عشر انتهى الكلام والتخاطب باللغة القبطية وان =

*) حكم بين عامى ٤٩١ /٥١٨م.

بطريرك انطاكية فى المكاتبة التى كتبها لنسطس(*) الملك البار ملك القسطنطينية لما احرم مقدونيوس: لما كثرت الخطية على الارض نزل الله الكلمة من السما وحل فى بطن مريم العذرى وبنا له فيها جسد بشر غير مدرك ولا تحويه العقول ومكث فى احشاها تسعة اشهر واخذ الجسد منها وخلق له جسد، ليس الاب كان فى احشاها ليلا [لئلا] يقول انسان ان الاب ينتقل الى البنوة بل هو الابن

---

**لمكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة:**

كان لسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون ازاء أهل الذمة أثر هـا الكبير عليهم، كـان منهم الـوزراء والوسطـاء وكـبـار رجـال الدواوين، والكتـاب والأطبـاء والمتـقـبلين، لصـناع المهرة، والتجـار الأثريـاء والملاك أصحاب الضيـاع فى مـصر، ووصل الكثيرون هم الى مكانة اجتماعية سامية، فكانوا من الطبقة العليا فى المجتمع ذات الصلة الوثيقة لخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الإقطاعات والضيـاع والمنح والأموال والعطايا فى شتى اسبات.

ففـى سنـة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م ولد للـوزير ابن كلس ولد، فأرسل اليه العزيز بالله مهدا ، صندل مرصع وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار، وخمسة عشر فرسـا بسروجها لجمها، كم اشتملت الهدية على كثير من الطيب، وقد بلغت قيـمـة هذه الهدية مائة ألف نار (١).

---

=كانت قد ظلت فى بعض القرى والكنيسة حتى القرن العشرين (زكى شنودة نفس المرجع، ونفس الصفحة).

١) المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ٢٥٢.

---

*: انبا ميخاييل البطرك ١٠٩٢ / ١١٠٢م

بارادة الاب ومشيئة الروح واحده الثالوث المقدس
حتى لا يقول احد ان غيره خلقه ولا يقال انه
غيرها من اللاهوت بل هو وحده الذى تجسد
وصبر على كلما ناله، ليس يرى شبح ولانزل
الجسد معه من السما بل هو خلقه من البتول من
غير زريعة واتحد به بلا افتراق ولا اختلاط ولا
امتزاج. وقال القديس يعقوب اسقف مدينة سروج
فى ميمره على الالام المحييه التى اوله: يا ابن الله

---

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة ـ الذين سبقت الاشارة اليهم ـ بالأموال والهدايا تشجيعا وتكريما لهم [١]، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر، وكما شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا فى رغد من العيش [٢].

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى، اذ كانوا هم الطبقة التى اعتمد عليها فى ادارة دواوين الحكومة، ففى عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة فى بلاط الخلافة وتولى الاشراف على الادارة المالية فى الدولة، وليس هناك أدل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم، من تلك العلاقة والصداقة التى وجدت بين العزيز بالله ووزيره ابن كلس، وفى كلمات العزيز له وقت احتضاره، ما يؤكد حب الخليفة له، ومكانته الاجتماعية [٣]، وفى رسالة العزيز إلى طبيبه ابن مقشر ما يشير إلى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له. كما

---

(١) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣١٦.
(٢) القفطى: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٥٤٨.
(٣) أبو شجاع: المصدر السابق، ص ١٨٦.

الذى صار ذبيحة عنا، خلق له ساعدين ليمدهما
على الصليب وخلق له صدر ليحتمل الشوك.
وقال فى ميمره على الميلاد المقدس بشرح ما قاله
الملاك للعذرى : والذى يصور الاطفال الصغار هو
يصور له مثل جسد ويلبسه ورب الابناء يكون فى
احشاك وتحبلى ولبس لباساً فى بطنك الطاهرة
ويعد له لباس توشيح جسد من منسج احشاك.
وقال فيه ايضاً: وكان خالق الاطفال الصغار ينمو

---

ن الحاكم بأمر الله زار ابن مقشر عندما مرض، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد
اته(١).

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصرانى الخليفة الحاكم بأمر الله، وشرب معه عندما أشار
ليه بذلك ، وكان من خواصه وندمائه. وواحد من القلائل الذين يفضى اليهم بأسراره، كما
ـالس ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين ابن جوهر، وأبو
لحسن الرسى، والمسبحى، والقاضى عبد العزيز ابن محمد بن النعمان، وكان يخالطهم،
يحضر مجالسهم الخاصة (٢).

وامتلك كثير من أهل الذمة الأموال الطائلة والقصور الفخمة التى امتلأت بالخدم والعبيد،
كتظت بأثمن ما عرف فى هذا العصر من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات.

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين فى عهد الخليفة المعز ما يزيد على
سبعين ألف دينار (٣)، كما امتلك الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياع والأموال،

---

١) القفطى: المصدر السابق، ص ٤٣٨.
ـ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق، ص ٥٥٠
٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر، القسم الثانى، ص ٣٦٢، ص ٣٦٣.
٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤٤.

في الحشا ويخلق اقانيم تامة في النسا. ولما كمل ملو اكليل جسده وتم تاج اعضا عظمته ولما جمع الجسد حواسه بعلمه وكمل طابع الخاتم الذى لملو جسده بجمع اقنومه معا. ولما خلق اقنومه في حواسها وصنع الصورة التى للانسان الكامل منا وكمل جسده. وقال ابوليديس بطرك رومية في رسالته الى القديس ساويريانوس اسقف عابلا : ولكن هو الذى بنا جسده في بطن العذرى ولم

---

وكان قصره واحدا من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد في تركته بعد وفاته (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار، ومن الملبوس والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، سكنوا في المكان المعروف بالحارة الوزيرية التى اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه و حشمه، ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار [١].

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبا لجمع المال فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء [٢]، وليس أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التى بلغت ثلاثمائة ألف دينار، والتى دفعها الى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله[٣].

أما منشا بن ابراهيم القزاز اليهودى الذى كان عاملا على الشام، فقد جمع ثروة بالابتزاز، مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرته [٤]. كما استحوذ فهد بن ابراهيم

---

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٤٩.
(٤) أبو شجاع: المصدر السابق ، ص ١٨٦.

يشاركه احد فى خلقة جسده، فلو كان هذا الحبيس يا اخوتى قرا هذه الكتب او شى منها لم يعتقد اعتقاده الفاسد، ومن لم يقرى فلا علم له، ومن لا علم له فلا نرضاه ان يكون بطركا لنا ولا مقدم علينا لان القوانين المقدسة تمنع من لاعلم له ان يصير فى شئ من درجات الكهنوت، ولذلك قالو انه يجب انه يكون الاغنسطس عالماً بالكتب ويوافق ما بين العتيقة والحديثة . قال واضع هذه

---

ـصرانى على كثير من الاقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوى ستة آلاف ـار[1].

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء، وعندما أمر الحاكم بأمر ـه بقتله فى سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار ـا يفدى به نفسه فلم يجب إلى ذلك [2].

ويحدثنا ناصرى خسرو عن ثروة أبى سعيد التسترى بقوله أنه «يهودى وافر الثراء... وقيل لا يعرف مدى غناه الا الله، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع فى ـ منها شجرة، كأنها حديقة، وكلها أشجار مثمرة» [3]. وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ـكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فورا لخزانة الدولة مائتى ألف دينار، غير أن ـستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس، وتمزيقها على الملأ، وخاطب الجميع قائلا ـونوا آمنين، وعودوا إلى بيوتكم، فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد» [4].

كما يذكر ناصرى خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر، قيل أن

---

١) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٥٩.
٢) المقريزى: اتعاظ الحنفاء جـ٢ ، ص ٥١.
٣) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٦٤، ٦٥.
٤) ـــــــ: المصدر السابق، ص ٦٥.

السيرة فقالو الاسافقة والاسكندرانيين ما نقدم علينا الا من نعرف غزارة علمه ونزاهة نفسه وطهارته ونسكه واستقامة امانته، ومن يدخل تحت الشروط التي نشرطها عليه وناخذ خطه بها. ومكثو اياما يحثو ويستقصو عنمن يصلح للبطركية، فحضر من ذكر لهم ان في قلاية سنجار حبيس راهب قسيس اسمه ميخاييل وانه عالم فاضل قد قرا وفهم، وامانته مستقيمة وهو كهل في الرجال

---

مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن لدى هذا النصراني من الغلال ما يمكنه من اطعام أهل مصر «الفسطاط» ست سنوات [1]. وعلى الرغم من أن ناصرى خسرو كان مبالغا فيما رواه، الا أن في روايته الدليل القوى على ثراء الكثير من أهل الذمة في مصرالفاطمية.

وكان أبي المليح الملقب بمماتي واحدا من نصارى أسيوط الأثرياء، وأنه كان يمتلك أيام الغلام والشدة العظمى في عصر المستنصر بالله قمحا كثيرا، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه [2].

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلوى فيقبلها منه، ويخلع عليه ويقضى حوائجه[3]. أما المعلم اسحق الذى كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط، فقد امتلك من الأراضي والأموال والماشية الشئ الكثير [4].

(١) ــــــ: نفس المصدر، ص ٦٢.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ١٥٩.
(٣) أبو صالح الأرمنى المصدر السابق، ص ٣٢.
(٤) نفس المصدر، ص ١٣٠.

ويصلح لهذه الرياسة، فسارو باجمعهم الى سنجار واجتمعو بجماعة من اهلها وسالوهم عن قضية امره فما من احد ممن يسالوه عنه الا ويصفه بالاوصاف الجميلة، فلما تحققو ذلك اجتمع رايهم على تصييره بطركاً، فسارو الى قلايته وطلع اليه انبا سنهوت اسقف مصر وبعض الاساقفة والشماس ابو غالب ابن مرقوره السنجارى وتحدثو معه وفاوضوه فى الامانة وعلوم الشريعة، فاجابهم

---

وقد امتلك أهل الذمة ـ وبخاصة الأثرياء ـ الرقيق، ليعملوا خدما فى القصور. فقد وجد فى تركه ابن كلس أربعة آلاف عبد ومملوك [١]، كما امتلأت قصورهم بالجوارى والقينات، وكان اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خدما لهم [٢]، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم ست الملك كانت جارية رومية [٣]، كما كانت أم المستنصر بالله جارية سودانية لأبى سعيد التسترى أهداها للخليفة الظاهر لاعزاز دين الله [٤]، وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من الطوائف الاجنبية أن تهافت الأقباط ـ وخاصة الموظفين منهم ـ على تعدد السرارى فى بيوتهم بدون عقد شرعى، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية[٥].

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية، كان أهل الذمة يلبسون الملابس الجليلة، وكان عمال النصارى يلبسون أثوابا كأثواب عظماء المسلمين، ويركبون البغال ويمتطون الخيول [٦].

(١) العينى: المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٤٢٠.
(٢) القوصى: المرجع السابق، ص ٢١٣.
(٣) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥١.
(٤) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ١ ـ٣.
(٥) بتشر: تاريخ الأمة القبطية وكنيستها، جـ٣، ص ١٦.
(٦) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٦٦.
ـ بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص ٢٤.

بما استدلو منه على علمه وقوة امانته، فعند ذلك اطلعوه على ما فى نفوسهم من تقدمته ريساً عليهم، وقالو له: انت رجلا عالم عاقل ما يتغطا عليك قدر ما دعوناك اليه وانها رتبة جليلة ورياسة منيفة وخدمة عالية شريفة، وانت تقدر عليها بعلمك وكهنوتك وزهدك وسياستك وما هى من الامور التى ياباها مثلك ويمتنع منها، ونسلك قبول سعينا اليك واجابتنا الى ما عولنا فيه عليك على

---

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم، ودلالة على مكانتهم فى الدولة. فابن كلس الوزير لقب «بالوزير الأجل» [1]، ولقب عيسى بن نسطورس «بسيدنا الأجل» [2]، أما ابن عبدون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب «الكافى» [3]، كما انعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب «الشافى» [4]، ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس «بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين» [5]. أما المستنصر بالله الفاطمى فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الأصل لقب «الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين» [6]، كما منح أبو على الحسن بن أبى سعد ابن ابراهيم بن سهل التسترى لقب «العميد علم الكفاة» ، وخوطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصرانى الأصل - فى خلافة المستنصر - بلقب «الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين» [7].

---

(١) المقريزى: المرجع السابق، جـ٢، ص ٥.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٤٤.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٦.
(٤) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٦٤.
(٥) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٥٠.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٩١.
(٧) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٦.

الشـروط التى نذكـرها لك ونعـرف وجـوبهـا على قـدسك . ثم ضـربو له المطانوه وقـالو له: نريد ان تقبل منا هذه المطانوه وتجيبنا الى ما سالناك فيه بطيبة قلبك بلا عنف ولا تحوجنا ان ناخذك غصباً ولا كرهاً فان ذلك مما لا يليق بك . فاجابهم الى ما ارادو وقال لهم: ماهى الشروط التى تشترطوها؟. قالو : تكتب لنا بخطك قبل كل شى بامانتك على القضية التى اتفقنا عليها وسمعناها منك، قال:

---

**. القيود الاجتماعية التى فرضت على المصريين من أهل الذمة:**

التزم أهل الذمة فى الدولة الاسلامية من الناحية الشرعية بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعى، وتشكل جانبا مما اصطلح على تسميته «بالعهد العمرى» أبو «الشروط العمرية» المنسوبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب.

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية فى الزام أهل الذمة بلبس الغيار فان كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر، وان كان نصرانيا شد فى وسطه زنارا وعلق فى عنقه صليبا، وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود، واذا دخل الذمي الحمام ينبغي أن يكون فى عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزا له من المسلم [1].

(١) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص ١٠٦.
وروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم فى كتابهم الى عمربن الخطاب أن لا يتشبهوا بالمسلمين فى شئ من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا. وأن يشدوا الزنار على أوساطهم. ويرى أصحاب الامام الشافعي أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس تميزهم عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنار على أوساطهم. ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم أو الطيلسانات. وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الأزار. وقيل فوق الازار، وهو الأولى، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض (الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف، جـ١، ص ١١٠ ـ ١١٢).

نعم. قالو له : وتذكر فيه التزامك بالقيام بما لكهنة اسكندرية ما جرت به عادة من تقدمك فى هذا الكرسى بالقيام لهم به فى كل سنة ليصرفوه فى عمارة البيع التى بها. وفى القرابين المرفوعة على هياكلها وفيما يلزم ضعفاهم من جالية وغيرها، قال: نعم، وان قدرت على اكثر مما جرت به عادة من كان قبلى قمت لهم به فان الحظ والجمال لى فى ذلك. قالو له : وتذكر فيه انك لا تاخذ

---

كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين، وألا يتجاهروا بشرب الخمر واظهار الصلبان والخنازير، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب عليهم ولا نياحة وان يمنعوا من ركوب الخيل[1].

تلك هى بعض الشروط التى وردت «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» التى تنظم تصرفات أهل ا لذمة فى المجتمع الاسلامى. ويرى البعض أن تلك الشروط المشار اليها والتى عرفت باسم «الشروط المستحبة» انما هى من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة، مغالاة منهم فى فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط فى عهد النبى[2].

وفى بداية العصر الفاطمى الأول لم يلجأ الخليفتان المعز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس، الركوبات، والحمامات، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة، فالتسامح كان أساسا لسياستهما تجاه أهل الذمة...

---

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٢٠، ٢١ (نقلا عن أبن قيم الجوزية أحكام أهل الذمة. جـ١، ص ٢٣٦).

(٢) قاسم عبده : المرجع السابق، ص ٢١.

شرطونية من احد ممن تصيره في درجة الاسقفية ولا غيرها من ساير طقوس الكهنوت لان القوانين المقدسة تمنع ذلك وتامر بقطع من ياخذه، فان الذى ياخذ والذى يدفع كلاهما محرومين مقطوعين، وترد ايضاً على اساقفة الكراسى ما اغتصبه من كان قبلك من كنايسهم ودياراتهم وشاركهم في كراسيهم، لانك تعلم ان البطرك انما هو اسقف اسكندرية وله التقدمة على اساقفة

---

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التى نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة ـ باستثناء الخيابرة ـ [1]، وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار، وذلك تنفيذا لما اصطلح على تسميته «بالشروط العمرية» ولكن الحاكم بأمر الله بالغ فى هذه الشروط وزاد عليها، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم إلى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه فى عهود الاضطهاد السابقة [2]. ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة فى تطبيقها بالدرجة التى فاقت احتمال الكثيرين منهم [3].

ففى النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى. واليهود ـ دون الخيابرة ـ بشدة الزنانير فى أوساطهم، ووضع العمائم السود على

(١) وهم يهود يرجع اصلهم إلى خيبر وما جاورها ، الذين أمر عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر، وذلك جريا على السنة الأولى منذ أيام النبى (ماجد: الحاكم بأمر الله، ص ٩٦).

(٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٣٥٤.

(٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٩.

كراسي مصر لا مشاركتهم في كراسيهم، وكما
انه لا يجوز لمن له زوجة ان يشاركه اخر في زوجته
كذلك لا يجوز لا سقف ان يشارك اسقف اخر في
كرسيه الذى هو عروسته، وترد عليهم ما كان من
تقدمك اخذه من كراسيهم واغتصبه على سبيل
الشره وطلب المجد الفارغ والزخرفة الدنيانية التى لا
يرضاها الله ولا الناس ولا تليق برويسا الاساقفة.
قال لهم: وما هى البيع والديارات التى اخذها

---

رؤوسهم ـ اذ كان السواد هو شعار العباسيين وهم العصاة فى نظر الفاطميين ـ وأعلن هذا السجل فى جوامع مصر، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة فى انحاء الدولة[1].

وفى سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٦م اشتدت القيود صرامة، ففى هذا العام أمر النصارى، واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس السواد، وأن يحمل النصارى الصلبان فى أعناقهم ، وأن يحمل اليهود فى أعناقهم قرامي الخشب والجلاجل [2].

وفى العام التالى أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار، واشترط على من يقيم فى دولته منهم فى مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التى زاد فيها على الشروط العمرية، فشرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة، وعلى اليهود قرامي الخشب على هيئة رأس العجل. فاتخذ النصارى صلبان الذهب والفضة، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صلبان الخشب واليهود بتعليق القرامي، كما أمر بالنداء فى أهل الذمة بأنه من أراد الدخول فى الاسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم

(١) الانطاكي : المصدر السابق، ص ١٨٧.
ـ المقريزى: انعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣.
(٢) النويرى: االمصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٣.

البطاركة من كراسى الاساقفة؟، قالو: الماخوذ من كرسى مصر كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع وكنيسة ابو مرقوره بساحل الشعير(*) وكنيسة السيدة ايضاً بحارة الروم وهاتين الكنيستين اعنى ابو مرقوره والسيدة بالقاهرة اخذهما اخر سطودلوس بعد وفاة فيلاثاوس اسقف مصر وجعل لابا غبريال الذى صار بعده اسقفاً رسوماً ياخذها منها فى كل سنة، وقداسات معلومة يقدسها فيها

(*) كنيسة ابو مرقوره: كانت على شاطئ النيل قبل ان يغيير مجراه الحالى. وهى الأن على بعد ٦٠٠م تقريباً من شاطئ النيل فى مصر عتيقة قرب الكنيسة المعلقة. أما ساحل الشعير فهو ميناء القاهرة الجنوبى قرب مصر عتيقة حيث كان يستقبل الحبوب والغلال القادمة للعاصمة من الصعيد.

---

كان آمنا إلى ان يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة الى الدخول فى الاسلام (١).

كما نودى فى سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م بأن لا يمشى اليهود والنصارى الا بالغيار والاضربوا على ذلك. ويذكر المقريزى أنه فى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م اشتد الأمر على أهل الذمة فى الزامهم لبس الغيار (٢). وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة الزامهم لبس الغيار (٢). وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملونة التى يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمائم السود على رؤوسهم (٣).

وفى سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أمر النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس العمائم السود، وأن تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال،

(١) ابن العبرى : المصدر السابق، ص ٢١٣.
ـ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦، ٨١.
(٣) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٠.
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨٥.

فى كل وقت وهى ثابتة فى منظرة كرسى مصر، ومن كرسى وسيم والجيزة كنيسة ميكاييل بجزيرة مصر المعروفة بالمختاره، ومن كرسى طموه دير الشمع ودير الفخار وهو ايضاً على اسم الشهيد ابو مرقوره وغير ذلك مما المنظرة المخلدة فى القلاية البطركية شاهد به وتاريخ اخذه من الكراسى الذى هو من حقوقهم. فاجابهم الى جميع ذلك وقال لهم: كلما التمستوه وشرطوه واجب وهو حق

---

وأن تحمل اليهود فى أعناقهم عند خروجهم الى الأسواق قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى [1].

ويذكر ابن اياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصارى أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه[2].

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم فى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، فأمر أن تلبس النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ طيالسة سود، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبان الخشب مضافا إلى الزنار فى أوساطهم، فلبسوا صلبانا طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر فى شبر. فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التى فى رقابهم، وأن يكون طولها ذراع فى عرض مثله، وفتحها

---

(١) القضاعى : المصدر السابق، ورقة ١٨٠.
ـ ابن خلكان : المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٨٠.
ـ العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٦٧٨.
(٢) ابن اياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥٢، ٥٣.

وصدق . وكتب لهم خطه بجميعه واحرم فيه من الاساقفة. وكهنة اسكندرانيين الذين طلعو الى صومعته والذين كانو اسفل والتمسو ان ينزل معهم، فقال لهم: ما انزل الا بعد ان تلبسونى الثوب وتصلو على ان كان هذا الامر قد اتفقتو عليه كلكم . فالبسوه الثوب واوسموه بطركاً ونزل معهم وسارو به الى اسكندرية وكرزوه فى اليوم الثانى عشر من بابه سنة ثمان مابة وتسعة للشهد

---

ثلثى شبر وسمكها أصبع [1]، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه فى رقابهم بحبال من ليف [2]. كما نودى على اليهود بأن يعلقوا فى رقابهم قرامى الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق فى رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم[3]، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم إلى الأسواق بحيث يراها الناس[4] وأذن للناس فى البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم [5]، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصرانى [6]، واذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض للاهانة والغرامة، مما أدى الى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.
(٢) الأنبا ميخائيل، المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.
(٣) ـــــ: نفس المصدر، ص ٥٦.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٣.
(٤) المقريزى: الخطط: جـ٢، ص ٢٨٧.
(٥) عنان : المرجع السابق، ص ١٣٩.
(٦) الانطاكى :المصدر السابق، ص ٣٠٤.

وهى سنة اثنين وثمانين واربعماية الخراجية، وسار منها الى دير ابو مقار بوادى هبيب وكرزوه في كنيسة المعلقة بمصر، فلما اقام بها ايام التمس منه انبا سنهوت ان يفى له ما كتب به خطه من اعادة كنايسه المقدم ذكرها اليه فلم يفعل، وجرى بينه وبينه من الخصايم ما يطول شرحه، وانكر الخط وقال: ان ما هو خطه. واحرم من يشهد عليه بما فيه ولم يرد على احد من الاساقفة كنيسة ولادير،

---

القيود التى فرضت على الملابس. ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فاذا نسى نصرانى منهم صليبه ومشى فى طرقات المدينة بلا صليب تعرض للأذى ولقى كثيرا من الاهانة والسخرية [1].

غير أنه قد زاد من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله لرعاياه من أهل الذمة فى صفر سنة ٤٠٤هـ بالانتقال إلى بلاد الروم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار اذا رغبوا فى البقاء [2]، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها الى نزع الغيار والصليب والزنار والتشبه بالمسلمين، والتظاهر بالاسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الاسلام [3].

كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التى أصدرها بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات..

ففى سنة ٣٩٨هـ و٣٩٩هـ/١٠٠٧م و١٠٠٨م، أمر الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٧ ـ ٥٩.

(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق ، جـ٣، و رقة ٥٧.

ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ويذكر المقريزى تاريخ هذا المرسوم فى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ.

وكان الخط الذى قيل انه كتبه على عدة نسخ منها ما كان بيده، ومنها ما كان بيد كهنة اسكندرية، ومنها ما كان عند انبا يوحنا اسقف سخا لانه اكبر الاساقفة، ومنها ما كان عند انبا سنهوت اسقف مصر، فلما جرى منه ما تقدم ذكره انفذ الى كهنة اسكندرية خطه بما يلزمه لهم خاصة من الرسم الذى يقبضوه فى كل سنة، وطالبهم باعادة النسخة التى فيها تلك الشروط،

---

عند دخولهم الحمامات بعلامات تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب ملقونه فى رقابهم، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب، كما نودى ألا يدخل أحد الحمام لابمئزر، وأخذوا بالشدة والضرب فى تنفيذ تلك الأوامر، كما كبست الحمامات للتأكد من راعاة ما جاء بتلك السجلات . غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة، ولم يعد أهل لذمة يكترثون بتنفيذ [١].

وفى المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢هـ / ١٠١١م أكد ما سبق أن أصدره من امر بشأن الحمامات، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين. أمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة ـ لذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبى الدم اليهودى كاتب الانشاء فى عهد الحاكم ـ ووضع على حمامات النصارى الصلبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامى الخشب، كعلامات ميزة تعرف بها، مع التزامهم بتعليق الصلبان والقرامى الخشب فى رقابهم عند دخولهم

---

١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٥ .
ـ ابن الجوزى: المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩، ٢٤٠ .
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٦.

وتواعـدهم الحـروم والمنع ان لـم يعـيـدوها اليـه، فانفذوها له. واوعد اسقف سخا بمثل ذلك فاعاد اليـه النسـخـة التى كانت مودعة عنده خـوفاً منه، لانه لما تمكن من الامـر واسـتـقـرت اقـدامـه فى البطركية ظهر من سطوته وهيبته وسلطته ما صار له فى قلوب الاساقفة وغيرهم من الخوف والرهبة مثلما كان للاب اخر سطودلوس نيح الله نفسه، ولم يكن احـد من الاسـاقـفـة ولا الاراخنة يقـدر

---

الحمامات [١]. وتأكد ذلك مرة أخرى فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م، كما تكررت تلك القيود فى المرسوم الصادر من دار الخلافة فى شهر المحرم من السنة التالية[٢].

أما فيما يتعلق بالركوبات، فانه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك، كما نعموا بحرية استعمالها فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم [٣]، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال، وكانت لهم الاصطبلات المعدة لتربيتها. ويذكر المقريزى أن فهد ابن ابراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال، وأنه حمل الى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المحلاة، وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة. كما أن الحاكم بأمر الله صرح لأولاد فهد فى شعبان سنة ٣٩٢هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥.
ـ ابن خلكان: المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٨٠.
ـ النويرى : المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ١٠٠.
(٣) ـــــ الخطط، جـ١، ص ٦٨.

يقاومـه في خطاب ولا يراده، واذل الاسـاقـفـة
واهانهـم حتى صارو له مثل ارض يطاها، والتمس
من انبا سنهوت ان يعيد له الخط الذى عنده فلم
يفعل وقال: انت قد انكرته وقلت ان ما هو خطك
فما حاجتك به حتى تطلبه. فوعده وتواعده ولطف
به وتهدده فلم يصغى اليه ولا دفعه له، فمنعه من
التصرف في كنايسه ومن القداس فلم يهمه ذلك،
فانفذ الى كهنة جميع الكنايس بالقاهرة ومصر

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

لذهب، وأمرهم بالركوب [1]، وعندما خلع الحاكم بأمر الله في ربيع الأول سنة ٣٩٤هـ
لى أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة، ولما توفى ابن
سطاس استطب الحاكم بأمر الله صقر اليهودى (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) وخلع عليه في سنة
٣٩هـ / ١٠٠٧م، وحمله على بغلة محلاوة بالسرج واللجام الفخمة، وأهداه ثلاث بغلات
سروج ولجم ثقال [2].

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التى أصدرها لفرض القيود على أهل الذمة شملت أيضا
يسودا على الركوبات ففي سجلاته الصادرة في سنتى ٤٠٢هـ و٤٠٣هـ / ١٠١١م
١٠١م منع أهل الذمة من ركوب الخيل، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج
لجم غير محلاة بالذهب والفضة، وأن تكون من جلود سود، وألا يركب أحد منهم بركب
لديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز، وأمر أيضا أن يضرب في الكنايس بالجرس
ب القاهرة ومصر (الفسطاط) وألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا، كما منع الملاحين
صحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة [3].

١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٤.
٢) ـــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٣.
٣) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٥، ٥٦.
ـ الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٢، ٢٠٣.=

*: انبا ميخاييل البطرك ١٠٩٢ / ١١٠٢م

وامرهم ان لا يذكرو اسمه فى قداس ولاصلاة فلم ينفعه ذلك فيه. ثم بلغ الاسقف المذكور انه يريد يشخص تلاميذه اليه فيشق عليه ويقطعه بالكلية ولا يجعل فى الكرسى اسقف غيره بالجملة مدة حياته، فلما علم ذلك اختفا منه ومضى الى دير القلمون من اعمال الفيوم،واختفى فيه وبقى كرسى مصر شايل [خالى] واسقفه غايب عنه وكنايسه خاليه منه واحكام اهله واقفة الى ان

---

كما أن الحاكم بأمر الله أمر فى السجل الذى أصدره فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م بمنع بيع العبيد والاماء لأهل الذمة، ثم جاء فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م ألا يستخدم الذميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره(١).

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التى فى اقليم مصر، فقتلت جميعها، وكانت خنازير كثيرة لاسيما التى كانت فى منطقة البشمور(٢).

ولكن ازاء صرامة القيود التى فرضها الحاكم على أهل الذمة، وتشدده فى تنفيذها، فقد جأروا بالشكوى، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالاسلام فرارا من قسوة القيود المفروضة عليهم. ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤هـ ١٠١٣م بالتصريح لهم

= ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
ـ ـــــ: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٦.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٥٣، ٩٤.
(٢) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٢، ورقة ٥٥.

اجتمع الاراخنه ومضو الى انبا ميخاييل البطرك وهو يوميذ مقيم فى جوسق كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة مصر وقالو له: امورنا واقفة وبيعنا شايله لغيبة اسقفنا وما نعرف السبب الموجب فى القوانين لما فعلته مع الاسقف من المنع ،وهو الان غايب ونحن حاضرين ونريد ان تعرفنا السبب فى منعه، فان ثبت عليه انه قد جنا جناية توجب القوانين عليه فيها ما فعلته معه سلونا عنه وعرفنا انه جنا

---

ـنى الى بلاد الروم أو الحبشة والنوبة دون التعرض لهم [1]، وبهذا القرار وضع أهل الذمة ضع الخيار: أما الالتزام بما فرض عليهم من قيود. أو الاسلام. أو الهجرة [2] مخالفاً بذلك يعته الاسلامية و عهود المسلمين الغزاه التى اعطوها للمصريين من قبل وطوال عهود تقلال.

وفى خلافة الظاهرة لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخففوا ن الغيار الذى عليهم، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء [3]. ـا أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى، اذ ـر أبو صالح الأرمنى أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر ـلام عليه، وعليه الثياب الفخمة «وعمامة صقلي مشدود الوسط بشملة دبيقى هبة»[4].

---

) ـــــ: نفس المصدر، جـ٣، ورقة ٥٧.
ـ الانطاكي: المصدر السابق، ص ٢٠٧.
) ماجد: الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١.
) الانطاكي : المصدر السابق، ص ٢٣٨.
) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣٢.

علـى نفـسـه مـا اوجـب منعه ان كـان جـرمـه
مـا له مـغـفـرة ولا اقـاله لجنايتـه، وان لم يثبت
عليـه شـي ولا جنـا جناية توجـب القـوانين
عـليه فيها ما فعلته معه، فما يجوز لك ان تهيننا
وتظلـم اسقـفنا وتبعـده عـنا معما [مما] تعلمه
مـن طـهارته وحـميد طريقـتـه وصـحة امانته،
ولا نصـبرعلى هـذا ولا ندخل تحته، وهو ذا نحن
قد جينا اليك فمطانوه لا تحـوجنا نتظلم فيك الى
غيرك. فتمرمر وتنكد وجرت بينهم خطوب يطول

---

## (ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء المصريين من أهل الذمة

**. موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية.**

تمتع أهل الذمة فى مصر بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصـرالفاطمي الأول ـ باستثناء فترة من عـصـرالحاكم بأمر الله ـ ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة.

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي ـ باجماع المصادر النصرانية كان متسامحا فى سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الذمة، ومع النصارى بوجه خاص، اذ لم يتدخل فى الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها.

فعندما توفى الأنبا مينا البطريرك الحادى والستين للكنيسة القبطية، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦هـ / ٩٦٨م لانتخاب خلف له من بينهم. ووقع أختيارهم على تاجر سورى اسمه ابراهيم بن زرعة ـ الذى اشتهر بتقواه وعلمه ـ ورسموه بطريركا باسم الأنبا ابراهام السوريانى، ليكون البطريرك الثاني والستين للكنيسة القبطية. ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار. بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلاف، ويستقبله باكرام واحترام بالغين، كما كان البطريرك

٦٨: ابا ميخاييل البطرك ١٠٩٢ / ١١٠٢م

شرحها الى ان حلله واطلق له التصرف فى كرسيه وكهنوته وانفذ الى كهنة الكنايس ان يذكرو اسمه ويجروه على رسمه، وكتب الاراخنة اليه بذلك مع رسول قاصد وسالوه ان يحضر، فوصل الى مصر وفرحو به الكهنة والاراخنة والشعب ومضو معه الى البطرك انبا ميخاييل حتى سلم عليه وشكروه على اعادة اسقفهم اليهم.

وفى السنة الثانية من جلوس البطرك المذكور

---

برهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية، مما كان له الأثر الطيب فى العلاقة بين لدولة والكنيسة، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر لخلافة [1].

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعي إلى مجلسه بعض كبار الدين المسيحى واليهودى حيث كانت تجرى بينهم وبين بقية الجالسين من المسلمين مناقشات دينية، وفى هذه المجالس لتى كان يعقدها فى قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل لذمة، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الدينى التى تحلى بها [2].

أما العزيز بالله الفاطمى فقد شمل أهل الذمة جميعا برعايته وعطفه [3] فضلا عن أنه قلد لمناصب العليا فى الدولة لكبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصارى دون أن يكره أن يشترط على أحد منهم اعتناق الاسلام، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة، خاصة المسيحية، فى أحسن حالاتها، اذ كان للعزيز بالله ــ وكما سبق أن أوضحنا ــ زوجة

---

(١) ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣، ص ١٣٣.
(٢) الانبا ميخائيل (أسقف أتريب): السنكسارى، جـ١، ص ١٣٧.
(٣) الخربوطلى: مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠.

مرض السيد الاجل امير الجيوش وانفلج لكبره سنه
وتولى الامر قبل وفاته السيد الاجل الافضل ولده
فى العشر الاخير من شهر ربيع الاول سنة سبع
وثمانين واربع ماية الموافق لبرموده سنة ثلث
وثمانين واربع ماية الخراجي(*)، وكتب له الامام
المستنصر بالله امير المومنين سجل بتقليده امور
المملكة والنظر فى ساير امور الدولة وقضاياها
وشرايعها واحكامها، واخلع عليه وقرى سجله فى

(*) سنة ٤٨٧هـ = ٤٨٣ خراجية = ٨١٠ قبطية = ١٠٩٤م.

---

نصرانية على المذهب الملكاني، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير فى قصر الخلافة، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشورتهما مما أدى إلى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانية واتباع المذهب الملكانية، وأصدر قرارا فى رمضان سنة ٣٧٥هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس، كما عين صهره الثاني أرسانيوس (أرسانيس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر. وطبيعى أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر فى دار الخلافة وادارة الدولة، فازدهر حال الكنيسة الملكانية فى عهده،واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد، كما عاني النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هذا النفوذ، فقد حاول أرسانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاستيلاء على كنيستى المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشمع بالفسطاط، وحدث نزاع خطير بين رؤساء الكنيستين، أنهاه الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة [١]، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله [٢].

(١) الأنبا ميخائيل: سير البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٥١.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٦٤، ١٦٥.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٤.
(٢) رؤوف حبيب: كنائس القاهرة القبطية القديمة، ص ٤٤.

اليوم المذكور فى الايوان الكبير بالقصر، وفرح به الخاص والعام واحسن السيرة فى كل الايام فى كل الخواص والعوام، وتنزه عن الظلم وسد ابوابه وعفا اثاره، ولم يرغب فى الاموال الجمة الذى يرى فيها ادنى شبه، ورد على المتظلمين ظلامتهم وانصفهم من خصومهم، وافرج عن رباع كثيرة مثمنة جليلة لاربابها ونصب نفسه لافاضة العدل والجود والفضل، وسلك فى جميع الافعال المرضية

---

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسئ اليهم ، كما لم يتدخل فى الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعندما خلا كرسى بطريركية الروم الملكانية بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م وظل المنصب شاغرا الى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا فى ذى الحجة سنة ٤١١هـ الأنبا جورجيوس ـ أحد رهبان دير طور سيناء ـ بطريركا لهم، وباركت ست الملك ـ ذات النفوذ القوى فى قصر الخلافة ـ هذا الاختيار، وأرسلت الى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التى كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق [١].

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية، طمع بعض كبار رجال الكنيسة فى اعتلاء كرسى البطريركية، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها، الا أن الوزير على بن أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م)، الذى كان يسيطر على أمور الدولة، والذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد ـ كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة

(١) الانطاكى: مصدر سابق ص ٢٣٧.

والطرايق الحميدة الجميلة ما لم يسبقه اليه من كان قبله من الملوك السالفة ولا الاكاسرة الماضيين.

ومن بعد تسعة شهور من جلوسه للنظر فى المملكة توفى الخليفة معد ابو تميم المستنصر بالله امير المومنين فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين واربع ماية الهلالية وهو الثانى من طوبه سنة اربع وثمانين واربع ماية

---

آلاف دينار التى كان يدفعها البطريرك الجديد رسما الى بيت المال - كرامة للنصارى -، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقا لما هو متبع فى هذا الشأن. ولقد تم اختيار الأنبا شنوده البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١هـ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة[١].

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هى السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر باله، الى أن كانت وزارة اليازورى.

ففى أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما، حينما اتهم البطريرك خريستودولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله، فألقى القبض على البطريرك ورحل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة. غير أن «عبد الدولة» متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى للافراج عن البطريرك، وأخذ منه تصريحا باطلاق سراحه فى الحال [٢].

---

(١) الأنبا ميخايل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٣.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٣٨.

الخـراجيـة وعـمـره يوميـذ سـبـعة وسـتين سنة واربعـة اشهر ويومين.

وكـان فى حـال مـرضـه قد أوصـا اخـتـه السـيـدة الشريفة والسيـد الاجل الافـضـل فى تلـك الليلة بان يكـون ابنه الصـغـيـر ابو القـسـم احـمـد يجلس فى المملكة عـوضـه، فلمـا توفى ركـب السـيـد الاجل

---

ومرة أخرى تعكر صـفـو العلاقة بين الدولة والكنيسـة القـبطيـة، عندمـا ترامى الى مـسـامع اليازورى ـ عن طريق دسائس أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضيا بالاسكندرية ـ أن الأنبا خريستودولوس قد اتخذ من بلدة «دمرو» مقرا له، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة قسطنطينية ثانية، وأن البطريرك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة، وبجانب كثرة الكنائس التى استحدثها وجدد عمارتها فى القرى المحيطة بها، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للاسلام والمسلمين. فما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة، ثم فرض على البطريرك والأساقفة غرامات مالية فادحة، طولبوا بسرعة سدادها، فاضطر البطريرك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذى استجاب لمساعدته[1].

## القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

**الكنائس المسيحية:**

يرى السير توماس أرنولد فى كتابه «الدعوة الى الاسلام» فى معرض حديثه عن سياسة التسامح الدينى التى نعم بها أهل الذمة فى مصر فى عصر الفاطميين أن «السلطة المدنية

---

(١) الأنبا مخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٠.

الافـضل فى تلك الليلة من سـاعـتـه إلى القـصـر والبس الولد المذكـور ثيـاب الخـلافـة والجـوهـر بين عينيه وجلس فى مقعد ابوه ولقب بالمستعلى بالله اميـر المومنين وعـمـره يوميـذ سـبـعـة عـشـر سنة، وانفـذت السـيـدة الشـريفـة عـمـتـه الى اولاد اخـوها الكبـار وهم نزار وعـبـد الله واسـمـعيـل واعلمـتـهـم بوفاة ابوهم، فلما حـضـرو وابصـرو اخوهم الصغير جالس بزى الخلافة امتغـصـو [امتعضوا] وتنكرو من

---

أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة ـ العاصمة الجديدة ـ كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة»(1). هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة.

فتحت مظلة التسامح الدينى، انتهز البطريرك ابرهام السوريانى ـ البطريرك الثانى والستون للكنيسة القبطية ـ صداقته الوطيدة بالخليفة المعز لدين الله، والتمس منه تجديده عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين بالفسطاط، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع، فأذن له المعز ببناء الكنيستين، كما قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر. ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم المتعصبين على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرهم بحجة أن هذا مخالف للإسلام، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون فى البناء حتى يستكملوا ما بدأوه.

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م للتدمير على يد عامة المسلمين

(١) أرنولد: الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٨٤.

ذلك، فقال لهم السيد الافضل: قبلو الارض لمولانا
المستعلى بالله امير المومنين وبايعوه فهو الذى اوصا
مولانا المستنصر بالله به قبل وفاته انه الخليفة من
بعده. فامتنعو من مبايعته وقال كل واحد منهم :
ان والده اوعده بانه الخليفة من بعده، ثم قال نزار،
وهو الاكبر: والله لو قطعت راسى ما بايعت
بالخلافة لمن هو اصغر منى ولا رضيت تقدمته على
لان مولانا قال لى دفعات كثيرة انى الخليفة من

---

بتحريض اصحاب النفوذ من المسلمين وكذلك المشايخ المتمسحين بالدين، بعاصمة الخلافة، ففى هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم ، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك، اذا بقطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر، أتى على معظمها، فاتهمت الرعية المتعصبة تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين، ثم انتهزت هذه الفوضى المغاربة الفاطمين بمصر وبعض العامة المسلمين تحت التحريض الدينى وهاجمت كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية . الا أن العزيز أنزل العقاب الصارم بالمسلمين الذين اشتركوا فى قتل الروم ونهب الكنائس، وأمر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها (١).

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية التى حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة، فخالفا بذلك ما اتفق عليه المسلمين.

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما فى تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

بعده وان معى خطه بهذا وهو ذا انا احضره اليكم الساعة، وخرج مسرعا على انه ياتيهم بالخط. فلما صار فى داره ركب فى ساعته واخذ معه من حضر فى تلك الساعة من غلمانه وسار فى الليل، فبلغ السيد الافضل الخبر فانفذ ليث الدولة صاحب الباب ومعه جماعة كبيرة من الفرسان ليقبضو عليه ويعيدوه، فسارو فى اثره فلم يلحقوه ولا عرفو اى طريق اخذ، ولما عرف السيد الاجل الافضل

---

بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة، بل زاد عليها، فأمر بهدم الكثير من الكنائس فى فترة سياسته المتشددة ازاء أهل الذمة.

ففى سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس. ففى تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصرانى ـ اليعقوبى المذهب ـ فى تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر الفسطاط، فى الموضع الذى عرف بعد ذلك براشدة، مما أثار غضب عامة المسلمين. ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامة المسلمين ما بنى منها، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عرف بجامع راشدة، وبدئ فى عمارته فى ربيع الآخر سنة ٣٩٣هـ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى التى كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه [١]. كما هدمت فى سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م كنيستان كانتا بجوار الجامع [٢] احداهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية، وبنى الحاكم بأمر الله فى موضعهما مسجدين للمسلمين. وشمل الهدم أيضا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة [٣].

(١) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٤٨.
Stern : Op. cit., p. 15 - 17.
(٣) الانطاكى: المصدر السابق، ص ١٨٦.

بخروج نزار قبض على اخوته عبد الله واسمعيل وجعل مع كل واحد منهم عشرة يحفظوه، فلما اصبحو بالغداة جلس مولانا المستعلى بالله على سرير الملك فى الايوان الكبير والسيد الافضل بين يديه وحضر القاضى على ابن رافع ابن الكحال، الملقب بالمويد ثقة الامام فخر الحكام، وشهود القاهرة ومصر واخذو البيعة له على مقدمى الدولة وريسايها، ومضى صاحب الرسالة الى عبد الله

---

وفى رجب سنة ٣٩٧هـ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ماهو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله فى الديوان، وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد، من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط [١] ثم تلاه مرسوم آخر فى رجب سنة ٣٩٨هـ بمصادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه فى الديوان [٢].

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس، وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م [٣]، الا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهى توافق سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م تاريخا لهذا السجل الخطير [٤].

(١) المقريزى: الخطط ، جـ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٨٦.
(٢) الأنطاكى: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٣) القلانسى: (الذيل، ص ٦٦)، ابن الجوزى (المنتظم، جـ٧، ص ٢٣٩). سبط بن الجوزى (مرآة الزمان، جـ١١، ورقة ٣٠٤)، المقريزى (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥) العينى (عقد الجمان جـ١٩، ورقة٥٤٤).
عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦).
(٤) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٦٠.
ـ الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٩٦.

واسمعيل وهما في المسجد الذى في القصر ومعهما المترسمين وقال لهما: قد حضر القاضي والشهود واخذو البيعة على جميع رجال الدولة ومولانا يرد عليكما السلام ويقول لكما انتما تحضر تبايعانى ام لا. فقالا: السمع والطاعة نبايعه لان الله اختاره دوننا لهذا الامر وما نعاند نحن امر الله. ثم نهضا معه فلما صارا بين يدى مولانا المستعلى بالله

---

ولقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التي دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله الى اتخاذ هذا القرار، ويروى الأنبا ميخايل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر باغلاق الكنائس أولا، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه، كما سبق أن أوضحنا.. وفي ثاني يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصراني النسطورى المعروف بابن شترين، بأن يكتب الى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس، وجاء في السجل «خرج أمر الامامة اليك، فاهدم قمامة، فاجعل سمائها أرضا، وطولها عرضا» [١]، فقام والي الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما في الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة، واحتاطوا على كل محتوياتها، كما هدمت مباني الكنيسة الا ما تعذر هدمه، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين وكل ملحقاتها، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التي شيد عليها القبر المقدس، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول، كما هدم دير السرى وكان خاصا بالراهبات، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر ، ويؤرخ الأنطاكي الخامس من صفر سنة ٤٠٠هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة [٢].

---

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٥٦.

(٢) الانطاكي : المصدر السابق، ص ١٩٦.

قبلا الارض وسلما عليه بالخلافة وبايعاه واستوفا القاضى عليهما ايمان البيع.

ثم اخرج التابوت من باب الملك وفيه المستنصر بالله، واولاده جميعهم يمشو حوله حفاة وصلى عليه ابنه المستعلى بالله ودفن في التربه بالقصر..

وبعد ايام ظهر ان نزار مضى الى مدينة اسكندرية واجتمع بواليها نصرالدولة افيكين احد

---

أما معظم المصادر الاسلامية، فقد تعرضت هى الأخرى لهذا الحادث الخطير، وأسباب حدوثه. وتؤرخ له بعام ٣٩٨هـ، وتذكر أنه فى هذا العام خرج النصارى على عادتهم فى كل عام الى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح، فاستدعى الخليفة الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدى أحد قواده، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفته بها، وما يحدث فى هذا العيد هناك، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى، ويحج اليها من جميع البلاد، ويأتى اليها الملوك وحكام الدول المسيحية حاملين اليها النذور والأموال الكثيرة والثياب الديباج والستور والفروش والقناديل والشموع والصلبان، وأوانى الذهب والفضة والتحف النادرة، فاذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضواء الباهرة، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان فى المذبح، وقد اجتمع النصارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية، فى مواكب دينية صاخبة، ورفعوا أصواتهم يرددون الأدعية والابتهالات، حاملين المباخر والصلبان الضخمة، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزيبق، فتنبعث منها الأضواء الساطعة التى تخطف البصر، وبطريقة تخيل للناظرين اليها أنها نزلت من السماء، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم. فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورى كاتب الانشاء بأن يكتب رسالة الى الداعى أحمد بن يعقوب بأن يقصد بيت المقدس ، ومعه والى

غلمان امير الجيوش وقرر معه ان يقوم في نصرته وحلف له انه يجعله مدبر المملكة والناظر فيها عوض السيد الاجل الافضل، فاجابه الى ذلك وتحالفا وتعاقدا.

فلما كان في اول المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية ركب مولانا المستعلي في القاهرة بالمظلة والزى الحسن والتجمل الكثير الذى ما ربى مثله، وركب نزار في اسكندرية بالمظلة ايضاً ولقب

---

الرملة، فيهدم كنيسة القيامة، ويأخذ محتوياتها، ويبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها [1]. فقام والى الرملة ومعه الأشراف والقضاء والشهود ووجوه المسلمين، وقصدوا كنيسة القيامة. الا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيسة سارعوا باحاطة بطريرك بيت المقدس علما بمضمون السجل، فأخفى البطريرك كثيرا مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما، فتمت مصادرته، كما هدموا مباني الكنيسة، و«قلعت حجرا حجرا» . وتعرضت للنهب والتخريب [2].

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحى، وارتفعت الأصوات في أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة [3] فكان هذا من الاسباب التى قوت من دوافع الحروب الصليبية بعد ذلك وما تعرضت له شعوب بلاد الشام ومصر من دمار بسبب هذه الحروب.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.

(٢) ابن القلانس : المصدر السابق، ص ٦٧.

ـ على أن المقريزى يذكر أنه فى صفر سنة ٤٠٠هـ كتب من انشاء ابن سورى لهدم قمامة المقدس (اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١).

(٣) عنان: الحاكم بأمر الله ص ١٣٨.

بالمصطفى لدين الله، فلما علم السيد الأفضل
بذلك جمع الجيوش والعساكر وسار إلى اسكندرية
وحاصرها ونصب عليها القتال وجاهد في قتال
من فيها بنفسه وماله ولقى فى ذلك مشقة عظيمة
ومصاعب شديدة واخرج من خزانته اموال كثيرة
وكساوى وخلع وسلاح كثير وعدة والات
[آلات]، ولم يزال القتال بينهم متصل من صفر
سنة ثمان وثمانين واربع ماية الى ذو القعدة منها،

---

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضي بهدم جميع الكنائس
يع في جميع أقاليم الدولة، الا انه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب
لم المسيحى بهدم ما فى بلادها من مساجد المسلمين [١].

الا أنه فى تاسع عشر ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى
ق المقس، وكذلك كنائس حارة الروم، ونهب جميع ما فيها [٢] وفى السنة التالية أمر بهدم
سة العجوز بدمياط، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكانية بمصر، فشرع فى هدمها
الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ. كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت
سارى دمياط من الملكانية وأزيلت معالمها، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب
ضة، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها، وبنى فى موضعها مسجد
سلمين [٣].

وفى صفر سنة ٤٠٢هـ أمر الحاكم بأمر الله، بألا يضرب بناقوس، والا يظهر صليب بأية

---

) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٧٥.
) النويرى : المصدر السابق ، جـ٢٦، ورقة ٥٥.
) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٧.

فلما فرغت الغلات والاحطاب والمواكيل ورای
اهل اسكندرية ومن فيها انهم مغلوبين طلب نصر
الدولة افيكين من مولاه السيد الاجل الافضل
الامان له ولنزار ولاهل البلد فامنهم وفتحو المدينة
له وخرج اليه نزار وافيكين، فامر بمسيرهم الى
القاهرة وامر ان يقيمو بظاهرها الى ان يصل اليها
ويسال مولانا المستعلى بالله فى العفو عنهم، ثم انه
دخل المدينة ورتب احوالها واقام لها والى وقاضى

---

كنيسة ولا تقع عليه عين، فنزعت الصلبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس (١).

وفى ربيع الأول سنة ٤٠٣هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس فى الديار المصرية (٢). وأقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقلبة، ووهب لهم مافى الكنائس من التحف والذخائر وأوانى الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها، ولم يرد من سأله شيئا منها (٣) فيما عدا أهل البلاد من المصريين بالطبع. ثم أصدر أوامره الى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما فى ولايته من كنائس (٤)، فهدم كثير منها، ومحيت معالمها وأزيلت آثارها، وقلعت أساساتها من الأرض، وأخذت أنقاضها، وأنشئ مكان البعض منها عدد من المساجد (٥). كما

---

(١) ـــــ: نفس المصدر، ص ٢٠٣.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(٣) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٥٧.
(٤) ـــــ: نفس المصدر، ونفس الورقة.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.
(٥) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وقبض على رجل من اهل المدينة كان فى وقت القتال يشتمه فى كل يوم من فوق الحصن، فلما صار قايماً بين يديه امر ان توقع العقوبة عليه الى ان يموت، فلما هيوه للعقوبة قال بعض الحاضرين للسيد الاجل الافضل: يا سيدى احتاط على ماله قبل ان تقتله فان له موجود اكثر من عشرين الف دينار. فلما سمع السيد الاجل الافضل هذا القول امر باطلاقه والافراج عنه وقال له: امضى فقد

---

بعض هذه الكنائس الى مساجد للمسلمين [١]، ويروى الأنطاكى أنه قد أخرجت عظام . من الكنائس فى عدة بلدان، وأحرقت الكتب الموجودة بها، كما ألزم الحاكم بأمر الله ى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس [٢] · زيادة فى النكاية بهم، ويذكر المقريزى أن كنيسة أبى شنودة ـ كبرى الكنائس القبطية ـ وكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثياب ج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئا كثيرا [٣]. هذا بجانب ما نهب من الكنائس والديارات فى سائر أنحاء الدولة، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت اليه من تلك الثروات والتحف وتصرفوا فى أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع أء [٤].

قد تتابع هدم الكنائس فى جميع أنحاء الدولة، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها فى ، الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ إلى أواخر

لمقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤.

Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

'نطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٤.

لمقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٩٤، ٩٥.

ــــ : الخطط، جـ٢، ص ٢٨٧، ٤٩٤، ٤٩٥.

وهبتك لمالك ليلا يظنو الناس انى قتلتك رغبة منى
فى اخذ مالك، ومثل هذا كثير من افعاله الجميلة
التى لا استطيع احصاها ولا شرحها، ثم انه سار
من اسكندرية الى مصر وركب مولانا المستعلى
للقايه، فلما كان بالغداة جلس فى باب الملك
ودخل اليه السيد الافضل ونزار وافيكين، وفلما
راى مولانا المستعلى بالله نزار اخوه وهو داخل عليه
صاح عليه وانتهره وقال خذوه فوثب اليه صاحب

---

سنة ٤٠٥هـ. وهدم فى تلك الفترة من الكنائس والأديرة التى بناها الروم حوالى ثلاثين ألف ـ حسب قول المقريزى ـ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشئ الكثير [١].

وفى بداية خلافة الظاهر لاعزاز دين الله، سمح للنصارى الملكانيين الذين تؤازرهم ست الملك ـ ببناء الكنائس، الا أن ست الملك ـ التى كان لها نفوذ كبير فى الدولة ـ أخذت الخراج والرسوم التى سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها [٢].

وفى عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى فى تعمير تجديد كنائسهم فى سائر أقاليم الدولة[٣]، «حتى أعيدت لما كانت عليه وأفضل»[٤]، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت اليها فى خلافة الحاكم [٥].

وفى عهد وزارة اليازورى فى الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود، بسبب الخلاف الذى نشب بين اليازورى والبطريرك خريستودولوس لأنه أنشأ كثيرا من الكنائس

(١) ـــــ : نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٩٥.
(٢) ـــــ : نفس المصدر ، ٢٣٨.
(٣) ـــــ : نفس المصدر، ص ٣٤٣.
(٤) الأنبا ميخايل : سر البيعة المقدسة ، جـ٣، ورقة ٦١.
(٥) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٣٨.

الباب وصاحب الرسالة وجماعة من الاستاذين الصقالبة فقبضو عليه وعلى افيكين، واعتقل نزار في موضع في القصر واعتقل افيكين في موضع في دار مولاه الافضل وضيق عليهما كلاهما الى ان ماتا جميعاً.

وكانت وفاة السيد الاجل امير الجيوش في المحرم سنة ثمان وثمانين واربع ماية قبل مسير ولده السيد الاجل الافضل الى اسكندرية، واستقامت الامور

---

حدثة مما أدى إلى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما تحدث من تلك الكنائس وهكذا أعيد الخراب والدمار مرة أخرى.

لى أن حصن الدولة والى الاسكندرية في ذلك الوقت والذى كان يعطف على النصارى، سلوكاً خاصاً به ومنفرداً عن السياق العام للإضطهاد وأرسل خفية الى بعض خواصه من ال الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سرا من الأوانى والحلى وكل ثمين من ياتها، قبل أن تصل اليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة (١).

لما رفض الروم سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م أن يخطب للخليفة المستنصر بالله بجامع طنطينية، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها سها (٢).

مع هذا قام النصارى فى خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس اذ يذكر أبو صالح ى فى تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء - والتى كانت قد تصدعت - قد حت وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذى كان من أغنياء النصارى (٣)، كما كان

الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة.
جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤٠.
العينى: المصدر السابق، جـ٢٠، ورقة ١١٢.
أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٣١.

لمولانا المستعلي بالله بعد ظفره باخيه نزار، وكان ذو هيبة وبطش إلى ان مرض فى السنة العاشرة من جلوس انبا ميخايل البطرك، وتوفا فى يوم الثلثا السابع عشر من صفر سنة خمس وتسعين واربع مية الهلالية، الموافق للحادى عشر من كيهك سنة احدى وتسعين واربع ماية الخراجية، وهى سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار، وكانت مدة خلافته سبع سنين وشهرين، وجلس ابنه المنصور ابو على وعمره يوميذ ست سنين.

---

هناك كثير من رجال الدولة ـ فى خلافة المستنصر ـ ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم (١).

**الأديرة:**

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة لفترة، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله.

فعندما أقدم جوهر الصقلى على بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها، عوضا عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر، وكان يعرف بدير العظام. كما نقل رفات موتى النصارى الى دير الخندق (٢).

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر واستقر بها، شمل برعايته وعطفه ديارات النصارى ورهبانها، وصرح للبطريرك ابراهام السوريانى رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة القديمة وبناء ما التمسه من الأديرة الجديدة فى سائر أقاليم الدولة (٣).

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى فى حمايته، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة

(١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٧.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٥٠٦.
(٣) الأنبا ميخايل : المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٤١، ٤٤.

وفى هذه السنة وصل رسول من ملك الحبشة الى السيد الاجل الافضل يلتمس ان يقام لهم مطران لبلاده وان يسيره اليه مع رسوله، فاحضر انبا ميخاييل البطرك وتقدم اليه ان يقيم مطراناً للحبشة ويعجل به ليسير مع الرسول، فخرج البطرك من بين يديه وتطلب من يصلح لهذا الامر فلم يجد، فلما اضطهد [أضطر] فى ذلك انفذ الى دير ابو مقار واخذ راهب اسمه جرجس وقسمه

---

طوال عهده، كما قام النصارى الملكانيين ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه[1]، وعلى سبيل المثال فان أرسانيوس البطريرك الملكانى صهر العزيز بالله وبسبب قرابته له أحاط دير القصير بالمقطم بسور عظيم، وعمر الدير وجدده، وأنشأ فيه أبنية كثيرة[2].

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة فى خلافة الحاكم، وصل ذراها الى الأديرة والرهبان، فهدم الكثير من الأديرة، ولم يبق منها الا القليل[3].

ففى العاشر من رجب سنة ٣٩٨هـ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان، وجعلها باسمه فى الديوان[4]، وفى مرسومه الصادر فى ذى الحجة سنة ٣٩٩هـ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السرى، ونهب ما فيه من تحف وذخائر[5]. كما صودرت أملاك الأديرة وأوقافها فى أنحاء الدولة وامتدت اليها معاول الهدم لنقضها[6].

---

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٢) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٧.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، ص ٥٠٦.
(٤) الانطاكي: المصدر السابق، ص ١٩٤.
(٥) ـــــــ: نفس المصدر، ص ١٩٦.
(٦) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٤٩٥.

مطرانا للحبشة وسيره اليهم، فاقام عندهم مدة
يسيرة فلم يفلح ولا عرف يسوس امره معهم، وقيل
عنه انه تعد هناك الى امور قبيحة وافعال سمجة
لا تليق برتبته، فقبض عليه الملك واخذ جميع ما
كان تحصل له هناك واعاده الى مصر، وكتب الى
السيد الاجل الافضل يشكو ما فعله في تلك
البلاد، فامر بالقبض عليه واعتقاله في حبس
الشرطة بمصر فاقام فيه معتقل عدة سنين مع فرج

---

وفي يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠هـ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما بهدم دير القصير بجبل المقطم، ونهب جميع ما فيه، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيما فيه مع الرهبان، فأخرجوا جميعا من الدير، وأخذت تنقضه معاول الهدم، واستمر الهدم فيه عدة أيام. وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم، ففتح الرعاع من المسلمين والعبيد جميعها، ونبشوها ، وأخذوا توابيت الموتى.

وفي تلك السنة الغيت جميع الأحباس والاوقاف المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان[1]. وفي صفر سنة ٤٠٢هـ نزعت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة، وفي جمادى الأخرى سنة ٤٠٣هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها [2].

وأحرق بعضها [3]، ووهب لهم أملاكها وماهو موقوف عليها، وسمح لهم بنهب محتوياتها، وكتب الى عماله في سائر أعمال الدوله بهدم الأديرة ونقضها ومحو أثارها، فأتى على أكثر الأديرة بالأقاليم، الا الدير الكبير المعروف بدير أبي مقار- في ترنوط من أعمال الاسكندرية -

(١) عنان: الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٨.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٨١.
(٣) أبو صالح الأرمني، ص ٧٧.

الراهب الذى كان فى ايام امير الجيوش يصادر الاساقفة والرهبان، وقد تقدم ذكره فى سيرة الاب القديس انبا كيرلس نيح الله نفسه.

فاما انبا سنهوت اسقف مصر فانه اقام مدة بطركية انبا ميخاييل فى عيش كدر، وكان كل وقت يمنعه بذنوب يختلقها له ويشرده عن كرسيه ويبعده عن كنايسه، فلما كان فى بشنس فى السنة العاشرة لجلوسه بطركاً عقد مجلس على انبا

---

وما حوله من الأديرة القريبة منه، اذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير فى حماية قبيلتى بنى قرة وبنى كلاب العربيتين، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول اليه والتعرض له، وذلك لأن رهبان هذا الدير كانوا يقدمون للقبيلتين الكثير من الأمدادات الغذائية والأموال فأمسك الحاكم عن هدمه أو الحاق الضرر به [1]، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه اقامة الشعائر الدينية فى الفترة التى ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر[2].

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية، ودير طور سيناء، لرجل عربى يعرف بابن غياث، فهدم احدى كنيستى دير راية وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحتويات. ويذكر الأنطاكى أن الخليفة الحاكم أو عز الى ابن غياث المسير الى دير ابراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقا لهم ، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة، أحسن استقبال ابن غياث هذا، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة فى هدم الدير لساعته وغير ما تعين له منه، وسلم اليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما

(١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ٢٠٤.
(٢) أبن الراهب: المصدر السابق، ص ١٢٥.

سنهوت المذكور اجتمع فيه من الاساقفة جماعة
وادعي عليه بانه كان فى ايام كيرلس البطرك نيح
الله نفسه قدس فى يوم واحد قداسين فى المعلقة
وفى ابو سرجه، وان انبا كيرلس احرمه وتنيح ولم
يحلله، وانه بهذا الحكم قد بطلت اسقفيته ولم
يبق له كهنوة، وكتب ذلك فى ورقة والزمهم ان
يكتبو خطوطهم فيها بغير اختيارهم لخوفهم من
سطوته عليهم، ولما صارت خطوطهم معه انفذ

---

به من الذهب والفضة، وقال له قولا لينا. وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانه وأسواره، وكثرة ما يلزم لهدمه.

أما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل فى سياسته مع كافة الناس على اختلاف وظائفهم ودياناتهم. ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة، اذ استمرت سياسة اعادة بناء الأديرة، وبذل رؤساء الكنيسة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها[1]، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته فى اطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة، وبأنه لا اكراه فى الدين. فمن آثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك، ولهم جميعا الحماية والأمان والطمأنينة «على نفوسهم ودمائهم، وأولادهم، وأموالهم، وأحوالهم، ماسلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة»[2].

كما أصدر الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥هـ مرسوما للرهبان اليعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعدم المساس بأوقافها[3].

(١) الأنبا مخايل: سر البيعة المقدسة، جـ٣، ورقة ٦١.
(٢) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٦.
(3) Stern : Op. Cit., p. 15 - 17.

بعض تلاميذ الى انبا سنهوت الاسقف ليحضره في ذلك المقام ويقطعه كما قام في نفسه، فسبق الخبر اليه فخرج هارباً من قلايته ومضى الى القاهرة واختفا عند بعض اولاده الكهنة وسار في الليل الى دير القديس ساويرس في جبل اسيوط واقام فيه اياماً، وكان البطرك مقيما في كنيسة السيدة المعلقة بقصر الشمع في البيت الذى امر بانشاه في علوها، ومكث عدة ايام يتطلب

---

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة الى بلاد الروم، الا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التى انتهى استخراجها منهم الى السنة التى عاد فيها كل واحد منهم [1].

وفي خلافة المستنصر بالله الفاطمي نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية في الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧هـ ـ ٤٤٧هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى / منتصف القرن الحادى عشر الميلادى. ولم تتعرض الأديرة لما يسئ اليها أو الى رهبانها، اذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الذمة. والرحالة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين في خلافته، يذكر أن كنيسة القيامة «يقيم بها كثير من القسس والرهبان، يقرأون الانجيل، ويصلون، ويشتغلون بالعبادة ليل نهار» [2].

على أن أديرة النصارى في الوجه البحرى امتدت اليها يد السلب والنهب، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها، وتعرض رهبانها

(١) الانطاكى: المصدر السابق، ص ٢٣٩.
(٢) ناصرى خسرو: المصدر السابق، ص ٣٧.

الاسقف فلم يقدر عليه ولا وجده. فلما كان في يوم الجمعة الثامن والعشرين من بشنس المذكور عرفني قيم كنيسة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع ان انبا ميخاييل دفع له دقيق كثير وامره ان يعمله ضارن على صباح يوم الاحد، وان يعلم الكهنة بانه يقدس فيها في ذلك اليوم، وذكر انه معول على انه يجعلها بطركية ويقول للآراخنة والشعب: انا اسقفكم وما ابرح من عندكم بحكم

---

لـلأذى والقتل والتشريد، مما أدى الى هروب من نجا منهم إلى الأرياف فرارا من البطش والموت[1].

ومع انتشار المجاعة، وازدياد الفتن، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه، وتدهور الأوضاع بوجه عام في جميع أنحاء الدولة، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالي الى مصر، لعله يعيد الأمور الى حالتها الطبيعية [2].

**الكنائس اليهودية:**

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود في مصر، فان المقريزي يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة في الديار المصرية ويتناول في حديثه احدى عشرة كنيسة منها: كنيسة دموه بالجيزة، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية [3]، وفي مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هي : كنيسة المصاصة [4]، وكنيسة الشاميين [5]، وكنيسة الربانيين [6].

(١) الأنبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٧٩، ٨٧.
(٢) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، ص ٣٨٣، ٣٩٢ ـ ٣٩٣.
(٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٤) ـــــ: نفس المصدر ، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٥) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.
(٦) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص ٤٧١.

ما حدثته نفسه به. فقلت: هذا ما لايتم علينا ولا نقبله ولا صبر لنا عن اسقفنا الا بجرم واضح توجب القوانين عليه فيه الحكم. فلما كان غداة يوم السبت ركب انبا ميخاييل المذكور دابته وخرج هو وجميع الناس المتميزين ليلقو الافضل عند رجوعه من تنيس فلقيه عند دمنهور [شبرا] فسلم عليه وعاد، فلحقه طاعون فى طريقه فقال لتلاميذه: طعنت. وكاد يقع من على الدابة وخرج

---

كما كان لليهود عدة كنائس فى مدينة القاهرة. فكان بحارة الجودرية كنيسة عرفت بها، يروى المقريزى أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود[1]. ما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس [2]هى: كنيسة القرائين، وكنيسة دار لحدرة، وكنيسة الربانيين، وكنيسة السامرة . وجميع تلك الكنائس المذكورة ـ على حسب ول المقريزى ـ محدثة فى الاسلام [3].

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه ـ أعظم لمعابد اليهودية بمصر ـ كانت الموضع الذى لجأ اليه موسى عليه السلام، حينما كان يبلغ سالة الله عز وجل الى فرعون، مدة اقامته بمصر، منذ أن قدم من مدين الى مصر، الى ان خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زنزلخت فى غاية الضخامة، لا يشكون من نها ترجع الى زمن موسى عليه السلام. كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم ليها، في عيد الخطاب، وهو فى شهر سيوان، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس [4].

(١) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٢) ـــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٦٣.
(٣) المقريزى: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧١.
(٤) المقريزى: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٤ والشهور العبرية هى الشهور التى استخدمها العرب قبل الاسلام وهى: تشرى، مدحشون، كسليو، طنث، شفط، آذار، نيسن، أير، سيوان، تمز، أوب، أيلل. انظر: جدول السنين الهجرية، وضعه وستفلد وترجمه: د. عبد المنعم ماجد، عبد المحسن رمضان. مكتبة الانجلو.

لسانه من ساعته فضبطوه تلاميذه على دابته حتى اوصلوه الى كنيسة المعلقة فاقام بقية يومه وليلته لم يسمع منه كلمه، وتوفى غداة يوم الاحد اخر بشنس سنة ثمان ماية وثمنية عشر للشهد الابرار، وهو يوم الخمسين المقدس. وكانت مدة بطركيته تسع سنين وثمانية شهور. وعاد انبا سنهوت الى كرسيه وفرح الشعب به ومجدو الله سبحنه.

---

أما كنيسة جوجر، فيزعمون أنها الموضع الذى ولد به نبى الله الياس [١]، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له [٢]. كذلك يعتقد اليهود أن فى كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون فى أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم [٣].

لكن علينا أن نتساءل: هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لأية أضرار أو قيود فى العصر الفاطمى الأول؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية فى حارة زويلة بالقاهرة؟.

والواقع أن يهود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قد نعموا بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة [٤]، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة. كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز باله، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها.

---

(١) ــــ: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٦٩.
(٢) ــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(٣) ــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.
(4) Goitein : AMediterranean Society. The Jews Communitie: of The Arab World as Porteayeé in the Documents of the Cairo Geniza, Voi I, P. 33-34.

وفى أيام انبا ميخاييل المذكور كان بمصر بخليج بنى وايل المودى الى بركة الحبش على حافة بركة ابى قدامه كنيسة تعرف بابى قدامه. وكان فيها ثلثة مذابح احدهم على اسم القديس انبا بخوم، والثانى على اسم القديسة مهراييل الشهيدة العذرى، والثالث على اسم القديس ساويرس البطرك. فوهت حيطانها وكادت تسقط فهدها الشيخ ابو اليمن وزير ابن عبد المسيح متولى

---

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينية فى حرية تامة، بل أن بعض الوثائق تمتدحه بسبب «اصلاحاته العظيمة»، كما أن كنائس اليهود فى أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية أضرار، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم [1].

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية ثار سخط الحاكم عليهم، فصب عليهم جام غضبه.

فسد عليهم حارتهم ليلا وأحرقها. فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خرابا [2]، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها [3]، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم [4]، مما أدى

---

(١) قاسم عبده: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) المقريزى: نفس المصدر ونفس الصفحة.

Goitein : op, Cit., p. 84.

(٣) المقريزى : الخطط، جـ٢، ص ٤.

ــــــــ: نفس المصدر، جـ٢، ص ٤٧٠.

(٤) ابن أياس: المصدر السابق، جـ١، ص ٥١.

ديوان اسفل الارض وجدد بناها بغير توقيع من السلطان ولا استيذان، فسعى به بعض اعدايه الى السيد الافضل وقال انه هدم الكنيسة وبناها بغير امرك وانه كان بجانبها عرصة لديوان احباس الجوامع وانه اخذها وجعلها بستان وقال فيه اشيا كثيرة قذفه بها، فحنق السلطان وقبض عليه ووكل به بالجعل [بالمال] الثقيل وركب في جيشه ومعه القاضي والشهود الى الكنيسة وحضرو شيوخ

---

الى تمركزهم فى حارة زويلة، وبالتالي الى اهتمامهم بانشاء معظم كنائسهم المحدثة في تلك الحارة.

ولقد تعرض اليهود في مصر لصرامة القيود التي فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة، وتشدده في تطبيق الشروط العمرية التي زاد عليها، مما اضطر كثير من اليهود في هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن، والى تظاهر بعضهم بالاسلام (1) وذلك اما حفاظا على وظائفهم في الدولة، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التي ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام.

واذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب في هذه الفترة من خلافة الحاكم فانه قد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (2)، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م، وسمح لهم بالعودة الى دينهم، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام (3)، وفي يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودى الى اليهودية (4).

(1) Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(2) Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 34.

___: Jews and Arabs, p. 84.

(٣) العينى : المصدر السابق، جـ١٩، ورقة ٥٤٨.

(٤) ابن أياس : المصدر السابق، جـ١، ص ٥٨.

مسلمين شهدو بذلك فلم يزل التوكيل به حتى
بناها مسجد في بشنس سنة تسعين واربع ماية.

وفى ايام انبا ميخاييل البطرك المذكور وصلت
عساكر الروم والفرنج(*) من رومية ومن بلاد
افرنجية الى الشام فى خلق كثير وملكو انطاكية وما
يليها واكثر الشام الفوقانى وكان يوميذ بايدى الغز
الخرسانيين ولم يبق منه بايدى الغز الا دمشق وما

(*) الحروب الصليبية فى فترة الفاطميين.

---

## أهل الذمة فى مصر فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى

## سياسة الفاطميين والايوبيين الدينية ازاء أهل الذمة

**- موقف الفاطميين والأيوبيين ازاء رجال الكنيسة ورؤساء اليهود**

نعم رؤساء طوائف أهل الذمة فى مصر، وبخاصة كبار رجال الكنيسة القبطية بحسن معاملة السلطات الحاكمة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، ففى عهد المستنصر بالله الفاطمى ووزارة بدر الجمالى تمتع الانبا خريستودولوس البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية بالمكانة السامية والمنزلة الرفيعة فى قصر الخلافة ودار الوزارة وان كان هذا البطريرك قد تعرض للقبض عليه سنة ٤٦٧ هـ عندما ترامى الى مسامع بدر الجمالى أن مطران النوبة هدم مسجدا للمسلمين هناك، ثم أخلى سبيله عندما تأكد بدر الجمالى عن طريق مبعوثه الى ملك النوبة ـ كذب الادعاء، بل أمر باحضاره الى مجلسه «مكرما مبجلا» بينما أمر بأعدام من وشى به .

ولما كان بدر الجمالى يميل الى المسيحين [١]، ويحترم البطريرك ويجله [٢] فضلا عما اتسمت به العلاقة بين البطريرك والخليفة من ود وتقدير، فقد قوبل انتخاب خلفه الأنبا كيرلس

(١) بتشر: المصدر السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) بتشر: نفس المرجع، جـ٣، ص ٦٢.

يليها، ثم ملكو مدينة القدس الشريف (*) وما يليها فى شهر رمضان سنة اثنين وتسعين واربع ماية الهلالية، وصرنا معشر النصارى اليعاقبه القبط لا نصل الى الحج اليها(*) ولا نتمكن من الدنو من ذلك لاجل ما هو من بغضهم لنا وهو اعتقادهم فينا وتكفيرهم ايانا. وملكو بعد ذلك جميع الحصون الشامية ما خلا صور وعسقلان(*) فان هذين الحصنين باقيين فى ايدى ولاة السيد الاجل

(*) احتلت القدس في ١٥ يونيو ١٠٩٩م.

(*) الحملات الصليبية تستولى على انطاكية والقدس ويمنعوا القبط المصريين من الحج إلى القدس.

(*) احتل الصليبيون عسقلان فيما بعد عام ١١٥٤م.

---

الثانى سنة ١٠٧٧م بطركا لكنيسة الاسكندرية بالاستحسان فى جميع دوائر الحكومة [١]، ويروى مؤرخ سيرة هذا البطريرك أن متولى دار الصناعة بناء على أمر السلطات الحاكمة أرسل المراكب وعشارى خاص من مراكب الخليفة، لينقل البطريرك من الاسكندرية الى عاصمة الخلافة، وما أن وصل الى الفسطاط حتى وجد فى انتظاره موكب سلطانى، وعامة أهل مصر، وأقباطها ورجال كنيستها، وتقدم الموكب الشمامسة حاملين الشموع والمباخر الى قصر الخلافة، وما أن وصلوا الى باب القصر حتى خف مأمون الدولة عنبر صاحب الرسالة[٢] لاستقبالهم، ثم أخذ البطريرك ودخل به وحده الى حيث يجلس الخليفة المستنصر وعنده أمه وأخته جالستان فى الانتظار، ومعهما طيب كثير فضمختاه منه[٣]، ثم قالتا له: «بارك علينا، وعلى قصرنا»، وما أن استجاب البطريك ودعا لهما حتى بادلتاه الدعاء بقولهما «جعلك الله مبارك علينا وعلى دولتنا»، ثم وقف البطريرك على باب القاعه، وأمر أحد الأساقفة فقرأ دعاء خاصا، وما أن انتهى من الدعاء حتى خرج البطريرك فى موكبه الى دار أمير الجيوش بدر

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٦.

(٢) صاحب الرسالة : وهو الذى يخرج برسالة الخليفة الى رجال دولته من وزير وغيره ليبلغهم رسالة الخليفة، وكان من كبار موظفى قصر الخلافة.

(٣) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٧.

الافضل، وقد حاصروهم عدة دفعات، وخرج السيد الاجل الافضل اليهم وجاهد وبالغ وانفق المال. ولم تندفع أحكام الله وهو جل اسمه يكفينا ويحمينا برحمته.

## ابا مقاره البطرك وهو من العدد التاسع والستون [١١٠٢/١١٢٨م]

جلس هذا الاب الجليل على كرسى البطركية

---

«فلقى منه أجمل لقاء وأجلسه وأدناه وإكرمه، وطيب نفسه، كما حياه كل أفراد اسرة الوزير[١]، مما دفع البطريرك الى أن يفيض فى دعائه لبدر، ويأمر بقراءة الدعاء الخاص اياه على باب المجلس، فبالغ بدر فى اكرامه واحترامه، وأمر والى مصر أن يكون فى ركابه حتى مقر البطريركية بكنيسة المعلقة بالفسطاط، وأن يكون فى خدمته ويعمل على راحته[٢].

وقد توثقت العلاقة بين قصر الخلافة والأنبا كيرلس الثانى، وكان المستنصر يدعوه الى قصره ويتحدث اليه، ويأنسه [٣]، كما أن وزيره بدر الجمالى لم يتدخل فى الشئون الخاصة بالكنيسة القبطية، بما يعكر صفو العلاقات بينه وبين رجالها، وظلت علاقته طيبة بالأقباط وبطريركهم، وكان يستقبله ويكرمه، ويلبى مطالبه، وعندما اختلف الاساقفة ابان وزارته فيما بينهم لم يكن أذنا لاحدهم، ووقف يساند البطريرك، وأحضر الأساقفة الى اجتماع عقده فى بستان له خارج القاهرة (سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) وطالبهم فى حزم بوضع القوانين المنظمة لشئون الكنيسة، وأظهر احترامه وتعاطفه ازاء البطريرك، وأوصاهم به قائلا لهم: «لاتختلفوا

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٢) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، جـ٣، ورقة ٨٨، ٨٩.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.

في ايام مملكة الامير ووزارة الافضل ابن امير
الجيوش ثم بعد موته وزر المامون، ولما تنيح انبا
ميخاييل البطرك كانت النوبه في تخير من يقام
عوضا منه للمصريين ورهبان دير ابو مقار وكتبو
للاساقفه المقيمين باعمال الصعيدين الاعلا والادنا
واسفل الارضى [الدلتا] يعلموهم بوفاته ويعزوهم
فيه ويسالوهم الحضور ليجتمعو ويقع الاتفاق على
من يرتضوه للبطركية الجليلة، وكتبو ايضا

---

وأطيعوا مقدمكم»، كما أكد لهم أنه لم يقصد التدخل في شئون الكنيسة، وقال أن «هذه القوانين التي عملتموها ما احتاج اليها، وانما طلبتها منكم ليتجدد عندكم أنتم علمها، لما بلغني من بعد عهدكم بها وبقراءتها... » ثم دعا أحد موظفي ديوانه وأمره بكتابة قائمة بما يحتاجه كل واحد منهم، لتخرج المناشير بقضاء حوائجهم[1] وانفض الاجتماع وقد عاد الصفا الى رجال الكنيسة[2]، وانصرف البطريرك ليعمل في اصلاح الكنائس[3].

وفي وزارة بدر الجمالي كثر عدد المهاجرين من الأرمن الى مصر، وسكنوا بها، وازداد عددهم ونفوذهم، وفي عهده تأسس لهم كنيسة كبيرة بالزهرى من القاهرة[4] وتم انتخاب أول بطريرك للأرمن في مصر، باسم غريغوريوس الثاني، الذى حظى بمكانة مرموقة عند أمير الجيوش، وكان بدر قد استقبله لدى وصوله الى مصر من بلاد الأرمن باحترام وتقدير بالغين، كما نجح بدر في أن يوطد أو اصر العلاقات بين البطريرك الأرمني الذى خلف غريغوريوس الثاني وبين بطريرك الكنيسة المرقسية حيث أعلنا في بيان لهما اتفاق القبط

---

(١) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة.
(٢) بتشر : المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠.
(٣) بتشر: نفس المرجع، ص ٧٣.
(٤) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.

للاسكندرانيين بمثل ذلك، وكان زمان الصيف وادراك الغلات والثمار والكروم والاساقفة مشغولين بتحصيل ما يحتاجو اليه برسم الكنايس المقدسه من الغلات والخمر وغيره، فلم يتفق لهم اجتماع الا بعد [عيد] الصليب(*) فوصل بعضهم الى مصر وبعضهم الى الديارات المباركة، واتفق راى الذين وصلو الى مصر على المسير الى دير ابو مقار القديس للاجتماع مع بقية الاساقفه الذين هناك

(*) يحتفل عادة بهذا العيد فى ١٧ توت من كل عام وهو يعادل ١٤ سبتمبر بحسب التقويم الجوليانى.

---

والارمن والاحباش والنوبيين فيما يتعلق بالعقيدة الأرثوذكسية[١] ويذكر لبدر الجمالى أنه نظم أحوال القبط [٢] وحدد الجزية بدينار وثلث وربع ولم تكن سياسة بدر المتسامحه ازاء رؤساء طوائف أهل الذمة وبخاصة القبط والأرمن الا فى اطار الخطة الشاملة الخاصة باعادة تنظيم دولة الفاطميين بعد أن كادت تطيح بها الاضطرابات والفتن [٣].

وانتهج الوزير الافضل ـ الذى ألهجت ألسنة القبط بالثناء عليه ـ سياسة أبيه الرامية الى توطيد علاقة الدولة بالكنيسة ورؤساء الطوائف من أهل الذمة، وعندما انتخب الانبا مقارة الثانى سنة ٤٩٤/ ١١٠٢م بطركا للكنيسة القبطية أمر الافضل باستدعائه الى دار الوزارة، فخرج البطريرك فى موكب حافل ارتفعت فيه الاناجيل والصلبان والشموع الموقدة وأصوات المنشدين ودخان المباخر، فاستقبله الأفضل وهناه، «وأدناه، وأجلسه وأكرمه اكراما كثيرا، وخاطبه خطابا جميلا»، ثم أمر بكتابة منشور الى ولاة الاقاليم بالوجه البحرى ليخفوا الى أستقبال البطريرك عند مروره عليهم كما كتب الى والى الاسكندرية بأن يقدم كل التسهيلات

(١) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٥٧، ٢٦٧.
ـ بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧١.
(٢) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٨.
(٣) ماجد: المستنصر بالله، ص ١٨٩.

والرهبان على الصلاة والتضرع الى الرب سبحنه
فى أرشادهم الى من يرتضيه ويختاره لرعايتهم
والرياسة عليهم. فساروا الى هناك فى شهر بابه
واجتمعو فى بيعة القديس ابو مقار ومكثو اياما
يصلو ويتذاكرو [مع] من فى تلك البريه من
السواح والقديسين ومن فى الصوامع من الحبيسين
ويرجحو الراى فيمن يصلح لهذه الرياسة والرتبة
الشريفة الكهنوتية والخلافة الرسولية المرقصية، فلم

---

للبطريرك الجديد، وأن يتجاوز عن الرسوم التى جرت العادة بتحصيلها فى مثل تلك الظروف، لذا ابتهجت قلوب الأقباط جميعا لما أغدقه الوزير الأفضل من الاكرام والمودة لرأس الكنيسة(١).

وفى عهد الخليفة الآمر، ووزارة الأفضل شاهنشاه حرصت السلطات الحاكمة على احترام رجال الكنيسة، وقام ولاة القاهرة ومصر بحراسة المواكب الدينية التى كانت تطوف شوارع القاهرة والفسطاط بمناسبة تقلد أساقفة مصر لمناصبهم، خشية أن يتعرض لها عامة المسلمين بالأذى «فيقع فى ذلك ما يشغل القلب».

وفى المقابل حرص رؤساء الطوائف من أهل الذمة على توثيق علاقتهم بالسلطات الحاكمة، فيذكر المقريزى، أن البطريرك القبطى ورجال الكنيسة والكتاب اليهود كانوا من بين كبار رجال الدولة الفاطمية الذين حضروا للتهنئة أثناء الاحتفال بدخول المأمون البطائحى مجلس الوزارة فى تاسع ذى الحجة سنة ٥١٥هـ (٢) كما كان البطريرك القبطى ورئيس

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٣١، ١٣٢.
ـ بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٨٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٤٤٢.

يتفق رايهم على من يصلح لذلك ولا استقر في نفوسهم من يقدموه واقامو على هذه القضية الى اخر بابه، واتفق رايهم على تقدمة احد رجلين احدهما القديس مقاره القس بدير ابو مقار المعروف بالمصور، او الشماس يونس ابن سنهوت. واختلفو فيمن يقدموه منهما، فاستقر بينهم ان كتبو الى الاراخنه بمصر يذكرو فيه طول مقامهم بوادى هبيب وانهم كشفو عن كلمن في الديارات التى

---

اليهود وأبناء ملتهما من بين الذين دخلوا على الخليفة الآمر بأحكام الله بقاعة الذهب بقصر الخلافة يوم عيد النحر سنة ٥١٥هـ للتهنئة بالعيد كما جرت به العادة [١]. ولم ينسوا أيضا أن يقدموا الى دار الوزارة لتهنئة الوزير المأمون البطائحى بعيد الأضحى [٢].

وفى بداية عهد الخليفة الحافظ لدين الله أظهر أبو على أحمد بن الأفضل (ت ٥١٦هـ ١١٣٢م) اعتدالا وتسامحا ازاء المسيحيين كما كان صديقا لرجال الكنيسة[٣]، غير أن كتابنا (تاريخ البطاركة) يذكر أن الامير حسن بن الخليفة الحافظ الذى استبد بالسلطة دون أبيه قبض على الأنبا غبريال الثانى (ابن تريك) البطريرك السبعون للكنيسة القبطية، وصادره وسجنه فى خزانة البنود وفرض عليه غرامة مالية كبيرة، ولم يخل سبيله الابعد أن دفع مبلغ الف دينار جمعها له التجار والكتاب من أبناء طائفته[٤].

وتشير المصادر التاريخية الى تلك الاحداث التى حدث بالخليفة الحافظ فى سنة ٥٢٩هـ الى الانتقام من طبيبه النصرانى ابن قرقة [٥] بينما أنعم على رفيقه أبو منصور اليهودى وجعله

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٦١.
(٢) النويرى: المصدر السابق، جـ٢٦، ورقة ٨٦.
(٣) لين بول: المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٤) ساويرس: انظر ص ١١٢٦ من هذا الجزء.

(5) Mann : op, cit, p. 229.

هناك والسواح والحبسا فلم يجدو من يصلح للتقدمه الا احد المذكورين، وقد استقر بيننا رد الامر اليكم فيهما فمن اخترتموه منهما ورضيتم به قدمناه. فلما وصل الكتاب اجتمع الاراخنه بكنيسة القديس ابو سرجه بقصر الشمع وقرو الكتاب، فمنهم من كان يعرف الراهبين المذكورين، ومنهم من كان يعرف احدهما دون الاخر، ومنهم من لا يعرف احد منهم بالجمله. والذين كانو يعرفوهما

---

رئيس اليهود [1]، ومنحه ما كان لابن قرقة من أملاك وأموال، ثم جعله رئيسا للأطباء بقصر الخلافة [2]، وأجزل له العطاء، وصارت له نعم جليلة [3].

وفى خلافة الحافظ ووزارة بهرام الأرمنى، ازداد نفوذ النصارى الأرمن بوجه خاص فى مصر، وقد تظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبنى له كنيسة بجوار داره، وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفر» [4].

وكانت الثورة على بهرام وخلعه، وتولية رضوان بن ولخش الوزارة فى جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ، فنهب العامة بعض كنائس القاهرة والخندق وأحرقوا دير الأرمن المعروف بالزهرى، وقتلوا بطريرك الأرمن كما نبشوا قبر البطريرك أخو بهرام [5] ثم ان رضوان فرض عدة قيود صارمة على أهل الذمة، وضاعف الجزية على النصارى وعلى اليهود.

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
(٢) المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ١٨.
(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ٥، ص ٢٤٤.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ١٥٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٥٩.
(٥) ابن ميسر : المصدرا لسابق، جـ٢، ص ٧٩.

زكوهما جميعها، ثم قالو: ان مقاره كهل محجاج
جيد الكلام ضابط لقوانين الرهبنه، وان يونس
الراهب شاب جيد الكهنوة صبيح الوجه فصيح
المنطق. فرغبو جميعهم في مقاره لاجل شيخوخته
وحنكته ونادو باسمه كفم واحد وكتبو الجواب
بذلك، فلما وصل الكتاب الى الابا الاساقفة
والكهنة المقيمين بالدير اجتمعو كلهم لقراته واتفقو
اجمعين على الرضا بما تضمنه وقام بعض الاساقفة

---

ولما توترت العلاقة بين الحافظ ورضوان سنة ٥٣٣هـ، وكثر سعى الوشاة بين الخليفة والوزير، وتخوف كل منهم من الآخر، قبض رضوان على بعض خواص الخليفة وقتل رئيس اليهود[١].

غير أن الحافظ الذى أسكن بهرام الأرمنى النصرانى فى قصره، وطرد رضوان من الوزارة سنة ٥٣٣هـ بعد أن استفحل أمره[٢]، أمر بحسن معاملة النصارى الارمن فشهدوا فى مصر سنوات من التسامح واللين، فيروى لنا أبو صالح أن البطريرك الأرمنى الذى ولى منصبه بعد الأحداث الأخيرة نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ صداقة وطيدة فكان يحضر بمجلس الخليفة الحافظ بقصر الزمرد فى يومى الاثنين والخميس من كل اسبوع ليحكي للخليفة ما قرأه فى «السير والملاحم والتواريخ وأخبار الملوك المتقدمين» [٣] كما صرح لهذا البطريرك بالدخول عليه فى أيام الأعياد والمناسبات مع الأمراء ووجوه الدولة. ويذكر أبو صالح أيضا أن تلك لعلاقة استمرت وثيقة بين البطريك الارمنى والخليفة حتى توفى الحافظ فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ [٤].

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص ١٦٨.
(٢) المقريزى: نفس المصدر، جـ٣، ص ١٦٦، ١٨٩.
(٣) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) أبو صالح الأرمنى: نفس المصدر والصفحة.

والكهنة والرهبان حيث مقاره المذكور وقبضوه واتو به الى المجمع فتضور [فتضرر] من ذلك وامتنع واستحلفهم ان يعفوه وقال لهم: انا ابن ثانيه(*) لا علم لي ولا كهنوت ولا اصلح لما تريدوه منى. فلم يلتفتو الى قوله وقيدوه والبسوه الثوب ووسموه، وذلك في يوم الاحد الثالث عشر من هتور سنه ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، وهي سنة اثنين وتسعين واربع مايه الخراجيه، وسارو الى

(*) بحسب قوانين الكنيسة القبطية فإن اولاد الزواج الثاني يمنعون من تولى وظيفة البطركية.

---

أما بطريك الأقباط اليعاقبة ميخائيل الخامس (ابن دنشترى)، البطريرك الحادى والسبعين للكنيسة المرقسية (١١٤٥ / ١١٤٦م)، فقد نشأت بينه وبين الخليفة الحافظ علاقة أساسها الثقة المتبادلة مما أدى الى نشاط حركة بناء الكنائس، وازدحامها بالمصلين، وازدهار الأديرة وتضاعف عدد الرهبان(١)، وعندما خلا كرسى البطريركية بوفاته سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٦م لم يتدخل الخليفة الحافظ في الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة، ورفض الاستجابة لمحاولة أحد الرهبان الرامية الى الوصول الى كرسى البطريركية عن طريق قصر الخلافة بل ومنح الحافظ أساقفة الكنيسة، وأعيان القبط كل الحرية وجميع التسهيلات لينتخبوا بمحض ارادتهم يوحنا الخامس البطريرك الثانى والسبعين رأسا لكنيسة الاسكندرية(٢).

غير أن الملك العادل بن السلار وزير الخليفة الظافر قبض على البطريرك يوحنا الخامس، وزج به في سجن دار الوزارة سنة ٥٤٧هـ، لأنه رفض أن يعزل المطران القبطى في الحبشة بناء على التماس تقدم به ملكها الى الوزير(٣)، لأن ليس في شريعة النصارى (القبط) أن

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٥٦، ١٥٧.
(٢) ساويرس. تاريخ البطاركة: انظر في هذا الجزء الثالث ص١٣١٨ وما بعدها.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ١٦٤.

مصر وكان وصوله الى كنيسة ابو قزمان التى عند القنطرة بجوار البستان المعروف بالزهرى فى يوم الخميس السابع عشر من هتور المذكور، فمضى الشيخ ابو الفضل ابن الاسقف الى دار السيد الاجل الافضل، وكان يوميذ كاتبه وهو الموقع عنه فى الاموال والرجال ومتولى ديوان المجلس والنظر فى جميع دواوين الاستيفا على جميع اعمال المملكة، واعلمه بوصول الاب البطرك انبا مقاره

---

يولوا أنسانا رتبة الكهنوتية ثم يعزلوه، وأن من شريعتهم أن يولوا غيره اذا مات «مما أغضب الوزير، فلبث البطريرك فى السجن مدة حتى أفرج عنه بعد مقتل ابن السلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨هـ [١]، ليعود الى السجن مرة أخرى فى خلافة العاضد لدين الله عندما وشى به جماعة من الرهبان عند الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك، الذى اساء الى البطريك، وحرض الرهبان على ضربه، ولما لم يتمكنوا، طرده من مجلسه، وسجنه، كما كتب الى ولاة الأعمال بفرض ضرائب على كراسى الأساقفة بالوجه البحرى، ومن ثم تعرض رجال الكنيسة والأساقفة لقسوة ولاة الأعمال، ولم يطلق سراح البطريرك الا بعد أن مات الملك الصالح طلائع بن رزيك فى تاسع عشر رمضان سنة ٥٥٦هـ، فأنفذ ولده الملك العادل رزيك الذى ولى الوزارة بعد أبيه من أخلى سبيل البطريرك، وأطلق سراح كل من معه.

ولقد أضيرت الكنيسة ابان فترة الاضطرابات التى عمت مصر بسبب النزاع على الوزارة بين شاور وضرغام بسبب أطماع الصليبيين ونور الدين فى مصر، كما ساءت حالة الكنيسة بسبب القيود الصارمة التى فرضها شيركوه على أهل الذمة ابان وزارته [٢]، فضلا عما

(١) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١٦٣، ١٦٤.
(٢) ايسيذورس : المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٧٥.

وانه يحتاج الى المسير الى الاسكندريه ليصلى عليه فى كنايسها لانها كرسى البطركيه، وان الوالى والمستخدمين هناك يطلبو منه رسوم جرت عادة من تقدمه بها، وهذا رجلا راهب ضعيف الحال ليس معه شى ولا اقتنا قط دينار ولا درهم، وساله اعفاه من ذلك واحضاره بين يديه لتطيب نفسه ويقوى امره كما جرت عاده من تقدمه. فاجابه الى ذلك وامر باحضاره مكرما مبجلا، فركب من الكنيسة

---

تعرضت له بعض الكنائس والأديرة لحوادث النهب والتخريب فى جو الاضطرابات وفوضى الحروب [١].

وفى اثناء وزارة صلاح الدين، وكذا فى بداية سلطنته، أصاب البطريرك القبطى ورجال الكنيسة كثيرا من المعاناة والحزن والأسى، لما أصاب الكنيسة ورجالها على يد صلاح الدين الذى اتخذ موقفا متشددا من أهل الذمة، وبالغ فى فرض القيود عليهم بسبب موالاة بعض النصارى واليهود للفاطميين [٢].

أما بطريرك الأرمن فى القاهرة، فقد حمله صلاح الدين على اغلاق مقر بطركيته بالزهرى سنة ٥٦٤هـ، والانتقال الى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة [٣]، وكان الأرمن قد قاتلوا قوات صلاح الدين بشراسة عند تصديه لمؤامرة مؤتمن الخلافة فى تلك السنه [٤]. ولما ضيق صلاح الدين الخناق على النصارى الأرمن لاشتراكهم فى المؤامرة ضدة سنة ٥٦٨هـ، خرج بطريرك الارمن بمحض ارادته من القاهرة قاصدا بيت القدس فى الثالث والعشرين من ربيع

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٠.
(٢) انظر ماقبل ص ٣٢ ـ ٣٧.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٤) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٢، ٣.

المقدم ذكرها والكهنة بين يديه يقرو وهم حاملين الاناجيل المقدسه ومجامر البخور والشمع الموقود، والشعب حوله والاساقفه والاراخنه ركاب دوابهم خلفه، ومتولى المعونة بالقاهره معه ورجالته بين ايديهم حتى وصلو الى دار السيد الاجل الافضل، فلما دخل اليه دعا له دعا كثير، فراه وديع عفيف حسن الوجه جيد الكلام ورزقه الله منه حظ وقبول فادناه واجلسه واكرمه اكراما كثيرا وخاطبه خطابا

---

الاول من نفس السنة ليقيم هناك، «بسبب تلف طائفته بيد الغز و الاكراد»[1]. وقد سمح له صلاح الدين بأن يأخذ معه كل ماحمله من الكتب الدينية، وجميع ماتحت يده من أوانى الكنائس ودنانير الذهب، وقد ترك هذا البطريرك قسيسا نائبا عنه لقيم الصلوات والقداسات فى كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة [2].

لم يقف صلاح الدين عن حد تدعيم علاقة الدولة بالكنيسة القبطية ورجالها، بل وطد علاقته بكبار رجال الطائفة اليهودية فى مصر، وان لم يتدخل فى شئونها. وكان قد وصل الى كرسى رئاسة اليهود فى بداية حكمه حبر يهودى يدعى يحيى، سبق أن اغتصب هذا المنصب أثناء وزارة شاور لقاء ألف دينار كل عام، وكان أن أساء معاملة أبناء ملته حتى ضاق صدرهم به، وأطلقوا عليه اسم (الشرير)، وثاروا فى وجهه، ولما تنبه صلاح الدين الى أمره بعد أربع سنوات من رياسته أمر بعزله، وطرده مع أسرته من الفسطاط ولما اختار اليهود الحبر نيثانيل لرياسة الطائفة اليهودية خلفا له، احترم صلاح الدين رغبة أبناء الطائفة فى اختياره[3]. كما يرجع الفضل الى صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل فى تولى موسى بن ميمون العالم

---

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤.
(٢) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥.
(٣) ولفنسون: المرجع السابق، ص ١٩.

جـمـيـلا، وامـر ان يكتب له منشـور الى والى
الاسكندريه وغيره من الولاه الذين يعبر عليهم فى
طريقه باعزازه واكرامه واعفاه من طلب رسم ولا
غيره ومساعدته ومعاضدته في جميع ما يحتاج
إليه. وقام خرج من مجلسه على اجمل قضية،
ففرح الشعب بذلك فرحا عظيما واخذو المنشور
وسارو الى اسكندريه فخرج كل الشعب للقايه
وكان دخولهم اليها على اجمل قضية واوفاها،

---

والطبيب والحبر الكبير رئاسة الطائفة اليهودية فى مصر سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. كما تشير المصادر الى أن صلاح الدين كان ينتفع بما لابن ميمون ـ حبر الطائفة اليهودية الكبيرـ من لطف التدبير، ومن المكانة والقبول عند يهود اليمن فى تهدئة الثورات التى كانت تنزو بها تلك البلاد [(١)]، كما استجاب صلاح الدين، لرجاء هذا الحبر اليهودى الذائع الصيت، وفتح أبواب القدس بعد طرد الصليبيين منها سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م، أمام يهود بلدان غرب أوربا [(٢)]، كما شجع اليهود على الاستقرار بالمدينة التى أضحت خالية بعد رحيل الفرنج، فتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الاملاك والامتعة التى أضطر الصلبيين عند رحيلهم الى بيعها بثمن بخس[(٣)].

واستمر لهذا الحبر اليهودى الكبير مكانته المرموقة في بلاط الايوبيين ففى ايام رئاسته للطائفه اليهودية ازدهرت المعابد اليهودية في مصر، ونشطت المدرسة التى أسسها يهود الجالية الاندلسية بالفسطاط، لتعليم الديانة اليهودية والفلسفة والرياضة والطب، وكان موسى بن

(١) ولفنسون: المرجع السابق، مقدمه الكتاب، بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق، ص (ط).
(٢) الخربوطلى: العرب واليهود، ص ٧١.
ـ الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢١٩.
(٣) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٥٥.

ولقى من الوالى ملقا حسن واكرمه وبجله ومنع المستخدمين من تكليفه درهما واحد فضلا عما سواه. وكان تكريزه فى كنيسة مارى مرقس الانجيلى باسكندرية فى يوم الاحد الثانى عشر من كيهك سنة ثمان مايه وتسعه عشر للشهدا، بعد ان جرى له مع الاسكندرانيين خطوب كثيرة بسبب الرسم المستقر لهم على من يجلس فى البطركية، فامتنع من كتب الخط لهم بذلك، وقال لهم: انا

---

يمون رئيس اليهود فى الديار المصرية، من أشهر أساتذتها المبرزين. كما أن صلاح الدين بعد ملح الرملة سنة ٥٨٨هـ استقبل بكل الترحاب هيوبرت أسقف سالسبورى وأنعم عليه، منحه الهدايا، وقبل رجاءه فى تعيين اثنين من القسس اللاتين، واثنين من الشمامسة اللاتين ب كل من كنائس القيامة وبيت لحم، والناصرة، ليمارسوا الشعائر الدينية وفق المذهب كاثوليكى(١).

وفى عهد خلفاء صلاح الدين فى مصر استمرت العلاقة وطيدة بين الدولة ورؤساء طوائف الدينية من أهل الذمة، وكان موسى بن ميمون رئيس يهود مصر من أقرب رؤساء بل الذمة الى رجال البيت الأيوبى وكبار رجال دولتهم(٢) ولما توفى سنة ٦٠٥هـ/ ١٢٠٤م تقلد ولده ابراهيم بن موسى بن ميمون منصب رئيس الطائفة وعمره آنذاك ثمانية عشر عاما، كان اليهود قد اختاروه فى حياة أبيه ليخلفه فى رئاسة طائفتهم (٣). وقد أيد السلطان الملك عادل هذا الاختيار وعندما ظهر بعض المعارضين والمناوئين لابراهيم بن موسى، ندد بهم الملك عادل وتمسك به رئيسا للطائفة اليهودية (٤)، ولما احترف الطب وأصبح من الأطباء المبرزين

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤١.

(٢) القفطى: المصدر السابق، ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٣) ولفنسون : المرجع السابق، ص ٢١، حاشيه ٢.

(4) Goitein : the cairo Geniza, p. 87.

رجل راهب مـــا لى شى ولا اكـــتب خطى بشى
ومـهـمـا قـدرت عليـه دفـعتـه لهم فى كل سنه فـان
رضيـتم على هـذه القـضيـه والا اتركونى ارجع الى
حـــيـث كنت فـــهـــو اصلح لى واحب الىّ مما
دعـوتمونى اليـه. ولـم يزل الخطاب يتـرد بينهم عـدة
ايام الى كتب خطه بمايتى دينار عدداً فى كل سنه.
ووصل الى مـصـر يوم السـبت الرابع والعشـرين من
كيـهك المذكـور واجـتـمـع الاراخنه والشـعب فى يوم

---

اختاره السلطان الملك الكامل طبيبا خاصا، الى جانب رئاسته لبنى ملته [1]. كـمـا يذكـر ميخائيل مكسى أن السلطان الملك العادل استقبل فى القدس ثلاثة من كبار أحبار اليهود والذين فروا من انجلترا سنة ١٢١١م استقبالا حسنا [2].

وفى عهد خلفاء صلاح الدين أيضا نعم رجال الكنيسة القبطية بسياسة التسامح الدينى، ولم يتدخلوا فى شئونها الداخلية على الرغم من تفشى بيع المناصب الكنيسة الى القسيسين الذين اتسموا بالجهل والفساد آنذاك [3]، كما أن الملوك الايوبيين لم يفرضوا على الكنيسة شخصا بعينه دون موافقة جمهور القبط. ففى سنة ٦١٢هـ = ١٢١٦م توفى البطريرك القبطى يوحنا السادس، وسأل نشو الخلافة أبو الفتوح بن الميقاظ، كاتب الجيوش العادلية، السلطان الملك العادل أن يولى صديقه الحميم القس داود بن يوحنا ـ المعروف بابن لقلق ـ البطركية، فأجابه الملك العادل وكتب له توقيعا بذلك، فلم يعجب النصارى ولاية داود [4]، وقام الأسعد ابن صدقة كاتب دار التفاح وجمع كثيرا من نصارى مصر، واستغاثوا بالملك

(١) ابن أبى أصيبعه: المصدر السابق، ص ٥٨٣.
(٢) الأنبا ميخائيل: المرجع السابق، ص ٦٢.
(٣) أرنولد: المرجع السابق، ص ٩٧.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٨٤.

الاحد غدوة فى كنيسة السيدة المعلقه وظنو انه
يقدس ويكرز، فاجتمع جماعة من رهبان دير ابو
مقار وقالو: ما يقدس بعد قداسه فى اسكندريه الا
فى دير ابو مقار كما جرت عادة من تقدمك فان
انت نقضت هذا الرسم وقدست اليوم فى هذه
الكنيسه بمصر قبل ان تقدس فى اسكنا ابو مقار ما
يكون بيننا وبينك معاملة فيما بعد ولا نرفع اسمك
على هيكلنا ولا ندعك تدخله ولا تقدس فيه ابدا

---

الكامل، الذى حمل الى والده معارضة جمهور القبط [1] وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود، وأنه لا يجوز عندهم تقدمته الا باتفاق جمهورهم» [2]، وكان أن تراجع الملك العادل وعدل عن تعيين ابن لقلق فى منصب البطريركية غير أن النزاع استمر عشرين عاما بين الجماعات المتعادية المتناحرة على من يختارونه لكرسى البطريركية الامر الذى أدى الى خلوه[3].

وعندما تقلد داود بن لقلق فى تاسع عشرى رمضان سنة ٦٣٣هـ (= ١٢٣٦م)، كرسى البطريركية التى سعى اليها طوال العشرين عاما الماضية [4]، اضطر أساقفة الكنيسة وأعيان القبط قبوله على مضض، لانه على حد تعبير البعض «استعان بالسلطان الزمنى، ودفع رشاو طائله حتى وصل أخيرا الى بغيته [5]، ولما كان داود بن لقلق «محبا للرياسة، وجمع المال، أخذ الرشاوى وتوسع فيها، فى شغل المناصب الكنسية فقد ثار عليه الرهبان، وبعض الأساقفة، وأعيان القبط، وعزموا على خلعه فى أيام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،

(١) ابن العميد: أخبار الايوبيين ، ص ١٤٢.
(٢) المقريزى: السلوك ، جـ١ ق١، ص ١٨٤.
(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٤، ٢٨٨.
(٤) المقريزى: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٥٢.
(٥) الانبا ايساك: موكب الباباوات فى تاريخ الأقباط، (تحت الطبع)، ص ٢٨.

ولو قتلنا كلنا. وشعشو وجلبو واكثرو الكلام
والصياح، فلم يقدس في ذلك اليوم واقام بمصر
لم يقدس الى بعد الغطاس. وسار الى دير ابو مقار
في النصف من طوبه وقدس في الاسكينا بكنيسه
ابو مقار في يوم الاحد الثالث والعشرين منه، وعاد
الى مصر وقدس في كنيسة السيده المعلقه بمصر
في يوم الاحد اخر طوبه من السنة المذكورة، وكرز
فيها وكان يوم حسن. وقرى تقليده على الانبل

---

غير أن الكتاب الأقباط العاملين بالحكومة توسطوا فى صلحه مع خصومه[1]، بعد أن عقدوا له عدة مجالس بحضور نائب السلطان، والعدول والوزير معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ، وغرموه زهاء اثنى عشر ألف دينار[2]، حمل معظمها الى السلطان حتى استمر فى رئاسته للبطريركية[3]، وعندما توفى كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة المرقسية فى سابع عشر شهر رمضان سنة ٦٤٠هـ = ١٢٤٢م، أتفق أساقفة الكنيسة وأعيان القبط فيما بينهم على أن يرجعوا التشاور فى موضوع انتخاب بطريرك جديد الى أن تهدأ النفوس مما أصابها على يد البطريرك المتوفى، فظل كرسى البطريركية شاغرا حتى نهاية العصر الأيوبى[4].

## سياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء دور العبادة لأهل الذمة

### الكنائس المسيحية:

اشترط ما اصطلح على تسميته «بالعهد العمرى» أو «الشروط العمرية» المنسوبه الى الخليفة

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص ١٤٢.
(٢) ابن الراهب : المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٣) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٧.
(٤) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٥٩.

يوناني وقبطي وعربي، وكمل القداس كما يجب وقرب جميع الشعب وكان خلق كثير قد اجتمع في ذلك اليوم حتى ضاقت بهم الكنيسه وفرح الشعب وشكرو الله تعالى على رحمته وتعاهده لشعبه في كل وقت كما وعد في انجيله المقدس اذ قال: انا معكم الى انقضى الدهر.

وفي السنه الخامسه لابا مقاره البطرك المذكور قرى سجل في الايوان الكبير بالقصر في يوم

---

عمر بن الخطاب، على النصارى ألا يستحدثوا من الكنائس شيئا، ولا أن يجددوا ماخرب وماهدم واندثر منها، أويعيدوا بناء البيع القائمة في نواحي من المدن الآهلة بالسكان، ويرى أبو يوسف أن الشروط العمرية نصت في فتح المدن «على ألا تهدم بيع الذميين ولاكنائسهم داخل المدينة، ولا خارجها.. وألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة» وبالتالي فان كل ما أحدث من بناء بيعة أو كنيسة فأنه يهدم [1].

ويتفق الأئمة الأربعة على عدم استحداث بيع أو كنائس في دار الاسلام[2]، كما أن عمر ابن الخطاب أمر بهدم كل كنيسة استجدت بعد الهجرة... «وصانع القبط على كنائسهم وهدم بعضها، لم يبق من الكنائس الا ما كان قبل البعثة النبوية، أما اذا استهدم منها شيئا فلا يمنعون من أعادته، وقيل يمنعون لأنه نسبة للاستحداث[3]. كما اشترط على أهل الذمة ألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم[4].

ومع هذا فان السلطات الحاكمة في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي، أبدت قدرا كبيرا

(١) ترتون : المرجع السابق، ص ٣٩، نقلا عن أبي يوسف وكتابه الخراج ص ٧٢، ٨٧.
(٢) ترتون: المرجع نفسه، ص ٤٠.
ـ الخربوطلي: الاسلام وأهل الذمة، ص ١٣٨.
(٣) ابن الاخوة: المصدر السابق، ص ٩٧.
(٤) ابن القيم: احكام أهل الذمة، جـ١، ص ٢٣٦.

الاحد التاسع عشر من المحرم سنة احدى وخمس مايه الهلاليه، الموافق للعاشر من توت سنه تسع وتسعين واربع مايه الخراجيه، يتضمن نقل هذه السنه الخراجيه الى هذه السنه الهلاليه نقلا لا يتجاوز التسميه وان يورخ فى ساير الاعمال لسنيه احدى وخمس مايه الهلاليه الخراجيه ويلغى ذكر ما سواها ويبطل فى ساير الدواوين من الحسابات والمعاملات.

---

من الواقعية ازاء تطبيق هذه الشروط، ولم تلتفت الى تطبيق البعض الآخر الا عند حدوث الأزمات، ويرى لين بول فى كتابه سيرة القاهرة، فى معرض كلامه عن أهل الذمة فى مصر أنه «بوصول الخلفاء الفاطميين بدأت فترة من التسامح واللين لاعهد لهم بهما فقد كان الحكام الجدد... يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين، وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس فى عهدهم[1] أما السير توماس أرنولد فقد أشاد بسياسة الفاطميين أزاء الكنائس فى مصر ويرى أن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة العاصمة الجديدة ـ كما سمحت للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة» [2]. كما سمحت لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة وترميمها [3].

لقد انتهج الفاطميون فى عصرهم الثانى سياسة خلفاء العصر الفاطمى الاول فيما يتعلق بسياستهم المتسامحة ازاء الكنائس، كما أن سيطرة الوزراء الأرمنيين على مقاليد السلطة فى مصر اعتبارا من الثلث الاخير من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى قد تمخض عن شعور طيب أزاء النصارى بوجه عام،[4] فقد كان بدر الجمالى يميل الى المسيحيين على

(١) لين بول: المرجع السابق، ص ١١٨.
(٢) أرنولد: المرجع السابق، ص ٨٤.
(٣) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٢٤١، ٤٢، ٤٨.
(٤) لين بول : المرجع السابق، ص ١٢٠.

وفى السنه الثامنه من بطركيته فى يوم الاحد
السابع عشر من شوال سنه اربع وخمس مايه
الهلاليه، وهو الخامس من بشنس سنه خمس مايه
الخراجيه، ثارت ريح عظيمه سودا وغبار فى الساعة
التاسعة من يوم الاحد المذكور وصار فى الجو حمره
عظيمه منتشره على الارض مثل النار ثم صارت
ظلمه عظيمه شديدة حتى لم يبصر احد من الناس
الاخر، واعتقد جميع الناس ان القيامه قد

---

أنه لم يظهر ذلك لهم [١]، ففى عهده أقيمت الشعائر الدينية المسيحية فى جميع الكنائس فى حرية تامة [٢] وأنشئت بعض الكنائس المستحدثة، وجدد البعض الآخر، كما رمم غيرها، كما ابتنى بدرالجمالى للأرمن الوافدين معه كنيسة كبيرة بجهة دير البساتين فى الفسطاط حيث خصص لهم بقعة لسكناهم[٣]. وفى عهده استقبلت السلطات فى مصر البطريرك غريغوريوس الارمنى استقبالا حافلا، وأعطوا له كنيسة اقطعت للأرمن[٤]، فهدموها وجددوا عوضها كنيسة كبيرة متسعة بعدة قباب باسم مارى جرجس، وبنوا لها جوسقا بابه من داخل البيعة، وبنوا عليها حصنا دائرا وحفروا لها بئر ماء وركبوا عليها ساقية، وزرعوا أنواع الشجر وأصناف الفاكهة والنخيل المثمر[٥].

واذا كان بدر الجمالى قد شمل أساقفة الكنائس برعايته، وخرجت المنشورات فى عهده لولاة الأقاليم ليستجيبوا لاحتياجات الاساقفة، فقد أمر البطريرك القبطى كيرلس الثانى بأن

(١) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٦٢.
(٢) ايريس حبيب: المرجع السابق، جـ٣، ص ١١٢.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٠، ٧١.
(٤) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.
ـ جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٦١.

حضرت[*] فخرجو من دورهم ومساكنها وخلو ابوابها مفتوحة معتقدين انهم هلكا لا رجوع لهم اليها، وصارو هايمين على وجوههم في الجوامع والكنايس والازقه. والباعه تركو حوانيتهم وما فيها من ذهب وفضه وقطاني وتجارة وبر ومتاع وغيره وساحو في الظلمه حايرين يطلبو المواضع المنفسحة المكشوفة خوفا ان تسقط عليهم السقوف او الحيطان، وكانت ساعة مهولة لم يرى

(*) إشاعة يوم القيامه بسبب رياح الخماسين.

---

يتنازل لكل طائفة من السريان عن كنيسة، فتنازل القبط لهما عن كنيستين في دير الخندق المعروف الأن بدير الأنبا رويس [1].

وعلى الرغم من أن بعض المصادر النصرانية بالغت في الثناء على الوزير الأفضل، لرعايته أهل الذمة، الا أنها أشارت بأصابع الاتهام الى أنه أمر في سنة ٥٠١هـ بهدم كنيسة القديس ميخائيل (المختارة) بجزيرة الروضة[2]، لأنها كانت وسط بستان اشتراه [3].

كما يذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن الوزير الأفضل هدم كنيسة أبي قدامة بالفسطاط، وبنى موضعها مسجدا للمسلمين، لان المدعو أبو اليمن بن عبد المسيح متولى ديوان أسفل الارض استغل نفوذه ومكانته في الدولة، وخرق ما هو متعارف عليه من أحكام فقهية، عندما هدم الكنيسة المذكورة، وكانت قد آلت للسقوط، ثم «جدد بناءها بغير توقيع السلطان ولا أستئذان» فسعى أحد أعدائه وأبلغ الوزير الأفضل أن أبا اليمن «هدم الكنيسة وبناها بغير أمرك»، كما استولى على عرصة كانت بجانبها لديوان أحباس الجوامع، وجعلها بستانا ألحقه

(١) ايسيذورس: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣١٧.
(٢) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٣٨.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، جـ٥، ص ٣١٩.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.

مثلها. وذكر جماعة من الشيوخ انهم لم يرو مثله ولا سمعو به من ايام موسى النبي. وبعد ساعه جاات المطر وانقشعت الغبره وسكنت الرياح وزالت وظهر النور فعاد الناس الى بيوتهم والى حوانيتهم وشكرو الله تعالى ومجدوه الذى اوراهم يسير من قدرته، فلما كادو يهلكو ادركهم بعفوه ورحمته.

---

بالكنيسة ، فغضب الأفضل «وركب فى جيشه، ومعه القاضى والشهود الى الكنيسة ، وحضر شيوخ مسلمين شهدوا بذلك» فهدم الكنيسة وسواها بالأرض وأقام مكانها مسجدا للمسلمين رغم أن المكان وأرضه يخص الكنيسة.

ومع هذا فان مؤرخ «كنائس وأديرة مصر» يذكر أن الشيخ أبا الفضل المعروف بابن الأسقف (ت ٥٠١هـ) متولى ديوان المجلس بذل الأموال فى تعمير الكنائس وعلى الأخص كنيسة مارى جرجس بالفسطاط، حيث كان دائم التردد عليها للصلاة [١]، كما تمت فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (ت ٥٢٤هـ) عمليات ترميم وتعمير لكثير من الكنائس على أيدى كبار موظفى الدولة من النصارى، وأعيان القبط ورجال الدين المسيحى[٢].

ولكن بعض رجال الدين الاسلامى استغاثوا برضوان بن الوخشى الذى جمع جيشا «واستعلا بكلمة الاسلام فأطاح ببهرام، ودخل القاهرة واخلع عليه بالوزارة فى سنة ٥٣١هـ. وارضاء للرأى العام الاسلامى نهب كنائس القاهرة والخندق، كما نهب عامة المسلمين كنيسة

(١) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٤.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر نفسه ، ص ٤١، ٦٥.

وفي يوم الجمعة الثالث من توت سنة احدى وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه وثمنيه عشر للشهدا الابرار في الساعه الثالثه من النهار، كانت زلزلة عظيمه، فلما كان الليل هدمت كنيسة ميكاييل المختاره بجزيره مصر(*) وقيل انها سقطت من الزلزلة، وكان السبب في ذلك ما حكاه جميل ابن يحنس الصعيدى قس الكنيسه المذكوره ومعانى الاحول قيمها ان يوسف

(*) قصة هدم كنيسة ميكاييل المختارة بجزيرة الروضة وكانت مقرا للبطركية

---

الزهرى التي للأرمن [1]، كما كانت كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة بين الكنائس القبطية التي هدمت ابان هذه الأحداث [2].

وفي خلافة الفائز بنصر الله (ت ٥٥٥هـ) وزارة الصالح طلائع بن رزيك (ت١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ) نعمت الكنائس بكثرة المترددين عليها من أبناء النصرانية لاقامة الصلوات والطقوس الدينية [3]، و اهتم النصارى بتجديد وتعمير وترميم كنائسهم، وعلى سبيل المثال فان الشيخ المكين أبو البركات بن كتامة الكاتب النصرانى بنى كنيسة باسم مارجرجس بأرض الحبش من القاهرة، وجدد كنيسة باسم مارمينا على مقربة من الكنيسة السابقة، ثم جدد أيضا كنيسة الأربعة حيوانات غير المتجسدين على مقربة من دير نهيا من الجيزة [4] كما أن خاصة الدولة أبا الفضائل المعروف بابن دخان أشهر كتاب النصارى في وزارة طلائع بن رزيك عمر كنيسة أبو يحنس بالفسطاط، وأنشا قبالتها جوسقا من ثلاث طبقات[5].

---

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٧٩.
(٢) رؤوف حبيب: المرجع السابق، ص ١٠٠.
(٣) بتشر: المرجع السابق، جـ٣، ص ٩٦.
(٤) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥٣.
ـ أريس حبيب : المرجع السابق، جـ٣، ص ١٤٤.
(٥) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤١.

المستحب المسلماني ابن مرقوره النصراني البنا، صار مقيما في الجزيرة اكثر وقته لعمارة المواضع المستنزهات المستجدة بجوار هذه الكنيسة وهي البساتين والادر المسماه بالروضه الذى امره السيد الاجل الافضل بانشايها هناك، فلما كملت دار عليها كلها حصن فانتهى الى طاحون الكنيسة وهي قبالة بابها فذكرو ان يوسف المستحب قال لهم اعطوني شي حتى اوارب الحصن عن

---

الا أن المؤرخ الأرمني النصراني يطالعنا بأن الوزير الصالح طلائع تقدم بأخذ بعض عمد احدى كنائس الفسطاط لعمارة المسجد الذى أنشأة بقرافة مصر [1]، والذى وصفة المقريزى بأنه كان في أعلاه مناظر، وعمارته متقنة الزى» [2]، كما أن حسن الكردى صهر الصالح بن رزيك أتى على كنيسة وجعل موضعها مسجدا [3] للمسلمين وذلك أثناء وزارة الصالح بن رزيك للخليفة العاضد لدين الله.

هذا ويذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن النصارى قد عمروا كنيسة بالمطرية التي فيها بئر البلسم الذى يستخرج منه دهن البلسان على أثر الكنيسة القديمة وكرزوها على اسم القديس مار جرجس وقدسوا فيها قبل أن يكملوا سورها فهدمها المسلمون وبنوا مكانها مسجدا.

كما أن كثيرا من كنائس النصارى في مصر وبخاصة تلك الكنائس الواقعة في منطقة الفسطاط لحق بها التدمير وتعرضت للنهب والتخريب في جو الفوضى التي عمت مصر أثناء الصراع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة.

---

(١) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٢) المقريزى: المصدر السابق، ص ٥٣.
(٣) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٩.

الطاحون والا هدمتها واجزته فى وسطها، وانهم اوعدوه بدنانيـر ثم رجع يذلهم ولم يعطوه شى وقالو له: ان انت انتهيت عن اذيتنا والا استغثنا فيك للسلطان وعرفناه ما قد عرفناه من ذميم طريقتك فى خدمته التى لم نرضاها، وقد نزه الله ايامه عما تفعله فيها ونحن قوم ضعفا تريد تقطع مصانعتنا وتريد منا ما لا نقدر عليه. وجرت بينهم خصايم كثير، فلما حدثت الزلزلة فى اليوم المقدم

---

ويذكر مؤرخ سير البيعة المقدسة أن عساكر شيركوه فى سنة ٥٥٩هـ = ١١٦٣م. هدموا كنيسة الزهرى التى للأرمن، كما يقرر المؤرخ القبطى المعاصر أنهم نهبوا كل كنيسة هدموها»[1].

وكثيرا ما يشير مؤرخ «كنائس وأديرة مصر» الى تحطيم البيع ونشوب الحرائق فيها ونهب نفائسها وذخائرها وأموالها سواء على أيدى قوات شيركوه أوعلى أيدى عوام المسلمين [2]. كما نذكر على سبيل المثال أن كنيسة مارمينا بالحمراء أحرقت وسويت بالأرض مع غيرها من الكنائس فى جمادى الاخر سنة ٥٥٩هـ، وعندما أعيد بناؤها فى السنة التالية تذمر عامة المسلمين وانثالوا عليها تخريبا وهدما ونهبا [3].

على أن حريق الفسطاط فى صفر سنة ٥٦٤هـ الذى أمر به الوزير شاور، أصاب القبط بضربة قاصمة وبخاصة فيما يتعلق بكنائسهم فى الفسطاط، فقد التهم الحريق عدة كنائس

---

(١) ساويرس:، انظر ص ١٣٩٧ من هذا الجزء الثالث.

(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠، ٤٣.

(٣) أبو صالح الارمنى: نفس ارصدر، ص ٣٣.

ـ ترتون: المرجع السابق، ص ٥٧.

ذكره بات هو والفعله معه فى الروضه فى العماره
كما جرت عادته، فلما جن الليل امر الفعله بهدها
فما اصبح الصبح الا وهى مهدومة واوصى الفعله
بكتمان ذلك فلم يجسر احد منهم ينطق به
لخوفهم منه، فلما كان بالغداة اذاع هو والفعله ان
الزلزلة التى كانت بالنهار شققت حيطانها فلما
جن الليل وقويت عليها الرياح سقطت لانها
حيطان قديمه، وان هذا بوانى اهلها وقيّمها وانهم

---

منها كنيسة أبو نفر [1] بالحمرا الوسطى[2] وكنيسة الملاك غبريال بخط الحمراء أيضا، ويتهم أبو صالح الأرمنى «الغز وعوام المسلمين» بأنهم نهبوها وكسروا أعمدتها وأحرقوا قبة فى علوها[3]، كما أن كثيرا من الكنائس هدمت أسوارها وسويت بالأرض «واختلطت بغيرها من الطريق» فتعرضت الكنائس لنهب الغوغاء والعامة [4]، أما كنيسة القديس مارى مرقوريوس المعروف بأبى السيفين فقد أحرقت [5]، ويتهم ابو صالح «عوام المسلمين» بأنهم هم الذين أضرموا النار فيها، منتهزين فرصة اشعال الحريق فى الفسطاط، وأنهم اندفعوا فى جمع غفير يدفعهم التعصب الى داخلها وتمكنوا من نهب ما كان فيها من الأوانى والأمتعة الثمينة[6].

كذلك تعرضت كنائس الملكيين بقصر الروم من الفسطاط [7] للنهب والتخريب على

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٢، ٤٣.
(٢) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمنى: نفس المصدر، ص٣٧.
(٥) ابن الراهب: المصدر السابق، ص ١٤٠.
ـ المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ٤٧.
(٧) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.

لو كانو حضرو فى ذلك اليوم حتى يبادرو بادعامها ما اصابها شي. واذاع ذلك عند كل الناس فنال النصارى من ذلك غم عظيم وحزنو عليها حزنا عظيما، وبلغ الاب البطرك هذا الخبر فحزن حزينا كثير وقال: انما كان هذا فى ايامى لكثرة ذنوبى. ولما وصل بعد ذلك الى مصر تقدم الى وكيل احباس الكنايس المغلقه وغيرها ان يمضى الى كنيسة ميكاييل المختاره يحمل اخشابها والاتها الى

---

يدى قوات شيركوه التى استولت على أربعة كنائس للملكين ونهبوا أخشابها وهدموا جدرانها وسويت بالأرض ولم يبق لهم سوى كنيسة واحدة ولم يكن ذلك الا بسبب «ضعف الملكية وقلة عددهم» [١]. كذلك هدم الغز الأكراد بيعة بسقط رشين من الفيوم على اسم الشهيد تادرس وبنوا موضعها مسجدا للمسلمين [٢]. أما كنائس الأرمن فى القاهرة والفسطاط، فقدى أغلقت بعد أن أوقع بهم صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ وصارت خالية «لا يجسر أحد أن يسلك اليها» ثم أفرد لهم صلاح الدين كنيسة يوحنا المعمدان بحارة زويلة، وصارت مقر للبطريرك الأرمنى [٣].

لكن المصريون الاقباط نشطوا فى ترميم وتعمير كنائسهم فى السنوات الأخيرة من خلافة العاضد بالله، الذى «كان يعني بأمر الكنائس» [٤]، كما يذكر أبو صالح الأرمنى أن كنيسة «الموتوتى» حظيت برعايته وحظى رجالها بعطفه [٥]. ومن ثم جد رجال الكنيسة القبطية

---

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٧.
(٢) ابو صالح الارمنى : نفس المصدر، ص ٩٥.
(٣) ابو صالح الارمنى: نفس المصدر ، ص ٤,٣ .
(٤) لين بول: المرجع السابق، ص ١٢٠.
(٥) ابو صالح الارمنى: المصدر السبقبق، ص ٥٩.
ـ ترتون: المرجع السباق، ص ٥٧.

حيث امره وبقيت مهدومه الى حيث [حين] نظمت هذه السيرة.

وفى يوم السبت السابع عشر من بشنس سنة ست وخمس مايه الخراجيه، الموافقه لسنه ثمان مايه ثلثه وثلثين للشهدا على ان اول السنه ـ توت ـ تنيح الاب القديس انبا سنهوت اسقف مصر قدس الله روحه، فلقد كان فاضل مليح الكهنوة غزير العلم قنوع متواضع سليم الصدر ساذج النية

---

وأعيان المصريين القبط فى ترميم وتعمير الكنائس وبخاصة تلك التى أصابها حريق مصر فى صفر سنة ٥٦٤هـ، ويذكر لنا أبو صالح الأرمنى فى تاريخه الحافل بأحداث هذه الفترة أسماء كثيرة لمن قاموا بعمارة الكنائس المسيحية ومن كانوا يترددون عليها ويهتمون بأمرها من رجالات النصارى فى السنوات الأخيرة للدولة الفاطمية [١].

على أن الكنائس فى مصر تعرضت لأقوى عاصفة مدمرة ألمت بها فى العصر الأيوبى وذلك ايام صلاح الدين الايوبى عندما خرج أمره على حد رواية المؤرخ القبطى المعاصر «بأن تنزع الصلبان الخشب التى كانت على كل قبة عالية فى كل كنيسة من جميع الكنائس التى بأرض ديار مصر، وأى كنيسة كان ظاهرها مبيض تليس بالطين الأسود من فوق البياض، وأن لايدق ناقوس فى جميع ديار مصر.... وأن يخفضوا أصواتهم فى صلواتهم» [٢]، وأن لا يزفوا الصليب فى مدينة ولا قرية يوم الشعانين فى الشوارع[٣].

وكان أن تجرأ عوام المسلمين «ورتبوا على بعض الكنائس فى المدن والقرى فهدموها كما

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٣٤، ٣٩، ٣٩، ٤٣.
(٢) ساويرس:، ص ١٥٩٧ وما بعدها من هذا الجزء الثالث.
(٣) ساويرس: المرجع السابق، نفس الصفحة.

صبور طاهر جميل الافعال، وحمل الى كنيسه
القديس ابو سرجه واجتمع الشعب كله وجميع
الكهنه المصريين والقاهريين اليها فى تلك الليلة.
وفى غدها، وكان يوم عيد الخمسين المقدس واتفق
ايضا انه كان يوم عاشورا، وحضر الاب
اغريغوريس بطرك الارمن لتنجيزه والصلاة عليه،
واخرج منها الى التربه التى كان بناها فى [بركة]
الحبش عند وفاة اخيه القس الراهب سويرس - نيح

---

تعرضت كنيسة العذراء مريم ببلدة أبريم عند غزو النوبة سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، للهدم والتخريب على يد قوات توران شاه، الذى أمر بحرق الصليب الكبير الذى فوق قبتها، ثم حول الكنيسة مسجدا للمسلمين [١].

وشهدت مصر فى الفترة من عام ٥٧٠هـ الى عام ٥٧٥هـ على وجه الخصوص والأعوام التى بعدها، أكبر حركة تعمير وترميم وتجديد للكنائس، وتذكر المصادر والمراجع النصرانية اسماء العديد من الشخصيات المرموقة من أعيان القبط وكبار الموظفين منهم الذين أسهموا بنصيب كبير وجهد وافر وأموال طائله فى تعمير الكنائس، ومن هؤلاء أمين الدولة ابن المصوف أحد كتاب الادارة المالية من النصارى فى عهد صلاح الدين الذى بذل من امواله الشئ الكثير فى تجديد بعض كنائس الفسطاط [٢]. والشيخ شرف الرياسة سعيد بن هيلان الكاتب النصرانى الذى أسهم فى تجديد كنيسة أبى السيفين بالفسطاط وجعلها من أورع العمائر الدينية المسيحية فى عصره [٣]، وأبو الفتح بن الأقمص المعروف بالحوفى المصور القبطى اللامع الذى زين كنيسة الزهرى التى كانت للأرمن وآلت الى الأقباط - بأيقونات

(١) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.
(٢) ابو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٥٠.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

الله نفسه ـ والكهنه والشعب حول تابوته يمشو ويبكو ويقرو ومعهم الشمع الموقود والبطرك والاراخنه ومن حضر من الاساقفه ركاب خلفه. وحزن عليه جميعهم حزن شديد لمعرفتهم انهم لا يجدو مثله ولا من اجتمع فيه الفضايل والعلم والطهاره والكهنوة مثلما ما اجتمع فيه. وكان الاب القديس ابا مقاره البطرك غايب فى قلايته التى فى ازرى بجزيرة بنى نصر فكتبت اليه(*)، انا الخاطى

(*) الخطابات المتبادلة بخصوص=

لمختلف القديسين[1] والفضل بن فروج أحد الأعيان النصارى الذى اهتم بعمارة وترميم عدد من الكنائس وتزينها حتى لقد جعل كنيسة أبى جرج[2] ـ (مارى جرجس) ـ بقصر الروم من الفسطاط[3] رائعة البنيان وعامرة بالمصلين،كما اهتم الشيخ الأسعد بن ميخائيل بعمارة كنيسة الزهرى[4]، كما أعمر كنيسة مارمينا بالحمراء من الفسطاط، غيرها من الكنائس، «وكان يتعهدهم ويتفقدهم بالقداسات فيهم، ويهتم بأقمنة الجير حتى كملت العمارة»، وشاركه أعيان القبط فصنعوا لكنيسة مارمينا المشار اليها، الأوانى الفضية الثمينة اللازمة للطقوس الدينية، وضموا اليها بستانا، وأقاموا عليه السواقى[5]، كما أن الشيخ السديد أبا الفضايل المعروف بابن ستمائة، كاتب الامير على بن أحمد الكردى، جدد فى عهد صلاح الدين كنيسة الملاك ميخائيل[6].

ومن الجدير بالذكر أن عامة المسلمين بتحريض من بعض المشايخ اصحاب المصالح أبدوا

(١) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٧.
(٢) ابريس حبيب : المرجع السابق، ص ٢٣٦.
(٣) ابن دقماق: المصدر السابق، جـ٤، ص ١٠٨.
(٤) سميكة : المرجع السابق، جـ٢، ص ٢٨.
(٥) رؤوف حبيب: المرجع السابق، ص ٨٧.
(٦) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق، ص ٤٨.

يوحنا ابن صاعد كاتب هذه السيره كتاب اعزيه فيه، هذه نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، قد صدرت كتبى الى الحضره الساميه القديسه النفيسه البطركيه الفاضله الرييسه، فخر الله اليعقوبيه وضيا البيعه الارتدكسيه، سيد الابا ورييس الرووسا، المخصوص بالفضايل الروحانيه، والمواهب العلويه، والافعال المرضيه، خليفة مارى مرقس الانجيلى ثالث عشر الجمع الرسولى، حرس الله مجدها

= تعيين اسقف لمصر ين يوحنا ابن صاعد والبطرك مقاره.
(*) لاحظ هنا البسملة في صدر خطاب قبطي.

---

استياءهم لقيام النصارى ببناء الكنائس ويروى المؤرخ النصراني الأرمني أنه لما جددت كنيسة مارمينا بالحمراء، «غاروا لاقامتها الحسدة والمعاندين واستعانوا بعوام القوم، فنهبوها وهدمت أيضا [1].

كما جرت خطوب كثير من المسلمون، عندما قام الأسعد صليب بن ميخائيل بهدم بيت العجين بكنيسة مارمينا السابق الاشارة اليها، وأفرده كنيسة على اسم القديس مارجرجس، بباب مفرد مجاور للكنيسة الكبيرة، وثار الغوغاء من المسلمين، ولم يمكنوا المصريين النصارى من بنائها، مع أنهم قدموا مايثبت أنها جزء من الكنيسة الكبيرة ولم تكن مستجدة.. وشهد من المسلمين من يعرف أنها كانت بيتا داخل الكنيسة ممن يقبل شهادته من جيران البيعة [2]، بل ان هؤلاء الغوغاء المسلمين» هدموا احدى بيعتين على اسم الملاك غبريال بطمبدى سنة ٥٨٠هـ[3].

وأحيانا ما اضطرت السلطات الحاكمة الى الخروج عما انتهجته من سياسة تجاه الكنائس تغليبا للرأى العام الاسلامى المتعصب ضد المصريين القبط، فقد أمر صلاح الدين بسحب

(١) ابو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ٣٣.
(٢) ابو صالح الارمني: نفس المصدر، ص ٤٠.
(٣) ابو صالح الارمني: نفس المصدر، ص ١١٥.

وثبت سعدها واهلك ضدها، متضمنه ما عندى
من الشوق المسيحى، والارتياح الروحانى، والتلهف
الى قربها، والتبارك من قدسها، والرب جل اسمه
يسرنى بمشاهدتها والنظر الى رياستها، ولا يعدمنى
بركة صلاتها بجوده وعميم رحمته. غير خاف عن
علمها ما كان من نياحة الاب السعيد الفاضل انبا
سنهوت اسقف مصر، ولدها الروحانى ومحبها
الحقانى نيح الله نفسه وارضاه بنظر وجهه، وكرم

---

أصدره سنة ٥٦٤هـ والذى تملك القبط بمقتضاه كنيسة الزهرى، ورسم بأن يغلق باب الكنيسة.

وازاء نشاط النصارى فى عمران وتجديد كنائسهم فى عهد السلطان الملك الصالح أيوب، نجد رجلا مسئولا هو أبو عثمان النابلسى الصفدى (ت ٦٤١هـ) الذى أشرف على اقليم الفيوم، يسجل فى كتابة «تاريخ الفيوم وبلاده» قائمة بكنائس وأديرة الفيوم البالغ عددها خمسة وعشرون كنيسة وثلاثة عشر ديراً [١] لئلا تطول المدد فى مستقبل الزمان، ويستغفل ولاة الأمور لتنائى هذا القطر عن الفسطاط، وانزوائه عن مرور السالكين اليه وعنه، فيبنى أحد من النصارى الأقباط الجبابرة الجهال الذين لاينظرون فى العواقب كنيسة أو ديرا، ويدعى قدمه اذا تنبه اليه أحد فى مستقبل الزمان... فيكون ذكر الديرة والكنائس مانعا من دعوى الزيادة عليها» [٢].

---

(١) أبو عثمان النابلسى: تاريخ الفيوم وبلاده ، ص ٢٢.
(٢) أبو عثمان النابلسى: نفس المصدر ، ص٤.

مثواه وانشى اجلها واحسن عزاها وطول عمرها،
وجعل الكافة فداها، وهى تعلم ان هذا الكرسى لا
يجرى مجرى غيره من الكراسى القبليه والبحريه
لان فيه اراخنه مصر ومقدميها ووجوه اقباطها
ورويساها، وهم كتاب الدوله وخدام المملكه،
واسقفهم فى كل اوان يحضر بحضرة ملك
الزمان. ويجب ان يكون الذى يقام لرعايتهم
وينتصب لسياستهم والنظر فى احكامهم وامورهم

---

## (علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدول المسيحية) وأثر ذلك على المصريين من أهل الذمة

- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد الحبشة.
- علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة.

### علاقات الفاطميين والأيوبيين بالدولة البيزنطية

شهد النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى توترا واضطرابا فى العلاقات بين مصر وبيزنطة.

ذلك أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي أرسل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ـ وكانت العلاقات اذ ذاك طيبة ـ يطلب منه امداد مصر بأربعمائة ألف أردب من القمح على أثر المجاعة التى حلت بمصر ابتداء من عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م. ولم يتردد الامبراطور فى الموافقة على ارسال ما طلبه المستنصر من الغلال ، غير أنه ما لبث أن توفى فجأة سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، واشترطت الامبراطورة تيودروا التى خلفته على العرش عقد معاهدة دفاع مشترك، تتعهد فيها

قد بلغ الكهوليه وعرف بلزوم طرايق الرهبنه، وقراة الكتب الشرعيه، وخدمة الهياكل المسيحيه، وحفظ الطقوس الكهنوتية، والنظر في القوانين الرسوليه، واشتهرت حسن عبادته، وعلمه وطهارته، ونسكه وجميل سيرته، وعفافه وتواضعه، وجميل طريقته اذ كانت، ثبت الله سعدها، عارفه بما جرت به عاده المصريين مع اساقفتهم قديما وحديثا، وان نساهم وبناتهم واخوتهم واهاليهم يتضوررو

---

مصر بمساعدة البيزنطيين ضد أى اعتداء مقابل حصول مصر على الغلال من بيزنطة، غير أن المستنصر بالله رفض الموافقة على مطلب الامبراطورة، فأضطرت بدورها الى الغاء صفقة القمح مع مصر، [1].

وقد أثارت سياسة الامبراطورة غضب المستنصر بالله، وعول على محاربتها [2]، فأرسل حملة بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم، حاصرت اللاذقية، وعاثت فى أعمال انطاكية [3]. غير أن الامبراطورة أنفذت حملة بحرية أوقعت الهزيمة بالجند الفاطمى فى سنة ٤٤٧هـ[4]، مماحمل المستنصر بالله على أن يعهد الى القاضى أبو عبد الله القضاعى بالذهاب الى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين، ولكن الامبراطورة لم تحفل بوجوده [5]، ومنعته من اقامة الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى جامع القسطنطينية [6] بينما سعت الى التقرب من

(١) ابن ميسر: المصدر السابق ، جـ٢، ص ٦، ٧.=
=ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا ، جـ٢، ص ٢٣٠.
ـــــ: الخطط ، جـ١، ص ٢٣٥.
(٢) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٣٠، ٢٣١.
(٤) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦.
(٥) ـــــ: نفس المرجع، ونفس الصفحة.
(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢،ص ٢٣٠.

[يتضرعو] الى اسقفهم فى مهماتهم، ويخلو به
فى ملماتهم، ويشكو اليه ضرهم وما يجرى عليهم
من ازواجهم واهلهم، ويكشفو له اسرارهم،
ويحتكمو اليه فى امورهم سرا وعلانيه، ويستشيروه
فى نوايبهم الظاهره والباطنه، فيكتم ما يسمعه
منهم ويشير عليهم بما يعود بمصالحهم، ويصبرهم
ويعزيهم ويتلطف بهم، ويبذل جهده فى صلاح ما
بينهم وبين رجالهم، خفيا بحسن سياسته كما كان

---

الترك السلاجقة الذين كانوا راغبين فى ذلك وأرسلوا سفارة الى القسطنطينة [١]، لقيت الترحاب من الامبراطورة، وصرحت لرسول طغرليك السلجوقى بأن أقام الخطبة فى جامع القسطنطينية للخليفة القائم بأمر الله العباسى [٢].

ورد المستنصر ـ ازاء هذا المسلك العدائى من قبل بيزنطة نحو الفاطميين ـ بأن أرسل الى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ كل ما فيها من تحف وذخائر وأثاث، و أخرج البطريرك منها الى دار مفردة، وأغلق أبواب الكنائس فى مصر والشام، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين، كما زاد على النصارى الجزية [٣]، ومنع وصول الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس [٤]. وقد أدت كل هذه الاجراءات الى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين فى مصر والشام، والى توتر العلاقات بين الدولتين.

وظلت العلاقات عدائية بين الفاطميين والبيزنطيين الى أن وجه الصليبيون حملاتهم على الشام، فوقفت الدولة البيزنطية موقفا محالفا للصليبيين فى الدور الاول من هذه الحروب الأمر

(١) ماجد: الامام المستنصر بالله الفاطمى، ص ٧٦.
(٢) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ٣٣٥.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص ٢٣١.
(٤) أسد رستم: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٨.

يفـعل الاب المتنيح ومن كـان قـبله قـدس الله
ارواحـهم. فلهـذا وغـيـره من احكام هذا الكرسى
ينبغي ان يكون اسقفه قد بلغ حد الكهوليه، او قد
تعداها، وعرفت حـميـد طريقته في زمان شبيبته
ولزومه نواميس الرهبنة، واشتهر بالعفاف والصيانه
والتواضع والديانه والصبر والطهارة وصحة الامانه،
والمعرفه بالعلوم الالهيه والسياسه الكلية، والاداب
البيعيه والاحكام الشرعيه، والامانه الارتدكسيه

---

الذى ترتب عليه تأييدهم للحملات الصليبية ضد المسلمين لا فى الشام فحسب بل فى مصر أيضا [1].

ولما نجح الصليبيون فى تأسيس الامارات الصليبية فى الشام كان الامبراطور البيزنطى يحرص على أن يبدو وبمظهر السيد الأعلى الحقيقى على الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، بل أن الامبراطور البيزنطى حنا الثانى كومنين أجبر ريموند أمير انطاكية على تقديم الولاء لـه[2] عندما قاد حملة ضد المسلمين سنة ١١٣٨م، واضطر ملوك مملكة بيت المقدس للخضوع للنفوذ البيزنطى وتوثيق علاقاتهم بالأباطرة البيزنطيين[3].

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنجة ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود ـ أمير حلب، وطموحه الى بسط نفوذه على مصر. أدرك عمورى ملك بيت المقدس الذى طمع فى مصر أيضا أنه فى حاجة الى قوة كبرى تمكنه من تحقيق حلمه الكبير فى مصر. وفكر فى تقوية الرابطة مع الامبراطورية البيزنطية، فتزوج بمارى كومنين أبنة أخي الامبراطور البيزنطى

(١) عبد الرحمن الرافعى، سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى الطبعة الاولى ، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٤٦.
(٢) أسد رستم: الروم ، جـ٢ ، ص ١٥٢.
(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٧م، ص ١٤٨.

والخدمه الكهنوتيه، والقوانين الحقيقية، ويتعين على
قدسها وحنوها على شعبها ان يصلى عنهم ويفرغ
نفسه النفيسة للفكر فيمن يتخيره لهم ويستصلحه
للتقدم عليهم، ويحمل عن قلبها ثقلهم اذ كانت
حرس الله عزها عارفة بالاباء والحبسا والمتوحدين
في البرارى والقلالى. وما يخلو ان يكون فيهم من
هذه صفته فيرشدها الرب اليه ويدلها بجميل نيتها
عليه ببركة صلواتها وحسن طويتها وقدسها

---

مانويل كومنين [1]، كما تزوج امبراطور بيزنطة بمارى أبنة أمير انطاكية، مما قوى الصلة بين البيزنطيين والفرنجة [2] وكانت النتيجة أن أبدى البيزنطيون استعدادا للاشتراك مع الصليبيين في حملات عسكرية ضد مصر [3] وبخاصة أن أباطرة القسطنطينية لم يكونوا في غفلة عما جرى في مصر طوال السنوات الأخيرة من انحلال الخلافة الفاطمية وتنافس نور الدين محمود وعمورى الأول على الفوز بديار مصر [4].

وما أن أرسل عمورى ملك بيت المقدس مبعوثا سنة ١١٦٨م الى القسطنطينية يحمل اقتراحا يقضى بفتح مصر، حتى سارع الامبراطور ما نويل بارسال سفارة الى بيت المقدس حملت الى عمورى شروط مانويل التى انطوت فيما يبدو على أن يكون له نصيب من غنائم مصر، وأن يكون له التصرف التام في أمر انطاكية فضلا عن التنازل عن بعض ممتلكات الفرنجة في الشام.

ولما كانت هذه الشروط بالغة التطرف من وجهة نظر عمورى الأول فقد أرسل الى القسطنطينية المؤرخ الشهير وليم الصورى كبير شماسة صور، لاستئناف المفاوضات مع

(١) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٦٩٤.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٢.
(٣) كمال توفيق عمر: تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ص ١٤٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٦٩٤.

وطهارتها ومحبتها وفكرتها، فاذا كان هذا هكذا فانا اومن ان الله تعالى يجمع قلوب الكافه على طاعته وقبوله ومحبته والرضا بتقدمته عليهم ورعايته لهم بمعونة الروح القدس السابغ نعمه ومواهبه على مستحقيها، ورأيها الموفق فى الوقوف على هذه الخدمة والنظر فيما تضمنته بصويب [بصواب] رايها السعيد والصفح عما لعله فيها من ذلل، وكتابها [جوابها] الكريم. فانا اتشرف به واسر

---

الامبراطور مانويل، وفى شهر سبتمبر سنة ١١٦٨م تم ابرام المعاهدة التى تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملك كل ما يجرى من الفتوح فى مصر [١]. لكن هذه المعاهدة لم تنفذ اذ لم يشأ عمورى الأول أن ينتظر فراغ الامبراطور البيزنطى من مشاغله فى البلقان وانفرد دون شركائه البيزنطيين بالهجوم على مصر، اذ وجد عمورى نفسه مضطرا للاسراع فى العمل نتيجة انقلاب سياسة الوزير شاور ضد الصليبيين [٢]، كما أن فرسان مملكته وذوى الرأى فيها أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم والتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين اذ كان اعتقادهم أن فتحها ميسورا وسهلا بسبب وجود حامية لهم عند أبواب القاهرة [٣]، غير أن نور الدين سارع بارسال شيركوه فى حملته الثالثة على مصر، واستطاع شيركوه أن يخلص مصر من خطر الفرنجة وأن يتولى الوزارة الخليفة العاضد الفاطمى فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ مارس ١١٦٩م [٤].

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
ـ عاشور: الايوبيون والمماليك، ص ٢٦، ٢٧، ٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية ، جـ٢، ص ٩٦٥.
ـ عاشور : الايوبيون والمماليك ، ص ٢٠.
(٣) ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم فى مصر، ص ٤٦٨.
ـ ــــــ: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٣.
(٤) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.

بوروده واتبارك بوفوده واسعد بنظره سعودى بالنظر الى قدسها، وارغب فى مواصلتى به متضمنا اوامرها ومهماتها وان تذكرنى عقيب صلواتها على معهود عاداتها ان شاء الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم(*)، وصل كتاب الولد الحبيب الموفق السعيد المخصوص بالمحبه الروحانيه والعلوم الدينيه اطال الله بقاه وادام تاييده وعلاه وتمكينه وكبت

(*) لاحظ البسملة في مفتتح رد الخطاب كذلك.

---

أصاب الفزع الصليبيين فى الشام لنجاح قوات نور الدين فى السيطرة على مصر بقيادة شيركوه، «وأيقنوا الهلاك»، كما ثارت مخاوفهم وازداد قلقهم «على بيت المقدس من المسلمين» (1) وأرسلوا جماعة من الرهبان والقسوس الى مسيحى أوروبا لنجدتهم (2)، كما قرر عمورى من جديد الاستعانة بالبيزنطيين بقصد احتلال مصر (3).

ولم يكن الامبراطور البيزنطى أقل انزعاجا لاتحاد مصر والشام تحت زعامة نور الدين محمود، لذا رحب فورا بتجديد اتفاقية سنة ١١٦٨م بينه وبين الصليبيين حول الاشترك فى مهاجمة مصر واقتسامها. وأعد الامبراطور البيزنطى أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى ١٠ يوليو سنة ١١٦٩م قاصدا قبرص ومنها الى صور ثم عكا (4)، وهناك «اجتمع الفرنج والروم جميعا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية، والاستيلاء عليها وملكها ورأوا التوجه إلى دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها ان حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون اليه» (5) ـ وشدد الأسطول البيزنطى الصليبى حصاره لدمياط فى صفر سنة

---

(1) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق ٢، ص ٤٥٦.
(2) أبو شامة : الروضتين، جـ١، ق٢، ص ٤٥٨.
(3) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٤.
(4) عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧١٤.
(5) أبو شامة: الروضتين، جـ١،

اعداه وبارك عليه، وحفظه بيمينه الحصين، ونجاه من مصايد العدو وفخاخ الاشرار، واستجاب من مسكنتي فيه صالح الدعا بشفاعة القديسين، ووقفنا عليه وسررنا بمعرفة خبره اطابه الله، ولم يذكر شيا من الشوق والوحشه الا وعندنا اضعافه، ونسال الله قرب الاجتماع على الايثار بمنه وجوده. فاما ما شرحه من وفاة اسقف مصر قدس الله روحه وجعلها مع انفس الابرار فقد علم الله ما نالنا لفقده

---

٥٦٥هـ/ ١١٦٩م، كما احاط بها الفرسان والمشاة برا، اذ كان الامبراطور البيزنطي يرجو أن تحقق هذه الحملة اطماعه في التوسع فتصبح مصر من الاقطار الداخلة في دائرة نفوذه[١].

غير أن الاسطول البيزنطي مني بخسائر فادحة، اذ تشير المصادر الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة أنزلت بالأسطول البيزنطي أبلغ الضرر واجبرته على الابتعاد عن شاطئ المدينة، ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع لنفاذ تموينها، فاقترح القائد البيزنطي على عموري قائد الحملة القيام بهجوم شامل على دمياط، ولكن الملك الصليبي عارض الفكرة، بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين وزير العاضد، داخل المدينة، واستبسالهم في الدفاع عنها [٢]، وارسال صلاح الدين المدد بعد المدد.. وتواصل الأنصار[٣] الى دمياط، كما حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر [٤] وانتهى

(١) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧.
ـــــ: الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١٣٣.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧١٣.
(٣) أبو شامة: الروضتين، حـ١، ق٢، ص ٤٥٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل ، ح١١، ص ١٣١.

من الحزن والكاآبه ما لا نقدر نصفه، فاما ارشادنا
الى ما نعتمده فيمن نقدمه بعده مما يقع التراضى
عليه فالامر لله يقدم من يراه وراى من يجرى
مجراه من الاراخنه الصايب فيه، ولو وجدنا من
كملت فيه الاوصاف التى تضمنها كتابه ما عجلنا
تقدمته برابنا ولا كنا نجهل الى هذا الحد الممنوع
منه. نسال الله ان يقضى بما فيه الخيره وحميد
العاقبه وكتابه المسرور لا يخلينا منه متضمنا ذكر

---

الأمر باخفاق الحملة[1]. وانسحاب السفن البيزنطية من المياه المصرية فى الحادى والعشرين من ربيع الأول، بعد أن عجز بحارتها من السيطرة عليها والتحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق وغرق كثير من السفن، وظلت الامواج تقذف بجثث بحارتها على الشاطئ مدة أيام [2].

وقد أسفرت الحملة عن اثارة المهاترات بين الصليبيين والبيزنطيين، لذا وجه الصليبيون اللوم الى البيزنطيين لتقاصر المؤن، وتوافر عند البيزنطيين من الداعى ماجعلهم ينكرون على الصليبيين تأخرهم فى الهجوم على دمياط. على أن كلا من الجانبين عمورى والامبراطور ادرك أنه لابد من بقاء التحالف قائما ، خاصة وأن الحملة أسفرت أيضا عن تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر، وأضحى سيد مصر بلا منازع.

واستمرارا للتحالف البيزنطى الصليبى ضد مصر سافر عمورى ملك المقدس فى ١٠ مارس سنة ١١٧١م الى القسطنطينية، وانعقدت بين الامبراطور البيزنطى والملك الصليبى معاهدة تم التوقيع عليها غير أن شروطها لم يتم تسجيلها، ويبدو أن الملك الصليبى اعترف فى صورة غامضة بسيادة الامبراطور البيزنطى على المسيحيين الوطنيين ، كما وعد الامبراطور مانول

---

(١) السيد الباز العرينى: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٧١٤.

اخبـاره واحواله وسلام الرب يكون معه ورحمته تحل عليه.

فكتب في سلخ شهـر بشنس سنه اربع وثلثين وثمـان مايه [للشهـداء] هذا التاريخ على ان اول السنة برموده(*) وتاريخ كتابي اليه اول السنه توت بمقتـضى حـساب الابقطى. ولما وصلني الجـواب المذكور عن كتابي الصادر عني خاصة، اصدرت اليـه كـتابا اخر عني وعن جـميع الشعب، هذه

(*) برمـــوده = مــــارس / ابريل. يلاحظ هنا ان السنة الهـجـرية ٥١٢ تبـدأ في ٢٩ برمـوده عـام ٨٣٤ للشهداء.

---

مساعدة بحرية ومالية متى تقرر وضع خطة لتوجيه حملة أخرى ضد مصر، كما قام الامبراطور بعمل عدة أصلاحات في كنيسة القيامة بالقدس [(١)].

وبعد هزيمة الامبراطور مانويل في معركة «اسكى شهر» في سبتمبر سنة ١١٧٦م على يد السلاجقة في سبتمبر سنة ١١٧٧م أرسل سفارة الى بيت المقدس لتعرض على بلدوين الرابع احياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ليعوض ما لقيه من هزيمة أمام السلاجقة، وأرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر، غيـر أن مرض بلدوين الرابع وطول الأخذ والرد حول مشروع غزو مصـر، أدى الى يأس المبعوثين البيزنطيين من جدية تفكير الصليبيين في غزو مصر، فانسحبوا ومعهم سفنهم الى البسفور [(٢)].

وبموت مانويل كومنين سنة ١١٨٠م خسر الصليبيون حليفا قويا مناهضا للمسلمين، بل أن حلفاءه نظروا الى الصليبيين على أنهم أعداء لاحلفاء [(٣)] كما بدأت صفحة جديدة في العلاقات الطيبة بين البيزنطيين وصلاح الدين سلطان مصر، اذ أرسل الامبراطور الكسيوس

---

(١) رنسمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٦٣١، ٦٣٢.

(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٧، ص ٧٥٤.

(٣) عاشور: نفس المرجع، ونفس الصفحة.

نسـخـتـه: بسم الله الرحـمن الرحيم، لما كـانت التعـزيه، اطال الله بقـا الحـضـره السـاميـه النفـيسـه الريـسـه الاجليـه البطركيـه القـديسـه سيـدة الابا، وريسه الرووسا، المتوجة بالنعمة السماييه، المكللة بالفضايل الروحانية، فخر الارتدكسيه وضيا البيعه المسيحيه، وعماد المله اليعقوبيه تاج بنى المعموديه، ثالث عـشر الحـواريين الاطهـار، خـامس الانجـيلـيين الابرار خليـفـة مـارى مـرقس الانجـيلى، حـرس الله

---

الثاني كومنين مبعوثا من قبله وصل الى القاهرة فى صفر سنة ٥٧٧هـ وقع صلحا مع صلاح الدين، وتم بموجبه في جمادى الآخرة اطلاق سـراح مائة وثمانين من أسرى المسلمين ممن وقعوا فى أيدى الصليبيين [١].

وفى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م تعرض البيـزنطيـون لغارات النورمان وتهديدهم كما واجه صلاح الدين الامارات الصليبية فى الشام والتى فصلت بين شطرى ممتلكاته. ومن ثم أرسل الامبـراطور البيـزنطى أندرونيكوس الاول كـومنين فى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م سـفـارة الى صلاح الدين يعرض قيام تحالف بينهما ، يقدم بمقتضاه صلاح الدين المساعدة للبيزنطيين ضد النورمان، على أن يقدم البيزنطيون المساعدة لصلاح الدين ضد الصليبيين فى الشام وفى حالة الاستيلاء على فلسطين يتم اقتسامها بينهما على أن ينال البيـزنطيـون بيت المقدس والمدن الساحلية ماعدا عسقلان، لاضافتها الى الامبراطورية البيزنطيـة، وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات، غير أنها فيما يبدو حازت القبول [٢].

وعندما تولى اسـحق الثانى انجيلوس عـرش الامبـراطور (١١٨٥٠ ـ ١٩٥م) فـتح باب المفاوضات مع صلاح الدين، وقد شجعه على ذلك قبول صلاح الدين لفكرة التحالف مع

---

(١) المقريزى: الملوك، حـ١، ق١، ص ٧٢.

(٢) زبيدة عطا: الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ص ١١٤ ـ ١١٦.

عـزها، وادام تمكينهـا، وانفـذ احكامـهـا، واسـعـد ايامـهـا سنه بعد التأجيل بهـا مـقـصـرا فـيـمـا وجب عليه، والنازل لهـا متاخـرا عـمـا لزمـه البدار اليـه، وكانت بما ميزها الله تعالى به من القدس الجليل والفضل الجزيل، والعلم ان هذه الدار الدنيا دار ممر والاخره دار مقر، وبما استرعاها اياه من امر شعبه واستخلصها له من هداية المومنين به، يرشد الناس الى الهدى ويوضح لهم مناهج التقوى، وبتعاليمه

---

بيزنطة، كما سره أن يجد حليفا قويا فى صلاح الدين وبخاصة بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان فأقر معاهدة التحالف بين مصر وبيزنطة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين) وما أن وصل الى الامارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الاسلامى حتى أصابهم الفزع، وقبضوا فى سنة ١١٨٦ على الكسيوس انجيلوس أخ أسحق الذى كان ضيفا على صلاح الدين أثناء اجتيازه عكا اذ أمسك به كونت طرابلس وأمر بحبسه ردا على التحالف البيزنطى الاسلامى. وكان أن كتب الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس الى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الامارات الصليبية لكى يتم اطلاق سراح أخيه الكسيوس [١].

على أن الصليبيين فسروا تحرك الاسطول البيزنطى بالهجوم على قبرص فى هذه الأثناء على أنه مساعدة بحرية كى يقوم صلاح الدين بهجومه على الامارات الصليبية ، كما فسروا أن هجوم صلاح الدين على مدينة بيت المقدس واستيلاءه عليها فى رجب سنة ٥٨٣هـ / ديسمبر ١١٨٧م لم يكن ليتم الا بتشجيع من الامبراطور البيزنطى ومساعدته.

وحقيقة الأمر أن أسحق الثانى انجيلوس لم يشترك فى حرب صلاح الدين مع الصليبيين فى حطين، ووقف موقف المحايد [٢]، غير أنه بعد فتح صلاح الدين القدس، بادر السلطان

(١) زبيدة عطا: المرجع نفسه، ص ١١٨ ــ ١١٩.
(٢) ماجد: العلاقات بين الشرق و الغرب، ص ١٧٦.

الروحانيه يخلص من حبايل الغرور وينجون من كل محذور ويرجون الفوز يوم النشور، اقتصرو منها على ما يقيمون به رسم خدمتها واغناهم العلم بحمله في التسليم لما قدره الله تعالى وقضاه، والرضا بما حكم به وامضاه عن الاكثار في هذا الباب، وحبب اليهم الاقتصار على الموجز من الخطاب. وقد كان من امر الله تعالى وحكمه العدل في نقل الاب القديس الرييس الطاهر انبا

---

الأيوبي بارسال سفارة الى الامبراطور البيزنطي أسحق الثاني ليخبره بما أحرزه من انتصارات على الصليبيين ، وبما حققه من فتح [1] ، وليسلم اليه مائة وتسعين من الرعاية البيزنطيين كانوا قد وقعوا في يده أثناء حروبه ضد الصليبيين [2] كما حملت سفارة صلاح الدين وفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية الى الامبراطور البيزنطي هدايا فاخرة ، وقد استقبل اسحق الثاني سفراء صلاح الدين استقبالا حافلا ، وأظهر سرورا بالغا بما حملته من أنباء طيبة ومن هدايا ثمينة ، كما بالغ في استضافة مبعوثي صلاح الدين وأنزلهم في قصر منيف بالقسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين، ثم رد الامبراطور اسحق الثاني بأن أرسل سفارة الى صلاح الدين، ومعها من الهدايا القيمة الشئ الكثير، وتاجا مرصعا بالذهب [3] ، لتهنئته بفتح القدس [4] ولتبلغه بمطالب الامبراطور التي تتخلص في وضع كنيسة القيامة، وسائر كنائس القدس تحت اشراف رجال الدين الأرثوذكس الذين يعينهم الامبراطور البيزنطي ، وأن يرسل اليه صليب الصلبوت، كما طلب اسحق الثاني من صلاح الدين عقد تحالف

---

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٢) عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢ ، ص ٨٢٧.
(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(٤) المقريزي: السلوك، حـ١، ق ١، ص ٩٨.

سنهوت اسقف مصر، نيح الله نفسه، الى حيث
اختار الله له دارا واعد لامثاله قرارا استحقه باعماله
التي قضى بين يديه واستوجبه بافعاله التي قربته
منه سبحانه، و ازلفته ماقت [مافت] في الاعضاد
ونكا القلوب والاكباد. وعند الله يحتسب ذلك
الاب السيد الذى عمل فينا بمرضاته ولم يعدل بنا
عن مفترضاته، واليه نرغب خاضعين لعظمته واياه
نسال ضارعين الى رحمته ان يبقى على اولاد

---

بين الدولتين ـ مصر وبيزنطة ـ ضد الصليبيين «على أن يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه» (1).

ووصلت السفارة البيزنطية الى عكا في ٦ يناير سنة ١١٨٨م ، فاستقبل صلاح الدين رسل الامبراطور البيزنطي استقبالا رائعا، وأكرم وفادتهم (2) لكن جميع مطالب الامبراطور اسحق الثاني انجيلوس قوبلت بالرفض (3)، وعلى تعبير ابن شداد فان الامبراطور البيزنطي «أجيب بالمنع عن جميع مقترحاته» (4).

ومع هذا فانا نميل الى الأخذ بما أورده البعض من أن صلاح الدين استجاب لمطالب الامبراطور اسحق بعد أن تمهل قليلا (5). وهذا لا يتنافى مع ما ذكره ابن شداد آنفا، لأن أهم خبر حمله رسل الامبراطور البيزنطي الى صلاح الدين هو ما حدث في الغرب من الدعوة الى حملة صليبية جديدة لتخليص بيت المقدس من يد المسلمين (6) ووعد الامبراطور

(1) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(2) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٤٧.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢١.
(3) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.
(4) ابن شداد : المصدر السابق، ص ٣٤٠.
(5) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.
(6) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٢.

المعموديه الجمال برياستها، ويعمر البيع الارتدكسيه
بدوام جلالتها ونفاستها، فان النعمه فى ذلك تكثر
ان تخطها الاقلام وتعظم ان يفى بها المسهب فيه
من الكلام. ولقد اتصل بتلاميذها ان وجع يسير
الم بها وعرض حقير عرض لها، فكانو فى صورة
الواله الحيران ارتياعا، وفى صورة الفاقد الثكلان
انزعاجا، الى ان تواترت الاخبار باقلاع الاذى عنها
واحسان الله تعالى الى الكافه فيها، فاخذ تلاميذها

---

اسحق لصلاح الدين بألا يمكن الالمان المشتركين فى الحملة الصليبية الجديدة من عبور بلاده [1].

وكان فتح القدس فى صالح المسيحيين الأرثوذكس وبخاصة رعايا الدولة البيزنطية، الذين أظهروا عواطفهم الى المسلمين أثناء حصارهم لبيت المقدس. ففى الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على القدس، اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك، وأعلن الفريق الاول أنه يفضل الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين [2] كما شاع أثناء حصار المسلمين للمدينة أن اليونانيين الارثوذكس المقيمين بالقدس والمعروفين بالملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة، وأنه ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين عن طريق يوسف بطيط وهو ملكانى، ولد ونشأ فى القدس ـ وتعهد يوسف بطيط أثناء الاتصالات بتدبير فتح أبواب المدينة على يد بنى جلدته وديانته [3] والراجح أن الملكانيين فى بيت المقدس قد اتخذوا هذا الموقف نظرا لما بذله صلاح الدين لهم من وعود فضلا عن أنهم لم يكنوا المحبة لجيرانهم الصليبيين من سكان المدينة، وكان لوقوف زعماء الصليبيين بالقدس

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٧٦.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٠.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٠٣.

من المسـره الحظ الاسنى وجـازو من الجـذل بهـذه
المنحه النصيب الاوفى، وسالو الله تعالى ان يجعل
لباس التقا سابغا عليها، وسبوغ النعما رهنا لديها
وغير خاف عن علمها ادام الله علايها. ان كرسى
مصر مميزا عن غيره فى كل الاوقات، محفوف
بمراعـاة امره على عدد السـاعـات، مستوجب
لملاحظة شـانه مع اللحظات، لكونه دار الخلافه
ومقر سرير المملكه. وان الحاجه داعية الى قسمة

---

على كراهية الملكانيين، وتآمرهم عليهم، أحد أسباب مبادرتهم بتسليم المدينة (١).

وعلى الرغم من أنه ليس ثمة علاقة بين صداقة أسحق الثانى انجيلوس لصلاح الدين وبين موقف الارثوذكس اليونانيين فى القدس (٢) فقد استفادت الكنيسة الارثوذكس ورجالها من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس (٣)، اذ فقدت الكنيسة اللاتينية نفوذها على الاماكن المقدس، كما فقدت ما كان لها من وضع يميزها على المسيحية الشرقية. وفى ظل الوضع السياسى الجديد فى القدس بعد فتحها وقوعها تحت الحكم الاسلامى، وفى عهد صلاح الدين لم يتعرض المسيحيون اليونانيون أتباع بيزنطة لأية مضايقات (٤)، فقد ظلوا مقيمين فى بيت المقدس، والتزم كل منهم بأن يؤدى الجزية فضلا عن الفدية المقررة عليه، كما أبتاع أغنياؤهم قدرا كبيرا من الأمتعة والاملاك التى أصبحت خالية بعد رحيل الفرنج (٥) كما أدى تحالف البيزنطيين مع صلاح الدين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى

---

(١) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٠.
(٢) عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٨٢٠.
(٣) عاشور: المرجع السابق، حـ٢، ص ٨٢٦.
(٤) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.
(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٥.

اسقف يرسمه ترتضيه حضرته، ويرضى تلاميذه طريقته، ويحمد جميعهم سيرته وسريرته، عالما بدينه وامانته، موثوق بحكمته وحنكته وتجربته، وقد بان عنه غرة الشباب وحدته، وتميز بسن الكبر وخبرته، فيسير فيهم وفى حرمهم كسيرة من تقدمت رياسته عليهم، ممن اشترى الاخره بالدنيا، وارضى السيد المسيح بافعاله الحسنى، واتفقت الكلمة على استحقاقه الرياسة واستقلاله باثقال

---

المقدسة الى الشعائر الارثوذكسية اليونانية [1].

وقد رحبت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية بالأراضى المقدسة بعودة الحكم الاسلامى، لما هو معروف من العداء التقليدى بين القسطنطينية وروما، فضلا عن عداء الامبراطورية البيزنطية للصليبيين لاسيما بعد وفاة الامبراطور مانويل كومنين [2].

ولاشك أن الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس، اذ أتاحت عودة القدس الى حكم المسلمين الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم على المقدسات المسيحية [3].

وما أن تأكد صلاح الدين من احتشاد الحملة الصليبية الثالثة التى حملت أخبارها سفارة اسحق الى صلاح الدين، حتى عقد العزم على أن يزيد من توثيق علاقته بالامبراطور البيزنطى كى يضمن مساعدته ازاء ما صح أن يمر بأراضيه رجال الحملة، لذا أنفذ مع السفارة البيزنطية عند عودتها سفارة من قبله ، عهد اليها بالقيام بمفاوضات من هذا القبيل. وفاقت هداياه فى هذه المرة كل ماسبق أن أرسله من هدايا ، كما أرسل صلاح الدين منبرا أعده ليكون بجامع

---

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

السياسه ورضيته الجماعه مقدما عليها ومدبرا لها، حسب ما اقتضاه قانون البيعه واحكامها، وقرره قضا الشريعة وحكامها، الذين شد الله بها ما بنو، وثبت بقدسها ما قضو وامضو واحلها فى منصبهم، واقضى اليها بمنزلتهم، وجماعه رعيتها يضربون لها المطانوه امام قدسها الطاهر، واسكيمها الفاضل، فى شداد ازرهم والاهتمام بصلاح امرهم ومساعدتهم فى تخيير من يرضاه

---

القسطنطينية، وكان لابد للامبراطور أن ينصبه ، تكريما للمسلمين ، وفقا لما بذله من وعد سابق أثناء المفاوضات الثالثة بين اسحق وصلاح الدين، ففى هذه المفاوضات أهتم صلاح الدين بالمحافظة على اقامة الشعائر الدينية الاسلامية والدعوة للخليفة العباسي، بجامع القسطنطينية وبعمارته كما أبدى اسحق رغبته فى اقامة الشعائر الارثوذكسية اليونانية فى كنائس الأرض المقدسة (1).

غير أن هذا المنبر لم يصل الى القسطنطينية اذ استولى الجنويون على السفينة التى كانت تحمله الى العاصمة البيزنطية، وحملوه الى صور حيث أذاع كونراد مونتفران حاكم صور وقتذاك نبأ الاستيلاء على المنبر فى سائر انحاء أوروبا واعتبر الصليبيون ارسال المنبر الى القسطنطينية دليلا ملموسا على التحالف بين الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس وصلاح الدين(2)، واذا كان امبراطور المانيا وملك فرنسا قد ارسلا الى ملك بيزنطة بعزمهما على القيام بحملة الى الاراضى المقدسة فى فلسطين، ويطلبان منه تقديم التسهيلات اللازمة

---

(1) أبو شامة : الروضتين، جـ2، ص 159.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص 23، 124.
(2) أبو شامة: الروضتين، جـ2، ص 159.
ـ زبيدة عطا: المرجع السابق، ص 124.

ويرتضوه، ويراه مستحقا لكشف من وراهم ويروه، وعلمهم بما توجبه على نفسها فى هذا الحال اغناهم عن بسط المثال ورايها فى اجابتهم عن هذا الكتاب، بما يغنيهم عن تكرار الخطاب وذكرهم فى صلواتها المقدسه وادعيتها المقبوله المستجابه الموفق الاعلا ان شاء الله تعالى.

واوقفت الجماعه من الكهنه وبعض الشعب على هذا الكتاب فاستصوبوه واتفقت كلمتهم

---

لقواتهما أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية، فان الامبراطور البيزنطى كان قد عقد العزم على تجديد تحالفه مع صلاح الدين [١].

وفى الرسالة التى بعث بها كونراد مونتفران حاكم صور الى أسقف كونتربرى فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٨م ألقى الضوء على أهم ما ورد فى المحالفة بين صلاح الدين والبيزنطيين من شروطه وما قرره صلاح الدين من أن تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقا لمذهب بيزنطة (الأرثوذكس) كما ألقى الضوء على التزام اسحق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على المذهب السنى [٢].

وقد أثارت أنباء تحالف اسحق الثانى مع صلاح الدين ثائرة الغرب الاوروبى وزعمائه ضد الامبراطورية البيزنطية مما أدى الى ازدياد مخاوف الامبراطور على بلاده، وبخاصة عندما تحركت حملة فردريك بربروسا ـ وهى طلائع الحملة الصليبية الثالثة فى مايو سنة ١١٨٩م، وقد شقت طريقها عبر هنغاريا فى اتجاه القسطنطينية[٣]، ومن ثم سارع الامبراطور البيزنطى بايفاد مبعوث من قبله ومعه رسالة الى صلاح الدين، وصلته وهو فى مرج عيون بالشام فى رجب

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٥.
(٢) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٥.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٥.

على الرضا به وتسييره الى الاب القديس ابا مقاره البطرك، وكتبوا عنوانه تلاميذها جماعة النصارى اليعاقبه المصريين، وسيرته اليه مع رسول قاصد، فعاد الجواب بما هذه نسخته:

وصل كتاب الاولاد الاحبا المختارون، والاخوه الشيوخ المكرمين الموفقين الاراخنه التقيين وكافة الشعب الارتدكسيين، اطال الله بقاهم وادام عزهم ونعماهم، وبارك عليهم وعلى منازلهم واولادهم

---

سنة ٥٨٥هـ، يخبره فيها بتحركات الحملة الالمانية ويعده بألا يمكن العاهل الالماني ـ وقواته من العبور في بلاده[١].

وفي المقابل بادر صلاح الدين بأن بعث رسالة الى اسحق الثاني تعهد فيها للامبراطور البيزنطي بوضع الاماكن المقدسة في فلسطين تحت رعاية رجال الدين الارثوذكس واذا كان صلاح الدين قد وافق على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الارثوذكسية أتباع بيزنطة، فان الامبراطور البيزنطي وافق هو الآخر على أن يجعل لصلاح الدين نوعا من الوصاية على الجالية الاسلامية في القسطنطينية [٢]، وكان صلاح الدين قد انفذ مع مبعوثه الى القسطنطينية سنة ٥٨٥هـ، حيث لقى باحترام عظيم، وكرم زائد، خطيبا لجامع القسطنطينية، ومنبرا، وجمعا من المؤذنين، «وكان يوم دخولهم الى القسطنططينية يوما مشهودا عظيما من أيام الاسلام» [٣].

ثم عاد رسول صلاح الدين في سنة ٥٨٦هـ ومعه رسول من قبل اسحق الثاني وبيده

(١) ابن شداد: المصدر السابق، حـ٢، ١٣٢.
ـ أبو شامة: المصدر السابق، حـ٢، ص ١٦٠.
ـ ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٢٨.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٦.
(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٣٢.
ـ أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

وكافة حوزتهم باتم البركات، وافضل السعادات.
وحفظهم بيمينه الحصين ونجاهم من مناصب العدو
وفخاخ الاشرار، واستجاب من مسكنتي فيهم
صالح الادعيه بشفاعة القديسين والابرار امين.
مقصورا على احد امرين اما توبيخ، او عتب بحمد
عاقبته موعظة، مما لا حاجه الى تكريره ولا اقامه
الحجه فيه من تعزيه وغيرها، فما نزل منهم فيه
الاسهاب والمباشرة في ذلك الباب والاقتصار

---

كتاب من الامبراطور مختوم بالذهب[1] يتضمن اعلام السلطان «بخبر وصول المنبر من عند السلطان وكذلك الخطيب، والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله العباسي[2].

واذا كان ا سحق الثانى قد حرص فى رسالته الى صلاح الدين على «استعطاف السلطان واظهار مودته ومحبته» فقد اعتذر له الامبراطور «من عبور ملك الالمان ببلده» وأخبره أن العاهل الألمانى أثناء مرور قواته فى اراضى البيزنطية، «قد نال من الشدة ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل الى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع»[3].

وهكذا شهدا هذا الدور من العلاقات المصرية البيزنطية تكرار تبادل السفارات والمكاتبات بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحق الثانى انجيلوس [4]، الذى وقف موقفا عدائيا متشددا من الحملة الالمانية ووضع أمامها العقبات والعراقيل أثناء مرورها بالاراضى البيزنطية[5]، كما أخذ اسحق الثانى انجيلوس يرسل الرسالة تلو الأخرى الى صلاح الدين

(١) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١ ص ١٠٤.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٧٩.
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٤٦.
(٥) العماد الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٩١، ٣٩٢.

والتحبب اليهم على الموجز من الخطاب ونعم، فاما ما شرحوه من انتقال الاخ (القديس الحبيب الروحاني) الاسقف انبا سنهوت اسقفهم قدس الله نفسه وخروجه من هذا العالم الفاني ومصيره الى الله سبحنه فنالنا عليه من الحزن الشديد والغم الوكيد وكثرة البكا وغزير العبرات ما يزيد على ما تصوره في كتابهم مما نالهم عليه والعزا فيه واحد. وانا اتحقق ان الله جل اسمه قد اسكنه مع الابرار

---

ليحيطه علما بأخبار الصليبيين الالمان وتحركاتهم، وعلى حد قول ابى شامة فى حوادث سنة ٥٨٥هـ «وكان ملك الروم يكتب الينا بأخبارهم ونبأ خروجهم، ويقول أنا لا أمكنهم من العبور»[١]، وعندما عجز عن منع العاهل الالمانى من العبور فى الاراضى البيزنطية «لكثرة جموعه .. منع عنهم الميرة، ولم يمكن أحد من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم، فضاقت بهم الازواد والاقوات»[٢] مما جعل العلاقة بين الالمان والبيزنطيين تنقلب الى حرب سافرة انتهت بأن رضخ الامبراطور البيزنطى لمطالب الالمان وأخذوا منه «من الذهب خمسين قنطارا، ومن الفضة خمسين، ومن الثياب الطلسى المعدنية ما بلغ الألوف... وأمد على سبيل الرهائن أربعين من خلصائه ومعروفى كبرائه»[٣].

واذا كان اسحاق الثانى انجليوس قد وقف هذا الموقف العدائى من الحملة الالمانية لعدائه للصليبيين اللاتين فان هذا الموقف أيضا يعبر عن صدق تحالفه ومساعدته لصلاح الدين.

واذا كانت تلك الحملة الالمانية، قد فشلت في تحقيق أغراضها[٤]، كما فشأت بعدها

(١) أبو شامة : الروضتين، جـ٢، ص ١٥١.
(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٩.
(٣) العماد الاصفهاني: المصدر السابق، ص ٣٩٢.
(٤) ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٠.

والصالحين فى حياة النعيم معدن [بعون] رحمته،
ودار كرامته، وسمع الصوت البهج الفرح ادخل
الى فرح سيدك، واما ما ذكروه من تقدمه غيره
وارشادنا الى معرفة القانون فيه لما علموه من
عجزى وتقصير معرفتى فلا ضرر عليهم فيه، لان
التذكار يقدح فوايد العلم، وان كان عجز او
تقصير فليس ذلك منى بل هو منهم لتاخيرهم عن
تقدمه غيره الى هذه الغايه حسب ما تضمنه

---

الحملة الفرنسية التى قادها فيليب أغسطس الى الشام [١]، فان الحملة الانجليزية بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا قد استطاعت أن تلتحم مع صلاح الدين فى عدة معارك حربية فى بلاد الشام، تخللها العديد من المفاوضات، وأنتهت بتوقيع صلح الرملة فى شعبان سنة ٥٨٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وقد سمح بمقتضى هذا الصلح للحجاج النصارى بحرية التوجه الى القدس لزيارة الاماكن المقدسة بالمدينة دون مطالبتهم بأية ضريبة أو رسوم مقابل ذلك [٢].

غير أن ما لقيه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من مظاهر الترحيب والتشريف بالمدينة المقدسة عند زيارته لها، واستقبال صلاح الدين له، ومنحه الاسقف هدية عند وداعه، وموافقته بناء على طلب الاسقف تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشماسة اللاتين أيضا فى كل من كنيسة القيامة، وكنيسة بيت لحم، وكنيسة الناصرة، قد أقلق بال الامبراطور البيزنطى، وبخاصة أن الشائعات التى بلغت القسطنطينية، ووصلت الى مسامع الامبراطور، رددت أن ريتشارد يلح على صلاح الدين فى أن تتخذ الاماكن المقدسة فى فلسطين صبغة مذهبية لاتينية.

(١) ماجد: المرجع نفسه ، ص ١٨٢، ١٨٣.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٩١.

القانون الذى عرفونى به، ولا خروج لى عنه ولا
اعلم السبب فى تاخيره، فانه يقول ان يكون
الاسقف مختارا من شعبه ويقع التراضى من
جميعهم عليه، ويكون معروف بالاوصاف التى
تضمنها كتابهم، ليس قال القانون ان يكون
مختارا من شعب غريب ولا من بطرك. والان
فالسمع والطاعه لهم فيما امر به القانون تختارو
من يقع عليه رضاكم به وتسكنون اليه ويكون

---

لذا وبينما صلاح الدين فى بيت المقدس قدمت اليه سفارة من قبل الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس تطلب أن يعود للمسيحيين الارثوذكس السيطرة الكاملة على الاماكن المقدسة بالمدينة، غير أن صلاح الدين رفض الطلب اذا لم يقبل أن يكون لمذهب من المذاهب السيادة على هذه المواضع وأنه سوف يكون الفيصل والحاكم بينها جميعا [١].

لقد تركت العلاقات الوثيقة بين صلاح الدين والامبراطور اسحق الثانى انجيلوس أثرا طيبا فيما لقيه رعايا الدولة البيزنطية من معاملة طيبة ورعاية واهتمام من جانب صلاح الدين وخلفائه، بل أن صلاح الدين حول بعض الكنائس التى استولى عليها فى الشام الى المذهب الارثوذكسى [٢]، واذا كان صلاح الدين وخلفاءه قد اهتموا بعمارة جامع القسطنطينية، وارسال المقرئين اليه، كماحظى المسلمون هناك برعاية وعناية السلطات البيزنطية [٣]، فان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس قد اهتم بأمر الكنائس اليونانية فى أراضى الدولة الايوبية فى مصر والشام، وحرص على عمارتها واصلاحها وزخرفتها بالرسوم والزخارف والفسيفساء اليونانية، كما اهتم باقامة الشعائر الدينية والسماح للمسيحيين بتأديتها [٤]، ودأب هـذا

(١) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.
(٢) زبيدة عطا: لمرجع السابق، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ١٢٩.
(٤) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.

مستصلح لكم، اقدمه عليهم ولا اخرج عن رايكم
فيه، لانكم مقاسيه ومباشريه، ونحن شاكرين لما
خصهم الله به من محبة من يسوس امرهم وينظر
في احكامهم، وهكذا تكون الرووسا والمقدمين
الذين بهم قيام منار الدين، وترتيب احوال الضعفا
والمساكين، اعنى الشيوخ الاراخنه المسيحيين ادام
الله علوهم ويلزمهم مراعاتنا والدب [الذب] عنا
عوضا من الملوك الارتدكسيين السالفين لمقامهم في

---

الامبراطور حتى أواخر أيام حكمه (ت ١١٩٥م)، على توثيق وتدعيم علاقته بخلفاء صلاح الدين، مع التقرب اليهم [١]، فقد تضمنت رسالته الى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في مصر سنة ٥٩١هـ حسن معاملته ورعايته ـ للمسلمين في بلاده، وتمتعهم باقامة شعائر الاسلام في دولته، وبخاصة الصلاة والخطبة في جامع القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها»، والتمس الامبراطور في رسالته من الملك العزيز عثمان الاهتمام «بالبطرك والنصارى، وأن يمكنوا من اخراج موتاهم بالشمع الموقد، واظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يفرج عن أسارى الروم بمصر»[٢]، ولم ينس اسحق الثاني انجيلوس أن يخبر السلطان العزيز عثمان الأيوبي، في صدر رسالته بنوايا الفرنج ضد مصر، وأن هناك حملة صليبية جديدة يجرى الاعداد لها في الغرب الاوروبي [٣].

ومن الجدير بالذكر أن الرعايا البيزنطيين في مصر نعموا بسياسة التسامح الديني في عهد السلطان الملك العادل. وقد أبدى بعض الارثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية سرورهم

---

(١) المقريزى: السلوك ، حـ١ ، ق ١، ص ١٢٩، حاشية ١٣.
(٢) المقريزى: المصدر نفسه، حـ١ ، ق ١، ص ١٢٩ .
(٣) المقريزى: نفس المصدر، والصفحة.

المجالس العاليه والدواوين المعموره، ومباشرتهم
السلاطين والمقدمين مما افاضه الله علينا اجمعين من
مراحم الحضره العاليه المعظمه المالكه رقنا، خلد
الله ايامها، ونصر عساكرها، وفتح لها مشارق
الارض ومغاربها بشفاعة الصالحين من خلقه،
واستجاب منا ومن الكافة صالح الدعا فى معاليها
التى بحسن رافتها واحسانها اعادة الامور الى
كيانها، وحمل نظامها الملكى والذمى ونعم جزيله.

---

بوجودهم فى مصر، لأن العادل أحسن معاملتهم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعله الصليبيون، كما كان عدد كنائسهم يربو على المائة كنيسة [١].

## علاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين

شهدت مصر والعالم الاسلامى منذ أواخر القرن الخامس الهجرى / أواخر القرن الحادى عشر الميلادى مقدم الحملات الصليبية الى الشرق وقد ترتب على الحروب الصليبية نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق والغرب، واذا كان الدافع اليها العديد من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الغرب الاوروبى [٢] فضلا عن أطماع البابوية [٣]، فإنها قد أخفت وجهها السافر وأطماعها وراء صليب المسيح ودعاوى انقاذ الاماكن المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين، وتأمين سبل الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس.

ولما كان تاريخ العلاقات بين الفاطميين والأيوبيين من جهة والصليبيين من جهة أخرى، يتصل بتاريخ الحروب الصليبية ـ وهى المعروف والمكتوب مفصلا، فأن الذى يهمنا من هذه

(١) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ٢٠٩.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٧ ـ ٤٣.
ـ حسن محمود (وآخرون): مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٦١.
(٣) حسن حبشى: الحرب الصليبية الاولى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٧م ص ٣١.

٦٩: ابا مقاره البطرك ١١٠٢/ ١١٢٨م

نسال الله ان يوزعنا شكرها، وجملة الامر يطيبو
نفوسهم ويشرحو صدورهم. فانني يعلم الله لو
جاتني ملايكة السما ما قدمت واحدا منهم الا
الذى يقدموه من ذاتهم ويضربو عنه المطانوه
حسب ما تضمنه القانون والتقدمه منهم والتاخير
منهم، وانا برى من الاثم الواقع فى هذا الباب ليلا
يظنوا انني وخرت [أختترت] هذا الكرسي لفايدة
دنيانية من جملة ما نحن مهتمين به في غير ذلك

---

الدراسة هو أثر هذه العلاقات على أهل الذمة في مصر، وعلى سبيل التجاوز وأثرها على نصارى القدس وعلى المقدسات المسيحية فيها.

ففي عهد الخليفة المستعلي بالله الفاطمي ووزارة الأفضل بن بدر الجمالي، تمكنت تجموع الحملة الصليبية الأولى من دخول بيت المقدس بعد أن تغلبت على حاميتها، من الجند الفاطمي فى الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ/ ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م وقد انطلقوا في شوارع المدينة وطرقاتها ومسالكها، والى الدور والمساجد، ليذبحوا كل من يقع فى أيديهم من المسلمين، من الشيوخ والنساء والاطفال دون تمييز(١). كما احدثوا مذبحة مروعة بالمسجد الأقصى، عندما قتلوا ما يزيد على سبعين ألف من المسلمين (٢). كانوا قد فروا للاحتماء فيه والدفاع عنه، «منهم جماعة من أئمة المسلمين. وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارقوا الاوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف (٣)، وكما ذكر ابن العبرى فقد «لبث

(١) حسن حبشي: المرجع السابق، ص ٨١، ٨٢.
ـ عاشور : الحركة الصليبية ، حـ١، ص ٢٤١.
ـ ملر: مختصر تاريخ الكنيسة من البداية الى القرن العشرين، الجزء الاول، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان : المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٤.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٢٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، حـ١٠، ص ١٠٥.

لعـدم من يصلح، ولله الامـر من قـبل ومن بعـد، سـلام الرب سـبـحنه يكون مـعـهم ويحل عليـهم وعندهم. كتب في العشر الثاني(*) من بوونه سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشـهدا، والشكر لله دايما. هذه السنه ثلث وثلثين وثمن مـايه على ان اول السنه توت وهو التاريخ الصحيح الذى وضع عليه الابا حساب الابقطى الشمس والقمر.

(*) العشر الثاني: كانت عادة المصريين منذ القدم يقسمون الشهر إلى ثلاثة عشرات بدلاً من أربعة اسابيع.

فلما وصل هذا الجواب وقريناه وجدناه جواب

---

الفرنج في البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا»[١]. وسالت دماء المسلمين على أيدى الحجاج المسيحيين المسلحين، وخاضوا فى دمائهم حتى سيقانهم [٢]، كما تعقبوا من فر من المسلمين على مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم، ولم يفلت من القتل الا القليل [٣].

كما حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس، وبخاصة مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، فالمسجد الذى على الصخرة حولوه الى كنيسة لاتينية سموها «معبد السيد» templum Domini وأقاموا على قبتها صليبا من ذهب. أما المسجد الأقصى فاستخدموه لمصالحهم. وأطلقوا عليه اسم «معبد سليمان» Templum Solomonis وقسموه الى ثلاثة أقسام فجعلوا القسم الاول كنيسة، والقسم الثانى سكنا للفرسان الداوية، والقسم الثالث مستودعا لذخائرهم كما اتخذوا السراديب التى تحت المسجد اسطبلا لحيواناتهم [٤].

(١) ابن العبرى: المصدر السابق، ص ٣٤٢.
(٢) عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٢٤٣.
ـ حسن حبشي: المرجع السابق، ص ٨٣.
ـ ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٧.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٩.
ـ المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص ٢٣.
(٤) عارف العارف: تاريخ القدس، ص ٧٤.
ـ جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين، ص ٢٦٣.

من هو محرج وكتابا لا يقتضى ان يكون هذا جوابه، وكشفنا عن السبب فيه فعرفنا ان الاب البطرك لا يشتهى ان يجعل فى كرسى مصر اسقف، وانه قد قام فى نفسه ان يكون هو الحاكم فيه اذا حضر واذا غاب استناب عنه نايب، فلم يرضينا ذلك وقلقنا منه، وقلنا: كما انه لا يجوز ان يكون لنصرانى زوجتين كذلك لا يجوز ان يكون لاسقف كرسيين، وهذا الاب انبا مقاره البطرك هو

---

واذا كان هذا هو موقف الصليبيين من مقدسات الاسلام والمسلمين فى القدس فما هو موقفهم من اليهود والنصارى الشرقيين، وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس فى المدينة المقدسة ؟.

لقد فر اليهود القاطنين فى القدس الى معبدهم الكبير بالمدينة للاحتماء به عقب اقتحام الصليبيين لها، غير أن الصليبيين قرروا القبض عليهم، وبحجة أنهم ساعدوا المسلمين فى الدفاع عن المدينة، فحاصروهم فى معبدهم الكبير، وأشعلوا النار فى المعبد على من فيه، فلقى جميع اليهود الذين التجأوا بداخله مصرعهم[1]. وعلى حد قول ابن القلانسى وهو المصدر الأساسى لهذه الرواية ـ فان الصليبيين «جمعوا اليهود فى الكنيسة واحرقوها عليهم»[2]، ولم تكن هذه المذبحة التى ارتكبها الصليبيون ضد اليهود الا استمرار للعديد من المذابح التى أقامها الصليبيون لليهود فى القرى والمدن الاوروبية أثناء زحفهم الى الاراضى المقدسة [3].

(١) ملر : المرجع السابق، ص ٤٨٧.
ـ رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤٠٥.
ـ حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٧٧.
(٢) ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ١٣٧.
ـ ابو المحاسن: المصدر السابق، حـ٥، ص ١٥٠.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ١٤١ ـ ١٤٣.

اسقف مدينه الاسكندريه فكيف يمكن ان يكون له اسقفية مصر. فاستقر الراى على تعجيل الاهتمام بمن نتخيره للاسقفيه، فاجتمع الكهنة والشعب فى بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بقصر الشمع وتذاكرو من فى الديارات من الرهبان الكهنة وغيرهم ممن يصلح للاسقفية بمصر ومن فى الصوامع، فذكرو اثنى عشر رجلا وهذه اسماوهم: كييل الابسلمدس [المُنشد أو المرتّل]

---

أما عن موقف الصليبيين اللاتين من الأماكن المقدسة بالقدس، ومن النصارى الشرقيين وبخاصة المصريين الاقباط الارثوذكس، فان القاء الضوء عليه يصبح من الأهمية بمكان. وذلك أن الصليبيين اللاتين سيطروا على جميع الأماكن المسيحية المقدسة عقب دخولهم بيت المقدس ووضعت تحت اشراف البطريرك اللاتينى الجديد للقدس، وأقيمت فيها الشعائر وفق مذهب كنيسة روما (١)، كما اضطهد الصليبيون فى القدس اليونانيين ـ اتباع بيزنطة بصفتهم منشقين عن كنيسة روما (٢)، بل أن البطريرك الجديد (أرنولف) الذى سيطر على الشئون الروحية للمسيحيين فى القدس، أبعد القسس الذين يأدون الشعائر الشرقية، والذين كانوا يقيمون الصلاة فى كنيسة القيامة (٣)، واستخدم وسائل التعذيب ازاء القسس ورجال الدين الارثوذكس بالمدينة حتى حصل منهم على الشطر الأكبر من صليب الصلبوت ـ هذا ولم يستطيع رجال الكنيسة الارثوذكس فى ظل سيطرة اللاتين على القدس أن يعينوا لأنفسهم أساقفة أو بطريركا نظرا لشعور اللاتين العدائى نحوهم(٤).

(١) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٩٤.
ـ رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٤١٥.
(٢) ملر: المرجع السابق، ص ٤٨٨.
(٣) عاشور: الحركة الصليبية، حـ١، ص ٢٥٢.
(٤) رنسيمان: المرجع السابق، حـ١، ص ٥١٥، ٥١٦.

بدير ابو مقار، مينا القس باسكنا ابو مقار، غبريال القس الاسكندرانى، حبيب القس الناسخ، يعقوب القس بدير ابو يحنس، مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو مقار، يونس السنهورى تلميذ مقاره الامنوت، يونس [الشماس] ابن سنهوت بدير القس فى الاسكنا، يسيب الراهب بدير ابو مقار، اولاكه الراهب. ثم تخيروا من هذه العده اربعة نفر وهم: مرقوره الحبيس بابيار، تيدر القس بدير ابو

---

كذلك أساء الصليبيون فى القدس الى رعاة الكنائس ودور العبادة التابعة للكنيسة القبطية، مثال ذلك أن سيدة قبطية كسيحة ـ وهى أبنة كاهن اسمه جرجس بن الفضائل اضطرت تحت تهديداتهم أن تعطيهم كل ما تملك لتنقذ الكنيسة التى كانت ترعاها[٢]. كما منع الصليبيون أقباط مصر من الحج الى المدينة المقدسة بدعوى أنهم ملحدون، وفى هذا الصدد يقول مؤرخنا ساويرس ابن المقفع «وصرنا نحن معشر النصارى اليعاقبة القبط لا نصل الى الحج اليها، ولا نتمكن من الدنو من ذلك، لأجل ما هو مشهور من بغضهم لنا، وسوء اعتقادهم فين، وتكفيرهم ايانا».

ويتساءل جاك تاجر عن سر موقف الصليبيين من أقباط مصر قائلا: «لماذا أظهروا هذا التعصب نحو المصريين وحدهم؟» ان السبب فى ذلك ـ يرجع فى رأيه الى أن اليعاقبة فى مصر لم يرتاحوا للصليبيين بسبب الخلاف المذهبى بين كنيستى روما والاسكندرية [٣]. ويوافقه فى هذا الرأى اريس حبيب التى تقرر أن الصليبيين «كانوا يعتبرون القبط وغيرهم من مسيحى

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.

(٢) وليم سليمان : الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٥.

(٣) جاك تاجر: نفس المرجع، ص ١٦٣.

مقار، يونس [السنهورى] الراهب تلميذ مقاره الامنوت، يونس الشماس ابن سنهوت. وكتبت اسما هولآ الاربعه فى اربع رقاع بخطى وشمعتهم وجعلتهم على الهيكل وقدسنا عليه. ولما فرغ القداس وتقرب الشعب تقدم صبى من الشمامسه اخذ من الرقاع واحده بحيث ينظرها الشعب جميعه، واذا فيها اسم يونس ابن سنهوت، فرضى الجميع بذلك، وكتبو به مسطور وكتبو فيه الاراخنه

---

الشرق مبتدعين منبوذين خارجين عن حظيرة كنيستهم الرومانية» [1]. وكذلك يرى وليم سليمان ان السبب فى كراهية الصليبيين لاقباط مصر ا نما يرجع الى أنهم أعرضوا تماما عن النظر الى الغزاة الصليبيين على أنهم مسيحيون تربطهم بهم عقيدة واحدة، وأنه عندما اقتحم الصليبيون القدس «لم يكن حزن الاقباط بأقل من حزن المسلمين» [2]، وقد حنق الصليبيون على الاقباط لعدم مساعدتهم لهم أو تعاطفهم معهم، ذلك أن الاقباط كانوا يرون فى استيلاء الصليبيين على بيت المقدس والاراضى الشامية التابعة لمصر ما يعتبر عدوانا على مصرهم وقد عبر رأس الكنيسة القبطية عن وقفة أقباط مصر بجانب السلطات الحاكمة، عندما خرج البطريرك ميخائيل الرابع لتهنئة الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى بسلامة الوصول بعد عودته من قتال الصليبيين فى عسقلان فى سنة ٤٩٢هـ [3]، وهو القتال الذى كاد يلقى فيه حتفه [4].

على أن الاحداث السياسية فى السنوات الاخيرة للدولة الفاطمية تركت أثارا هامة بالنسبة

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٣٦.
(٢) وليم سليمان: المرجع السابق، ص ١٥.
(٣) بتشر: المرجع السابق، حـ١، ص ٨٢.
(٤) المناوى : المرجع السابق، ص ٢٢٧.

والكهنه وكبــار الشــعب خطوطهم بالرضى به.
وامتنعت انا الخاطى ان اكتب خطى فيه وقلت اذا
حضر الرجل ورايته وتحدثت معه وعلمت انه عالم
مستقيم الامانه حينيذ اكتب خطى بالرضا به.فلما
كــملت خطوط الكهنة والشــعب المصــريين
والقاهريين فى المحضر اصدرته الى الاب انبا مقاره
البطرك طى كتاب عن الجماعه اليه نسختـه
[نصه]:

---

لأهل الذمة فى مصر، اذ تطور النزاع بين شاور وضرغام من أجل الوزارة الى تدخل الصليبيين ونور الدين محمود أمير دمشق ـ بهدف السيطرة عليه.واذا كانت القوات النورية بقيادة أسد الدين شيركوه قد استطاعت اعادة شاور الى الوزارة فى رجب سنة ٥٥٩هـ فان شاور غدر بشيركوه وطالبه بالخروج من مصر (١)، فأغلق أبواب القاهرة أمام القوات النورية (٢)، وجرت عدة وقائع بين شاور وشيركوه واحترق وجه الخليج خارج القاهرة بأسره وجزء من حارة زويلة(٣)، ويرى مؤرخنا ساويرس أن النكبات قد حلت بنصارى مصر على أيدى شيركوه، اثناء قتاله شاور، «اذا امتدت أيدى الغز الى سكان مصر من النصارى.. والأرمن.. وكانوا يقتلون منهم ويبيعوهم، فان وجدوا من يشترى منهم والا قتلوا ذلك الشخص، ونهبوا أموالهم وأخذوا نساءهم، وكانوا ينادوا على النصرانى: من يشترى كافران. وعلى التركى المصرى، من يشترى تركى خليع بات فى الصقيع، وعلى الاسود، من يشترى سويدان. وكانوا يبيعوهم بثمن بخس، بعشرين درهم للنصرانى وعشرة دراهم التركى، وخمس دراهم للاسود»، كما يذكر المؤرخ نفسه أن قوات شيركوه أرغمت بعض النصارى على اعتناق الاسلام، وأنهم قتلوا أحد

(١) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٨.
(٢) ساويرس: انظر هذا الجزء ٣ ص ١٣٩٥ وما بعدها.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٨.

وصل كتاب الحضرة السامية الاجلية، القديسه الفاضلة الرييسة النفيسة، تاج الملة الارتدكسية، وضيا البيعه المسيحيه، وجمال بنى المعموديه، سيد الآبا ورييس الرووسا التابعة لاثار الآبا[ء]، الحواريون الاطهار، وخليفة مارى مرقص احد الرسل الابرار اطال الله بقاها وحرس عزها وعلاها، بعد ارتقاب لقدومه وتطلع لوصوله، فتلقاه رعيته بحقه من الاعظام وما يقتضيه محله من الاكرام، واكثرو

---

رهبان دير أبى مقار، لأنه امتنع عن الدخول فى الاسلام،كما هاجمت قوات شيركوه الكنائس التى بضواحى القاهرة، وبخاصة كنائس الملكية، وهدموا كنيسة الحمراء بحارة الروم الجوانية، ودمروا كنيسة الزهرى التى للارمن وسلبوها أمتعتها ، كما نهبوا كل كنيسة هدموها[1] وعبثوا ببعض أديرة النصارى وأحرقوا أحداها ونهبوه[2].

وفى أوائل سنة ٥٦٤هـ = ١١٦٨م زحف عمورى ملك بيت المقدس للمرة الثالثة على مصر بهدف الاستيلاء عليها [3]، مما اضطر الوزير شاور الى أن يشعل النار فى مدينة الفسطاط فى تاسع صفر من نفس السنة «خوفا عليها من الفرنج» [4]، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما وألحق الحريق بها أفدح الخسائر [5]، كما كان ذلك الحريق ضربة قاسمة

(١) ساويرس: أنظر : ص١٣٩٧ ومابعدها فى هذا المجلد.
ـ ايسيدورس: المرجع السابق، حـ٢، ص ٣٧٥.
ـ بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٠٨.
ـ منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(٢) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ٤٠.
(٣) أبو شامة : الروضتين، حـ١، ص ١٦٩.
(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٣٨.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٣٣٩.
ـ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ص ٤٦٩، ٤٧٠.

شكر الله تعالى على ما اسفر عنه من انبا سلامتها
التي يعتدو بها من اجل المواهب لله عليهم، واوفا
الطافه الخفيه فيهم، فاغتبطو بذلك اغتباط
المتمسكين بطاعتها، المتقربين الى الله سبحنه
بالعمل بمرضاتها، المسترشدين في جميع امورهم
بما يهديهم الله اليه بتعاليمها الروحانيه واحكامها
العادلة المرضية، والله يحفظ بقدسها نظام الدين
من الشتات، ويحرس ببركات دعاها جميع

---

للاقباط القاطنين فيها وهم بها كثير [1]، فقد كان حوالى نصف سكان القسم الشمالى من الفسطاط قبط، أما النصف الثاني، وهو جنوب الفسطاط وبابليون ، فكان كل ساكنيه تقريبا من الاقباط[2]، كما أن حصن بابليون يضم أهم كنائسهم وأعظمها فنا وجمالا، وعلى الرغم من أنه قد سلمت ست كنائس من الحريق تماما [3]، الا أنه قد دمرت بقية كنائسهم علاوة على ممتلكاتهم وبيوتهم التى كانوا يقطنونها فى المدينة [4].

وفى أعقاب تولي شيركوه للوزارة فى ربيع الثانى سنة ٥٦٤هـ، وفي جو الاضطرابات وفوضى الحرب [5] والنهب السلب سواء من عامة المسلمين أو الجنود المرتزقة عبثت قوات شيركوه بأوامر منه بالكنائس والأديرة، وألحقت ببعضها التدمير [6]، كما انتزعت أراض زراعية وبساتين كانت موقوفة، أو ملحقة ببعض البيع والاديرة، واستولت عليها [7]،

---

(١) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٢) بتشر : المرجع السابق،حـ٣، ص ١١٤.
(٣) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٧٦.
(٤) أبو صالح الأرمني: المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣.
ـ عبد الرحمن زكي: الفسطاط، ص ٨١.
(٥) لين بول:المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٦) ترتون: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٧) أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ٣، ٨، ٧٨، ٧٩.

الشعب من الافات، ويصون بصلواتها المرفوعه اليه
سبحانه بغير حجاب، ودعاها المقبول المستجاب
الكلمة الارثدكسية من الافتراق، ويويد البيع
المسيحيه بمزية الاتفاق، ويقرب اوبتها ومثول
شعبها بين يديها، وتبركهم من قدسها على افضل
الاحوال الماثوره، والقضايا المختاره بصلواتها
المقدسه. فاما ما رسمته ادام الله علاها من تخير
من يرتضونه للتقدمه عليهم، والنظر فى امورهم

---

كما أمر شيركوه بالمناداة فى القاهرة بالاعلان عما فرضه من قيود على غيار النصارى[1].

كما أن صلاح الدين فى سنوات ٥٦٤، ٥٦٨، ٥٦٩هـ أوقع بالمصريين القبط، عقوبات صارمة بلغت حد الصلب والاعدام [2]. بالرغم من أن أقباط مصر عامة كان احساسهم ضد الصليبيين [3].

واذا كان هدف صلاح الدين من حروبه ضد الصليبيين تخليص فلسطين وفتح بيت المقدس، فقد خاض فى سبيل هذا الهدف معارك طاحنة ضد الصليبيين، الى أن حقق انتصاره عليهم فى حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وأعقب هذا الانتصار استيلاؤه على العديد من القرى والمدن الشامية [4]، ثم حاصر ا لقدس حصارا شديدا، حتى اضطر الصليبيون الى

(١) ساويرس: المصدر السابق، مجلد ٣.
(٢) أبو شامة: المصدر السابق، حـ١، ص ١٧٨، ٢٢٠، ٢٢١.
ـ ابن واصل كالمصدر السابق، حـ٢، ص ٤٧٩.
(٣)ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٦٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، حـ٢١، ص ٢٠١، ٢٠٣ ـ ٢٠٧.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٣، ص ٧٥، ٩٢.

حسبما توجيه قوانين البيعة، فقد قابلوه بالسمع والطاعه بعد المعرفه بقدر المنّه عليهم به والانعام بموجبه، واجتمعو في بيعة الشهيد الجليل سرجيوس بعد ان قدمو استخاره الله امامهم، ورغبو اليه عن ضماير سلميه من الهوى، صادقه في النجوا في توفيقهم لارتضا من يوافقهم قولا وفعلا، ويسير فيهم احسن سيره ونبلا واثبتو اسما اثنى عشر رجلا ممن اتفقت الكلمة على العلم بدينه

---

طلب الصلح والأمان [١] وأجابهم صلاح الدين على أن يخرجوا بأموالهم سوى الخيل الحربية والسلاح [٢]، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين وأن يتحولوا منها الى مأمنهم وهو مدينة صور [٣]، واستقر الأمر على أن يؤخذ منهم الفدية، من الرجل عشرة دنانير، والطفل من الذكور والاناث دينارين والمرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا [٤]. أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان أحد امراء الصليبيين في القدس لسبعة آلاف منهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثة ألف دينار[٥]، وبهذا اعتبر الصليبيون أسرى حرب وعليهم دفع الفدية الحربية [٦].

(١) ابن واصل :المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
(٢) الحنبلي: شفاء القلوب، ورقة ٣٥.
(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣١.
ـ العيني : المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٢).
(٤) ابن الاثير: المصدر السابق، حـ١١، ص ٢٠٨.
ـ أبو شامة : المصدر السابق، حـ٢، ص ٩٥.
(٥) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٢.
(٦) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٤.

والمعرفه بصحة يقينه، ثم تخيرو من هذه العده اربعه نفر، وهم: مرقوره الحبيس بابيار، وتيدر القس بدير ابو مقار، ويونس السنهورى، والشماس يونس ابن سنهوت. واودعت اسمايهم اربعة رقاع وشمعت وحملت على الهيكل المقدس بالبيعه المذكورة وقدس عليها ثلثة ايام اخرها يوم الاحد الرابع عشر من ابيب، واجتمع الكهنه واحاطو بالهيكل والشعب عند بابه قيام، وارتفع من

---

وما أن دخل صلاح الدين بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، واحتل قعلتها، حتى حافظ على وعده لمن فيها من الصليبيين. فسمح لهم بالخروج بعد دفع الفدية المتفق عليها، وأظهر تسامحا كبيرا تجاه الذين عجزوا عن دفعها [١]، كما وفر الأمان لمن كان فى المدينة من نساء ملوك وأمراء الفرنجة المترهبات، ولمن معهم من الحشم والعبيد والجوارى، وما بحوزتهن من الاموال، بل أن صلاح الدين سير معهم من يقوم بحراستهم حتى بلغن مأمنهن [٢]. هذه المعاملة التى لم يحصل على مثلها المصريون القبط من صلاح الدين.

واذا كان الصليبيون قد انصرفوا لبيع ما لم يستطيعوا حمله بأبخس الأثمان قبل أن يغادروا المدينة فان البطريرك اللاتينى وأتباعه من رجال الكنيسة جمعوا ما فى كنائسهم ودور عبادتهم من أوانى الذهب والفضة[٣]، وعلى حد تعبير العماد الكاتب فاتهم «كنسوا كنائسهم، وأخذوا نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضيات من الاوانى والقناديل والحريريات والمذهبات من

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٢، ٨٢٣.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٣) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٢١٦.

جميعهم الضجيج والابتهال والتضرع الى السيد المسيح والسوال في ان يختار لسياسة شعبه وتدبير بيعته من يراه عاملا بفروضه، سايرا فيهم سيرة القديسين الاطهار، والصالحين الابرار، الذين انتخبهم لرعى خرافه واصطفاهم لرياسه المومنين بـه.

وتقدم الشماس الطفل ولد الشيخ ابو الفخر،

---

الستور والمناديل، ونقضوا من الكنائس الكنائن واستخرجوا من الخزائن الدفائن» [1]. ووقف المسلمون في القدس ـ وهم الذين وصفوا بالاستقامة والانسانية ـ ينظرون بعين الدهشة الى هرقل بطريرك بيت المقدس وهو يدفع لنفسه الدنانير العشرة، ويغادر المدينة، وقد انحنى جسمه لكثرة ما ينوء به من أثقال [2] هي «كل ما كان في القبر المقدس من صفائح الذهب والفضة وجميع ما كان في القمامة [3] كما تبعته العربات وفيها «من أموال البيع ـ منها الصخرة والأقصى وقمامة ـ ما لا يعلمه الا الله وكان له من المال مثل ذلك» [4] دون أن يبالي بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن فدائهم [5] والسلطان لم يعرض لهذه الاموال الطائلة، ولما استكثرها من حوله، وسأله العماد الكاتب أن لا يترك للبطريرك هذه الاموال لأن الامان على أموالهم لا على أموال الكنائس والأديار [6] ، يقوى بها المسلمون، رفض وقال لا أغدر به».

---

(١) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، حـ١ ص ٣٣٠.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٥) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٣.
(٦) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٥.
ويقدر العماد الكاتب الاموال التى أخذها البطريرك بحوالى ماتى ألف دينار (نفس المصدر والصفحة).

ادام الله تاييده، واخذ بحضور الجماعة واحدة من الرقاع المذكورة وفتحت فوجدت باسم يونس ابن سنهوت، فشكرو الله تعالى على ما هداهم اليه واستبشرو بما دلهم عليه ورضو بما رضيه واختاره مقدما عليهم. وقد ضمن تلاميذها بجميع ذلك مسطوراً [وثيقة] اثبت فيه خطوط جماعتهم، وتلاميذها يقبلون اسكيمها، ويضربون المطانوات بين ايديها، استدعى الشماس المذكور كما جرت

---

ولم يأخذ منه غير العشرة دنانير [١]. بل ان صلاح الدين اطلق سراح سبعمائة أسير من الصليبيين هبة منه للبطريرك المذكور، وأمر رجال الشرطة بالمدينة أن يطوفوا بالشوراع والابواب ليمنعوا كل اعتداء يقع على المسيحيين فيها، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وكل أمرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، وسألن صلاح الدين ماذا يكون مصيرهن بعد أن لقى أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم أو وقعوا فى الأسر أجاب بأنه وعد باطلاق سراح كل ما فى الأسر من أزواجهن، وبذل للارامل واليتامى من خزانته العطايا كل بحسب حالته [٢]، وفى هذا الجو من الأمن والأمان والتسامح غادر الصليبيون بيت المقدس وقد أخذوا ما خف حمله وتركوا ما ثقل[٣]، وسير صلاح الدين الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور [٤]. والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض ما فعله مع المصريين القبط.

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.
(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٣.
(٣) مجير الدين الحنبلي: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٣١.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٦.

العادة بان يستدعى مثله، وتقدمته اسقفا عليهم ليقوم بعماره البيع وتدبير امور الشعب وينعم باجرايهم على جميل عاداتها الكريمة يذكرهم فى صلواتها المقدسة، وادعيتها المستجابه، ورايها الموفق انشا الله تعالى.

فوصل الجواب بما نسخته [نصه]: وصلت مكاتبة الاخوة المختارين الاحبا السعد الكهنه الاخيار

---

على أن عددا كبيرا من الصليبيين قبل مغادرتهم للقدس، شاهدوا الاجراءات العملية التى اتخذها صلاح الدين بشأن ازالة كل أثر للصليبيين فى المدينة المقدسة [1] ففى اليوم الاول لدخوله القدس أمر صلاح الدين بخلع الصليب الكبير الذهبى الذى اقامه الصليبيون فى أعلاقبة الصخرة وقد صرخ فرنجة القدس توجعا وفجيعة لحظة أن خلعه المسلمون وأسقطوه وأفجعهم تهليل المسلمون وتكبيرهم عندما وضعوا الهلال مكانه [2]، كما أمر صلاح الدين بازالة ما بداخل مسجد القبة من التماثيل والصور والايقونات والمذبح ومواضع الرهبان، وكل رموز العبادة المسيحية، وأمر باظهار الصخرة المقدسة، وغسلها بماء الورد، وأزال مقابر الفرنج ومقدميهم المجاورة للصخرة [3]، ومحا كل آثار احتلال الداوية له، وما استحدثوه من مبان وما

(١) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ، حـ١١، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

- ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.

- ابن سعيد: المصدر السابق، ص ١٥٤.

- المقريزى: السلوك ، حـ١، ق١، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣٠.

- أبو شامة: الروضتين، حـ٢، ص ١١٣.

والشيوخ المكرمين المحبوبين الموفقين التقيين الفايزين
بكل فضيلة مسيحية، المخصوصين بجميع التحيات
الروحانيه الاراخنه الارتدكسيين وكافت الشعب
المسيحيين اطال الله بقاهم وادام نعماهم وعلاهم
ورفعهم وكبت اعداهم وبارك عليهم وعلى منازلهم
واولادهم ومعايشهم ببركات يعلو بها شانهم ويزيد
منها رفعتهم ويعظم منها مكانهم ويوفر حظوظهم
ويثبت عليهم النعمه الدايمه والغبطه الحاله

---

أدخلوه من الأقصى فى أبنيتهم[1]، وكانوا قد بنوا فى القبة دارا وسيعة وكنيسة [2] وأمر صلاح الدين بازالة كل ما أحدثوه من البنيان واعادة الأبنية الى حالها القديم [3]، وجد فى عمارة المسجد الأقصى [4].

كما أمر صلاح الدين بتحويل كنيسة سانت حنه (كنيسة القديسة حنا أوسانت أن) الى مدرسة للفقهاء الشافعية وهى التى عرفت بالمدرسة الصلاحية، ووقف عليها وقوفا جليلة[5]، كما جعل دار البطريرك المجاورة لكنيسة القيامة رباطا للفقراء ووقف عليها أوقافا حسنة[6]،

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حـ١، ص ٢٠٩.
- ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٢) مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٣١.
(٣) ابن الأثير: الكامل، حـ١١، ص ٢٠٩.
(٤) ابن واصل :المصدر السابق، حـ٢، ص ٢١٧.
(٥) ابو شامة : الروضتين، حـ٢، ص ١١٤.
- العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٥٨٣هـ، (ورقة ٤٤).
(٦) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٢، ص ٢٣٠.
- مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٤١.

وحفظهم بعينه التى لا تنام وكنفه الذى لا يظلم
ويكفيهم [شر] كل المناصب الشيطانيه والفخاخ
الرديه ويستجيب من مسكنتى فيهم صالح الادعيه
بشفاعه ذات الشفاعات مريم البتول وصلوات
البشير مارى مرقس مكمل الشهادات ومحقق
الدين والامانات وكافه القديسين والابرار اجمعين،
يتضمن معانيهم السنية والفاظهم العذبة الروحانية
كالشهد والمن المذكورين فى سفر الزبور، ولما

---

وجعل كنيسة تقع فى شارع كنيسة القيامة بيمارستانا للمرضى ونقل اليه ووفر له جميع ما يحتاج اليه من الاطباء والمستلزمات[1]، كما نزل اخوه الملك العادل فى كنيسة صهيون[2].

أما كنيسة القيامة، فقد أشار البعض على صلاح الدين بهدمها، ونبش القبر المقدس بها، وحرث أرضها، ومحو معالمها، حتى ينقطع عنها امداد الزوار المسيحيين غير أنه انحاز الى رأى الأغلبية، وأعرض عن هدمها ـ لأن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قد أبقى عليها لما تسلم بيت المقدس[3] ـ الا أنه أمر باغلاق أبوابها ومنع النصارى من زياراتها [4] لمدة ثلاثة أيام [5] ريثما يزول التوتر وتهدأ الاحوال[6]، وعاد بعدها وفتح أبوابها ، وترك المسيحيين حرية التعبد

(١) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص٤٠٨.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) ابن واصل : المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣١.
(٤) العماد الكاتب : المصدر السابق، ص ١٤٥.
ـ المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص ٩٧.
(٥) رنسيمان : المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٥٦.
(٦) عارف باشا العارف: المرجع السابق، ص ٧٩.

تاملت معادن فضلهم ودار اكرامهم وجدتها
مقصوره على امتداحهم لفقرى الذى لست انا
باهله منسوبا اليه ولا حقيق به لمعرفتى بذاتى واننى
غير صالحا لما اهلتمونى شكرة خلوصى محبتهم
وصفو اعتقادهم وبراعة فهمهم ولجة علمهم
وبراعتهم وحسن ادابهم كما قيل عن موسى النبى
فى التوراه: «وتعلم موسى من حكمة المصريين».
فيهم الفخر والكمال وبقية ما سمعت به الامال

---

فيها الا أنه «قرر على من يرد اليها من الفرنج قطيعة يؤديها»(١).

أما النصارى من أهالى القدس الذين ليسوا من الفرنج، فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم على أن يأخذ منهم الجزية (٢) فأجابهم صلاح الدين الى ما طلبوا.

واذا كانت الطقوس والشعائر المسيحية قد أوقفت بكنيسة القيامة «وبطلت نغمات القسس والرهبان ... وخرس الناقوس..» (٣) فلم يكن ذلك ألا لمدة قصيرة (٤) عاد بعدها المسيحيون يباشرون طقوس عبادتهم فى حرية تامة . غير أنه مما لاشك فيه ان الكنيسة الارثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من خروج الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس، فقد أتاح لهم فتح صلاح الدين للقدس الفرصة لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الاماكن المسيحية المقدسة(٥)، فما أن بلغت القسطنطينية أنباء انتصارات صلاح الدين وفتح بيت المقدس حتى

(١)المقريزى: السلوك، حـ٢١، ق١، ص ٩٧.
(٢) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ١٣٦.
(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص
(٤) المقريزى: السلوك ، حـ١، ق ١، ص ٩٧.
(٥) عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٦.

والزيادة في العمر والاجال، والله تعالى ذكره يقيم
بهم منار الدين ويشيد بحياتهم عضد الاخوة
المسيحيين ويديم تعميرهم ويقدس نفوس اسلافهم
ويرزقنا جميعا رحمة ورافة امام منبره المرهوب
وموقفه المرعوب امين. فاما ما ذكروه من الشوق
الروحانى فعندى منه ما يجوز حد الوصف ويعلو
كل اسهاب واطناب، اسال البارى سبحانه قرب
الاويه [الأوبة] وتكميل الاجتماع على اتم القضايا

---

سارع الامبراطور اسحق الثاني انجيلوس بارسال سفارة الى صلاح الدين لتهنئته، ولتطلب منه ضرورة اعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والاماكن المسيحية المقدسة الى الكنيسة الارثوذكسية [1]، وقد استجاب صلاح الدين لطلبه بعد أن تمهل قليلا [2] اذ أدى حسن علاقاته بالبيزنطيين الى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى المقدسة الى الشعائر اليونانية، كما أنه من الراجح أن ما بذله صلاح الدين من وعود للروم الارثوذكس في بيت المقدس كان فى صالح الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية[3].

وكان موقف صلاح ازا اليهود غاية في التسامح والسخاء، فعلى الرغم من أنه لم تصل الينا أية شروط تتعلق باليهود بعد فتح القدس على يد صلاح الدين [4]، فالواقع أن انتصار

(1) - Setton : Ahistory of the crusades, Vol. , p. 620.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٥٦.

(٣) زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٤) ربما لأن الصليبيين الذين أبادوا جميع اليهود في المدينة المقدسة سنة ٤٩٣هـ ١٠٩٩م وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم، وحرموا عليهم دخولها (حسن ظاظا: القدس مدينة الله أم مدينة داود، الاسكندرية ١٩٧٠م، ص ٠٣١)، لم يسمحوا لهم ببقائهم معهم فى المدينة، أو تقليدا لماحدث أيام عمر بن الخطاب الذى منح عهد الأمان للنصارى دون اليهود (ماجد: الناصر الدين، ص ١١٨٠) أو لأن عددهم بالمدينة كان قليلا=

السـارة والاحـوال المأثوره، والذى اشـارو فـهـو ممن
يجب فيـه شكرهـم والثنا عليـهم لمحبتـهم لابايهم
الروحانيين ورغبتهم فيمن يسوس احوالهم ويرم
شـعب بيعتـهم، وانهم قـدمـو الله تعـالى فى بداية
طلبهم ورغبو اليه فى ان يظهر لهم من هو مستحق
لما طلبوه وارادوه، فنعم ما فعلو لان الكتب المقدسه
تقـول: «اجـعل الله بدو امـرك». وبكرمـه ينجح
مـسـعـاهـم ويقـضى لنا ولهم بما فيـه الخيـره

---

صلاح وعودة القدس الى السيادة العربية كان فى صالح اليهود، الذين كانوا أول من هلل لطرد الصليبيين من بيت المقدس [١]، وتمكنوا من شراء قدر لابأس به من الأمتعة والاملاك التى اضطر الصليبيون عند رحيلهم منها الى بيعها بأثمان زهيدة، كما شجعهم صلاح الدين على الاستقرار فى المدينة التى أصبحت خالية برحيل الفرنج [٢]، كما أن أعدادا كبيرة من مختلف الطوائف اليهودية تدفقت علي فلسطين من بلدان أوروبا بعد أن سمح صلاح الدين بهجرة اليهود الى الأراضى المقدسة، استجابة لواسطة قام بها طبيبه الخاص موسى بن ميمون رئيس الطائفة اليهودية فى مصر [٣]، ويذكر الرحالة اليهودى والشاعر الاندلسى يهودا الحريزى،

---

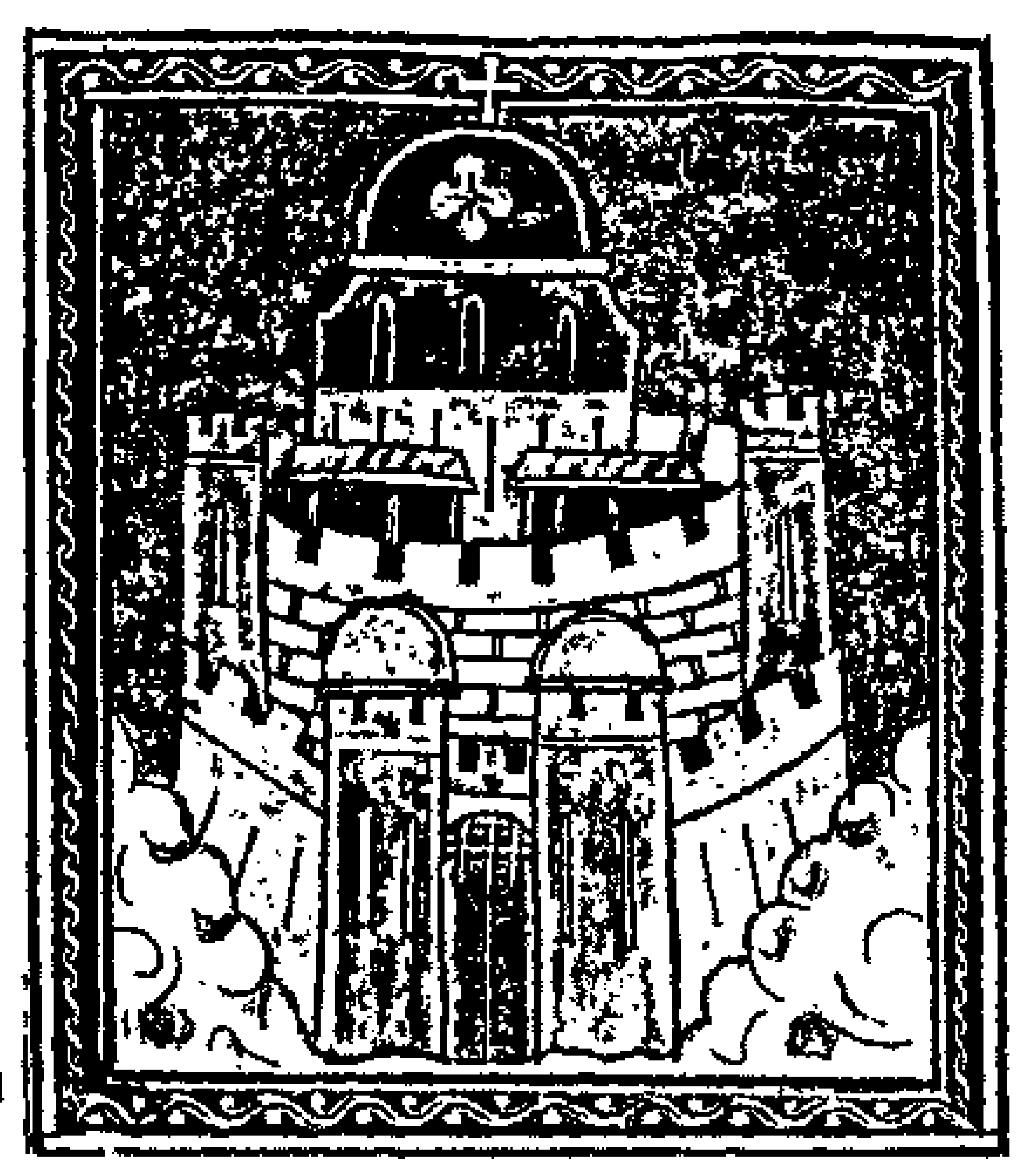
=(بنيامين التطيلى المصدر السابق، ص ٩٩) أو لأن هذا العدد الذى كان يشتغل بالصياغة وبتصريح من الحاكم الصليبى لقاء مال يدفعونه له (حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١)، غير أنه لم يكن لهم نفوذ سياسى، أو تأثير على مجريات الأحداث فى القدس، كما لم تكن لهم أملاك بالمدينة حيث حرم الصليبيون عليهم امتلاك الاراضى (عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس، ص ١٣٣).

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٢٧.

(٢) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٢، ص ٧٧٥.

(٣) الخربوطلى: العرب واليهود فى العصر الاسلامى، ص ٧١.

ـــــــ: الاسلام وأهل الذمة ، ص ٢١٩



القدس فى العصور الوسطى

الذى زار القدس سنة ٦١٣ ـ ٦١٤هـ/ ١٢١٦ ـ ١٢١٧م، أن فتح صلاح الدين القدس أعقبته هجرة أعداد كبيرة من اليهود الى الاراضى المقدسة [١]، وأن صلاح الدين أكرم اليهود وأحسن معاملتهم وكان يشجعهم على الاقامة فيها [٢].

وعلى الرغم من أن صلاح الدين بالغ فى تسامحه مع الصليبيين عند خروجهم من القدس، الا أن سقوط المدينة المقدسة فى يده أثار مشاعر الصليبيين فى أوروبا من جديد لتشهد الاراضى المقدسة بفلسطين حملة صليبية جديدة، هى ما اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية الثالثة، التى تزعمها فردريك الاول بربروسا امبراطور المانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الاول ملك انجلترا، الملقب بقلب الأسد [٣].

واذا كان الصليبيون قد استولوا على عكا فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ/ يوليو ١١٩١م[٤] وهزم الملك الانجليزى خصمه صلاح الدين فى أرسوف فى شعبان من نفس

(1) -Setton: op, cit vol. 1, p. 621.

(٢) حسن ظاظا: المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) ماجد: الناصر صلاح الدين، ص ١٢٥.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق، حـ١٢، ص ٣٤.



حملة بطرس الناسك

العام[1] كما استولى على يافا، الا أن جميع محاولاته لاسترداد بيت المقدس باءت بالفشل، مما اضطر، الى جانب مايعانيه من مشاكل فى بلاده فضلا عن مشاكل الصليبيين فى الشام، الى طلب الصلح وفتح باب المفاوضات للوصول الى هدنة مع صلاح الدين، انتهت بعقد الصلح والمهادنة بينهما فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢م، وهو ما عرف بصلح الرملة الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف، أما عسقلان فتكون للمسلمين بعد تخريبها، فى حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وماعدا ذلك بما فيه القدس يظل بأيدى المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالحج الى بيت المقدس فى أمن وأمان [2]، كما أعفى صلاح الدين الحجاج الصليبيين من رسوم زيارة الاماكن المقدسة، «وان لم تكن قد نصت عليه معاهدة الصلح [3].

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٨٣، ١٨٤.

(٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

ـ أبو شا مة: الروضتين، حـ٢، ص ٢٠٣.

ـ مجير الدين الحنبلى: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.

(٣) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٧٣.

وحـميـد العـاقبـه، والذى اضح الله اسـمـه لهم
واخرجه الوجود لديهم وتراضى جميعهم عليه فهو
نعم الانسـان، والقلب طيب على مـا تطيب به
نفوسـهم وتستـقيم به امورهم وتكميل لسياسـة
احوالهم، فيتقدمو بمشية الله جل اسمه بتحصيله
عندهم والاستيثاق منه وحفظه. وحينيذ احضر ان
اعان الله بالحياه ونتمم محبوبهم ونبلغ ايثارهم.
فغير خاف عنهم ان المذكور يسوم نفسه مقام غير

---

وبمـوجب هذا الصلح انتـهت الحملة الصليبية الثالثة، كما كان اقرار شروط الصلـح بداية لصلات المـودة بين الصليـبـيين والمسلمين، اذ لم يكد يفـرغ صلاح الدين من اعداد مايلزم من التدابير لحراسة الحجاج وايوائهم، حتى فتحت المدينة المقدسة أبوابها على مصراعها أمام جماعات من الجيش الصليبي التى وفدت اليها بعد أن تجردوا من سـلاحهم، وغصت القـدس بأعداد كبيرة من الزوار المسيحيين، الذين زاروا كنيسة القـيامة والاماكن المسيحية المقدسة، وطافوا انحاء المدينـة فى حرية وأمن وسلام، بل نفذ معهم صلاح الدين الخفراء لحـراستـهم فى طريق عـودتهم الى يافا [١]. وكـان هـدفه من تقديم كـافة التسـهيلات للحـجاج الصليبيين «أن يقـضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم، فيأمن المسلمين شرهم» [٢].

ولما علم ريتشارد كثرة من يزور القدس من الصليبيين، ساءه ذلك «وسير الى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح أن لايأذن لأحد الا بعد حضورة علامة من جانبه، أو بكتابة» [٣] أو

---

(١) أحمد دراج: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٠٦.

(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

مقام الاسقفيه، حتى انه مضى الى الحضرة الاجيلية [الانجيلية] القدسية الطاهرة النقية الابوية البطركية الأرمن ادام الله قدسها، وقصدها وتطارح عليها الى ان الزمتنى بان كتبت له حجة من القلاية انى لا اجعله في شي من درجات الكهنوت بشهادة ذلك القديس بطرك الارمن عليّ ومخاطبته اياى عليه وذالك في السنة التى سير فيها الرسول الى بلاد الحبشه، فاستفهمو هذا الامر منه واستعينو به فى

---

مع رسول من قبله [1] الا أن صلاح الدين رفض مطلب الملك [2] حتى لا يجعل له أى سيطرة ولو معنوية على بيت المقدس، وخشية أن ترجع تلك الجموع الى بلادها غاضبة مستثارة لصدها عن زيادة كنيسة القيامة فينفروا أممهم ضده، وكتب الى ريتشارد «أنت أولى بمنعهم وردهم بردعهم، فانهم الينا وافدين ولزيارة الكنيسة قاصدين، وما يقتضى كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلغ من يقصدنا المقصود» [3].

بل أن صلاح الدين بالغ فى اكرامهم، ومد الطعام لهم ، وعرفهم برسالة الملك، ورفضه لمطلبه وعزمه على تقديم كافة التسهيلات [4]، كما قبل صلاح الدين ما طلبه منه هيوبرت والتر أسقف سالسبورى من تعيين اثنين من القسس اللاتين واثنين من الشمامسة اللاتين فى كنيسة القيامة، وكذا فى كنيستى بيت لحم والناصرة [5]، وذلك الى جانب ما كان فى تلك

---

(١) مجير الدين: الحنبلي: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٩٠.

(٢) ابو شامة: الروضتين ، حـ٢، ص ٢٠٤.

(٣) العماد الكاتب: المصدر السابق، ص ٦١٠.

(٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٥) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤١.

احضار الشخص المذكور اليكم وتحصيله عندكم لتعلمو برات [براءة] ساحتي وان الامر منكم والسوال له فيه والرغبه اليه، ولا ينظرني باني قلت له قول ونقضته، وعلى الجمله فتحرصو في تحصيله، وانني لا اتاخر عن تقدمته لهم حسب ما اقترحوه وارتضوه، والى حين ذالك لا يخلونا من مكاتبتهم متضمنه ذكر احوالهم واخبارهم، سلام الرب سبحنه يكون معهم ويحل عليهم وعندهم.

---

الكنائس من رجال الدين الارثوذكس والسريان واليعاقبة [١]، واذا كان الامبراطور اسحق الثاني انجيلوس قد بلغته الشائعات أن ريتشارد في مفاوضاته مع صلاح الدين يلح في أن تتخذ الاماكن المسيحية المقدسة صبغة لاتينية [٢]، فقد وصل رسول من قبل الامبراطور مثل أمام صلاح الدين في القدس في ثالث جماى الاولى سنة ٥٨٨هـ، وسلمه رسالة اشتملت على مطالب منها: صليب الصلبوت، وأن تكون كنيسة القيامة بيد قسس من جانبه وكذلك سائر كنائس القدس [٣] وأن يعود للمسيحيين الارثوذكس وللكنيسة الارثوذكس السيطرة التامة على الاماكن المسيحية المقدسة، الا أن صلاح الدين رفض الطلب، ولم يقبل أن يكون لمذهب السيادة التامة على هذه المواضع وفضل أن يكون هو الفيصل والحكم بينهما جميعا[٤]، كما قيل لرسول الامبراطور بان عليه شراء صليب الصلبوت مقابل مائتى ألف دينار[٥].

وإذا بات واضحا لدى الصليبيين الدور الكبير الذى تقوم به مصر في التصدى للغزو

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٨٩٩.

(٢) رنسيمان: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.

(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٤) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٤١.

(٥) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٠٩.

وكتب فى الرابع والعشرون من شهر مسرى سنه اربع وثلثين وثمان مايه للشهدا الابرار والحمد لله دايما ابديا.

ولما وصل الكتاب من الاب مقاره البطرك ووقفنا عليه اجتمعنا ومضينا الى بطرك الارمن، وهو يوميذ فى كنيسة السيدة بارض الزهرى التى ما بين القاهره ومصر [عتيقه]، وقريناه عليه فقال:

---

الصليبى فقد أعدوا فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة لغزوها، غير أن تلك الحملة انحرفت وولت وجهها شطر القسطنطينية وقطعت أوصالها سنة ١٢٠٤م [١]، الا أن الديار المصرية شهدت هجوما صليبيا مفاجئا فى نفس العام، ومن جهة رشيد، وتقدم الصليبيون الى فوه، وكان فيها أقباط كثيرون، ولها أسقف مخصوص، فقتلوا كثيرين منهم وطردوا غيرهم، وسبوا البعض، والبعض الآخر لم يسعه الا الهرب [٢].

على أن مدينة دمياط ـ وكان يسكنها كثير من الاقباط ـ تعرضت لجموع الحملة الصليبية الخامسة التى تزعمها حنادى برين والتى اقتحمت المدينة فى شعبان سنة ٦١٦هـ، بعد حصار دام حوالى سبعة عشر شهرا وبنفس المشاعر التى دخلوا بها بيت المقدس من قبل، اذ ذبحوا الكثير ممن وجدوه من الاهالى فى المدينة [٣]. واسترقوا البعض الآخر [٤]، وحولوا الجامع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حـ١٢ ، ص ٧٤.
ـ عاشور : الحركة الصليبية، حـ٢، ص ٩٣٥.
(٢) وليم سليمان : المرجع السابق، ص ١٦.
(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب، ص ٣٣١.
(٤) ابن و اصل: المصدر السابق، حـ٤، ص ٣٣.

صدق الاب البطرك فيما تضمنه كتابه. وسالناه فى مساعدته لنا في احضار يونس الراهب ابن سنهوت المقدم ذكره، فكتب كتابا للاب مقاره البطرك ان يسير اليه من تلاميذه من يحضره. فسير اليه تلميذان فاحضروه وانزلوه في دار الشيخ ابو الفضل التى فيما بين بجيب ودار العدل بمصر. فلما كان فى اليوم الثانى استدعاه بطرك الارمن الى قلايته واقام عنده ايام، وذالك براى انبا مقاره

---

الكبير الى كنيسة [1]، باسم السيدة العذراء [2]، وأخذوا منبر الجامع وكسروه، وأهدوا كل قطعة منه الى ملك من ملوكهم [3] كما احتلت فرقة صليبية منهم مدينة تنيس[4]، التى كان يسكنها ودمياط فضلا عن القرى المحيطة بهما آلاف من السكان الاقباط، الذين فروا أمام السيوف الصليبية المسلطة على رقابهم.

وقد انتهت أحداث هذ الحملة، بأن وافق الملك الكامل على عقد صلح بينه وبين الصليبيين فى رجب سنة ٦١٨هـ، على أساس جلاء الصليبيين عن دمياط، وعقد هدنة لمدة ثمانى سنوات (٦١٨ ـ ٦٢٦هـ = ١٢٢١ ـ ١٢٢٩م) ، واطلاق سراح الأسرى من كلا

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، حـ١١٧.
ـ مجير الدين الحنبلى، المصدر السابق، حـ١، ص ٤٠٢.
ـ الحنبلى: شفاء القلوب ، ورقة ٨٣.
(٢) زيادة : المرجع السابق، ص ٥٧.
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين، ص ١١٧.
ـ ابن واصل : المصدر السابق، حـ٤، ص ١٠٠.
(٤) زيادة: المرجع السابق،ن ص ٥٧.

بطركنا، اراد بذالك يمتحنه بطرك الارمن ويختبر
حاله وعلمه وامانته، فوجده كما يجب فى كلما
يحتاج اليه منه، فاخذه الشيخ ابو الفضل سعيد
ابن ابراهيم ابن المصطنع، المنسوب الى بنى
الاسكاف بحكم مصاهرتهم وليس هو منهم،
واعاده الى داره فيما بين بجيب ودار العدل واقام
فيها منذ خروجه من قلاية بطرك الارمن. فلما كان
اليوم السابع عشر من بابه المذكور اجتمع الكهنة

---

الجانيين[١]، كما وافق السلطان الكامل على أن يعيد اليهم صليب الصلبوت[٢]، وان يمنح الحجاج المسيحيين بعض الامتيازات [٣].

وفى عهد الملك الكامل أمر بتدمير مدينة تنيس عن آخرها وتركها كل اهلها وتشردوا فى البلاد بعد أن فقدوا اموالهم وممتلكاتهم، كما تم التوصل أيضا الى عقد معاهدة بينه وبين الامبراطور فردريك الثانى امبراطور ألمانيا، فى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م استجاب الكامل بمقتضاها الى تسليم بيت المقدس الى الامبراطور، وأن يأخذ الصليبيون الى جانب ما فى حوزتهم من المدن الساحلية: الناصرة وبيت لحم، وأن يكون للصليبيين ممر من الارض يصل بين عكا وبيت المقدس [٤]، كما اشترط عقد الصلح أن تبقى مدينة القدس على ماهى عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج، وأن

(١) ابن الاثير: المصدر السابق،حـ١٢،ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
- ابن العميد: المصدر السابق، ص ٤١٣ .
- المقريزى: الخطط، حـ١، ص ٢١٨ .
(٢) العرينى: المرجع السابق، ص ٣٣١ .
(٣) سيد أمير على: المرجع السابق، ص ٣٣١ .
(٤) عاشور: الحركة الصليبية، حـ٢، ص ١٠١١ .

والاراخنه والشـعب الى دار الشـيخ ابو الفـضل
المذكور، وانفذو الى متولى المعونه بمصر واعلموه
ان قد اقيم لهم اسقف جديد عوضا من المتوفى،
وانهم يريدو يزفوه من حيث هو الى كنيسـه ابو
سرجه بقصر الشمع بالذى جرت به العاده، وهم
يخشو من عوام الناس ان يتعرض لهم منهم سفه
فى الطريق فيقع فى ذالك ما يشغل القلب. فانفذ
الوالى اليهم خليفته وجماعه من رجالته وركب
الاسقف بغلة عالية من دواب بعض اصحاب

---

الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لايدخله الفرنج الا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة [١] كما اتفق الطرفان على أن تكون مدة هذه الهدنة عشر سنوات وأن يتعهد الامبراطور طوال هذه المدة بمنع أية حملة صليبية عن السواحل المصرية والشامية [٢].

واذ «قامت القيامة في جميع بلاد الاسلام» [٣]، لتسليم القدس الى الصليبيين، فان الملك الكامل واجه العاصفة بقوله: «انا لم نسمح لهم الا بكنائس وادر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة وسائر المزارات بأيدى المسلمين على حاله، وشعار الاسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله» [٤].

على أن عودة القدس الى الصليبيين بموجب هذا الصلح بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، قد مكن رجال الدين اللاتين من تحسين مركزهم فى الاماكن المسيحية المقدسة[٥]

---

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ص ٢٣٠.

(٢) زيادة: المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) العينى: المصدر السابق، حوادث سنة ٦٢٦هـ.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٤، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

(٥) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.

الدواوين فى الساعة الثالثه من النهار، وزفوه بالقراه
وبين يديه الشمع والاناجيل ومجامر البخور من
الدار المذكورة الى كنيسة ابو سرجه المذكورة،
وقدس وقرى تقليده فيها انبا مينا اسقف مليج،
وانبا ميخاييل اسقف اطفيح وانبا يوحنا اسقف
الخندق وهو كرسى بسطه وكان يوم عظيم. وكان
له مثل ذالك فى يوم الاحد الذى بعده فى القاهرة
فى كنيسة السيدة بحارة زويله، وكرز فيها بعد ان
زفوه بالقراة والشمع والاناجيل والمجامر من باب

---

كما أن طائفة الرهبان الفرنسسكان، أخذوا تصريحا منه سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، يسمح لجماعتهم بالاقامة فى فلسطين [١]، وقد تمكنوا فى ظل هذا الصلح، ومنذ عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م من الاستقرار فى بيت المقدس[٢]، وبخاصة بعد أن اعترفت الكنيسة الكاثوليكية سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م بهذه الطائفة[٣].

وفى جو العلاقات الطيبة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك، تمكن الانبا كيرلس الثالث البطريرك الخامس والسبعين للكنيسة القبطية من أن يعين مطرانا قبطيا فى بيت المقدس ليترأس احتفالات الاقباط فى الاعياد، بعدما كان المتبع أن يذهب مطران دمياط إلى القدس لهذا الغرض فى أعياد الميلاد والقيامة والعنصرة، ويعود بعدها الى مصر. كما أصبح من مهام المطران القبطى مباشرة مصالح الاقباط وزوارهم ورهبانهم فى الأراضى المقدسة. وكان طبيعيا أن يكثر عدد الاقباط المقيمين فى القدس، ويزداد عدد الحجاج الذين يؤمونها للزيارة ، بعد أن صار للقبط مطران قبطى فى المدينة. وبعد أن انفردوا بادارة كنائسهم وأديرتهم فى الاراضى المقدسة [٤].

(١) أحمد دراج: وثاذق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.
(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧،
(٣) أحمد دراج : وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٢.
(٤) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٣٢.

خوخت [خوخة] ميمون التى على الخليج الى
هذه الكنيسه، ومعه خليفة متولى المعونة بالقاهرة
ورجالته. وحدثنى الشيخ ابو الفضل المقدم ذكره لما
حضر ليفتقدنى انه ما دفع لتلاميذ البطرك ولا
لكاتبه درهما واحدا لا عن رسم ولا عن غيره ولا
جسرو يطلبو منه شيأ خوفا من الاراخنه. وكذالك
جرت حال سنهوت نيح الله نفسه عند تقدمته
اسقفا، وكذلك انبا يعقوب الذى كان اسقفا قبله،

---

غير أن الصليبين فقدوا نهائيا مدينة القدس سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م بعد أن انتزعتها منهم القوات المصرية والقوات الخوارزمية المتحالفة معها، لينزل الخوارزمية بالاتين فى المدينة المقدسة شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب (١)، فقد أعملوا السيف فى رقاب من كان فيها من النصارى وسبوا ذراريهم ونسائهم ، كما استهدفوا الكنائس والمعابد، ودخلوا كنيسة القيامة، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها قبر المسيح (٢) وأشعلوا النار فيها (٣)، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التى بالكنيسة، وحرقوا عظام الموتى (٤).

على أن الملك الصالح أيوب طرد الخوارزمية من القدس، ودخلها سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٥م(٥) ورحب به أهالى المدينة وبخاصة المسيحيين، الذين أحسن اليهم (٦)، كما أظهر قدرا كبيرا من التسامح ازاء طوائف الرهبان (٧) وبخاصة الرهبان الفرنسسكان الذين

(١) جوزيف نسيم: العدوان الصليبى، ص ٤٧، ٤٨.
(٢) ابن واصل: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
ـ عارف العارف: المرجع السابق، ص ٨٦.
(٣) جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٤) ابن واصل : المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٣٧.
(٥) سبط بن الجوزى: المصدر السابق، حـ٨، ص ٥٠٦.
(٦) الخربوطلى: الاسلام وأهل الذمة، ص ٢٠٤.
(٧) لين بول : المرجع السابق، ص ١٨٧.

بل لما صير البطريرك المذكور هذا الاب انبا يونس اغومنس امتنع من تكميله اسقف حتى اخذ خطه بانه يحمل نصف ارتفاع [عوايد] الكرسى فى كل سنة للقلاية البطركية عن الدياريه. وكان ما يوخذ من انبا سنهوت الاسقف نيح الله نفسه فى كل سنه للقلايه خمسة عشر دينار، والكتاب والتلاميذ دينارين اذا حملو اليه الارتسطتيكا، الجميع فى السنة سبعة عشر دينار.

---

استطاعوا ان يحصلوا من السلطات الأيوبية فى هذه السنة على حق توليهم رعاية الاماكن المقدسة فى القدس[1]، وبذلك أصبحوا الممثلين الرسميين للكنيسة الكاثوليكية، واتخذوا لقب «حراس الاماكن المقدسة»[2].

على أن الحملة الصليبية السابعة التى قادها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر قد الحقت أبلغ الضرر بمدينة دمياط التى كان يسكنها كثير من النصارى عندما دخلتها فى الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ/ يونية سنة ١٢٤٩م [3]، كما حولها الصليبيون الى مدينة صليبية [4]، اذ شرعوا فى تثبيت رسومهم وشعائرهم فى المدينة [5]، فحولوا جامع دمياط

(١) أحمد دراج: وثائق دير صهيون بالقدس الشريف، ص ٢٥.
(٢) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٤٧.
(٣) جوانفيل: مذكرات جوانفيل، القديس لويس، حياته، وحملاته على مصر والشام، ترجمة د. حسن حبشى، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٦٨م. ص، ٩٦.
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤) رنسيمان : المصدر السابق، جـ٣، ص ٤٥٣..
ـ محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٥) حسن حبشى: الشرق العربى بين شقى الرحى، وحملة القديس لويس على مصر والشام، ص ٤٨.
ـ جوزيف نسيم: لويس التاسع فى الشرق الاوسط، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٢.

وفى ابيب سنه ثمان مايه اربعه وتلتين للشهدا، وهى السنه الخامسه عشر لبطركية الاب القديس انبا مقاره البطرك، وصل بردويل(*) [بلدوين] مقدم الفرنج فى عسكر عظيم الى الفرما فنهبها واحرقها، وعول على الهجوم الى مصر بغته فمرض، وفى ثالث يوم اشتد مرضه فامر اصحابه ان يحملوه ويعودو الى الشام فحملوه وعادو، فلما وصلو الى العريش مات هناك فشقو بطنه وملحوه

(*) حدثت حملة بردويل على مصر فى عهد الخليفة الأمر لأحكام الله سنة ١١١٧م = ٥١١هـ. وقد أطلق اسمة على بحيرة توجد فى شمال سيناء على البحر المتوسط.

---

الكبير الى كنيسة كتدرائية كاثوليكية [١]، دشنها القاصد الرسولى فى الحملة باسم كنيسة نوتردام (السيدة العذراء)، وعينوا لها أسقفا لاتينيا يدعى جيل [٢]، وحولوا قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع الى مكان للمعمودية [٣]، كما جعلوا جميع مساجد المدينة كنائس، ووهبوها لشتى القديسين والقديسات [٤]. كما خصصت بعض أحياء المدينة لسكنى الجاليات الايطالية التى اشتركت فى الحملة [٥].

ويذكر البعض أن لويس التاسع عامل المسيحيين الوطنيين من الاقباط اليعاقبة معاملة طيبة كما يدعوا أنهم رحبوا بحكمه[٦]، استنادا الى نص التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى عن الحملة، حيث يقول فيه «وعلمنا أنه بينما كان لويس يستعد لمحاصرة دمياط قام المسلمون بقتل النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة، وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة

---

(١) زيادة: المرجع السابق، ص ١١٩.
- جوزيف نسيم: المرجع السابق، ص ٤٢.
(٢) جوانفيل: المصدر السابق، ص٩٨.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ١١٩.
(٤) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٤٨.
(٥) زيادة : المرجع السابق، ص ١٦٩.
(٦) رنسيمان : المرجع السابق، حـ٣، ص ٤٥٣.
- جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩.

[حنطوه] كما اوصاهم، وعادو به الى القدس. وكان السيد الاجل الافضل [ابن بدر الجمالى] لما بلغه وصولهم الى الفرما جرد اليهم عسكر عظيم، فلما مات بردويل مقدمهم وعادو تبعهم العسكر الى الشام وعاد. وقد كفانا الله امرهم، نساله جل اسمه دوام رحمته ونعمته ويلهمنا شكره ولا ينسيلنا [ينسينا] ذكره بجوده ومجده.

ولما كان يوم الاحد النصف من كيهك سنة

---

دمياط خاوية ، أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا اليها، واعملوا سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يلحقوا بالجيش الاسلامى المتقهقر، فان هؤلاء النصارى خفوا الى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كأخوانهم وأشركوهم فى موكب انتصارهم» (١).

الا أنه ينبغى علينا أن نأخذ ما جاء فى هذا التقرير الذى وضعه الكونت دى شامبانى أحد قادة الحملة ـ بكثير من الحذر، فيما يتعلق بأقباط دمياط، لأن التقرير صادر من جانب واحد، وهو الجانب الصليبى المعتدى والمتعصب، الذى يهمه أن يضفى على الاحداث ما يتوهم أنه فى صالحه. ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية الشرقية اسلامية كانت أم نصرانية، وبعضها معاصر للاحداث وقريب منها، لم تعطنا أية معلومات عن موقف أقباط دمياط من هذه الحملة. ولو حدث أنهم انحازوا الى الجانب الصليبى، لأفاضت المصادر فى القاء الضوء على موقفهم هذا، وكان لهذا الموقف من جانب نصارى دمياط ردود فعل من جانب المسلمين كان لابد من أن تشير اليها المصادر المعاصرة.

واذا كان الصليبيون قد خرجوا من مصر بعد هزيمتهم فى المنصورة وفارسكور بمقتضى

(١) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٦٩، ١٧٠
ـ محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦.

احدى عشر وخمسمايه الخراجيه، وهى سنة ثمان
مايه ثمانيه وتلتين للشهدا، وهو سلخ شهر رمضان
سنه خمس عشر وخمس مايه الهلاليه الذى فى
غده يكون الفطر، ركب السيد الاجل الافضل من
داره بمصر التى تسمى دار الملك وطلع الى القاهرة
المحروسه ودخل الى القصر الشريف وجلس بين
يدى مولانا الامر باحكام الله وعرضة [عرضت]
عليه المضال [المظلات] والدواب والسروج وغير

---

الاتفاق الذى أبرم فى سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م (١). فانهم خلفوا وراءهم عددا من الصليبيين الذين اعتنقوا الاسلام (٢)، كما عادت المساجد التى كانوا قد حولوها الى كنائس الى حالتها الاولى (٣).

## علاقات الفاطميين والايوبيين ببلاد الحبشة

من الأمور الجديرة بالبحث موضوع العلاقات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى، تلك العلاقات التى كان لكنيسة الاسكندرية الدور الأكبر فى استمرارها وتدعيمها، فكنيسة الحبشة تعتبر «كبرى بنات الكنيسة القبطية» (٤)، ويرسم لها أساقفة مصريون بناء على طلب ملوكها، وكانوا دائما أبدا من القبط اليعاقبة، وتتم قداستهم فى الكنيسة المرقسية فى مصر (٥)، ولا يخرج هؤلاء الاساقفة من الديار المصرية الى الحبشة الا

---

(١) جوانفيل:المرجع السابق، ص ١٩٦.
ـ العرينى: المرجع السابق، ص ١٤٨، ١٤٩.
(٢) جاك تاجر: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٣) زيادة : المرجع السابق، ص ٢٢٣.
(٤) سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٧.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٢، ٣٢٣.

ذالك، وتخير منه ما يكون برسم الركوب في غد ذالك اليوم، على جرى العادة فى مثله. وخرج من القصر وعاد الى مصر، فلما تجاوز سوق السيوفيين وراس الجسر خرج عليه ثلثة رجال لم يعرفوا، وقيل انهم من بلاد الشرق، فاستقبله اثنين منهم وبايديهم سكينتين، فلما راهم الغلمان بادروا اليهم بالسيوف فقتلوهم، وفى اشتغال الغلمان بقتلهما خرج اليه الثالث من زقاق دار الكتابه وضربه

---

بناء على أوامر السلطات الحاكمة للبطريرك القبطى بارسال مطران اليهم وبعد أن يرسل ملك الحبشة هداياه[1].

اذا جرت العادة حينما يريد ملك الحبشة أن يطلب مطرانا لبلاده، أن يرسل الى مصر رسالتين احداهما الى صاحب الأمر فى مصر والاخرى الى بطريرك الاسكندرية، ومع الاولى هداياه من العبيد والجوارى والمسك والعاج [2]، وبعض الحيوانات [3]، ومع رسالة البطريرك مبلغ كبير من المال يقدمه الاحباش لرأس الكنيسة القبطية، حينئذ يلتمس البطريرك الأذن من الخليفة أو السلطان أو من بيده الأمر فى مصر، ليقوم برسامة أحد الرهبان ممن يتوسم فيهم الصلاحية مطرانا للحبشة.

ويتضح من مصادر الفترة موضوع البحث أن ركنا أساسيا مما تضمنته الاتصالات بين مصر والحبشة دارت معظمها حول موضوع واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو

---

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ١١.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.
(٣) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، حـ٣، ورقة ١٥٠.

بسكين فقتله، وبادرو الغلمان اليه فقطعوه بسيوفهم وحملو السيد الاجل الافضل(*) الى دار الملك وهم يظنو انه حى، فلما صار فى الدار وجدوه قد مات، فلما بلغ خبره لمولانا الامر باحكام الله نزل من ساعته الى دار الملك واحتاط على جميع ما فيها من الاموال، وامر بكتمان وفاته فى تلك الليله عن الناس، وفى غد اظهر امره للوجود، وفى غداة يوم الثلثا اخرج تابوته فى السحر وجميع الناس

(*) قتل الأفضل ابن بدر الجمالي على يد عبد الله ابن محمد البطايحي بايعاز من الخليفة الآمر باحكام الله وتولى الوزارة مكافأة له. ولكن الآمر قبض عليه سنة ٥١٩هـ = ١١٢٥م وسجنه ولم يصبح من بعده وزير فى مصر حتى وفاة الخليفة الأمر مقتولاً سنة ٥٢٤هـ= ١١٣٠م.

---

الكرسى الأسقفى فيها [١]. وفى المقابل كان الاحباش فى العصور الوسطى على حد قول القلقشندى «يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدر الى مصر، ويساعدون على اصلاح سلوكه تقربا الى صاحب مصر [٢].

ومن ثم يتضح لنا أن الأسقف المصرى الذى تعينه الكنيسة المصرية مطرانا على الحبشة كان له مكانته الموموقة والمقدسة فى بلاد الاحباش. كما كان له نفوذه وسيطرته الروحية ليس فقط بالنسبة للاحباش المسيحيين بل لدى ملك الحبشة وبلاط المملكة، فالى جانب رئاسة الأسقف المصرى للكنيسة الحبشية وترسيمه للقسس والشمامسة من أهل البلاد، ورئاسة الاحتفالات الدينية الكبرى فى الحبشة [٣]، فقد صار لهذا للاسقف المصرى مهام سياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد يعتلى عرش مملكة الحبشة، ويرأس الاحتفال الكبير الذى يقام فى تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[٤].

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ١٣.
(٢) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٢٣.
(٣) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٣٢، ١٣٣.
(٤) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٥، ص ٣٠٨.
ـ عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ١٣ نقلا عن ابى صالح الارمنى، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

يمشو حوله حفاه، وخرج مولانا الامر خلد الله ملكه راكب خلفه بثياب غسيل وعمامه حمدانيه بذوابه حتى وصل الى تربة والده بظاهر القاهره خارج باب النصر فصلى عليه ودفن فيها. وعاد مولانا الى دار الملك بمصر واقام فيها سبعة عشر يوم(*) حتى حمل جميع ما فيها من الاموال والجواهر والذهب والفضة والملابيس والفرش والاثاث والالات الى القصر. ويقال ان المال الذى

(*) في بعض مصادر هذه الفترة قبل أن الآمر بأحكام الله استمر اربعين يوماً بلياليها ينقل الأموال.

---

ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها فى حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، ومطران الحبشة هو الذى يضفى على القوانين الملكية صيغتها القانونية، وعن طريقة يصدر قرار الحرمان ضد أى شخص يغضب عليه فيصير ذلك الفرد محروما من الكنيسة مطرودا من رحمتها [١].

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران جديد موفد اليهم من مصر، فيخرجون فى موكب هائل لاستقباله، وعلى رأسهم الملك وكبار رجال الدولة [٢]، وينتظرونه على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة ، فاذا رأوه خروا ركعا أمامه، ونثروا فوق هامته الذهب، وأحرقوا حوله البخور، ونشروا فوق رأسه مظلة من القماش الثمين الموشى بالذهب ومشوا خلفه حتى يصل الى الكنيسة ليصلى بهم[٣].

واذا كانت هذه مكانة الأسقف المصرى المرسم على الحبشة فما بالك بمكانة بطريرك الاسكندرية خليفة مار مرقس عند ملوك الحبشة وشعبها.

ومن ثم فان أهل الحبشة على اختلاف طبقاتهم كانوا يخفون الى الترحيب بكل مطران

(١) عاشور: المرجع السابق، ص ١٤.
(٢) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦، ١٢٧.
(٣) اريس حبيب: نفس المرجع، حـ٣، ص ١٢٦.

وجد عيناً فى الاكياس اربعه الف الف دينار، وما سوى ذلك مما تقدم ذكره مع السلاح والدواب، ما [لا] يعرف قيمته. وصار مولانا عليه السلام(*) يجلس كل يوم فى قاعة الذهب بالقصر السعيد للنظر فى امور المملكة، ورجال الدوله والقايد الاجل ابو عبدالله واخوته بين يديه لتنفيذ الامور، والركوب معه فى كل يوم سبت ويوم الثلثا الى البساتين والمناظر بضواحى القاهرة وظاهر مصر.

(*) لاحظ هنا عبارة «عليه السلام» وقيمتها ومعناها فى المعتقد الفاطمى.

---

جديد فلا عجب أن تركزت غالب الاتصالات بين مصر والحبشة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى حول موضوع رئيسى واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلوا الكرسى الأسقفى فيها. كما تناولت بعض الاتصالات أوضاع المسلمين فى الحبشة[1]، وأهمية رابطة النيل بين البلدين[2].

وفى العصر الفاطمى الثانى، وأثناءى وزارة بدر الجمالى كثرت المراسلات بين مصر والحبشة، وكثر الوافدون من الحبشة على دار البطريركية فى القاهرة. وقد استخدم البطريرك نفوذه لدى الاحباش لتدعيم العلاقات بين البلدين [3]، كما وقف بدر الجمالى منذ عهد خريستودو لوس يساند البطريركية عندما قررت عزل من يدعى قوريل الذى اغتصب كرسى المطرانية فى الحبشة، بعد وفاة الانبا بقطر مطرانها المعتمد لدى كنيسة الاسكندرية، بل ان بدر الجمالى اعتقل قوريل هذا فى خزانة البنود، عندما قبض عليه وأرسل الى مصر، ضرب عنقه، ثم صرح بدر الجمالى للبطريرك كيرلس الثانى برسامة راهب قبطى يدعى ساويرس السابق الاشارة اليه، مطرانا على الحبشة، بعد أن وعد أمير الجيوش «بمواصلة الهدايا من هناك وبدء

---

(1) ساويرس: المصدر السابق.
(2) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(3) ساويرس: المصدر السابق.

واستمر على ذالك بقية شهور سنه خمس عشر وخمسمايه الهلاليه.

ولما كان في سنه ستة عشر وخمس مايه [الهلالية] اخلع مولانا، خلد الله ملكه، على القايد الاجل عبدالله [البطايحى] وقلده الوزاره وتدبير مملكته والنظر في امور رجال دولته وكتب له بذالك سجل معظم وذكر فيه القابه ونعوقه [نعوته] ومن جملتها السيد الاجل المامون، الى ان عول على قتله اذا خلا به في قصره، فاتضح له

---

الملوك تطيعه»، وأن يتعهد المسلمين في الحبشة برعايته، ويوصي بهم، وأن يبني بالحبشة أربع مساجد للمسلمين[1].

على أن ساويرس المطران الجديدة للحبشة لم يستطع أن يفي بالتعهدات التي قطعها على نفسه أمام بدر الجمالي فيما يخص حسن معاملة المسلمين، ولم يتمكن من بناء مساجد للمسلمين. كما أن هذا المطران أوفد أخاه بهدية «لم يحسن موقعها عند أمير الجيوش ولا أعجبته» [2] وزاد من غضب بدر الجمالي أن الاحباش ضايقوا التجار المسلمين في تلك البلاد وفرضوا عليهم ضرائب ثقيلة أضرت بهم [3] مما أدى الى توتر العلاقات بين السلطات الحاكمة في مصر وبلاد الحبشة كما توترت العلاقات بين الدولة في مصر والكنيسة القبطية اذ احضر بدر الجمالي البطريرك كيرلس الثاني الى مجلس ، ومعه عشرة من الأساقفة، ووبخهم، وهددهم، لأن شيئا مما تعهد به المطران لم يحدث، ثم طرد البطريرك من مجلسه، وأمر بأخ مطران الحبشة فقبض عليه، واعتقله في خزانة البنود، وفرض غرامة يومية مقدارها دينارين على كل أسقف حضرهذا اللقاء العاصف، وأساء معاملة النصارى، حتى قرر البطريرك ورجال

(١) ساويرس: المصدر السابق.

(٢) ـــــــــ: نفس المصدر.

(٣) يذكر أبو صالح الارمني في تاريخه انه كان في بلاد الحبشة عدة كبيرة مسلمين ويقوموا بالجزية ( أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص١٣٤).

ذالك بدلايل عرف صحتها وحقيقتها [فـ] سبق
اليه وبادر بالقبض عليه وعلى اخوته واولاده ووالده
فى عشية يوم الجمعة الثالث من رمضان سنة تسعة
عشر وخمس مايه، واعتقلهم فى خزانه بالقصر
السعيد موثوقين بالحديد والقيود. وبعد مدة مات
حيدوه [حيدره] وبقى محمد ابن فاتك الملقب
بالمامون.

وانتهى الى الخليفة ان محمد ابن فاتك المذكور

---

الكنيسة ارسال وفد من الاساقفة الاقباط الى ملك الحبشة، مع رسول من قبل أمير الجيوش[1]، حمل رسالة شديدة اللهجة الى ملك الحبشة تطالبه بتنفيذ مطالب بدر، والا على حد قول بدر «هدمت البيع بأرض مصر» وقبل ملك الحبشة التحدى وأرسل الى بدر الجمالى يقول: «اذا هدمت من البيع حجر واحد حملت اليك طوب مكة وحجارتها جميعا وأوصلته اليك كله»[2].

ومات الانبا كيرلس الثانى سنة ٤٨١هـ، وخلفه على عرش البطريركية الانبا ميخائيل البطرك الثامن والستين والعلاقات بين مصر والحبشة على حالتها من التوتر. حتى اذا نقص النيل وهدد انخفاض الفيضان بمجاعة، أرسل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى البطريرك ميخائيل بهديه سنية وتحف جليلة الى بلاد الحبشة ، فتلقاه ملكها[3]، على رأس موكب حافل ضمن كبار رجال دولته وشعبه، وسجد بين يديه[4]. وحين علم بالسبب الذى حدا بضيفه الكبير أن يحضر الى بلاده، أمر رجاله فى الحال بتطهير مجرى النيل[5] وفتح السد

(١) ساويرس: المصدر ا لسابق.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٥) القلقشندى: المصدر السابق،حـ٥، ص ٣٢٣.
ـ اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٦.

كان فى ايام وزارته سير الى بلاد اليمن رجل من خواصه يعرف بابى الحسن نجيب الدولة على انه رسوله الى الحره (*) ملكة اليمن فى الظاهر، وقرر معه فى الباطن ان يذيع عنه انه ولد ابن نزار ابن مولانا المنتصر بالله، وانه احق بالخلافه، وهو الان مقيما بها، وان يقيم له الدعوة هناك ويضرب له السكه باسمه هناك، فسير اليها الامام الامر باحكام الله احد الامرا وينعت باسد الدولة ومعه كتب الى

(*) الحرة ملكة اليمن: كان لأمراء الصليحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين في مصر، فلما تقلدت السيدة الحرة زمار الأمور في اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية في اليمن، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، =

---

الذى يجرى منه الماء الى أرض مصر [١] تكريما وتقديرا لرأس الكنيسة المصرية [٢]، فزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع، واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت» [٣].

كما نجح هذا البطريرك ميخائيل في أن يقيم علاقات ودية بين ملك الحبشة والسلطات الحاكمة فى مصر، ومن ثم توثقت العلاقات بين الدولتين [٤]، وعندما عاد البطريرك الى مصر ـ بعد أن مكث في الحبشة عدة أسابيع ـ خلع عليه المستنصر بالله وأحسن اليه [٥].

ومن الجدير بالذكر أن الانبا ميخائيل البطريرك الثامن والستين في سلسلة بطاركة الاسكندرية كان أول من سافر الى بلاد الحبشة من بطاركة الكنيسة المصرية [٦].

ولم تمض فترة وجيزة على عودة الانبا ميخائيل الى مصر، حتى وفد رسول من ملك الحبشة الى الافضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة المستعلى بالله، يلتمس تعيين مطران جديد لبلاده، وأن يسيره اليه مع رسوله ، ولما كان الأمر عاجلا، فقد بادر البطريرك القبطى على

(١) المقريزى: الخطط، حـ٣، ص ٤٩٦.
(٢) سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٣) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٤) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٧.
(٥) المقريزى: الخطط، حـ٢، ص ٤٩٦.
(٦) اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص١٢٧.

٦٩: ابا مقاره البطرك ١١٠٢/ ١١٢٨م

الحره، فلما وقفت عليها وعرفت قضيت [قضية] حال ابوا الحسن المذكور لم تزل تتحيل بسياستها الى ان قبضت عليه وسيرته الى مصر، فلما وصل يوم الثلثا العاشر من محرم سنه احدى عشر وخمسمايه استشهد [شهّرا] في القاهره ومصر وهو راكب على جمل وتحته دكه وعلى راسه طرطور رصاص مزوق، وعلى كتفه قرد، وفي يده مراه تريه وجهه، وخلف ظهره رجال [رجل من] العوام وفي

= فتبودلت بينهما الكتب والرسايل، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة فاعترفت بامامته، كما اعترفت من قبل بامامة أبيه المستعلي، وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن. وكان الخليفة الآمر حريصاً على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق أبنه ابا قاسم الطيب، كتب إلى السيدة الحرة بأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالي بلاد اليمن.

---

عجل برسامة راهب يدعى جرجس مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران أساء السيرة، وتعداها الى أمور قبيحة، فقبض عليه ملك الحبشة، وأعاده الى مصر وكتب الى الوزير الأفضل يشكو ما فعله المطران، فاعتقل الأفضل المطران، كما بادر البطريرك بخلعه، وقام برسامة مطران جديد وسيره الى الحبشة [١].

وفي عهد الخليفة الحافظ لدين الله توترت العلاقات بين الكنيسة المصرية والحبشة واصطدم ملك الحبشة بالبطريرك غبريال بن تريك الذى رفض الاذعان لرغبة الملك برسامة أسقف أكثر من العدد المتفق عليه بين كنيستي الاسكندرية والحبشة، وأرسل ملك الحبشة يطلب تدخل السلطات الحاكمة في مصر، وسأل الخليفة الحافظ لدين الله أن يأمر البطريرك بترسيم أكثر من سبعة أساقفة للحبشة، غير أن البطريرك اعتذر للخليفة، وأوضح له أن تعيين أكثر من سبعة أساقفة في الحبشة، سيمكن الأحباش من ترسيم مطران لكنيستهم دون الرجوع الى الكنيسة المصرية مما يعني استقلال كنيسة الحبشة وانفصالها عن أمها كنيسة الاسكندرية، وخروج الاحباش عن طاعة بطاركة مصر، وبالتالي أضعاف العلاقات بين البلدين، فضلا عن أن

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
ـ اريس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٢٨.
ـ منير شكري: المرجع السابق، ص ٢٧١.

يده نعال وهو يبطش به [يضربه على قفاه] طول الطريق الى ان وصل الى القصر الشريف، واعتقل عند صاحبه محمد ابن فاتك.

اسال الله جلت قدرته وتعالى ذكره ان يرزقك ايها الاب الراهب ابن يوحنا النفيس الشماس الابصلمدى النعمه والامن والكفايه بشفاعه السيده البتول الطاهره مرتمريم والدة الخلاص [الخلصاء] وكافة الشهدا والقديسين.

---

الاحباش سيقومون بمحاربة المسلمين المتاخمين لبلادهم، ومن ثم اقتنع الخليفة ووافق على رأيى البطريرك فى عدم رسامة أساقفة جدد لمملكة الحبشة [١].

وفى عهد الخليفة الظافر بالله، وأثناء وزارة الوزير على بن اسحق ابن السلار، اغتصب عرشى الحبشة مغتصب فوبخه الانبا ميخائيل مطران الحبشة على سوء فعلته ، فغضب مغتصب العرش لذلك [٢] ، وأرسل الى الوزير ابن السلار يطلب مطرانا جديدا للحبشة بدل المطران الموجود بها والمسمى أنبا ميخائيل، الا أن الانبا يوحنا الخامس البطريرك الثانى والسبعين للكنيسة القبطية امتنع، واعتذر لوزير العادل بن السلار، بأن الشريعة المسيحية تحرم عزل رجال الكهنوت من مناصبهم بغير سبب جوهرى، فغضب العادل، وأمر باعتقال البطريرك فى سجن دار الوزارة، ولم يفرج عنه الا بعد مقتل ابن السلار فى شهر المحرم سنة ٥٤٨هـ [٣].

واستمرت العلاقات ودية وطيبة بين مصر والحبشة حتى نهاية العصر الفاطمى، حتى اذا انتقلت السلطة الى صلاح الدين، بادر ملك الحبشة باجراء اتصالات مع نظام الحكم الجديد

---

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة : المرجع السابق، حـ٢، ص ١٤٩.
(٢) اويس حبيب: المرجع السابق، حـ٣، ص ١٦٣ .
(٣) ساويرس: المصدر السابق.

## الاب غبريال ابن تريك البطرك
## وهو من عدد الابا السبعون
## [١١٣١/١١٤٥م]

هذا الاب الجليل غبريال ابن تريك كان من اهل مصر من نسل شريف من اعيان الكتاب، جلس على كرسي البطركيه اربعه عشر سنه وسته شهور، وتنيح في العاشر(*) من برموده سنه اثنين وستين وثمان مايه للشهدا، الموافقه للحادى عشر

(*) ١٠ برموده ٨٦٢ = ١١ شوال ٥٣٩هـ = ١١٤٥م.

---

في مصر، فالمقريزى يذكر أنه في ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ «وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب الى الخليفة فقرئ كتابه وأخذت هديته» [١].

ومن ثم بادل صلاح الدين الاحباش ودا بود، وحافظ على العلاقات الوثيقة بين مصر والحبشة، وحرص على تدعيمها، فعندما فتح البيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. وطرد الصليبيين من المدينة المقدسة، رد الى الاحباش أماكنهم التى اغتصبها الصليبيون منهم، وأبدى كثيرا من التعاطف ازاء الرهبان الاحباش وديرهم بالقدس [٢]، وشمل الحجاج الاحباش برعايته، وأمر باعفائهم من أية ضرائب مقابل زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس ووفر كل الرعاية للاحباش لأنهم«من جيرانه» [٣]، وقد تمسك الاحباش بهذا الحق منذ صلاح الدين وطوال العصر الايوبى، وطالبوا خلفاءه من سلاطين الأيوبيين من بعده

---

(١) المقريزى: السلوك، حـ١، ق١، ث ٤٨.

(٢) دير الحبش بالقدس: ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب، وقيل أنه جزء من دير السلطان للاقباط، ذلك الديرالذى لم ينقطع الخلاف حوله بين الاقباط والاحباش منذ سنين (عارف العارف: المرجع السابق، ص ٢٥٤).

(٣) ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٢.
- المرجع السابق، ص ٨٠.
- اريس حبيب : المرجع السابق، حـ٣، ص ١٩٣.

من شوال سنه تسع وثلثون وخمس مايه الهلاليه.
وكان اسمه وهو علماني ابو العلا، شماسا في كنيسه القديس ابو مرقوره [أبو سيفين] بمصر، رجل كهل عاقل صالح عالم خبير ذات [ذا] سيره جميله وصدقه كثيره وبر ومعروف، محباً للصلوات والقداسات، وخدمة الكنايس والغربا والمرضى، مفتقد الارامل والايتام ومن في السجون والضيق، ومجتهد في قراه الكتب وتفسير معانيها

---

باعفائهم من أى رسم مقابل السماح لهم بالتردد على الاماكن المقدسة فى فلسطين(1). كما دأب ملوك الحبشة على ارسال الاموال والهدايا الى دير الاحباش بالقدس طالبين من رهبانه الدعاء والبركة (2).

كذلك يتحدث بعض الباحثين الاقباط عن وجود دير للاحباش فى وادى النطرون فى مصر، قبل نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (قبل نهاية القرن السادس الهجرى أى فى العصر الأيوبى) وأن الاقباط وهبوا لهم هذا الدير. كما يرى هؤلاء البعض أن الرهبان الاحباش خلال هذا القرن كانوا يشاركون الرهبان النوبيين دير ايليا، وكان دير الاحباش هذا يجاور دير القديس يوحنا بوادى النطرون، وأنه قد نشأ بين الرهبان الاحباش والرهبان المصريين فى هذا الوادى رباط من الألفة والمحبة (3). كما سافر الى الحبشة كثير من الرهبان المصريين، وحملوا معهم بعض كتب الصلوات والطقوس الدينية، فضلا عن سير الآباء والقديسين، وقد ترجمت هذه الكتب الى لغة الاحباش وصارت لاتخلوا منها كنيسة أو دير، كما صادفت رواجا كبيرا بين

(1) عاشور: أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى، ص ٢٢.
(2) عاشور: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(3) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

والبحث عنها، ناسخ جيد قبطي وعربي، ينسخ
لنفسه كتب كثيره ومجلدات اشتراها من كتب
العتيقه والحديثه مما يصلح للبيعه المقدسه والدين
المسيحي، وكان يخدم في ديوان المكاتبات وقت،
وفي بيت المال وقت. ومن كتابة بيت المال اخدوه
لما وقع عليه الاتفاق وكرزوه بطركا، وكان عمره
في ذلك الوقت سبعه واربعين سنه. وكان المساعد
في قسمته مع الاراخنه الشيخ ابي البركات ابن ابي

---

الاحباش، الأمر الذى أدى الى تقوية الروابط الروحية بين مصر والحبشة بالاضافة الى تدعيم الصلات بين الكنيستين المصرية والحبشية في ظل المذهب الارثوذكسي [١].

وفي عهد السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب، أرسل ملك الحبشة مبعوثا يحمل هدية جليلة لسلطان مصر وكتابا اليه بأن يتقدم للبطريرك برسامة مطران جديد للحبشة لوفاة المطران الذى عندهم. فاختار البطريرك يوحنا السادس الانبا كائيل بن المليس ورسمه مطرانا للحبشة، غير أن هذا المطران،عاد الى مصر بعد أربع سنوات هربا من الاحباش الذين أرادوا قتله. ولما أرسل البطريرك رسولا من قبله الى الحبشة ليقف على حقيقة الأمر، أخبره الاحباش أن المطران الهارب قتل واحدا من القسس بالحبشة، وأساء السيرة، وبنى قصرا منيفا أحاطه ببستان كبير غرس فيه الاشجار وحفر له جداول الماء، ومهد داخله الطرقات والدهاليز، واحتجب عن الناس، وصار لا يخرج الا يوم الأحد في غاية الابهة في موكب عظيم، على بغلة عالية، وعلى رأسه مظلة، وحوله غير الخدم نحو خمسمائة من الحراس [٢].

وأرسل ملك الحبشة آنذاك المسمى «لاليبلا بن شنوده» رسولا الى السلطان الملك العادل،

---

(١) عاشور: اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة في العصور الوسطى، ص ١٠.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة: المرجع السابق، حـ٢، ص ١٥٠.

الليث الملكي صاحب ديوان التحقيق ومن حضر
من الاسكندرانيين بمصر، لان النوبه كانت لهم،
وطلع به الى كنيسه المعلقه في يوم الثلثا التاسع
من امشير من سنه سبع واربعين وثمان مايه
للشهدا، فدهنوه ومضو به في عشارى موكبى الى
اسكندريه واوسموه بطركا، وذلك في ايام احمد
ابن الافضل ابن امير الجيوش ويسمى شاهنشاه.

وذكر مولف هذه السيره وهو الاب مرقس ابن

---

وصل الى مصر سنة ٦٠٦هـ، ومعه هدايا جليلة من جملتها: فيل، وسبع ، وزرافات، وحمار وحشى، وتاج مرصع بالذهب، هذا الى جانب كتاب منه يلتمس ترسيم مطران جديد، بدل المطران الذى عزلته الكنيسة وجردته من ألقابه، ولما كان السلطان الملك العادل فى الشام، فقد أمر ابنه الملك الكامل ـ نائب السلطنة فى مصر ـ البطريرك بسرعة ترسيم مطران للحبشة، وألا يؤخر الرسل الاحباش فى القاهرة، وعليه أن يرسلهم على وجه السرعة الى ملكهم ومعهم المطران الجديدة (١).

ولقد تركت مثل هذه العلاقات الطيبة أثرها الطيب فيما يتعلق بموقف الحبشة من أقباط مصر، اذ لجأ عدد كبير من الاقباط الى بلاد الحبشة، طلبا لحماية ملكها «لاليبلا»، على أثر إضطهاد الملك العادل أبو بكر للقبط وتدميره للمدن الساحلية المصرية مثل تانيس ودمياط وغيرهما سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م (٢)، وهرب سكانها وكثير منهم من الأقباط فرارا من الحصار الطويل والشديد الذى تعرضت له المدينة، وفرارا من المذابح التى ارتكبها الصليبيون ازاء أهل

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ سميكة: المرجع السابق السابق، حـ٢، ص ١٥٠.
(٢) عاشور : بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة ، ص ٢٥.
ـ عبد المجيد عابدين: المرجع السابق، ص ١٦٦.

(*) مؤلف هذه السيرة هو الاب مرقس ابن زرعه.

زرعـــه(*) انه لم يكن لاحد من الاساقفه علم بقسمته ولا الرهبان ولا مشوره في امره لان كرسي البطركيه اقام خاليا سنين كثيره بعد وفاة انبا مقاره. واخبر من يوثق به ان الجماعه التي اجتمعت من الاراخنه لطلب بطرك مضـو الى دير ابو مـقـار فـاخذوهم اولاد ابو مقـار ومضـو معـهم الى ابا يوسف القـديس الســرياني في دير السـريان لكي يشاوروه وياخذو بركته، وكانت نعمة الله حاله عليه

---

دمياط، وقد وفر الملك «لا ليبلا» الحماية لهؤلاء اللاجئين المصريين من بني ملته [1]، ورحـب بهم واكرمهم [2]، على اعتبار أن بلاده من وجهة نظر الاحباش مركز الامبراطورية المسيحية المنيع والدرع الواقي لكل مسيحي يلوذ بها ويطلب حمايتها [3].

واذا كان الصليبيون قبل قيامهم بحملة حنا دى برين، لم يفتهم أن يتصلوا بملك الحبشة ليتعاون معهم على حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة وهو ما هدد به ملك الحبشة، الوزير الفاطمي بدر الجمالي من قبل[4]، الا أن ظهور فكرة قيام تحالف أوروبي حبشي نشأت سنة ٦١٩ هـ = ١٢٢٢م بعد أن منيت حملة حنادى برين على دمياط بالفشل إذ أرسل جاك دى فترى. أسقف عكا رسالة الى ملك الحبشة، يدعوه الى تكوين تحالف أوروبي حبشي من أجل انقاذ الاماكن المقدسة من يد المسلمين، والقيام بحملة صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب في وقت واحد تشترك فيها الحبشة.

الا أن هذا المشروع المقترح لم يكتب له الخروج الى حيز التنفيذ ولم يقدر له أن يتم، على الرغم من أن ملوك الفرنج حاولوا عدة مرات بحث تنفيذه.

(٣) عبد المجيد عابدين :المرجع السابق، ص ١، ١٧١.
(٤) عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٥
(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق، ص ١٧١.
(١) ساويرس : المصدر السابق.

ورروح القدس ساكنه فيه، وكان يخبر بالغيب، فلما تحدثو معه في امر البطركيه ومن يصلح لها، لان قوم منهم كانو تطاولو لها، فقال لهم ابا يوسف: ارجعو الى منازلكم فقد تعبتم في مجيكم الى هاهنا فان بطركم في مصر. واشار اليه واسماه لهم وقال لهم: هو فلان ابن تريك. فرجعو وفعلو كما قال لهم. وكذلك يقال عن البطرك انبا مقاره الذى كان قبله ان ابا يوسف هذا قال عنه مثل ذلك،

---

على أنه من الجدير بالذكر أن ظهور فكرة تحالف أوروبى صليبى مع الحبشة لم تغب عن ذهن الأيوبيين فى مصر، مما دفعهم الى الحرص على استمرار قيام علاقات طيبة وودية للغاية مع الحبشة، وللحيلولة دون تنفيذ المشروع الصليبى، واقتضت هذه السياسة منهم معاملة المسيحيين من الحجاج الاحباش على وجه الخصوص معاملة طيبة، ومنحهم الامتيازات أثناء تواجدهم فى الاراضى المقدسة بفلسطين، واعفائهم من الرسوم المفروض على الحجاج المسيحيين عن زيارتهم للاماكن المسيحية المقدسة ورعاية دير الاحباش فى بيت المقدس والاهتمام بأمر رهبانه والعطف عليهم [1] الى جانب ما يصلهم من الاموال والهبات من ملوك الحبشة [2]، فضلا عن ذلك فقد حرص سلاطين الأيوبيين على الاهتمام بأمر الرهبان الاحباش فى مصر ورعاية ديرهم ـ الذى وهبه الاقباط لهم بوادى النطرون [3].

## علاقة الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة

يتسم كل من العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى فى مصر بقيام علاقات دالة على

---

(١) عاشور: بعض اضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٢.

ـ ديمترى رزق: المرجع السابق، ص ٢٣.

(٢) عاشور: بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة، ص ٢٤.

(٣) منير شكرى: المرجع السابق، ص ٢٦٩، ٢٨٥، ٢٨٦.

وكذلك الحبيس بابيار انه اخبر بذلك. وذكر من
كان يعاشره من صباه ويخالطه من اترابه انه كان
يعمل موضع من دار ابوه مثل كنيسه، وكان يقرا
فيها كانه يقدس ثم يبارك على اهل دار ابوه،
ويلعب وهو طفل ويقول لهم انا بطركم ويلبس
مزره حرير كانت له مثل القصله. ولما كبر اقسم
شماساً. ولله فى خلقه اسرار لا يعلمها الا هو ومن
يطلعه عليها من قديسيه ومحبى اسمه، وقد قال

---

حسن الجوار والمسالمة بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية اذ حرصت السلطات الحاكمة فى مصر على استمرار العلاقات الطيبة بين البلدين وتوثيقها لاعتبارات سياسية واقتصادية، كما حرص ملوك النوبة المسيحية على تقوية هذه العلاقات وتعميقها حفاظا على العلاقات والروابط القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية، وتدعيما لمركز البطريرك القبطى والأقباط فى مصر[(١)].

على أن علاقات مصر بالنوبة شابها بعض التوتر فى بداية عهد بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، اذ يذكر مؤرخ «سير البيعة المقدسة» أن أحد الوشاة أبلغ بدر الجمالى ـ أثناء مسيره على رأس حملته الى الصعيد سنة ٤٦٩هـ للقضاء على ثورة كنز الدولة محمد فى أسوان ـ أن المدعو بقطر مطران كنيسة النوبة من قبل البطريرك خريستودولوس هدم مسجدا للمسلمين هناك، ولم يحرك ملك النوبة ساكنا بايعاز من البطريرك، فأسرع بدر الجمالى وأرسل من الصعيد كتابا لولده الاوحد فقبض على البطريرك، وزج به فى السجن، وألقى عليه تبعة ذلك العمل، كما أنفذ بدر الجمالى الامير حسام الدولة رسولا الى ملك النوبة ليتحقق من صحة النبأ، وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح أن الأمر لا يعدو أن يكون أكذوبة

---

(١) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ١٠٠، ١٤٢.

الرسول: انه لا ياخذ احد كرامه من ذاته الا ان يعطاها من السما من عند الله، لان الله قال لارميا النبي: قد جعلتك نبيا وانت في بطن امك اصطفيتك للنبوة. وقال لحزقيال النبي: قد جعلتك مثل ناطور لهذا الشعب. وقال لموسى: قد جعلتك الاه فرعون. وقال لداوود النبي: اني امسحه ملكا وارفعه على جميع ملوك الارض. ونظاير هذه الاقوال كثيره في الشريعه.

---

فحكم على صاحبها بالاعدام، وبرئ البطريرك، وأخلى سبيله[1]، وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه في قصر الخليفة في مصر للافراج عن البطريرك[2].

وحرصا من جانب مملكة النوبة على كسب مودة أمير الجيوش، أبدى ملك النوبة استعداده للتعاون مع مصر في الجهود الرامية لاعادة الأمن الى البلاد ، فعندما ثار الزعيم العربي كنز الدولة في أسوان، وأعلن في سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م استقلال امارته التام عن الدولة الفاطمية[3]، وسيطر على اقليم الصعيد وأفسد فيه ونهبة[4] ثم هرب الى بلاد النوبة ومعه أهله بعد آبادة معظم قواته على يد امير الجيوش[5]، بادر بدر الجمالي بارسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف «مرقورة» المعروف «بالوعواع» يحمل رسالة توصية من البطريرك القبطي خريستو دو لوس الى ملك النوبة، يطلبان منه باسم الخليفة الفاطمي تسليم كنز الدولة محمد

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ورقة ٨٧.
ـ ساويرس: المصدر السابق.
ـ القوصي: بنو الكنز، ص ٥٥، ٥٦، ٥٨.
(٢) مصطفى سعد: المرجع السابق، ص ٩٩.
(٣) القوصي : بنو الكنز، ص ٥٦.
(٤) ساويرس: المصدر السابق.
(٥) القوصي : المرجع السابق، ص ٥٦.

ولما عاد هذا البطرك الى الجيزه بعد مجيه من اسكندريه طلع الى دير القديس ابو مقار ليكرزوه هناك على جارى العاده لمن تقدمه من البطاركه، جرى الحديث فى معنى الاعتراف[و] القول على القربان قبل تناوله وهو: اومن واعترف ان هذا جسد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى اخذه من والدة الاله مرتمريم العذرى وصار واحد مع لاهوته. فانكر قوم من الرهبان بالدير المذكور قول هذه

---

الى السلطات المصرية، وكان أن استجاب ملك النوبة ـ لاعتبارات سياسية ودينية ـ لمطلب الحكومة المصرية، وسلمها كنز الدولة [١] فى سنة ٤٧٤هـ تقريبا [٢] حيث أعدم بالقاهرة[٣] بل أننا نجد اثنين من أخوة كنز الدولة يلتمسا من ملك النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفح عنهما، والعفو عن بنى الكنز، وتقديرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى، قبل أمير الجيوش وساطته وعفا عن بنى الكنز، ورضى بعودة نفوذهم على منطقة امارتهم عند اسوان[٤]، وزاد أمير الجيوش فى اكرام الأب الانبا خر ستودلوس البطرك ومراعاته[٥]، وكان أن تدعمت علاقات مصر والنوبة فى جميع المجالات [٦].

وحرص بدر الجمالى على استمرار سياسة حسن الجوار والمسالمة مع مملكة النوبة وتدعيم علاقة مصر بالنوبيين فعندما علم أن والى قوص قبض على ملك النوبة سلمون سنة ٤٧٢هـ

---

(١) الانبا ميخائيل: المصدر السابق، ص ٨٧، ٨٨.
(٢) القوصى: المرجع السابق، ص ٥٨.
(٣) ساويرس: المصدر السابق.
(٤) القوصى: بنو الكنز، ص٥٩.
(٥) ساويرس: المصدر السابق.
(٦) ـــــ: نفس المصدر.

اللفظه الذى هي: «وصـــار واحـــد مع لاهوته»، لكونها مضافه. وذكرو انهم لم تجرى عادتهم يقولوها، فاعتذر بانه قالها في يوم تقدمته كما لقنوه الاساقفه الذين قدموه ولا يسوغ له تركها ولا النزول عنها لكونها لفظه صحيحه. وجرى فى ذلك خطوب ومفاوضات استقر[فى] اخرها اضافة الكلمات الاخر التى تقرر الحاقها بها وهي: «وصار واحد مع لاهوته بغير امتزاج ولا اختلاط»،

---

أثناء زيارته لبعض كنائس أسوان هرع بدر الجمالي وأمر بارسال ملك النوبة الى القاهرة معززا مكرما[1] حيث تلقاه كل من فيها من الامراء والمقدمين بالطبول والبنود والبوقات، ولما دخل القاهرة استقبله أمير الجيوش وأنزله في دار حسنة، وحمل اليه الكسوة والفرش والآنية[2]، وبالغ في اكرامه واتحفه بالهدايا الجليلة[3]، وكان يزوره في كل وقت ويتحدث اليه[4]، أقام ملك النوبة مقدار سنة في ضيافة بدر الجمالة [5] الى أن ادركته الوفاة في مصر قبل أن يعود الى بلاده[6]، فدفن بالقاهرة في دير القديس مار جرجس بالخندق[7].

وفي جو العلاقات الودية بين البلدين، كثيرا ما كان يلجأ ملوك النوبة الى السلطات

(١) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ١، ص ٣٥.
(٢) ساويرس: المصدر السابق.
- أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.
(٣) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٤) أبو صالح الارمني: المصدر السابق،، ص ١٢٤.
(٥) أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.
- بتشر: المرجع السابق، حـ٣، ص ٦٧.
(٦) ابن ميسر: المصدر السابق، حـ٢، ص ٣٥.
(٧) ساويرس: المصدر السابق.
- أبو صالح الارمني: المصدر السابق، ص ١٢٤.

فوافقهم على ذلك وقاله واستعملها الى الان. واتفق اكثر الناس على القول بها الا قوم من اهل الصعيد فانهم استمرو على عادتهم المعروفه فلم يعارضهم في ذلك ولا جبرهم عليه.

وفي بدايه قسمته توفي انبا يونس اسقف مصر في ربيع الاخر سنه ثمان وعشرين وخمس مايه الهلالية، وصلى عليه مع جماعه من الكهنه ودفنه في [بركة] الحبش ولم يقسم احد بعده على مصر

---

المصرية يلتمسون وساطتها في ما ينشب من خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية في المسائل الدينية. مثال ذلك ما حدث عندما أرسل ملك النوبة باسيل سنة ١٠٨٩م وفدا فيه ابنه الى بدر الجمالي، يلتمس فيه و ساطته ومساعدته لتعين كنيسة الاسكندرية هذا الابن رئيسا دينيا للنوبة(١).

ولكن العلاقات مع النوبة ساءت في عهد الأفضل بن بدر الجمالي، وينفرد المقريزى بالقاء الضوء على مظاهر التوتر والقطيعة بين البلدين في حوادث سنة ٥٠١هـ دون أن يذكر السبب الذى أدى الى هذه القطيعة فقد حملت الاخبار الى القاهرة سنة ٥٠١هـ أن ملك النوبة قد حشد قواته على حدود مصر الجنوبية، «وتجهز برا وبحرا وعول على مهاجمة الصعيد، فسير الأفضل عسكرا الى قوص وأمر والى قوص بأن يسير بنفسه الى أطراف النوبة، للتصدى للقوات الغازية، غير أن الأخبار وردت القاهرة، بمقتل ملك النوبة بيد أخيه واضطرام الفتنة بين أبناء الاسرة الحاكمة حتى باد أهل بيت المملكة، وأجلس صبى في الملك بادرت أمه فأرسلت تستنجد بعفو الأفضل ، وتسأله الايسير اليهم من يغزوهم، فكتب الأفضل لوالي قوص «بأن يسير عسكرا الى أطراف بلاد النوبة ويبعث اليه رسولا يجدد عليهم القطيعة الجارى بها العادة

(١) ساويرس: المصدر السابق.
ـ البراوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦.
ـ المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٦.

مده بطركيته، ومنع دفن الموتى فى الكنايس. ولما اتصل به تعدى قوم ومخالفتهم امره فى ذلك وانهم دفنو بسوس القمص فى كنيسه حاره الروم بالقاهره فانفذ اغلق الكنيسه، واقامت مده مغلوقه ثم امر بفتحها بعد زمان بسوال [بتوسل] الاراخنه، وحمل جسد الاب انبا مقاره البطرك الذى كان قبله، وكان مدفون فى كنيسه المعلقه بمصر بعد ان جدد عليه الصلاة ولفه فى عفاره حرير، وحمله

---

(يعنى البقط) وهى كل سنة ثلثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم فى السنين المتقدمة، ويستطرد المقريزى قائلا: «فلما دخلت العساكر دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواضعات، وسألوا فى الاعفاء عما يخص السنين الماضية، وحملوا ما يتسر لهم، وعادت العساكر كاسبة[1] وان كان الملاحظ أن البيت الحاكم فى النوبة قد أصيب بالضعف، ولم تعد للنوبة ـ لفترة ليست بالقصيرة ـ القدرة على مناوأة الفاطميين أو الخروج على طاعتهم ـ ومن ثم عادت العلاقات الى الصفاء، ولم نعد نسمع أى احتكاك بين البلدين [2]، حتى نهاية الدولة الفاطمية وربما صارت أكثر عمقا عندما سيطر الأرمن والنصارى على مقاليد الأمور فى مصر أثناء وزارة بهرام الارمنى النصرانى. لدرجة أن الوزير بهرام عندما فر أمام رضون بن ولخشى سنة ٥٣١هـ الى الصعيد، حاول ومعه قواته ان يسيروا الى أسوان «فيملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم»[3]، ولكنهم لم يجدوا أية مساعدة من النوبيين[4] حتى لا تغضب السلطة الحاكمة فى مصر «بل حرص ملوك النوبة على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فكان ملك النوبة يرسل البقط والهدايا حتى لا يذهب جيش مصر الى النوبة ليؤذى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ٤١.
(٢) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، حـ٣، ص ١٦٠.
(٤) المناوى: المرجع السابق، ص ٢٣٧.

الى دير القديس ابو مقار في ثاني سنه من تقدمته، وجعله في غشا ادم من فوق وكفنه، وامر ان يوخذ الغشا الادم بعد وصوله الدير ودفنه مع اجساد البطاركه، [و] يجعل فيه [أى الادم] جسد القديس ابو مقار الكبير، ويوخذ ما عليه يكفن به البطرك وفي أيام هذا البطرك بعد قتل احمد ابن الافضل الذى كان يسمى «كتيفات»، جلس الامام الحافظ في الخلافه، وكان وزيره يانس[الارمنى]. ولما ملك

---

أهلها، وتتوتر العلاقات[1] وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية وتدعيما لمركز البطريرك القبطي والاقباط في مصر، الى جانب حرص السلطات الفاطمية في مصر على استخدام نفوذ البطريرك ومكانته لدى ملك النوبة لتنظر بعين العطف والرعاية الى رعاياه من المسلمين [2].

على أنه في أعقاب زوال الدولة الفاطمية وفي بداية فترة انتقال السلطة الى صلاح الدين، وما صاحب ذلك من عدم الاستقرار في مصر، واهمال ثغر أسوان، سار ملك النوبة في ذى الحجة سنة ٥٦٧هـ الى القرى المتاخمة لثغر أسوان، على رأس عشرة آلاف من جنده، ونزل بعض النواحي وأسر من كان فيها من المسلمين [3]. ثم حاصر أسوان ونهب قراها سنة ٥٦٨هـ، ومع أن كنز الدولة في أسوان تصدى للغزو النوبي الا أنه استنجد بصلاح الدين الذى بادر بارسال الامير الشجاع البعلبكي على رأس قوة لمؤازرة كنز الدولة، مما اضطر النوبيين الى العودة الى بلادهم، غير أن الشجاع البعلبكي تسانده قوات كنز الدولة،

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقطها في مصر، ص ٢٣٧.

(٢) مصطفى مسعد: المرجع السابق، ص ٩٩، ١٠٠.

(٣) المقريزي: الخطط، حـ١، ص ١٩٨.

ــــــ: السلوك، حـ١، ق١، ص ٤٨.

قتل صبيان الخاص الذى كانو اجناد الامام الامر [الآمر باحكام الله] لما قامت نفسه منهم لاجل انهم كانو قتلو من تقدمه. ولم يقيم فى الملك سوى سنه واحده وسموه فى ما[ء] عملوه له فى ابريق المرحاض، فلما استعمله تهرى تحته ووقع جوفه فمات.

فقام من اولاده رجل يسمى الامير حسن(*) وادعى الخلافه وبايعه قوم اسماهم صبيان الزرد،

(*) لما مات الوزير يانس الارمنى تولى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه و لم يستوزر أحد فلما كان فى=

---

طارد النوبيين داخل اراضيهم، واشتبك معهم فى معركة وقتل كثيرا منهم وعاد الى القاهرة[1].

على أن صلاح الدين عاد فأرسل أخاه توران شاه فى جمادى الاولى سنة ٥٦٨هـ لغزو النوبة[2] ليس فقط بهدف القضاء على النصارى الأرمن الفارين الى النوبة [3]، ولكن ليتخذ من النوبة أيضا موئلا له ولأسرته اذا ما قرر نور الدين المسير الى مصر وطرد بنى ايوب[4]، وما لبث توران شاه ان توغل بقواته فى النوبة حتى وصل بلدة أبريم، على مقربة من وادى حلفا، فا ستولى على قلعتها، وأسر عددا كبيرا من النوبيين، وخرب كنيسة العذراء مريم التى هناك، وأمر بحرق الصليب الكبير الذى على قبة الكنيسة ثم حولها الى مسجد للمسلمين، وقبض على أسقف الكنيسة واعتقله فى قلعة مهجورة، وأساء معاملة من بها من رجال الدين كما ذبح سبعمائة خنزير، ونهب ابريم [5] ثم عاد

(١) العينى: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق، حـ١ ، ص ٢٢٩.
(٣) القلقشندى: المصدر السابق، حـ٦، ص ٥١٠.
(٤) ـــــ: المصدر نفسه ، حـ٥، ص ٢٧٦.
(٥) أبو صالح الارمنى: المصدر السابق، ص ١٢١، ١٢٢.

وكانو من خلط الاجناد ومن جميع الطوايف، فقوى بهم وساعدوه فانعم عليهم وقدمهم واقطعهم البلاد وولاهم الولايات وجعلهم امرا دولته واجناده فقوى امره، وقبض على جماعه كبيره من امرا دوله ابوه وكان يحضرهم بين يديه بالليل ويضرب رقابهم ويدفع دورهم واموالهم لصبيان الزرد، واهلك عالم وخلق بالسيف من جميع الناس الامرا وغيرهم، وكان فى كل يوم

= سنة ٥٢٨هـ = ١١٣٣م عهد إلى ولده سليمان ـ وكان أسن اولاده وأحبهم إليه ـ و أقامه مقام الوزير، فمات بعد شهرين من ولاية العهد، فجعل مكانه حيدره فى ولاية العهد، فشق ذلك على أخيه الأمير حسن، وكان كثير المال وله عدة بلاد وحاشية وديوان مفرد، فسعى إلى نقض ذلك وأوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، وكانت الريحانيه قوية الشوكة فاشتعلت

---

الى أسوان بعد أن أقطع ابريم لرجل كان فى صحبته يعرف بالأمير ابراهيم الكردى[1].

وظل ابراهيم الكردى هذا ورجاله يواصلون شن الغارات على بلاد النوبة «حتى برحوا بهم واكتسبوا أموالا عظيمة وكثرت مواشيهم»[2]، الى أن مات ابراهيم الكردى غرقا سنة ٥٧٠هـ، أثناء احدى غاراته على النوبة، فرجع من بقى من رجاله الى ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها، ومن ثم عاد النوبيون اليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولا الى توران شاه ومعه الهدايا وكتابا فيه طلب الصلح، لكن توران شاه أعاد الرسول ومعه رسالة شديدة اللهجة الى ملك النوبة، كما أوفد معه رسولا من قبله يعرف بمسعود الحلبى، «وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها»[3]، وعاد مسعود بعد أن تجول فى دنقلة حيث سرير الملك، والكنائس الكثيرة[4]، وتعرف على أحوال النوبة وبخاصة احوالها الاقتصادية فوجدها «بلاد

(١) أبو شامة: الروضتين، حـ١، ص ٢٠٨.
(٢) العينى: المصدر السابق، حـ١، ورقة ٥٠٦.
(٣) أبو شامة: الروضتين، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العينى: المصدر السابق، حـ٢١، و رقة ٥٠٦.
(٤) أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، ص ١٢١.

نيران الحرب بين الفريقين فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف نفس وانهزمت الريحانية، واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر وجند طائفة من العامة ووزع عليهم الزرد، وسماهم صبيان الزرد وجعلهم خاصته، وشرع في تتبع الأكابر فقبض على ابن العساف وقتله، وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدره وحاربهما فقبل الحافظ أن يعينه وليا للعهد ولكن حسن استمر في استبداده. وقتل قاضي القضاه

تصبح جماعه مقتولين بين القصرين اجساد بلا رووس حتى لا يعرفو. ولما تمكن وقوى خلع الحافظ ابوه من الخلافه وقبض عليه وقيده وسجنه.

وجرى في ايامه بين العبيد السودان وبين الاجناد حرب عظيم في موضع يسمى كوم الدرب قبلي مصر في بلاد اطفيح، وقتل من السودان خلق كثير، وقبض الامير حسن على الاب البطرك انبا غبريال وصادره وسجنه في خزانه البنود الى ان

---

ضيقة ليس لهم الا الذرة وعندهم نخل صغار»[1] الا أن ملك النوبة أمر بمسعود الحلبي فكويت على يده هيئة صليب قبل أن يسمح له بمغادرة النوبة[2].

والى هناك التزمت جميع المصادر الاسلامية والنصرانية الصمت التام فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والنوبة.

على أننا نرى أن ثمة علاقة ما بين ما حدث من غزو متبادل لاراضي البلدين سنة ٥٦٨هـ، وأسر لمواطنين مسلمين ومسيحيين من كلا الجانبين، وتخريب لكنيسة السيدة العذراء بابريم وتحويلها الى مسجد واعتقال أسقفها على يد توران شاه، وبين تلك السياسة المتشددة التي انتهجها صلاح الدين نحو أهل الذمة وبخاصة النصارى في بداية مملكته فضلا عما فرضه من قيود صارمة على الكنائس ودور العبادة المسيحية بوجه خاص.

هذا ولم نعد نسمع عن أى احتكاكات بين النوبة ومصر طوال العصر الأيوبي، بما يفسر على أنه عودة الى العلاقات الطبيعية الطيبة بين البلدين، وأنه لم يحدث ما يعكر صفوها.

---

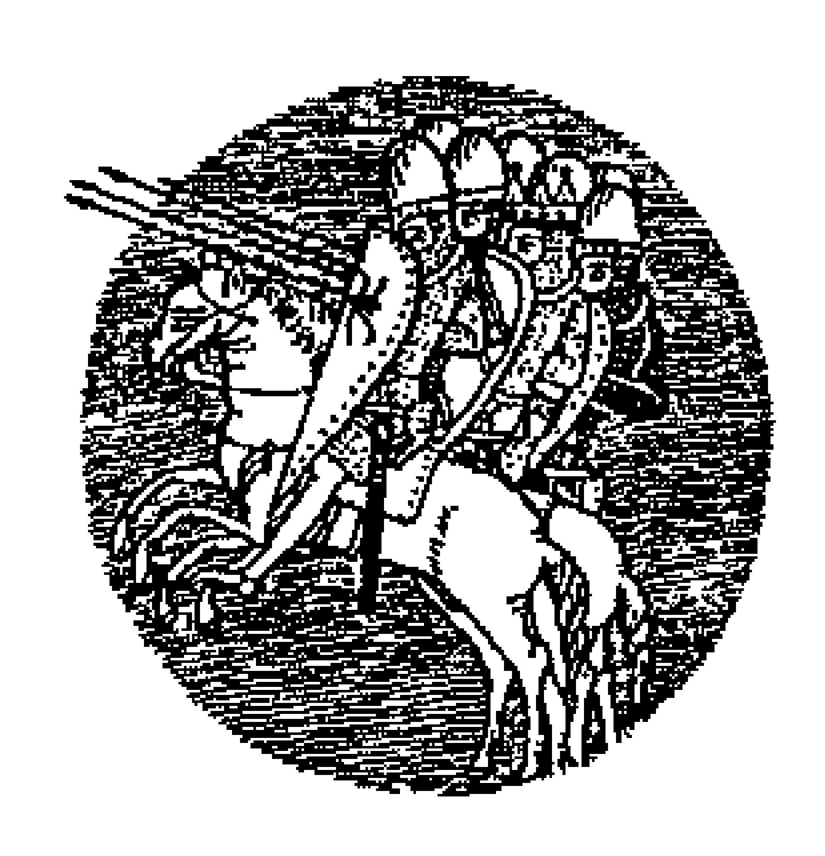
(١) المقريزي: السلوك، حـ١، ق١، ص ٥١.
(٢) أبو شامة : المصدر السابق، حـ١، ص ٢٠٩.
ـ العيني: المصدر السابق، حـ٢١، ورقة ٥٠٦.
ـ المقريزي: السلوك ، حـ١، ق١ ص ٥١.

قسطو له الكتاب من جواريهم [عوائدهم] وساعدوه التجار من اموالهم حتى حمل له الف دينار وخلصه الله من يديه. ولما اطلع الله على ظلمه وشره وقتله للنفوس وغصبه اموال الناس بغير حق اثار عليه جماعه من اجناد دولته فمضو الى الغربيه الى واليها، وكان رجل نصرانى ارمنى يسمى بهرام وينعت تاج الدولة، وكان مقدم الارمن لكونه ارمنى من جنس ملوكها، ثم وصل الى ديار مصر

أبا الثريا نجم لأنه كان من خواص ابيه ورد القضاء لأبن ميسر. وقتل غيرهم من اكابر الدولة، فضج منه الجند واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف وسيروا إلى الحافظ طالبين منه عزل ابنه حسن من ولاية العهد، فخاف حسن سطوتهم وعجز عن مقاومتهم فهرب إلى قصر ابيه الذى نجح فى اعتقاله وبعث إلى قواد الجند يخبرهم بذلك فأجمعوا على قتله فرفض الحافظ فأصروا على

---

## نشوب الحروب الصليبية



استمرت الحروب الصليبية فى الشرق مائتى سنة تقريبا،من اواخر القرن الحادى عشر الى الثلث الاخير من القرن الثالث عشر. وقد كانت بصورة رئيسية حروب الفرسان . اسميت بهذا الاسم لان الذين اشتركوا فيها كانوا، حين يتجهزون لمحاربة المسلمين، يخيطون على ألبستهم ـ الصدر أو على الكتف ـ علامة الصليب من قماش احمر، رمزا للدوافع والاهداف والنوايا الدينية، وقوامها تحرير فلسطين، اى الارض المقدسة فى تصورات المسيحين، من سلطة الكفار،

ذلك واشتد طلبهم إياه حتى أحضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وبالغوا فى التجرى على الخليفة، فلم يجد بدأ من اجابتهم إلى قتله، فطلب طبيبه وهما:
أبو منصور اليهودى، وابن قرقة النصرانى، وبدأ بأبى منصور وفاوضه فى عمل سقية قاتله، فامتنع من ذلك، وحلف بالتواره أنه لا يعرف عمل شئ من ذلك، فتركه، وأحضر ابن قرفه وكلمه فى هذا، فقال: «الساعة، ولايتقطع منها جسده، بل تفيض النفس لاغير». فأحضر السقية

مع امير الجيوش بدر الجمالى عند مجيه من عكا فى ايام المستنصر بالله، واستمر فى خدمه الدوله فقدموه وولوه الولايات وهو باق على دينه، وكان عندهم جليلا موقرا لهم فيه راى جميل ومحبه فولوه الغربيه. فمضو اليه الاجناد واستصرخو به ورغبو فيه وسالوه ان يكون وزير وسلطان عليهم، فدخل معهم الى القاهره فاخذوه وملكوه بغير اختياره، فهرب الامير حسن واختفا وعاد ابوه الى

---

لان يسوع المسيح، مؤسس الدين المسيحى، كما تقول الاناجيل، قد ولد هناك، وعاش وصلب وسمر على الصليب.

ولكن المعاصرين كانوا يجهلون تماما مفهوم «الحرب الصليبية». ففى القرون الوسطى كان يشار الى الى هذه الحرب بمصطلحات اخرى ـ peregrinatio (الترحل، التطوف، التجوب) expeditio (الحملة) iter in Trram sanctam (الطريق الى الارض المقدسة)، «التجوب ما وراء البحار» «السير على درب الرب». اما مصطلح «الحرب الصليبية» («الحملة الصليبية»)، فقد ظهر على تخوم الازمنة الحديثة. ففى فرنسا، حسبما يبدو، كان المؤرخ فى بلاط لويس الرابع عشر، لويس ممبور، اول من استعمله، مسميا مباشرة بحثه فى هذا الموضوع «تاريخ الحروب الصليبية» (سنة ١٦٧٥)؛ وفى المانيا، كما يفترض، يعود تعبير «الحروب الصليبية» الى المفكر الشهير ليسينج.

ولكن هل من الصحيح الظن ان الحروب الصليبية لم تكن تنطوى دائما وبالنسبة للجميع إلا على الاهداف المعلنة فيها وعنها؟ واذا لم يكن من الصحيح، فما هى اذاً الاسباب الحقيقة لذلك النزاع الذى لاسابق له ـ من حيث الابعاد والمدة ـ بين الغرب والشرق فى القرون الوسطى؟ وعم نجمت تطلعات اقطاعيى اوروبا الغربية فى اواخر القرن الحادى عشر

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٨٠

مــا كــان عليــه واســتــوزر هذا الامــيــر وهو نصــرانيا. وجلس الحافظ يوم عودته الى خلافتـه في شـهـور من سنه تسع وعشـرين وخـمس مـايه الهلالية، وكان اخو تاج الدوله بهرام الوزير رجل قديس لا يرغب في الدنيا فقسموه بطركا للارمن في بلاده، ثم وصل الى مـصـر وهو بطركـا لهم وكـان مشـهـور بالدين والعـفاف والقدس والكرم والصدقه والرحمه وسموه انبا اغريغوريس، فلما

من يومه، فبعثها إلى ابنه حسن مع عدة من الصقالبة، ومازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ومات في العشرين من جمادى الأخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة = ٩ إبريل ١١٣٥م، فبعث الحافظ إلى قواد الجند يخبرهم بذلك، فأصروا على أن يشاهده واحد منهم، وندبوا منهم أميراً معروفاً بالجراءة والشر يقال له «المعظم جلال الدين محمد ـ ويعرف بجلب راغب الأمرى ـ» فدخل إلى القصر وصار جنب حسن فكشف عن وجهه، وأخرج من وسطة خنجر صار

---

ومطامحهم العدوانية؟ واى دور لعبه في الوضع آنذاك الدين المسيحى الذى كان يسيطر على العقول والارواح في اوروبا الغربية، ولعبته الكنيسة الكاثوليكية التى كانت مركزا عالميا للنظام الاقطاعي؟ كيف تكونت العلاقات المتبادلة بين الغرب الكاثوليكى من جهة، والشرق الارثوذكسي والمسلم من جهة اخرى؟ ان دراسة هذه المسائل تتيح لنا ان نفهم المقدمات التاريخية والمنابع العميقة«للحروب المقدسة» التي خاضها الفرسان الاوروبيون في الشرق.

## ازمان الفتن

في القرن الحادى عشر، توطد نظام الاقطاعية والقنانة نهائيا في بلدان اوروبا الغربية. وفى الوقت ذاته اخذت المدن تظهر وتنامى، ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وتترسخ تدريجيا، لابين المدينة واقرب القرى الريفية اليها وحسب، بل ايضا على نطاق اوسع، اى بين تجار اوروبا الغربية (ولاسيما منهم الفرنسيون الجنوبيون والايطاليون) وتجار بلدان البحر المتوسط ومنها بيزنطية ومصر وسوريا ولبنان. ثم ان الاقتصاد الطبيعي، اخذ يتراجع شيئا فشيئا. وطفقت النقود تقتحم حياة المجتمع الاقطاعي ـ حياة الفلاحين الاقنان، وحياة الفرسان العائشين من ثمار عمل هؤلاء الفلاحين ـ بقدر اكبر فاكبر من التسلط والتحكم. ونظرا لذلك، تغير مستوى

تنيح اقامو اخر عوضا منه بطركا في ديار مصر واسموه نانياس.

ثم لما تمكن الحافظ من خلافته دس بعض الامرا والاجناد ان يطلبو ولده الامير حسن ويقتلوه، وقرر ذلك مع كبار العسكر ومقدمين الدوله واوعدهم عليه بالانعام والاقطاعات، فاجتمع جميع الامرا والاجناد الى القصر ورمو فيه النشاب واحضرو حطب كثير، وقالو جميعهم صيحه

يغرزه في عدة مواضع من جسده إلى أن تيقن من موته. وعندما سكنت الأمور قتل الحافظ ابن قرفة الطبيب النصراني وأنعم بجميع ما كان له على أبي منصور اليهودي، وجعله رئيس الأطباء. انظر: اتعاظ الحنفا، للمقريزي. ص ٣١٨. تحقيق د. جمال الدين الشيال، ١٩٤٨. القاهرة.

---

حاجات الطبقتين الطبيعية وتغيرت بنيتها. فمن قبل كان الاقطاعيون يكتفون بالجزية العينية والسخرة من الاقنان. ومع ظهور المدن، وتطور التجارة، تعاظمت شهوات الاسياد الاقطاعيين ومطامعهم، فصاروا اشد تطلبا، وطفقوا يزيدون سنة بعد سنة من ابتزاز الاموال، وادخلوا هنا وهناك فريضة المدفوعات النقدية عوضا عن المدفوعات العينية، الامر الذى كان مرهقا اقصى بالنسبة للفلاحين. وعند جباية العوائد كان الاقطاعيون يتحكمون ويستبدون بملء هواهم. ومن جراء ذلك، كاد الفلاحون، فوق ما هم عليه من فقر، يتجاوزون باغلبيتهم حد البؤس المدقع، وينزلقون الى مهاوية.

وكانت الحروب الداخلية المتواصلة التي نشبت في كل مكان في القرنين العاشر والحادى عشر في الغرب عاملا لايستهان به من عوامل املاق الريف. وفي ذلك الزمن، كانت بلدان اوروبا تعاني من سوء المواسم الزراعية، ومن شتى ضروب الكوارث الطبيعية. كما كانت المجاعة تسود في كل المناطق. وبلغت الامور حتى اكل لحم البشر. فان الراهب المؤرخ رادولف جلابر، مثلا، يذكر حالات كانوا يأكلون فيها اجسام الموتى. وامسى الجوع يحل اكثر فاكثر في الريف في اواخر القرن الحادى عشر، اى في ذلك الزمن العصيب الذى سماه المؤرخون «بالسنوات العجاف». وفي هذه السنوات التي سبقت الحروب الصليبية مباشرة. ومن سنة الى سنة،



الصليبيون يهاجمون ليلاً أحد حصون الشام

واحده: نريد الامير حسن تسلموه لنا والا احرقنا القصر وكلمن فيه. فطلبه ابوه الحافظ من اهل القصر وقال لهم: ان تاخر ساعه لا يظهر حرقونا واحرقو جميع قصورنا وهم اجنادنا واعواننا على من يناوينا وقد قامو علينا فاين لنا غيرهم يعيننا عليهم. فطلبوه سكان القصر من بعضهم بعضا الى ان ظفرو به واحضروه بين يدى والده الحافظ فلما راه بكا وقال له: يا ولدى قد غلبت عنك

---

اخذت المدونات والحوليات التاريخية تذكر بضن وشح، المعلومات ذاتها تقريبا. وقد نعت الراهب سيجبرت جامبلو سنة ١٠٨٩ بسنة «الطاعون»؛ فان وباء «الطاعون النارى» الذى ينشب عادة فى سنوات قحط الموسم الزراعى قد حمل الموت المؤلم الى العديدين من سكان اللورين، وحول كثيرين آخرين الى مشوهين ومقعدين. وفى السنة ذاتها، وقعت هزات ارضية فى المانيا الشمالية وفى برابان؛ وفاضت الانهر فى بعض الانحاء، الأمر الذى اشارت اليه حوليات دير القديس يعقوب وغيرها من المدونات التاريخية. وتذمر سيجبرت جامبلو من ازدياد جدب التربة فى سنة ١٠٩٠ واعرب عن المخاوف بصدد «الجوع الزاحف تدريجيا». وكتب المؤرخ الالمانى ايكهارد عن مرض رهيب اصاب الناس والمواشى معها فى سنة ١٠٩٢، ونجم الجوع عن نقص المنتجات الغذائية والاعلاف بسبب القحط الناشئ بدوره من برد الربيع. وفى اول ابريل تساقط الثلج. وكان صقيع وجليد سنة ١٠٩٣. كما تميزت انجلترا بالعواصف وسوء الطقس: ففى الربيع كانت الفيضانات، وفى الشتاء جاء الصقيع القارص؛ وقد تجمدت وهلكت جميع المحاصيل. وفى السنة ذاتها كانت الغلة فى المانيا ضئيلة، وجاع الالمان.

وفى معرض الكلام عن الاحداث المشهورة فى سنة ١٠٩٤، اشار المؤرخون الى الوفيات

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٨٤

وعن روحي فعرفني الحيله في سلامتك فان دفعتك
لهم عاقبوك واهانوك ثم بعد ما يفعلوه بك يقتلوك
وكـانى ارى من وجـه صـلاح حـالى وحـالك ان
تمص هذا الخاتم فتموت في سبيل الله بلا عقوبه
منهم. ثم رمى له بخـاتم مـسـمـوم يعـدوه الملوك
عندهم لمثل هذا الامـور الغـالبـه علـيـهم فـيـرون
الموت لهم اخـيـر من الحـيــاة في يد اعــدايهم
وتحكمهم فـيـهم، فـاخـذ الخـاتم فـمـصــه فـمـات

---

بالجملة من جراء الوباء الشامل الذى شمل بلدانا مختلفة. ففي ريجنسبورج، مات في ١٢اسبوعا ٨,٥ آلاف نسمة؛ وفي احدى القرى مات في ٦اسابيع ١٥٠٠شخص، وفي قرية اخرى ٤٠٠شخص . وانتقل الوباء من المانيا الى فرنسا وبورجانيا وايطاليا. ومن جديد تسببت الامطار الغزيرة للموسم الزراعي بضرر فادح. وفي اراضي هولندا استمرت الفيضانات من اكتوبر ١٠٩٤الى ابريل ١٠٩٥. وفي فرنسا الجنوبية ، وجزئيا في المانيا، كان الجوع قدخف، ولكنه انفجر بقوة جديدة في فرنسا الشمالية وفي انجلترا. ويفيد الراهب والمؤرخ النورمندى، اورديريك فيتالي (الذى كتب في القرن الثاني عشر، كتاباً اعتمد فيه عـلى شهادات شهود العيـان، وعلى وثائق كـثيـرة. ان «الجفاف الرهيب حـرق العشب في المروج واباد السنابل والخضروات وتسبب بالتالى بجوع فظيع». وفي سنة ١٠٩٥ ، «كانت نورمنديا وفرنسا مرهقتين بنسبة عظيمة مـن الوفيات افرغت الكثير مـن البيوت، ودفع الجـوع الناس إلى أقصى البلايا.

ويتحدث المؤرخون جميعهم تقريبا عن العوز الشديد الذى ساد في الغرب بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والاوبئة الفتاكة وموت المواشي.

ولكن النير الاقطاعي كان يشتد اكثر فاكثر، ويثير استياء الفلاحين المشروع. واحيانا كان



وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطىء المصرية، ونزولها على
البر قبالة دمياط القديمة، فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الخامسة.
رسم من العصور الوسطى بالمتحف الوطني بباريس.

فاخرجه الى وسط القصر ووضع جسده على دكه
خشب وفتح ابواب القصر وامرهم ان يدخلو
وينظروه فدخلو ورواه ميت فكشفو الغطا عن
وجهه ليلا يكون نايم ونغزوه في جميع جسده
بالسكاكين ونصول النشاب فلما تحققو موته تركوه
وخرجو. وكان اشدهم في الكلام والطلب له
واحد يسمى رضوان ابن ولخشى من امرا الدوله
فانعته الحافظ بفحل الامرا وولاه الغربيه.

---

الزراع الذين عذبهم العوز والجوع يحرقون الضياع ويخربونها وينكلون بالاسياد الاشد مدعاة للكره. ولكن احتجاج الفلاحين الاقنان العفوى كان فى معظم الاحوال يتخذ اشكالا سلبية، واحيانا كان الفلاحون ينزحون قرى بكاملها من الاماكن المألوفة إلى حيث تقودهم الصدف. كان فرار الفلاحين ظاهرة جماهيرية فى القرن الحادى عشر. وعنها تروى الشهادات ومدونات الاخبار، وسير القديسين، وغير ذلك من الآثار الادبية. كان الفلاحون يفتشون فى الفرار عن الخلاص من الابتزاز والبلص بالعنف، ومن غارات العصابات الاقطاعية اللصوصية، ومن الجوع الضارى والاوبئة الفتاكة، وفى الوقت ذاته، كانت تشتد مختلف مظاهر التقشف والزهد الدينى، ويشتد الميل الى دخول الاديرة، والنسك، ولاسيما على امتداد «السنوات العجاف»، حين انتشرت فى بلدان اوروبا «روح النسك والزهد». الحقيقة ان هذه السمة من سمات النفسية الاجتماعية السائدة فى الفئات السفلى من المجتمع مهمة جدا لفهم اسباب الحروب الصليبية؛ فهى تفسر فى كثير من النواحى قابلية الجماهير الواسعة لفكرة المأثرة الدينية.

ان تعاظم الميول الدينية فى الريف قد نجم عن ظروف حياة الفلاحين الاقنان التى لاتطاق. فان الاقنان كان يسحقهم العوز، وتضغط عليهم التبعية الشخصية حيال السيد، وكانوا مهانين

واستمر تاج الدوله بهرام فى الوزاره لاستقبال
جمادى الاول سنه تسع وعشرين وخمس مايه
الهلاليه الى اخر ربيع الاخر سنه احدى وثلثين
وخمس مايه، فكثر كلام المسلمين فيه لاجل
مذهبه وحسدوه لاجل محبه الخلفه له وكونه علا
كلمته عليهم، وكان للنصارى فى ايام دولته نفاد
كلمه وعزه انفس وكل تصرف جليل من الدواوين
الكبار الذى للخليفه والوزرا فى ايديهم، وكان

---

واذلاء بسبب جهلهم. وهذا الجهل كان رجال الدين الكاثوليك يحافظون عليه ويطالبون الفلاحين بالصبر الطويل والاستكانة للاسياد، ويبثون الخوف من نيران جهنم، وبموجب التعاليم المسيحية كانت عذابات جهنم تنتظر فى «العالم الآخر» العصاة والمتمردين على السلطات. كان الفلاح الجاهل والامى الذى اعتاد على العوز والذى لم ير شيئا ابعد من كوخه، يتقبل ويدرك البلايا الاجتماعية والطبيعية من خلال المفاهيم الدينية. قحط الموسم الزراعى، الجوع، «الطاعون النارى» الذى يسوق زوجته واولاده الى القبر ـ كل هذا كان يتصوره بصورة عقاب من السماء نزل عليه من اعلى بسبب خطايا مجهولة. ومن هنا نشأت عفو الخاطر فكره، والاصح القول، شعور غامض بانه لايمكن التخلص ، اغلب الظن، من العذابات اليومية الدائمة الا بطلب الرحمة من الرب الغاضب. ولكن بأى نحو؟ قبل كل شئ، بعمل مأثرة ما، خارجة عن المألوف ، بطولية ـ ولكن بالمعنى الدينى على وجه الدقة، ـ لاجل «التكفير عن الذنوب»، لاجل «غفران الخطايا»، من نوع الاستشهاد باسم الايمان!

وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد، والسعى الى خلع سلاسل القنانة والتفلت من براثن العوز فى دماغ الفلاح المرهق بمشقات العيش انعكاسا فاسدا، مشوها، وتحولا الى رغبة عارمة فى اجتراح مأثرة دينية.

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٨٨

منهم النظار والمشارفين في جميع ارض مصر قبليها وبحريها وثغورها، فلما ضعفت كلمه المسلمين وعزت كلمتهم الجتهم الضروره الى عمل الحيله في قطع هذا المرض من اصله فقصدو الراحه منهم بزوال الوزاره عن تاج الدوله بهرام، فتعصبو منهم جماعه امرا واجناد وخلط الناس ومضو الى الغربيه واستصرخو برضوان ابن ولخشي واليها قالوا له: الخليفة سماك فحل الامرا وما للمسلمين من ينقذهم من اهانة الارمن غيرك، فإن قويو أكثر من

---

وكانت التطورات الاقتصادية، كما سبق ان قلنا، قد مست الطبقة السائدة ايضا. وكانت امكانيات تلبية الحاجات الجديدة على حساب الاقنان محدودة للغاية، فسلك الاقطاعيون سبيل الاستيلاء على الاراضي. وكانوا، بدافع اية ذريعة، مهما كانت تافهة، يشنون الحروب الدامية المتواصلة فيما بينهم. ولاجل شن الحروب بنجاح كان يتعين على الاسياد ان يمولوا عددا عديدا من الاتباع للفرسان (تابع ، منقطع ـ vassal) الملزمين باداء الخدمة العسكرية له. ولقاء الخدمة كان ينبغي المكافأة بعقار. ولكن الاراضي الحرة في الغرب لم يبق لها وجود. ولهذا دخل كثيرون من الاسياد الميالين الى القتال طريقا مسدودا: فمن اين يأخذون الاموال التي لم يبق بمقدور الاقنان ان يؤمنوها، رغم جميع حيل الاسياد على اختلافها؟

ثم ان الوضع ازداد تعقدا لكون عقارات المالكين الصغار والمتوسطين اخذت تصبح اكثر فاكثر غنيمة للأقطاعيين الذين كانوا يستولون على هذه العقارات. وفي الحاصل تشكلت في الغرب شريحة واسعة من الفرسان الذين لايملكون ارضا. وهذا ما أسهم به كذلك نظام وراثة الاقطاعات ـ نظام البكورة(او حق البكورة) ـ ومفاده انه لايجوز تقسيم ممتلكات السيد بعد وفاته على ابنائه، بل يجب ان تعود بكليتها الى الأبن الاكبر (البكر) بينهم. أما الباقون، فلم يكونوا يرثون سوى الاموال المنقولة ـ الخيل، والدروع والخوذ، والاسلحة، والالبسة. وظهر في

هذا تنصر كثير من المسلمين. واستنهضوه فنهض معهم وحشد العربان ومقطعين البلاد ونادى: يا مجاهدين في الكفار. وعلق مصاحف القران على اسنه الرماح قدام العسكر وسار وقد اجتمع له من المسلمين جيش عرموم لا يحصى عدده من كثرته واستعلا بكلمه الاسلام، فلما وصل الى مسجد الخضر(*) وأمر العسكر ان يعدى البحر الى الجانب الاخر، تواصلت اخباره لبهرام بذلك فخفق [حقن] دما[ء] الناس وقال لاصحابه: لابد ان

(*) مسجد الخضر: من القرى القديمة تقع على الضفة الغربية لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) وهي تابعة للمنوفية. كانت تسمى قديماً «أتو» و«أنتوهي» و«أتوهه».

---

عائلات الاقطاعيين عدد لايتهان به من الابناء الاصغر سنا المحرومين من الارض ـ وكانوا احيانا يلقبونهم القابا سخرية ولكنها تتطابق تماما مع وضعهم الحقيقي، وتصبح فيما بعد القابا عائلية. وغدا اقتناء العقارات حلم اخلاف الاعيان هؤلاء. وكان الفرسان يعتبرون،بالطبع، العنف المسلح اسهل وسيلة لاصلاح امورهم . فعمدوا افرادا وعصابات الى التجوب في الاراضي المجاورة والبعيدة، واخذوا يهاجمون القرى، وينتزعون من الفلاحين كل ما تقع عليه ايديهم. بل انهم كانوا لا يترددون عن قطع الطرق وسلب المسافرين. وقد امست بعض القصور اوكارا لصوصية حقيقية ومأوى لعصابات الفرسان. واحيانا كانت هذه العصابات تتجاسر على شن الغزوات على العقارات الكبيرة ايضا. وقد كانت الممتلكات الغنية لدى الكنائس والاديرة الطعم الاكثر اغراء.

ان اعمال العنف التي كان يقترفها الفرسان المنحطون كانت تستكمل خراب الفلاحين ولكنها كانت تتسبب بالضرر لعقارات الكنائس والاديرة التي لم تكن تتوفر لها الحماية المسلحة الكافية. وفي قلب الطبقة السائدة نشب الصراع، الامر الذي بث القلق في اوساط الفئات العليا الحاكمة من المجتمع الاقطاعي في الغرب ، واجبرها على البحث عن مخرج ما من المصاعب الناشئة. الانتفاضات الفلاحية، المجاعات، الاوبئة، فرار الفلاحين بالجملة، ناهيك عن لصوصية الفرسان «المعدمين» وتعسفهم، والنزاعات بين الاقطاعين والتكتلات الاقطاعية...

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٩٠

امـوت فـيطالبنى الله بدم من قـتل منكم ومنهم، وبملكه هذه الديار قد جعلها الله للمسلمين، فما يجـوز ولا يحل لى من الله ان اقـاتل القـوم على مملكتهم وانتزع منهم حقهم، ولو لم يستعين بى الخليفه على ما جرى عليه من ولده ورضى بى بما فعلته من خدمته وطاعته ما ابتدعت شيأ من نفسى، قومو خذو ما قدرتم عليه من اموالكم واولادكم وامضو بنا الى قوص اخذ اخى ـ وكان

---

وقد نشأ في اوروبا وضع مقلق؛ فان الحياة الاجتماعية اخذت تكتسب طابعا اقل فاقل استقرار. وبعد فترة من الوقت، كتب اورديريك فيتالي عن هذه العقود من السنين: «الفتن والهموم الحربية شغلت بال المعمورة كلها تقريبا. وكان الناس ينزلون بعضهم ببعض بلا شفقة افدح المصائب بعمليات القتل والنهب. وبلغ الشر بجميع صوره اقصى الحدود وتسبب لمن قام به ببلايا لاعد لها».

ان مصالح الاقطاعيين الملحة والحيوية قد طرحت امامهم مهمة عاجلة قوامها البحث عن اسلوب لحل القضايا الناشئة يتيح لهم تلبية حاجاتهم المتعاظمة الى الاراضي والايدى العاملة الاجبارية والنقود والثروات من كل نوع، ويخلص كبار الاسياد من مآثم صغار الفرسان، والفرسان من مصير ونصيب المعدمين و«الذين لاارض عندهم»، ويثبت ويوطد في الوقت نفسه دعائم النظام القائم. وهذه المهمة لم يدركها بالطبع شخص ما بمثل هذه الصورة المحللة والمفهومة بدقة ووضوح، بل ظهرت كضرورة عملية، ناجمة في هذا الصدد او ذاك، ولكنها كانت على العموم تصبح اكثر فاكثر الحاحا.

وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الأبعد نظرا في المجتمع الاقطاعي، فأخذت على عاتقها ان تنتشل وتخلص الطبقة السائدة من البلايا الزاحفة عليها.

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م

قد ولى اخوه باساك قوص ـ ثم نمضى الى بلادنا ونترك للقوم مملكتهم فمالنا بقتالهم حاجه. فقالو له الشجعان من الارمن: كيف نفعل ما قلت ونحن الف قوس نقدر نفتح الدنيا الى باب روميه ونحن نلقاهم ونكسرهم بمعونه الله لنا. فلم يوافقهم وسار من وقته الى قوص فى طلب اخوه باساك، فلما وصل اليها وجد الخبر بوزاره رضوان ابن ولخشى قد سبقه وقد قتلو اهل قوص

---

## «كلونى» وعدوان الفرسان

فى تلك الازمات كانت الكنيسة مالكة غنية للحقول والمروج والبساتين، وكانت تستثمر الفلاحين الاقنان الذين يخصونها استثمارا وحشيا. وعدا ذلك ، كان رجال الدين يجبون بانتظام من جميع الزراع ، سواء كانوا من اتباعهم ام من الغرباء، اتاوة عامة اخرى هى ضريبة العشر. وبما ان الكنيسة كانت اكبر مالك عقارى اقطاعى، فقد كانت حصنا روحيا لعموم طبقة الاقطاعيين؛ وفى ذلك كانت تتخلص وظيفتها الاجتماعية وكان رجال الدين يساعدون الاقطاعيين فى السيطرة على الفلاحين والحرفيين، وذلك بالوعظ بالتعاليم المسيحية التى تقول ان النظم الارضية هى من صنع الرب وانه لايصح ولايمكن بالتالى تغييرها، وبمطالبة الكادحين الخضوع التام لاسيادهم، وبوعد الودعاء بالنعيم فى الجنة بعد الموت، وبتهديد المتمردين والعصاة بالعذابات الابدية فى الجحيم. وكانت الكنيسة تدافع دائما وفى كل شئ عن مصالح الاقطاعيين ـ سواء فى ميدان الايديولوجية أو فى ميدان السياسة.

وعندما اخذ الاقنان فى القرنين العاشر والحادى عشر يهبون فى كل مكان ضد الاقطاعيين او يلوذون بالفرار، وعندما اخذت مآثم وموبقات الفرسان «المعدمين» تتسبب بضرر افدح

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٩٢

اخـيــه ودفنوه فى الزبل فى اصطبل دوابه بدار الولايه، فنزل عليها فغلقو ابواب حصنها في وجهه فحاصرهم ثم عفا عنها وفرق العسكر عنه وطلع الى الديارات البيض [الدير الابيض](*) وحـده واقام في احدها. واما رضوان ابن ولخشي فدخل الى القاهرة واخلع الخليفه عليه للوزاره في سنه احدى وثلثين وخمس مايه ونهب كنايس القاهره والخندق، واحـرقـو المسلمين دير الارمن المعـروف

(*) الدير الابيض: يقع غـرب سوهاج والدير اقدم الأديرة وبه عدة كنايس. اهمها كنيسة الأنبا شنوده. وبهذا الدير عدة أماكن بنيت بحجارة عليها زخارف ونقوش فرعونيه قديمة مما يوحى بان الدير بني على معبد فرعوني قديم أو بالقرب منه.

---

فأفدح للرهبان والاكليريكيين، قلقت الكنيسة جديا، وقبل كل شئ على ممتلكاتها بالذات. ولوقايتها من الخطر المزدوج (من جانب الرعاع ومن جانب الفرسان)، عمدت الاديرة حتى في القرن العاشر ـ وكانت اقوى المؤسسات الكنيسة من الناحية الاقتصادية ـ الى اجراء مختلف التحويلات. وكان مغزى هذه التحويلات العام توطيد مواقع الكنيسة، المادية منها والمعنوية، وتحسين تنظيمها، وزيادة قواها،ورفع مكانتها.

ان الحركة الكنسية الاصلاحية في ذلك الزمن قد دخلت التاريخ تحت اسم الحركة الكلونية، اذا ان دير كلوني في بوجونيا كان المبادر اليها. وقد حاول رجال كلوني ان ينشئوا بيئة كنسية مركزية ولذا اسهمو في رفع مكانة السلطة البابوية التي عانت الانحطاط زمنا طويلا. وفي عداد الاصلاحات التي قاموا بها، يبرز منع العمليات الحربية ـ سواء لآجال طويلة («السلام الرباني») أم لآجال قصيرة («الهدنة الربانية»)، مثلا، من مساء السبت حتى صباح الاثنين. ان هذه الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب والتي يقوم بها صغار الفرسان وضد النزاعات المسلحة الاقطاعية، لم يكن له مفعول بين. واذ ذاك طفقت الكنيسة تتلمس سبلا اخرى من شأنها، برأى قادة الكنيسة، ان تصون الفئات العليا من الاقطاعيين من غضب «الذين لا ارض عندهم»و«المعدمين»، وان تحسن في الوقت ذاته الى الاقطاعيين الفقراء، وتروى

بالزهرى وقتلو بطركهم وكلمن وجدوه معه من الرهبان فى الدير. ورضوان ابن ولخشى اول وزير امر ان لا يستخدمو النصارى فى الدواوين الكبار ولا نظار ولا مشارفين، وان يشدو زنانيرهم فى اوساطهم، ولا يركبوا الخيل، وضاعف عليهم وعلى اليهود الجزيه وجعلها ثلث طبقات قوم من الاغنيا اربعه دنانير وسدس وقوما دونهم دينارين وقيراطين فاما بقيه عامتهم فدينار واحد وثلث وربع وعليه

---

عطشهم الى العقارات والثروات. ويقينا ان «البحوث» ذاتها كانت عبارة عن عملية عفوية كان يشترك فيها الاقطاعيون الاعيان والفرسان البسطاء. وفى كل حالة بمفردها كانوا يستهدفون اهدافهم القريبة، المباشرة، دون التفكير اطلاقا فى القضايا الكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعى والسياسى. ومع ذلك، كانت اعمالهم التى تمليه اعتبارات آنية كأنما تشق طريقا يؤدى فى المستقبل الى ايجاد حل القضية التى تهم جميع الاقطاعيين. وهنا عاد دور كبير الى البابوية التى كانت تعزز مواقعها تدريجيا.

ان شعار الاحداث التى اطلق نداء البابا «الى الشرق!» اشارتها فيما بعد كانت معقدة ومتعددة الابعاد. وهنا يشغل مكانا خاصا الحج من بلدان الغرب الى فلسطين ومركزها المقدس، القدس. ان هذا الطقس المسيحى القديم الذى ظهر فى القرن الرابع،والذى قلما كان ملحوظا على العموم فى القرون التالية، قد انتشر بقوة هائلة فى القرن الحادى عشر. فقد اخذ يشترك فى الحج الى القدس عدد اكبر فاكبر من الناس. واخذت عمليات الحج تتكاثر وتكتسب طابعا جماهيريا. ويقول رادولف جلابر الذى تلاقى مع كثيرين من الحجاج وسمع عن غيرهم ان «جموعا لا تحصى كانت تمضى من جميع انحاء الدنيا» الى القدس. واضاف هذا المؤرخ قائلا:«من قبل لم يكن من الممكن ان يصدق احد ان هذا المكان سيجتذب مثل هذا التجمع المدهش من الناس».

ورقا [فضة] درهم. واستخدم في ديوان الجوالى رجل من شهود مصر يعرف بالقاضى المهذب ابن ابى البقا، وكان سبب ذلك ما كان من استخدام الخليفه للشيخ صنيعة الخلافه ابو زكرى ابن يحيى ابن بولس الكاتب النصرانى فى ديوان التحقيق واخلع عليه بالدراعه واجلسه داخل قصره فى قاعه باب الذهب فى موضع افرده له منها، واستخدم معه اثني عشر كاتبا من النصارى الاعيان

---

ان عمليات الحج، او زيارات الاماكن المقدسة، اى اسفار التقى والورع قد انتشر على درجة من السعة بحيث ان هذا قد انعكس على كل قيم المجتمع الاقطاعى الروحية وفى المقام الاول على التصورات عن القداسة، التى كانت لها اهمية كبيرة فى الايديولوجيا الاقطاعية، واصبحت عمليات الحج بمثابة قسم الزامى من الزهد والنسك، والمشى الى القدس سمة لاغنى عنها فى سيرة اى من ابطال الادب المقدس(سيرة القديسين ). كان من يريد ان يخلق ويثبت لنفسه سمعة الطاهر «الفقير بالمسيح» كان يذهب الى القدس للهدف التالى ـ وذلك كان على كل حال الفهم العادى لهذا العمل ـ وهو تكريم المقدسات المسيحية المتواجدة هناك من قديم الزمان، والصلاة فى كنيسة قبر السيد المسيح، والتمتع باجلال ومهابة بمشاهدة جميع الاماكن التى وطأتها ذات يوم قدم المسيح. وقد ترابطت عادة الحج فى مفاهيم العهد بممارسة سلوك النساك المقدسين الى حد انه كان لايندر لسير القديسين ان تنسب السفر الى القدس حتى الى الذين كانوا «يكرمونهم» باذاعة صيتهم كقديسين مع انهم لم يكونوا يوما فى فلسطين . واحيانا كانت سير القديسين تشير بكل بساطة اى نية قديس ما فى الذهاب الى القدس،.وكأن النية كانت بحد ذاتها تصف الاستعداد لمأثرة التقى والورع العليا.

---

في ايام وزاره بهـرام في اواخـر سنه ثلثين وخـمس مايه، وكان معه ايضا كاتبان من المسلمين يعرف احـدهمـا بالقـاضي الخطيـر ابن البـواب، والاخـر بالقاضي المتضي ابن الطرابلسي الذى كان رضوان ابن ولخشي استخدمهما في ديوان المجلس عوضا منه، ثم حرفه بعد ذلك وابعده الى بلاد اسيوط لانها بلده وموطن اسلافه. وبقيا الكاتبان المذكوران مستمرين كل واحد منهم انفرد بديوانه وبقى

---

خلاصة القول ان السفر (الحج) الى الارض المقدسة قد صار اهم علامة على واقع ان الانسان قد. قطع صلته بالعالم الباطل،وغدا رمزاً على العصمة عن الخطيئة و«الطاهرة» اللتين تؤمنان بالتأكد الخلاص السماوى. ان الاسفار الى القطر الذى اجترح فيه فيما مضى يسوع المسيح العجائب، والذى يحفظ الكثير من ذخائر حياته وموته، انما كانت الكنيسة تعتبرها مأثرة كبيرة امام الله. وكان ينسب الى الصلاة في الارض المقدسة مفعول خاص. وكل هذا كان يضفي على القدس جاذبية كبيرة.

كانت اسفار التقى الورع الى هناك عاملا جوهريا من عوامل نشوب الحروب الصليبية. وبفضل الحج، قام في اوروبا الغربية جو مفعم بامزجة الزهد في خيرات الدنيا والندم والتفكير عن الذنوب، جو من الزهد الديني نبع اصلا، كما رأينا، من اضطراب كل الوضع الاجتماعي في الغرب، الذى اسفر ( في المقام الاول بين الفئات الدنيا، وجزئيا بين ممثلي الطبقة السائدة) عن ظهور الاحساس بالاضطراب والاعتلال وعن السعي الى التفلت من المصائب الحياتية، ان على الاقل، في السبل التي يفتحها الدين. وكانت عمليات الحج تسهل كثيرا على البابوية اختيار وتعيين اتجاه عدوان (جهاد) الفرسان، الاتجاه الذى كان من الممكن ان تتلاقى فيه الرغائب المتناقضة لمختلف فئات الاقطاعيين.

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٢٩٦

يطبق الجـوالى على الذمـه الى ان سطرت هذه السيره.

وحـدث فى ايام وزارة رضـوان ابن ولخشى غـلا شـديد الى ان عـدم اكـثـر الناس القـوت، وابا ع رضـوان المذكـور قـمح وغـيـره من الارز الاحـمـر والفـول المسـود والحـبوب المسـوسه والقمـح الذى صـار من قـدمـه وطول مكثـه فى الشـون والمخازن والمطاميـر والاهرا السلطانيـه من ايام امير الجيـوش

---

كانت عمليات الحج من حيث التركيب الاجتماعي للمشتركين فيها حركة مبرقشة جدا. فقد كتب رادولف جلابر يقول: «في البدء مضى الى هناك (الى القدس) الشعب البسيط ثم الناس الميسـورون». وينبي مدون الاخبـار عن حـالات الحج الذى قـام به «الملوك العظام» والكونتات والمركيزات والاحبار. كذلك كانت اهداف الحجاج الفعلية مختلفة، رغم ان الحج كان يبدو لهم انفسهم مشروعا دينيا صرفا. وكانت روح الحج عند المتحدرين من الفئات الدنيا في القرى والمدن تعبيرا، مغلفا بغلاف الدين، عن اماني التحرر. وفي عيون الاسياد، كان، للاعتبارات الدينية كذلك وزن معين، ولكن اكثر ما استحثهم على السفر ما وراء البحار انما هو البواعث الدنيوية، اى الرغبة في اكتساب سلع البذخ في الشرق، ورؤية اماكن جديدة، والتخلص، ولو موقتا من رتابة الحياة القروية مع همومها اليومية ـ الصيدوالولائم الصغيرة، والشؤون الاقتصادية. وليس عبثا يؤكد مدون الاخبار في معرض حديثة عن حاج وجيه من هذا الطراز هو البورجندى ليبولد دى اوتن الذى سافر برفقة عدد كبير من الناس. ان هذا الحاج «قد قام بسفرته الى القدس، بسبب الغرور مثل كثيرين غيره الذين يذهبون لكى يتباهوا بذلك بعد عودتهم».

وبالفعل، كانت اسباب المكانة حافزا مهما بالنسبة لافراد الوسط المذكور. وهذا ما يصح

لضروره عدم القوت شيا كثير بثمن كثير، حتى ان

المصريين اسموه «القمح الدنوكى» [اى المعفن].

وكان سعر الخبز فى تلك الايام رطل مصرى

بدرهم، ثم ادرك الله الخلق وارخص اسعارهم.

وكان قد جرى مثل ذلك فى سنه اربع وتلتين

وخمس مايه هلاليه، لم يبلغ النيل فيها الا دون

اربعه عشر ذراعا، فغليت الاسعار لما شرقت

---

بالقدر نفسه على ذوى المراتب الكنسية العليا ـ الاساقفة ورؤساء الاديرة ـ ام على الاسياد الدنيويين. فان اودالريك، اسقف اورليان، قد اشترى، اثناء وجوده فى القدس، قنديلا نفيسا من بطريرك القدس مقابل رطل من الذهب. وقد كتب رادولف جلابر يقول أن الاسقف «حمله الى اورليان، لاجل تجميل كنيسته حيث عاد على المرضى بكثير من النفع». وهذا يعنى ان الاسقف استخدام الثروة لاجل رفع مكانة كنيسته. والدوق روبير الاول النورمندى الذى انطلق الى الشرق فى سنة ١٠٣٥ اجبر اتباعه الكبار، قبل بداية الحج، على حلف اليمين والاعتراف بابنه غير الشرعى، غليوم ابن الزنى (Guillaume le Batard) (الفاتح فيما بعد) وريثا له. وهكذا كان الحج فى هذه الحالة ذريعة مناسبة لاجل بلوغ هدف سياسى معين. واثناء السفر كان الحجاج من الاعيان يوزعون شتى الجوهرات التى اخذوها معهم لهذه الغاية. وكان الاعيان يعتبرون هذه التوزيعات وسيلة موثوقة لتوطيد نفوذهم فى اوساط الشعب البسيط وكانت الكنيسة تشجع هذه التوزيعات بوصفها فعلا يرضى الله.

وعادة كانت جموع الفرسان تنضم الى كبار الاقتطاعيين. ففى سنة ١٠٦٥ انطلق من المانيا الى الحج زهاء سبعة آلاف شخص (او ١٢ الفا). كان «الذين لا ارض عندهم» و«المعدمون»

---

البلاد فاصاب الناس ضر شديد بسبب تشريق البلاد.

وكان ميخاييل اسقف صهرجت [مركز ميت غمر] قد اهتم بتجديد كنيسه منيه زفتي وكرزها وقدس بها واكملها على اسم القديس مارى جرجس، فوثبو المسلمين بمنيه زفتي عليها وهدوها لبغضهم في النصارى وجعلوها مسجدا، فوقف ميخاييل الاسقف للوزير رضوان ابن ولخشي

---

يفتشون فيما وراء البحار عن الفرص لاصلاح اوضاعهم ، وكان بعض منهم يرغبون في غفران الجرائم التي اقترفوها في بلدهم . وواقع ان الفرسان نهبوا في بلدهم الكنائس والاديرة لم يمنعهم من ان يكونوا اناسا متدينين. فقد تقبلوا العقائد المسيحية على طريقتهم، كما فهموها، وكيفوها للمفاهيم المألوفة على الاقطاعيين. وكانوا يتصورون الرب بصورة المولى الاعلى الذى يكافئ اتباعه الارضيين بسخاء على خدمتهم الامينة، ويغفر الخطايا، ويمنح الغبطة الابدية في الجنة. ان خلاص الروح كان مسألة تهم الفرسان الجهلة بقدر لايقل عما تهم الفلاحين الاقنان. وكان الفرسان على العموم يتقيدون بكل دقة بالطقوس الكنسية، حتى وان «كانت قواعد الاخلاق المسيحية»، كما لاحظ احد المؤرخين بدقة وصواب، «تمارس فيهم تأثيرا ضعيفا جدا».

كل هذا يفسر اشتراك الفرسان في عمليات الحج. وفي هذه العمليات كانت تلتقى التحبيذ التام من جانب رجال كلوني. وكانت اخوية دير كلوني تشجعها في الواقع بجميع الوسائل؛ فقد بنى رجالها على جوانب الطرق الفنادق لاجل الحجاج، وكانوا يجمعون بانفسهم الحجاج، في فصائل،ويساعدون في تجهيز الناس المقيمين في جوار اديرة كلونى وفي ارسالهم الى الحج، وبهذه الطريقة كانوا يستبعدون العناصر التي تشكل خطرا على ممتلكات الكنيسة.

واستصرخ به واوضح له انها بيعه قديمه، فوقع له بخطه بعمارتها واعادتها الى ما كانت عليه من حدودها علوا وسفلا، فاعمرها وكملها وكرزها بعد ان قاسا عليها شده عظيمه وغرامه كثيره.

واستمر رضوان في الوزاره الى ان قامو عليه الاجناد وامرا الدوله فخرج من دار الوزاره بالقاهره هاربا وليس يلبس لرجليه سوى خفاً واحدا ولم

---

وبالنسبة للقتلة، كان الحج غالبا ما يصبح، بفضل خفة يد رجال كلونى، اسلوبا مطبقا عمليا، تقليديا تقريبا، «للتطهير من الخطيئة المميتة».

ان حركة الحج قد هيأت الحروب الصليبية فكريا وعمليا؛ فقد اسهمت فى تعاظم الامزجة والميول الدينية الزهدية، وعرفت الاوروبيين على الطرق الى الشرق، وعلى الوضع فى البلدان الشرقية ، كما وانها هيجت تعطش الاقطاعيين الذى لايرتوى الى امتلاك الاراضى فيما وراء البحار.

وفضلا عن الحج، هيأت الحروب التى تشبت فى القرن الحادى عشر فى الغرب بالذات والتى جرت احيانا هى ايضا تحت رايات دينية التربة من اجل (الجهاد) والتوسع الاقطاعى الواسع الى الشرق. فان الفرسان الفرنسيين، مثلا ، قد انخرطوا فى الصراع من اجل استعادة الاراضى التى سبق ان احتلها العرب فى اسبانيا ـ الريكونكيتو (Reconquisto). ففى سنتى ١٠٦٣و١٠٦٤ انطلق الى ما وراء جبال البرانس فرسان دوقية كيتين ودوقية تولوز، وهزموا العدو فى المعركة بجوار برباسترو. ثم قام الجديد تلو الجديد من الحملات على اسبانيا. وفى اوائل السبعينيات تحركت الى اسبانيا وحدات من الفرسان برئاسة الكونت ايبولى دى روسى. وعندما انتزع ملك كاستيليا الفونس السادس الجرئ مدينة طليطلة من العرب فى سنة

يمهلوه حتى يلبس الاخر، ونزل عند العرب الدرماويين(*) فمضو به الى الشام. فافسد نفر من الغز وانضاف معهم العرب الذين اجازوه وجا الى القاهره ونزل فوق الجبل عند موضع الرصد على جبل المقطم، وخرج اليه عسكر المصريين فقاتلوه فكسرهم ثم صدقوه القتال فانتصرو عليه وغلبوه، فلما راى انه مغلوب عاد الى بلاد الشام دفعه تانيه، فكتب اليه الامام الحافظ وامنه وطيب قلبه

(*) من القبائل العربية البدوية التي كانت تحيط بالقاهرة من جهة الشرق.

---

١٠٨٥، لم يشترك في هذه العملية الفرسان الفرنسيون وحسب، بل اشترك فيها ايضا الفرسان الالمان. وبعد ان سحق العرب المرابطون القوات المسيحية في المعركة بجوار الزلاقة عام ١٠٨٦، تشكلت في فرنسا عام ١٠٨٧ وحدات اقطاعية قوية ترأسها هوج (Hugues) الاول،دوق بورجونيا وريمون دى سانجيل، كونت تولوز، القائد المقبل للفصائل من بروفانس في الحملة الصليبية الاولى. وقد اشترك في اعمال هذه الوحدات سيد آخر مضى بعد بضع سنوات يحارب من اجل القدس هو غليوم شاربانتيه، فيكونت ميلون.

وليست اسبانيا وحدها هي التي اجتذبت الضوارى الاقطاعيين، الصغار منهم والكبار. فمنذ سنة ١٠١٦، اخذ اخلاف الفيكينج السكاندينافيين الذين سبق ان احتلوا نورمنديا (ولذا يسمونهم كذلك بالنورمنديين)في اوائل القرن العاشر يندفعون الى الاستيلاء على المناطق الخصبة في ايطاليا الجنوبية. وبعد صراع ضار ضد العرب وبيزنطية، اسسوا هنا جملة من الامارات الاقطاعية. ومن سنة ١٠٦١ الى سنة ١٠٧٢ استولى النورمنديون على صقلية ايضا. ومن سنة ١٠٦٦، تعرضت انجلترا ايضا لغزو كاسح قامت به فصائلهم القتالية. وفي سنة ١٠٧٣، استقر المغامر النورمندى روسل دى بايل، العامل في خدمة بيزنطية قبل ذاك، في وسط آسيا الصغرى بالذات مع مقاتليه. وهنا نشأت امارة نورمندية، كانت النموذج المسبق

وسير اليه من اصحابه من وثق به وعلى يده مال يتسفر به للحضور هو ومن معه من اصحابه واتباعه، فعاد صحبه من ندب لاحضاره من امرا الدوله، فانزله الامام الحافظ عنده في قصر واخلا له قاعه عظيمه ومحالها ومرافقها وجميع بنيه وبنين عياله وكان فيها مكروما متصرفا في نفسه منطلقا.

فاما بهرام الارمنى الذى كان وزير قبله لما

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

للامارة التى اسسها نورمانيو (*) ايطاليا الجنوبية فى سوريا بعد مرور ٢٥ سنة. الا ان امارة روسل دى بايل (Roussel de Bayle) لم تصمد، والحق يقال، سوى سنة واحدة؛ فان هذا الامير قد وقع، من جراء خيانة احد ابناء قبيلته، في يد القائد العسكرى البيزنطى الكسيوس كومنينوس (الامبراطور فيما بعد)، وزالت الدولة النورمانية في آسيا الصغرى بعد حياة قصيرة، ولكن محاولة تأسيسها واسعة الدلالة بحد ذاتها.

حفل القرن الحادى عشر كله بمغامرات جماعات الفرسان وحملاتهم الجهادية اللصوصية. فحيثما كانت تنشب الحرب، كان دائما يتواجد عدد كبير من الراغبين فى اشهار السيوف املا في غنيمة سهلة المنال. وهذه الحملات العدوانية الاغتصابية استرعت هي ايضا انتباه الكنيسة. فقد استحث رجال كلوني الاسياد والفرسان بجميع الوسائل على الاشتراك فى استعادة اسبانيا(الريكونكيستو). وحبذت البابوية بدورها هذه الحملات. فقد رأى البابوات في الريكونكيستو وسيلة يمكن بها رفع مكانه الكرسى الرسولى، وارسال الفرسان الى طرف اوروبا الغربية ، يدل محبى القتال المزعجين الى ميدان جديد للقتال؛ فبفضل ذلك، كانت عقارات

(*) فيما يلي، اذ نستعرض تاريخ الحملات الصليبية التى اشترك فيها سواء النورمنديون من ايطاليا الجنوبية وصقلية، أم النورمانيون من البلدان السكاندينافية، سنشير الى هؤلاء واولئك بالمفهوم التقليدى «النورمانيين» تحاشيا لضرورة التدقيقات المتكررة فى المصطلحات.

احضره رضوان من الديارات البيض جعله عنده فى داره، فلما جرى على رضوان ما جرى انفذ مولانا الحافظ نقله الى قصره وطلبه ان يعود الى وزارته، فلم يفعل وقال: انا راهب ما انا جندى واستقر مقامه فى القصر الى ان توفى مخدوما واخرج تابوته من باب الساباط الى كنيسه الزهرى ودفنوه فيها.

وكان فى اطفيح اسقف للارمن يسبب [يدفع

---

الاعيان ورجال الدين تتخلص، وان جزئيا، من خطر غزوات الفرسان «المعدمين» اللصوصية!

ولزيادة حدة نيران حمية الفرسان القتالية الدينية الجهادية فى فرنسا، حاولت الكورية الرومانية (البابارية) ان تحيط المشتركين فى الحملات الاسبانية بهالة الاستشهاد من اجل الدين والايمان . ثم ان رجال كلونى الذين افلحوا فى التسرب الى شبه جزيرة أيبيريه وفى بناء اديرة لهم هناك، اعلنوا الحروب ضد المسلمين فى اسبانيا حروبا مقدسة. واعلن البابا الكسندر الثانى، الذى بارك حملة ١٠٦٣ــ١٠٦٤ ، ان الكنيسة تغفر خطايا كل من يذهب الى أسبانيا للقتال والجهاد من اجل قضية الصليب، بل انه ارسل نائبا (قاصدا رسوليا) الى فرسان فرنسا الجنوبية الذين اعتزموا الذهاب الى اسبانيا. ان نشاط الكرسى الرسولى فى الريكونكيستو لم يغب عن نظر المعاصرين: ومن الطريف ان المؤرخ العربى ابن حيان، فى معرض حديثه عن معركة برباسترو، ينعت قائد القوات المسيحية بانه «رئيس فرسان روما». ولاجل حث الفرنسيين على القيام بمثل هذه الحملة، سمح لهم البابا جريجوريوس السابع فى سنة ١٠٧٣ بامتلاك الاراضى التى ينتزعها المسيحيون من «الكفاره»، ولكن، والحق يقال، بشرط واحد هو اعتراف الفرسان الفرنسيين بالسلطة العليا لكاهن روما الاول على الاراضى المنتزعة ، ذلك ان اسبانيا، كما قال جريجوريوس السابع، كانت تخضع، بزعمه، منذ قديم الازمنة للقديس بطرس.

الوشاوى] حتى صار بطركا وعند قسمته طلب حضور انبا غبريال ابن تريك اليه لكى يضع يده عليه، فلم يحضر اليه وقت قسمته الى ان تقرب فى كنيسته وافطر ليلا [لئلا] يلزموه ان يضع يده عليه، وكان انبا غبريال قد منع اخذ شرطونيه على الكهنوت ولا ياخذ شى على قسمه اسقف ولا غيره ولا يستحسن ذلك لغيره، وسلك فيه ما قاله الانجيل المقدس: مجانا اخذتم مجانا اعطو. لان

---

وهذا البابا غفر ايضا مقدما خطايا الذين يقتلون فى المعارك من اجل الدين والايمان.

كانت حروب الفرسان الفرنسيين فى اسبانيا بمثابة حروب صليبية قبل الحروب الصليبية ـ من حيث الشعارات ، ومن حيث الالبسة والرايات، ومن حيث المضمون.

كذلك دعمت البابوية، وان لم يكن فى الحال،مشاريع النورمنديين الاغتصابية العدوانية فى ايطاليا الجنوبية وصقيلة، واستغلتها فى اهدافها السياسية. وان قائد الفاتحين النورمنديين روبر جيسكار (Robert Guiscard) الذى صار دوق أبوليا وكالابريا، قد اعترف فى سنة ١٠٥٩ ببابا روما سيدا له، وتعهد بان يدفع له ضريبة سنوية ويقدم العون العسكرى ويدافع عن حرمة كرسيه، الكرسى الرسولى، ضد تطاولات الاباطرة الالمان. وقد صادقت البابوية على هجوم الدوق فى سنة ١٠٦١ على صقلية التى انتزعها النورمنديين التابعين لغليوم الفاتح الذين استولوا فى سنة ١٠٦٦ على انجلترا . وفى كل هذا، يتبدى بكل جلاء خط سياسى واحد قوامه تنظيم عدوان الفرسان فى اطراف اوروبا الغربية ، وبخاصة فى حوض البحر المتوسط وتشجيعه الى اقصى حد. وفضلا عن ذلك كانت روما لاتبارك فتوحات الفرسان وحسب، بل ان اسطول مدينة بيزا التجارية فى ايطاليا الشمالية الذى شن فى سنة ١٠٦٣ غارة على باليرمو قد اشترك كذلك فى حروب النورمنديين من اجل صقلية. وفيما بعد، انخرط التجار فى المدن الساحلية

نعمه الله وعطيته ورياسة الكهنوت لا تباع بالمال. وكان متشددا فى هذا الحال وكتب مسطورا بذلك ومنع من ياخذه ومن يدفعه. وذكر عنه من كان خبيرا به انه قد اقسم ثلثه وخمسين اسقفا، وكان قد حضر اليه رجل قسيس يسمى بقيره وطلب منه ان يقسمه اسقف على بلاد اخميم وبذل له مال فلم يفعل، فلما رده مضى يسبب [اى يدفع الرشاوى] الى ان استعان بولد الخليفه ابن الامام

---

الاخرى فى ايطاليا فى النضال من اجل اقصاء المسلمين من حوض البحر المتوسط. وقد ساندت البابوية مبادرات سكان المدن هذه كل المساندة. وفى عام ١٠٨٧، عندما اقتحم الاسطول المتحد لمدن بيزا وأمالفى وجنوه ميناء المهدية فى افريقيا الشمالية واحتل المقاتلون الكاثوليكيون المهدية هذه، كرس البابا فكتور الثالث نهبها. ودليلا على عطفه الشديد، ارسل الى القراصنة راية القديس بطرس وغفر لهم خطاياهم. وقد شكر اهالى بيزا الكرسى الوسولى، بالتبرع بالاموال التى استحصلوها من نهب المهدية لاجل بناء كنيسة أخرى فى مدينتهم سموها تكريما للنصر المحرز بكنيسة القديس سيكست (وقد تطابق يوم الاستيلاء على المهدية مع يوم عيد هذا القديس). وقد كان المشروع البحرى فى افريقيا الشمالية وثيق الارتباط بحرب الفرسان الدائرة رحاها آنذاك ضد المرابطين فى اسبانيا (وفيما بعد ايضا، فى سنة ١٠٩٢، ساعد اهالى بيزا ملك كاستيليا الفونس السادس فى محاربة المغاربة فى فالنسيا).

وهكذا كانت الاصلاحات الكنيسة فى القرن الحادى عشر احدى المقدمات المباشرة للحروب الصليبية فى الشرق؛ فقد ضمنت للبابوية مكانة ارسخة لاجدال فيها واجبرت العالم الاقطاعى على الاصغاء بانتباه الى صوت الحبر الاول فى روما.

ولكنه صار من الواضح نحو اواخر القرن الحادى عشر ان الطرائق التى لجأت اليها الكنيسة ولجأ اليها الاقطاعيون الدنيويون لاجل تأمين مصالحهم كانت قليلة الفعالية. فقد منى

الحافظ وكان يسمى ولى العهد، وحمل له مال جزيل له مقدار وساله ان يشفع فيه عند البطرك حتى يقسمه اسقفا، فانفد اليه ولى العهد وتقل عليه بسببه فلم يقبل واعتذر له وكتب رقعه للخليفه اعلمه فيها قصه حال الاسقف وانه طلب الرياسه والكهنوت بالرشوه، وان ذلك لا يجوز فى مذهب النصرانيه. فلما عرضت رقعته على الحافظ شكره وعظم منزلته ووقع له بان لا يعترض فى

---

الفرنسيون فى اسبانيا بالاخفاقات، لان الاقطاعيين المسيحين الاسبان كانوا لايرغبون فى ان يسلموا حلفاءهم حتى أنهم اتفقوا احيانا مع الامراء العرب (*) ـ قد حكمت بالفشل سواء على خطط الاعيان الفرنسين ام على خطط البابارية المتعلقة باسبانيا، ناهيك بان العرب قاوموا هناك بصلابة وثبات. ولكن فى ذلك الزمن بالذات، بدأ يرتسم هدف جديد سيوجه اليه رئيس الكنيسة عما قريب افكار ومقاصد الاقطاعيين الميالين الى القتال.

فى الثلث الاخير من القرن الحادى عشر، اخذت خيوط السياسة الاوروبية تمتد اكثر فاكثر الى بابوية روما . وقد غدت هذه البابوية المركز الذى يستطيع وحده دون غيره ان يوحد قوى الغرب الاقطاعى المتفرقة، ذلك ان السلطة الملكية كانت لاتزال هناك ضعيفة جدا. ومنذ عهد حكم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ـ١٠٨٥)، سعت البابارية لتوطيد الوضع النهائى بصورة رئيسية بفضل نجاحات حركة كلونى، ولذا طفقت تفصح بالحاف عن ادعاءاتها بالزعامة، لافى الكنيسة المسيحية وحسب. بل ايضا على الحكام الزمنيين. فان البابا السابع قد اعلن على المكشوف فى رسالته الشهيرة «امر البابا» انه يحق للكرسى الرسولى ان يتصرف

(*) يستفاد من اقوال المؤرخ الالمانى اردمان ان الفونس السادس لم يكن مناضلا طليعيا من اجل الدين المسيحى؛ فحين دعا الفرسان الفرنسيين الى مساعدته (بعد هزيمته فى جوار الزلاقة) بلغ به الامر ان هدد باعتناق الاسلام اذا ما رفضوا مساعدته.

---

مذهبه ولا يلزمه احد بما لا يجوز في شرعه. ثم بلغه بعد ذلك ان له مال جزيل وخاف ان يمنع القس بقيره من الاسقفيه فيخرج من دينه ويتلف المال فقسمه اسقفا على كرسي اخر غير الذى طلبه وقصد بذلك ربح نفسه ولا يتلف ماله، فحمل بقيره اليه المال فلم يراه بعينه بل امر ان يسلم لوكيل رباع الكنايس، وتقدم له ان يصرفه في عماره جوسق دير الشمع وغيره.

---

بالتيجان ويعين ويعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة؛ كل سلطة، ايا كانت، لن تكون فعلية وحقيقة الا بقدر ما تكز وتدعم من رئيس الكنيسة ، ممثل الإله الاعلى في الارض. وقد رسم جريجوريوس السابع خطة لاخضاع جميع الدول المسيحية للكورية الرومانية التيوقراطي (من الكلمة اليونانية التي تعني «حكم الرب») - وهو برنامج يرمي الى انشاء ملكية اوروبية عامة، او، حسب مصطلحات ذلك الزمن، كلية ، اى عالمية، على رأسها البابا وية، واجبار جميع الملوك المسيحيين على حلف اليمن الأقطاعي للكرسي الرسولي. ولكن هذه السياسة قوبلت بالصد من جانب كثيرين من الملوك،وبخاصة من جانب الاباطرة الالمان، اللذين استمر النضال ضدهم، بنجاح متقطع في صالح روما، في عهد اخلاف جريجوريوس السابع.

ان سعي باباوات روما الى انشاء تيوقراطية كلية في اوروبا دليل ساطع على الاهمية التي اكتسبتها هناك في القرن الحادى عشر الكنيسة (الكاثوليكية الرومانية الغربية) ومركزها القيادى ـ البابا وية. وبما ان الكنيسة كانت اغنى المؤسسات الاقطاعية ، فقد كانت لها مصلحة حيوية في توطيد النظام الاقطاعي. ولهذا اعتزمت البابا وية ان ترص تحت سلطتها العليا قوى الاقطاعيين المتفرقة لكي تعزز بالتالي مواقع الملكية العقارية الاقطاعية حيال الفتن التي تتهددها.

وكانت فكرة القضاء على استقلالية الكنيسة الشرقية الارثوذكسية، التي انفصلت نهائيا

وكان رجلا من اولاد الكتاب المميزين ممن له تقدمه فى قومه ورياسته يسمى ابو اليمن ابن العميد فترك الخدم [فى الدواوين] والتصرف ولزم خدمه كنيسه القديس ابو جرج بدير الطين، فنقلو الناس السو للبطرك انبا غبريال عنه كلاما زسجا [سجس] قصدو به فساد حاله عنده، وان يخرجوه من البيعه المذكوره، او يكونو ابصرو عليه شى منكر فانكروه. فلما اعلمو البطرك بذلك لم يمكنه

---

عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى سنة ١٠٥٤ جزاء لايتجزأ من برنامج البابوية التيوقراطى. ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الضبط، ظهرت الخطوط الاولى من مشروع حملة الجهاد ضد الشرق الاسلامى.

## بيزنطية والغرب والسلجوقيون

كانت بيزنطة، وريثة الامبراطورية الرومانية، قد فقدت من زمان بعيد الكثير من ممتلكاتها السابقة فى الشرق. وغدت مواقع القسطنطينية فى آسيا الصغرى اقل فاقل صلابة. وكان زحف البدو الاتراك ـ السلجوقيين (او السلاجقة نسبة الى القائد سلجوق شبه الاسطورى الذى وحد فى النصف الثانى من القرن العاشر قبائل اوغوز فى آسيا الوسطى) الاشد خطرا على الدولة البيزنطية. وفى عهد السلطان ألب ارسلان (١٠٦٣ـ١٠٧٢) اقتحم السلجوقيون مقاطعة ارمينيا البيزنطية واشتبكوا فى حروب ضد جورجيا، وتغلغلوا اوسع فأوسع فى اقليمى بيزنطية فى آسيا الصغرى ـ قبدوقية وفريجيا.

وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٨ـ١٠٧١) ان يضع حدا لتقدم السلجوقيين. فشنت القوات المسلحة البيزنطية ضدهم حملتين ناجحتين. وامكن عقد هدنة مع ألب ارسلان ولكن رومانوس الرابع دفع فجأة فيما بعد ضد العدو جيشا آخر، من ٣٠٠الف رجل، اى اقوى جيش بين الجيوش التى جهزها قبل ذاك. كانت قواته المختلفة

الصبر عن النظر فيما قالوه والبحث عنه، فصعب ذلك على ابو اليمن ابن العميد وخرج من مذهبه، فعظم امره على الاب البطرك وندم عليه غاية الندم ولم يرجع بعده يتشدد على احد خوفا ان يفعل مثله.

واجـــــرى الله على ايدى هذا البطرك ايات وعجايب واعمال حسنه، وانا اذكر بعضها وهو ما حدث في بلاد الحبشه، وذلك ان ملك الحبشه

---

القوميات تتألف اساسا من المرتزقة وكانت داخليا هشة، ضعيفة، غير موثوقة . وعشية الاشتباك العام، انتقلت الفصائل التركية من قوات رومانوس الى جانب اخوانها الاتراك. كذلك كانت الخيانة تعشعش بين القادة العسكريين البيزنطيين انفسهم.

في ١٩ آب (اغسطس) ١٠٧١ دارت رحى معركة هائلة بمقاييس ذلك الزمن شمالي بحيرة فان (ارمينيا)، غير بعيد عن المدينة ـ القلعة ما نزكرت (باليونانية ما نتسيكرت). وقد منيت عساكر الامبراطورية البيزنطية بهزيمة ما حقة انزلها بهم السلجوقيون الذين لجأوا الى الحيلة التكتيكية التى سبق لهم ان خبروها مرارا: فقد تراجعوا فى الظاهر لكى يغروا البيزنطين ثم ارتدوا فجأة عليهم وشنوا حملة عاصفة بالخيل على العدو. وقد ابيد جيش رومانوس الرابع كليا تقريبا، ووقع الامبراطور نفسه في الاسر ـ الامر الذى لم يحدث يوما قبل ذاك فى تاريخ بيزنطية، وطرح ارضا عند قدمي السلطان الظافر . وسرعان ما اخلى السلطان سبيل الاسير النبيل، ولكن نتيجة الكارثة فى معركة مانزكرت كانت وبالا على الامبراطورية ، اذ فقدت ممتلكاتها الغنية فى آسيا الصغرى . وبين سنة ١٠٧٨ وسنة ١٠٨١، رسخ السلجوقيون اقدامهم فى مناطقها الغربية ايضا؛ وبالكاد استطاعت بيزنطية ان تحتفظ لنفسها بعدد قليل من المدن على ساحل بروبونتيدا(بحر مرمره). ومن نوافذ القصر الامبراطورى في القسطنطينية، اخذت تبدو الأن الجبال فى الشرق التى لم تبق ملكا للفاسيلفس الجبار فى الماضى (الامبراطور البيزنطى).

طلب ابا ميخاييل، واسمه قبل قسمته مطران على الحبشه حبيب، وطلب منه ان يكرز له اساقفه زايد عن العده الجارى بها العاده المعروفه المقرره من قديم الزمان، فامتنع من ذلك وقال: ما اقدر اعمل شي الا براى البطرك. فانفذ الملك الى البطرك كتابا يساله في ذلك وكتابا اخر صحبه رسوله الى ملك مصر، فخرج امر الخليفه الى البطرك باجابته الى ما طلبه، فاعتذر عن ذلك وقال للخليفه: يا مولاى

---

كانت بيزنطية تعانى من الفوضى في اكمل مظاهرها. فقد كانت مختلف تكتلات الاعيان الاقطاعيين، في العاصمة والارياف على السواء، تتخاصم وتتهاتر بلا نهاية بعضها مع بعض، وتحاول بشتى المكائد والدسائس ان تزيد امتيازاتها وسلطتها. وكان من المستحيل تقريبا الاعتماد على الجيش المؤلف على الاغلب من المرتزقة. وكانت الخزينة تشكو على الدوام نقصا في الاموال؛ فمنذ ان تحول الفلاحون الاحرار الى اقنان نضب المصدر الرئيسي للضرائب. ومع مرور الزمن، صارت بيزنطية تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم الى ممتلكات اقطاعية شبه مستقلة في الميدان السياسي. ومذ ذاك ، بدأت قوة الامبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة لملاكي الاراضي الجبابرة في الارياف! بل ان الهزيمة في معركة مانزكرت كانت قبل كل شئ ثمرة الاقتتال بين الارستقراطيين، فان بعضا منهم كانوا على استعداد (وهذا ما حدث بالضبط في سنة ١٠١٧ !) للخيانة السافرة شرط أن يحتفظوا ويزيدوا من امتيازاتهم، وعندما أفرج السلطان السلجوقي عن رومانوس ، انفجرت في الامبراطورية حرب حقيقة بين الزمر الاقطاعية. واضطر الامبرطور السابق الى الاستسلام للاقطاعيين ووضع نفسه تحت رحمتهم، ولكنهم اسروه وسملوا عينيه ونفوه.

ولم يلبث البابا جريجوريوس السابع ان استغل مصاعب بيزنطة التى اضعفتها وانهكتها الحروب ضد السلجوقيين والاضطربات الداخلية ، وذلك لكي يجعل الكنيسة الارثوكسية

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٣١٠

اذا صارت الاساقفه عند الحبشه اكثر من هذه العده
تجاسرو على قسمه مطران وطغو نفوسهم من طاعه
بطاركه مصر، واستغنو عنهم وصارو يقيمو
لنفوسهم، وما يبقا لهم ببطاركه مصر حاجه، ولا
يودو لهم طاعه، ويخرجهم ذلك الى العداوه
والمحاربه لمن هو متاخم بلادهم من المسلمين، فيخل
منهم النظام وتكثر فيهم الحروب، كما كانو
يفعلون في قديم الزمان في ايام فرعون وموسى

---

الشرقية تابعة للكرسي الرسولي، الامر الذى كان من شأنه ان يوسع الموارد المادية لدى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ويسهل على البابابوية تحقيق برنامجها التيوقراطي الكلي في الغرب.

في البدء لجأ جريجوريوس السابع الى التدابير الديبلوماسية: ففي صيف ١٠٧٣ بدأ يتفاوض مع الامبرطور البيزنطي ميخائيل السابع دوكا. وقد قال البابا في رسالة الى الامبراطور انه ينبغي تجديد الوفاق القديم بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية. ولكن البابا دفع فكرة التوصل الى الاهداف المنشودة بقوة السلاح وذلك بتنظيم حملة حربية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية الدين المسيحي وتقديم العون للارثوذكس ضد المسلمين السلجوقيين. وبما ان العساكر الغربية ستكون كثيرة، فمن المؤكد ان الامبراطور البيزنطي سيكون اكثر تساهلا وتنازلا، وبعد ذلك، من ذا الذى يعلم كيف ستتطور هذه المبادرة؛ وخاصة إذا تكللت بالنجاح. والقدس ليست بعيدة جدا عن القسطنطينية!

في سنة ١٠٧٤ وجه البابا رسالة إلى الكونت غليوم الأول البورجوني والى الامبراطور الألماني هنريخ الرابع الذى أمسى فيما بعد عدوه اللدود، والى ماتيلدا مارك كونتيسة توسكانا، وأخيرا« إلى جميع الأوفياء للقديس بطرس» ، دعاهم فيها إلى تخليص الكنيسة الشرقية من البلية والى الاشتراك لهذا الغرض في الحرب في الشرق. ولم يضن جريجوريوس السابع بالوعود بالمكافآت السماوية على الذين يوافقون على محاربة «الكفار». وقد نصح البابا

ومن تقدمه من ملوك الفراعنه، فانهم كانو يغزوهم في البـر والبـحـر، والاخبـار بذلك مـدونه في سـيـر الاوايل. ثم كتب البطرك كتـابا يردعـه ويامـره ان يرجع عـما طلبه وسير الكتاب اليه. ولما عادو رسل البطرك من الحبشه اخبرو ان نار نزلت من السماء على قـصـر الملك فاحرقت بعـضـه ثم اصاب بلاد الحبشه غلا عظيم في تلك السنه، ووبا عظيم، ولم يمطر فـيـهـا مطرا، وقـاسـو لاجل ذلك صـعـوبه

---

الكاثوليك فى رسائله: «قاتلوا بجرأة، لكى تنالوا فى السماء مجدا يتجاوز جميع توقعاتنا. تسنح لكم الفرصة لاكتساب الغبطة الابدية بعمل طفيف».

وعلق جريجوريوس السابع أهمية جدّية على المشروع الذى حاكه. فقد ردد غير مرة فى رسائله أنه ينوى أن يسير شخصـيا فى طليعة قوات المسيحيين الغربيين ويمضى إلى ما وراء البحار. وكان لابدّ لهذا المشروع ان يستتبع صدى ملائما عند «المعدمين» و«الذين لا أرض عندهم» الذين سبق لهم أن حاربوا المسلمين تحت الراية الدينية وبموافقة البابوية. كتب البابا إلى ماتيلدا دى توسكانا: «اؤمن فى أن كثيرين من الفرسان سيساعدوننا فى هذه القضية».

وبديهى أن شعار حماية الدين المسيحى لم يكن غير قناع؛ فإن نوايا روما لم تكن تمت بأى صلة إلى انقاذ المسيحية. الأمر الذى لم يطلب أحد من البابا فعله. ثم أن المصالح الدينية التى أبرزها جريجوريوس السابع بمثل هذا الاصرار فى المرتبة الأولى فى رسائله لم تلعب يوما على الاطلاق دورا اوليا بنظر هذا السياسى الكنسى. وكان البابا لا يرى من الضرورى الاصرار على أية خلافات مبدئية بين المسيحيين والإسلام إذا كانت مصالح روما السياسية تتطلب ذلك؛ ففى سنة ١٠٧٦ بلغ الأمر بالبابا جريجوريوس ان صرح فى رسالة إلى أمير مدينة بجاية الجزائرية الناصر: «اننا نحن وانتم نؤمن فى اله واحد وأن يكن بأساليب مختلفة».

---

٧٠: الاب غبريال ابن تريك ١١٣١/ ١١٤٥م ١٣١٢

عظيمه. فقبل الملك كتاب البطرك ورجع الى الله وكتب الى خليفه مصر يساله ان يسال البطرك يحلله ويكتب له كتاب بركه عليه وعلى بلاده. فكتب له بذلك وسيره اليه، فرفع الله في ساعه وصول الكتاب اليهم بخطه عنهم وادركتهم رحمته، فمطرت المطر وزرعت بلادهم ورخصت اسعارهم وزال وارتفع عنهم الغلا والوبا برحمه الله ورضا هذا الاب عنهم.

---

أما الجوهر الحقيقي لمشروع الحرب ضد السلجوقيين، فقد كان مغايرا، وقوامه إعادة الكنيسة البيزنطية الارثوذكسية إلى حضن الكنيسة الرومانية، وتوسيع منطقة نفوذ الكاثوليكية، بادراج بيزنطية بالعنف في فلك التأثير البابارى، وامتلاك ثروات الكنيسة الارثوذكسية.

ان نداءات البابا التقية الورعة قد سبقت من حيث الجوهر شعارات الحرب الصليبية المقبلة. أغلب الظن أن هذه النداءات قد لقيت التفهم من جانب الفرسان. على كل حال أكد البابا نفسه في أواخر ١٠٧٤ للأمبراطور الألمانى هنريخ الرابع انه تسنى له هو البابا أن يجمع جيشا من ٥٠ ألف إيطالي وفرنسي لأجل المشروع فيما وراء البحار ضد الوثنيين. وقد لقى البابا الدعم، مثلا، من بعض الاقطاعيين في فرنسا الجنوبية مثل غليوم البورجوني وريمون دى تولوز.

ولكن جريجوريوس السابع لم يستطع أن يحقق مقاصده. فان الصراع الذى بدأ ضد الامبراطورية الالمانية قد صرف انتباهه عن بيزنطية لزمن طويل. ومع ذلك عاد فيما بعد غير مرة إلى فكرة إعادة الكنيسة الارثوذكسية إلى «حضن الأم». وعندما هاجم روبر جيسكار ممتلكات بيزنطية في ايطاليا سنة ١٠٨٠ باركه البابا جريجوريوس السابع على هذه الحرب. وطلب البابا أن يدعو رجال الدين في ايطاليا الجنوبية الفرسان المحليين إلى الاشترك في حملة الزعيم النورمندى واعدا لقاء ذلك بغفران الخطايا. وبعد أن اقتحم النورمنديون شبه جزيرة

وكان البطرك المذكور قد مرض مرضا شديد اشرف منه على التلف، فراى فى منامه كان جماعه كهنه ورهبان ومعهم اناجيل وصلبان ومجامر وقالو له: جينا نفتقدك اليوم وانت تبرا من مرضك هذا، ولكن نحن نعود اليك فى العام القابل فى مثل هذا الزمان وناخذك معنا. فعوفى من مرضه فى تلك الدفعه ومن بعد سنه مرض وتنيح فى التاريخ الذى قدمنا ذكره فى اول هذه السيره.

---

البلقان في سنة ١٠٨١ واستولوا على قلعة دراتش البحرية في ايبروس وتغلغلوا فى أعماق البلاد، هنأ جريجوريوس السابع روبر جيسكار بالنصر دون ان ينسى تذكيره بأنه مدين بنصره إلى حماية القديس بطرس. صحيح أن جريجوريوس السابع كان في السنوات التالية مستغرقا كليا في الصراع ضد هنريخ الرابع، لكن ثمة أمر لا ريب فيه هو أن الاستعدادات التى قام بها البابا في السبعينيات لشن حرب فرسانية كبيرة «لحماية بيزنطية» قد كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التى نضجت فيما بعد لأجل تنظيم حملة فتوحات واغتصابات فى الشرق.

ان القضية التى دبرها جريجوريوس السابع قد طورها فيما بعد أقرب خلفائه من الباباوات. وكان الوضع الذى نشأ فى العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط يناسب تحقيق مقاصد الباباوية. وفى ذلك الوقت احتل السلجوقين آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين. وفى سنة ١٠٧٠ احتلوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن السورية وفى سنة ١٠٧١ احتلوا مركز الاديان الثلاثة بما فيها الدين المسيحى، مدينة القدس، التى كانت حتى ذاك خاضعة لسلطة خلافة الفاطميين في مصر وفى سنة ١٠٨٤، انتزع السلجوقيون انطاكية من بيزنطية واستولوا عليها. وفى عهد ملكشاه (١٠٧٢ـ١٠٩٢)، شملت ممتلكات السلجوقيين قسما كبيرا من اراضى سوريا ولبنان والاردن وفلسطين.

وهكذا شملت فتوحات السلجوقيين رقعا شاسعة من الاراضى. ولكنهم لم يؤسسوا دولة

وكان فى ايام هذا البطرك واحد من رهبان دير ابو كما اسمه حلوش من اولاد بنات بسطيه، الذى كان امينا على استخراج دهن البلسان اعنى الميرون، رفع [اكاذيب] فى الرهبان وسعى بهم عند الامام الحافظ ان عندهم ملاحم وعلوم يعرفو منها ما يجرى على الملوك، وكيف يكون تغلب الدول، ويجمعو الدنانير وغيرها من قنايا الذهب والفضه والمصاغ ويخالفو بهذا مذهبهم وكلام

---

مركزية. ولم تكن دولة السجلوقيين قائمة الا بالاسم. اما فى الواقع، فقد كانت عبارة عن اتحاد ضعيف العرى بين كثرة من الاقطاعات شبه المستقلة. واهمها كانت السلطنة الرومية (سلطنة سلاجقة الروم او دولة السلاجقة) التى تشكلت سنة ١٠٧٧ فى آسيا الصغرى، وكان مركزها فى البدء نيقية، ثم قونية، وكان السلاطين يطمحون الى وارثة الامبراطورية البيزنطية ولذا سموا دولتهم بالدولة الرومية، لأن البيزنطيين كانوا يسمون انفسهم بالروم (بالرومانيين). واخذ السلاطين هذا الاسم كما اخذوا الادعاءات المناسبة. وبعد سنة ١٠٩٢ تداعت الدولة السلجوقية كليا. وتفجرت الخلافات والخاصمات بين الحكام الكبار والصغار وصارت آسيا الصغرى مسرحا لحروب لاانقطاع فيها.

وبعد حقبة طويلة من الزمن، اى بعد ان تعاظمت الحركة الصليبية، اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبريرها مختلف الاساطير عن الملاحقات والمطارادت التى قام بها، بزعمهم، السلجوقيون ضد المسيحيين فى البلدان الشرقية وعن اهانة وتدنيس الوثنيين للمقدسات المسيحية ، وبخاصة عن مطاردات الحجاج المتجهين الى القدس. وقد تلقف المؤرخون الاوروبيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولاسيما منهم الكاثوليكيون، هذه الاساطير وزينوها بشتى التفاصيل . وقد وصف مؤلف «تواريخ الحروب الصليبية» ـ وهى تواريخ عديدة ـ الوضع بسمات متماثلة تقريبا :كان السلجوقيون يشكلون خطرا على المسيحية ، ولذا كان

انجيلهم ووصيه المسيح لهم، وان عندهم صوره ساقيه بلور لا يوجد عند احد من ملوك الدنيا مثلها. فندب معه حجاب واجناد فاخذهم وطلع الى الديارات بوادى هبيب [النطرون] وسلطهم على الرهبان فاهانوهم واخرقو بهم وغرموهم ونهبوهم وقطعو مصانعتهم وحل بهم منه شده عظيمه، واخذ منهم قوم من شيوخهم ودخل بهم القاهرة، فلم يصح شى مما حكاه عنهم وخلصهم

---

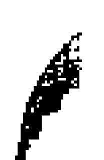
صد هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح. واخذ بابا روما على نفسه قيادة الكاثوليك. ومن هنا جاءت الحروب الصليبية. وهذا يعنى ان هؤلاء المؤرخين، رغبة منهم فى تفسير منشأ حروب المسيحيين الغربيين، نقلوا مركز ثقل الاحداث التى استتبعت الحروب الصليبية الى الشرق؛ فمن وجهة نظرهم، كان كل شئ يعتمد على فتوحات السلجوقيين، وبينها فى المقام الاول القدس، مهد المسيحية.

وهذا الضرب من التصورات عن اقرب اسباب الحروب لايزال واسع الانتشار الآن فى الغرب، واليوم يصدر هناك عدد لايستهان به من الكتب التى تبدأ ابدا ودائما بوصف العقبات التى اقامها السلجوقيون، كما يزعم المؤرخون الصليبيون، فى طريق الحجاج الاتقياء، وبوصف المصاعب التى واجهها الحجاج فى الارض المقدسة. ان هذا التفسير للاحداث لايتطابق البتة مع الوقائع التى قررها المؤرخون المسيحيون فى العصور الوسطى.

فان السلجوقيين لم يكونوا يتصفون اطلاقا بالتعصب الدينى الاعمى. يقينا ان فتوحاتهم قد رافقها هلاك الناس وآلامهم، ورافقها الدمار، اى رافقها كل ما يرافق ايه حرب كانت، ولكن هذا لم يكن له البتة اية علاقة بالدين المسيحى.

ثم ان السكان انفسهم فى بلدان القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط، المنتمين الى مختلف التيارات والطوائف المسيحية، لم يفتشوا يوما، لا فى بيزنطية، عن الحماية من





الله منه واحسن الخليفه اليهم واعادهم الى دياراتهم بسلامه. وكان هذا حلوش لما دخل بالمترسمين معه الى دير ابو مقار احرق حشمة الهيكل المقدس، اعنى هيكل بنيامين، وهجم عليه ودخل اليه هو ومن معه وفتشوا الاسكنا جميعه. وقيل عنه انه رفص الهيكل برجله عجبا وتكبرا فضربه الله في رجله بحيه رديه اكاله ولم تزل تاكل رجله حتى مات منها بعد شدايد عظيمه، وكان الدود والنتن والضربان لا يفتر منها لا ليل ولا نهار، وكان

---

الملاحقات الدينية المنسوبة الى السلجوقيين. وكان بوسع الحجاج ان يزوروا القدس كما في السابق. اما مشاعرهم الدينية فلم تكن تتعرض للاهانة من قبل الحكام السلجوقيين. بديهى انه كان يتعين على الحجاج ان يكونوا على يقظة: ففي فلسطين كانوا على أى حال في ارض العدو. وليس عبثا أن تتخذ عمليات الحج شيئا فشيئا طابعا مسلحا. ولكن السلجوقيين لم يهتموا البتة بمصالح الحجاج الدينية وعبادتهم للمقدسات المسيحية في القدس وبيت لحم وغير ذلك من الاماكن المقدسة. وكان المسلمون يتقاضون من الحجاج رسوم معينة لقاء زيارة المدينة المقدسة.

ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين في ظل حكم السلجوقيين وعن العقبات التي اقاموها في وجه الحجاج هي، بقدر كبير ، اختلاقات باطلة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين احدث عهدا الينا ـ هم جزئيا بيزنطيون، ولكنهم غربيون وشرقيون ـ من امثال وليم الصورى (١١٣٠ـ١١٨٦) . فاحينا كثيرة كانوا قصدا وعمدا ينشرون الاشاعات عن مآثم السلجوقيين ضد المسيحية ، قائمين بذلك، كما قد نقول اليوم، لاغراض دعائية بحتة، ـ لكي تسهم الاشاعة عن الخطر الذى يشكله «الكفار» على الاماكن المقدسة في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب. وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينشر من

يعترف بما فعل ويقول: هذه مكافاه الرجل الذى تعديت ودخلت الى ذلك المكان المقدس بغير وقار. ولم يزل كـذلك الى ان مـات. ونسـال الله ان يرحمنا صدقه منه علينا.

## ميخائيل ابن دنشترى(*) البطرك
## وهو من العدد الحادى والسبعون
## [١١٤٥/١١٤٦م]

هذا الاب الجليل كـان راهبـا من قـلايه تعـرف

(*) دنشترى: هى احدى قلايات دير ابو مقار بوادى النطرون. ومعنى اسمها القلاية الكبرى. وكان هذا البطرك تربطه صداقة قوية بالخليفة الفاطمى الحافظ.

---

روما البابوية. وقد استغل الباباوات ضعف اطلاع اوروبا الغربية على ما كان يجرى فعلا فى الشرق لتضليل العالم الكاثوليكى. ويلاحظ المؤرخ المستشرق الفرنسى المعاصر كاين ان روما قد صورت الكارثة التى حلت ببيزنطية بصورة كارثة حلت، بزعمها ، بالمسيحية الشرقية على العموم.

اما فى الواقع، فان الفتح السلجوقى، اذا كان قد شكل حجة لاعداد حرب الغرب ضد الشرق لاجل اهداف دينية كما يزعم ، فليس ذلك الا بقدر ما سدد ضربة الى بيزنطية التى كانت من زمان بعيد موضع مطامع الكنيسة الرومانية. ثم ان انتشار الفتوحات السلجوقية لاحقا فى السبعينات والثمانينات فى آسيا الصغرى، وتقسيم دولة ملكشاه الذى جرى فى الوقت نفسه، لم يوفرا للبابوية فرصة التوصل الى تحقيق خططها القديمة الموجهة ضد بيزنطية وحسب، بل اتاح كذلك توسيع تطلعاتها، باشاعة كذبة بينة عن الخطر الذى يتهدد المسيحية اجمالا، والذى يزحف، حسب زعمها، من الشرق.

ومشاريع جريجوريوس السابع بعثها بكليتها واكملها بصورة جوهرية خلفه البابا اوربان الثانى (١٠٨٨ـ١٠٩٩)، الفرنسى الاصل. ووفقا لارشاداته كان ينبغى ان يخضع كل القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط لحكم وسيطرة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وخدمها

بدنشترى بدير القديس ابو مقار شيخ حسن الوجه والهيه [الهيئة] ذات وقار وعفه، قديس طاهر الا انه لم يكن عالما ولا راض نفسه فى قراه الكتب. لان ابويه لم يهتمو بذلك، فلم يتعرض لطلب كهنوت ولا طقس بل انه لزم قانون الرهبنه من غير قراه قبطى ولا عربى، فلما تنيح الاب البطرك انبا غبريال وبقى الكرسى خاليا ممن يدبره اربعه شهور وايام تعرض لطلب البطركيه راهب من دير ابو

---

الامناء، الفرسان الغربيين. ولكن اوربان الثانى احاط مشاريعه بالمبررات الدينية بقدر اكبر بكثير من التفصيل. وفى اداء هذه المهمة ساعده كذلك الوضع العصيب الذى واجهته بيزنطية فى الثمانينات واوائل التسعينات من القرن الحادى عشر.

فان النورمنديين الذين كان يقودهم روبر جيسكار، واصلوا الفتوحات فى الاقاليم الاوروبية من الامبراطورية البيزنطية ذارعين الذعر فى القسطنطينية . وكان بمقدور الكسيوس كومنينوس، (١٠٨١ــ ١١١٨) ان يقضى على الخطر النورمندى باللجوء الى قوة السلاح والى وسائل الديبلوماسية البيزنطية الماكرة الداهية، ولكن السحب اخذت تتلبد فى ذلك الوقت فى شمال وشرق بيزنطية، فقد ثار عليها السلاف القاطنون على ضفاف نهر الدانوب فى بلغاريا، بسبب ماكانوا يعانونه من بلايا من جراء ابتزازت الموظفين الامبراطوريين. فاستنجدوا بالبدو البتشينيج. ووفى سنة ١٠٨٨ انزل البتشينيج بالامبراطور الكسيوس كومنينوس هزيمة شنعاء فى جوار سيليسترا؛ ودمر هؤلاء البدو ادريانوبول وفيليبوبول ، ووصلوا حتى اسوار العاصمة بالذات. وجهز الامير السلجوقى تشاها الذى استقر فى غرب آسيا الصغرى وفى بعض جزر بحر ايجه، اسطولا ضد العاصمة البيزنطية. واجرى تشاها مفاوضات مع البتشينيج بشأن العمليات المشتركة. ووضعت خطة مشتركة لهجوم البتشينيج والسلجوقيين على القسطنطينية.

مقار يسمى ونس [يونس] ابن كدران وتعصب معه قوم من اخوته الرهبان. واجتمعو قوم من الاساقفه وتساعدو جميعا، وهم يعقوب القارى اسقف لقانه من اعمال البحيره، واخرسطودلوس اسقف فوه، وميخاييل اسقف طندتا. واجتهد يونس ابن كدران فى طلب البطركيه وساعدوه المذكورين فلم يرضى فعله الرب، ولاجل ذلك لم يرغب فيه ولا رجلا واحد من الشعب باسره. وقد كان قبل حضوره

---

فى سنتى ١٠٩٠-١٠٩١، عندما كانت شؤون الامبراطورية فى البحر والبر فى وضع شاق جدا، على قول المؤرخة البيزنطية حنة كومنينة (ابنه الكسيوس الاول) ارسل الامبراطور البيزنطى الرسائل الى ملوك وامراء الغرب مفادها ان بيزنطية تطلب معونة عسكرية . كذلك بعث الامبراطور كومنينوس بالرسل الى بابا روما. وكان يعلق عليه هو ايضا الآمال. كان ينبغى مد عساكر الامبراطورية مهما كلف الامر. وقبل ذاك، كان الغرب قد قدم لجيش الروم عددا لايستهان به من المرتزقة، فقد كان يخدم فيه النورمنديين والسكانديناڤيون والانجلو-ساكسونيون. والآن احتاجت القسطنيطنية إلى المرتزقة ، وكان بوسع روما ان تقدم لبيزنطية مساعدة مهمة من المرتزقة. وهذا يفسر تنازل الحكومة البيزنطية الظاهرى فى المفاوضات مع البابوية بصدد الاتحاد، بين الكنيسة الشرقية (بيزنطه) والكنيسة الغربية (روما) ومع ذلك يعتزم الفاسيلفس الاعتماد كليا على الكنيسة الرومانية؛ فان ادعاءاتها بالزعامة كانت معروفة جيدا من زمان فى القسطنطينية.

ومع اجراء المفاوضات مع البابا بشأن اتحاد الكنيستين، ومع اغراء الاسياد الغربيين بامكان نهب البلدان الشرقية، اتخذت الحكومة البيزنطية تدابير اخرى اكثر وثوقا لاجل شق طوق السلجوقيين والبتسينيج. فوجهت ضد البتشينيج حلفاء الامبراطورية الجدد - البولوف

الى مصر قسموه قمصا فى دير ابو مقار، وكان
رجلا طويل القامه جميل الوجه حسن الهيه
[الهيئة] طيب الخلق حلو الكلام، عالم باللغه
القبطيه وكتب البيعه، ماهرا فى العتيقه والحديثه،
الا ان الشيطان، نجانا الله واياكم من تجاربه وحيله
ومصايده وكفا جميع بنى المعموديه شر ضرباته،
ضربه بهذه الضربه الرديه التى هى طلب الرياسه
للكبريا الذى اسقطه الله بها، فهو حريص ان

---

(البولوفتسيين). ففى ٢٩ (ابريل)، نزلت هزيمة ماحقة بجحافل البتشينيج. الضخمة فى المعركة على ضفة نهير ماوروبوتام (رافد نهر ماريستا)؛ اذ ان اسطول الامير تشاها لم يفلح فى الوصول إلى نجدتهم. وبعد حقبة وجيزة استطاعت بيزنطية أن تتخلص من الامير تشاها أيضاً، فإن الامبراطور قد حرض على تشاها سلطان نيقية قلج (او اقليج) ارسلان الاول (١٠٩٢ـ١١٠٧) فقتل تشاها اثناء وليمة. وهكذا ، باللجوء تارة الى القوة المسلحة، وطورا الى الدسائس والرشوة، تخلص الكسيوس الاول فى آخر المطاف من المخاطر التى تتهدد القسطنطينية. واعادت بيزنطية الى ما تحت سلطتها عددا من المدن الساحلية فى بروبونتيد، وجزر هيوس وساموس ولسبوس. وازيح السلجوقيون. وفى هذه الحال لم يبق ثمة داع الى مغازلة روما. ودخلت المفاوضات بصدد الاتحاد طريقا مسدودا. ولم تقبل بيزنطية عمليا مقترحات اوربان الثانى، والمجمع المرسوم لم ينعقد هو ايضا، وبقيت الخلافات الدينية معلقة.

ولكن النداء الموجه الى الغرب بطلب العون فى لحظة حرجة بالنسبة لبيزنطية لم يمر دون ان يترك اثرا. فان الشرق مع مدنه التجارية الكبيرة، والمتطور فى الميدان الاقتصادى اكثر من الغرب، القروى اساسا، كان يبدو للفرسان الاقطاعيين الطموحين مصدرا لكنوز عظيمة .

يسقط من قدر عليه منا بها ليكون معه في الجحيم، فحسن له طلب الرتبه والتقدمه على شعب الله بغير رايهم ولا رضاهم. وكان الشيخ ابو يوسف ابن سويرس الفيلسوف مشارف [المشرف على] البحيره في ذلك الزمان، فكتب الى الاراخنه بمصر يعرفهم ما صح عنده من قبح اخبار يونس ابن كدران، وكونه تعدى في انه طلب ولم يوفق حتى يكون مطلوب، وان تهجمه وطلبه مما يدل

---

وكانت اقاصيص الحجاج العائدين من القدس والقسطنطينية تصور بالخيال المعابد والقصور الرائعة في المدن الشرقية وعجائب البذح التي تغمر الاغنياء البيزنطيين والعرب. وعن هذه العجائب نشأت اساطير كان ينقلها المغنون القاصون المتجولون الى قصور الفرسان .وها هي الغنيمة اللذيذة تقع في ايدى السلجوقيين!

وهذا ما اقلق على الاخص النورمنديين الذين استقروا في ايطاليا الجنوبية وفي جزر البحر المتوسط. وخلال عشرات السنين كانوا مرتبطين مباشرة ببيزنطية ـ بصفة قراصنة تجار ، وبصفة محار بين مرتزقة. ومن ذا الذى كان بوسعه خيرا منهم ان يقدر ثروات القسطنطينية؟

وكان مصير بيزنطية يثير القلق كذلك في نفوس الكثيرين من الامراء والفرسان الآخرين في الغرب، الذين كانوا ينتظرون الفرصة لكي ينقضوا على ثروات الامبراطورية البيزنطية (او امبراطورية الروم). ذلك ان الشرق كله كان يبدو ارض الامبراطور البيزنطي بنظر البارونات المارك ـ كونتات والدوقات والفيكونتات القليلى الاطلاع على الجغرافيا . ولم يكن من الجائز ان تصبح هذا الارض في حوزة السلجوقيين!

ان الباباوية التي كانت تسعى إلى اهدافها كانت تأخذ بالحسبان، عن وعى او بلا وعى، مصالح الاقطاعيين الغربيين المشتركة؛ فلم تغب عن بالها الميول العدوانية المشتدة اكثر فاكثر

على نقص عقله وعما [عمى] قلبه، وكيف يقدر
يدبر شعب الله من لا يعرف يدبر نفسه ويعلمهم ما
انطلقت به الالسن في عـرضـه من الاحـاديث
السمجه لاجل تعرضه للطلب على هذا الوجه.
فاقتضى الحال اجتماع من حضر من الشيوخ
الاراخنه المصريين ومن حضر من الاساقفه استقر
اخرها ايقاف امر يونس المذكور وان يطلب غيره
ممن يصلح لهذه الرياسه، ويقع اتفاق الشعب

---

بين الفرسان الى الفتوحات. وكان الوضع الذى نشأ نحو أوائل العقد العاشر من القرن الحادى عشر صالحا للغاية لتحريك تلك النوابض التي جربت الكورية الرومانية تحريكها منذ عشرين سنة.

وكان الجو في الغرب يزداد توترا باستمرار. فان مشقات الفلاحين في غضون «السنوات العجاف» قد بلغت الذورة، وكان الفرسان «المعدمون» ينهبون ويسلبون بجموح مشتد ابدا. وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة اقوى فأقوى على الاسياد، سواء منهم الكنسيون ام الدنيويون. وفي مثل هذا الوضع جاء نداء بيزنطية بطلب العون في الوقت المناسب تماما. وكان الحجاج قد شقوا الطريق الى الشرق. وكانوا في القصور الاقطاعية يظنون انه سيكون من السهل الاستيلاء على بلدان الشرق. والامل في هذا خلقته الفوضى السائدة في الدولة السلجوقية المقسمة الى اقطاعات شبه مستقلة. وكان الحكام السلجوقيون لايضايقون بعضهم بعضا وحسب، بل كانوا يتنافسون كذلك مع الملوك والامراء المسلمين، وعدا ذلك، قامت في مدن سوريا ولبنان في العقود الاخيرة من القرن الحادى عشر حركة من اجل الاستقلال الذاتي، وضد سيادة الخلفاء المصريين الفاطميين؛ وهذه الحركة شملت، فيما شملت، صور وطرابلس، اللتين طلبتا حتى المساندة من السلجوقيين. واستغل السلجوقيون بدورهم الذريعة المناسبة لكي

والاراخنه عليه، وعمل بذلك مسطورا واخذ فيه
خط من حضره. قال الاب الجليل انبا مرقس ابن
زرعه البطرك مولف هذه السيره(*) وناظمها نيح
الله نفسه مع القديسين، انه لما وقع الاتفاق على
طلب من يختاره الله لتدبير شعبه كتبت رقاع فيها
هذه الاسمآ وهم: يونس [يوحنا](*) ابن ابو الفتح
راهب من اولاد بويحنس، سليمان ابن الدحيادى
من دير برموس، وانا الحقير مرقس ناقل هذه السيره

(*) مرقس ابن زرعه مؤلف هذه السيرة. وهو نفسه البطرك رقم ٧٣. انظر ص١٤٢٢ وما بعدها.

(*) سوف يتولى البطركيه بعد وفاة ميخائيل تحت رقم البطرك ٧٢ في المدة من ١١٤٧/١١٦٦م. انظر ص١٣٣٧.

---

يستولوا على صيدا. وفى سنة ١٠٨٩ فقط، استطاع الخليفة المصرى ان يستعيد السلطة على صور وسائر المدن التى انفصلت عنه. ولكن اضطربات جديدة نشبت فى صورة . وفى سنة ١٠٩٤ حاصرت القوات الفاطمية التى انطلقت باتجاه الشمال هذه المدينة الكبيرة واستولت عليها بعد مرور ثلاث سنوات بانقضاض عاصف، واعملت فيها نهبا وسلبا.

ومن المؤكد ان الكثير من تفاصيل الوضع المضطرب سياسيا فى بلدان القسم الشر قى من حوض البحر المتوسط لم يكن معروفا فى الغرب، ولكن فكرة عامة عن سوء الاحوال فى هذه المناطق كانت تكونها الانباء التى يحملها الحجاج واخبار التجار العائدين من الشرق، والتقارير الديلوماسية التى كانت تتوافد الى الكورية الرومانية. ولهذا ، عندما طلبت بيزنطية من امراء الغرب ومن البابا العون، لم يعمد الفرسان الى المماطلة فى الرد على هذه الطلبات. فقد فهموها وتقبلوها كدعوة الى شن حملة على الشرق لانقاذ بيزنطية.

ولكن الاقطاعيين انفسهم كانوا فى حالة من التشتت المفرط فلم يكن بمقدورهم بالتالى ان يقوموا باعمال منظمة على مثل هذه الابعاد الكبيرة من حيث الجوهر. فكان لابد من تدخل قوة كانت، كما رأينا، المعبرة الرئيسية عن مصالح الاقطاعيين الغربيين الطبقية ـ عنينا

كنت حاضر، وميخاييل الذى اختاره الله من دنشترى كان حاضرا، وطلبو منه ان يكتب خطه في المسطور على ابن كدران فلم يفعل، فتوهم قوم من الحاضرين انه حضر معه لمساعدته وانما كان امتناعه كونه لا يعرف قبطى ولا عربى، فعرفتهم به وانه ممن يصلح لهذه الرياسه، وكانت اراده الله فيه فكتبوه وكتب الرقاع باسما تلته منهم كما تقدم القول على جارى العاده، وكتبت رقعه باسم السيد

---

بهذه القوة الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها، وما لبث هذا التدخل ان ظهر. فان البابا اوربان الثاني، وقد اقتنع بعقم المحاولات لتحقيق الاتحاد بالوسائل الديبلوماسية، سلك سبيل جريجوريوس السابع. فقد عزز خططه بالضغط المسلح على بيزنطية بحجة تقديم العون لها ضد «الكفار» . واخذ البابا بالحسبان الميول العدوانية للحكام الاقطاعيين في الغرب وحاول ان يستخلص من كل هذا اقصى النفع لاجل الكنيسة الكاثوليكية. فقد وفر تجمع الظروف وتطورها فرصة مناسبة لتحقيق المقاصد التوسيعة القديمة للكورية الرومانية بمساندة الفرسان، والقيام بخطوة مهمة لاجل تأسيس دولة تيوقراطية عالمية. وقررت البابارية ان تستغل الوضع الناشئ في العلاقات الدولية وتبلغ اهدافها السياسة الخاصة مع تلبية حاجات الاقطاعيين الغربيين الناضجة على حساب الغير.

واخذ البابا اوربان الثانى على نفسه زمام المبادرة الى تنظيم حملة جماهيرية على الشرق كانت فكرتها قد انتشرت في الاوساط الاقطاعية في اوروبا الغربية. وفى سنة ١٠٩٥ طرح برنامجا واسعا لتوحيد الفرسان لاجل فتح البلدان الشرقية تحت شعار مساعدة الروم من الاخوة في الدين وتحرير قبر السيد المسيح.

هكذا نضجت فكرة الحرب الصليبية . وقد وقعت فى تربة مهيأة تماما.

المسيح الراى الصالح ورفعو على الهيكل، واقام القداس عليهم ثلثه ايام متواليه، واحضر طفلا فاخذ واحده منهم فطلعت الرقعه التى باسم ميخاييل وذكر من حضر من شيوخ الرهبان الثقات ان ابو الخير الابسلمدس [المرتل] بدير القديس ابو مقار وكان قديسا طاهرا يندر [يتنبىء] بالغيب قال لما سمع ما جرى لابن كدران ان البطرك يكون من قلايه دنشترى هذه التى ميخاييل

---

## الحملة الصليبية الاولى



### الدعوة الى الحرب واصداؤها. تكوين ايديولوجية الحرب الصليبية

فى نوفمبر ١٠٩٥ ، عقد بابا روما اوربان الثانى مجمعا لرجال الدين فى مدينة كليرمون فران الفرنسية. ان البابا لم يأت إلى فرنسا لكى يضبط شؤون الكنيسة فيها وحسب. فعندما

٧١: ميخاايل ابن دنشترى ١١٤٥/ ١١٤٦م ١٣٢٦

منها. وذكر عنه انه ليله توفا انبا غبريال البطرك
راى روحه بين الملايكه صاعدين بها الى السمآ
فاعلم من كان عنده من الاخوه حاضر بذلك فى
ساعته، وقال لهم: قد تنيح البطرك فى هذه
الساعه وبعد ثلثه ايام من قوله لهم وصلو قوم من
الرهبان الى الدير واخبرو بوفاه البطرك فى ذلك
الوقت الذى قاله. وذكر عن راهب اخر ان هذا انبا
ميخاييل البطرك كان قد مرض قبل بطركيته

---

وطأت قدماه الاراضى الفرنسية، انبأ كذلك انه ينوى ان يساعد الاخوان المسيحيين الشرقيين. اغلب الظن ان البابا كان قد رسم فى الوقت المناسب خطة ما للعمل، قد لاتكون بعد كاملة الخطوط، ولكنها واضحة الى هذا الحد او ذاك من حيث اهدافها ومغزاها العام. الا انه كان لابد من بضعة اشهر لكي تكتسب هذه الخطة ملامحها الدقيقة..

بعد ان وصل اوروبان الثانى الى فرنسا، اخذ يطوف على الاديرة الكلونية فى جنوب البلد واحدا بعد آخر (فقد سبق له فى حينه ان كان رئيس دير كلونى). وهناك جرت مفاوضات اولية بصدد الحرب المقبلة التى كان لابد لها، من حيث ابعادها، ان تتجاوز كثيرا حملات الفرسان الفرنسيين منذ امد قريب الى ما وراء جبال البرانس. ومع من كان بمقدور البابا ان يتشاور بشأن مشروعه وسبل تحقيقه ان لم يكن مع الرهبان الكلونيين؟. كان الكلونيون لايدركون فحسب، ضرورة التدابير الجذرية التى من شأنها ان تقضى على الفتن الخطيرة التى تهدد الملكية العقارية الكبيرة فى الغرب، بل كانوا كذلك يدركون بصورة اوضح من اى وقت آخر تلك الوسائل العملية التى يمكن استعمالها لاجل بلوغ هذا الهدف. وقد تكدست عندهم تجربة لايستهان بها فى الدعوة المقدسة والحج. وكان بمقدورهم ان يوحوا للبابا اوربان الثانى بامور وافكار كثيرة، وما هو اهم، ان يكونوا ذوى نفع فعال له فى تحقيق المشروع.

مرضه صعبه شديده اشرف فيها على الموت انه
قال لقوم من الرهبان سالوه عن مرضه: انه لا
يموت فى هذه المرضه ولا يموت الا بعد ان يصير
بطركا. ولما اتفقت الجماعه على الرضا به كرزوه
شماسا ثم قساً، وفى ثالث يوم كرزوه قمصاً فى
كنيسه المعلقه بمصر بعد استيدان[استأذان] الخليفه
يوميذ وخروج امره بتقدمته، وكتب له سجل
بذلك. فسار مع من حضر من الاساقفه والكهنه

---

لم يكتف اوربان الثانى بزيارة ديور الرهبنة الكلونية. فان الحرب المقدسة التى كان يهيئ لها الكرسى الرسولى كانت تحتاج فى المقام الاول الى مقاتلين يملكون السيوف والرماح، وكذلك الى قادة ذوى مكانة. وفيما بعد فقط، اعلن اوربان الثانى ان الاحداث التى وقعت بعد مجمع كليرمون هى «قضية السيد الاله». هذه الكلمات وضعها مدون الاخبار فولير دى شارتر(فرنسا) على لسان البابا. من الممكن ان يكون البابا قد نطق فعلا بهذه الكلمات، ومن المحتمل انه حتى آمن فى صحتها. ولكن تلميذ جريجوريوس السابع كان سياسيا ثاقب النظر لكى يفهم هذه الحقيقة البسيطة وهى انه ليس من مصلحة البابوية، بل ليس من المعقول القيام بمشروع قبل التأكد سلفا من ان هذا المشروع سيحظى منذ بادئ بدء بمساندة اوسع الاسياد الاقطاعيين والكنسيين نفوذا على الاقل. ولقد اجتهد البابا لنيل مساندتهم سلفا.

ففى الطريق الى كليرمون قام بزيارتين مهمتين. فى اغسطس ١٠٩٥ قابل اوربان الثانى فى مدينة بوى مع صاحب المقام الرفيع الكنسى البارز، الاسقف اديمار دى مونتيل (Ademar de Monteil). ويبدو ان البابا استطاع ان يتفق معه على ان يأخذ هذا الحبر الجليل على نفسه مهمة رئيس الصليبيين الدينى. كذلك زار اوربان الثانى ريمون الرابع كونت تورلوز فى مقره الرئيسى ــ قصر سان جيل. وبنتيجة المفاوضات ، وافق هذا السيد، ــ وكان من اكبر

٧١: ميخائيل ابن دنشترى ١١٤٥/ ١١٤٦م ١٣٢٨

والشـــعب الى المدينه العظمى الاسكندريه فى
عشارى موكبى جرده الخليفه، واجلسوه على
كرسى مارى مرقص واكملو تكريزه فى يوم الاحد
الخامس من مسرى سنه ست وسبعين وثمان مايه
للشهدا القديسين، وبكلفه[بمشقة] عظيمه حتى
حفظوه قداس باسيليوس خاصه الى ان قدس به
وعاد الى مصر. وكان يوم دخوله اليها مشهور تلقاه
من وجوه المسلمين وكبارهم اكثر ممن تلقاه من

---

الاقطاعيين فى اوروبا الجنوبية، على الاشتراك فى الحملة. وقد تجاوب الكونت ريمون الرابع بكل طيبة خاطر مع رغائب البابا؛ فان الحرب التى كانت تهيئ لها روما كانت تتطابق تماما مع مصالحه بالذات.

ولئن كان اديمار دى بوى وريمون دى سان جيل مطلعين على مقاصد البابا، فان الاقطاعيين الأخرين، كما يجب الظن، كانوا يخمنون ان اوربان الثانى جاء الى فرنسا لاهداف اكبر من حل قضايا الكنيسة الداخلية . كذلك كان شعور مسبق غامض باحداث جدية ما ترتبط بوصول الرسول الاعظم (هكذا يسمى المؤرخون البابا احيانا).

فلاغرابة اذا كان قد توافد الى كلير مون آلاف الفرسان وعدد كبير من ذوى الالقاب الدينية، واذا كان قد تجمعت جموع لاتحصى من بسطاء الناس. وكل هذا الجمهور من الناس لم يكن من الممكن ان تتسع له المدينة حيث انعقد المجمع بحث فى سياق اسبوع (١٨ـ٢٥ نوفمبر ١٠٩٥) مواضيع عادية ومألوفة بالنسبة لمثل هذا الضرب من المداولات، وفى المقام الاول مسألة «السلام الربانى»، الا انه ضم عددا استثنائيا من الناس. يستفاد من بعض المعلومات انه ضم اكثر من ٢٠٠ (وحسب معلومات اخرى اكثر من ٣٠٠) من الاساقفة و٤٠٠ من رؤساء الاديرة. ان عدد المشتركين فيه غير معروف بدقة؛ فان الارقام التى

النصارى، وكان فرح عظيم ومسره عند النصارى
بمدينتي مصر والقاهره واحبوه كثيرا واطاعوه،
وكان يفرح اذا راى الشعب كثير فى البيعه
والكهنه كثير فى الاسكنا ويكثر من الدعا لهم،
وكانت ايام بطركيته طيبه جدا وبعد ايام يسيره من
جلوسه اقسم خمسه اساقفه احدهم كان من اولاد
الاراخنه بمصر يقال له ابن نفرا كان قد ترهب فى
دير ابو مقار فى قلايه دنشترى الذى هذا البطرك

---

ساقها فى هذا الصدد فولير دى شارتر وجيبرت دى نوجان وغيرهما من مدونى الاخبار تختلف بعضها عن بعض، على كل حال، تميز مجمع كليرمون بالفخامة وسعة التمثيل.

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية، وبعد ان «وعد جميع الحاضرين، سواء منهم رجال الدين او المؤمنون، بمراعاة قرارات المجمع بأمانة» ، كما كتب احد مدونى الاخبار، القى البابا اوربان الثانى فى ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥ خطابا احتفاليا فى الهواء الطلق مباشرة امام حشد الذين تجمعوا فى السهل بجوار المدينة، وهذا الخطاب سبق ان فكر فيه البابا عميقا وجيدا، و لم يكن البتة خطابا مرتجلا «من وحى الرب». فقد دعا البابا الكاثوليك الى حمل السلاح والجهاد لاجل الحرب ضد «قبيلة الاتراك الفارسية... الذين وصلوا الى البحر المتوسط... ذبحوا واسروا كثيرين من المسيحيين، ودمروا الكنائس واجتاحوا الامبرطورية البيزنطية)».

وهذا يعنى انه اطلق فى كليرمون النداء الذى دعا الغرب الى الحرب الصليبية فى الشرق.

وقد حاول اوربان الثانى ان يصور الحرب التى استحث «المؤمنين» على شنها بصورة

---

٧١: ميخائيل ابن دلشترى ١١٤٥/ ١١٤٦م ١٣٣٠

منها، وكان معه مقيم فيها فقسمه اسقف علي...(*) وهو صبي حدث السن كان شماسا في الاسكنا في ايام انبا غبريال، فلما وصل الى مصر وخرج الى دير الشمع كرزه في يوم الخميس، والعاده الجاريه ان لا يكرز اسقف الا يوم الاحد، وانما خصه بذلك لاجل انه من اولاد قلايته، وكان عمره يومئذ نحو من ثلثين سنه، فجا منه من القدس والطهاره والعلم ما لم يلحقه كثير من

(*) كلمة غير موجودة في المخطوطات ولعلها دير الشمع.

---

مشروع يجب القيام به لتحرير قبر السيد المسيح في القدس ولانقاذ «الاخوة العائشين في الشرق»، اي المسيحيين الشرقيين. ودعا البابا المستمعين باسم الرب العلي: «انا اقول هذا للحاضرين واكلف بابلاغ الغائبين ـ هكذا امر يسوع المسيح».

وفي وقت كان فيه الفرسان لايفكررون نهارا وليلا الا في ايجاد مجال لميلهم الى القتال، فقد وجدت خطبة البابا صدى من التعاطف في الجمهور الواسع الذي استمع اليها. ناهيك بان اوربان الثاني وعد المشتركين في الحرب، الصليبية، «المجاهدين في سبيل الايمان»، باسم الرب العلي مرة اخرى، بغفران الخطايا، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضد «الكفار» بالثواب الابدي في الجنة السماوية. وهذا الوعد اضفى على اقوال البابا وزنا خاصا في عيون ذلك الجمهور اللجب من الاسياد ومن حملة اسلحتهم الذي تجمع من جميع انحاء البلاد في سهل اوفيرن، كما قال مدون الاخبار من بريتانيا، وشاهد عيان مجمع كلير مون، بودري دول. وكثيرون من هؤلاء الاسياد سبق ان حجوا للتكفير عن ذنوبهم وقاتلوا المسلمين في حروب مقدسة. ان تحرير قبر السيد المسيح، الذي صوره البابا بصورة هدف الحرب، قد امن بالتأكيد غفران جميع الجرائم التي اقترفوها من قبل؛ فقد كان ذلك أمراً مفرطا في الاغراء بحيث تركت فيهم ملامات البابا الذي ضرب على وتر مشاعرهم الدينية وبسالتهم القتالية

الشيوخ المتقدمين. ثم اقسم الشيخ ابو المكارم ابن يوسف الارخن، ثم اقسم الشماس ابن جارود، وكان من كهنه بيعه القديس ابو سرجه، وكان من اعيان الكتاب وتولى دواوين كبار كبير البيت فى المصريين، اقسمه اسقفا على كرسى شبرا الخيمه واسماه مرقس. وكان كرسى شبرا دمنهور(*) خال من اسقف جميع ايام بطركيه انبا غبريال ابن تريك لان العاده جاريه له ان لا يكون عليه الا

(*) شبرا دمنهور: يتم الخلط أحياناً بين هذه القرية وأخرى أقرب لشمال القاهرة هى دمنهور شبرا، وهى شبرا الحالية التى عرفت = =فى وقت من الاوقات باسم دمنهور الشهيد لمجاورتها لشبرا الشهيد (شبرا الخيمة) أو شبرا دمنهور. واسمها القديم هو شبرو وهو محرّف عن كلمة «جبرو»

---

فعلها وان الراهب روبر من مدينة ريمس الذى اشترك فى مجمع كليرمون قد نسب الى اوربان الثانى انه وجه الى الفرسان كلمات التملق والتزلف.

ولكن بواعث ودوافع اخرى انداحت من خطاب البابا. فان الذين يقطعون على انفسهم عهدا ونذرا بالذهاب الى الارض المقدسة لاينتظرهم الخلاص فى الجنة السماوية وحسب؛ فان النصر على «الكفار» سيعود عليهم كذلك بمنافع ارضية محسوسة. الارض هنا، فى الغرب. ـ كما قال البابا اوربان الثانى ـ لاتفيض بالثروات. اما هناك، فى الشرق، فانها تسيل عسلا ولبنا. «والقدس انما هى محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الاخرى... جنة ثانية». ومن المؤكد ان الوعود كانت اقوى حجة فى خطاب البابا. «ان من لهم الحزن والفقر هنا، فى الارض سيكون لهم الفرح والغنى هناك، فى السماء». هكذا يعطى فولهير من شارتر هذا الفقرة من خطابا البابا. محورا احكام الانجيل. ويروى روبير دى ريمس ان هتافات مدوية قطعت هذه الفقرة من خطاب اوربان الثانى: «هذه هى ارادة الرب! هذه هى ارادة الرب!» لربما كانت هذه الهتافات مقررة سلفا، ولكنه ليس من المستبعد انها كانت رد فعل عفويا من المستمعين المتكيفين لهذا الجو.

وخاطب البابا اوربان الثانى فى المقام الاول الفرسان المعدمين الذين تكاثروا!: «اجل،

بتول وهذا الاسقف كان قد تزوج وماتت امراته. وكان انبا غبريال قد منع من يرجع يخرج جسد القديس ابو يحنس سنهوت من بيعته لما كان يجرى عليه عند طرح جسده في البحر [النيل] من نجاسه المصريين، ولما لم يرجعو كهنته يطرحو جسده في البحر نشف البحر قدام بيعته، فلما رجع هذا الاسقف امرهم ان يطرحوه في البحر فرجع البحر زاد الى ان طف قدام بيعته، فحملو له

القبطية وتعنى الكوم أو التل. كانت مشهورة بصناعة شراب العسل ومعاصر زيت السيرج و طواحين الغلال، كما عرفت باسم شبرا رحمة وشبرا المكاسة لأن خيمة المكس (الجمارك النيلية) كانت تضرب فيها، وفي الخطط المقريزية: شبرى الخيام ويقال لها شبرا الشهيد لأنه كان يوجد بهذه القرية صندوق صغير من الخشب فى داخله إصبع شهيد من شهداء النصارى محفوظ بها دائماً، فإذا كان ثامن

---

لايجتذبكم ملك ما اليه، ولاتقلقكم شؤون عائلية ما لان هذه الارض التى تسكنونها انما يضغط عليها من كل جانب البحر وسلاسل الجبال، ...ومن هنا ينجم انكم تلتهمون بعضكم لبعض بكثرة من الجراح المميتة». وقد دعا البابا الفرسان الى وقف الحروب والمذابح، والتحرك الى فتح البلدان الشرقية: «روحوا فى الدرب المؤدى الى القبر المقدس (هكذا كانوا يسمون آنذاك طريق الحجاج الى القدس)، انتزعوا هذه الأرض من الشعب الكافر، افتحوها لانفسكم!». صحيح ان صراحة البابا اوربان الثانى تبدو من النظرة الاولى غريبة نوعا ما على لسان الراعى المسيحى الاعلى الذى كأنما نسي وعظ الانجيل بحب القريب، بحب الغير، ولكن هذه الصراحة ليست مدهشة اطلاقا، اذا اخذنا بالحسبان ان البابا كان يعرف جيدا من يخاطبهم ومن يتعامل معهم.

لم يكن للكنيسة ان تتوقع اى خير من قطاع الطرق النبلاء، الامر الذى اقتنع به أوربان الثانى مرة اخرى اثناء اقامته فى فرنسا. فعشية انعقاد مجمع كليرمون تقريبا، اضطر الى الاهتمام بقضية واحد من هؤلاء الفرسان الذين يعيثون فسادا، هو المدعو جارنيه دى ترنيل، الذى اسر الاسقف فى جوار مدينة بروفن بصورة لم تكن متوقعة من فارس كان يهدف إلى أن يتقاضى فدية كبيرة عن اسيره الثمين، ولكن تدخل البابا الذى حرم

المصريين ندور كثيره. فرجع هذا الاسقف طالب الكهنه بالرسم الذى كان ياخذه من تقدمه فاخذه منهم. واقسم ايضا راهباً اسمه سنون [زنون] صعيدى على كرسي منيه بنى خصيب اسقفاً، واخر صعيدى من بلاد اسنا كان تاجرا اسمه تاونا اقسمه اسقفاً على كرسى اخميم، وقس من اهل البلينا [محافظة قنا] اسمه ابو البدر خصيب اقسمه اسقفا على كرسى البلينا. وكان البطرك انبا

شهر بشنس يخرجون ذلك الإصبع من الصندوق ويغسلونه فى بحر النيل لزعمهم أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يغسلونه فيه. ويسمون احتفالهم بذلك عيد الشهيد فاشتهرت بهذا الاسم، قال وتعرف بشبرا الخيمة أو الخيم أو الخيام لأن الناس كانوا يحتفلون سنويا بذكرى عيد الشهيد فى خيام ينصبونها على شاطئ النيل بشبرا هذه للإقامة فيها مدة أيام عيد الشهيد فاشتهرت بشبرا الخيمة

---

الفارس من الكنيسة هو وحده الذى اجبر جارنيه على التخلى عن غنيمته «بخفى حنين»، «لوجه الله».

وامثال هؤلاء الفرسان الذين كانوا من قبل مرتزقة لقاء جزاء زهيد هم الذين قصدهم البابا اوربان الثانى فى المقام الاول فى خطابه فى كليرمون وبالطبع، كانت الحياة الابدية فى الجنة السماوية لاتكفيهم ؛ فقد كانوا يتحرقون الى الدور والعقارات ، والى القطع النقدية الرنانة، وغير ذلك من خيرات الارض ونعمها. والشئ نفسه يصح على الاسياد المالكين الذين اخذوا يشعرون بالضيق فى ممتلكاتهم والذين كانوا يسعون الى توسيعها بأى شكل كان. وقد توجه اوربان الثانى فى خطابه الى هؤلاء الاقطاعيين ايضا ناعتا اياهم بتملق وتزلف«بالمقاتلين الجبابرة وباخلاف الاجداد الغزاة».

يزعم بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين ان البابابوية كانت تهتم، اكثر ما تهتم، بتنظيمها الحملة الى الشرق، بالسلام فى اوربا ، وانها حملت ورفعت فكرة مجردة ما، مسيحية من حيث جوهرها واصلها، هى فكرة. اما فى الواقع، فان مطالب الاقطاعيين الاجتماعية والسياسية المحددة تماما قد قامت فى اساس الفكر البابوى بالحرب الصليبية. لقد ارادت الكنيسة الكاثوليكية أن تلبى تحرقهم الى الاراضى والنهب والسلب ولكن خارج حدود اوروبا.

وهو اسمها الحالى.

ميخاييل عظيم السطوه على الرهبان والمتكبرين، وكان يادب من اخطا منهم ليس بالكلام فقط بل والضرب والسجن. ولم يقال عنه قطان [قطّ أن] احد خرج من دينه في ايامه. وكان مدة مقامه على الكرسي ثمانيه شهور واربعه ايام منها ثلثه شهور في عافيه ثم مرض، فلما طال مرضه توجه الى دير القديس ابو مقار واقام فيه مقاسي المرض خمسه شهور الى ان انتفخ وتنيح في يوم الجمعه

---

ولذا كان من شأن الحرب الصليبية ان توطد وتوسع سلطلة الكنيسة الكاثوليكية بالذات ايضا، ليس في الغرب فقط،بل ايضا، في بلدان الشرق.

لن نبسط التاريخ؛ فان الفرسان لم يبقوا عديمى الاكتراث بشعارات الزحف الدينية التى صاغها البابا. فان الاقطاعيين كانوا باغلبيتهم يتصورون الاهداف الفعلية من الحرب، اى اهداف النهب والسلب ،ملفوفة بغطاء ديني. ان انقاذ المقدسات المسيحية كان يرمز فى المخيلة الصليبية إلى امتزاج الاهداف السامية، الدينية، مع التطلعات الدنيوية، العدوانية والاغتصابية المحضة. لم يكن ثمة اى تناقض بالفعل فى امتزاج مبادئ متنافرة على ما يبدو. ان الحرب الصليبية كانت تبدو للفرسان مواصلة للحج، اى بتعبير آخر، ضربا من حج مسلح. وفى هذه الحرب كان يتجسد انكار الذات من اجل الاهداف العليا، لاجل انقاذ الروح بنحو اكيد للغاية، وفعل الندم والتوبة، التكفير عن الذنوب، علما بان الفرسان انفسهم كانوا يتوهمون انفسهم «فقراء بالمسيح» يزدرون، «حبا للمسيح»، المصالح العملية الدنيئة. وفى الوقت نفسه كانت الحرب الصليبية تجسد مأثرة المشتركين فيها امام الرب العلى الذى يجازى ابناءه المخلصين له بالنصر ، وبالغنيمة والثروة والاراضى.

منذ اواخر القرن الحادى عشر، وبخاصة منذ زمن خطاب البابا اوربان الثانى، اخذ ينشأ

مـن جمعه الفصـــح، وهـو الـيوم الثالث مـــن برموده سنه ثلث وستين وثمان مايه للشهدا. وذكرو ان رهبان من قلايه كدران اسقوه سما حتى كان سببا لموته والله يعلم ان كان كما قالو عنهم ام لا، وهو المجازى كل احد باعماله. فكفنوه ودفنوه مع ابايه البطاركـه، رزقنا الله واياكم بركـه صلواتهم. وكانت البيعه في ايامه في هدو وسلامه ولله المجد دايماً.

---

ايمان صليبى اصيل امتلأ به الفرسان، ايمان كان يجمع نكران الذات الدينى (الجهاد) مع الافكار عن المكافأة الارضيه السخية، التى يجازى بها الرب جهود ابنائه المحبوبين القتالية. بهذا الباعث المزدوج جاء خطاب اوربان الثانى، فى كليرمون، وهذا الباعث يتبدى فى جميع الاخبار التاريخية وفى سائر النصوص المحفوظة منذ زمن الحرب (او الحملة) الصليبية الاولى. «ليكلل الثواب المزدوج اولئك الذين كانوا (من قبل)لايرحموا انفسهم لما فيه ضرر اجسادهم وارواحهم ». هكذا قال البابا داعيا الفرسان النهابين وقاطعى الطرق فى الامس، الى الاستيلاء على ثروات الاعداء وارض القدس التى يسيل فيها العسل واللبن انهارا، مانحا غفران الخطايا ، وضامناً الغبطة السماوية للمقاتلين الصليبيين المقبلين.

هذه الايديولوجية كانت منذ بادئ عاملا جبار جدا اسبل رداء دينيا على تطلعات الفرسان الفعلية، الارضية تماما. واحاطت دوافع الفتح والاغتصاب بهالة من القداسة فى عيون الفرسان انفسهم، وصورت الحرب الصليبية بصورة مشروع لخلاص النفس وللفتح والاغتصاب فى آن واحد.

ولكن خطاب اوربان الثانى النارى لم يستمع اليه الفرسان والاقطاعيون وحدهم. فقد استمع اليه كذلك اهل الريف المتضورون جوعا والمعذبون فى العبودية القنية، وكان الفلاحون

---

٧١: ميخائيل ابن دنشترى ١١٤٥/ ١١٤٦م ١٣٣٦

## الاب يوحنا البطرك

## وهو من العدد الثانى والسبعون

## [١١٤٧/١١٦٦م]

جلس هذا الاب فى مملكه الحافظ(*) والظافر ولده والفايز ولد الظافر ومده مقامه على الكرسى تسعه عشر سنه وثمانيه شهور وتنيح فى الرابع من بشنس سنه ثلث وثمانين وثمان مايه للشهدآ. هذا كان راهباً قديسا قسم شماساً عفيفا صالحاً مذكورا

(*) ولد الحافظ فى المحرم سنة ٤٦٧هـ = ١٠٧٤م وتوفى فى ٥ جماد الاخر سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م.

(*) الظافر : ولد ١٥ ربيع الثانى سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٣م. وأغتيل فى ٣٠ المحرم سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤م.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

الفقر اء يرغبون ، اشد ما يرغبون، فى التخلص من نير الاقطاعيين، ولهذا السبب بالذات كانوا يحلمون بالمأثرة التكفيرية. وان البابا،سواء شاء ام ابى، قد اوضح لهم الآن من حيث الجوهر، مباشرة وصراحة ما يجب ان يكون عليه قوام هذه المأثرة، اوليس الى عذاباتهم قد ألمح حين قال ان هذه الارض بالكاد تطعم الذين يحرثونها؟ وبالوعد بخلاص «الشهداء» الابدى، بخلاص المجاهدين من اجل القضية المقدسة، واكثر من ذلك بالشقشقات عن بلد الحكايات حيث يسيل العسل واللبن انهارا، اهاج البابا الفلاحين الفقراء ايضا. الأرض والحرية. هذا ما كان يتراءى فى خطابه للزراع المغبونين والمحرومين. وهذه وتلك ـ الارض والحرية ـ كانتا تبدوان لهم ممكنتى البلوغ تماما؛ ذلك ان البابا، سعيا منه الى التعجيل فى حملة الفرسان الذين كانت مآثرهم اللصوصية تهدد رفاهية كبار المالكين الاقطاعيين وطمأنينتهم، قد اكد للصليبيين المقبلين ان السبيل الى القدس ليس طويلا وان بلوغ المدينة المقدسة لايتطلب جهودا جدية ما. ولربما كان هكذا يفكر ايضا بالفعل ؛ ذلك ان التصورات عن البلدان الآسيوية فى اوروبا كانت لاتزال فى ذلك الزمن غامضة جدا ومتغيرة على العموم؛ ولكن لربما استصغر البابا قصدا وعمدا اعباء الحملة المقبلة امام المستمعين الذين كانوا يعرفون حقيقة الامر اقل من البابا نفسه، لادراكه ان الهلاك المحتم يتهدد الالآف «ممن لاارض عندهم» ومن الفلاحين الفقراء الذين يدفعونهم الآن فى درب الرب العلى.

في الرهبان من دير ابو يحنس، وكان قد حضر تقدمه انبا ميخاييل المتنيح وذكر اسمه في الرقاع الثلثه التي كتبوها ورفعوها على الهياكل كما شرحنا فيما تقدم فاتفق الراى على تقدمته وسيرو اليه من الكهنه من يحضره الى مصر فاحضروه، واقسم قساً ثم قمصاً بكنيسه المعلقه بمصر، وحضر يونس ابن كدران الذى تقدم شرحه في سيره انبا ميخاييل المتنيح وجدد الطلب من

(*) الفائز: ولد في ٢١ المحرم سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م، توفي في ١٧ رجب سنة ٥٥٥هـ = ١١٦٠م.

---

ومهما يكن من امر، فقد سرى مفعول خطاب البابا اوربان الثاني في كليرمون، متجاوزا كثيرا توقعات البابا بالذات، وحتى غير متطابق بقدر ما، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين الى الحرب الصليبية. اغلب الظن ان البابا اوربان حزر احتمال مثل هذا الصدى، والا لما طفق ينصح الناس الضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح بالبقاء في مطارحهم؛ فان هؤلاء الناس، كما قال البابا، هم عقبة كبيرة اكثر منهم عون، وهم بالاحرى عبء، ولن يعودوا بالنفع . ولكنه كان من المستحيل ايقاف الفقراء وردعهم.

اما الفرسان والاسياد، فان النداء الى تحرير الارض المقدسة قد وقع بينهم في تربة صالحة تماما.

## حملة الفقراء

نشرت الشائعة على آلاف الالسن بسرعة في عموم الغرب بما فيه الجزر البحرية الانباء عن مجمع كليرمون وعن الحملة العتيدة الى القدس. وقد بدأت الاستعدادات في فرنسا قبل كل شئ لانه كان يسود فيها بالذات جو مفعم كليا بالانفعال الديني. وقد ساعد نشاط رجال الكنيسة الوعظي بقسط كبير في كنائسهم من اجل الحرب الصليبية. وبعد فترة قصيرة، كلف بمثل هذه المهمة بعضا من اوسع الاساقفة ورؤساء الاديرة نفوذا؛ بعضهم كلفوا بالوعظ في وادى اللوار وبعضهم الآخر في نورمنديا، والخ..

السلطان الحاضر على يد من توسط حاله عنده، وخرج امره بعقد مجلس له ولمن طلب غيره، فحضرو الاساقفه بحضور خواص الدوله وصاحب الباب وقاضى القضاه وصاحب ديوان الانشا وغيرهم من صدور الدوله وكبارها والمميزين، وجرى فى ذلك خطوب ومفاوضات، فقال من حضر من الاساقفه والكهنه ليس لهم بطرك الا من طلبوه ورغبو فيه ولا يكون هو طالب ولا راغب

---

والبابا اوربان الثانى نفسه بقى فى فرنسا، وذلك لمدة ثمانية اشهر بكاملها. وفى هذه الحقبة، راح الى ليموج وانجيه، والقى خطابات فى مجمعى تور ونيم، ودعا الى الحرب الصليبية . كتب مؤرخ فرنسى: «حيثما كان، كان يأمر فى كل مكان باعداد الصلبان وبالتوجه الى القدس لاجل تحريرها من السلجوقيين . كذلك ارسل البابا رسائل بمثل هذه الدعوات الى الفلاندر والى مدينتى بولونيا وجنوه الايطاليتين.

وفضلا عن ذوى المقامات الرفيعة فى الكنيسة ، اخذ يدعو الى الحرب الصليبية وعاظ متعصبون من عداد الاخوة الرهبان ظهروا فى مختلف الاماكن، وكذلك مجرد معتوهين شرعوا يدعون المستمعين الى القتال من اجل المقدسات المسيحية. فان الحرب الصليبية ، كما كانوا يقولون ، عمل ربانى وليست عملا انسانيا؛ وللبرهان على ذلك كانوا يروون شتى الخرافات ــ عن الرؤى النبوئية، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين، وعن العلامات السماوية التى تنبئ بمعركة المسيحيين المقبلة ضد اتباع الاسلام.

ان رئيس الدير والمؤرخ الالمانى ايكيهارد من آورر، الذين كتب فى اوائل القرن الثانى عشر، اى بعد الحرب الصليبية الاولى، والذى كان مقتنعا حقا وفعلا بان حرب القدس لم يقررها الناس بقدر ما قررتها الافضال الربانية، وبانها قامت وفقا للتنبؤات الانجيلية، يورد فى الفصل

وهذه سنه القــوم من اول مــا عــبــدو الله بدين النصرانيه والى هذا الوقت، وقد سبق داوود النبى بالنبوه على ما يكون لكونهم ما يقيمو الا من رغبو فيه لا من رغب فيهم فقال فى المزمور ١٤٩ : يوثقو ملوكـهم بالقيود واشرافهم بسلاسل من حديد. فهم اذا صح عندهم ان الرجل الذى يريدو يقدموه عليهم كامل اوصاف شريعتهم من القدس والدين والعلم والصــلاح والعـفـاف والرحـمـه وبقيـه مـا

---

العاشر من مؤلفه («عن اضطهاد وتحرير وبعث كنيسة القدس المقدسة»)قائمة طويلة بالعجائب التى وقعت سنة ١٠٩٦عشية الحملة. وفى هذه القائمة الفريدة نجد سحبا حمراء دموية تسبح من الشرق الى الغرب ثم تتصادم فيما بينها، وبقع تظهر على الشمس، ومذنبات متطايرة بسرعة خاطفة. وانبأ احد الكهنة رعيته انه رأى فى السماء فارسين يتقاتلان. وقد انتصر ذاك الذى قاتل حاملا بيده صليبا كبيرا. وكانوا يتحدثون عن هدير المعارك المنداح فى السماء وعن مدينة سماوية تراءت لاحدهم ولم تكن بالطبع سوى القدس.

وانتشرت على نطاق واسع شهادات زُعم انها سقطت من السماء واعلن فيها الرب عن عزمه على حماية فرسان الرب، المقاتلين من اجل الرب. ويؤكد ايكيهارد من آوور انه امسك فى يديه نسخة عن هذه الرسالة السماوية(اما الاصل، فيزعم انه كان محفوظا فى كنيسة القبر المقدس فى القدس).

وكتب رئيس الدير المؤرخ ان بعض الناس«كانوا يعرضون علامة الصليب منطبعة من تلقاء ذاتها، بطريقة ربانية، على جباههم او على ألبستهم او على جزء ما من اجسامهم»، وانها كانت حسب رأى الجميع، اشارة من الاله العلى بانه يجب بدء الحرب ضد الهراطقة. والظاهرات غير العادية فى الطبيعية وفى الحياة البشرية، ايا كانت، ومنها، مثلا، وضع المرأة قبل الموعد، كانوا يعتبرونها دليلا على اقتراب احداث رهيبة.

---

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

يحتاجوه ان يكون فيه على حكم مذهبهم اخذوه
كرها من غير اختياره وقيدوه بالقيد الحديد ليلا
يهرب منهم الى البريه الجوانيه فلا يقدرو عليه، لان
قليل هم اهل هذه الصفه، وان كانو الكل ابايننا
واخوتنا فاهل هذه الطبقه لا يوجد منهم الا من
الالف واحد يكون قد توحد وقد تفرد وترك العالم
وهرب منهم وجعل حياته مع وحش الجبال وسباع
البريه فنقل الله طبع السباع الكاسره والوحوش

---

ولكن كانت مواعظ الاساقفة ورؤساء الاديرة معدة لاجل الفرسان ولاجل الاعيان الاقطاعيين، فان الرهبان والمعتوهين كانو ا يخاطبون الناس البسطاء. ولهذا اكتسب آنذاك اكبر قدر من الشعبية بين الجماهير الراهب روبر دابريسل ولاسيما الراهب بطرس الناسك من بيكاردى، الواعظان المتعصبان للحرب المقدسة، اللذان خطبا في شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ بصورة رئيسية في القسم الشمالي الشرقي من فرنسا وفي اللورين، علما بان بطرس الناسك وعظ كذلك(بعد فترة من الوقت) في مدن منطقة الرين في المانيا، وهذا وذاك عملا، بموجب تكليف من اوربان الثاني.

يصور مدونو الاخبار ومن بعدهم كثيرون من المؤرخين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بطرس الناسك بصورة متعصب متحمس مهووس. وهو ايضا عرض رسالة تلقاها، حسب زعمه، من الرب يطالب فيها الكلي القدرة بتحرير القدس. وكان بطرس الناسك يروى للجموع المحتشدة حوله انه، اثناء الحج في القدس. رأى في نومه الرب بذاته، وان الرب امره، هو الراهب الوضيع بان يوجه اقدامه الى بطريرك القدس، وبان يعرف منه بلايا الارض المقدسة تحت نير الكفار، وبان يعود الى الغرب ويوقظ فيه «قلوب المؤمنين لاجل تطهير الاماكن المقدسة». وها هو ذا الآن ، بطرس، الذى اجتاز البحر بمصاعب كبيرة ونقل ارادة الرب الى بابا روما، يدعو مستمعيه الى امتشاق السلاح.

الضاريه الى مسالمته. وان الاسوده اذا راته تاتي اليه وتسجد عند رجليه فيبارك عليها ويستانس بها ولا تضره. لمثل ذلك الشخص يطلبو النصارى ان يكون مقدم عليهم، فان لم يجدوه قدمو غيره من اهل الاتضاع والعلم والدين ومن يشهد له بالعفاف والطهر ولا يجوز لهم ان يقدمو عليهم من رغب فيهم ولا من طلب بالسلطان. فلما قالو هذا الكلام تقرر ان يكتب سجلا ويسير الحاجب معهم

---

من قديم الزمان اثبت الباحثون بطلان هذه الخرافات. ولكنه من المعلوم كذلك ان بطرس ناسك(او بطرس من اميان، كما يسمونه احيانا نسبة الى مسقط رأسه) كان يتحلى بموهبة خطابية ممتازة؛ فان خطابات هذا الراهب لم تكن تؤثر في الشعب وحسب، بل ايضا في فرسان. ان نمط حياة بطرس الناسك، وتقشفه وزهده، ونزاهته (كان يمضي مرتديا اسمالا صوفية على جسم عار، ولم يكن يأكل لا الخبز ولااللحم، وكان يتغذى بالسمك فقط، وكان لمكه الوحيد بغلا)، كان يكسبه شهرة كبيرة بين الفلاحين؛ فكانوا يرون فيه رجل الرب كانت الجموع تسير وراءه كأنما وراء قديس او نبي. كان يستهويهم فقره وسمعته كراهب ءاء من كل بذخ، ويعرف كيف يصالح بين المتجادلين والمتنازعين. ويروى جيبرت من رجان:«كان كثيرون ينتفون الشعر من جلد بغله لكي يحفظوه كذخيرة... انا لا اتذكر شخصا حظي ذات يوم بمثل هذا التشريف».

وقد فهمت الجماهير الشعبية على طريقتها الاهداف التي نادت بها البابوية من الحملة صليبية؛ فان برنامج الكنيسة الكاثوليكية كان يتحول في وعي الفلاحين وفقا لمصالحهم، لعادية من حيث الجوهر لمصالح منظمي وملهمي الحملة الصليبية الكنسيين والاقطاعيين. مع ان بطرس الناسك، مثله مثل الواعظين الآخرين من امثاله، كان يطبق خطط البابا فعلا

الي مـدينه الاسكندريه ليعـقـد لهم فـيـها مـجلس
ويحـضره اكابر النصارى واراخنتهـا وكـهنتـهـا واى
من رغبـو فـيـه، امـا يوحنا وامـا يونس ابن كـدران
فيقدموه لوقته. فسارو الي مدينه الاسكندريه وعقد
لهم مجلس فى دار الاماره بحضور الوالى والقاضى
وكـبـار اراخنتهـا والنصـارى المستـخـدمين والتـجـار
والاساقفه السايرين اليها من كراسيهم والمصريين
والقاهرين ومن كان معهم. وسال الوالى والقاضى

---

ورسـميا ، الا انه كـان يعبر في الوقت نفسه على طريقتـه، والى حـد مـا، عن امانى الفئـات السـفلى. عـلـى كل حـال، مـن المشكـوك فيـه ان يكـون البـابا اوربان الثـاني قـد فكر فى انتـزاع الكادحين مـن امـاكنهم، والاسـهـام في فـرار الاقنان مـن أسـيـادهم؛ وفى افـضل الاحـوال، كان يريد، اغلب الظن، ان يحمل الشعب على تقديم الدعم المادى للفرسان. وحين رأى رجال الكنيسـة بعد فترة وجيزة اى غليان واسع استثـارته في الفئـات الدنيا، وفي المقام الاول بين الفلاحين، النداءات الى الحرب الصليبيـة، قاموا بمحاولات لحجز الاقنان، ولكن عبثا.

في شتاء ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦ اجتمعت في فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء المستعدين للذهاب الى المناطق البعيدة.

ان افعال جماهير الفلاحين قد اشترطها العوز المدقع والرهيب الذى كانت تعانيه القرى آنذاك واشتراطها اقوى بكثير مما اشترطتها المواعظ التقية. كان الجوع يجبر الفلاحين على التسـرع، ولذا كانت تجمعاتهم تجرى فى تسرع محموم. كان كل امرئ، كما يقول مدونوا الاخبار، «يبيع افضل قسم من امواله بسعر زهيد، كأنما كان في عبودية قاسية او كان معتقلا في السجن ».

والفقها الحاضرين عقد المجلس النصارى قايلين قد
امر مولانا سلام الله عليه ان الذى ترغبو فيه من
هذين الرجلين قدموه عليكم فاتفقو على من
ترتضو به منهما. فصاحو جميعهم بكلمه واحده
يونس [يوحنا] ابن ابو الفتح بطركنا وهو مستحق
لهذه الرتبه. وكان ذلك فى ايام خلافه الحافظ
وذكر من حضر عقد هذا المجلس من المسلمين
ان رجلا منهم قال ليونس [يوحنا] ابن ابو

---

يقينا انه لم يكن بمقدور جيبرت دى نوجان ان يفهم الى النهاية دوافع الفلاحين الحقيقية. وقد نشأ عنده انطباع كأن الفلاحين الفقراء كانوا يخربون قصدا وعمدا انفسهم :«كانوا يشترون كل شئ باسعار غالية ويبعون باسعار بخسة... كانوا يشترون كل ما كانوا بحاجة الى استعماله ى الطريق ويبيعون باسعار بخسة ما يجب به تغطية التكاليف». ويؤكد دقة مزاج الجماهير لفلاحية. وعن التسرع الاعظم الذى كان يحاول الفلاحون الفقراء النزوح به يكتب آخرون من مدونى الاخبار. كان يخيل ـ وكان ذلك بالفعل ـ ان الفلاحين يتحرقون بفارغ الصبر للذهاب الى ملاقاة الخطر.

وبديهى ان كثيرين منهم كانوا منتشين بالحماسة الدينية المفرطة؛ كان الذاهبون يصلون فائق الحرارة، وكان بعضهم يوسم بالنار صليبا على جسمه؛ وكان ذلك مطابقا تماما لروح لزمن . ولكن فقراء الريف كانوا يسرعون لانهم كانوا لايريدون انتظار الاسياد. كان الاقنان يسرعون بالاحرى للخلاص من مضايقات الاسياد، وهذا السعى كان يخنق جميع دوافع لتقى فى جماهير الفلاحين.

فى مارس ١٠٩٦ نهضت اول جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن لفلاندر ولورين والمانيا(من الرين الاسفل) ثم من بلدان اخرى فى اوربا الغربية (مثلا، من

الفـتح في المجلس مـا تقـول انت في هذا الرجل
اعني يونس ابن كـدران اهو مـستـحق لهـذه الرتبـه
دونك. فقال: نعم هو اصلح مني واعلم بالشـريعه.
فاستحسنو ذلك منه وعظم قدره في اعينهم منجل
[من اجل] هذا الكلام، وللوقت قدموه بطركا في
يوم الاحد ثاني النسي سنه ثلث وستين وثمان مايه
للشـهـدا الابرار، وكـمل تكريزه بالاسكندريه وعـاد
الي مصر، وتلقاه النصارى بالقاهره ومصر باحسن

---

انجلـترا) الى «الحج المقـدس». كـان الفـلاحـون يمضـون بلا سـلاح تقـريبـا. كـانت الهـراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف، ناهيك بان ليس الجميع كانوا يملكون ادوات العمل الزراعي هذه.«الجموع العزلاء من السـلاح». هكذا ستـسميهم فيما بعد الكاتبة المؤرخة اليونانية حنة كومنينة. ولم يكن معهم اى حصان او اية احتياطيات تقريبا. كانوا يتحركون مثل حشود غير منتظمة من النازحين، بعضـهـم مشيا على الاقدام، وآخرون على عربات من عجلتين تجرها ثيران ، مع نسائهم واولادهم وامتعتهم البيتية الحقيرة. كان الاقنان يـتـعـدون عن الاسر الاقطاعي ، عن المضـايقات والمجاعـة ، آملين سرا في تدبير امـورهم بنحـو افضل في امـاكن جديدة، في «ارض الميعاد». وعلى الطرقات التي سبق ان طرقها الحجاج بمحـاذاة نهر الراين ونهر الدانوب إلى القسطنطينية، كـانت تمتد أرتال العربات. كان ثـمـة طريقان كبيرتان تجتازان شبه جزيرة البلقان وتؤديان الى عاصمة بيزنطية. لم يكن الحال هادئا في هذه الطرق بسبب من غارات قبائل البتشـينيغ، وكـان الحجاج يمضـون عادة على طريق اغناطيوس. ولكن فصـائل الفلاحين الفقراء كانت تندفع بالضـبط عبر بلغراد ـ نيش ، الى الجنوب الشرقي، الى القسطنطينية.

كـان يمضي عـشـرات الآلاف من الفـقـراء المسـاكين. وكـانت فصيلة الفـلاحين من فـرنسـا

ملقا وسارو بين يديه الى كنيسه ابو مرقوره مستقر سكنه، وفرحو به فرحاً عظيما. وقصد ان يطيب قلب يونس ابن كدران واخوته الرهبان بان يقسمه اسقفا على سمنود فامتنع ولم يطيعه ولم يزل وقت مقيم بالدير ووقت مقيم بالريف حتى مات.

وفى ايام الحافظ نقب رضوان ابن وخشى الموضع الذى كان فيه بالقصر وخرج من النقب

---

الشمالية الذين كان يقودهم الفارس جوتيه المعدم (Gautier Sans Avoir)تضم زهاء ١٥الفا (كان ٥آلاف منهم فقط مسلحين كيفما اتفق)؛ وكانت الفصيلة برئاسة بطرس الناسك تضم زهاء ١٤الفا. وكان ٦ آلاف فلاح يسيرون بامرة الفارس الفرنسى فولهير دى اورليان. والعدد نفسه تقريبا من الفلاحين سار وراء الكاهن جوتشالك الذى ليس عبثا نعته ايكيهارد دى آوورا «بالخادم الكذاب للرب»؛ وكانت الفصيلة الانجليزية اللوينية تتألف من زهاء الفين. وجمع فئات الصليبيين هذه كانت تتصرف متشتتة، دون تناسق. وكانت محرومة من كل انضباطا وطاعة.

وآنذاك ، حاول اشد الفرسان نزعة الى القتال استغلال الحركة الفلاحية فى اهدافهم. ومن هؤلاء كان الفرسان الفرنسيون جوتيه المعدم واخوته الثلاثة وعمه (واسمه جوتيه ايضا)، وفولهير دى اورليان، وغليون النجار، وفيكونت ميلان وغاتينه (قد نال لقبه بسبب قوة قبضته؛ ومع الفلاحين الذين انطلقوا من المانيا، توجهت كذلك جملة من الفرسان المغامرين ـ من مقاطعات الرين وفرنكونيا وشوابيا وبافاريا. وكان منهم المدعو فولكمار، والكونت اميخ دى ليينجن، الذى لم يكن من فئة الفقراء (فان ممتلكاته كانت تقع بن ترير ومايننس وكان على قرابة من رئيس اساقفة ما ينس)، ولكنه كان يتميز ببخل لايصدق وباخلاق اللصوص وقطاع الطرق، وهوج توبينجن ، والكونت هارتمان فون ديللينجن.

---

وعدى الى الجيزه[*] وحشد جماعه من الاجناد والعربان والمغاربه ودخل الى القاهره وامر ونهى، وفى بقيه يوم دخوله اليها قتل داخل الجامع الاقمر الذى عند الركن المخلق بيد السودان ومن اتفق معهم من الاجناد. واستمر الامام الحافظ بغير وزير الى ان مات. وبعد ان قتل رضوان ابن ولخشى الوزير اعاد مولانا الحافظ الشيخ صنيعه الخلافه ابن يونس الى ديوانه بالقصر واثبات خطه فيه

(*) هروب رضوان ابن ولخشى وجمعه للعربان والمغاربه واحتلال القاهرة ورغم ذلك قتله الجند السودان فى جامع الأقمر.

---

اراد الفرسان ان يستولوا على قيادة الشعب البسيط ، وقد افلحوا جزئيا فى ذلك. فان الفرسان القادة من طراز غليوم النجار واميخ دى لينينجن كانوا يبدون اثناء الزحف اكبر قدر من الوقاحة والقساوة. وللمناسبة نقول ان هذين الاثنين قد نهبا قبل سفرهما الكنائس فى ممتلكاتهما لكى يؤمنا لنفسهما النقود للطريق.

صحيح ان فصائل الفلاحين كانت تتخللها عناصر اقطاعية، ولكن طابع الحركة بمجملها لم يتغير ، بل انها احتفظت حتى بسيمائها الخارجية. ان حركة الفلاحين، العفوية منذ نشأتها، قد جرت بدون أى تنظيم صحيح، بدون خطة عامة. كان الفلاحون الفقراء الصليبيون يتصورون تصورا غامضا الغاية مكان الهدف النهائى من حملتهم . ويستفاد من أقوال جيبرت دى نوجان ان الاولاد الصغار الذين كانوا مع كبار فى عربات والذين كنوا يستمعون الى احاديثهم عن مدينة المقدسة المجهولة، كانوا كلما رأوا فى الطريق قصرا او مدينة ما ، يسألون ما اذا لم تكن هذه القدس التى يمضون اليها.

فى مقدمة فصيلة بطرس الناسك، كانت تسير.....وزة وعنزة. كانتا تعتبران مفعمتين بالهناءة الربانية وتتمتعان باحترام كبير بين الفلاحين؛ يقول ألبر دى آخن انهم كانوا «يبدون» ازاءهما «علائم الاحترام التقى فوق الحد، وكانت العساكر العظيمة ، مثل الماشية، تسير اثرهما مؤمنة فى ذلك من صميم الروح». كان الفلاحون يرون فى الحيوانين زعيمين لهم.

بامضايه، واستخدم الشيخ صنيعه الخلافه من قبله صاحبى ديوان احدهما ديوان المجلس، والاخر لديوان التحقيق، وصار منه الى الخليفه ومنهما اليه وهو الواسطه بين الخليفه وبين كافه الناس من الكبار وغيرهم. وكان يستخدم ولاة الحروب فى الولايات كبارها وصغارها، ونكته [عزله] الحافظ واخذ منه مالا كثير ثم اعاده واستخدمه، واستمر معه هكذى نكته وخدمه دفعه بعد اخرى الى ان

---

صحيح ان الفرسان انضموا الى جموع الفلاحين، ولكن الاقنان انفسهم كانوا يحاولون ان يتخلصوا قدر الامكان من رفاق الطريق النبلاء. وعندما وصلت فصيلة بطرس الناسك إلى كولونيا (١٢ إبريل ١٠٩٦) تابعت جماهير الفلاحين مسيرتها بينما تخلف عنها زهاء ٣٠٠فارس فرنسى لم يغادروا المدينة الا بعد مرور اسبوع على الاقامة فيها. وكان من الجلى ان الاقنان لا تطيب لهم رفقة الفرسان فى الطريق. كان يتعين عليهم احيانا ان يقبلوا المغامرين الاقطاعيين بصفة آمرين عسكريين؛ ولكن تطلعات الفلاحين الفقراء وتطلعات الفرسان كانت من حيث جوهرها متضادة تماما.

فى الطريق سلك الصليبيون سلوك النهابين. فاثناء مرورهم فى اراضى المجر والبلغار، كانوا ينتزعون المأكولات بالعنف من السكان، ويسوقون الاحصنة والبقر والغنم ويقتلون ويغتصبون. كان النهب والسلب بالنسبة للفقراء الاسلوب الوحيد لتحصيل ما يأكلونه. وكان الفرسان يواصلون النهب والسلب بعد دخلولهم اراضى بيزنطية. لم يكن لدى الفلاحين نقود لكى يدفعوا ثمن المؤونة المقدمة لهم بامر الامبراطور الكسيوس كومنينوس. ناهيك بان عددا لايستهان به من العناصر الإجرامية الذين كانوا يرون فى المشروع الصليبى مجرد وسيلة ملائمة لاجل النهب والسلب، ـ«ان كثيرين من شتى الأوباش قد التحقوا بالعسكر الصليبى، لاكى

---

تمـو عليه الكتاب الذى استخدمهم المستمرين
اصطفاهم وقربهم اليه ومال اليهم وانكشف عليهم
واطلعهم على سره فرافعو ووافقوه واثبتو فى جهته
مال كثير فامر الحافظ باعتقاله فى خزانه البنود،
ولم يزالو يفسـدو قلب الحافظ عليه الى ان قتله
بالسيف هو واخ له صغير يسمى ابو المحاسن، لان
اعداه حملو [سجنوا] زهر الدوله الصقلابى الى
خزانه البنود الى ان نقل عنهما انهما شتما الخليفه

---

يكفروا عن الخطايا، بل لكى يقترفوا خطايا جديدة». هكذا يصف احد مدونى الاخبار هؤلاء الصليبيين.

ويقع قسط كبير من المسؤولية عن النهب والسلب فى اراضى المجريين والبلغار على عاتق عصابات الفرسان التى انضمت الى جموع الفلاحين.

رد المجريون والبلغار واليونانيون ردا حازما على محررى قبر السيد المسيح غير المنتظرين. فقد كانوا يبيدون الصليبيين بلا رحمة، وينتزعون منهم الغنيمة التى استولوا عليها، ويطاردون الباقين. وفى الاشتباكات كان الصليبيون يكابدون خسائر كبيرة. ويستفاد من شهادة البرت دى آخن ان فصيلة بطرس الناسك التى اضطرت الى مقاتلة عساكر بيزنطيين فى جوار مدينة نيش قد غادرت المنطقة بعد ان خسرت ربع اعضائها.

اتجه الفلاحون الفقراء الصليبيون نحو عاصمة الروم متجنبين فيليبوبول وادريانوبول. وشرعت جموع الفلاحين تصل الى العاصمة منذ اواسط يوليو ١٠٩٦ وكانت قد نقصت كثيرا: ذلك انه كان قد مضى اكثر من ثلاثة اشهر منذ بداية الحملة. كانت فصيلة جوتيه المعدم اول فصيلة تقترب من القسطنطينية، ثم بعد اسبوعين، فى اول أغسطس، انضمت اليها فصيلة بطرس الناسك. ان كثيرين من الفلاحين الذين كانوا يأملون فى نيل الحرية فى اراضى

فامر للوقت بقتلهما فضربت اعناقهما بالسيف ظلما، فلما يهمل الله امرهما ولا غفل عن دماهما فابتلا زهر الدوله الصقلابى بمرض الاستسقا فاقام به اياما يسيره حتى شاهدو الناس فيه قدره الله وعرفو انه عاقبه بسببهما وانهما بريان وتعجبو من سرعه المكافاه له والمقاصصه ومجدو الله على ذلك. وكانو قوم سحره مستخدمين مع صنيعة الخلافه وهم الذين[حسدوه و] حملو عليه زهر

---

العسل واللبن، لم يتسن لهم حتى ان يصلوا الى القسطنطينية؛ فان الصليبيين قد خسروا فى اوروبا زهاء ٣٠الف رجل . وكادت تهلك كليا فصائل فولكمار وجوتشالك واميخ لينين، رغم ان قادتها انفسهم سلموا ووصلوا الى القسطنطينية.

ان الصليبيين الذين فسدت معنوياتهم باعمال السلب والنهب السابقة قد سلكوا فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ايضا سلوكا منفلتا لاضابط له. فقد كانوا يدمرون ويحرقون القصور في ضواحي المدينة، ويتخاطفون صفائح الرصاص التي كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها.

في البدء حاولت الحكومة البيزنطية ان تبدى الصبر حيال القادمين ذوى الثياب الرثة. حتى ان الامبراطور الكسيوس كومنينوس استقبل في قصره بطرس الناسك وفولكمار. ويروى البر دى آخن في مؤلفه «تاريخ القدس» عن هذا اللقاء كما يلى«كان بطرس، على صغر قامته، يتحلى بعقل عظيم ويتميز بالبلاغة. وقد ساقة رسل الامبراطور مع فولكمار الى الامبراطور، لكى يتأكد من صحة الشائعة التى بلغته عن بطرس ووقف بطرس بثقة امام الامبراطور وحياه باسم السيد يسوع المسيح وحدثه بجميع التفاصيل عن مغادرته لوطنه بدافع حبه للمسيح ورغبته فى زيارة قبرة المقدس. كذلك ذكر البلايا التى اضطر الى تحملها فى وقت قصير وقال

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

الدوله الصقلابى حتى فعل به ما تقدم شرحه
لعداوه بينه وبينه فلقاهم الله فعلهم ومشيهم على
الدمآ فقتلهم مولانا الحافظ بالسيف الذى قتله به
فى الموضع الذى قتل فيه صنيعه الخلافه واخيه
ووقعت دما السحره على دماهما، وصدق كلام
الله القايل: «من اهرق دم فى العالم يهرق دمه».
وكانت مكافاه السحره بذلك بعد ان قتل صنيعه
الخلافه بدو السنه.

---

للامبراطور ان الاسياد الجبابرة، والكونتات، والدوقات اللامعين سيظهرون عما قريب على اثره. ونصح الامبراطور الكسيوس الاول بدوره زعيم الصليبيين (بطرس) ذوى الثياب الرثة بانتظار الصليبيين الفرسان. وقال: «لاتعبروا البوسفور قبل وصول القوات الرئيسية من العساكر الصليبية، فأنتم قليلون للغاية حتي تقهروا الاتراك». بل ان الفاسيلفس زود الفقراء ببعض الاموال لكي يمكنهم من البقاء بعض الوقت في العاصمة. ولكن عبثا!

كان الفلاحون يندفعون الى «ارض الميعاد»؛ وبما ان الامبراطور الكسيوس الاول قد اقتنع بان لاجدوى من محاولات الاقناع، فقد رأى من الافضل التخلص بأسرع وقت من الحلفاء غير المدعوين. وبعد مرور اقل من اسبوع على وصول بطرس الناسك الى القسطنطينية، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين الى الساحل الآسيوى من البوسفور. وقد جمعوا جموع القادمين واسكنوهم مخيما على الساحل الجنوبى من خليج نيقوميديا، على بعد زهاء ٣٥ك م الى الشمال الغربى من مدينة نيقية، ومن هنا، اخذت بعض الفصائل تقوم على عهدتها ومسؤليتها بغارات بعيدة الى هذا الحد او ذاك وتقاتل السلجوقيين. واخذ بطرس الناسك على نفسه مهمة القيادة العامة، ولكنه لم يكن يصلح لها البتة؛ وقد حاول ان يوقف عساكره، ولكن عبثا. فعاد الى القسطنطينية.

ثم مات الحافظ فى الرابع من جمادى الاخره سنه اربع واربعين وخمس مايه الهلاليه(*)، وجلس بعده ولده ابو منصور ابن اسمعيل وبويع له اهله واخوته ورجال دولته وانعتوه بالامام الظافر، ووزر له من امرا دولته امير نعته نجم الدين ابن مصال لانه كان من خواص الحافظ ابوه ومن كبار دولته، وكان يرجع الى رايه ومشورته. فنافق عليه امير يسمى على ابن السلار كان واليا بثغر الاسكندريه

(*) من الملاحظ شيوع استخدام التأريخ الهجرى فى هذا الجزء من السير وما بعدها. ولذلك سوف ارصد إلى جانبه التأريخ القبطى حتى يتصل بسلسال التواريخ السابقة. اما سنة ٥٤٤هـ فتعادل سنة ٨٦٥ قبطيه و سنة ١١٤٩م.

---

وبعد فترة وجيزة سرت فى المخيم الرئيسى اشاعة مفادها ان النورمانيين احتلوا نيقية. فهيج هذا الخبز سائر الصليبيين الذين كانوا يخافون من تفويت نصيبهم من الغنيمة. واندفعوا فى الحال الى نيقية. وقبل ان يصلوا اليها، قابلتهم العساكر السلجوقية التى استعدت فى الوقت المناسب للاشتباك مع عساكر المسيح (هكذا يسميهم فى المعتاد مدونو الاخبار الاثينيون). وفى ٢١اكتوبر ١٠٩٦ سحق السلجوقيون من فصائل الصليبيين ٢٥الف رجل. وفى عداد من سقطوا، كان بعض القادة وبينهم جوتيه المعدم. ووقع كثيرون من الفلاحين الفقراء الاسر وبيعوا عبيدا. واستطاع زهاء ٣آلاف رجل تحاشى القتل والاسر بالفرار العاصف الى القسطنطينية. وحاول بعضهم بعد بيع امتعته هنا ان يعود الى الوطن، وبقى الآخرون ينتظرون وصول الكونتات والدوقات اللامعين.

هكذا كانت النهاية الفاجعة لمحاولات الاقنان الفرار من سلطة الاسياد. ان حملة الفقراء الصليبية لم تكن فى اساسها سوى عمل اصيل، مزين برداء الدين، اعرب به الاقنان عن احتجاجهم الاجتماعى على الاوضاع الاقطاعية. وكانت نوعا ما مواصلة لنضالات الريف القنى السابقة، الطائشة، ضد الاقطاعية. وتأتى لجماهير الاقنان ان تدفع ثمنها غالبا لمحاولتها تحقيق حلمها فى التحرر بانجاز مأثرة دينية. ان الاوهام الساذجة التى غذتها الكنيسة فى جماهير

فحشد الاجناد وعدى الى الغربيه فاجتمع معه
اجنادها وعربانها وصار معه عسكر كبير، وكان
اميـر من جنس ملوك الملمين [المسلمين] بالغرب
يسمى عباس من اولاد الامير تميم ابن باديس واليا
بالغربيه، وكانت امه اسمها بلوره زوجه هذا على
ابن السلار، فلما بدى [ذهب] الى الغربيه اخذ
عباس واليها معه وسار الى القاهره فدخلها على
ابن السلار وملكها في شعبان سنه اربع واربعين

---

الاقنان المسحوقة تحت وطأة الفقر الفكرى قد تبددت لدن اول اصطدام بالواقع الفعلى. ان الفلاحين لم يكسبوا فى الشرق الارض والحرية، بل كسبوا هلاكهم وحسب..

## بداية حرب الفرسان

بينما كان الاقنان الذين اندفعوا نحو الشرق اما قد لقوا مصرعهم واما فى الطريق الى هذه النهاية، بدأت حرب الفرسان الصليبية، والاصح القول، الحرب التى كانت يعود فيها الدور الحاسم اليهم، اذ ان جماهير الفلاحين الفقراء التى كانت تابعة للكونتات والدوقات قد اشتركت فيها.

فى اغسطس ١٠٩٦، تحركت طوابير كبيرة من اللورين ومن على الضفة اليمنى من نهر الرين وكان يرأسها دوق اللورين السفلى جودفرى دى بوين الرابع Godefroy IV de Boulone dit Bouillan (بويون قصر فى جبال الاردين). الا ان اللقب الدوقى والاصل النبيل الاريستقراطى لم يؤمنا له ثبات ممتلكاته؛ فلم يكن سيدا مطلق السيادة الا فى دوقية انفرس وفى قصر بويون، بينما القسم الباقى من اللورين السفلى كان الامبراطور الالمانى قد انعم به عليه كاقطاع. وبفتح الاراضى فى البلدان الشرقية كان جودفروا الرابع يأمل فى شغل مواقع اشد رسوخا وثباتا فى العالم الاقطاعى.

وخمس مايه، واخذ الوزاره وانعتوه بالسيد الاجل العادل امير الجيوش، فهرب نجم الدين ابن مصال وعدى الى الجيزه، فتحرك معه السودان فتجردت لهم العساكر فكسروهم، وقتل من السودان خلق كثير. واخذت راس ابن مصال وطيف بها القاهره على رمح.

وقصد [وأمر] النصارى بالقاهره ومصر في ايام العادل ابن السلار ان يشدو الزنار ويقلعو

---

والى جودفروا دى بويون انضم اخوه الاكبر الكونت يفستافي دى بولون واخوه الاصغر بودان (Baudouin)، من بولون ايضا. وهذا الاخير كان من قبل من رجال الدين، ولم يكن يملك في وطنه أية ممتلكات، من هنا كان حافزه للاشتراك في الحروب المقدسة. والى دوق بوين انضم كثيرون من اتباعه، بمن فيهم بودوان دى بورج، ابن عم جودفروا الرابع، والكونت بودوان دى اينو، والكونت رينو دى تول. وكان كل منهم يقود فصائله المسلحة. وجميع هذه القوات اتجهت نحو نقطة تجمع الصليبيين ـ القسطنطينية ـ على طريق الرين ـ الدانوب التي سارت عليها قبل ذاك بقليل فصائل الفلاحين الفقراء.

ان الملك المجرى كولومان – الذى مرت للتو فصائل الفلاحين في اراضيه قائمة بالنهب والسلب ـ لم يوافق على منح حرية عبور اراضيه الا شرط أن يعطوه ضمانات كان على جودفروا الرابع ان يبقى له رهائن. تقابل كولومان والدوق على جسر فوق نهر ليتا، ثم مرة اخرى في القصر الملكى؛ وبعد مهاترات طويلة، عقدا اتفاقية.وقد تركوا بودان دى بلون مع اقرب الناس اليه رهائن في يد كولومان. وعندما وصلت قوات جودفروا الى بلغاريا وعبرت نهر سافا، اعاد المجريون الرهائن. وكان ذلك في نوفمبر ١٠٩٦ وواصل الصليبيون من اللورين سبيلهم الى الممتلكات البيزنطية. وبدون حوادث تذكر، وصلوا قبيل عيد الميلاد الى ضواحى القسطنطينية.

طيالسهم فلم يستمر ذلك سوى ثلثه ايام، وكان السبب في ذلك قوم فقها من المبغضين للنصارى اجتمعو بناصر الدين نصر ابن عباس وكان قد ولاه العادل مصر فحملوه على ذلك وقالو له: انك اذا فعلت هذا بالنصارى صانعوك بمال كثير حتى تزيله عنهم. فلما فعل ذلك بهم واقام ثلثه ايام ينتظر ان احد منهم يحضر اليه او يتحدث معه بسبب مصانعه او غيرها فلم يحضر اليه احد علم

---

ان الاساطير من زمن اقرب الينا قد جعلت من جودفروا الرابع البطل الرئيسى في الحرب الصليبية. وقد نسبوا اليه غيرة دينية خاصة، وشجاعة شخصية مدهشة وكفاءات عسكرية بارزة وان البرت دى آخن، الذى يشكل مؤلفه «تاريخ القدس» مديحا لدوق اللورين، يعتبر ان هذا السيد كان يستهدى بدوافع سامية. وعندما اعتزم السير في درب الرب، «كان غالبا من يطلق الزفرات، لان زيارة مدينة القدس المقدسة ورؤية قبر السيد يسوع قبل كل شئ كانتا اكبر رغائبه، وغالبا ما كان يكشف مكنون قلبه لاقربائه». كان تدخل غودفروا الرابع تدخلا جريئا في المعركة العامل الحاسم في انتصار الصليبيين. حسبه ان يظهر على صهوة حصان حتى «يطلق» السلجوقيون «الاعنة لخيولهم ويولوا الادبار بسرعة عاصفة، بعد تأكدهم من صلابة روح الدوق ومقاتليه». ويستمع لصوته ونصائحه. ويشبه مدون اخبار آخر غودفروا دى بوين – من حيث القوة، والضرواة في القتال، والالهام ـ بالبطل هكتور من ملحمة هوميروس.

ان جميع هذه المدائح لاتتفق مع الواقع. فمعلوم ان هذا السيد التقى كان في موطنه يقوم بدأب وانتظام بنهب الاديرة في جوار بويرن. ولكى يعزز جودفروا الر ابع سمعته ومكانته، عمد بنصيحة امه، قبل انطلاقه في الحملة، حتى الى تقديم بعض الهدايا والتبرعات الى الاديرة التى نهبها. اما المواهب العسكرية، فلم يتميز بها. وعلى العموم، لعب جودفروا الرابع في المشروع

ان الفـقـهـا غـروه فنادى في اليـوم الرابع ان يجـرو علي عادتهم.

واستـمـر العـادل ابن السـلار في الـوزاره الى ان دخل عليــه نصــر ابن عـبــاس من بـاب ســردار الـوزاره(*) فقتله واخذ راسه واخرجها واشهرها بين القصرين. وكان عباس ابوه والى الشرقيه مقيم في بلبيس فانفذ اليه نصر يعرفه بما فعل فدخل عباس

(*) ســردار الوزارة: ســردار كلمــة فارسـية دخلت اللغة المصرية في هذه الفـتـرة واسـتـمـرت طوال الحكم المملوكي والاحـتــلال العثماني، وهي تعني صـاحب أو القائد، وبهذا فهي تعني هنا في الغالب صاحب باب الوزير.

---

كله دورا متواضعا جدا؛ واغلب الظن ان كفاءاته المتوسطة تماما، وميله الى الحلول الوسط في الجدالات الحادة، ـ خلاصة القول، انتماءه الى انصار الوسط الذهبي، ـ كل هذا بالذات هو الذي بدأ بنجاح بعد نهاية الحملة الصليبية، ولكن الذي سرعان ما قطع الموت المفاجئ حبله.

وكان قائدا فصائل الفرسان من ايطاليا الجنوبية وفرنسا الجنوبية الامير بوهيموند دي تارنتو Bohemond de Tarente، وريمون دي سانجيل، كونت تولوز، شخصيتين ابرز من غيرهما في الحرب الصليبية.

فقد ترأس الاول الفرسان النورمانيين الايطاليين. وكان ماضي هذا الامير مرتبطا بحروب النورمانيين ضد بيزنطية. وفي اوائل الثمانينيات اشترك في حملة والده روبر جيسكار، وسعى الى اقتطاع ارض لنفسه في البلقان. الا ان الروم هزموه في سنة ١٠٨٣ في جوار لاريسا. والآن سنحت لهذا الامير فرصة ملائمة لتحقيق نواياه المزمنة، كانت ممتلكات بوهيموند في ايطاليا الجنوبية تافهة؛ فلم يرث غير امارة تارنتو الصغيرة؛ اما جميع اراضي جيسكار الاخرى، فقد ورثها ابنه من زواجه الثاني، روجه بورسا. وتلاحظ حنة كومنينة التي تحدثت فيما بعد عن عساكر بوهيموند انها لم تكن كثيرة لان هذا القائد كانت تنقصه النقود. ان الحملة الى الشرق التي دعا اليها البابا جاءت توفر لامير تارنتو امكانيات واسعة؛ وكان قد سمع الكثير عن

من بلبيس الى القاهره واخلع عليه الوزاره وانعتوه بالسيد الافضل.

وفـى ايامه فتحـو الفرنـج عسقلان(*) ولـم يكن بقى بيـد المسلمين من الشـام سـواها وكـان فتوحها بيد الافرنج في مده سنه في جمادى الاخر سنه ثمـان واربعين وخـمس مـايه [٨٦٩ قـبطيـة = ١١٥٣م].

(*) سقوط عسقلان آخر مدن الفاطميين بالشام في يد الصليبين.

وكانو النصارى قد اعمرو كنيسه بالمطريه التى

---

ثروات البلدان الشرقية وعن الخلافات بين حكامها؛ فقد كان يحمل الانباء عن كل هذا تجار بارى، وامالفى، بعد عودتهم من سوريا وفلسطين. وقد اصبح تأسيس امارة مستقلة فى الشرق حلم بوهيموند الحميم. وخلافا لجودفروا دى بويون، كان يتحلى بكفاءات عسكرية ودبلوماسية غير عادية، وبخبرة الآمر العسكرى طوال سنوات عديدة؛ ومنذ بادئ بدء اخذ يطبق برنامجه بصورة منهاجية وبعد تفكير عميق.

ان صاحب الاخبار «افعال الفرنجة»، الفارس النورمانى من محيط بوهيموند، يصور ظروف انطلاق بوهيموند فى الحملة من باب الصدفة. فاثناء حصار اما لفى المتفضة، رأى بوهيموند قوات الفرسان الفرنسيين تمر على غير بعد كبير عنه، وحين علم انها تمضى للقتال من اجل القبر المقدس، اعلن فى الحال انه هو ايضا يأخذ الصليب (اى يأخذ النذر باشتراكه فى الحملة الصليبية). وتواجد من الراغبين عدد كاف لانه كان فى ايطاليا، كما يقول مدون آخر للاخبار هو جوفريد مالاتير، كثيرون من الفرسان الشبان المحترقين الى المغامرات، الامر الطبيعى جدا فى عمرهم.

اما فى الواقع، فان بوهيموند، كما بينت الاحداث اللاحقة، كان يعرف من زمان عن المشروع البابوى وقد بنى فى هذا الصدد خططا بعيدة المدى. هناك امر صحيح واحد فقط، هو ان كثيرين من الاسياد الصغار من ايطاليا الجنوبية وصقلية قد اقتدوا به بالفعل فى الحال؛

فيها بير البلسم(*) التى يستخرج منه دهن الميرون على [خرائب] الكنيسه القديمه وكرزوها على اسم القديس مارى جرجس وقدسو فيها قبل ان يكملو صورها، فهدموها المسلمين وبنو مكانها مسجد.

(*) يعتقد اقباط مصر انها بير من الماء العذب تفجر حيث سقطت بعض المياه من ثياب المسيح وهو طفل بعد غسلها ونبت بجوارها شجرة البيلسان التى يستخرج منها دهن (زيت) الميرون.

وكان ناصر الدين ابن عباس قد صار له خلطه بالامام الظافر ويدخل اليه بالليل الى قصره ياكل

---

فانها لمعروفة اسماء ابنى عمه ريتشار دى ساليرنو ورانيولوف وابنه ريشا ومحاربين نورمانيين آخرين. واخذ الصليب ابن اخى بوهيموند، المقرب منه، تنكريد (Tancrede)، البالغ من العمر عشرين سنة، والذى لم تكن له حصة من الارض، ولذا كان فارسا يتميز بنزعة حادة، خاصة، الى القتال، وكان بلا ريب جريئا وباسلا، لكنه كان مغامرا جشعا، انانيا، شقيا، متغطرسا، مكارا، وخاليا تماما من صفات القائد العسكرى.

وهكذا رفع الحصار عن اما لفى ١٠٩٦، ركب مقاتلو بوهيموند دى تارنتو السفن فى بارى. ومن هناك، تحركوا عبر مقدونيا وتراقيا الى عاصمة بيزنطية. ولاريب فى ان قائد هذا الجحفل بوهيموند دى تارنتو كان من بين جميع زعماء الصليبيين اوفرهم موهبة وذكاء وفكرا سليما، كما كان فى الوقت نفسه، اكثرهم وقاحة وصفاقة فى وسائل بلوغ الاهداف المنشودة.

وكما عند جوفروا دى بويون، ظهر كذلك عند بوهيموند، متملقون فى عداد مدونى الاخبار. فان النورمانى راوول من كايان يصوره بصورة زعيم سانده شعب بلاد الغال بأسرها، وشعب ايطاليا بأسرها، وفضلا عن ذلك، شعوب اوروبا بأسرها. «ليس ثمة بلد من ذلك الجانب من جبال الالب، من ايليريا الى المحيط، يمتنع عن تقديم المساندة المسلحة لبوهيموند». هذه، بالطبع، مبالغة شديدة. ولكن بوهيموند لعب بالفعل دورا بارزا فى احداث الحرب الصليبية.

عنده ويشرب ويبات ويصبح، وكان الخليفه يخرج
معـه بالليل الى داره فيـقـعـد عنده بعض الليل
ويسمع الغنا ثم يودعه حتى يدخل به الى قصره،
فصعب ذلك على عباس ابوه وخاف ان يقتله كما
قتل على ابن السلار، وحكى من كان معاشرهم
ان عباس ابوه بلغه ان الخليفه قال لنصر الدوله
اقتل ابوك وكن انت الوزير فانك اجمل من ابوك
لها، فدبر عباس الحيله فى السلامه فكان فيها

---

آنذاك، في اكتوبر١٠٩٦، انطلق جيش كبير من فرنسا الجنوبية. وكان ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، على رأسه. ولقد سبق ان دفعه التحرق الى الفتوحات فى الثمانينيات الى الاشتراك في الريكونكيستو الاسبانية، ولكنه منى هناك بالاخفاق (مثلما بوهيموند دى تارنتو لم يبلغ شيئا في بيزنطية). غير ان هذا الفشل اسعر حمية الكونت كثيرا. ورغم تقدمه في السن (وكان قد تجاوز الخمسين كثيرا)، كان اول من استجاب لخطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمون.

يصف مدون الاخبار بودرى دى دول وصفا معبرا المشهد الذى جرى فى كليرمون بعد خطاب البابا. فقد ظهر هناك رسل ريمون دى تولوز،واعلنوا امام الملأ عن رغبة الكونت فى الدفاع عن قضية الايمان المسيحى استجابة لنداء الكرسى الرسولي. ولكن ما قام به رسل الكونت الفرسان في كليرمون لم يكن سوى مشهدية مؤثرة ظاهرية. فان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يسميه فى المعتاد مدونو الاخبار، كان قد تجند فى عداد المشتركين فى الحرب الصليبية قبل زمن طويل من اعلانها رسميا. وكان ريمون الرابع يقوم بكل اعماله وتصرفاته بالاتفاق مع البابا اوربان الثانى؛ وقد تلاقى معه، كما نعلم، فى كاتدرائية كليرمون. وفي البدء، كان البابا قد اعتزم حتى تعيين الكونت رئيسا للقوات الصليبية، ولكن التخوف من

العطب والهلكه، وذلك انه حمل نصر الدوله على قتل الخليفه بقوله له: ان الناس قد استباحو عرضك وصار لهم فيك حديث قبيح بما سمعوه من خلطتك بالظافر فباى شي يكون منك مما يقولون. وضحك عباس، فقال له نصر الدوله: انت تضحك انى اخاف عليك ان لا ترجع تضحك. فتوهم منه انه يعنى قتله ولم يخطر بباله الداهيه التى عملها من قبل الخليفه، ولما كان ليله ذلك

---

اثارة استياء الاسياد الآخرين، المفعمين بالطموح، المشتركين في الحملة، حال دونه ودون تحقيق عزمه.

استعد ريمون الرابع سنة بكاملها للحملة. فقد كان يسعى إلى ان يثبت قدميه، ويستقر في الشرق، بانشاء امارة له هناك.

سار تحت راية ريمون دى سانجيل، كونت تولوز المئات ولربما الآلاف من الاقطاعيين المتوسطين والصغار من فرنسا الجنوبية ـ من بورجونيا وجاسكونيا واوفرنيه. وبروفانس وغيرها من المقاطعات، بمن فيهم بضعة اساقفة. ومن بين كبار الاحبار، برز نائب البابا (القاصدالرسولي) اسقف مدينة بوى، اديمار. فقد عهد اليه بالسهر على مصالح البابوية السياسية اثناء الحملة. ولكن خادم الرب هذا كان في الوقت ذاته محاربا محنكا يروى مدون الاخبار ان اسقف بوى كان يرتدى خوذة الفارس ودرعه ويتسلح باسلحته ويقاتل الاسياد المجاورين الذين يعتدون على املاك الكنيسة. وكان يجيد استعمال السلاح، وكان، كما يقول يجيد ركوب الخيل. ولكنه لم يكن بمقدوره ان يأخذ على عاتقه واجبات القائد العسكرى للمقاتلين الصليبيين. فان اديمار، اسقف بوى مثله مثل ممثلين آخرين ارسلهما البابا اوربان الثانى ايضا الى الصليبيين، لم يقم الا بدور الرئيس الروحى للصليبيين، وكان يؤدى بعض الوظائف التنظيمية.

اليوم دخل قصر الخليفه على جارى عادته وقعد
عنده ساعه ثم ساله المشى معه والفرجه على
العوام متنكرين فخرج معه من باب الزهومه ووقفا
عند دكان الفقاعى الذى مقابله وشربا منه فقاع
ومشيا، فساله ان يمضى معه الى داره الذى فى
السيوفيين يقعد ساعه ويعود، فمضى معه وكان
الخليفه متنكر ببرده ملتف بها وكان معه استاذين،
فلما حصل معه فى مجلسه وقعد عنده ساعه امر

---

تحركت قوات فرنسا الجنوبية عبر جبال الالب وبمحاذاة بحر الادرياتيك، وتجنبت استريا ودلماسية، ثم واصلت سيرها على طريق اغناطيوس نحو العاصمة البيزنطية.

وفى الوقت نفسه تقريبا ركب فرسان فرنسا الشمالية والوسطى خيولهم. وقبل الجميع، انطلق هوج فرمندو (Vermandois) الشقيق الاصغر لملك فرنسا. فيليب الاول، الفارس المغرور، الذى لم يكن يملك سوى كونتية صغيرة جدا، كانت دوطة (صداق) زوجته ،ولذا كان يسعى بمثابرة وعناد وراء السلطة والثروة. وقد جمع فصيلة غير كبيرة من اتباعه واتباع الملك، وانطلق فى اغسطس ١٠٩٦الى ايطاليا. وفى الطريق، عرج على روما، حيث سلمه البابا راية القديس بطرس؛ هذه الراية كان القصد منها ان ترمز الى تطلعات الكونت الدينية. ومن بارى سافر بحرا الى سواحل بيزنطية، الا ان هذا المغامر المنحوس لم يحالفه الحظ منذ الخطوات الاولى بالذات؛ فان العاصفة قد حطمت مراكبه عند سواحل الادرياتيك الشرقية، وهلك كثيرون من الفرسان والمجدفين؛ وهوج ذاته، كما تقول حنة كومنينة، قذفته الامواج الى ساحل بجوار دراتش.

بعد فترة وجيزة، انطلقت الجموع المسلحة للفرسان الفرنسيين اللجبة بقيادة روبرت، دوق نورمنديا، وايتيان كونت بلواوشارتر، المتزوج من اخت الدوق اديل، وروبرت كونت الفلاندر (ابن الحاج المذكور سابقا، روبرت الاول من فريزيا).

واحد من اصحابه خنقه بمنديله حتى مات، ثم
قتل الاستاذين ورماه في بير معين، ورما الاستاذين
فوقه ثم اردم البير وبلطها حتى لم تصير تعرف.
وكان ذلك بتاريخ التاسع والعشرين من المحرم سنه
تسع واربعين وخمس مايه[ ٨٧٠ قبطية=
١١٥٤م]، واخفى امرهم عن الناس فاظهره الله
وانتقم لهم، وذلك انه مضى لابوه عباس واعلمه
بما فعله، فخاف ان يقومو عليه العوام ويخرجوه

---

كان روبرت النورمندى، الملقب«بالسراويل القصيرة»، والابن البكر لغليوم الفاتح، في احوال حرجة جدا. كان يقاتل على الدوام ضد اخيه ملك انجلترا، غليوم الاشقر، وكان ينازعه عبثا على حقوقه في العرش. وكاد«السروايل القصيرة» يخسر نورمنديا ذاتها. وجاءت الحملة الصليبية تخلصه من جميع المشاكل والمخاصمات، وتعده بفتح البلدان المقدسة.

وكانت دوافع مختلفة، دنيوية وعادية تماما، تدفع الى الاشتراك في الحملة الصليبية، ايتيان، كونت بلوا دى شارتر، الميسور جدا، ولكن الطامح الى اكثر، وان يكن صغير النفس للغاية،وكونت الفلاندر روبرت الثاني. ولم ينضم الى دوق نورمنديا اتباعه الفرنسيون وحسب، بل انضم اليه بارونات وفرسان من انجلترا واسكتلنده. كذلك التحق عدد لا يستهان به من الصليبين بقائدين آخرين. فعند كونت الفلاندر، مثلا، كان زهاء الف تابع؛ وقد اشترك كثيرون منهم في الحملة الصليبية.

جميع هذه الجحافل الفرنسية الانجليزية عبرت جبال الالب ووصلت في نوفمبر ١٠٩٦الى ايطاليا حيث بقى معظمها لقضاء الشتاء. وفي لوكا، تقابل روبرت النورمندى وروبرت الثاني من الفلاندر، وايتيان دى بلوا «وغيرهم من جماعتنا ممن ارادوا مواصلة طريق الحرب المقدسة ثم انطلقوا بحرا الى دراتش، ومن هناك على طريق اغناطيوس الى القسطنطينية».

---

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م ١٣٦٢

من الملك، والذى خاف منه وقع فيه وكان تدميره
فى تدبيره، وذلك انه اصبح ركب الى القصر
واحضر زمام [قائد حرس] القصر وطلب ان
يستاذن الخليفه عليه، ولم يكن عند زمام القصر
ولا غيره علم من خروج الخليفه ولا ما جرى عليه،
فدخل يطلبه فلم يقدر عليه فاخذ عباس زمام
القصر وطالبه به فحلف وكثر الايمان انه لم يعرف
له مكان، فقال له: احضر لى اخوته ليلا [لئلا]

---

وهكذا، بسبل مختلفة، ولكن بدوافع واحدة تقريبا، انطلقت فى الحملة الصليبية فصائل الفرسان والامر اء، ومعها جموع ضخمة جديدة من الفقراء الذين كانوا يأملون فى مصير افضل فى البلدان البعيدة.

كان الفرسان مهيئين للحملة افضل بما لاقياس له من جموع النازحين من الفلاحين التى سبقتهم. فقد تزودوا للطريق. وكثيرون رهنوا أو باعوا عقاراتهم واملاكهم الأخرى. وعقد جودفروادى بوين صفقات مع اسقف لييج واسقف فردان، فقد باعهما مقابل ٣آلاف مارك فضى بعضا من ضيعه، بل انه رهن عند اسقف لييج قصر بريون السلالى، المتوارث أباً عن جد. والشيء نفسه فعله ريمون دى تولوز وعدد من انصاره المقبلين من لانجيدوك ببعض ممتلكاتهم. كذلك روبر، دوق نورمنديا، اختطف ١٠آلاف مارك فضى من اخيه المتوج؛ وبحثا عن هذا المبلغ، فرض هذا الملك بدوره ضريبة استثنائية على رعاياه بالذات بمن فيهم رجال الدين، فاعرب هؤلاء عن تذمرهم. ثم ان الاقطاعيين من مرتبة ادنى باعوا هم ايضا حقوقهم (الحقوق القضائية، حقوق الصيد) ورهنوا الاموال غير المنقولة.

ان رهبان كلونى الذين كانوا يذمون ببلاغة وبالاقوال الجشع والطمع، لم يكونوا ضد اكثار ثروات اديرتهم على حساب الصليبيين. كذلك حاول الاساقفة ورؤساء الاديرة فى اللورين

يكونو قتلوه. فدخل القصر واحضر له يوسف
وجبريل اخوته وصلح [صالح] ابن حسن اخوه،
فطلبه منهم وادعى عليهم انهم قتلوه، وامر اجناده
يقتلوهم فقتلوهم وقتلو زمام القصر ونهب مجلس
القصر الملك بيد اصحابه وقتلهم جميعهم في قاعه
باب الذهب، واخذ ولد الخليفه وهو طفل صغير
وكان اسمه عيسى فاجلسه خليفه في سلخ المحرم

---

وفرنسا الجنوبية وغير ذلك من المقاطعات، ان لايفوتوا الفرص السانحة؛ فقد كان الصليبيون بحاجة الى النقود، بينما هبطت اسعار الاموال غير المنقولة. فاشترى احبار الكنيسة بالرخص ضيع الاسياد والفرسان الذين اعتزموا الذهاب الى الحرب الصليبية. وهكذا، كما قال المؤرخ الاميركي دانكلف، قامت الكنيسة ببزنس جيد في المشتريات وفي رهن ممتلكات الصليبيين لقاء النقود.

تزود الفرسان بالنقود الرنانة، واهتموا في الوقت نفسه بالسلاح. كانت اسلحة القوات الاقطاعية عتادها ارقى بكثير مما لدى الفلاحين. كان لكل فارس سيف قاطع من الفولاذ ذو حدين. واحيانا كانوا يستعملون السيف من هذا النوع للاغراض الدينية. فان العارضة التي تفصل القبضة عن الشفرة كانت تضفي على السيف شكل الصليب وكان بوسع الفارس، بغرز السيف في الارض، ان يصلي امامه. كذلك كان للفارس رمح خشبي ذو سنان معدنية، شكله في المعتاد بشكل المعين. وكان الرمح علاوة على الغاية المباشرة منه ـ طعن العدو ـ يؤدي وظيفة معاونة؛ فتحت السنان كان الفارس يعلق راية ذات اشرطة طويلة تخيف حصان العدو اذ ترف وتخفق اثناء ركض الحصان. كذلك كان الدرع (المستدير او المستطيل) الخشبي الملبس بصفائح معدنية من ضروريات سلاح الفارس. وكان الفارس يمسكه أثناء القتال بيده

سنه تسع واربعين وخمس مايه الهلاليه، وانعتوه بالامام الفايز.

ولم يزل عباس مستمر في الوزاره الى ان نافق عليه امير يسمى طلايع ابن رزيك، كان والي البهنسي والاشمونين من اعمال الصعيد، انفدو له نسا من القصر شعورهم فاخذها وجعلها على رماح، وعمل رايات سود وحشد حشود كثير من راجل وفارس ووصل الى القاهره في اليوم الرابع

---

اليسرى. وكان الفارس يغطي رأسه بخوذة، وجسمه بصدرة مزرده (مزدوجة احيانا) او بدرع. وكان يغطي كلا من ركبتيه بواقية جلدية أو يحتذى حذاء مزودا بصفائح معدنية. وكان الفارس يبدو بكامل اسلحته اشبه بقلعة متحركة على حصان. وعلاوة على الاسلحة والاعتدة كان الفرسان يأخذون معهم كلاب الصيد والاقفاص مع الصقور (لأجل الصيد في الطريق).

كذلك كانت البنية التنظيمية لقوات الفرسان اصح نسبيا (بالقياس الى ما كانت عليه عند الفلاحين). ومع ذلك لم تكن البتة، منذ بداية الحملة حتى نهايتها، عبارة عن قوات موحدة. فلم يكن ثمة قادة، لا كبار ولاصغار، معينون رسميا من قبل احدما، ولم تكن ثمة قيادة واحدة، مشتركة للجميع. ولم يكن يخطر في بال احد ان يرسم خطة عامة، مشتركة ما للحملة، او ان يقرر على الاقل مسيرة دقيقة لاجل الفصائل. وكان قوام مختلف الواحدات المتجمعة عفويا حول اشهر الاسياد يتغير لان الفرسان كانوا غالبا ما ينتقلون من قائد الى آخر بأمل الحصول منه على هذه الفوائد او تلك.

وهذه العساكر اللصوصية المزينة بالصلبان على صدورها بدأت تنهب وتغتصب قبل ان تصل الى القسطنطينية. فان الفرسان اللورينيين قد امضوا ثمانية ايام بكاملها في اعمال النهب

عـشـر من ربيع الاول سنه تسع واربعين وخـمـس
مايه. وعند وصوله الى القاهره خرج عباس ونصر
ابنه وجـمـاعه اصـحـابه وقـد اوسق كلمـا له وكلمـا
نهبه من القصر على البغال والجمال والخيل وخرج
من القـاهره طالب الشـام، فـاجـتـمع عليـه الافـرنج
والعربان فاخذوكلما معه ولم يزل يحمل فيهم هو
وولده ويقتل حتى قتل واسر ولده. واما طلايع ابن

---

والسلب فى تراقيا السفلى؛ وكانت الذريعة لمقاتلي جودفروا دى بويون النبأ القائل ان هوج فرمندوا اسير عند الامبراطور الكسيوس. ونكل الفرسان النورمانيون التابعون لبوهيموند من تارنتو تنكيلا قاسيا بسكان ابيروس ومقدو نيا وتراقيا. ويعترف فارس مجهول دون الاخبار وكان في هذه الفصيلة بانهم كانوا ينتزعون من السكان كل ما يجدونه . وبين مدينة كاستوريا ونهر فاردار، دمر النورمانيون مدينة بكاملها فقد كان يسكنها الهراطقة فى ايام بولس الرسول وكان ذلك كافيا لابادتهم عن بكرة ابيهم.

كذلك تميز مرور صليبيي كونت تولوز عبر دلماسية باعمال لصوصية لاتقل وحشية. فان مدون اخباره كابيالانه دى اجيل، يروى فى مؤلفه«تاريخ الفرنجة الذين استلوا على القدس» كيف ان سكان دلماسية (سلافونيا)، «البلد الصحراوى والجبلى والخالى من الطرق، الذى لم نر فيه طوال ثلاثة اسابيع لاوحوشا ولاطيورا»، قد رفضوا ان يبيعوا الفرسان شيئا ما وان يعطوهم الادلة، وانهم كانوا يفرون من القرى لدن اقتراب الفرسان، وكانوا يتخفون، فى المغاور الجبلية والغابات الكثيفة، حيث «لم يكن من السهل على فرسننا المسلحين ان يطاردوا قطاع الطرق هؤلاء غير المسلحين» - هكذا ينعت مدون الاخبار من بروفانس (فرنسا الجنوبية) سكان دلماسية المسالمين.

---

رزيك فاخلع عليه للوزاره فركب الى القصر وعقدو
له عقد الوزاره وطوقوه به وكتب ووقع ونفد امره،
فركب الى دار ابن عباس ومعه جماعه من الامرا
والاستاذين وقاضي القضاه وداعي الدعاه وقدامه
صدور ذهب وفضه فيها مباخر مملوه عود وعنبر،
واستاذ صغير كان لابن عباس كان حاضر قتل
الخليفه والاستاذين ورميهم البير، فحدثهم بخبرهم
ودلهم على موضعهم، فحفروه وطلعو بهم منه

---

اما في الواقع، فان الصليبين انفسهم كانوا بالطبع قطاع الطرق. فقد كسب ريمون دى تولوز لنفسه سمعة مؤسفة، مخزية في دلماسية بوحشياته: فذات مرة (وكابيللانه يروى الحادثة بدون اطراء ومديح) امر بسمل عيون ستة من الدلماسيين اسرهم الفرسان وبتر انوفهم ، وقطع ايديهم وارجلهم. وفي مدينتي روسا وريدستو في تراقيا، استحصل فرسان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يقول مدون الاخبار ذاته ريمون دى اجيل، على غنيمة هائلة. فقد هاجموا مدينة روسا مطلقين الصيحة القتالية «تولوز! تولوز!» واقتحموها واعملوا بسكانها قتلا وذبحا.

ان تقدم الصليبيين في شبه جزيرة البلقان قد رافقته اعمال النهب والسلب بلاحسيب ولارقيب. ولكن هذا لم يكن سوى البداية . فان الصليبيين سيظهرون فيما بعد بكل قباحتهم وسفالتهم ووحشيتهم.

## الصليبيون في بيزنطة

قلق الامبراطور الكسيوس الاول وحاشيته اقصى القلق من الانباء القائلة ان الغرب كله، وجميع قبائل البرابرة، وجحافل الفرنجة التي لاعد لها تتجه الى القسطنطينية. ان زحف هؤلاء «المخلصين» المندفعين صوب الشرق بنوايا الفتح، كان من الممكن ان يكون فادح الخطر على بيزنطة؛ ذلك ان عدد الصليبيين لم يكن يقل عن ١٠٠الف. ناهيك بانه كان بينهم قادة

وحملوهم الى القصر غسلوهم وكفنوهم ودفنوهم.

واستقر طلايع ابن رزيك فى الوزاره وانعتوه بالملك الصالح وكان محبا لجمع المال واهلك نفوس كثيره فى المطالبه بالمال وجمع منه شى كثير من غير وجوهه، وكان يقرب الرفاعين [المنجمين] ويحسن اليهم ويسمع اقوالهم، مبغضا للنصارى وبعض مذاهب المسلمين، لان مذهبه

---

معادون من قديم الزمان لبيزنطة، من امثال بوهيموند وانصاره، وكانوا، كما قالت حنة المذكورة اعلاه، يتحرقون من قديم الزمان للاستيلاء على امبراطورية الروم. ان الكاتبة البيزنطية حنه تتخذ موقفا احادى الجانب، اذ افترضت ـ وغنى عن البيان ان هذا الرأى كان واسع الانتشار فى الاوساط الحكومية البيزنطية ايضا ـ أن «الكونتات وبخاصة بوهيموند كانوا يكنون عداوة قديمة للامبراطور وكانوا يترصدون الفرصة السانحة للانتقام منه لذلك النصر الباهر الذى احرزه على بوهيموند الذى تقاتل معه فى جوار لاريسا» (سنة ١٠٨٣).

قابل الامبراطور الكسيوس الاول الصليبيين بالحذر وعدم الثقة. واتخذ التدابير لاجل تجنيب الممتلكات البيزنطية التى تمر بها الجموع المسلحة للفرسان انفلات اللاتينيين قدر الامكان. فصدر الامر الى فصائل قبائل البتشينيغ العاملة فى خدمة الامبراطورية، كما تفيد حنة كومنينة ، بان «تتبع وتراقب البرابرة ، وتطلق النار على فصائلهم وتطردها اذا ما شرعت تهاجم وتنهب الاراضى المجاورة». وهذا الامر جرى تنفيذه بكل دقة، الامر الذى يحكى عنه مدونو الاخبار اللاتين بامتعاض.

الا ان الامبراطور الكسيوس الاول، رغم خوفه من المقاتلين الصليبيين ورغم اقامته مختلف العراقيل فى طريقهم، ولم يكن الامبراطور ضد استغلال قوات القادمين من الغرب فى مصلحة بيزنطة. فقرر ان يستميل زعماءهم الى حلف يمين التبعية الاقطاعية له عن جميع الاراضى التى

كان امامي [شيعي]. و أمر ان لا يكون لعمايم النصارى ولا اليهود دوايب(*). وكان الغلا في اول سنه من وزارته وابيع القمح فيها بخمسه دنانير الاردب مده اربع شهور لا غير، ثم تراخت الاسعار في طول مده وزارته، وكان سعر الغله لا يثبت على حال بل يزيد وينقص من اردبين بدينار الى اردب الى نصف اردب بدينار، فظهر في ايامه موت البقر بالريه [طاعون الماشية](*) ولم يكن عرف

(*) كانت العمامة ذات الذوائب خاصة بالفاطميين فقط.

(*) ظهور طاعون الماشية بمصر لأول مرة.

---

سيستولي عليها الصليبيون والتي خسرتها بيزنطة من قبل نتيجة لنجاحات السلجوقيين وسائر الشعوب الشرقية: اى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين. ولكي يجعل الامبراطور زعماء الفرسان اسهل للانقياد، بدأ (حتى عندما كان الصليبيون لايزلون يعيشون فسادا في البلقان) يسدد اليهم ضربات محسوسة بوساطة خيالة البتشينيغ. وقد هزم البيزنطيون في جوار ريدستو بضعا من فصائل ريمون دى تولوز؛ وقد فر الصليبيون من ساحة الوغى رامين السلاح والحمولة.

وفي الوقت نفسه، بدأت الديلوماسية البيزنطية تعمل بكل مهارتها وفنها؛ وكان البيزنطيون اساطينها الذين لايضاهيهم احد. فقد ارسل الامبراطور الى لقاء فصائل الصليبيين موظفيه، وامرهم، كما كتبت حنة كومنينة، بان «يقابلوا بمودة الذين عبروا البحر (بحر الادرياتيك) ويضعوا في طريقهم وفرة من احتياطات المؤنه». وعندما قذفت العاصفة البحرية في نوفمبر ١٠٩٦ الى الساحل هوج فرمندوا ونقلوه إلى القسطنطينية، استقبله الكسيوس الاول، كما تروى ابنته. «باجلال واعرب له بجميع الوسائل عن عطفه، واعطاه الكثير من المال، واقنعه في الحال بان يصبح تابعا له، ويقسم له اليمين العادية عند اللاتين».

ولكن فرض علاقات التبعية على سائر قادة الصليبيين كان من ذلك اصعب. فعندما اقتربت فصائل جودفروا دى بويون من اللورين ومن المانيا في ٢٣ (ديسمبر)١٠٩٦ من

قبل ايامه بمصر، وتردد ذلك وقت بعد وقت في سنين مختلفه حتى صار الناس يحرثو على الخيل والجمال والحمير.

وبعد هذه الامور مات الامام الفايز في ايام وزارته في شهر رجب سنه خمس وخمسين وخمس مايه الهلاليه [٨٧٦ قبطية = ١١٦٠م] وجلس بعده عبدالله ابن يوسف ابن الحافظ وانعتوه بالامام العاضد، ثم ان الصالح ازوجه ابنته على

---

القسطنطينية، واقامت معسكرا لها في جوار مدخل خليج القرن الذهبي، نشأ وضع نزاعي حاد. فقد تهرب الكونت من حلف اليمين التبعية الاقطاعية للامبراطور البيزنطي رغم ان هوج فرمندوا نفسه استماله الى ذلك باسم الامبراطور. آنذاك، طرح الكسيوس الاول الملابسات الديبلوماسية جانبا، وطوق معسكر جودفروا بخيالة البتشينيغ.

في ٢ (ابريل) ١٠٩٧ ، وقع اشتباك بين فصائل الامبراطور وفرسان اللورين؛ فقد انهال عليهم قواسو الكسيوس الاول من اسوار القسطنطينية بوابل من الاسهم. صحيح ان الامبراطور، كما تزعم حنة كومنينة، امر «بالتصريب الصورى أى من أجل تخويف اللاتين وحسب، ولكن معركة حقيقية نشبت، كما يتبين من وصف حنة كومنينة نفسها اللاحداث:«درات رحى معركة ضارية ورهيبة؛ فبعناد قاتل الفرسان خارج المدينة وقاتل الذين وقفوا على الاسوار. وزج الامبراطور في المعركة بقواته الخاصة وحمل كتائب اللاتين على الفرار».

منى الصليبيون بهزيمة شنعاء، فاضطر جودفروا دى بويون الى التراجع والتنازل ، وحلف اليمين التى طلبها منه. ويستفاد من شهادة البرت من آخن ان الكسيوس مضى حتى الى تبنى تابعه الاقطاعي الجديد، وفقا للعادات البيزنطية ، وخصصوا له الكثير من الاموال، وأقاموا على شرفه المآدب الفاخرة ثم نقلوه بتسرع عبر البسفور. و من جديد صدر الامر بتأمين الوفرة من

كره منه واستمر الصالح في الوزاره الي يوم الاثنين
الثامن عشر من شهر رمضان سنه ست وخمسين
وخمس مايه الهلاليه [٨٧٧ قبطية = ١١٦١م]،
ركب الى القصر على جارى العاده فعرض له في
دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه رجل من
صغار الاجناد واحقرهم يعرف بابن الراعي ومعه
رجلين من السودان احدهما يسمى مقبل، فنخسه
ابن الراعى بسيف فى بطنه اخرج امعاه ثم ضرباه

---

شتى المؤن للصليبيين الذين انطلقوا من خلقيدون فى الطريق الى نيقوميديا ونصبوا مخيمهم فيما بعد في بيليكان.

كان للتسرع في عبور البوسفور اسبابه؛ فان الكسيوس لم يشأ ان يسلم باقامة جميع فصائل الصليبيين فى آن واحد بجوار القسطنطينية ، اى باقامة تجمعات المقاتلين البرابرة الذين كانوا يهددون باحباط مشاريعه.وقد تخوف الامبراطور على الاخص من قوات عدو بيزنطة المزمن، قائد النورمانيين الايطاليين الصقليين بوهيموند بالذات، في الآونة الاولى على الاقل، هو الذى تسبب للامبرطور باقل عدد من المشاكل والهموم. فقد وصلت فصائله الى القسطنطينية فى ٩ (ابريل) ١٠٩٧ ، وبما انه «فهم وضعه»،كما تقول حنة كومنينة، فقد وافق بدون تردد ودون مماطلة على ان يصبح من اتباع الكسيوس الاول.

وبديهى ان الامبرطور اضطر كذلك الى التنازل عن شئ ما؛ فمع عدو غدار من طراز بوهيموند كان ينبغي التصرف باحتراس وبعد النظر. ان مدون الاخبار النورمانى الذى اطرى مآثر بوهيموند فى الحملة الصليبية، قد كتب فيما بعد ان بطله اخذ الصليب بدوافع الروح الدينية لاعتبار الحملة على الشرق «حربا مقدسة». اما الامبراطور الكسيوس كومنينوس ، وهو ابعد نظرا، فقد حكم على نوايا القائد النورمانى حكما اصح من حكم مداحية الغربيين؛ فاثناء المفاوضات بشأن يمين التبعية الاقطاعية، وعد، كما يعترف مدون الاخبار نفسه، بان يمنح

الرجلين بسيوفهما فجرحوه في عده مواضع في جسده، وكان قد اصبح متخوم فحمل الى داره قتيلا، ومات في النصف من الليل.

وجلس بعده ولده رزيك وانعتوه بالاجل مجد الاسلام. وكان الصالح قد ولى امير ينعت بالمكرم واسمه شاور ولاه مدينه قوص واعمالها. وكان [للصالح] ابن اخت اسمه حسام ونعته عز الدين. هذا كانت اراده الله ان تزول دولتهم على يديه

---

بوهيموند ارضا على مقربة من انطاكية «طولها ١٥ يوما مشيا وعرضها ٨ ايام». ان هذا الوعد قد طاب بقدر ما للقائد النورماني، الذى كان، كما يكتب ريمون دى اجيل، «يتحرق بدافع الغرور والطموح الى ان يصبح امير مدينة انطاكية»، رغم انه كان يطمع في اكثر من ذلك. وسعى بوهيموند الى نيل لقب «دومستيك الشرق الاعظم»اى لقب قائد جميع القوات المسلحة البيزنطية في آسيا ولكن طلبه قوبل بالرفض.

ومهما يكن من امر، فقد عقدت الصفقة. ولكن الباحث النورماني عن الغنائم لم يعلق اية اهمية على يمينه، رغم انه اغدق بالتأكيدات الودية («جئت اليك كصديق لجلالتك»). الا ان الكسيوس الاول، مع اغداقه الوعود وانعامه على بوهيموند بالجواهر، احتفظ باليقظة والريبة حيال التابع الجديد،ولم يعتزم ـ كما بينت الاحداث اللاحقة ـ ان يأخذ على محمل الجد تعهدات القائد النورماني بوهيموند.

في اوخر ابريل انتقلت قوات امير تارنتو ايضا الى آسيا الصغرى.

في هذه الاثناء، ظهرت في جوار يدستو فصائل مهيبة بقيادة ريمون دى تولوز. كذلك اخذت تقترب من القسطنطينية فصائل اخرى من الفرسان. واحتشدت عند اسوار العاصمة قوات كبيرة جدا من الحجاج المسلحين. وعاشت المدينة اياما حافله بالقلق. إلا أن الكسيوس الاول لم يسمح لهم بدخول المدينة الا زمرا صغيرة. ولكن تدابير الاحتراز

فجعل فى قلبه بغضه شاور المكرم وعداوته، وكان
خاله الصالح قد ولاه منيه بنى خصيب فكان
يمسك اصحاب شاور ورسله وغلمانه فى البر
والبحر يضربهم ويهينهم ويعتقلهم ويجرى عليهم
منه كل صعوبه والى امره مع شاور فى كل قبيح،
فكتب شاور اليه دفوع كثيره يستعطفه ويطلب
مسالمته ويقول له: انك مملوك دولة خاله وصنيعته.
فجاوبه عن ذلك بان اخذ صندوق لطيف وعمل

---

هذه كانت قليلة الفعالية. فلم يكن من النادر ان تقع فى الشوراع مصادمات بين الروم والصليبين. وقد بدا الفرسان النورمان للاريستقراطية البيزنطية متوحشين، وكأن القادمين حاولوا بسلوكهم ان يؤكدوا هذه السمعة؛ كانوا يتصرفون تصرفا فظا، متحديا، صلفا. فاثناء حفل استقبال فى القصر الامبراطورى، مثلا، جلس احد اصحاب الالقاب الجهلاء الغربيين على عرش الامبرطور. وكان الصليبيون ينهبون ضواحى القسطنطينية، وينتزعون من الروم المؤن. وما كانت تقدمه السلطات كان قليلا لسد نهم حشود الصليبيين الذين كانوا لايميلون إلى الانهماك فى الركوع والصلوات فى الكنائس وحسب، بل كانوا ايضا يتحرقون الى جميع ثروات المدينة العظيمة. لقد احدثت هذه المدينة فى نفوسهم انطباعا قويا؛ وليس من قبيل الصدفة ترك مدون الاخبار فولهير من شارتر الذى اشترك فى الحملة وزار القسطنطينية وصفا عنها حافلا بالتفاصيل الواقعية. وهذا الراعى التقى لايكل من الاعجاب من تعداد الهبات التى نالها الفرسان من الملك البيزنطى الذى اعطاهم «وفرة من كنوزه ـ الالبسة الحريرية والخيول والنقود».

كان الامبراطور، مع اخفائه مخاوفه بمهارة، يسير بثبات على خطة؛ فقد طلب من رؤسا الصليبين ان يقسموا اليمين بان يعيدوا الى بيزنطية جميع المدن والاراضى التى يفلحون فى استراجاعها من السلجوقيين. وافق الكثيرون على الاستجابة لهذا الطلب. ورفض ريمون دى

فيه درتين جلود بقر مطبقه وانفدهم لشاور، فلما راهم قام وقعد وكان [كاد] يقتل نفسه. وكان شيخ داهيه خبير بالحروب والخداع والحيل والمكايد فشمر على ساق الاجتهاد ووطد نفسه على الحروب والجهاد وهيا العدد والاستعداد وانفق الاموال وحشد وجمع عسكرا يثق به، لان بنى رزيك كانو قد تملكو سنين كثير تقارب عشره، فكثرة اموالهم ورجالهم وقويت احوالهم. فلما علم

---

تولوز ان يحلف يمين التبعية الاقطاعية . معلنا انه اخذ الصليب لا لكى يصبح هو نفسه سيدا ولالكى يحارب من اجل احد غير الرب وحده؛ فمن اجل الرب، ترك اراضيه وثرواته. واضطر بوهيموند من تارنتو الى اقناع البروفنسى العاصى الذى لم يكن يتحلى بالمرونة النورمانية. ومع محاولة اقناع ريمون الرابع، ومع استشفافه فيه منافسا (ذلك ان كونت تولوز كان يجهد لكى يصبح القائد الاعلى لعموم القوات الصليبية)، كان بوهيموند نفسه يأمل فى كسب ثقة الامبراطور . ولكن محاولات الاقناع اخفقت.

واذ ذاك حاول الكسيوس الاول ان يلقن ريمون درسا بالقوة، باللجوء الى الاسلوب الذى عاد عليه بالثمار المنشودة اثناء المفاوضات مع غودفروا دى بويون. ولكن عبثا! فان كونت تولوز كان، حسب تعبير احد المؤرخين ، تقيا ورعا مثل الراهب، وطماعا وبخيلا مثل النورمانى، - يتخوف من ان يحرمه يمينه للامبراطور الاراضى التى كان الاستيلاء عليها هدفه الحميم.

وفى آخر الامر، وافق ريمون الرابع فى ٢٦ ابريل ١٠٩٧ على تعهد مائع فقط، قوامه ان لايتسبب بضرر للامبراطور وحياته وشرفه. كان هذا اشبه بيمين التبعية الاقطاعية، لااكثر. ومع ذلك ارضت هذه اليمين المصطنعة الامبراطور الكسيوس الاول. وسرعان ما تقارب الامبراطور وكونت تولوز بوثوق؛ فان عدواتها المشتركة لبوهيموند من تارنتو كانت التربة لهذا التقارب.

---

انه لا يطيق قتالهم جمع اصحابه ومن كان معه
من ثقات اهله واقاربه من اهل النصيحه والراى
فشاورهم في ان يندفع من قدام عسكرهم الى برية
الواح ويجول فيها طولا وعرضاً بحيث لا يستقر به
مكان، فاذا طال على من يطلبه عدم وجوده
تفللت العساكر لفروغ الزاد ومشقه البلاد وحر
الجبال ونكد الحال، ثم لا يقدر يتبعه الى برية الواح
عسكر كبير لقلت الما وحر الهوى وقلت العشب

---

وفي آلاونة الاولى ابدى تنكريد، ابن اخي بوهيموند العناد والتشبث. ولكي يتجنب حلف يمين التبعية الاقطاعية، غير لباسه، وغادر القسطنطينية ليلا مع فريق من الفرسان وعجل في عبور المضيق. ويقول راوول من كايان ان هذا الفارس المغامر تأسف اقصى الاسف لكون بوهيموند قد اقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطي ؛ لان الامير «مضى لكي يحكم فوجد نيران، راح لكي يرتفع ولكنه ساعد في رفع غيره بينما انحط هو نفسه». وكان تنكريد يعتقد ان ممتلكات الروم السابقة في الشرق، المتواجدة حاليا تحت حكم السلجوقيين، يجب ان تنتقل الى الصليبيين. وبما ان الروم فقدوا هذه الممتلكات بتسليمها للسلجوقبين، فلا داعي، بعد تثبيت الدين المسيحي هناك الى اعادة هذه الاراضي الى حماة بمثل هذا الضعف. ان اعادة المدن والقلاع الى الروم تعني اعادتها الى الاتراك. تلك كانت وجهة نظر تنكريد.

وفي آخر المطاف كانت الغلبة لاحابيل البيزنطيين الديبلوماسية على عناد القادة الصليبيين وجشعهم. فقد غدوا جميعهم تقريبا اتباعا للامبراطور الكسيوس الاول. وفي هذا المجال لعبت بالطبع دورها حيل الديبلوماسي المحنك. فان ايتيان دى بلوا كتب باعجاب غير متصنع بسخائه ولباقته الى زوجته اديل عن اقامة الفرسان في القسطنطينية: ان الامبراطور «يهدى امراءنا بفائق السخاء، ويخفف وضع الفرسان بالعطايا، يطعم الفقراء بالتوزيعات. ان ولدك ، ياحبيبتي

للدواب، ولكونها رمال وتلال لا شجره تظل ولا ثميره. فاشارو عليه بذالك فسار مع الحشود الى مغارة الواح فاقتصر من اصحابه على عشرين فارساً بخيلهم وجمالهم وزادهم وعدتهم، واخذ لنفسه جمال وخيل وبغال وزاد كثير وذهب ومال كثير لنفقته، وقماش يدفعه للعربان وسار. وكان الامر كما قال لما تبعته العساكر ثلثة شهور وهو يزوغ منها من مكان الى مكان لا يقع له على خبر

---

(غليوم الفاتح ) قد وزع الكثير وعلى الكثيرين، ولكن من المشكوك فيه ان يكون وزع بالقدر ذاته» . ولكن امرا آخر كان يتسم باهمية كبيرة،، فقد اضطر الفرسان الى الاقدام على مساومة، لانه كان واضحا لابعد قادتهم نظرا ان نجاح الحرب ضد السلجوقيين يتوقف بقدر لايستهان به على العلاقات بين الصليبيين وبين بيزنطة الباقية فى مؤخرتهم. وغنى عن البيان ان اتباع الامبراطور الجدد كانوا يتذكرون الاوضاع السائدة فى اوطانهم ، قد فهموا باغلبيتهم امرا آخر هو ان النسبة الفعلية بين القوى، وليس الشكليات الحقوقية، هى العامل الحاسم الذى يقرر مصير الفتوحات المقبلة.

### معركة نيقية

فى ابريل ومايو ١٠٩٧ ، نقلت فصائل الفرسان الى آسيا الصغرى.

دارت رحى المعركة الاولى ضد السلجوقيين من اجل نيقية، عاصمة السلطان الرومى قلج ارسلان ابن سليمان. وكان الاستيلاء عليها شرطا ضروريا لتقدم الصليبيين لاحقا بنجاح عبر منطقة الاناضول، التى كانت الطريق العسكرية اليها تمر بهذه المدينة. كذلك كان الاستيلاء على نيقية مهما بالنسبة لبيزنطة ايضا؛ فان الاسوار الجبارة فى نيقية مع ابراجها الى ٣٠٠كان عبارة عن استحكام قوى كان من الممكن ان يشكل، فيما اذا خسره السلجوقين، حماية مأمونة للقسطنطينية من اية اعتداءات من جانبهم.

تفللت العسـاكـر ورجـعت الى القاهره ولم تبلغ مـراد. وقـالو عنه انه توجـه الى الغرب عند امـيـر المومنين ملك الغرب [المغرب]، فلما غيب الظن عنه مقدار شهرين اخرين هبط من برية الواح الى بحيرة اسكندريه [مريوط] ومعه اصحابه، ومعهم جـمـال عليـهـا افـراد خـواص وعـدى من مـحلة عبدالرحمن الى الغربيه ونزل بظاهر بلقينه، وهى قريه مـجاوره للمـحله مقـدار ميل، فى يوم الاحـد

---

غـادرت جـحـافل الفـرسـان بيليكان ونيـقـوميـديا، واقـتـربت الواحـد تلو الآخـر فى ٦ مـايو ١٠٩٧ من نيـقـيـة وشرعـت تحـاصـرها. سـدت فـصـائل جـو دفـروا دى بويون منافـذ المدينة من الشـمـال، وسـد نورمانيو تنكريد (وسرعان ما انضم اليه بوهيـموند مسرعا من القسطنطينية)، منافذ المدينة من الشـرق، وسـد كـونت تولوز الذى وصل فى ١٦ مـايو مع رجـاله من بروفـانس منافذ المدينة من الجنوب. لم يكن تطويق المدينة كاملا؛ فقد بقى قسمها الجنوبى الغربى حرا؛ ومن هنا كانت تمتد بحيرة الى نيقية؛ وعلى الماء لم يكن ثمة شئ يقطع الطريق الى المدينة.

آنذاك، كـمـا يروى المؤرخ الارمنى متى الرهاوى، كـان السلطان قلج ارسـلان ابن سليـمـان يحارب امير قبـدوقية حسن دانشمند من اجل مدينة ملطية. وقد بوغت السلطان بنبأ محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية؛ فى وقت قصير. ومع ذلك، وقع قلج ارسلان الصلح بسرعة مع حسن دانشمند واسرع الى الغرب.

فى ٢١ مايو وصل السلجوقيين الى مشارف المدينة من الجنوب؛ ودون ان يتوقفوا، انقضوا على مواقع البروفانسيين القتالية هناك. فهبت فصـائل اللورين الى نجدة البروفـانسـيين. استـمر القتال يوما بكامله. ولحقت خسـائر كبيرة بالصليبيين (نحو ثلاثة آلاف رجل!) وخسـائر اكبر بالسلجوقيين؛ وقـد اضطر هؤلاء الى التـراجع. وادرك قلج ارسلان انه لا جدوى من مـواصلة

الثامن من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمايه هلاليه[٨٧٩ قبطية = ١١٦٢م]، واجتمع اليه اجناد الغربيه وعربها من بني شيس. فلم يقيم ثلثة ايام حتى صار عنده عساكر واجناد وعربان يقارب عشرة الف فارس، فوقع [فأمر] للاجناد باقطاعات وامرا العربان ينهبو ما لبنى رزيك فى بلاد اقطاعهم من حواصل الغله والمعاصر والمواشى، وانعم على كل قوم بشى طيب قلوبهم. وسار حتى نزل على

---

بذل الجهود، فسحب قواته الى الجبال وترك المدينة للقدر. وابلغ حماة نيقية بان يتصرفوا مستقبلا كما يرون مناسبا.

هلل الصليبيون رغم ان اسوارا رهيبة كانت لاتزال تنتصب امامهم ورغم ان حامية نيقية كانت تصمد بصلابة. وقد تلقت الحامية مددا عبر البحيرة. ومع ذلك، كان النصر يبدو قريبا. وتروى حنة كومنينة ان السلت (هكذا تسمي اللاتين احيانا) ، «كانوا يعودون (من ساحة الوغى) غارزين رؤوس الاعداء بالرماح وحامليها مثل الرايات لكي يراها الاعداء من بعيد ويخافوا من هذه البداية ويقلعوا عن العناد في القتال». ولكن هذه المظاهر المرعبة لم تسفر عن اية نتيجة. واذ ذاك حاول ريمون تولوز ان يحفر نفقا تحت احد الابراج بواسطة اساطين شؤون الحصار، محطمي الاسوارا وغيرهم ممن يستطيعون ان يصدعوا الابراج من اسسها بواسطة الادوات الحديدية. وهذه المحاولة ايضا لم تتكلل بالنجاح.

واخيرا في ١٩يونيو ١٠٩٧ ، شن الصليبيون هجمة مشتركة عامة. وكانت قد انضمت الى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة الدوق مانوئيل فوتوميت؛ فقد ارسل الامبراطور الكسيوس الاول بضع سفن (نقلوها على العربات من نيقوميديا وانزلوها في البحيرة) لاجل قطع حامية نيقية من الجنوب الغربي. كذلك ارسل قوات برية. وقد فعل الامبراطور ذلك بالحاح من الصليبيين انفسهم، وكذلك، على الاغلب، سعيا منه الى بلوغ اهدافه بالذات، مع تقديم المساعدة لهم.

مسجد الخضر فعدى منه الى برا القاهره. فلما اتصل بمجد الاسلام ابن الصالح الوزير فى ذلك الوقت خبر تعديته وانه قد قارب القاهره خرج هو وجماعه بنى رزيك نصف الليل من القاهره هاربين، وذكر جماعه من اصحابهم انهم كانو يسمعو صوت جلبه وصياح خلفهم من كل جانب [يقول] «اخرجو اخرجو»، ثم يطلبو من يصيح فلا يجدو احد فعلمو انهم الملايكه بامر الله اخرجوهم.

---

انتهت المعركة بصورة لم يكن يتوقعها الصليبيون انفسهم. ففى اوج الهجوم، عندما اخذ الفرسان، كما تروى حنة كومنينة، يتسلقون الاسوار، سمح لوحدات الروم، بدخول المدينة؛ وفى الحال سدت الابواب امام الصليبيين. وعلى ابراج نيقية، خفقت الرايات البيزنطية. ولم يكن الصليبيون على علم باللعبة المزدوجة التى لعبها الامبرطور الكسيوس كومنينوس. فقد كان الامبراطور يدرك جيدا قيمة تعهدات زعمائهم التبعية، وكان يعتقد ان الصليبيين، ما ان يستولوا على المدينة، حتى يمتنعوا عن تنفيذ شروط المعاهدة مع بيزنطية، فاجرى مفاوضات من وراء ظهورهم مع قيادة الحامية السلجوقية. وقد وافق السلجوقيون على تسليم المدينة للبيزنطيين . ناهيك بانهم كانوا قدتلقوا تعليمات مناسبة من قلج ارسلان.

وهكذا استولى الروم ـ من وجهة نظر الفرسان ـ على نيقية بالغدر. وقد تبددت توقعات الصليبيين؛ فقد كانوا يأملون فى غنيمة كبيرة وكذلك فى فدية عن السلجوقيين المأسورين. وعوضا عن ذلك تفضل فوتوميت وسمح لهم بدخول المدينة (لكى يصلوا فى الكنائس) جماعات كل جماعة من عشرة اشخاص. فقد كان، على حد قول حنة كومنينة، يعرف جيدا اخلاق السلت. وكانت قوات الروم تحمي المدينة. واشد ما اهان الصليبيين واغضبهم، ان عائلة قلج ارسلان والاعيان السلجوقيين سيقوا الى القسطنطينية، وانه سرعان ما اطلق سراحهم للالتحاق بالسلطان قلج ارسلان.

فخرجو من ابواب القاهره كل واحد منهم بنفسه فتركو اموالهم ومنازلهم وعيالهم فنهبوها السودان وذابو كالملح.

واما مجد الاسلام رزيك وزيرهم فانه اخذ خُرج صغير عمل في ناحيه منه جواهر وياقوت وزمرد وشي كثير من هذه الاصناف وما يكون قيمته خراج ديار مصر سنه، وملا الناحيه الاخرى اكياس دنانير وجعله على حصان يسوى الف دينار من

---

وقد توقع الامبراطور الكسيوس كومنينوس استياء اتباعه الغربيين وتذمرهم، فاتخذ التدابير اللازمة لتهدئتهم؛ فتعويضا عن الخسائر التي لحقت بهم، اعطاهم الكمية الزهيدة من الفضة والذهب التي استولى عليها الروم في خزينة السلطان. ان الاستيلاء على نيقية كان يساوي تقاسم شئ ما مع البرابرة اللاتين. كتب كونت دى بلوا الى زوجته:«جميع الاشياء النفسة مثل الذهب والالماس والفضة والالبسة والخيول وما شابه كانت من نصيب الفرسان؛ اما المأكولات فمن نصيب المشاة. ان شهامة الكسيوس كومنينيوس ازاء السلجوقين، وازدواجية ساسته قوضتا ثقة الصليبيين في حليفهم. ومذ ذاك طفقوا يعتبرونه خائنا للقضية المسيحية.

ان معركة نيقية قد كانت في تاريخ الحروب الصليبية المعركة الوحيدة التي انتهت وفقا لخطط بيزنطية. واستغلالا للنصر في نيقية حاول الامبراطور الكسيوس الاول ان يعزز سلطته قبل كل شئ في الاراضى المجاورة للقسطنطينية. وبقدر ما كان الصليبيون يتوغلون في الشرق وبقدر ماكانت الاوساط الحاكمة في الامبراطورية تفكر اقل فأقل في تقديم العون للصليبيين، بقدر ما كانت تتقلص امكانيات تحقيق خطط الامبراطور الواسعة المرتبطة بالحملة الصليبية. وبعد الاستيلاء على نيقية، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلحة الى العاصمة؛ ووراء ستار الصليبيين المندفعين الى الامام، شرع الكسيوس الاول يستعيد الاراضى البيزنطية على

خيله وركبه وخرج من القاهرة من باب زويله وحده ولم يصحبه احد، فلم يعرف اين يروح وسار متوجه الى قبلى مصر فوقع فى فريق عرب لرجل مقدم منهم يسمى يعقوب ابن البيض فاخذوه عبيده وعروه واخذو الحصان وكلما عليه ومضو عنه وتركوه، فبقى وحده فى البريه عريان حاير وكان شتى [شتاء] وبرد شديد فى شهر طوبه، فراى نار من بعيد فتبعها فلما قرب منها

---

الساحل الغربى والساحل الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ومن بينها فى المقام الاول مقاطعة امارة ازمير(سميرنا). ولم يبق من الصليبيين سوى فصيلة مسلحة صغيرة من الروم بقيادة البريميكير (لقب عسكرى بيزنطى) الاعظم تتيكيوس.

عبور آسيا الصغرى

فى ٢٦ يونيو ١٠٩٧، اتجه الصليبيون من نيقية فى جيشين (احدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريبا من السير) نحو الجنوب الشرقى. وبدأ زحف بالمشقات والمصائب والحرمانات عبر المناطق الداخلية من آسيا الصغرى. ناهيك بان الخطر المشترك حمل قلج ارسلان على التصالح وحتى على الاتحاد مع الذين كانو ا اعداءه منذ وقت غير بعيد ـ امراء قبدوقية. وفى ٣٠ يونيو رابطت القوات السلجوقية فى وادى نهر غير بعيد عن ضوريلوم (دوريله)، بانتظار العدو.

وفى اول يوليو اشتبكت قوات السلجوقيين المتحدة التى شغلت ليلا مواقع على التلال المجاورة للصليبيين. فقد هاجمت مخيمهم فى الصباح الباكر، منقضة على الوحدات الامامية التى يقودها بوهيموند دى تارنتو وروبرت السراويل القصيرة. وانهال السلجوقيون على الصليبيين بوابل من الاسهم من جميع الجوانب. صد بوهيموند الهجوم. واخذت المعركة

جرت عليه كلاب الفريق [القبيلة] فقعد على الارض وحبى على يديه ورجليه حتى دخل طرف الفريق، فوجد كلب راقد في الرماد فرقد بجنبه وضمه اليه حتى وجد سخونته، فسبحان الله مزيل النعم وعظيمة قدرته واعوذ به من سخطه، هذا رزيك كان اول الليل عزيز مصر وسلطانها جالس في مجلسه يامر وينهى الى العتمه، سلب من ملكه وبان من نعمته وخرج هاج على وجهه لقيه من

---

تكتسب طابعا اقسى فاقسى. ونحو منتصف النهار، وصلت طليعة القسم الثاني من جيش الفرسان، السائر في الاثر؛ وكان برئاسة ريمون دى تولوز، الذى ارسلوا اليه منذ الصباح رسولا ينبئه بالخطر والكونت هوج فرمندوا يأمران الطليعة التي اسرعت الى النجدة. وفى الحال،دخلت المعركة. وبعد فترة وجيزة وصلت بقية القوات؛ والى مقاتلى بوهيموند انضم البروفانسيون. وهكذا صار التفوق في العدد الى جانب الصليبيين. واستطاعوا ان يزحزوا العدو كثيرا. وتبين ان السلجوقيين الواثقين في الهجوم لم يكونوا مستعدين للدفاع.

وقد اثرت الاعمال التى قامت بمبادرة من اديمار دى بوى، نائب البابا، تأثيرا لايستهان به في مآل المعركة. فقد تسلح هذا الاسقف بدبوس وانقض بصورة مفاجئة على السلجوقيين من المؤخرة. واذا السلجوقيون، وقد اشتد عليهم الضغط من جانبين، يولون الادبار بخوف وذعر، بل انهم تركوا كل المعدات وحتى خيام السلطان والامراء مع الاشياء النفسية المتواجدة فيها. وفيما بعد كتب مؤلف «افعال الفرنجة» بشعور من الرضى والسرور:«واخذنا غنيمة كبيرة ـ الذهب والفضة والخيول والحمير والجمال والغنم والثيران واشياء كثيرة اخرى».

وهكذا منى السلجوقيون في جوار ضورليوم بهزيمة ماحقة، قررت من حيث جوهر الامر سير الحرب لاحقا في آسيا الصغرى. واما الصليبيين فقد انفتح الطريق الى سوريا

---

اهانه واخـذ مـاله، كل هذا الى نصف الليل صـار
راقد مع كلب فى رماد. سبحان الله يوتى الملك من
يشـا وينزع الملك ممن يشا ويعز من يشـا ويذل من
يشـا بيـده الملك وهو على كل شيـاً قـدير. فلمـا
اصبح الصبح وهو على تلك الحال ابصرته جاريه
فانكرة [فانكرت] حاله وسالتـه: من انت؟ فقـال
لهـا: قـولى لمولاك يجى الى عندى فـهـو يعـرفنى.
فـمضيت ليعقوب واخبرته به فحضر اليه وعرفه

---

أمامهم. وللمـناسبة نقـول ان هـزيمة السـلجوقيين قد ضمنت سلامة بيزنطية وامنها لزمن طويل.

وبعد ان استراح الصليبيون يومين، انطلقوا في ٣يوليو، دون ان يبعثروا قواتهم، الى نحو قونية ثم اتجهوا جنوبا نحو هرقلة. وبصعوبة كبرى، تم عبور الانحاء الجبلية، الصحراوية، الفارغة، غير الآهلة احيانا، فى قيظ يوليو اللهاب. وقد اضنى القيظ الصليبيين. وكان السلجوقيون يعيقون بجميع الوسائل تقدمهم؛ كانوا يدمرون الجسور فوق الانهر ، ويجعلون الآبار غير صالحة، ويكتسحون الحقول، ويسوقون سكان المدن والقرى الواقعة فى طريق الصليبيين. ونقصت الفرسان والفقراء المرافقين لهم والمأكولات، وكان نقص الماء يعذبهم بنحو خاص. وبسبب نقص الماء كانت تهلك الخيول. واضطر بعض الفرسان الى الترجل رغم ثقل دروعهم وتجهيزاتهم، واضطر بعضهم الآخر الى ركوب الثيران، وشحن المعدات والذخائر على عربات قرنوا بها رؤوس الماعز والغنم وحتى الكلاب.

ووصفت العذابات القاسية التى كابدها الرجال والنساء بسبب العطش. «وفى وسط السهل، تراكم الرضع الموتى وشبه الاحياء... والرجال، الذين انهكهم العرق الغزير والقيظ الخارق، كانوا بالكد يمشون بافواه مفتوحة يتلقفون الهواء النقى للغاية، لكى يخففوا العطش».
ومن العطش كان يموت الناس، كما كانت تموت «الصقور وسائر الطيور الكاسرة التى تشكل

وعانقه وبكا، ثم اخذه وخلا به واخلا له بيت شعر
واكساه، واقام عنده الى ان تمكن شاور فى مملكته
واخلع عليه خلع الوزاره وانعتوه باميـر الجيوش،
وطلب مجد الاسلام فعرف مكانه واحضر يعقوب
ابن البيض وطلبه منه فاحضره له من فريقه النازل
شرقى اطفيح، فتلقاه امير الجيوش شاور باحسن
ملقا واكرمه وبجله واخلا له قاعه في دار الوزاره
وجعله فيها، واحضر له سريته وولده واستاذ

---

سلوى الاعيان والنبلاء في ايدى الذين يحملونها مباشرة؛ وحتى الكلاب المروضة لفن الصيد الرائع كانت تموت بالنحو نفسه بسبب العطش فى ايدى اصحابها» .

وفى هذا الوضع لم يكن حال الادلة الروم سهلا؛ فقد اخذوا اكثر فاكثر يرتابون فى خيانتهم.

فى ١٥اغسطس ١٠٩٧وصل الصليبيون الى قونية وهنا توقف الصليبيون لمدة اسبوع، اذ اخذت الامراض تحصدهم. ثم واصل الجيش سيره. وقرب هر قلة، انزل بوهيموند هزيمة اخرى بالامراء السلجوقيين الذين كانت عساكرهم تنتظر الصليبيين هنا من جديد، وذلك اغلب الظن، بأمل ان تفلح فى اجبارهم على العودة الى جبال طروس فتبقى ممتلكات السلجوقيين انفسهم بعيدة عن مجال زحف الفرنجة. الا ان حملة بوهيموند الجريئة بددت هذه الامال. واضطر السلجوقيون مرة اخرى الى التراجع. وبعد احزار النصر فى جوار هرقلة، سمح القادة العسكريون لانفسهم بفترة استراحة قصيرة وقرروا الصيد.

فى سبتمبر اتجهت جحافل الصليبيين الرئيسية من هرقلة نحو الشمال الشرقى من آسيا الصغرى، عبر قيصرية وكومانا، لكى تطل على مرعش، متجنبة سلسلة جبال طوروس. وهذا الطريق اوص به آمر الفصيلة البيزنطية تتيكيوس، وكان يبتغى اهدافا تمليها مصالح الامبراطور

لخدمته. وكان يفتقده في كل وقت بنفسه ويسال عنه ويحضر صحبته فاكهه وياكل معه حتى يطيب قلبه، فنقل له عنه اخوه جلال الاسلام انه يريد يهرب ويخرج يفسد الامرآ ويطلب الوزاره، فصعب عليه ذالك وامر به ان يقيد بالحديد فقيدوه. ثم صبر جلال الاسلام ايضا مده واشاع عنه ان عنده مبرد وقد برد بعض القيد، فكشفو عن ذالك فوجدوه صحيح، فسمع طي ابن شاور المنعوت

---

السياسية؛ وهي ان يحاول اعادة الامراء الارمن الى الخضوع لسلطته، لانهم كانوا اسميا فقط يعتبرون تابعين للقسطنطينية البعيدة عنهم. وعمل قادة الصليبيين بنصيحة تتيكيوس لان الطريق التي دلهم عليها كانت مع ذلك اقل خطرا من طريق اخرى.

لم تطب نصيحة الآمر البيزنطي لبعض الصليبيين؛ فقد تذكروا غدر الامبراطور الكسيوس كومنينوس عند الاستيلاء على نيقية، وكانوا دائما يرتابون بالروم وبتدبيرهم لخيانات جديدة، فعمدوا الى التصرف كما يرتاون. ونحو العاشر من سبتمبر انفصل تنكريد مع مئة من الفرسان النورمانيين ومائتين من المشاة عن الجيش الرئيسي قرب هرقلة، وغادر معسكر الجيش، واستدار بحدة صوب الجنوب، صوب بوابات قيليقيا. وبعد بضعة ايام عمل على غراره بودوان دى بويون وغيرهما من فرسان اللورين، وزهاء ٥٠٠ فارس، كما انطلق معهم ايضا زهاء الفين من المشاة.

وفي قيليقيا الارمنية نشب خصام ضار بين تنكريد وبود وان دى بوين بسبب مدينة طرطوس. في البدء عرض الكونت بودوان بما يكفي من الوقاحة على تنكريد ان يهاجما معا هذه المدينة المسيحية، رغم وقوعها في حوزة السلجوقيين وتحت سيادتهم، وان ينهباها ويتقاسما الغنيمة ولكن هذه الاهداف لم تتحقق، فبعد ان فتح سكان المدينة المسيحيون البوابات امام تنكريد ورجاله النورمانيين، رأى بودوان على الابراج رايات خصمه، فطالب

بالعادل فيذالك الوقت بخبر مجد الاسلام رزيك وانه برد القيد فاخد سيفه ولم يشاور ابوه ولا علم به احد ودخل اليه وضرب رقبته وكان ذالك ليلة جمعه في العشر الاخير من شهر رمضان سنه ثمان وخمسين وخمس مايه. فلما بلغ امير الجيوش ابوه الخبر صعب عليه فلم يقدر يرد ما فات.

ولما كانت ليلت الجمعه القابله وصبيحتها التاسع والعشرين من شهر رمضان المذكور نافق

---

بتسليمه المدينة. واضطر المغامر النورماني، رغم حنقه وسخطه، الى التراجع، فان عدد فرسانه كان يقل كثيرا عن فصيلة في طرسوس؛ وبعد فترة وجيزة حظي بمساندة اسطول القرصان البحرى جينيمر دى بولون الذى وصل الى مرفأ لونجياد؛ فان طاقم السفن كان يتألف من دانماركيين وفلمنكيين وفريزيين. واقسم جينيمر يمنين التبعية الاقطاعية لبودوان، فعينه هذا حاكما على طرسوس. وصار اسطول القرصنة اول اسطول عند الصليبيين.

وفي هذه الاثناء اغار تنكريد على مدينتين اخريين في قيليقيا هما ادنة وميسترا. وتعين تسليم ادنة للفارس البورغوني فلف الذى احتل قلعة المدينة. وفي جوار ميسترا اشتبك تنكريد وبودوان على المكشوف . ولم يحالف التوفيق تنكريد في المعركة. ففي سياق القتال سقط عن حصانه ووقع في اسر ريشار دى ساليرنو.

وفي آخر المطاف سوى المتخاصمان خلافاتهما؛ فقد عقدا صلحا ابقى على وضع الامور على ما هي عليه. وبعد ذلك، استولى تنكريد، وهذه المرة بمساعدة جينيمر من بولون واسطوله على مرفأ الاسكندرونه ، وابقى فيه فصيلة من فرسانه. كان للاستيلاء على الاسكندرونة اهمية كبيرة بالنسبة لاعمال الصليبيين اللاحقة. واجمالا لم يبق اقتحام قيليقيا بدون عواقب على مصائر المشروع الصليبي. فان حاميات الافرنج المتروكة في المدن الارمنية قد حالت لاحقا دون

علي امير الجيوش شاور امير من الامرا اسمه
ضرغام، ونعته سيف المجاهدين، وله اخوه احدهم
يسمي ملهم والاخر نصر، وكان شاور قد احسن
الي ضرغام وقربه وادناه وجعله صاحب بابه
وحلف ضرغام لشاور اربعين يمين انه لا ينافق
عليه، وكذب وخرج من عنده ليله الجمعه كما
قلنا فنافق وحالف الامرا في الليل وجيش [جمع]
عسكر وفتح باب البرقيه(*) من ابواب القاهره

(*) عن باب البرقية والابواب التالية

---

السلجوقيين ودون الاعتماد على هذه الاراضي بوصفها قاعدة للاحتفاظ بانطاكية. ومن جهة اخر ى، كان التنافس بين القائدين الصليبيين بمثابة درس مرئي محسوس للسكان المحليين، من مسيحيين ومسلمين، اذا ادركوا ان علاقات الفرنجة فيما بينهم أبعد من ان تكون على خير ما يرام، وان من الممكن عند الاقتصاد استغلال هذا الظروف.

لم يكن الخصام بين تنكريد وبودوان في قيليقيا غير نزاع من اولى النزاعات بين الصليبيين.

وقد تفجرت النزاعات بملء قوتها فيما بعد، وهذه المرة في صفوف جيش الصليبيين الرئيسي.

اجتاز الصليبيون قيصر ية التي اكتسحها السلجوقيون كليا، واستداروا نحو مدينة كومانا الارمنية. ومنها اندفعت فصائل بوهيموند تطارد بقايا جيش دانشمند المهزوم. وبعد ثلاثة ايام دخل الصليبيون كوكيسوس. وبما ان كونت دى تولوز سمع ان الاتراك السلاجقة غادروا انطاكية، فقد ارسل الى الامام على جناح السرعة فصيلة من ٥٠٠بروفانسي بقيادة بيار دى كاستيون لكي يسبق الآخرين ويستولي على المدينة طالما كان بوهيموند مشغولا بالعمليات الحربية في مكان آخر ما . الا ان الاخبار عن رحيل السلجوقيين عن انطاكية لم تثبت صحتها. من فضيلة ومع ذلك، استولت وحدة من فصيلة ريمون دى تولوز، برئاسة الفارس دى روى، على بضع قلاع في طريقها. وعندما علم بوهيموند بغدر ريمون تولوز، لم يكن لغضبه

فى هذا النص تذكر ما يلى نقلاً عن جومار احد علماء الحملة الفرنسية الذى وضع كتابه عن القاهرة ضمن كتاب وصف مصر وترجمه، أيمن فؤاد السيد: وعدد أبواب القاهرة واحد وسبعون باباً، بما فيها الأبواب التي تغير الغرض منها بتوسع المدينة، والتي اصبحت بالتالى فى وسط المدينة. ومن الناحية المعمارية فإن أهم هذه الأبواب: باب النصر وباب الفتوح الموجودان فى السور القديم الذى بناه الوزير بدر الجمالي واللذين يقعان اليوم داخل المدينة ويبدوان كما لو كان متصلين بجامع الحاكم

وخرج منه ثم فتحو له باب زويله دخل منه وصاح عسكره وقصدو دار الوزاره فخرج شاور وهو يتعمم ولم يمهلوه حتى يكمل عمامته بل اخذ باقيتها فى كمه وركب حصانه وتقلد بسيفه وجا الى باب الفتوح وجده مغلق والسودان محتفظين به فصاح: يا ريحان. فلبو نداه وفتحو له باب الفتوح فوقف في وسطهم وشكرهم واثنا عليهم ووعدهم ان اعاده الله الى ملكه كافاهم باحسن مكافآه، ولما

---

حدود. وهذه الحادثة ارست بداية العداء السافر بين امير تارنتر والكونت ريمون دى سانجيل ـ أى بين اثنين من ابرز زعماء الصليبيين ـ وهذا العداء لم تهدأ ناره على امتداد الزحف اللاحق كله.

كذلك اندفع الفرسان من مرتبة ادنى فى السباق الى كسب الممتلكات من الاراضى. فان الفارس البروفانسى بيار دى اون تقدم من القادة، بعد خروج القوات المسلحة من قيصرية، بطلب منحه السلطة على كومانا (بلاستينيتسا)، «المدينة الجميلة والفائقة الغنى» التي تعهد بالدفاع عنها «خادم الرب والقبر المقدس بأمانة، وكذلك الاسياد والامبراطور». استجاب زعماء الصليبيين بطيبة خاطر لطلب الفارس؛ فقد تنازلوا له عن كومانا، رغم ان وعوده بالدفاع بامانة عن القبر المقدس لم تكن بالطبع سوى ستار لائق لادعاءات اغتصابية بحتة.

وتحركت قوات الصليبيين الرئيسية، متجنبة مدينة كوكيسوس، نحو مرعش، عبر جبال عالية وانهمرت الامطار؛ وجرفت المياه الدروب الجبلية الضيقة. وسار عليها الصيبيون، تارة صاعدين وطوار منزليقين على الجروف الساقطة.

واحيانا كان الناس والخيول على السواء يتدهورون ويسقطون فى المهاوى العميقة. والمصير ذاته كان من نصيب مواشي الجر. جربوا ربطها بعضها ببعض، ولكنها كانت بين الفينة تسقط في المهاوى جارة بعضها بعضا.

---

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

عاد وظفر اوفا بهم، ثم خرج من باب الفتوح وسار تحت ليله حتى وصل الى بيوت عشيرته بنى سعد فنزل عندهم. وملك ضرغام واخوانه وظفرو بطى ابن شاور المنعوت بالعادل فقتلوه، وكان ذلك مكافاه من الله لكونه قتل مجد الاسلام رزيك وهو برى. واستمر ضرغام فى الوزاره تسعه شهور اولها شوال سنه ثمان وخمسين وخمسمايه واخرها جمادى الاخر سنه تسعه وخمسين وخمس مايه

القديم، أكبر وأقدم جوامع القاهرة بعد جامع ابن طولون. والباب الأول بناء ضخم حسن الطراز، وبرجاه مربعا الشكل. ويرجع تاريخه إلى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، أى إلى القرن الحادى عشر الميلادى. ومن الخطأ أن نقدم باب الفتوح على هذا البناء، فأبراج باب الفتوح دائرية (ليست مستديرة ولكن بيضاوية الشكل) ومفرطة البروز حتى بالنسبة لأغراض الدفاع، وهو فى مجموعة اكثر ضخامة، ومع ذلك فإن بناء هذا الباب، مثل بناء الباب الأول، يتميز كثيراً على المبانى التى بنيت فى

---

## إمارة الصليبيين الاولى

فى اكتوبر ١٠٩٧ وصلت جحافل الصليبين الى مرعش. واليها جاء ايضا بودوان دى بولون مع الفوارس المائة الباقين لدية. ان الخصام مع تنكر يد قد قوض سمعة الكونت بين الصليبيين، ففضل مغادرة قيليقيا ليبحث عن السعادة فى مكان آخر. وبالفعل لم يقض الفاتح الذى لايكل فى مرعش سوى يومين؛ ثم اتجه، بناء على نصيحة اخيه، دوق د بويون، باتجاه الجنوب الشرقى، نحو الفرات. ولم تفارقه فكرة تأسيس امارة خاصة به. ولا وفاة زوجته، ولاية اعتبارات اخرى استطاعت ان توقفه. وبالاعتماد على دعم بعض الحكام الارمن، استولى كونت دى بولون، دون ان يلقى مقاومة الا من جانب بلدوخ، امير سميساط، ناهيك بانها مقاومة ضعيفة، على قلعتين مهمتين بين تاب والفرات ـ هما قلعتا رواندان وتل بشير (ومدونو الاخبار اللاتين يسمونهما على الطريقة الفرنسية رافندل وتوربيسل)، وفى ٦ فبراير من السنة التالية، سنة ١٠٩٨ دخل مدينة الرها الارمنية الغنية التى احتلها السلجوقيون قبل ذاك باحدى عشرة سنة (سنة ١٠٨٧).

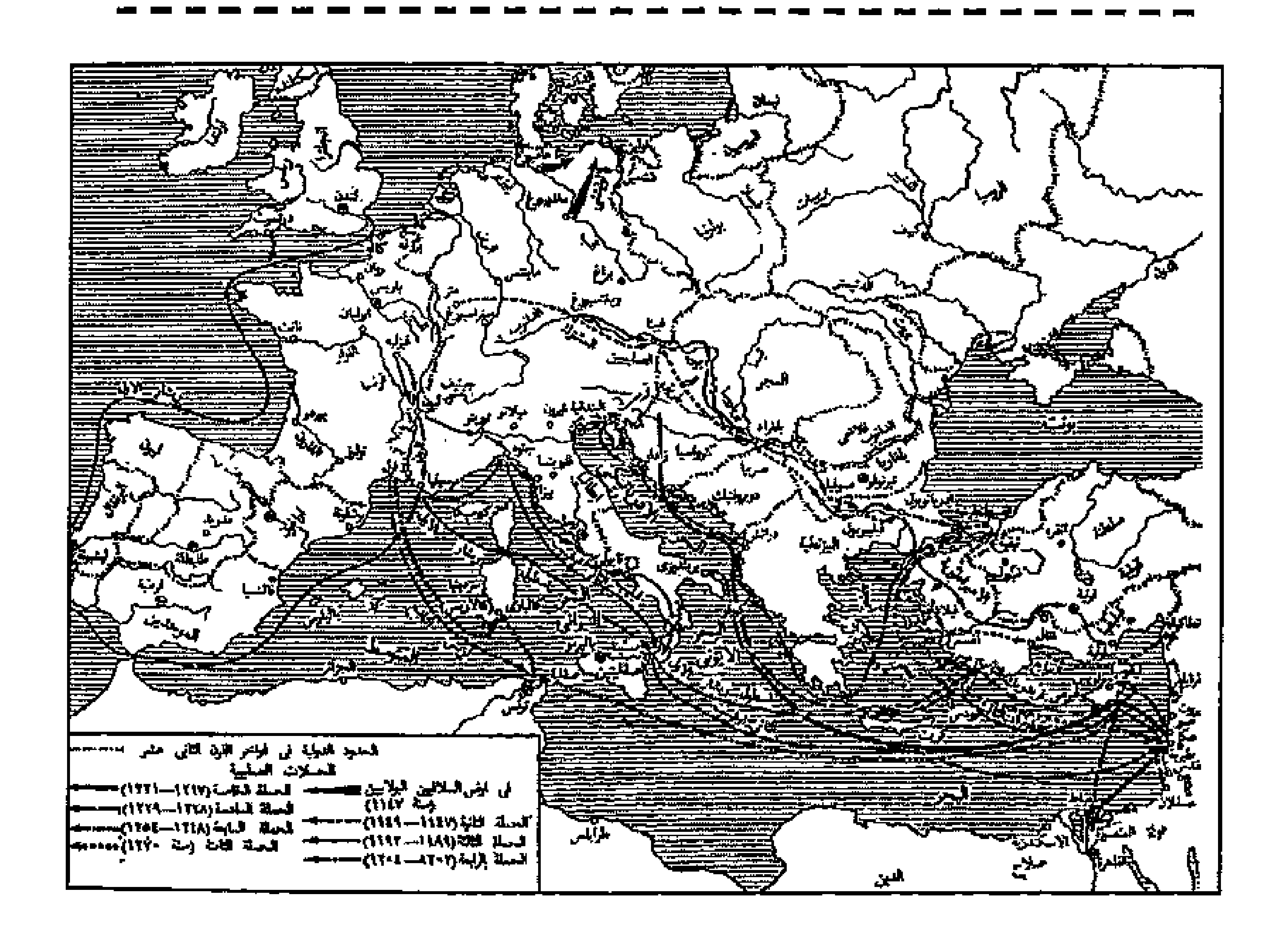
وهذا المركزالكبير وتجارة القوافل، الرها اورفا، الواقعة على طريق من بلاد ما بين النهرين الى سوريا، كان يحكمه (فى البدء باسم حاكم سوريا السلجوقى تتش، ثم بصورة مستقلة) الامير الارمنى طوروس الذى سبق ان منحته بيزنطية اللقب الرفيع ـ «كوروبالات». وقد جاء

القاهرة في القرون التالية. وارتفاع كل من البابين يبلغ حوالى ٢٢ متراً. وقد بنى الباب الثانى كذلك أمير الجيوش بدر الجمالى فى المحرم سنة ٤٨٠هـ = ١٠٨٧م.

ويشير المقريزى، الذى خصص ضمن وصفه للقاهرة فى كتابه «الخطط» فصلاً لأبوب المدينة، إلى أن الأبواب الرئيسية كانت العشرة أبواب الاتية: فقد كان لها «من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة/ ومن جهتها البحرية بابان متباعدان أحدهما باب الفتوح والآخر باب النصر، ومن جهتها الشرقية ثلاثة

وانعتوه بالملك الافضل، واخوه ملهم بالعادل، واخوه نصر ناصر المسلمين.

فاما شاور فانه توجه الى دمشق واجتمع بنور الدين ابن قسم الدوله واسمه محمود ابن زنكى، واقام عنده مده فجهز معه عسكر مقدمه اسد الدين شيركوه ثم عاد الى ديار مصر ونزل ببلبيس، وخرج اليه ناصر المسلمين اخو ضرغام بعسكر كبير، فلما راى شيركوه ذالك خاف وقال لشاور



كيف فعلت هذا الفعل بنا وبنفسك انما جبتنا الى مصر لتهلكنا، لعل نكون نحنا واصحابك فى الفى فارس، فى هذا العسكر عشرين الف فارس مقاتله، ويتبعه مثلها خدام واصحاب. فقال له شاور: لا يهولك الامر فكلهم معى وما منهم احد يقاتلنى. وكان على ظاهر بلبيس كوم عظيم فقال شاور لشيركوه: اصعد بنا الى الكوم وطول روحك لا تقاتلهم حتى تحمى الشمس جيد. ولم يقول شاور

أبواب متفرقة أحداهما يعرف باب البرقية والآخر بالباب الجديد والثالث بالباب المحروق، ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب: باب القنطرة وباب الفرج وباب سعادة، وباب آخر يعرف باب الخوخة. ولم تكن هذه الأبواب في زمن المقريزى فى المكان نفسه الذى بناها فيه جوهر. ثم بنى بدر الجمالى بابى النصر والفتوح على مبعدة من الأبواب القديمة. ولا ننسى هنا ذكر أن الباب الجديد بناه الحاكم بامر الله.

---

بودوان، مع ٨٠فارسا فقط، بوصفه محررا للارمن من سيطرة الكفار، فكسب بالدهاء والحيلة ثقة أمير طوروس، بل انه افلح فى حمل أمير طوروس وزوجته على تبنيه.

اصبح بودوان شريكا فى الحكم لامير طوروس، فثبت اقدامه فى الرها وطفق يتقرب من قسم الاعيان الارمن المعادى لامير طوروس، وبدأ يضطهد بجميع الوسائل سكان المدينة وزراع الضواحى، وبعد فترة وجيزة، حاكت جماعة من الاريستقراطية المحلية مؤامرة ضد أمير طوروس، واثارة ضده سكان المدينة. وقد اشترك ابن أمير بالتبنى وشريكه فى الحكم، بودان، فى المؤامرة سراً وبالنتيجة نكل المتآمرون المجرمون كما يسميهم مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى، بالامير. واذا الامير الذى «تحاشت الرها بفضل ذكائه وحكمته وشجاعته ودهائه وحذاقته وضع دافع الجزية والخادم» للسلجوقيين يسقط ضحية للمتآمرين. وحين حاول ان يهرب من القلعة، «ثقبت آلاف السهام جسده فى لحظة واحدة، فلقى مصرعه».

وجعل بودوان من نفسه حاكما وسيدا لمدينة الرها. واستجابة لدعوته جاء الى الرها بعض من الاسياد الافرنج الآخرين؛ فان الرها القريبة قد اغرتهم اكثر بكثير من القدس البعيدة آنذاك.

فى ديسمبر ١٠٩٨، تمرد الشعب البسيط الذى اضطهده واذله «المحرر ون» ـ الصليبيون. بل ان الارمن استغاثوا بالسلجوقيين. فأمر بودوان بأعتقال المبادرين الى التمرد واعدموهم،

هذا الا لعلمه ان الشمس اذا قويت تفللو يطلبو الظل تحت الشجر والجدران، فلما حميت الشمس وقت الظهر وهم قد تفللو وطلب كل واحد منهم مكان يستظل فيه فنزل شاور وشيركوه من على الكوم وحملو بعسكرهم عليهم فكسروهم واسروهم وعروهم واخذو خيلهم واموالهم ولم يقتلو منهم ولا واحد، وهرب بقيتهم الى القاهره، فسار شاور وشيركوه خلفهم بالعسكر الى القاهره

---

واحالوا اموالهم الى الفرسان الافرنج. وزجوا في السجون بالكثيرين ممن اشتركوا في الفتنة. وافلح بعض من الموسرين في الافلات من السجن بدفع فدية تتراوح بين ٢٠ الف بيزانط و٦٠ الف بيزانط ومذ ذلك، لم تعد تستند سلطة بودوان في الرها الا على الارهاب ضد الارمن «المحررين» . وقد كتب متى الرهاوى عن ثبوت اقدام الافرنج في الرها:«وقد اقترفوا مثل هذه الأعمال التي لاعد لها ولاسابق لها لاجل نهب الكنوز، وانزلوا بالبلد الخراب الشامل، وبالناس العذابات القاسية، ولم يكونوا يفكرون الا بالشر، وكانوا يفضلون درب المآثم والموبقات».

وقد بذل بودوان جهده، بعد ان اصبح سيد المدينة، لكي يوسع قدر الامكان حدود ممتلكاته. ففي الجنوب الغربي احتل مدينة سروج وحولها الى حصن لممتلكاته الجديدة. ثم استولى الفرسان على مناطق تقع غربي وشرقي في المجرى الاعلى لنهر الفرات.

وهكذا ارسيت بالقوة والعنف بداية اول إمارة للصليبيين في الشرق ، ــ كونتية الرها. وقد اصبحت هذه الكونتية مخفرا اماميا مهما للإمارات الصليبية الاخرى التي تشكلت فيما بعد.

### احتلال انطاكية

في ٢١ اكتوبر ١٠٩٧ وصلت قوات الصليبيين الرئيسية الى مشارف انطاكية. كانت انطاكية الواقعة على بعد ١٢ ميلا عن البحر، على الضفة الشرقية من نهر العاصي، من اهم

ونزلو فى ارض الطيـاله واللوق ودير [داير: حـول]
القـاهره وحـاصـروها. ولم يزل القـتـال والحـرب
مستمر وضرغام واخوته مباشرين الحرب متفرقين
على ابوابها الى ان كتب الامام العاضد الخليفه فى
ذالك الوقت رقعه لضـرغام الوزير يقول له فيـها:
بسم الله الرحـمن الرحـيم نحن نعـرفك ايهـا الملك
انه لم يبق فى فيك ظل الا الى صلاة العصر، فانج
بنفسك ان قدرت والسلام. وكان ضرغام فى ذالك

---

مدن القسم الشرقى من البحر المتوسط(من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية). وكان تاريخ انطاكية يرقى الى زمن الامبراطورية الرومانية. ومنها انتقلت الى بيزنطة، ثم احتلها العرب فيما بعد. وفى الثلث الاخير من القرن العاشر ، احتلها البيزنطيون من جديد، ولكن لزمن قصير؛ ففى ١٠٨٤ـ١٠٨٥ احتلها السلجوقيون. ومنذ سنة ١٠٨٧ حكمها الامير ياغى سيان الذى استغل العداوة بين دقاق صاحب دمشق ورضوان بن تتش صاحب حلب، وتوصل فعلا الى الاستقلال السياسى.

كانت انطاكية عبارة عن قلعة من صنع الطبيعة، ففى الجنوب الغربى كانت تحميها الجبال، وفى الشمال الغربى كان يحميها النهر والمستنقعات، وفى الغرب كان يحميها البحر. وفى عهد االامبر اطور يوستينيان (القرن السادس) بنوا حول المدينة ـ فى الانحاء المستنقعية وفى السفوح الجبلية اسوار منيعة. وبعد استرجاع المدينة من العرب، عززوا الاسوار اكثر من ذى قبل، فقد بلغت من سمكها انه كان من الممكن، كما قال المعاصررون، ان يتسع اعلاها لاربعة احصنة وبنى فى الاسوار ٤٥٠برجا. وفى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة، فى اعلى منطقة فيها، ـ على سفح جبل سيلبيوس، كانت تقع قلعة داخلية عززها السلجوقيون باتقان ومتانة.

كانت انطاكية الموصولة بالبحر، عبر خليج القديس سمعان، بمدن الساحل الاخرى،

اليوم قد جا الى القصر ووقف مقابل باب الذهب
فى امر عرض له ياخذ راى الخليفه فيه فوجد
ابواب القصر مغلقه فرميت له هذه الرقعه، فلما
وقف عليها لم يرجع الى ورايه بل خرج من باب
زويله فادركته خيل الغز عند [قلعة] الكبش، تحت
جبل المقطم بين القاهره ومصر، فقتلوه ولم يعرفوه
انه ضرغام، فلما جابو راسه الخيم عرفه شاور
وركب للوقت وجا الى القاهره ففتحت له الابواب

---

تضطلع من قديم الزمان بدور كبير فى تجارة المشرق. ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين امرا مغريا جدا. ولكن كان الدفاع عن المدينة ـ القلعة من الداخل اسهل من اخذها من الخارج؛ فان العوائق الطبيعية وكذلك الاسوار والابراج كانت تجعلها عسيرة المنال رغم ان حامية ياغى سيان لم تكن كبيرة.

ان النبأ القائل ان بودوان صار كونت الراها قد اجج شهوات الامراء الباقين، وفى المقام الاول بينهم بوهيموند دى تانتو وريمون دى تولوز. وقد اقترح هذا الاخير مهاجمة انطاكية فى الحال. الا ان هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر لم يلق الدعم من جانب القادة الآخرين. فقد كانوا يخشون الخسائر فى الارواح، وفضلوا انتظار المدد؛ اذ سرت شائعات عن قرب وصول تنكريد من الاسكندرونه، وفصائل جديدة من الصليبيين من الغرب.

كان منظر اسوار المدينة وابراجها يخيف الصليبيين. وكان جليا للاغلبية انه لايمكن الاستيلاء على المدينة بدون تطويقها باكثف ما يمكن، وبدون ضرب حصار دائب.

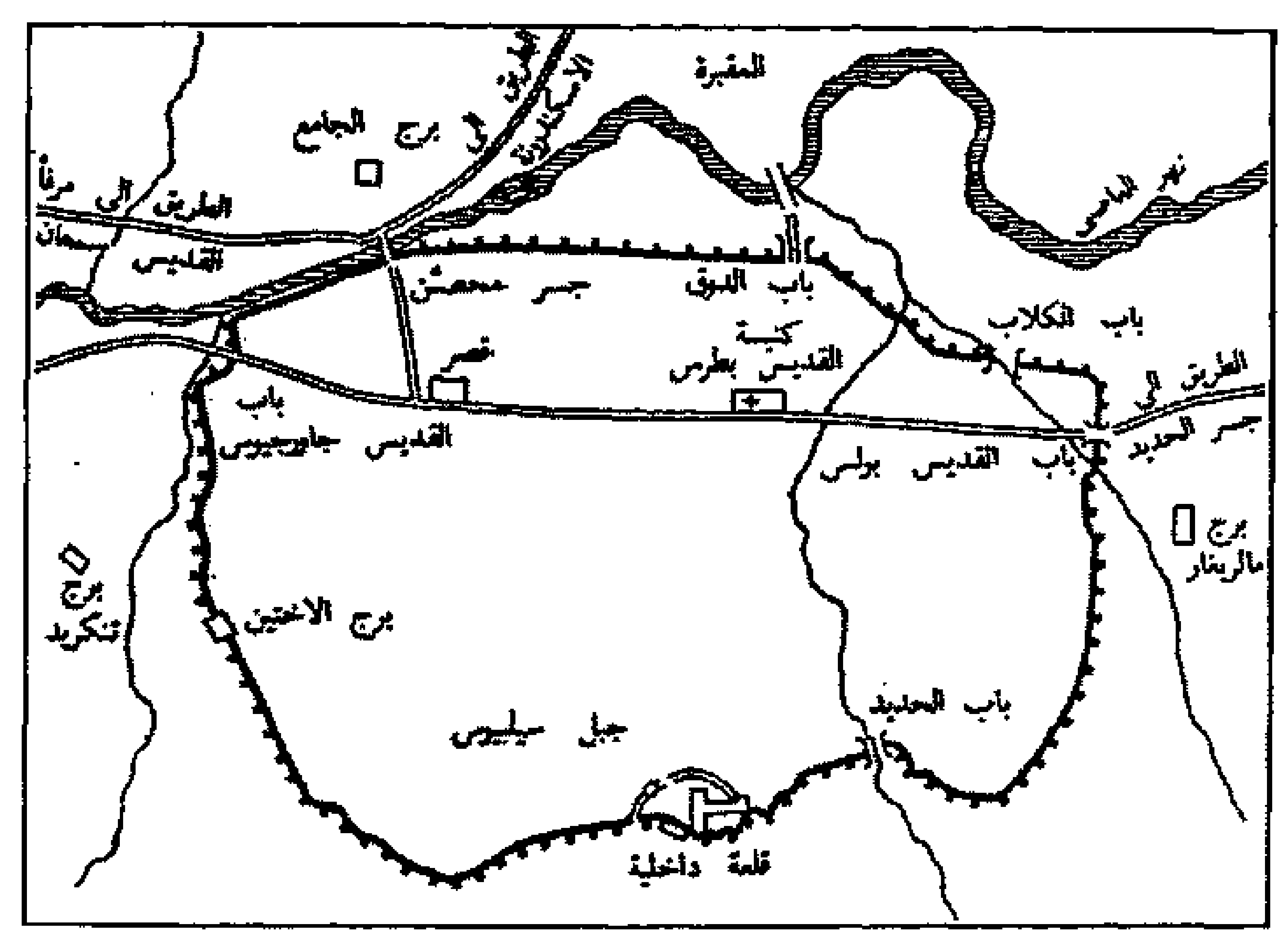
ولكنهم تصرفوا بدون اية معرفة وحذاقة. وبما انهم كانوا يجهلون طرائق حرب الحصار، فقد اقترفوا الكثير من الهفوات والاخطاء. فمن الجنوب لم يسدوا البتة المدينة ومخارجها. وبالنتيجة كانوا يمنون بالاخفاق تلو الاخفاق. وكان بوسع المحاصرين ان يخرجوا من المدينة ويقلقوا المحاصرين ويثبطوا معنوياتهم بغاراتهم. ولكى يحمى الصليبيون انفسهم من هذه

ودخل، فلم يستقر به القرار حتى بلغه ان اسد
الدين يريد يغدر به فاحترز واغلق ابواب القاهره
فتقدم اليه وقاتله وحاصره، وامتدة ايدى الغز فى
سكان مصر من النصارى [و] السودان والارمن
والاتراك والمصريين، وكانوا يقتلو منهم ويبيعوهم،
فان وجدو من يشترى منهم والا قتلو ذالك
الشخص، ونهبو اموالهم واخذو نساهم، وكانو
ينادو على النصراني من يشترى كافران، وعلى

---

الطلعات والغارات، بنوا على مقربة من باب الحديد برجا هو برج ما لريغار؛ وقد بنوه على سفح جبل سيلبيوس، غير بعيد عن سور القلعة. وفي الشهر الثالث من الحصار ، حين اقترب الشتاء انهمرت الامطار الباردة اللامتناهية، وتبين ان المأكولات عند الصليبين توشك ان تنتهي؛ وحتى ذاك، كانوا يؤمنون لانفسهم الطعام ناهبين الضواحي الغنية لانطاكية ودون ان يحرموا انفسهم من اى شئ. وبدأ الجوع في المعسكر. ويستفاد من مدون للاخبار ان واحدا من كل سبعة من الصليبيين قد مات جوعا، ولم يستفد المقاتلون من اللحوم والفواكه والخمورالتي ارسلها لهم من قبرص، بناء على طلب من اديمار، نائب البابا، البطريرك سمعان، بطريرك الروم للقدس، الموجود آنذاك في قبرص. فان هدايا البطريرك لم تكف الا لمدة قصيرة. اما سكان المناطق المجاورة، من ارمن ويونانيين وسوريين (وهؤلاء مسيحيون من شتى الطوائف والتيارات) فقد كانوا يبيعون المنتوجات الغذائية باسعار مفرطة الغلاء. ويورد فارس نورماني اشترك في حصار انطاكية قائمة كاملة باسعار الخبز والدجاج والبيض والجوز والخمور ولحوم الحمير، الخ.، ويعتبر هذه الاسعار غالية جدا. ويقول:«بل ان كثيرين منا ماتوا هناك لانه لم تكن معهم اموال يستطيعون بها ان يشتروا بمثل هذه الاسعار الغالية». ان اولئك الذين كانوا ينهبون ويخربون ضواحي انطاكية بوحشية وهمجية غير آبهين بالعواقب، شرعوا الآن يجتنون ثمار لصوصياتهم.

التركى  من يشترى تركى خليع بات فى الصقيع، وعلى الاسود من يشترى سويدان. وكانو يبيعوهم بثمن خسيس: بعشرين درهم النصرانى، وعشره دراهم التركى، وخمس دراهم الاسود. واستشهد على يدهم راهب اسميه شنوفه من دير ابو مقار مسكوه واعرضو عليه الاسلام فامتنع منه فقتلوه، ورامو ان يحرقو جسده فلم يحترق، فاخذوه النصاره ودفنوه فى كنيسه ابو سرجه بمصر فى



انطاكية (سنة ١٠٩٨)

اليوم الرابع والعشرين من بشنس. وهدمو كنايس كثير للشهدا فى ذالك الوقت فى ضواحى القاهره، وهدمو كنيسه الحمرا بحارة الروم البرانيه، وكنيسة الزهرى، ونهبو كل كنيسه هدموها.

وبعد ما ان اهتدت [هدأت] الامور اهتم الشيخ الاسعد صليب صاحب الديوان بعمارة كنيسة الحمرا والزهرى وما قدر عليه من الكنايس، وكان يتعاهدهم ويفتقدهم بالقداسات فيهم ويهتم

---

وهبطت معنويات الفرسان والفقراء بسرعة كبيرة. وطفق اصغرهم نفسا يفارقون العساكر. وفى صباح من شهر يناير ١٠٩٨ اختفى من المعكسر بطرس الناسك (وكان قد انضم الى الفرسان في القسطنطينية) ومعه صديقه الحميم الفيكونت غليوم النجار وغيره. فجهز تنكريد فرقة لمطاردة الفارين، واعادتهم.

الا ان الامدادات بدأت تصل، والحق يقال، من الغرب. فمن سواحل الاطلسى والقسم الغربى من البحر المتوسط، اندفع التجار والقراصنة الى انطاكية على سفنهم كأنما احسوا بالنفع المقبل وفى نوفمبر ١٠٩٧ رمت ١٤ سفينة من جنوه مراسيها فى خليج القديس سمعان. وفى مارس١٠٩٨، ارسلت ٤ سفن انجليزية بقيادة ادجار ايتلينج. وقد عرجت هذه السفن فى طريقها على القسطنطينية وشحنت ادوات ومعدات للحصار ومواد لاجل تركيبها. وعلى متن هذه السفن وصلت كذلك فصيلة المقاتلين من ايطاليا. كذلك هرع جينيمر دى بولون (من الاسكندرونة) الى مساعدة الصليبيين واخذ الصليبيون انفسهم يطوقون انطاكية بابراج الحصار.

ولكن ياغى سيان استنجد بالحكام السلجوقيين الآخر ين. وارسل على الاخص ابنه شمس الدين الى دقاق، صاحب دمشق، فارسل هذا الى انطاكية قوات كبيرة. وفى الاشتباك السافر

باقمنت [قمينة] الجير حتى كملت العماره. ولم يزل اسد الدين مقيم على القاهره يحاصر شاور الى ان انفد شاور للملك مرّى ملك الافرنج بمال عظيم حتى جا بعسكره(*)، فلم اخبر اسد الدين شيركوه العربان بقرب الافرنج من البلاد رحل بعسكره الى الصعيد، ولما وصل الملك مرّى بعسكره الى بلبيس حمل اليه من الخليفه والوزير من المال والهدايا شي كثير. واستراح على بلبيس

(*) شاور يستعين بالملك مرى ملك الفرنج لمحاربة ضرغام.

---

برهن الفرسان الصليبيون ذوو الاسلحة الثقيلة عن تفوقهم على العدو؛ ولم يستطع السلجوقيون تحريك الخيالة الخفيفة. وفي اواخر ديسمبر ١٠٩٧ ، منيت قوات دقاق في جوار البارة بهزيمة انزلتها بها فصيلة متحدة تضم عشرين الف عنصر من قوات بوهيموند دى تانتو وروبرت دى فلاندر. نهب الصليبيون قريتين وعادوا الى المعسكر في جوار انطاكية بدون نجاحات خاصة فيما يتعلق باحتياطات المؤن. وبعد فترة وجيزة، في فبراير ١٠٩٨ ، استطاع الصليبيون ان يصدوا قرب جسر الحديد ضغط القوات التي دفعها الامير رضوان صاحب حلب الذى وقع معه ياغى سيان الصلح بعد ان كان معادياً له قبل ذاك، واكره الصليبيون السلجوقيين على التراجع. وقد لعب بوهيموند الدور الرئيسى في هذه الانتصارات الجزئية على السلجوقيين فقد ابدى كل همته وكفاءته كقائد عسكرى؛ ذلك ان امير تارنتو كان يأمل بكل رسوخ بان انطاكية ستكون له وحده دون غيره!

ومع ذلك، ضعفت بكل جلاء مواقع الصليبيين المتجمدين بردا. وكانت تنقصهم الاعلاف. ولم يبق في المعسكر غير ٧٠٠حصان، بينما ماتت الاحصنة الاخرى.

حاول البارونات ان يستغلوا في مصلحة الحرب الصليبية التناقضات بين السلجوقيين والفاطميين في مصر.. ففى اوائل مارس ١٠٩٨ وصل من مصر الى جوار انطاكية رسل الوزير الافضل. ولكن الخليفة الفاطمى المصرى عرض على زعماء الصليبيين شروطا غير مقبولة ابدا

شـهـرا واحـدا، ثم جـا الى القـاهره ونزل بعـسكره
حول القاهره، ثم سار عسكر الفرنج ومرّى ملكهم
وعسكر المسلمين وشاور سلطانهم في طلب اسد
الدين شيركوه وعسكره. فلما تبعوه عدى الى البر
الغربي وسار الى الصعيد الاعلا فادركوه على بقعه
تسمى البابين [على بعد ١٠ أميال جنوب المنيا](*)
والتقـو معه فقتل من عسكره خلق كثير، وقتل
ايضا من الفرنج والمصريين جماعه كبيره، واسر

(*) القوات الصليبية تحت قيادة مرى تصل إلى جنوب المنيا بصعيد مصر لمساندة شاور ضد شيركوه.

---

بنظرهم: تقاسم سوريا وفلسطين على ان تبقى القدس لمصر. رفض البارونات هذه العروض. ولكنهم قرروا ان يواصلوا المفاوضات مع المصريين في القاهرة. والى القاهرة راح مع رسل الافضل مفوضو الصليبيين. وكان قادة الصليبيين يأملون في عقد معاهدة تحالف مع مصر ضد السلجوقيين.

ويتبين من هذه الوقائع ان الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين من الدخول في علاقات ديبلوماسية من الجلي انها غير جائزة، على ما يبدو، بالنسبة لاخصام الاسلام عن اقتناع. ولكن... الايمان هو الايمان، والدين هو الدين، بينما المنافع السياسية الفعلية تعلو من ذلك على كل شئ! ومن الطريف ان ريمون من اجيل، الذى افاد عن هذه المفاوضات ، يزعم، رغبة منه في تبريرها كيفما اتفق، ان السلطان المصرى اتخذ تدابير في صالح المسيحيين وان رسله ابلغوا الصليبيين بذلك.

واستغل بوهيموند من تارنتو في الحال مصاعب فصائل الفرسان، وكان من زمان يحلم في تنصيب نفسه اميرا على انطاكية. فوجه جميع افكاره الى امتلاك هذه المدينة. قبل كل شئ حاول ان يتملص بالحيلة والدهاء من وصاية الامبراطور . كانت قوات الروم المسلحة بقيادة البريميركير الاعظم تتيكيوس المرابطة في معسكر بجوار انطاكية اداة سياسة حيال الصليبيين. وكان بوسع تتيكيوس ان يحول دون تحقيق مشاريع الامير النورماني؛ ذلك ان هدف اقامة الروم

كل منهم من الاخر اسارى. ثم عاد اسد الدين الى اسكندريه وتحصن فيها وتبعه الملك مرّى وعسكر الفرنج وعسكر المصريين ونزلو عليها وحاصروه(*)، فلما طال به الحصار خرج منها ليلا وعاد الى القاهره لياخذها، فلما علم به الملك مرّى وشاور تبعوه، وجرت خطوب كثيره تقرر اخرها ان قطعو له مال اخذه وعاد الى بلاده. واوفا شاور بما عاهد عليه الفرنج من سلامتهم لانه لو اراد ان يغدرهم

(*) القوات الصليبية بقيادة مرى تحاصر الاسكندرية دعمًا لشاور ضد شيركوه.

---

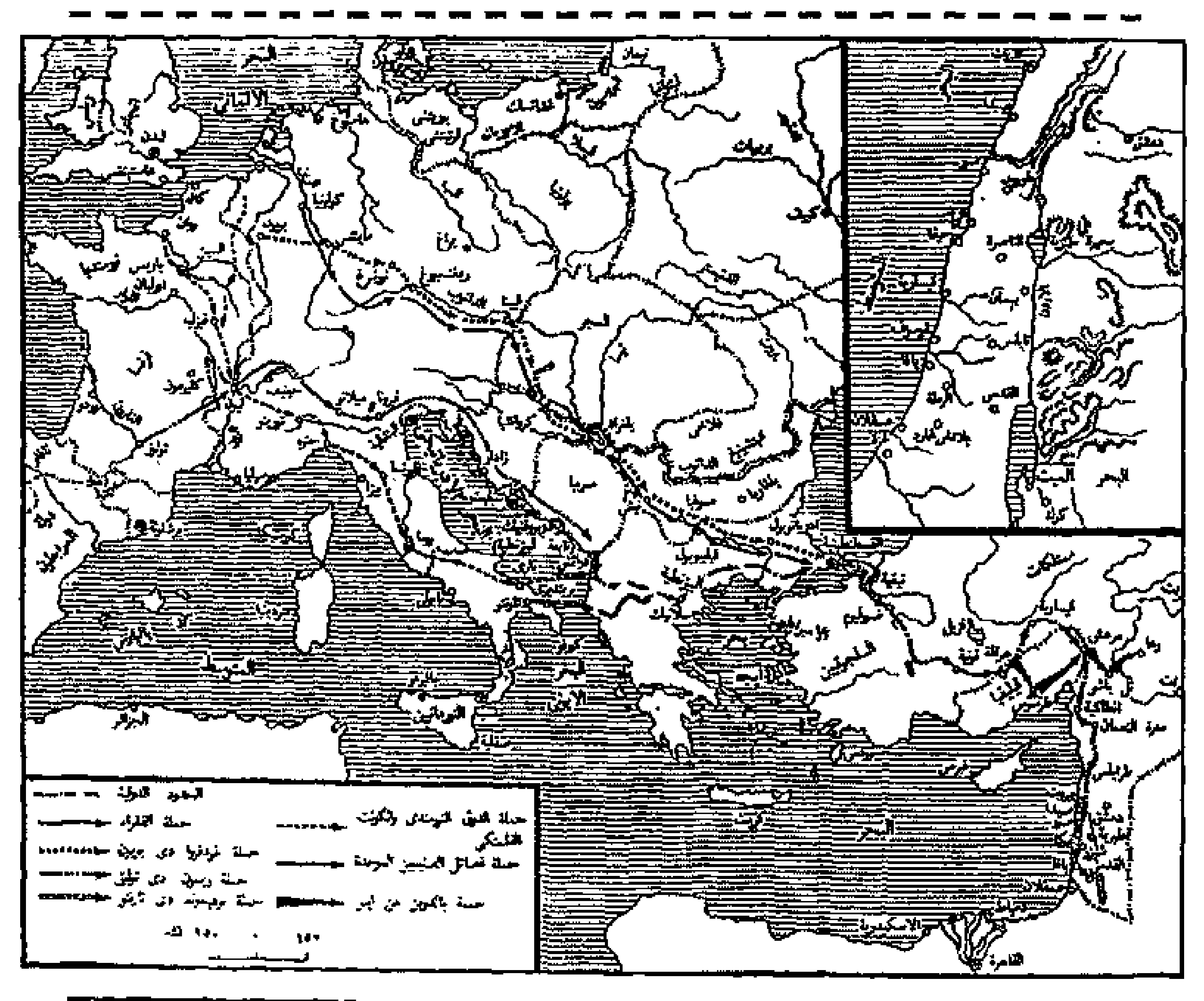
هناك مع الصليبيين لم يكن بالأساس مساعدتهم، كما كانت تفترض الاتفاقيات الرسمية. فان فصائل الروم المسلحة كانت مفرطة في القلة لاجل تقديم مساندة جدية. وكانت مهمة تتيكيوس الرئيسية تتخلص في صيانة مصالح الامبراطورية البيزنطية: ففي كل حالة بمفردها، لدى كل نجاح يحرزه الصليبيون، كان على تتيكيوس ان يطالب زعماء الصليبيين بان يعيدوا الى الامبراطور البيزنطي المدن التي «يعيدها الرب»، حسب تعبير حنة كومنينة.

على كل حال، غادر القائد العسكرى الرومى المعسكر وراح الى قبرص فى فبراير ١٠٩٨ منسقا موقفه بالتأكيد مع رغبة الامبراطور الكسيوس الاول، وواجدا حجة مناسبة: تجلب للفرسان مساعدة قوية.

وقبل السفر، انعم تتيكيوس، باسم الامبراطور، على بوهيموند بقيليقيا كلها تقريبا ،مضيفاً بالتالي الصفة الشرعية على فتوحات تنكر يد، وملمحا في الوقت نفسه للنورمانيين ان العاهل البيزنطي هو الذى يتصرف بقيليقيا على كل حال.

وبعد ذلك، اجرى امير تارنتو الداهية مفاوضات سرية مع الآمر السلجوقي فيروز الذى كان مكلفا بحراسة ثلاثة ابراج في الجانب الغربى من اسوار انطاكية، واستطاع ان يستميل فيروز إلى الخيانة: فلقاء رشوة معينة ولقاء الوعد بمكافأة وافق فيروز على السماح للفرسان الصليبيين بدخول الابراج التى يحرسها.

ويتفق مع عسكره الغربا عليهم ما رجع منهم مخبر. وقد كان الملك مرّى عرف انه اخطا لكونه حصل بعسكره في وسط بلاد الاسلام من حلق بحرين الشرقى والغربى وسلمه الله لعدله وحسن تدبيره. واستمر شاور فى الوزاره الى اخر يوم السبت الثامن من ربيع الاول سنه اربع وستين وخمسمايه [٨٨٥ قبطية = ١١٦٩م]، وجرت له خطوب ياتى ذكرها فيما بعد.



وفى ايام هذا البطرك تنصـر رجل من اليـهـود
بمصر من كبار قومه خبيرا عالما من اعيان طايفته
يسمى ابو الفخر ابن ازهر وقرى مذهب النصرانيه
وتكلم باللغه القبطيه فى اسـرع وقت، وكـان
يجادل اليهود باللغه العبرانيه ويفسر للنصاره باللغه
القبطيه، وتمهر فى مذهب النصرانيه حتى صار
اعلم من اهله ومات على دين النصرانيه مومن
بالمسيح بعد ان قاسآ من المسلمين واليهود شدايد،

---

فى اواخر مايو ١٠٩٨، عندما يئس الصليبيون تماما وقد عذبتهم آلام الجوع وتملكهم الخوف من المستقبل، ابلغ بوهيموند فى مجلس القادة انه يعرف وسيلة للاستيلاء بسرعة على انطاكية ولكنه اشترط وضع المدينة تحت سلطته بعد فتحها. فى البدء قابل زعماء الصليبيين بالرفض القاطع عرض بوهيموند وشرطه. وذلك ان بعضا منهم، مثل ريمون دى تولوز، كانوا يرغبون هم ايضا فى ان يصبحوا امراء انطاكية. فانهم ، كما يروى الفارس مدون الاخبار القريب من بوهيموند، «قد عارضوا قطعا وردوا هذه المقترحات واعلنوا :«هذه المدينة لن تكون من نصيب احد بمفرده، بل سنملكها جميعا بانصبة متساوية؛ وبما اننا بذلنا بالقدر نفسه فى هذه القضية جهودنا القتالية، فينبغى ان نحصل على تشريفات واحدة» . ولكن امير تارنتو لم يعتزم التراجع عن مساعية. وحين اصطدم بمعارضة قادة الصليبيين، تظاهر بانه يتخلى عن هذا المشروع، وحتى صرح علنا وجهارا انه ينوى العودة فى الحال الى الوطن، اذ ان الشؤون البيتية تتطلب، بزعمه، وجوده فى تارنتو. ويقينا ان ذلك كان مجرد مناورة وابتزاز. ولكن مفعولهما سريا لسبب بسيط، هو ان نبأ رهيبا اذهل آنذاك بالضبط الفرسان مثل البرق هو ان الاعداء سيلقون عونا من الشرق. وبالفعل، كان جيش اسلامى لجب يقترب من انطاكية بقيادة اتابك الموصل كربقا.

ذلك ان زحف الافرنج اقلق الاعيان السلجوقيين. فارسل كثيرون من حكام السلجوقيين

وكانو اليهود يبذلو للسلاطين المال على قتله فيخلصه المسيح منهم فلا يصلو لمضرته، واقام نصراني يمشي في بطون اليهود نحو من اربعين سنه بمصر.

وفي ايام هذا البطرك وصل كتاب من ملك الحبشه الى العادل ابن السلار يلتمس قسمت مطران، وكان عنده مطران يقال له انبا ميخاييل، وكان اسمه حبيب الاطفيحي، فلما كبر وشاخ

---

قواتهم الى كربقا، ومنهم امراء القسمين الاوسط والشمالى من بلاد ما بين النهرين، ودقاق صاحب دمشق، وامراء المقاطعات الفارسية. في البدء تحرك هذا الجيش من آلاف المقاتلين نحو الرها، فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضي على المخفر الامامي للسيادة الفرنجية التي اخذت ترتسم بجلاء في الشرق. وكان يتخوف من وجود كونتية الرها. فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضي على المخفر الامامي للسيادة الفرنجية التي كان بمقدورها ان تقطع مواصلات السلجوقيين. ولكن جيش اتابك الموصل لم يتوقف في جوار الرها سوى ثلاثة اسابيع، واستدار في اتجاه انطاكية دون ان يبلغ هدفه (فقد تبين ان اسوار المدينة منيعة لاتؤخذ).

ان الشائعة التي انتشرت بين الصليبيين عن هذه الاحداث قد بذرت الرعب في صفوفهم. ويروى مدون الاخبار البروفانسي شاهد العيان ريمون دى اجيل منددا بصغار النفوس ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون من جوار المدينة، وبينهم الكونت ايتيان دى بلوا، السيد الكبير الذى كانوا يقولون عنه في فرنسا ان عنده من القصور بعدد ايام السنة. واثناء الحملة، اكثر من املاكه. وقد كتب ايتيان دى بلوا الى زوجته من جوار انطاكية: «صدقيني، ياعزيزتي، ان عندى الآن من الذهب والفضة ضعفي ما كان عندما فارقتك». ان هذا الصليبي الرفيع المقام الذى اغتنى لم يرغب في ان يعرض للخطر الغنائم التي نهبها في الشرق، من اجل قضية معلقة

انفذ الملك يطلب مطران غيره، وهذا حبيب كان

قسمه انبا مقاره البطرك، فلما جرى بينه وبين الملك

كلام تغير عليه وكتب يطلب غيره. وسبب ذلك

ان الملك كان تغلب على المملكه بغير حق فوبخه

المطران وانفد كتاب للسلطان، وكان في ذالك

الوقت العادل ابن السلار وزير، وكتاب ايضا

للبطرك يطلب مطران غيره وهو بالحياه لم يموت،

فامتنع ابونا البطرك من ذالك وقال للوزير العادل:

---

وموضع شك، قضية تحرير قبر السيد المسيح؛ فركب سفينة مع الفرسان الذين التحقوا به، وراح الى الاسكندرونه، ومنها عاد الى بيته عبر آسيا الصغرى.

اضطر زعماء الصليبيين، وقد اقلقهم اقتراب كربقا، الى التنازل لادعاءات بوهيموند الوقحة. فقد اتفقوا «بقلب مفتوح» ، اذا صدقنا مدون الاخبار، ولكن قسرا بالفعل ، على منحه المدينة، اذ كان يستطيع ان يستولى عليها وحده او بمساعدة احد ما في القريب العاجل الا انه تم الاتفاق ، والحق يقال، بصدد تحفظ مفاده أنه سيتعين لاحقا على كل حال، بموجب المعاهدة مع الامبراطور البيزنطى، احترام حقوقه في انطاكية، التى كانت فيما مضى تخص ملوك القسطينطينية. بيد ان التحفظ كان غامضا: «اذا وصل الامبرطوار الى نجدتنا في الوقت المناسب».

على كل حال شرع بوهيموند، وقد نال من القادة الموافقة المطلوبة على امارة انطاكية، ينفذ فورا ما فكر فيه. ففى ليلة الثانى إلى الثالث من يونيو ١٠٩٨ قادل فصيلته عبر الابراج التى فتحها له الآمر فيروز، واقترب الفرسان النورمانيون من السلم التى كان قد سبق نقلها وتثبيتها بكل رسوخ إلى سور المدينة وصعد ٦٠ منهم عليها وتوزعوا على الابراج التى يحرسها فيروز، وفى الوقت نفسه هاجم الصليبيون المدينة من أماكن أخرى.

---

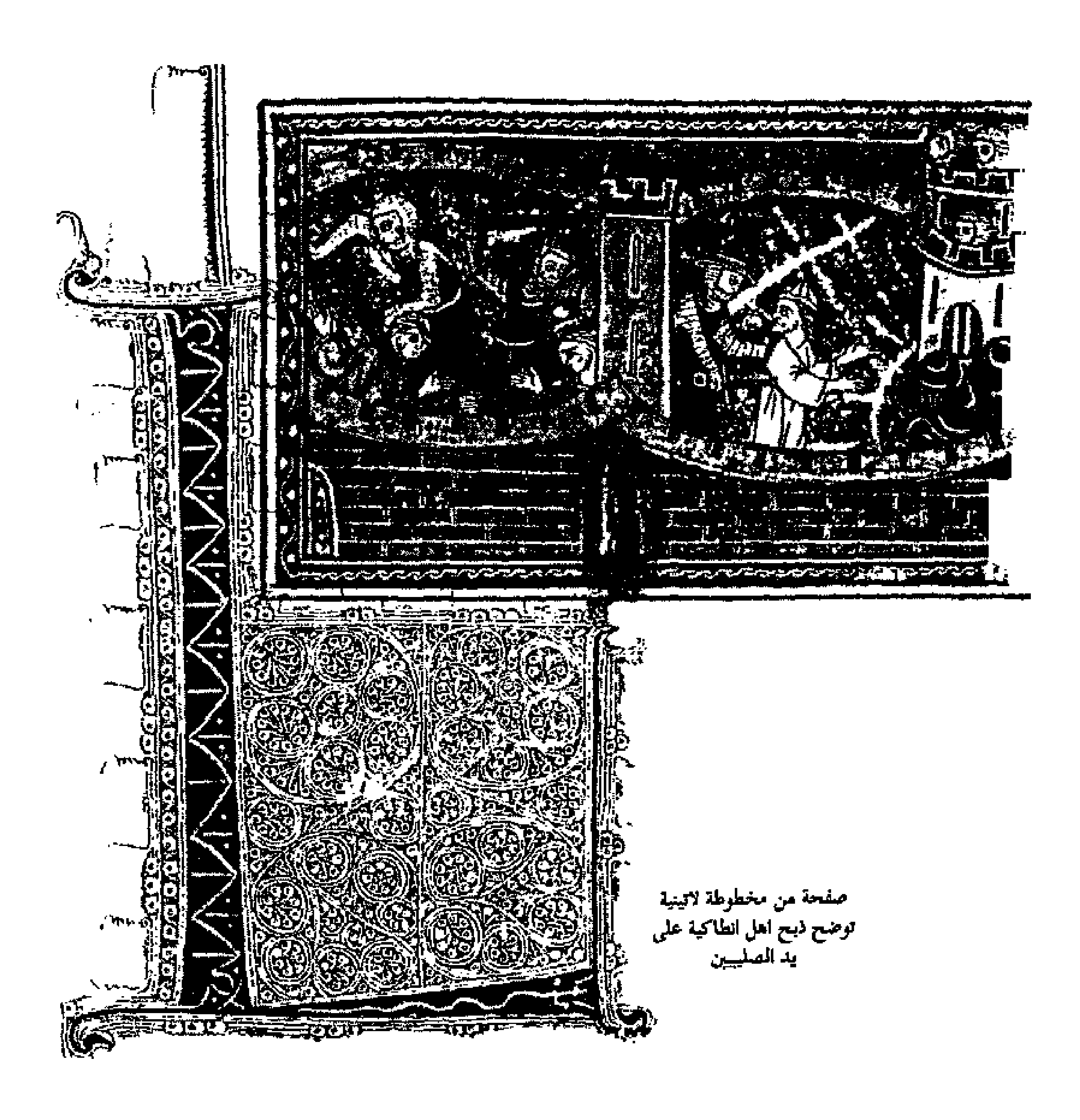
ما في شريعتنا ان نولى انسانين رتبة الكهنوت [ولا] نرجع نعزله منها حتى يموت فاذا مات ولينا غيره لان رتبة الكهنوت سماييه [سمائية] ما هى ارضيه. فضجر عليه العادل الوزير وامر باعتقاله فى سجن دار الوزاره، كان العادل يعتقل فيه من يسخط عليه من امرا دولته، فقاسا البطرك من ضيق هذا السجن ونتن رايحته شده عظيمه، واستمر اعتقاله فيه الى ان فرج الله عنه بقتل العادل.

---

أخذ السجلوقيون على حين غرة، وانتقلت المدينة النائمة إلى ايدى الصليبيين. وقد كتب المؤرخ العربى ابن القلانسى: لقد تحصنوا هناك «وسلم مَنْ كَتَبَ الله سلامته». ويقول مؤرخ عربى آخر، هو ابن الأثير ان الأمير ياغى سيان قد لقى مصرعه اثناء الاستيلاء على انطاكية. وعن هذا تفيد المراجع اللاتينية أيضا. ولكن ظروف مصرعه توصف بصور مختلفة. وحسب جميع الدلائل، حاول أن يهرب، ولكن حراسه فارقوه وقتله السكان المحليون. وفى رسالة إلى البابا اوربان الثانى، مكتوبة بعد فترة من الزمن، تباهى قادة الصليبيين بانتصارهم ونسبوا مصرع الامير ياغى سيان إلى بسالتهم بالذات.

ومهما يكن من أمر، فقد استولى الصليبيون على مدينة انطاكية. ولم يضيع بوهيموند الوقت، كما يقول مدون الأخبار: فما كاد المحاصرون يقتحمون المدينة حتى «امر» الأمير النورمانى «الفرسان بنصب رايته على المرتفع، المقابل مباشرة للقلعة»

واضعافا مضاعفة كافأ المنتصرون انفسهم على الحرمانات التى عانوها فى اشهر الحصار. فقد نهب الصليبيون المدينة كليا وتماما. ويوضح ريمون دى ساجيل خبره عن أعمال النهب التى قام بها الصليبيون بعد الاستيلاء على المدينة: «ليس بمقدورنا أن نقول كم من الغنائم أخذت اجمالا فى انطاكية؛ فإذا تصورتم باقصى ما يسمح خيالكم، فاحسبوا أكثر من ذلك». وأقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية، واكلوا جميع الاحتياطيات التى كانت لا تزال فى



صفحة من مخطوطة لاتينية
توضح ذبح اهل انطاكية على
يد الصليبين

وكذالك جرت له قضيه اخره فى ايام الصالح
ابن رزيك الوزير فى اخر ايامه، وذالك انه كان
بسمنود قوم رهبان من قلاية بشبيش[ مركز بيلا
محافظة كفر الشيخ] من دير ابو مقار ابوهم يسمى
سلمون، وان هذا البطرك اقسم على كرسى
سمنود اسقفا ذكروانه ابن اخته واسماه انبا مقاره
وهو اخوه فى الرهبنه ومعه فى القلايه التى كان
فيها، ولاجل منافسات الدنيا والمجد الفارغ يجد

---

انطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر. وقتلوا المئات من سكان المدينة. وانتشوا بسيول الدماء التى سفكوها، لم يفرقوا بين مسيحى ومسلم. وأفاد ريمون دى ساجيلك «لم يأسروا أيا ممن التقوا بهم فى الطريق». وقد امتلأت جميع الساحات، كما يشهد شاهد عيان آخر، بجثث القتلى، «بحيث أن احدا لم يكن بوسعه ان يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية؛ ولم يكن بوسع أحد أن يمر فى الشوارع إلا (بالسير) على الجثث». وينعت مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى المذابح التى اقترفها الفرسان الصليبيون فى انطاكية بالجزرة الرهيبة. ويقول ابن القلانسى ان عددا لا يحصى من سكان المدينة من رجال ونساء وأولاد قد قتلهم الصليبيون أو اعتقلوهم وساقوهم إلى الاسر.

* * *

## معجزة الحربة المقدسة

فى ٥ أو ٦ يونيو ١٠٩٨، أى بعد مرور ٣ أو ٤ أيام على احتلال الصليبيين لمدينة انطاكية، اقترب من المدينة جيش كربقا الموصلى ـ كما يقول مدون للاخبار ـ «كثرة لا نهاية لها من الاتراك السلاجقة توزعت فى الحقول». طوق الاتراك المدينة من جميع الجوانب، وإذا الصليبيون الذين كانوا امس يحاصرونها يصبحون هم أنفسهم محاصرين. وفيما بعد ابلغ

الشيطان السبيل الى هلاك النفوس بضرباته لاجل التحاسد، وان قوما سو حسنو لهذا الاسقف ان كتب للبطرك يقول له عن انبا سلمون واخوته الرهبان اولاد بشبيش انهم اضافو فى الاعتراف عند كمال القداس لفظه مستجده ابتدعوها من نفوسهم لم تقولها الاوايل وهى بلفظة القبطى ⲚⲢⲈϤⲦⲀⲚϦⲞ الذى تفسيرها المحيى، وهى لفظه مستعمله فى مواضع كثيره من القداس وجا

---

الصليبيون بابا روما ان السلجوقيين «طوقونا من كل مكان بدرجة من الاحكام بحيث ان احدا منا لم يكن بوسعه ان يخرج وان احدا لم يكن بوسعه ان يتسرب إلينا». وفى الحال شعر المحاصرون بمشقات الوضع. لم يكن ثمة مأكولات. كان الفرسان يموتون جوعا ويهلكون من شتى البلايا الأخرى. وكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة ويأكلون لحومها. هكذا ابلغ الصليبيون روما فيما بعد. وقد اجبر العوز الكثيرين على استهلاك العشب ولحاء الشجر والحبال وطقوم الخيل الجلدية، بعد غليها. بل انهم لم يأنفوا عن أكل الكلاب والقطط والفئران الميتة وشتى الجيف.

واستحوذ اليأس على المحاصرين. واخذ الفرسان البواسل يفرون من انطاكية بالعشرات والمئات، أفرادا وجماعات. وعادة كان الفارون ينزلون ليلا على الحبال المتدلية من الأسوار ويحاولون تحت ستار الليل ان يصلوا إلى السفن الراسية قرب ارصفة خليج القديس سمعان؛ ولهذانعتوهم فى صفوف العساكر بالفارين الحبليين. وكان قريب بوهيموند، غليوم دى غرانمينيل، أول الفارين من انطاكية؛ وفيما بعد انضم إلى ايتيان دى بلوا. وسار على منواله بعض المقاتلين الاقطاعيين الآخرين الذين خافوا من احتمال الوقوع فى الاسر وفقدان ما نهبوه.

حين بلغ الصليبيون المحاصرون فى المدينة حد اليأس وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو



الحربة المقدسة تلهب حماس الجند

بها كلام الامانه اخر القداس على هذه القضيه، وهو قولهم: «او من واعترف الى النفس الاخير ان هذا الجسد المحيي الذى اخذه الابن الوحيد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح من مريم العذرى وصار واحد مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا افتراق» . فلما وقف البطرك على كتاب انبا مقاره اسقف سمنود تغير على انبا سلمون واخوته واستوحش منهم وكثر الحديث في ذالك، فانفد

---

عقول الكثيرين منهم، اعتبر ريمون دى تولوز، المدعى بانطاكية، ان الفرصة قد سنحت لكى يرفع مكانته وسمعته بالذات في عيون المقاتلين الصليبين ـ على حساب منافسه بوهيموند دى تارنتو. ولهذا الغرض قرر ان يستفيد من خدمات كابيللانه ، الرجل التقى الورع، الذى يعرف كيف يسهر على مصالح سيده. ان تأجج عواطف الصليبيين الدينية قد خلق وضعا ملائما جدا لأجل تنفيذ العملية الدينية السياسية المخططة في محيط الكونت والهادفة إلى زيادة حظ ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، في الصراع ضد بوهيموند من أجل امتلاك انطاكية. لقد هبطت معنويات الصليبيين، ولذا يجب القيام بامر خارق لكى ينتعشوا ويتشجعوا، علما بان مصدر الهامهم (الرباني الاصل بالطبع) يجب أن يكون على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل، والافضل ان يقودهم إلى هذا المصدر رجل صادق يعيش بخوف الله.

حاول كابيللانه الكونت ان ينفذ بكل مهارة وحذاقة نوايا سيده، التى كان يفهم جيدا مغزاها على ما يبدو. فقد وجد في صفوف الجحفل البروفانسية فقيرا اسمه بيار بارتيليمى (Barthélemy) وإذا بهذا الرجل يعلن ذات مرة لرفاقه في السلاح انه رأى في المنام ـ وليس مرة واحدة بل خمس مرات !ـ الرسول اندراوس وان الرسول اسر إليه بما يلى: في كنيسة القديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هى الحربة التى طعن بها، كما جاء في

وجمع جماعه كثير من الاساقفه ونظرو في ذالك فوجدوه حق وليس فيه شيا يكره لانه الجسد المحيى بالحقيقه ومودى من يومن به الى الحياه الدايمه، فكتب البطرك بذالك الى ساير الاعمال، فقبلوه اهل الوجه البحرى ومصر والاسكندريه وجميع رهبان الديارات ما خلا القسآ باسكنا ابو مقار فانهم امتنعو من اضافتها واعتذرو عن ذالك بانها مضافه مستجده لم يجرى بها عادة من تقدمهم، وانها ما

---

الانجيل، المحارب الروماني فخذ يسوع المسيح المصلوب على الصليب. فإذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغمسة بدم ابن الاله، فقد خلصوا!. تلك كانت الإرادة السماوية التى نقلها إلى بيار بارتيليمي، الرسول اندرواس في حلم الليل.

وعلى الفور، حسبما روى ريمون دى اجيل، راح الرجل البروفانسى الذى استحق رسالة السماء يروى لريمون دى سانجيل، عن هذه الرسالة. وبالطبع استقبل الكونت استقبالا حارا النبأ المشجع الذى حمله له مواطنه صاحب الرؤيا والنبوءة. يقينا ان بيار بارتيليمي قروى بسيط والبسته ممزقة، ولكن هذا أفضل بكثير مما لو ظهر الرسول اندراوس للفارس. فان الصليبيين الذين يحلمون نهارا وليلا بالخلاص سيصدقون هذا الرجل البسيط بصورة اسرع!. عهد الكونت ببيار بارتيليمى إلى الكابيللان ريمون من اجيل، وامر في الحال بالتنقيب فى الكنيسة.

ارسلوا إلى الكنيسة فصيلة من ١٢ رجلا، من فرسان وكهنة، فضلا عن بيار بارتيليمى نفسه، واخرجوا جميع الناس الآخرين من الكنيسة. رفعوا بلاطه وطفقوا يحفرون الأرض تحتها. حفروا زمنا طويلا جدا، يوما كاملا (١٤ يونيو ١٠٩٨) واخيرا ـ يا للعجيبة! ـ ظهرت فى الغسق، فى قاع الحفرة، قطعة من حديد صدىء. وكما كتب ريمون من اجيل، «تعطف الرب

اضيــفت الا لمعنى اخــر منجلهـم [من أجلهـم]، فانتصب قوما منهم لمرافعت هذا الاب البطريرك والاساقفه وتحدثو فيهم باشياً كثير، واطمعو الصالح الوزير انهم يحصلو له منهم مال لعلمهم بظلمه ومحبته للمال، فانفذ احضر هذا الاب البطرك مع الرهبان الى بين يديه وعقد لهم مجلس قدامه وجرى الحديث في معنى عقيده النصارى ومقالتهم، وكان قصده ما يحصله منهم لا النظر

---

على شعبه التقي واظهر لنا الحربة. وانا الذى كتبت هذا قبلتها حين ظهر بالكاد طرف الحربة من الأرض».

وهكذا تحققت إشارة الرسول انداراوس «النبوية»، وعثر على الحربة المقدسة التى أخبر عنها في الحلم بيار بارتيليمي، ومع هتافات التهليل، وبمصاحبة إنشاد النشيد الكاثوليكي «الحمد لك، يا الله»، وضعوا الذخيرة على مذبح كنيسة القديس بطرس. وسرعان ما انتشر نبأ اللقية في معسكر الصليبيين. فارتفع في الحال مزاج الصليبيين. كتب الفارس انسلم دى ريمونته إلى الاسقف منسّى في ريمس (فرنسا): «ان لقية الحربة المقدسة قد انعشت قلوبنا من جديد». ويقول مدون اخبار فرنسي: «فرحت جميع العساكر واى فرح، وكان كل يستحث الآخر على الشجاعة، ولم يكن من الممكن ان يشبعوا من التحدث عن العون الرباني الذى جاءهم». ويردد مدون أخبار آخر: «الشعب كله، ما ان سمع بذلك، حتى حمد الرب».

ان الصليبيين الذين كانوا يتحرقون رغبة في شق الحصار، والذين احسوا بنهوض العواطف الدينية ، قد امتلأوا بالحماسة القتالية. فمن المؤكد ان الحربة العجيبة ستنشلهم من المصيبة!

وبالفعل ، بعد اسبوعين ، ــ في ٢٨ يونيو ١٠٩٨ ، ــ تحقق الفصل الثانى من المعجزة التى انبأ بها الرسول اندراس «بصورة نبوئية» في الحلم. فان الصليبيين الواثقين بان الرمح المقدس

فى الديارات، لان النصرانيه حاله معروفه ليس هى
دين جديد يحتاج الى البحث عنه واختباره، ولما
جرت المخاطبه فى المجلس قال البطرك للصالح
الوزير: موسى ايش هو عندك؟ قال: نبى. قال: فى
المسيح ما هو عندكم؟ قال: روح الله وكلمته.
قال: اتقدر ان تقول ان روح الله وكلمته نبى. قال:
لا. قال البطرك: فروح الله وكلمته اعظم واشرف
من الانبيا لانه خالق الخلايق كلها بكلمته الذى بها

---

سيؤمن لهم النصر على عدوهم كربقا، قد اندفعوا إلى القتال بالبلط والسيوف والرماح، مستعدين للاقدام على أية مجازفة وتهور لاجل قهر الوثنيين. قاتل الصليبيون بضراوة وعنف. كذلك اشترك الكابيللان ريمون دى سانجيل فى المعركة: فقد حمل فى يديه ، ساندا اثناء سيره رداءه الكهنوتى، حربة السيد المسيح، فكان لابد لمنظره ان يبعث القوى فى المهاجمين. وفى ذلك اليوم، هزم الصليبيون، وقد شجعتهم لقية الذخيرة النفسية، جيش كربقا فى معركة فاصلة.. وقد فر جيش كربقا، ومذ ذاك انتقلت انطاكية نهائيا إلى ايدى الغزاة الغربيين.

إلا أن المقاصد السياسية التى رسمها ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، والتى اخرجت من اجلها المسرحية الدينية قبل المعركة، لم يكتب لها النجاح. فان بوهيموند دى تارنتو، منافس ريمون دى سانجيل، هو الذى كان عمليا، هذه المرة أيضا، منظم النصر على كربقا، وعهد الأسياد إلى النورمانى، رغم عدم رغبتهم، بالقيادة العليا؛ وله بالذات كان الصليبيون مدينين من جديد بالنصر على السلجوقيين. وعجزت الحربة المقدسة عن توفير كسب سياسى للكونت ريمون.

أما الدور الرئيسى فى نجاحات الصليبيين، فلم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات

قال لكل الخلايق كوني فكانت كلمح البصر، فهي خالقة الخلايق والاشيآ كلها. فسكت الوزير وجرى بينه وبين الرهبان مرافعات كثير فزجرهم البطرك بالكلام واشار بعكازه الحديد الذى بيده ليضرب بعضهم فصرخو وشكو ذالك للوزير وقالو له: يحرق [يخوفنا] بنا قدامك في مجلسك فقال لهم: مدو ايضا انتم ايديكم اليه. فقالو: ما نقدر. فامر باخراج البطرك فخرج من قدامه وهو يدعى

---

التي نشبت بين الامراء السلجوقيين عشية المعركة. فقد تأزمت العلاقات بين كثيرين منهم وبين الموصل. وفارق دقاق، صاحب دمشق، كربقا، عندما ابلغوه ان الفاطميين يستعدون لمهاجمة فلسطين من الجنوب، كذلك فارقه بعض القادة العسكريين السلجوقيين الذين استاؤوا، كما يفيد المؤرخ العربي ابن الأثير، من غطرسة القائد العام الأعلى في معاملتهم. وانخفض كثيرا عدد افراد قوات المسلمين. وللمناسبة نقول ان الصليبيين لم يعرفوا شيئا عن هذه الخلافات؛ ففي ٢٧ يونيو اجروا مع كربقا مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية (وكان بطرس الناسك أحد المفوضين المرسلين إلى السلجوقيين لاجراء المفاوضات). اخفقت المفاوضات، وفي اليوم التالي قسم بوهيموند جيش الصليبيين إلى ست فصائل، وساق هذه الفصائل إلى الهجوم، وتكلل الهجوم بالنجاح فعند رؤية الصليبيين يخرجون صفوفا منتظمة من باب انطاكية، استحوذ الذعر على السلجوقيين الذين كانوا قد قل عددهم كثيرا. وسرعان ما ولوا الأدبار.

فيما بعد كتب الصليبيون إلى البابا : «ما أن أحرزنا النصر حتى طاردنا العدو طوال اليوم بكامله، وقتلنا كثيرين من مقاتلي العدو، ثم تحركنا إلى المدينة بفرح وابتهاج». وهذه المرة استولوا كذلك على قلعة المدينة، فقد حاصرتها فصيلة كونت تولوز، ولكن آمر القلعة احمد

---

عليه ويقول: كما رفعت اصاغرنا علينا الرب يرفع
اصاغر قومك عليك. فوكل به الصالح رجلين ثم
امر باعتقاله، وكتب مناشير وسيره مع المترسمين
بالاجعال الى كراسي الاساقفه بالوجه البحرى،
ونالهم صعوبه عظيمه من المترسمين ومن ولاة
الاعمال الى ان ظهر الله اعجوبه مشهوره تحدث
بها المسلمين الذين كانو معه معتقلين اكثرى مما
تحدث بها النصاره، وذالك انه كان ملازم الصوم

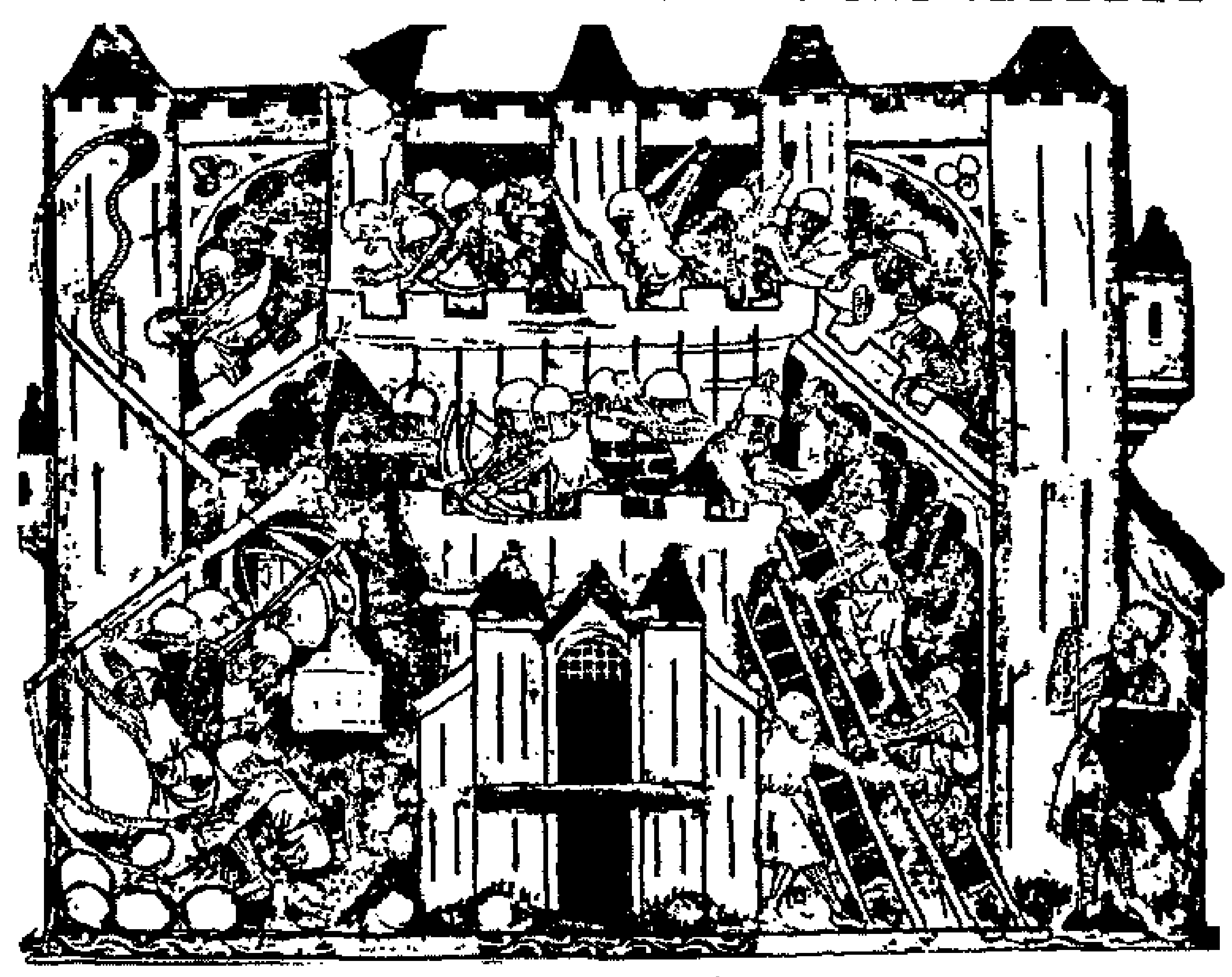
---

ابن مروان استسلم مع المحاربين الألف الموجودين في القلعة لبوهيموند عند وصوله إلى القلعة؛ أغلب الظن انه كان قد تم الاتفاق معه بشأن شروط الاستسلام.

ان واقعة العثور على الحرب المقدسة بفضل بيار بارتيليمى هى بنظر المؤرخ والفارس النورمانى راوول دى كايان مجرد خداع من اعداد ريمون دى تولوز ومقربيه. والفلاح بيار بارتيليمي الذى زعم أن الرسول اندراوس كشف له في رؤى عديدة مكان الذخيرة وتنبأ له بالنصر على الكفار في حال العثور على هذه الذخيرة المقدسة «بهذه العلامة تنتصر!» كان مجرد «مخترع داه للكذب». ولقية الحربة المقدسة فى الكنيسة هى نفسها من صنع هذا الكذاب. وقد كتب راوول من كايان بسخرية عن البحث الذى استمر يوما كاملا عن الذخيرة تحت بلاط الكنيسة والذى لم يتكلل بالنجاح فى الآونة الأولى. وغير ذلك لم يكن من الممكن توقعه، «لأن الأرض الرطبة لم يكن بوسعها أن تعيد ما لم يعهد إليها به يوما».

ويستطرد راوول دى كايان: أما إذا كانوا قد عثروا فى آخر المطاف على الحربة في كنيسة القديس بطرس، فليس ذلك إلا لأن بيار بارتيليمى قام واخفاها عنده، قصد استعماله للخداع. وكان هذا البروفانسي يحسب على الأخص استغلال قطعة الحديد هذه لأنها لم تكن تشبه من

والصلاة والطلبه الى الله كجرى عادته، وانه ليله من الليالى غفى ونام ثم قال لمن حوله من الناس: تقوو بالله وافرحو فانه بعد ايام يسيره يفرج الله عنى وعنكم. وكان لانه بعد اربعه عشر يوما من روياه وهو فى الاعتقال ركب الصالح من داره فى عزه وموكبه ومملكته الى القصر للسلام على جارى العاده، فلعبو عليه فى دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه بيد رجل من اصاغر الناس يعرف بابن



القتال حول قلعة انطاكية.

الراعي، كما دعى عليه الاب البطريرك كذالك
كان، وحمل الى داره مجروح، فمات وانفذ ابنه
مجد الاسلام اطلق البطرك وكلمن معه في
السجن، وفرج الله عنهم بصلاته وقدسه، وكذالك
الاساقفه فرج الله عنهم بعدما قاسو من الضر في
النكال وغرامه الاجعال ما اضر بهم. وصدق قول
مخلصنا في الانجيل: «اني معكم الى انقضا
العالم». فله الشكر على ذلك.

---

حيث شكل الحربة وقياسها الحربة العادية. ثم يورد المؤرخ راوول من كايّان التفسير الذى شاع، أغلب الظن، فى أوساط المرتايين والذى كان، كما ينبغي الظن، غير بعيد عن الحقيقة. «كان (بيار بارتيليمى) مسلحا بمعول؛ وقد اختار اللحظة المناسبة لأجل خداعه، وقفز إلى الحفرة ((المحفورة تحت بلاطة فى الكنيسة)) مع المعول واقترب من حافة (الهوة)، وقال «هنا يجب الحفر». وضرب بيار الأرض مرارا عديدة بالمعول وبلغ أخيرا الهدف المنشود : فإن الحربة التى دفنها بنفسه بالخداع قد ظهرت فى التربة». «العتمة تجمع الناس» . بمثل هذه التعابير يكشف راوول من كايّان سر المعجزة، مجلببا بالخزى والعار بيار بارتيليمي وكذلك ـ وهذا مهم جدا ـ الذين كانوا يقفون وراءه».

وهناك واقع آخر واسع الدلالة . ان اللوحة التى رسمها الكاثوليكى راوول من كايّان تتطابق فى الرئيسى والجوهرى مع اللوحة التى رسمها المؤرخ العربى من القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ابن الأثير، الرجل من عالم مغاير تماما، عالم الشرق وعالم الإسلام، ففى معرض الحديث فى مؤلفه «الكامل فى التاريخ» عن المصائب التى عاناها الفرنجة فى انطاكية التى احتلوها، كتب يقول: «وكان معهم راهب مطاع فيهم.. قال : ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى بانطاكية... فان وجدتموها فإنكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه وعفا أثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم

وفى ايام شاور الوزير تنيح البطرك انبا يوانس فى
اليوم الرابع من بشنس سنة ثلث وثمانين وثمان
مايه للشهدا [١١٦٧م] فى كنيسة القديس ابو
مرقوره وكان له مناحه عظيمه وليله حسنه
بالصلوات والقراه، وفى صبيحة تلك الليلة دفنو
جسده فى الكنيسه المذكوره مع جسد الاب انبا
غبريال البطرك الذى كان قبله، وقيل عنه ان قوم
تحدثو معه فى نقل جسد انبا غبريال البطرك الى

---

والصناع منهم وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر». ثم يتحدث المؤلف عن هزيمة السلجوقيين فى جوار انطاكية ويفسرها بالخلافات بين الأمراء وكربقا.

أما أن قصة لقية الحربة المقدسة كانت حيلة بدائية بنظر المؤرخ المسلم، والمشترك فى حروب السلطان المصرى صلاح الدين الأيوبى ضد مملكة القدس، فلا داعى إلى استغراب ذلك. ولكن من اين تنبع هذه النظرة السليمة الصائبة عند راوول دى كايّان، الرجل الذين يقف عموما فى تربة العقيدة المسيحية القائلة بالعناية الإلهية؟ ان موقفه العقلانى إلى هذا الحد من المعجزة ينبع بقدر كبير من عامل سياسى بحت. فان راوول دى كايّان قد أعرب قبل كل شىء وبصورة رئيسية عن نظرات القادة النورمانيين فى الحملة، بوهيموند دى تارنتو واتباعه وحلفائه. فان أمير الايطاليين ـ النورمانيين بوهيموند، الطامع بمدينة انطاكية ، قد استقبل، طبعا ، بعدم الثقة وحتى بالعداء قصة الوحي الرباني بلقية الحربة المقدسة، إذ أنها صدرت من بيئة الصليبين البروفانسيين، من وسط أفراد قريبين من منافسه فى الإدعاءات بمدينة انطاكية ريمون دى سانجيل. وكان هذا كافيا لكى ينظر النورمانيون بحذر واحتراس إلى قصة الحربة المقدسة.

دير ابو مقار فقال لهم: سيجي من ينقل جسدى
وجسده جميعا. فكان كما قال لانهما نقلا الى دير
ابو مقار في ايام الاب الجليل انبا مرقس ابن زرعه
البطرك بعده في الصوم المقدس سنة سته وثمانين
وثمان مايه للشهدا [٨٨٦ ش = ١١٧٠م] الابرار،
وكان لاخراجهما ليله مشهوره من كثرت الجمع
والناس الحاضرين لذالك ومداومة القراه
والصلوات من اول الليل الى اخره، وحملو

---

في تلك الأزمنة التي تتحدث عنها، كان المبدآن العقلي والاسطوري يتعايشان في إطار عقيدة دينية مشتركة تسود على العقل والمشاعر. ولكن لا المتعصبون الدينيون، ولا العقلانيون الذين حملوا إلى إيمانهم هذه القيود أو تلك، التي يمليها العقل، كانوا يملكون على الصعيد الاخلاقي والمعنوى أية من مزايا يتفوقون بها بعضهم على بعض؛ فان الناس الاتقياء بغيرة وحماسة من طراز ريمون دى سانجيل، والفرسان الميالين إلى القتال وذوى التفكير المعيشي الأرضي من طراز تنكريد، كانوا في آخر التحليل يعتنقون ايمانا واحدا، ودينا واحدا، ونظرات واحدة وكانوا يتمسكون باخلاق واحدة، في ذلك الزمن كان فجر العقل لا يزال في مطلعه(*).

### إمارة انطاكية. مواصلة الحملة

بقي الصليبيون في منطقة انطاكية نصف سنة. وأسباب ذلك مختلفة: التعب العام، والرغبة في تجنب قيظ الصيف المضنى الذى لا يطاق، ونقص المأكولات، والسعي إلى الخروج من المدينة، وان مؤقتا، نظرا للوباء الذى نشب هناك (أغلب الظن ، وباء التيفوس؛ وفي أول

(*) تجدر الاشارة الى ان الكردينال بروسبيرو لامبرتيني، الذى صار فيما بعد البابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨) قد انكر رسميا في القرن الثامن عشر صحة قصة الحربة المقدسة الانطاكية.

اجـــسادهم من طريق دير نهـيـا ودفنا في تربة البطاركه مع ابايهما بسلام من الله نيح نفوسهم اجمعين، رزقنا الله بركة صلواتهم المقدسه امين.

اذكر يارب عبدك الحقير الذليل المسكين شنوده بالاسم قـمص(*) خادم دير القديس العظيم البار انبا بولا الكبير اول السواح الذى رم هذه السير يرجو بذالك العفو والمسامحه بغفران خطاياه بشفاعه من ذكر اسمايهم فيها، وكان ترميم ذالك

(*) اسم مُرمّم هذه السيرة شنوده، وكان ذلك في ايام البطرك ١٠٩ بطرس السابع ١٨٠٩ / ١٨٥٢م، في عهد محمد على باشا.

---

اغسطس ، كما سبق ان قلنا، توفى الاسقف اديمار دى بوى. ولذا صارت الإقامة في انطاكية محفوفة بالمخاطر. أما السبب الرئيسى، فقد تلخص في تحرق الدوقات والفيكونتات إلى تثبيت الأراضى المجاورة للمدينة لأنفسهم. وإلى هذه الأراضى راحوا مع فرسانهم وحملة سلاحهم. اتجه بوهيموند إلى قيليقيا ـ لأجل تعزيز الحاميات المتروكة هناك ـ وغودفروا دى بويّون إلى تل بشر ورافندان، وروبرت النورمندى إلى اللاذقية، من حيث سرعان ما طرده السكان المحليون مفضلين على فرسان الدوق الحامية البيزنطية التى قدمت من قبرص.

ولم يرجع رؤساء المقاتلين الصليبيين مع فصائلهم إلى انطاكية إلا في سبتمبر ، ولكن الوقفة في الحملة استمرت بعد ذلك. وتورط الصليبيون هنا بضعة أشهر أخرى. وفي ١١ سبتمبر ١٠٩٨ وضع القادة، تبريرا لموقفهم، رسالة طويلة إلى البابا اوربان الثاني، فتحدثوا بالتفصيل عن حصار انطاكية وفتحها وعن قصة الحربة المقدسة وظروف هزيمة كربقا. وختاما ، خاطب «قديسو يسوع المسيح»، كما سمى أصحاب الرسالة أنفسهم، البابا داعينه إلى أن ينجز بشخصه بالذات المشروع الذى قاموا به استجابة لندائه «تعال إلينا، واقنع جميع من تستطيع اقناعهم بالمجيىء معك». وآنذاك ، كما وعد الصليبيون البابا، «سيخضع العالم كله لك. وبانتظار الجواب، ولم يستعجل الأمراء التحرك من مكانهم. ولكن هذا أيضا لم يكن سوى ذريعة لأجل التأخر. من ذا الذى سيملك انطاكية؟ ذلك هو السؤال الذى واجه الزعماء على

يوميـذ بالقـلايه العـامـره بالمحـروسـه في ايام رياسـة
السيد الاب الجليل المغبوط الطوباني ريس الرووسا
وسـيـد السـادات الاب المكرم بكل نوع انبا بطرس
البطريرك التـاسع والمايه من عـدد الابا البطاركـه،
ادام الله تعـالى علينا رياسـتـه سنينا عـديده وازمنه
متصله سـالمه هاديه مديده بالعمر الطويل والحيـاة
السعيدة امين.

---

المكشوف وأثار خلافات عميقة بينهم. وهذا بالذات هو ما حال دون الصليبيين ومواصلة الزحف.

كان بوهيموند دى تارنتو وريمون دى تولوز المدعين الرئيسيين بانطاكية. وكان فرسان الأول يشغلون قلعة المدينة وقسما كبيرا من المدينة؛ وكان فرسان الثانى يشغلون قصر ياغى سيّان والبرج قرب الباب، وقرب جسر نهر العاصى. وفى كنيسة القديس بطرس بانطاكية كانت تجرى مداولات لا نهاية لها لرؤساء الصليبيين؛ كانوا يتناقشون حتى البحاح فى الحل العادل لأهم قضية بالنسبة لهم فى اللحظة المعنية، قضية تسليم السلطة فى انطاكية. وكان كل من المتنافسين يحاول أن يثبت، والزبد على شفتيه ، مقدار أهمية القسط الذى اسهم به فى فتح المدينة، وبالتالى حقوقه المفضلة بالذات فى امتلاك المدينة. حظى بوهيموند بدعم الفرسان النورمانيين والفرسان الفرنسيين الشماليين، والكونت ريمون دى سانجيل بدعم الفرسان البروفانسيين. كتب راوول دى كايّان: «الناربونيون، والافرنيون والجاسكونيون ـ جميع هذه القبائل التحقت بالبروفانسيين؛ أما إلى الابوليين (اى النورمانيين)، فقد مالت كل بقية بلاد الغال فى المؤامرات».

لم تكن أغلبية الاسياد ترغب فى مشاطرة وجهة نظر ريمون دى تولوز، الذى كان يؤكد بعناد غير مفهوم انه يجب تسليم انطاكية ـ بموجب التزامات التبعية ـ الى الامبراطور

## بسم الاب والابن والروح القدس اله واحد امين

## أنبا مرقس ابن زرعه

## وهو من العدد الثالث والسبعون

## [١١٦٦ / ١١٨٩ م]

نبتدى بتاييد القدرة العالية بنسخ السيرة الاوله من سير الابا البطاركة الارتدكسيين من الدور التانى، وهى سيرة الاب الجليل الفايز بنعمة الروح

---

البيزنطى. ذلك انه هو بالذات، الكونت ريمون دى سانجيل، رفض قطعا منذ وقت قريب حلف يمين التبعية للامبراطور الكسيوس الأول! وها هو الآن يفضل بكل وضوح زعامة بيزنطية الاسمية على انتقال السلطة فعلا إلى بوهيموند من تارنتو.

ان موقف كونت تولوز بدا لجودفروا دى بويّون، وروبرت من الفلاندر، وروبرت من نورمنديا وغيرهم من الأسياد والاساقفة البارزين غير مقبول خصوصا وانه أصبح من الجلى فى ذلك الوقت انه لا يمكن توقع أية مساعدة فعالة نوعا ما من بيزنطة. وبالفعل، عندما ارسلوا هوغ فرمندوا (وكان يرغب فى العودة نهائيا إلى فرنسا) ـ إلى الامبراطور الكسيوس كومنينوس لاستيضاح نواياه (وكان ذلك فى يوليو ١٠٩٨) تبين ان الامبراطور لا يفكر البتة فى مساعدة الصليبيين. وبينما كان الصليبيون يقاتلون فى سوريا، استغل الامبراطور الداهية وضع السلجوقيين الصعب، وانتزع منهم ازمير وافسس وبعض المدن والمناطق الأخرى سواء فى الغرب أم فى المقاطعات الداخلية من آسيا الصغرى. واخذ يعتبر الآن انه لا أمل فى احتمالات نجاح الحملة الصليبية؛ فان الفارين الذين غادروا انطاكية أثناء حصارها من قبل كربقا وفى المقام الأول الكونت ايتيان دى بلوا، كانوا ينقلون الواحد تلو الآخر إلى الكسيوس الأول اخبارا سيئة عندما كان مع قواته فى اعماق آسيا الصغرى، قرب فيليوميل. لم يبق من الممكن انقاذ

القدس انبا مرقس ابن زرعه، وهو من العدد الثالث والسبعون صلواته تحفظنا امين.

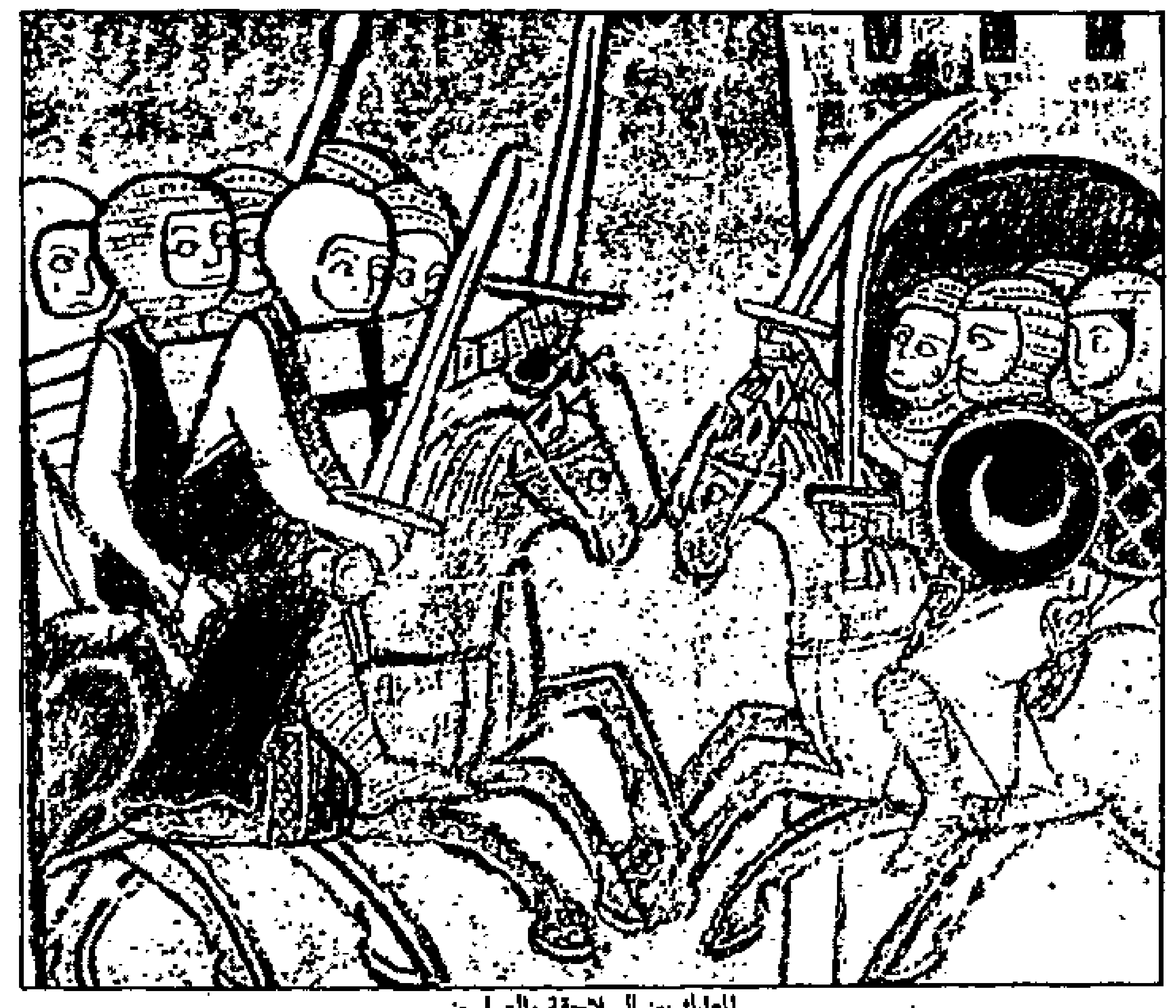
لما اكملنا بمعونة الله لنا ما نقلناه عن اسلافنا واباونا الاولون خلف بعد سلف من السادة الصالحين والاوليا المخلصين والصفوة المحقين كما قال في المزمور [٤٣] اللهم اننا قد سمعنا باذاننا حين اباونا اخبرونا بالاعمال التى عملت فى ايامهم الاولى. عدنا بالبحث عن سيرة النجبآ المختارين

---

الصليبيين! وان يار من اولن ذلك الفارس الذى سعى إلى الحصول على كومانا ونالها قد ابلغ الامبراطور ان الروم، إذا ما مضوا إلى انطاكية، قد يتعرضون قبل الوصول إليها لهجوم جيش سلجوقي آخر يتجه إلي إبادة الصليبين. كذلك اوصى مستشارو الامبراطور بالاجماع أن يتخلى عن الصليبيين.

فى هذه الحالة اقترف الامبرطور البيزنطى خطأ سياسيا؛ فقد ترك الصليبيين وشأنهم، لحكم القدر، وبذلك قوض الثقة فيه، فوق ما هى من ضعف وتقلقل. ثم ان رفض الامبراطور مساعدة الصليبيين زاد من حظ بوهيموند في خلافه مع ريمون دى سانجيل؛ فان قادة الصليبيين وقفوا بمعظمهم إلى جانب امير تارنتو. وبعد مهاترات طويلة فى المجلس فى ٥ نوفمبر ١٠٩٨ تقرر تسليم بوهيموند انطاكية. إلا أن ريمون دى سانجيل، ظل حتى رغم مرضه الشديد الوطأة، يحتفظ بعناد فى المدينة بالمواقع التى يشغلها. وكان الجميع يكرهون الكونت ريمون دى سانجيل،بسبب جشعه الذى لا حد له! ومهما يكن من امر، كانت ثلاثة أرباع انطاكية تقع فعلا تحت رقابة الخصم النورمانى. صحيح ان بوهيموند اقسم اليمين أمام الملأ - كما طالب

للرياسة المسيحية والديانة الالهية والرعاية الفاضلة والامور الكاملة فابتدانا بما شاهدنا في عصرنا ورااينا في زماننا وهو ما نخبركم به في هذه السيرة، وما حدث في ايام هذا الاب الجليل من الامور الصعبة والشدايد المرهقة والدما المهرقة وزوال الدولة الاوله الثابت اصلنا بها، لكثير عساكرها واصحابها المعتصمة، بل المنيعة بكثرة اموالها واسبابها المحتجبة عن العيون في قصورها بكثرة



المعارك بين السلاجقة والصليبيين

اجنادها وحجابها التى تنبا عليها دانيال السعيد وقال: يملك من بنى اسماعيل تسعة عشر ملكا على ارض مصر. ولما كمل من البيت العلوى الفاطمى اربعة عشر خليفة منهم ثلثة ملكوا بسجلماسه(*) والمهديه وافريقيه وغيرهم من بلاد الغرب [المغرب]، وهذا اسماوهم: المهدى، القايم، المنصور. وملك منهم على مصر الى اخر انقضا دولتهم، وملك دولة الفرس الذى هم الغز احدى

(*) سجلماسه تقع جنوب المغرب على طريق قوافل السودان الغربى. والمهدية على بعد ٢٢ كيلو متر جنوب شرق القيروان بتونس.

---

ريمون دى تولوز ـ بان يشترك فى الحملة حتى القدس بالذات، ولكن كان من الواضح للكثيرين انه قد بلغ هدفه فى سوريا.

وهكذا، فى أواخر سنة ١٠٩٨، تأسس كيان كبير ثان للصليبيين فى الشرق، عنينا به إمارة انطاكية.

إلا أن سائر زعماء الصليبيين لم يستعجلوا هم أيضا فى مواصلة الزحف؛ فقد انصرفوا كليا إلى عمليات الاغتصاب والنهب والسلب فى المناطق المجاورة لانطاكية، فان سلوك بودوان من الرها وبوهيموند من انطاكية كان معديا. وقد خيل ان الفرسان نسوا تمام الأرض المقدسة، وبقدر ما كان يمر الزمن، بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدوانى الاغتصابى. واكثر فاكثر كانت تنشب الخلافات والخصومات بين الغزاة. كتب أحد مدونى الأخبار: «كل مكان اعطانا ايه الرب كان يثير الجدال».

وقد شق نزاع حاد صفوف قوات الصليبيين فى قلعة معرة النعمان السورية (جنوب شرقى انطاكية) إلى حيث راحت فى أواخر نوفمبر فصائل البروفانسيين التابعة لكونت تولوز. فان بوهيموند لم يشأ أن يتنازل لخصمه عن هذه القلعة المهمة وأسرع فى اثره. استمر حصار القلعة اسبوعين. وتم فتح المدينة فى وقت واحد تقريبا ـ من جوانب مختلفة ـ من قبل

عشر خليفة وهم: المعز الذى بنا القاهرة، العزيز ولده، الحاكم ولد العزيز، الظاهر ولد الحاكم، المستنصر ولد الظاهر، المستعلى ولد المستنصر، الامر ولد المستعلى. ثم بعد ذالك من بنوا العم والقرابا: الحافظ، الظافر، ولده الفايز ولد الظافر، ثم قتل الظافر بيد نصر ابن عباس وقد قدمنا شرح قصته، ثم ملك بعده العاضد وهو اخر من ملك منهم. وكانة [كانت] مدة ملكهم بالغرب وبارض

---

النورمانيين والبروفانسيين (١١ ديسمبر ١٠٩٨). نهبوا المدينة بلا رحمة وابادوا السكان بلا شفقة. قال فارس من حاشية بوهيموند: «كان الافرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلا أم امرأة، حيثما يجدونه». وقد تميز بوهيموند فى معرة النعمان ببالغ القساوة والجشع والغدر. فعند احتلال المدينة، امر بواسطة المترجمين بان «يجتمع» سكان المدينة «مع نسائهم وأولادهم وأموالهم فى القصر القائم أعلى من البوابة واعدا شخصيا بانقاذهم من الموت». وعندما اجتمع السكان هناك، «قبض عليهم الأمير وانتزع منهم كل ما معهم أى الذهب والفضة ومختلف الجوهرات.. أمر بقتل بعضهم، وبسوق البعض الآخر إلى انطاكية لأجل البيع». كذلك برهن خصمه ريمون دى سانجيل عن القساوة ذاتها. بل أن البروفانسيين تفوقا على النورمانيين فى نهب المدينة؛ فقد قرروا اجبار السكان الذين اختبأوا فى الاقبية على الخروج منها بفعل النار والدخان. ويعرب مدون اخبار ريمون سانجيل عن الاسف لكونهم «وجدوا القليل من الغنائم» هناك.

بعد مرور فترة وجيزة على فتح معرة النعمان التى بقى فيها الغزاة اكثر من شهر، نشبت الخلافات من جديد بين النورمانيين وبين الفرسان من بروفانس. وقد بدأت هذه الخلافات، كما يروى مدون أخبار بروفانسى، لان فرسان بوهيموند استولوا على معظم الابراج والبيوت والاسرى مع انهم لم يقاتلوا بما يكفى من الضراوة فى المعركة.

مصر الى يوم زوال الملك من يد العاضد فى اخر المحرم سنة سبعة وستين وخمسماية [آخر محرم ٥٦٧هـ ١١٧١م] [الهلالية]. وذالك ان المهدى ابو محمد عبدالله ظهر بسلجانه [سجلماسه] وملكها يوم الاحد السابع من ذى الحجة سنة تسعين ومايتى للهجرة [٢٩٠هـ = ٢-٩/٣/٩٠٣م] والى حين انقضايها على ايام دولة العاضد ابو محمد عبدالله وهو الرابع عشر منهم مايتى

---

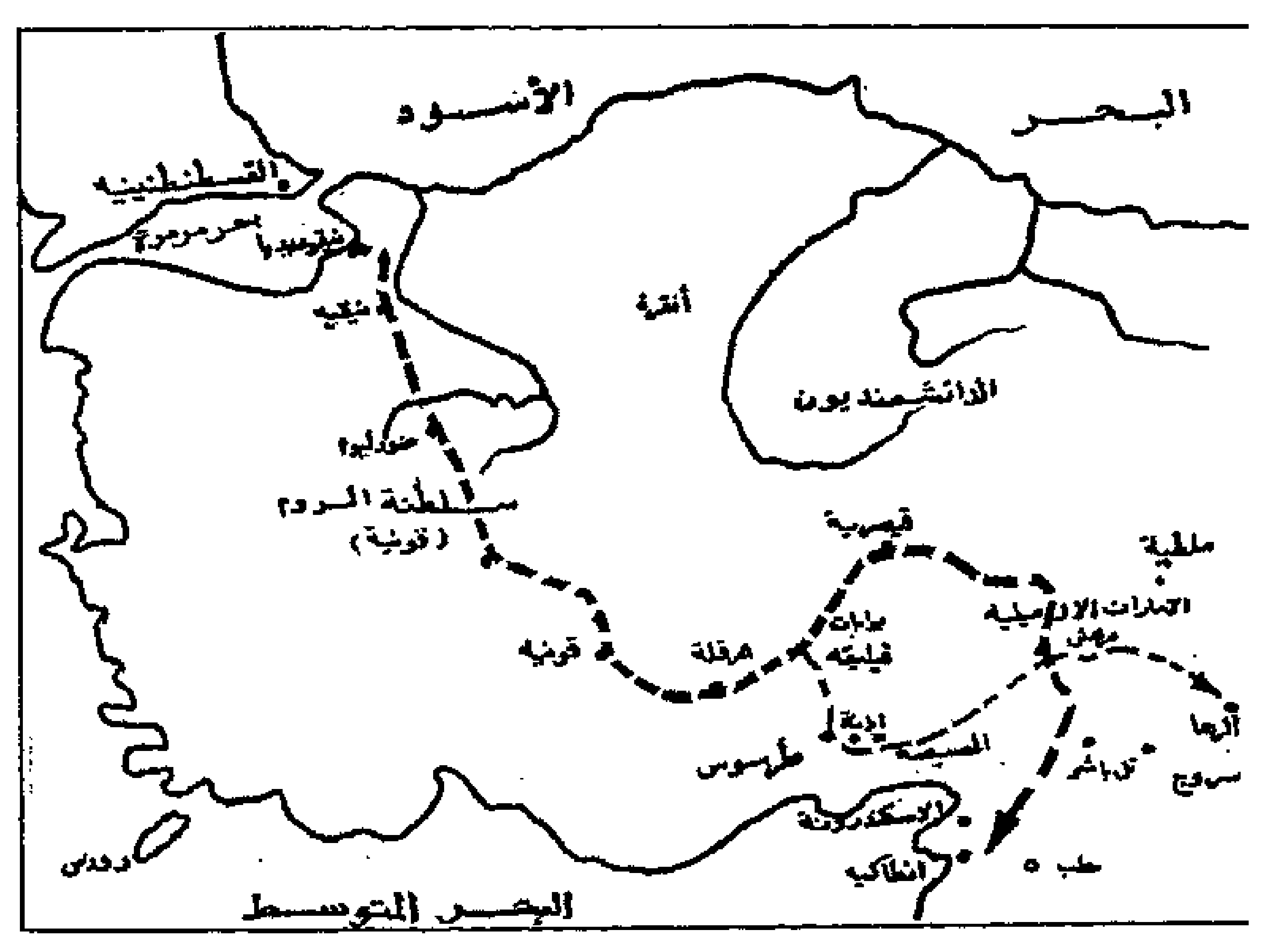
## احتلال القدس

اسرع الصليبيون جموعا الى الهدف محاولين ان يسبقوا بعضهم بعضا، وكانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السلجوقيين، كما كان من قبل، وكان الامراء السلجوقيون فى خلافات دائمة . ثم ان هزيمة كربقا فى انطاكية قوضت تنظيم قوات السلجوقيين، ناهيك بان الحروب بين الاقطاعيين السلجوقيين لم تهدأ نيرانها امام العدو المهاجم من الشمال. وكان الخصام بالغ الحدة بين رضوان ابن تتش صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق.

كان الامراء العرب فى المدن الساحلية يتخوفون من السلجوقيين؛ وكانوا لا يرون فى الصليبيين اعداء بقدر ما كانوا يرون فيهم حلفاء فى الصراع ضد الاعداء من ذوى الدين نفسه. ومع ان الفاطميين لم تكن تنوى البتة تسليم فلسطين للصليبيين، الا ان الفشل الذى منى به السلجوقيون فى انطاكية كان يناسبها تماما. واستغل الفاطميون هزيمة كربقا، فارسلوا قواتها الى فلسطين وسوريا؛ وفى ١٠٩٨ استولى الفاطميون على القدس، ووصلت قواتهم المسلحة الى بيروت. وادرك الوزير الافضل حتمية الصدام مع الصليبيين ولكنه بذل جهده لتجنبه؛ فاثناء المفاوضات مع زعمائهم حاول ان يعرض عليهم شرطا مناسبا تماما من وجهة نظره، وهو حرية الدخول الى القدس. ولكن هذا العرض قوبل بالرفض؛ اذ ان القادة الافرنج

وخمسة وسبعون سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يوما. من ذالك ملكو بالمغرب اربعة وسبعون سنة، وملكو بمصر مايتي سنة وسنة واحدة. فأما وزراهم فلم ندرك الا عصر بعضهم ولا ظفرنا لهم بسير ولا شي يدلنا على مــدت ولاية كل منهم الوزارة ولا كم عـدتهم، وانما اخـبـرنا القـريب من اسـلافنا باسـماء بعـضـهم ممن شـاهدوه وينعتونهم على ما رتبـوه فـيـما بينهم مما زعـمـو انه تفـخـيم لامـرهم

---




تقدم الحملة الصليبية الاولى فى آسيا الصغرى

وتعظيم لقدرهم، فقالو انه وزر للمستنصر رجل
نعته امير الجيوش واسمه بدر الجمالى، للمستعلى
سيف الاسلام يانس، والامر والحافظ المامون ويانس
وتاج الدولة بهرام ورضوان ابن الوخشى، وللظافر
نجم الدين ابن مضال والعادل ابن السلار، والعباس
والفايز والعاضد والصالح طلايع ابن رزيك ومجد
الاسلام ولده، وامير الجيوش شاور السعدى،
والمنصور ضرغام. والملك الناصر صلاح الدين

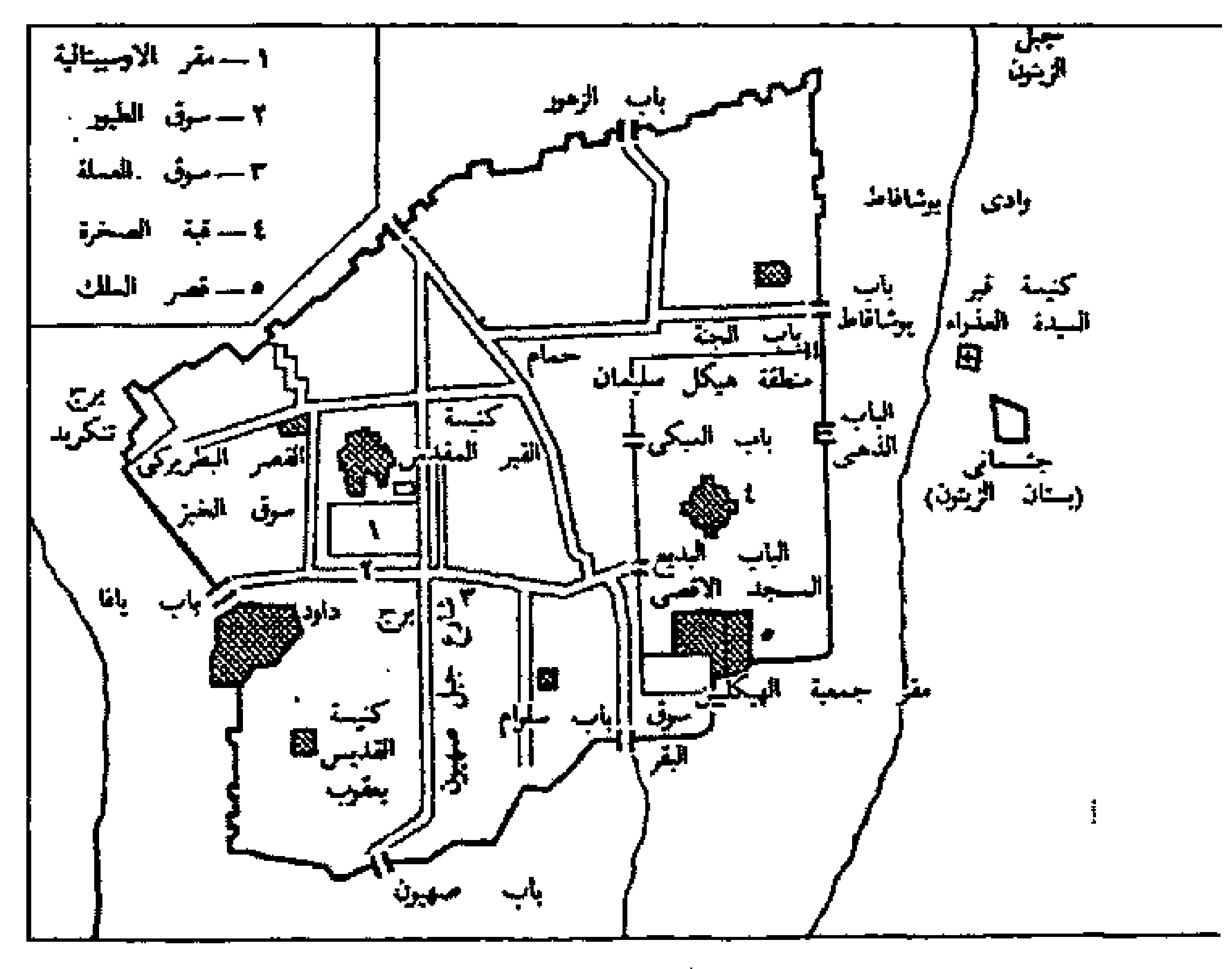
---

كانوا لا يعتزمون البتة الاكتفاء بمدينة الرها ومدينة انطاكية ؛ اذ ان هدفهم كان امتلاك فلسطين ومنها القدس فى المقام الاول.

كان الصليبيون يتقدمون باتجاه الجنوب فى طابورين كبيرين. كانت الجموع السائرة بقيادة ريمون، كونت تولوز تسير شرقى جبال النصيرة، والجحافل السائرة بقيادة غودفروا دى بويون وروبر الفلمنكى بمحاذاة الساحل . ولصرف هذه الفصائل عن القيام بعمليات عدائية، ارسل حكام طرابلس وبيروت وصيدا وصور العرب اليها شتى الهدايا ــ النقود، والمنتوجات الغذائى، وبراميل ماء الشرب ــ وبعثوا الرسل؛ وعرض هؤلاء على الصليبيين حرية العبور بلا عائق فى ممتلكات امرائهم الراغبين فى وقاية مدنهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضراوات والفواكه من ضراوة القطعان الافرنجية وجشعها. وهكذا لم يلق الصليبيون اية مقاومة تقريبا. ولم تحدث اشتباكات كبيرة مع السلجوقيين الا من اجل طرطوس وجبلة وعكا؛ وعبثا حاول كونت تولوز امتلاك هذه القلعة الاخيرة، الا ان الزعماء الآخرين لم يدعموا مقصده.

فى أواخر مايو، ١٠٩٩ ، دخلت جحافل الفرسان الارض اللبنانية ثم الارض الفلسطينية. من الجلى ان النجاحات اضاعت صواب بعض القادة؛ فبعد فتح الرملة التى صارت اسقفية، أخذت ترتفع بينهم اصوات تطالب بالتوجه الى مصر بابليون (القاهرة). «اذا تغلبنا برحمة الله على ملك مصر، فاننا لن نتمكن من فتح القدس وحسب، بل ايضا الاسكندرية وبابليون وكثير من الممالك».

يوسف ابن نجم الدين ايوب وهو ثاني ملوك الترك بارض مصر واخر وزرآ دولت المصريين، لان اسد الدين شيركوه كان قد وزر [ه] العاضد من قبله وملك ستين يوما معدودة لم تزيد ساعة ولا نقصت ساعة ومات، وملك هذا صلاح الدين بعد [بعده]، وسنذكر ونشرح اخبار المملكة [الأيوبية] وكيف كان زوال الدولة الاوله [الفاطمية]، وفتوح البيت المقدس ومدن الساحل، وما فعله الله له وما




القدس تحت حكم الصليبيين

ملكه الله اياه. ونصف طيب ايام مملكتـه وعـدله ورخص الاسعار بجميل نيته وعدله في رعيته، وما سامح به من المكوس وازالة المظالم مبينا مشروحا انشا الله.

كان هذا البطرك الجليل الفاضل الطاهر النبيل من نسل شريف يسمى قبل بطركيته ابو الفرج ابن ابو اسعد يعرف بابن زرعه ينسب بهذا الاسم الى جده ابو ابو جده، وقد وجدنا فيما تقدم من الابا

---

تحاشي الصليبيون المدن الساحلية الكبيرة (طرابلس، بيروت، صيدا، صور، عكا، حيفا، قيسارية)، واتجهوا من ارسوف الى القدس. وفي الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان دى بورج على بلدة بيت لحم حيث ولد يسوع المسيح كما جاء في الانجيل. وسرعان ما اعلن تنكريد ادعاءاته بالبلدة واثبت رايته على مسلة كنيسة أم الاله في البلدة، ولكن نشب نزاع بينه وبين بودوان دى بورج في الحال من جراء ذلك . الا ان الظروف لم تسمح للنزاع بالتفاقم، اذ كان ينبغي الاسراع الى ابعد.

في فجر ٧ يونيو ١٠٩٩، اقترب الصليبيون من القدس. تكشف منظر المدينة المقدسة امامهم من الجبل العالي الذى سموه مذ ذاك مونجوا «جبل الفرح». حاصر الصليبيون المدينة التي كانت تعتبر مقدسة بنظر الشعوب التي تعتنق المسيحية والاسلام واليهودية. وقد جعل الموقع الجغرافي من القدس عسيرة المنال على العدو. كانت تقع على سهل مرتفع عال ولم تكن مفتوحة إلا من الجهة الشمالية، وكانت تحميها من الجهات الاخرى جبال ناهيك بان حاكم القدس الفاطمي افتخار الدولة كان قد اتخذ التدابير الضرورية لحماية المدينة بوثوق، نظرا لاقتراب الافرنج. فقد طرد من المدينة جميع السكان المسيحيين وسيج مزاغل الابراج بحزم من القطن والتبن، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية من المياه، وامر، على العكس، بتخريب جميع الآبار حول المدينة. وسيقت قطعان المواشي بعيدا في الجبال. بل ان افتخار

البطاركة بطركا يسمى بابن زرعه(*)، وكان الاب ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونين كاتبه، فان يكون من نسله فالله اعلم. وقد كنت انا المسكين ناظم هذه السيرة تحدثت مع ابن عم هذا البطرك وقلت له: اين مرباكم واصولكم؟ فقال: من اهل الشام. فتحققت انه من نسل ذلك البطرك لانه كان سريانيا من اهل الشام. وانا المسكين ناظم هذه السيرة رايت هذا الاب قبل تقدمته، وكنت ساكنا

(*) هو الانبا أفرهام السرياني البطرك رقم ٦٢ وكان ساويرس ابن المقفع كاتبه.

---

الدولة رغم الاستحكامات الدفاعية الرومانية القديمة. صحيح ان حامية القدس لم تكن كبيرة؛ فلم تكن تضم اكثر من الف مقاتل ، ولكن جيشا كبيرا هب من مصر الى مساعدتهم بقيادة الوزير الافضل .

كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الدينى يأملون سرا فى ان تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما ان يقتربوا منها. وبدءا من ١٢ يونيو حاول الفرسان مرارا ان يستولوا على المدينة انقضاضا، ولكن عبثا. فكان لابد من الشروع فى الحصار. وقد امتد الحصار خمسة اسابيع. ولم يكن الصليبيون يملكون ما يكفى من القوى لاجل الاستيلاء على القدس المحصنة عنوة؛ فلم يكن عندهم من الرجال الصالحين للقتال ، كما حسبوا انفسهم، اكثر من ١٢ الفا، «ناهيك بانه كان عندنا ـ كما كتب ريمون سانجيل ـ جمهور ضخم من المقعدين والفقراء. اما الفرسان فى صفوف قواتنا، فكان عددهم ١٢٠٠ او ١٣٠٠، لا اكثر كما اعتقد» . وفى الآونة الاولى تبدى كذلك بصورة ملحوظة النقص الى السلالم وسائر معدات الحصار، ولا سيما منها ادوات الرماية.

والى نجدة الفرسان جاء الجنويون والانجليز؛ فقد رست بضع سفن فى يافا، فغادرها المصريون على الفور تجنبا للقتال. وقد حمل التجار على السفن الى الصليبيين الحبوب والخمور وكذلك الحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الادوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع

بجـواره بمدينة مـصـر، وكـان كـثـيـر من الناس المسلمين والنصـاره بمصـر يشـهـدون له بالعـفـة والديانة والصوم والصلاة والصدقة وفعل الخير مع كل الناس، وانه بتـولا لم يتـزوج قط ولا شـهـد له صـبـوة ولا زلة. وكـان عـالما فى دينه خـبـيـرا بامـور الكهنوت عانى بنفسه من صباه. وقد كان بلغنى ان ابونا الطاهر يوحنا البطرك من قـبله نيح الله نفسه اخبر عنه بالغيب انه البطرك بعده، وذالك ان

---

ابراج حـصـارية، وادوات لهـدم الاسـوار ـ اى الكبـوش والسـلالم ـ ولكن سـرعـان مـا حـاصـر الاسطول الفاطمى ميناء يافا. وبما ان القوات البحرية المصرية كانت متفرقة بكل جلاء، فقد كان من الميؤوس فيه خوض القتال ضدها. وفك الصليبيون سفن جنوه والسفن الانجليزية واستعملوا اقسامها لاجل المنشآت الحصارية.

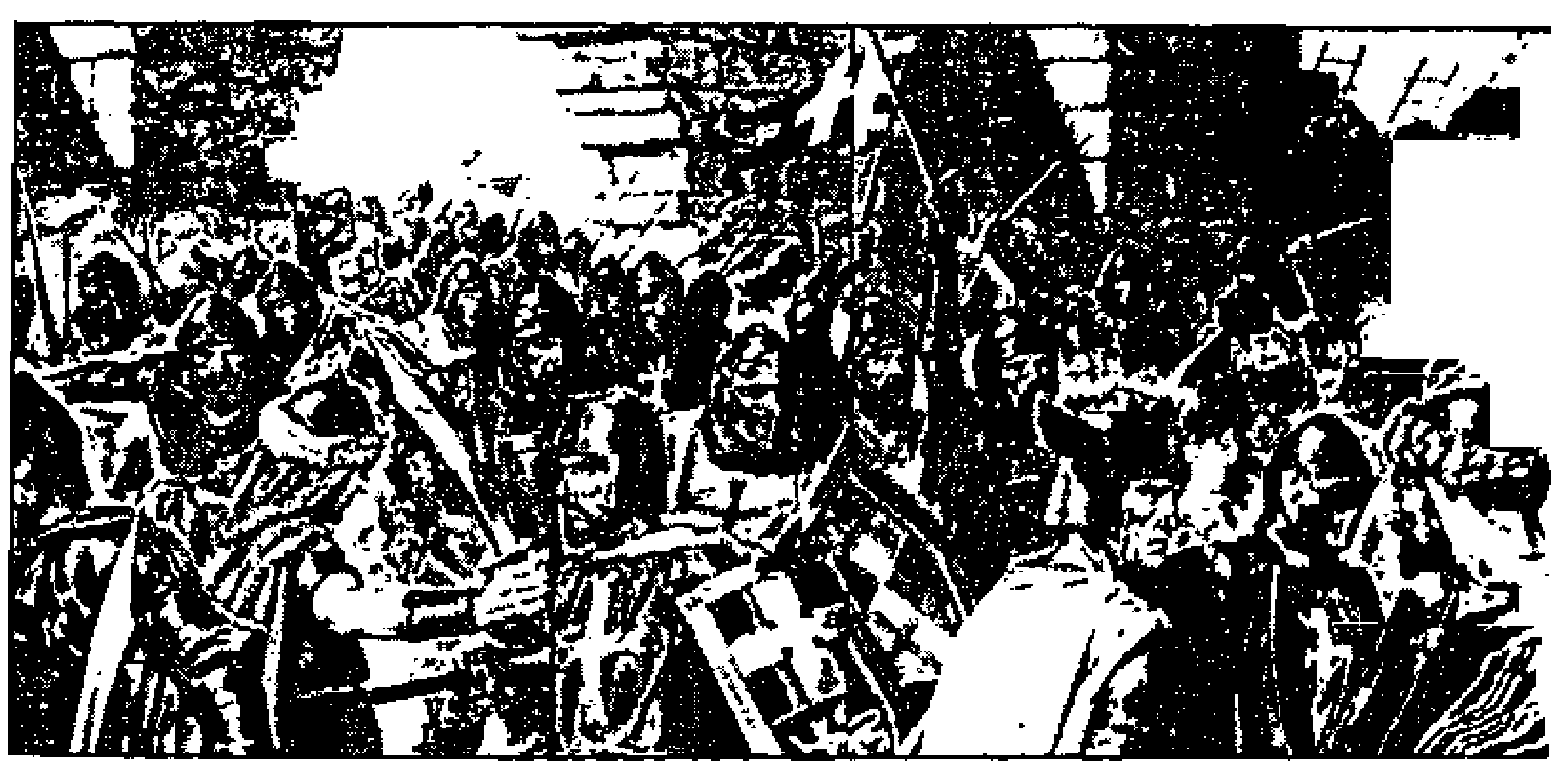
فى ١٣ ـ ١٤ يوليو ، قامت القوات الصليبية بمحاولات جديدة للهجوم. دفعوا الى السور برجين حـصـاريين هائلين برئاسـة جـودفـروا دى بويون وريمون دى سـانجيل. وكـانوا قـد صنعوا البرجين من جذوع قصيرة وكسوها بالجلود الخام. ولكن عبثا ! فما كاد الصليبيون يبدأون دفع البرجين نحو الاسوار، حتى تطايرت من جميع الجوانب الاحجار المطلقة من ادوات الرماية، والسهام ا لتى لا عد لها كالبرد. دارت رحى المعركة دون اية علائم على النصر.

بلغ الانقـضـاض ذروة الضـراوة فى ١٥ يوليـو. فنحـو الظهـر، اقـتـحـم المهـاجـمـون القـدس وسـرعـان مـا سـقطت المدينة. تكبد الغزاة خسـائر فادحة، اثناء الحـصـار وفى ايام الانقـضـاض بالذات، تحت وابل الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الالتهاب التى انهال بها المقاتلون المصريون على رؤوس الصليبيين المحاصرين.

وقد ابدى المصريون الذين كانوا يدافعون عن المسجد الاقصى او «هيكل سليمان» كما

ابونا يوحنا البطرك قبله مرض فزاره جماعة من اراخنة مصر وكبارها، وكان [ابن زرعه] قد حضر معهم فقال للبطريرك: يا ابونا لو استعملت من الدوا كذا وكذا لوجدت الصحة. فقال له البطرك يوحنا: وحق اسكيمك يا ابونا قد استعملت. فدهشو القوم الحاضرين ونظرو الى بعضهم بعض يزعمو ان فيهم احد في حلقه اسكيم فلم يرو احد غيره فعلمو ان كلام البطريرك له واشارته عنه.

---



١٥ يوليو ١٠٩٩ سقطت القدس بعد حصار طويل وتدفق الصليبيون على المدينة

فلما تنيح الاب يوحنا بعد سنين كثيرة ذكروا ما تنبا به عنه. وكانت النوبة للرهبان فاخذوه المصريين وقدموه فلم يختلف فى امره مخالف. وكان تقدمته بطركا فى سنة ثمانين وثمان مماية للشهدا الموافقة لسنة ستين وخمس ماية الهلاية [= ١١٦٤م]، واقام على الكرسى خمسة وعشرين سنة، وتنيح فى السادس من طوبه سنة تسع ماية وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس ماية وخمس وثمانين الهلاية [= ١١٨٩م].

---

يسميه مدونوا الاخبار اللاتين، الذين استحكموا فى برج داود الواقع فى القسم الغربى من المدينة، مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة فى وجه الغزاة. وفى آخر المطاف، سلم افتخار الدولة الصليبيين القلعة وفتح باب يافا بعد ان ضمن لنفسه الحق فى مغادرة المدينة بحرية.

ان «مخلصى قبر السيد المسيح» الذين تملكهم التعصب الاعمى وتحرقوا الى الانتقام من الكفار الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب بصلابتهم وبسالتهم وكبدوهم مثل هذه الخسائر، قد انقضوا بقساوة وحشية وضراوة همجية على سكان المدينة المفتوحة وثرواتها. ان حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة فى القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة فى انطاكية. يقول مدون اخبار ايطالى نورمانى: «عندما دخل حجاجنا المدينة، سا قوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات ؛ وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدنا معركة فى منتهى القساوة طوال اليوم كله، ولذا سال الدم فى الهيكل كله. واخيرا، تغلب رجالنا على الوثنيين واعتقلوا عديدا من الرجال والنساء فى الهيكل ، وقتلوا منهم قدر ما ارادوا، وابقوا منهم قيد الحياة قدر ما ارادوه. وفى المسجد الاقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص؛ هذا العدد يذكره على كل حال شهود العيان اللاتين.

بعد المجزرة العظيمة، ـ كما يقول البروفانسى فولهير دى شارتر ـ تفرق الصليبيون على

(*) سيرة صلاح الدين الأيوبي.

بدو [بداية] سيرت صلاح الدين (*) بشرح امر الملك الناصر صلاح الدين في ملك مصر والخليفة يوميذ العاضد باق على ما هو عليه، والاجناد المصريين والسودان عبيد دولته مقرين على خدمته. فلما كان يوم الثلثا الثالث من صفر سنة اربع وستين وخمس ماية للهجرة [٨٨٥ قبطية = ١١٦٨م]، والخليفة يوميذ العاضد ابو محمد عبدالله وهو الرابع عشر من خلفا الدولة الفاطمية عليهم افضل

---

يوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فيها. وفي هذه الحال قامت عادة مفادها ان كل من يكون اول الداخلين الى البيت، سواء كان غنيا ام فقيرا، يتلقى ويملك البيت او القصر وكل ما فيه، بوصفه مالكا.

وفضلا عن المسلمين ، سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين وبربريتهم . فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه ابادهم الصليبيون عن بكرة ابيهم: فقد احرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجأ فيه.

ولقد اشير الى فتح المدينة المقدسة في ١٥ يوليو ١٠٩٩ في جميع المؤلفات التاريخية من اوائل القرن الثاني عشر بما في ذلك المؤلف الروسي «قصة السنوات المنصرمة». ان مدوني الاخبار ومؤرخي الاحداث سنة بعد سنة الغربيين يصفون هذا الحدث بقدر متفاوت من الاسهاب والتفصيل، ويتحدثون بتفاصيل طبيعية عن ا عمال «جنود الرب» التي تبدو لهم جديرة بالمديح والثناء. اما مدونو الاخبار والمؤرخون الشرقيون (ابن القلانسي، ابن الاثير، وغيرهما)، فانهم ينوهون بفتح القدس من قبل «اعداء الله» بايجاز، ولا يشيرون الا الى انفلات الغزاة وجنونهم ووحشياتهم الهمجية، والى انهم، كما يقول ابن القلانسي، قتلوا كثيرين من سكان القدس.

السلام، ووزيره يومئذ امير الجيوش شاور السعدى، نزل مرى ملك الافرنج(*) بجنوده على بلبيس ففتحها وقتل كلمن وجده فيها من الكيانية والاتراك والسودان ظاهرها، وقتل جماعة كبيرة من عوام الناس مسلمين ونصارى قتلهم داخلها واباح لعسكره القتل والسبى والنهب ثلثة ايام ليل ونهار اطلق لهم السيف فيها، واسر من بقى من اهلها وحملهم معه الى الشام ونهبها واحرقها ومضى

(*) حملة الملك مرى على مصر واحتلاله لبلبيس من مدن الشرقية ونهبها واسر وقتل سكانها.

---

## لمن السيادة؟ حملات المؤخرة

مع فتح القدس تحقق الهدف الرسمي من الحملة الصليبية. ولكن سرعان ما برزت المصالح الفعلية للمشتركين فيها؛ ونظرا لذلك نشبت احتكاكات خطيرة بين زعماء الصليبيين ، وكذلك على الاخص بين قادتهم العسكريين ورعاتهم الدينيين.

لم يترك البابا اوربان الثاني (توفى فى ٢٩ يوليو ١٠٩٩ قبل ان يتلقى نبأ «تحرير» القدس) اية اوامر بصدد نظام الارضى المقدسة المقبل. ومع ذلك حاول رجال الدين أن يؤمنوا فى المقام الاول مصالحهم بالذات وان يشغلوا مكان الصدارة فى ممتلكات الغرب الجديدة. وقد الحت الاوساط العليا من رجال الدين على تحويل القدس الى دولة كنسية. ولهذا الغرض كان ينبغى فى المقام الاول، كما كانوا يعتقدون، انتخاب بطريرك جديد من اللاتين وتسليمه السلطة بكليتها. ولكن منذ وفاة اديمار دى بوى، لم يبق عند الصليبيين قائد كنسى يتمتع بما يكفى من النفوذ والمكانة، وبمقدوره ان يأخذ على عاتقه اداء مثل هذه الرسالة. وقد عينوا رئيس الاساقفة دايمبرت دى بيزا خلفا للاسقف اديمار فى وظيفة القاصد الرسولى (نائب البابا)، وقد وصل الى القدس بالاعتماد على مساندة اسطول بيزا، وبدأ يعمل بخارق الجهد لكى يصبح البطريرك على وجه الدقة، وليس اميرا دنيويا، صاحب السلطة فى القدس. ثم ان البابا الجديد، باسكال الثانى (١٠٩٩ ـ ١١٨)، الح من جهته الى الاسياد الصليبيين بانه يجب مكافأة

بأموالها واسراها. اقتضى الحال ان الخليفة كتب كتاب لنور الدين محمود ابن زنكى ملك الغز بمدينة دمشق واقليمها، وكان ينعت بالملك العادل نور الدين ويعرف بابن قسيم الدولة، يعرفه فى كتابه ما جرى على المسلمين بديار مصر ويطلب منه ان يعضده بجيش يستدفع به الفرنج، فادركه بانفاذ اسد الدين شيركوه فوصل ومعه عسكر كثير من الغز الى البلاد، والملك مرى نازل بالفرنج على




٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م ١٤٣٨

بلبيس، ونضال مقدم مراكب الاسطول على بحر
النيل قد وصل الى عطف منية الفيران قريب منية
زفتي بعشرة شواني وعشرين حراقه [لدعم الملك
مرى] فلما تواصلت اخبار وصول شيركوه الى
قرب البلاد رحل الملك مرى من على بلبيس رجع
الى بلاده وقوى المسلمين على نضال [مقدم
مراكب الاسطول] فكسروه فرجع بالمراكب
هارب. ونزل اسد الدين شيركوه بعساكره على

---

الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لانها هي التى كانت صاحبة المبادرة الى الحملة الصليبية.

اما الامراء، فكانوا يعتقدون بالعكس انه يجب تسليم واحد منهم السلطة على القدس. من بالذات؟ التهبت المشاعر وبخاصة اثناء انعقاد مجلس أعلى للقادة الدنيويين والكنسيين، وذلك في ٢٢ يوليو ١٠٩٩ وقد بلغت الخلافات درجة من الحدة بحيث ان الصليبيين كادوا يصلون الى عتبة الحرب فيما بينهم. كان هناك، من حيث الجوهر، طامحان جديا اثنان الى منصب رئيس الدولة الجديدة هما ريمون دى تولوز، والدوق جودفروا دى بويون. وقد افلح زعماء الصليبيين في التوصل الى حل وسط للمسالة، خصوصا وان ريمون، كونت دى تولوز، الذى لم يكن يتمتع بعطف القادة الكبار، وحتى استثار شكوكهم بسبب عواطفه الموالية لبيزنطة، قد سحب بنفسه ترشيحه.

ان الحل الوسط الذى توصل اليه زعماء الصليبيين كان يتألف مما يلي: احيلت القدس شكلا ورسميا الى حكم البطريرك (وبعد فترة من الوقت صار دايمبرت دى بيزا بطريرك القدس)، ولكن انتخبوا من عداد الامراء الحاكم الفعلي للمدينة المقدسة، ـ جودفروا دى بويون ، ومنحوه لقب حامى قبر السيد المسيح. يبدو ان جودفروا دى بويون، رفض التاج الملكى بايعاز من ريمون دى تولوز. وقد رفض ان يرتدى تاجا من الذهب في المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك . وبدافع من روح التنازل والتساهل، وافق الدوق دى بويون

مدينة بلبيس ورحلو الفرنج وارتجعو من قدامه فى البر والبحر، واستراح ايام يسيره ثم رحل عن بلبيس [إلى] نزل اللوق والمقسم وارض الطباله واحاط بالقاهرة مستديرا [من حولها]، وحمل اليه الخليفة ضيافة وخلع سيفه له ولمن وصل معه من الامرا المشهورين ولمقدمين العسكر، واموال كثير برسم النفقة، وخيم وعدد واشيا كثير لا يقدر على وصف فنونها واصنافها بعيونها. واقام فى ضيافة

---

على اعطاء البطريرك دايمبرت ربع القدس ويافا وحتى على اعتبار نفسه تابعا للبطريرك. فهل كان يصح الخلاف مع الكنيسة بسبب هذه الشكليات ؟ فان تفوق القوى بقى على كل حال الى جانب الفرسان. ان ادعاءات الكرسى الرسولى بالسلطة الدنيوية على مدينة تبعد آلاف الاميال عن روما كانت تبدو فى عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة. ناهيك بان جودفروا دى بويون، اذ اقدم على تنازلات فى صالح دايمبرت المحب للسلطة، كان يسعى فى الوقت نفسه (وليس عبثا) الى نيل الدعم العسكرى من جانب منافسة بيزا، ـ البندقية. فان اسطول البندقية الذى هزم فى طريقه اسطول بيزا، كان قد وصل الى يافا. الا ان البندقيين، والحق يقال، طالبوا بدورهم جودفروا دى بويون، مقابل هذا الدعم، ببدل لا يستهان به هو منحهم فى كل مدينة ساحة سوقية ، والاعفاء من شتى الضرائب والمكوس، وثلث الغنيمة ، وما الى ذلك.

ولكن بينما كان الاسياد يحاكمون ويساومون، ويبنون الخطط ويحيكون المؤامرات، اضطر الصليبيون الى امتشاق السلاح من جديد. فمن الجنوب اقتربت العساكر المصرية ، بامرة الوزير الافضل. ورغم جميع الخلافات، اضطر الفرسان وقادتهم ـ للمرة الاخيرة ـ الى العمل معا من جديد؛ فضدهم كان يقف عدو بالغ الخطر. نشبت المعركة ضد المصريين فى صباح ١٢ فى واد الى الشمال من مدينة عسقلان. احرز الصليبيون الغلبة فى القتال. ويروى ابن القلانسى : «وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين» ... «وانهزم العسكر المصرى الى ناحية

الخليفة لم يدخل القاهرة الى [إلا] يوم الجمعة اول
يوم من شهر ربيع الاول سنة اربع وستين وخمس
ماية الهلالية، انفذ اليه الخليفة سيف الدم مع
موتمن الخلافة جوهر الاستاذ، وامره ان يضرب به
رقبة شاور وزيره فقتله ذبحا بسكين يوم السبت
الثانى من ربيع الاول من السنة المذكورة، واقام
بقية يومه ويوم الاحد نازل مكانه، وفى نهار يوم
الاثنين الرابع من ربيع الاول من السنة المذكورة

---

عسقلان ودخل الافضل اليها. وبعد ان نهب المنتصرون المعسكر المصرى، عاد الوزير مع مقربيه الى مصر. ومذ ذاك توطد وضع الصليبيين فى فلسطين نسبيا. لذا قلت دوافع الفرسان للسير فى ركاب الساسة الكنسيين وتلبية ادعاءاتهم.

فى ١٨ يوليو ١١٠٠ توفى جودفروا دى بويون. ولم يعتزم الفرسان من فرنسا الشمالية واللورين احناء الرأس امام ابناء بيزا وبطريركهم. فأبلغوا فى الحال عما حدث بردوان، كونت الرها، (اخا جودفروا) ودعوه الى القدس. ومنيت بالاخفاق محاولات دايمبرت اخذ المبادرة بيده والحيلولة، بمساعدة بوهيموند، امير انطاكية، دون وصول بودوان الى القدس؛ فقد اوقفوا سفراء البطريرك فى اللاذقية. ناهيك بان بوهيموند نفسه وقع آنذاك فى أسر السلجوقيين. وهكذا ورث بودوان، امير الرها، عرش القدس. ولم يبق لدايمبرت الذى لم يلق اى سند من اى كان غير امر واحد هو وضع التاج على رأس بودوان، وهذا ما فعله فى ديسمبر ١١٠٠ فى كنيسة ميلاد المسيح فى بيت لحم.

وبعد ان اصبح بودوان ملكا، رفض رفضا قاطعا ادعاءات رجال الدين السياسية. وقد لقب نفسه رسميا فى وثائقه: «انا، بودوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله».

كانت هذه المملكة تشغل فى البدء رقعة صغيرة من الارض ـ القدس وبيت لحم ومرفأ يافا مع دوائرها. وكانت القوات المسلحة لدى دولة الصليبيين الجديدة تافهة. فقد كان لدى

دخل القاهرة واخلع عليه الخليفة خلع الوزارة، وهي ثياب بيض مذهبة واسعة الاكمام ومنديل كبير مشدود مثال الدرقه مرخية العذبة الى كفل الفرس، وطوق ذهب في عنقه مرصع بالجواهر ولالي يربط ويحل بشرابه حرير مظفورة بلولو حمصي كبار، فركب بخلف الخليفة من داخل قاعة الذهب بالقصر وخرج وجميع الاجناد والامرا يمشون في ركابه بالسيوف المجبودة [مشهرة]،

---

جودفروا دى بويون من العساكر نحو الفين من المشاة و٣٠٠ من الفرسان ـ من اولئك الذين أرادوا ان يستقروا جديا وزمنا طويلا في الارض المقدسة . واعتبر كثيرون من كبار القواد ومنهم روبرت النورمندى، وروبرت الفلمنكى، وريمون دى تولوز، وبودوان دى بورغ، ان رسالتهم قد تحققت وانتهت. وعادوا مع اتباعهم الى الوطن؛ وغادر آخرون القدس وراحوا الى سوريا الشمالية حيث عكفوا على اغتصاب الاراضي. واحتاج بودوان الاول (١١٠٠ـ ١١٨) الى العساكر. في البدء علق آماله على تدفق مجموعات جديدة من الصليبيين من الغرب.

ذلك ان موجة جديدة من الحركة الصليبية نهضت في اوروبا في سنة ١١٠٠ واعتبرت صدى مباشرا ومواصلة لحملة القدس التي كانت قد انتهت للتو.

فقد احدث نبأ فتح المدينة المقدسة انطباعا قويا في الغرب. وان اقاصيص العائدين من سوريا وفلسطين عن الغنائم الخارقة الغنى المحققة في الشرق قد هيجت كثيرين ممن بقوا في معزل عن الاحداث. وبامر من البابا باسكال الثاني، شن رجال الدين حملة نشيطة من المواعظ. وعقد ممثلو الكرسي الرسولي الذين وصلوا الى فرنسا مجمعا كنسيا في فالنس اولا، ثم في بواتيه. وقد لعب هذا المجمع دورا كبيرا جدا في ظهور وانتشار قوات الصليبيين الجديدة.

وكان له يوم مشهور لم يرى فى ايام الدنيا مثله ووزر وملك. ولما كمل له شهر فى الملك نادى بالقاهرة ان يرفعوا النصاره عذب عمايمهم ويشدوا زنانيرهم، واليهود خرقة صفرة فى عمايمهم. واقام فيها ستين يوما ومات فى اليوم الخامس من جمادى الاول من السنة المذكورة ووزر الخليفة بعده فى حياة الخليفة الملك الناصر صلاح الدين وانعت بالملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام



جنازة الملك بودوان الذى كان يعبر نفسه كما كتب فى وثائقه: وأنا بدوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله.

والمسلمين جامع الايمان قامع عبدة الصلبان محيى
دولة امـيـر المومنين. وكـان صـلاح الدين اسـمـه
يوسف ابن نجم الدين ايوب اخـــو اســـد الدين
شيركوه فوقع يوم جلوسه بين يدى الخليفة توقيعاً
بخط القاضى الفاضل ولفظه، وكان اسم القاضى
الفاضل عبدالرحيم ابن على ويعرف بالبيساني،
كان ابوه قاضى بيسان وكان عالم فاضل يفعل
الخير مع كل احد مشكور محبوب كل احد

---

افتتح المجمع في ١٨ نوفمبر ١١٠٠، في يوم الذكرى السنوية الخامسة لمجمع كليرمون. وببلاغة اقنع مفوضو البابا الكاثوليك الغربيين «بتقديم العون للمؤمنين في حرب الرب».

وبالنتيجة، تحركت باتجاه الشرق في سنة ١١٠٠ جماهير جديدة، كبيرة جدا من الناس. وقد انطلقت بصورة رئيسية من المناطق التي كانت حتى ذاك قد تأثرت بصورة ضعيفة نسبيا بالنهضة الصليبية التي شملت اوروبا في سنة ١٠٩٦.

اجتمع اكبر عدد من العساكر في لومبارديا، بامرة رئيس الاساقفة انسلم من ميلانو. وكانت العساكر تتألف اساسا من فقراء الارياف والمدن اشبه بجموع بطرس الناسك. وفي ربيع سنة ١١٠١، بلغ اللومبارديون القسطنطينية. ورغم فشل التجربة مع الحملة الصليبية الاولى، قرر الامبراطور الكسيوس الاول ان يجرب هذه المرة ايضا استغلال عساكر الغرب في مصلحة بيزنطة، ضد سلجوقيي آسيا الصغرى. بل انه حاول اقناع ريمون دى تولوز، الموجود آنذاك في القسطنطينية، بترؤس العساكر اللومباردية. وامد الامبراطور اللومبارديين بفصيلة من الروم تضم ٥٠٠ فرد. وبعد فترة وجيزة انضمت الى الصليبيين الجدد جموع من بورجونيا وشامبانيا، بامرة ايتيان، كونت دى بلوا، الذى سبق له ان فر من جوار انطاكية. والآن انطلق من جديد في البحر لكى لا يسيئ الى سمعة عائلته ومكانتها. وفى القسطنطينية ظهر كذلك فرسان المان ونقلوهم الى آسيا الصغرى؛ وكانوا بامرة المدعو كونراد الذى كان فى خدمة الملك الالمانى هنريخ الرابع والذى كان يسمي في المصادر والمراجع التاريخية بالكونيتابل.

يشكره ويدعوا له ويثنى عليه بل انه [لكنه] من
طبع الادمي ان [لا] يكون كاملا لكون الكمال لله
وحده لانه لم يوجد فيه قول يشوبه لقايل سوى انه
اشار ان لا يستخدموا النصاره نظار على اموال
الدولة ولا مشارفين فقبل قوله وعمل برايه ولم
يرجع احد من النصاره يتسخدم فى نظر ولا
مشارفة فى ايام دولة صلاح الدين ولا من ملك
بعده من اولاده وذريته. فوقع ما مثاله، ومثال

---

ولكن الاحداث تطورت بنحو مغاير تماما لما حسب الامبراطور. فان اللومبارديين الذين كانوا يؤلفون السواد الاعظم من العساكر كانت تتملكهم فكرة تحرير مواطنهم فى المقام الاول ـ اى امير انطاكية الذى وقع فى صيف سنة ١١٠٠ فى اسر الامير السلجوقى غازى ابن دانيشمند السيواسى. وكان الاسير فى نيكسار غير بعيد عن ساحل البحر الاسود. واخفقت جميع جهود الامبراطور الكسيوس الاول وريمون دى تولوز، وايتيان دى بلوا فى صرف اللومبارديين عن هذه الفكرة السخيفة. وفى ٢٣. يونيو ١١٠١ فتح الصليبيون انقره وسلموها لبيزنطية، وفقا لقسم التبعية الذى سبق ان حلفه رؤساء جحفلهم للامبراطور.

فى ذلك الوقت، تشكل تحالف قوى من الحكام السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد؛ فضد الصليبيين هب سلطان قونية قلج ارسلان الاول والاميران غازى المالك السيواسى ورضوان صاحب حلب. وفى اواسط يوليو ١١٠١، منى الصليبيون بهزيمة ماحقة فى جوار مارسيوان (مرزفون)، على بعد نحو ٢٥٠ ميلا من نيكسار. كذلك لم تنفع هذه المرة الحربة المقدسة التى اخذها ريمون دى تولوز معه. ولم ينج من الموت سوى القادة الذين ولوا الادبار «فى الوقت المناسب» علما بان حامل الذخيرة النفيسة كان بالذات اول من فارق ساحة الوغى. وسقط عشرات الآلاف من اللومبارديين والفرنسيين والالمان تحت ضربات السيوف والرماح السلجوقية، واما وقعوا فى الاسر وبيعوا عبيدا.

العلامه: الحمد لله وبه توفيقي، خرج الامر العال
الناصرى زاد الله تعالى امضايه، بمسامحة الامرآ
والشادين والحماه والمتصرفين والعمال
والمستخدمين والضمنا والبادلين والمستوفيين
والموفيين وكافت الناس اجمعين، بالبقايا الداتره
والاخلاف المخرجة، والخطوط المخلدة والنفقات
المردوده، والحواصل المساقة بالقلم وليست

---

والمصير الفاجع ذاته كان من نصيب طابورين آخرين من المؤخر الصليبى انطلقا من فرنسا والمانيا. كان احد الطابورين بامرة فيكونت نيفر، غليوم الثاني والدوق اودو البورجوندى، الذى اشترك قبل ذاك بقليل فى الحرب ضد العرب فى اسبانيا، والذى حرمه البابا من الكنيسة لنهبه ضياع دير كلونى. وكان الطابور الثانى الذى انضم اليه الصليبيون من فرنسا الجنوبية والمانيان الجنوبية بامرة غليوم التاسع دوق اكيتين، الذى اشتهر كشاعر ومغن جوال، وفلف الرابع ، دوق بافاريا، الذى كان فى سنوات الصراع من اجل العرش خصما للملك الالمانى هنريخ الرابع. و بين هؤلاء الصليبيين، برز هوج فرمندوا الذى سبق ان عرفناه، والماركجرافينيا ايدا النمساوية، وتييمو، رئيس اساقفة سالزبورج.

سار الطابوران وتصرفا كلا منهما بمعزل عن الآخر . وبعد محاولة فاشلة باقتحام قونية فى ١١٠١ ، منى غليوم، فيكونت نيفر، بهزيمة ماحقة على يد السلجوقيين الى الشرق من قونية، قرب هرقلة ؛ الا أن بقايا قواته استطاعت ان تهرب، ووصلت فى آخر المطاف الى انطاكية. ثم ان صليبيى غليوم، دوق اكيتين، الذين قاموا بمسيرة عسيرة فى ربوع آسيا الصغرى، وانهكهم الجوع والعطش، وتكبدواخسائر كبيرة فى الارواح، لقوا المصير الفاجع نفسه بعد بضعة اسابيع: ففى جوار هرقلة، وقعوا فى كمين نصبه قلج ارسلان.

وهكذا اخفقت كليا الحملة الصليبية فى سنتى ١١٠٠ - ١١٠١ مما دفع بمدون الاخبار

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

بموجودة، والاوقات الحكميه وسفاتج(*) المراكب الديوانيه، وزايد المساحات، وفواصل الاقطاعات، وما تشهد به الدواوين من المعاملات على اختلاف اسبابها وتباين ابوابها واسبابها، وما يتبع ذالك من المواريث الحشرية والاوقاف الشرعية، وسفاتج المراكب المحمية. جميع ذالك الى اخر سنة ثلث وستين وخمس ماية [٨٨٤ قبطية = ١١٦٧م] مسامحة تشمل: الامير المامور والغيب والحضور

(*) سفاتج: مفردها سفتج وتعنى دفع الأجر بالآجل. وهى كلمة فارسية دخلت في اللغة المصرية في العصور الوسطى.

---

فولهير من شارتر ان سمى هذه الحملة الصليبية بالحملة الثانية). وقد هلكت اغلبية عناصرها في آسيا الصغرى، الا ان بضع مئات من الصليبيين استطاعت الوصول الى القدس.

نحو ذلك الزمن، كانت قوات الصليبيين الذين استولوا على القدس فى سنة ١٠٩٩ قد انخفضت بصورة ملحوظة؛ فان كثيرين منهم قد عادوا الى الوطن . ومع ذلك ، واصل الباقون شن الغارات الاغتصابية فى اراضى سوريا ولبنان وفلسطين. وقد استرعت المدن الساحلية الغنية التى كانت مركز تجارة المشرق انتباه الصليبيين. ولكن فتحها لم يكن سهلا؛ فقد لقيت المدن العون من مصر. ذلك ان حكام المدن المينائية كانوا يعرضون على زعماء الصليبيين فدية كان هؤلاء يقبلونها احيانا كثيرة. ومع ذلك، استطاع الصليبيون، بمساندة اسطول البندقية واسطول جنوه اللذين قطعا المواصلات بين موانئ القسم الشرقى من البحر المتوسط وبين السفن المصرية، ان يرسخوا اقدامهم، خلال السنوات التى اعقبت فتح القدس ، فى عموم ساحل سوريا ولبنان وفلسطين. وقد فتحوا المدن واحدة تلو اخرى: فى سنة ١١٠١ حيفا، ارسوف، قيسارية؛ فى سنة ١١٠٤ عكا؛ فى سنة ١١٠٩ طرابلس (بعد حصار دام زهاء سبع سنوات) ، صيدا، بيروت؛ وأخيرا فى سنة ١١٢٤ صور.

وعلاوة على الدول الثلاث التى انشئت من قبل ، تأسست فى الاراضى المفتوحة دولة

والاغنيا والفقرآ والاقوياآ والضعفآ لا يستثنا فيها بالحواصل المشخصة، والذخاير المخصصة والنفقات التى هى من التبعات مخلصة، فانها عدة الجهاد وماوونة [مؤنه] الاسعاد، ابتغآ للثواب وطلباً للزلفى وحسن الما آب، فليكتب بذالك مساطير [منشورات] تقرى فى ساير اعمال الدولة بعد ثبوته بحيث يثبت مثله ان شا الله تعالى. واستقر الملك الناصر فى الوزارة ونفذ قوله وفعله، وكان يعضده

---

اخرى، هى كونتية (او امارة كما تسمى فى بعض المراجع العربية ) طرابلس (الى الشمال من مملكة القدس).

اخذت اراضي دولة الصليبيين تتسع تدريجيا؛ فقد اشتملت على مناطق فى المجرى الاعلى من نهر الفرات، ثم على رقعة ضيقة فى سوريا الغربية، ثم على عموم فلسطين وكذلك على قسم فيما وراء الاردن ومن شبه جزيرة سيناء. وجميع هذه الدول (اى مملكة القدس وكونتية الرها وكونتية طرابلس وامارة انطاكية) يجمعونها عادة فى الادب تحت اسم واحد ـ مملكة القدس اللاتينية. وفى هذه الإمارات، اصبح ابرز زعماء الصليبيين حكاما: فى الرها ـ بودوان ثم ورثته بعد ان صار ملك القدس؛ فى انطاكية ـ بوهيموند الذى حاول بجميع الوسائل فيما بعد ان يوسع مملتكاته؛ فى طرابلس، ورثة منافسه ريمون دى تولوز (فان ريمون نفسه قد مات فى سنة ١١٠٥ اثناء حصار هذه المدينة)؛ وقد احتفظ بتاج ملوك القدس اخلاف جودفروا دى بويون، ملوك سلالة الاردن ـ انجو (ومرد الاسم المزدوج الى ان عرش القدس قد شغله فى سنة ١١٣١ صهر بودوان الثانى (١١١٨ ـ ١١٣١)، الفرنسى فولك دانجو (Foulgues)، الذى اخذ ورثته مذ ذاك يحكمون فى القدس).

ان الصليبيين الاوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم الى تلاحمهم ووحدتهم اللتين يتحدث عنهما مدونون الاخبار اللاتين باسهاب اقل مما الى انقسامات العالم الاسلامى فى المقام الاول.

في ذالك الوقت اخـــوه العـــادل ابو بكر، وتاج
الملوك، والاجل المعظم شمس الدولة. ومات شمس
الدولة في ايام دولته في مدينة الاسكندرية بعد ان
عمل مع المصريين من الخير ما يقصر اللسان عن
وصفه رحمه الله ورضي عنه، ومات تاج الملوك
اخيه على ظاهر مدينة حلب عندما حاصرها
صلاح [الدين] بسهم خرج رمى بها من قلعتها
فاصابه في ركبته فمات، وكان كريما لبيباً فاضلا

---

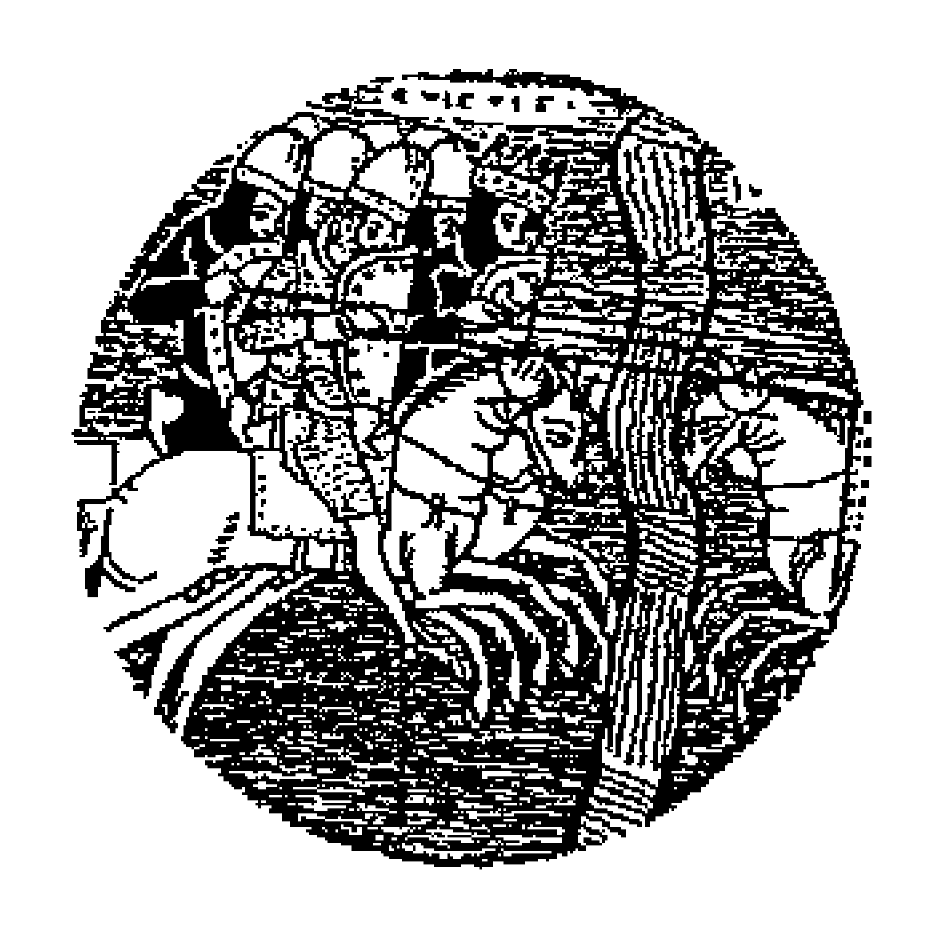
ففي الشرق لم يواجهوا كتلة متكاملة، واحد موحدة من الاعداء، بل واجهوا خليطا متنافرا و مبرقشا من كيانات السلجوقيين والمصريين، ومن امرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمة بينهم. كان العالم الاسلامي منقسما على نفسه. وكان تمزقه السياسي يرافقه التبعثر الديني؛ فان السلجوقيين السنيين لم يجدوا لغة مشتركة مع الشيعيين المصريين، ناهيك بان الصراع كان محتدما بدوره في صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل. وبالنتيجة لم يلق الفاتحون الرد اللازم في الشرق، واستطاعوا، وان بثمن خسائر كبيرة، ان يوطدوا سيطرتهم لعشرات السنين في الاراضي الغنية في سوريا ولبنان وفلسطين.

لبى امتلاك القسم الشرقي من البحر المتوسط المطامع المغرضة لبضع مئات من الاقطاعيين المدنيين والكنسيين في اوروبا الغربية. وضحى بالجماهير الشعبية لاجل هذه المطامع؛ فان المشتركين في الحملة الصليبية الاولى ـ وكذلك في الحملات التالية التي منيت بالهزائم الماحقة ـ لم يكونوا بنصفهم او حتى باغلبيتهم من عداد الاقطاعيين، بل كانوا من الفقراء، وبصورة رئيسية من الفلاحين، ممن انطلقوا الى اقطار يجهلونها بحثا عن نصيب افضل ، ولكنهم لم يجدوا هناك غير الموت. لقد كانت الحملة الصليبية الاولى مذبحة هائلة كانت شعوب الغرب ضحيتها، قدمتها ومثلت مسرحيتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية والاوساط العليا من الطبقة الاقطاعية خدمة لاهدافها الاغتصابية المستورة بالرايات الدينية.

عـالما يقـول الشـعـر وله منه ديوان. وكـان مقـدم عسكر الملك ومشيره الاجل تقى الدين عـمـر ابن شاهنشاه وكان ذوى راى صايب وتدبير جيد وكان له على الاجناد هيــبـة ينصف المظلوم من الظالم وكان اذا حكم بين اثنين يقعدهما بين يديه جلوس معه ولا يحـابى للغنى ولا يهـضـم جـانب الفـقـيـر وياخـذ الحق من الظالم ولو كـان ولده. وبعـد مـا جرى من فـتـح الساحل الذى نشـرحـه فـيـمـا بعد

---

## الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر



### انتقام السلجوقيين. موعظة برنار من كليرفو

بينما كان صليبيو الاجيال الاولى يستقرون فى ممتلكاتهم فيما وراء البحار ويجهدون لتوطيد سيادتهم، بدأت الامارات الاسلامية تتراص وتتلاحم تدريجيا . ففى الشرق، تأسست اتحادات للسلجوقيين متفاوتة الكبر. واخذ الدخلاء الغربيون يواجهون من جانبها ردا مشتدا اكثر فاكثر . وسنة بعد سنة، كانت تتفاقم العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة. وفى بيزنطة كانوا يرمقون

مـضى الى اقليم اخـلاط من بلاد العـجم وكـانه [وكان] في يد نكتم [نكتمر] من ملوك العجم، فقاتله وكسره واخذ منه البلاد ومات هناك وما بعده [ومن بعده] ولده. ولما كان في جمادى الاخر سنة خمس وستين وخمس ماية ٨٨٦ قبطية= ١١٦٩/ ١١٧٠م] بلغ الملك الناصر صلاح الدين عن موتمن الخلافة جوهر استاذ العاضد انه خرج من القاهرة الى الخزانيه [شمال شبرا] وكانة

---

بعين الحذر مملكة القدس التى كانت اراضيها تخص الامبراطورية فيما مضى. وكانت الامارة النورمانية فى انطاكية تثير امتعاضا قويا جدا فى اوساطها الحاكمة. وكان اسطول الروم وقواتهم البرية تعتدى بين الفينة والفينة على حدود هذه الدولة التى اسسها بوهيموند اى امارة انطاكية. وقد توتر الوضع بالغ التوتر عندما استولى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى كومنينوس (١١٨ ـ ١١٤٣) على قيليقيا الارمنية واقترب مع قواته من انطاكية فى ١١٣٧ واكره اميرها ريمون دى بواتيه على ان يصبح من اتباع القسطنطينية. صحيح ان يوحنا نفسه تعهد بان ينتزع لاجل انطاكية بضع مدن من السلجوقيين (حلب، شيزر، حماه، حمص)، ولكنه لم يف بوعده. وفى سبتمبر قام بمحاولة للاستيلاء على انطاكية، الا ان اقتراب الشتاء اجبره على التراجع. وفى سنة ١١٤٣، قتل سهم سام يوحنا الثانى اثناء الصيد. ولكن الخطر البيزنطى على القدس ظل مخيما.

فى اغسطس و سبتمبر ١١٤٤ شن خلفاء يوحنا الثانى، الامبراطور ما نويل (عمانوئيل) كومنينوس (١١٤٣ ـ ١١٨٠) حملة على انطاكية على درجة من الشدة بحيث هزم الامير ريمون واجبره على المجئ الى القسطنطينية وتجديد يمين التبعية.

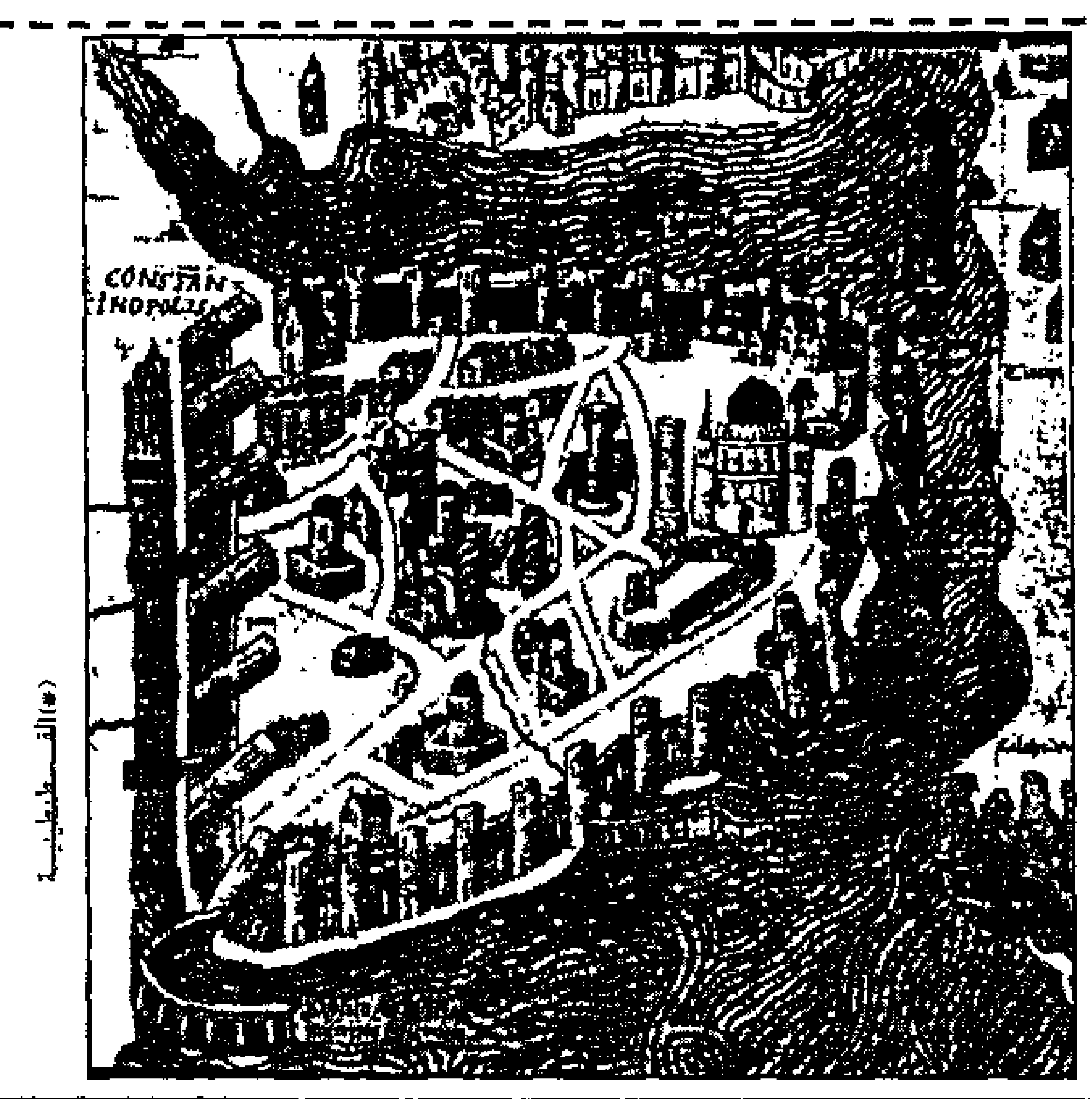
وفى هذه الاثناء، سدد السلجوقيون إلى الصليبيين اول ضربة جدية. وبداية انتقامهم سنة ١١٣٧، حين اقتحم قائد قوات دمشق كونتية طرابلس وسحق الفرسان هناك. ووقع بونتى

[وكانت] اقطاعه، ونزل في المنظرة التي لها المظلة
على البستان، وقد عزم على انه يقيم فيها الى
نصف الليل ويسرى مع العرب [ثم] يمضى الى
الفرنج يستنجد بهم ويحضرهم الى القاهرة لمحاربة
الملك الناصر واخراجه منها، لانه لما تمكن في
المملكة خاف منه الخليفة والاستاذين فجهزو
موتمن الخلافة للرواح [للذهاب] للافرنج يجيبهم
لكونه من خواص الخليفة، وكان يقبل قوله ويعمل

---

كونت طرابلس اسيرا وقتل. وفي صيف ١١٣٧ دخلت قوات اتابك الموصل عماد الدين زنكي طرابلس. وهذه المرة اسر السلجوقيون الكونت ريمون الثاني مع عدد كبير من الفرسان. وفي السنوات التالية اخضع عماد الدين زنكي لسلطته عددا من الامارات السلجوقية في بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وسوريا الشمالية. ومن الطريف ان مملكة القدس ساندت دمشق في سنة ١١٣٩ اثناء حروب عماد الدين زنكي ضد دمشق؛ وآنذاك كان الملك فولك هو الذى اجبر قوات الموصل على التراجع. ومع ذلك، احرز عماد الدين زنكي الهيمنة في سوريا فيما بعد، لا جنا حينا الى القوة المسلحة وحينا الى الدبلوماسية وعقود الزواج. وكل هذا اتاح له دفع قواته في اكتوبر ١١٤٤ الى اراضي كونتية الرها ومحاصرتها في ٢٨ نوفمبر.. فهرعت الى نجدة المدينة فصائل الفرسان من مملكة القدس، وقد ارسلتها الوصية على العرش ميليساندا التي كانت تحكم اثناء حداثة بودوان الثالث، ولكن هذه الفصائل وصلت متأخرة جدا. ففى ٢٤ ديسمبر ١١٤٤ استولى عماد الدين زنكي على المدينة ودمر قسما كبيرا منها، ثم استولى على كثير من مناطق الكونتية. ان عملية طرد الافرنج من ممتلكاتهم، التي بدأها عماد الدين زنكي في كونتية الرها قد واصلها ابنه نور الدين محمود ابن زنكي [١١٤٦ - ١١٧٤] الذى وسع كثيراً أراضي السيادة الاسلامية. وحرر وادى الفرات من سيطرة الافرنج.

برايه لانه اكبر من في قصره من الاستاذين، فندب السلطان الطواشي قراقوش وكان ايضا خصياً وكان به خصيصاً، وجرد معه ماية فارس فادرك موتمن الخلافة في المنظرة فاستدعاه ينزل له فلم يفعل بل اغلق باب المنظرة عليه وامر اصحابه ان يقاتلوه، فحاصره قراقوش وقاتله وقتله واخذ راسه بعد ان احرق المنظرة بالنار وعاد الى القاهرة. فاجتمعو السودان وزحفو لقتال السلطان داخل




(*) القسطنطينية

القاهرة لما سمعو بقتل موتمن الخلافة جوهر، فنصر الله السلطان عليهم وظفره بهم، فلم يقتل واحد منهم بل قال: لا لوم عليهم لانهم قاتلو عن سيدهم وخليفتهم، فابقى عليهم وتقدم لهم ان لا يقيمو معه فى القاهرة ويسكنو باى ما ارادو من الريف والصعيد وغير ذلك من البلاد، بل القاهرة لا يقيمو معه فيها فخرجو منها الى الارياف

---

خلق سقوط الرها خطرا جديا على جميع دول الصليبيين الاخرى فى الشرق الادنى، وفى المقام الاول على انطاكية. وفى نوفمبر ١١٤٥ أرسلت رسل من القدس وانطاكية الى بابا روما اوجينوس الثالث. ووصل الى مدينة فيتربو (ايطاليا) اسقف جبلة بطلب اتخاذ التدابير لكى تحمى «بسالة الافرنج المظفرة»، ممتلكات الكونتات والفيكونتات الشرقية من الاعتداءات الجديدة.

فى ذلك الوقت كان الوضع السياسى الداخلى فى اوروبا يتطور فى غير صالح البابوية؛ فمن جديد تأزم ما يسمى بالصراع من اجل تعيين الاساقفة Investiture وتعقدت العلاقات مع مملكة صقلية، وفى روما نفسها وقفت ضد البابا الفئات الدنيا من ذات المزاج الجمهورى من سكان المدينة (وهذه الحركة ترتبط باسم ارنولد دى بريشيا ـ Arnold de Brescia ـ الواسع الشهرة)؛ وكان يخيل ان البابا لا يمكن ان يفكر فى مغامرات جديدة فى الشرق. ومع ذلك، وقع فى اول ديسمبر ١١٤٥ بولا (مرسوما) يدعو الى الحرب الصليبية. وكان ذلك اول مرسوم صليبى فى التاريخ تتخذه البابوية. وقد وجه البابا اوجينوس الثالث هذا المرسوم الى فرنسا داعيا الملك لويس السابع الى النهوض للدفاع عن الدين والايمان. وطالبه البابا بتجهيز القوات لاجل الانتقام من المسلمين، ووعد المشتركين فى الحملة بحماية الكرسى الرسولى التامة، وغفران الخطايا، والاعفاء من الاتاوى. وللحصول على الاموال للاشتراك فى

والصعيد وتفرقو في جميع ديار مصر من برج دمياط الى برج اسوان.

وكان نازل في اعمال الغربية فرقان [قبائل] عرب كثير منهم قبيلة واحدة تسمى بنى شلش تزيد عن عشرة الف فارس نافقو واخافو السبيل، فخرج اليهم الاجل تقى الدين بعسكره فطحنهم وسباهم واخذ نساهم واولادهم واموالهم ومواشيهم ولم يبق منهم رجل في بيت شعر يوجد.

---

الحرب، سمح للفرسان برهن عقاراتهم وضياعهم. ومن جديد، كما منذ ٥٠ سنة، قامت في الغرب حملة واسعة في صالح الحملة الصليبية: قبر السيد المسيح في خطر!

كان برنار، رئيس جمعية الرهبان السيسترسين البورجوني الواسع النفوذ، رئيس دير كليرفو (١٠٩١ ـ ١١٥٣) من اكبر ملهمي الحملة الجديدة الى الشرق همة وعزيمة، ومنظمها المباشر. فإليه بالذات عهد اوجينوس الثالث بالدعوة الى الحرب المقدسة. اما البابا نفسه، المستغرق في شؤونه الايطالية والاوروبية العامة، فلم يكن بمقدوره ان يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع. اما برنار، رئيس دير كليرفو، المتعصب تعصبا قتاليا اعمى، والذى لقبه معاصروه بالذات «غول زماننا»، والذى رفعته الكنيسة فيما بعد الى مصاف القديسين، فقد كان يبدى من زمان بعيد اهتماما كبيرا بمصائر دول الصليبيين. وقد اسهم، في تأسيس جمعية الهيكليين. وقد دعاهم برنار الى ابادة المسلمين بلا شفقة ولا هوادة، والى الاستيلاء على اراضى «اعداء المسيح» لما فيه مجد الكنيسة، والى نشر سلطة الكرسي الرسولى هناك. وقد كتب برنار في مؤلفه «كلمة ثناء على قوات فرسان الهيكل الجديدة»: «قد لا يصح قتل الوثنيين لو كان من الممكن منعهم بوسيلة ما اخرى عن ضمر عداوة مفرطة للمؤمنين اوعن اضطهاد المؤمنين. اما الآن فمن الافضل ابادتهم». وكان ذلك احد البنود الاساسية في برنامج الكاثوليكية

ودانت له البلاد وكثر الامن والرخص فى ايام دولته، واظهر من العدل ما لم يسبقه احد اليه.

واخبر صفى الدوله استاذ الجهة الظافر به [أن] ابن شمس الدولة اخو صلاح الدين دخل الى القصر ليلا وطلب الخليفة، فلما اعلمو الخليفة بانه يطلبه مص الخاتم المسموم الذى يعملوه الملوك للموت عند الغلبة ليلا يقعو فى ايدى اعدايهم فيهينونهم ويعذبوهم فيرون الموت اخير لهم من

---

المقاتلة؛ وهذه البنود تقدم بها هذا الحبر الذى اخذ على عاتقه دور الواعظ الرئيسى بالحملة الصليبية الجديدة.

وفى القرن الثانى عشر، كما فى عشية الحملة الصليبية الاولى، تأجج جو الصراع الاجتماعى فى الغرب من جديد. فقد استاء الاقنان من الاتاوى التى لا تطاق ومن استبداد الاسياد. ونهض فى وجه الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين خصم جدى جديد هو المدن التى ابدت فى القرن الحادى عشر اولى علائم الحياة، وذلك فى ايطاليا الشمالية وفرنسا بصورة رئيسية. ونحو ذلك الزمن كانت قد نمت نموا عاصفا فى المانيا وانجلترا. وكان الفلاحون الاقنان الساعون الى نيل الحرية يهربون الى المدن للاحتماء داخل اسوارها. وكان ثمة مثل شعبى يقول: «هواء المدينة يجعل الناس احرارا». وهؤلاء الفلاحون الهاربون الذين اخذوا يمارسون الحرف هم الذين هبوا ضد نير الاسياد؛ واحيانا كانوا ينالون الاعتراف بحرياتهم فى غمرة الكفاح المسلح السافر ضد الكونتات والاساقفة.

كانت روح الفتنة والعصيان تنتشر بصورة اوسع فاوسع. كانت حركات الهراطقة التى تفصح عن احتجاج الفئات الدنيا من سكان الارياف والمدن على النظم والاوضاع الاقطاعية تتشب تارة هنا وطورا هناك. كان ذلك زمنا ولدت فيه «الف هرطقة» كما قال المفكر ابيلار (Abélard). وقد نشأت الهرطقات وتنامت فى فرنسا والفلاندر وانجلترا ومناطق المانيا على

الاهانة والعذاب، فلما مصه مات. وقال غير صفي
الدولة انه اخذ حيا وساله موضع كنوزه وامواله.
فلم يعرفه اياهم فاخذ عمامته من على راسه
وخنقه بها حتى مات. واخبر ايضا رجل من اهل
قصره انه كان قبل ان يقتلوه قد شرب الخمر مع
صلاح الدين وشمس الدولة وسمع الغنا
بحضرتهم عنده في مجلسه فلما انقضى المجلس

---

ضفاف نهر الراين. وعكفت الكنيسة الكاثوليكية بكل حزم وعزم على استئصال الهرطقات؛ وكان برنار، رئيس دير كليرفو، على وجه التحديد، قد خلق لنفسه قبل الحملة الصليبية شهرة خانق شرير وحقود لحرية الفكر. فانقض بجميع العقوبات على ابيلار «الكافر» الذى تجاسر على تمجيد قوة العقل خلافا لمكانة العقائد الكنسية، وعلى اتباعه العديدين . وفى القرن الثانى عشر كانت تتأجج المواقد التى كانت الكنيسة تحرق فيها الهراطقة. ولكن روح التمرد والعصيان استعصت على النار.

وفي هذا الوضع، جاءت الهزيمة التى انزلها السلجوقيون باحدى الدول الصليبية فى الشرق مناسبة تماما للكنيسة، فقد قررت الاوساط العليا الكنسية ان تؤجج من جديد نيران التعصب الدينى القتالى، حاسبة ان تتمكن بواسطته من وضع حد لا مزجة التمرد والعصيان في الغرب: فلتغرق موجة الحماسة الصليبية التى تثيرها الكنيسة حريق الاستياء الشعبى المتوهج.

وقد تم استغلال سقوط الرها لاجل اطلاق النداء من جديد الى حرب الخلاص ضد «الكفار» . وكما فى اواخر القرن الحادى عشر، جعلت الاوساط العليا فى الكنيسة الكاثوليكية مهمتها الاساسية تأمين ازدهار وسيادة الطبقة الحاكمة في الغرب؛ وكما فى ذلك الوقت،

وقـام من كـان عنده من اخـوة السلطان خلى
بسريته وطلبها على نفسها فاجابته الى ما طلب
وكـان فى وسطه سـراويل ديبـقى ذهب مكلل
بجواهر من جانبيه، ونكلته مكللة مثلة بجواهر
يساوى جمال[جملة] مال استوهبته منه فوهبه
لها، فجابته لصلاح الدين يفتخر [تفتخر] به
عليه، فاخذه واحضر القاضى والشهود والفقها
ونظم بذالك مسطور وسيره الى العراق وبغداد

---

حاولت فى الوقت ذاته ان تلبى مصالح الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين الانانية الجشعة وان تعزز مكانتها وسلطاتها.

فى ٣١ مارس ١١٤٦ وصل برنار من كليرفو الى مداولة لبارونات الفرنسيين وكبار رجال الكنيسة والفرسان الاعيان فى فيزليه (بورجونيا). ومن على مرتفع اقيم فى حقل مفتوح، تكلم امام جمع الناس، وتلا البول (المرسوم) الصليبى الذى اقره البابا، والقى خطابا ناريا بصدد ضرورة حرب مقدسة جديدة. كذلك اخذ برنار يوزع فى الحال هناك شارات الصليب، المعدة سلفا. وحين لم تكف الشارات، مزق برنار لباسه الرهبانى وصنعوا منه كذلك صلبانا.

استجاب كثيرون من الفقراء ولاسيما من تلك الانحاء التى اصابها القحط والجوع مؤخرا لدعوات برنار من كليرفو والوعاظ الكنسيين الذين وزعهم فى جميع الاتجاهات. ومع ذلك، لم تلاحظ على العموم فى امزجة الريف آنذاك تلك الحماسة الدينية التحررية العفوية والجماهيرية التى رافق نهوضها بداية احداث سنة ١٠٩٦. بل ان اخبار المعاصرين تعكس حتى اصداء الاستياء الشعبى الذى تبدى هنا وهناك لمناسبة تحضير الحملة الصليبية. وكان فرض اتاوة على جميع سكان المملكة الفرنسية لسد حاجات الحملة الصليبية سببا جوهريا من اسباب هذا الاستياء. وهكذا بدأت الحرب المقدسة، كما قال احد مدونى الاخبار، بخزى وعار، اى بنهب الفقراء.

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وطلب الفتيا: هل يجوز للخليفة يشرب الخمر ويفسق . فافتوه الفقها انه اذا ثبت ذلك عليه يخلع من الخلافة. فلما وقف على الفتيا تقدم الى اخيه شمس الدولة بالركوب الى القصر ليلا والتلطف في قتل الخليفة على ما قدمنا ذكره. وكان وفاة العاضد لدين الله وهو تمام اربعه عشر خليفة لبيت الفاطميين في سنة سبع وستين وخمس مايه هلالية [٨٨٨ قبطية = ١١٧١/ ١١٧٢م] وتسلم الملك

---

وهذه المرة ايضا التحقت بالفرسان جموع من الفلاحين الاقنان. وعن دوافعهم كتب مدون الاخبار غرخو من رايخسبرج بصورة معبرة: «اما الفلاحون، والاقنان التابعون للسادة، فقد طرحوا جانبا محاريثهم وتناسوا الفرائض.. فقد قام سوادهم الاعظم بصورة غير معقولة بهذه الحملة البالغة المشقة، أملا فى ان يأكل فى هذا المشروع المقدس للغاية مأكلا مثل الذى نزل من السماء على شعب اسرائيل» (يقصد مدون الاخبار حكاية التوراة عن خروج اليهود من مصر؛ ففى الصحراء انعم الرب عليهم «بخبز من السماء» او «بالمن»). ولكن ، كما يستخلص مدون الاخبار بصورة قاطعة، «حصل تماما غير ما كانوا يأملون فيه».

فى هذا المقطع يتبدى بكل وضوح السبب الذى ظل يدفع الاقنان الى درب الرب، وهو السعى الى قطع علاقات التبعية حيال الاسياد، «تناسى» الفرائض.

فى الحملة الصليبية الثانية، اشترك الملوك للمرة الاولى: الملك الفرنسى الشاب لويس السابع الذى استجاب فى الحال لبول البابا اوجينوس الثالث، والملك الالمانى. كونراد الثالث هو هنشتاوفن الذى اقنعه بالاشتراك فى الحملة برنار من كليرفو الذى تجوب فى المانيا والقى هناك الكثير من الخطابات النارية حول اهمية الحملة الصليبية لاجل خير المسيحية، فأخذ الملك الالمانى الصليب رغم انه كان مشغولا بالحرب الداخلية ضد كتلة ال فلف الاقطاعية المعادية لآل هو هنشتاوفن. وقد حدث ذلك فى ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٦ فى ريخستاغ

---

الناصر القصر وما فيه واما التركة والاثاث فتقدم ان
يحـمل منهـا الى داره مـا يصلح له ولنسـايه من
الملابس والجـواهر والالى والمصـاغ من الذهب
والفضة ونحو ذالك وان يباع مالا حاجة له به من
الكتب والاوانى ونحـو ذالك واقام امينا على بيع
ذالك القاضى الامير محمد ابن محمد ابن ذو
الرياستين ابن بنان، فاما النفوس فانه جعل حظايا
الخليفة واولاده فى دار المظفر برجوان فى حارة

---

شبيير حيث القى برنار خطابا صادقا مؤثرا. ونعت برنار، رئيس دير كليرفو، نجاحه «معجزة المعجزات».

وبدءا من اواسط القرن الثانى عشر، اخذت القوى المنظمة للدول الاقطاعية فى اوروبا الغربية تنضم تدريجيا، وان بصورة غير منتظمة، الى قوام المشتركين فى الحملات الصليبية؛ ومذ ذاك اخذت تتوطد السلطة الملكية فى هذه الدول، وتنشب اشتباكات كبيرة بين هذه السلطة وبين كبار الاقطاعيين، ويتكون الجهاز الملكى للادارة والحكم ، وتتشكل القوات المسلحة الدائمة، النظامية. وعلى هذه القوات فى المقام الاول يعتمد الملوك فى سعيهم الى قطع اجنحة الانفصالية الاقطاعية. هكذا كانت الحال فى مملكة الكابيتين (Capetiens) فى فرنسا وفى مملكة سلالة هوهنشتاوفن فى المانيا وفى المملكة النورمانية الصقلية، وفى انجلترا حيث كانت تحكم سلالة بلانتاجينه.

واخذت السلطة الملكية تحتاج اكثر فاكثر الى الوسائل المادية لاجل تطبيق سياستها المركزية بنجاح، الامر الذى كان يدفع الملوك الى سبيل الفتوحات. وغدا التوسع الاقليمى الواسع السمة المميزة لسياسة دول اوروبا الغربية. ومنذ اواسط القرن الثانى عشر صار البحر المتوسط اهم اتجاه فى هذا التوسع. ونحو سواحل افريقيا الشمالية، ونحو بيزنطية وممتلكات الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين فى سوريا ولبنان وفلسطين التى كان يتهددها خطر انتقام السلجوقيين،

---

جـوان [برجـوان] بالقـاهرة، واقـام عليـهم اجناد
حـراس يحـرسـون ابوابها ليلا ونهار ولا يمكنو من
يدخل اليـــهم ولا يخـــرج منهم، واطلق لهم من
القـوت ما يكفيـهم برهة فلما صـارو اهل القـاهرة
ومـصـر من شيعتهم يحملو اليهم شي من جراهم
[مـأكلهم] قطع ذالك عنهم. واما الاهل والاقـارب
وكلمـن انتـمى اليـهم من الرجـال فـانه جـمع منهم
مايتى رجل واكثر وجعلهم فى مـجلس المنافقين فى

---

صوب حكام اهم الملكيات الاوروبية انظارهم . وصار اخضاع هذه المناطق هدفا من الاهداف المركزية الملكية لسياستهم العدوانية.

ان اهتمام الملوك بقضية الحملات الصليبية انما مرده جزئيا، بالطبع، الى اعتبارات المكانة ، ولكنه نبع بصورة رئيسية من بواعث عادية تماما ذات طابع اقتصادى.

فان البحر المتوسط غدا طريقا رئيسيا للتجارة المنتعشة. و كان السعى الى فرض الرقابة على المناطق التى تضطلع فيه بدور جوهرى الى هذا الحد او ذاك السبب الذى حمل ملكيات اوروبا الغربية الى صفوف المشتركين النشطاء فى الحملات الصليبية. وقد كان لكل من لويس السابع وكونراد الثالث مصلحة مباشرة فى صيانة سيادة مواطنيهم فى سوريا ولبنان وفلسطين وحتى فى توسيع حدودها. وبفضل زواج لويس السابع من ايليونور، وريثة دوقية اكيتين (Eleonera d'Aquitaine) ضمت الى التاج الفرنسى مقاطعة شاسعة فى جنوب فرنسا؛ وكانت مدن الكيتين تشترك بنشاط فى تجارة المشرق. وبهذه التجارة كانت ترتبط كذلك، بواسطة ايطاليا الشمالية، المدن الالمانية فى ممتلكات آل شتاوفن. وهكذا بدأت تجارة البحر المتوسط تعود بمنافع محسوسة على السلطة الملكية سواء فى فرنسا ام فى المانيا.

وكانت الاوساط العليا من الكنيسة الكاثوليكية تعتبر بدورها من الجوهرى تأمين اشتراك

الايوان بالقصر وجعل فى ارجلهم قيود حديد يمنعهم من التصرف، ووكل بهم من الرجال من يحفظهم واطلق لهم من القوت مايكفيهم فلما صارو القاهرين والمصريين يدخلون لهم بالصدقات قطع ذلك [ايضا] عنهم، فصارو يعيشو من الصدقات. فسبحان الله العظيم يعز من يشآ ويذل من يشا. ومات كثير منهم فى قيوده على ماهو عليه ودفنوه به فسبحان الحى الذى لا يموت يضع

---

هذين الملكين في الحملة الصليبية. ان التنافس بينهما كان من شأنه، على الارجح، ان يقلل من حظ الحملة في النجاح، ولكن كان من شأنه ان يزيد احتمالات رفع مكانة البابوية كقوة سياسية اوروبية.

## الحملة الصليبية الثانية وتصادم مصالح الدول الاوروبية فى البحر المتوسط

القرار النهائى بصدد بداية الحملة وموعدها ـ ١٥ يونيو ١١٤٧، وكذلك القرار بخط سير الصليبيين، اتخذهما اجتماع الاعيان القرنسيين الذى انعقد فى ١٦ فبراير ١١٤٧ فى مدينة ايتامب (فرنسا). وقد حضر رسل المانيا هذا الاجتماع. اشرف على الاجتماع برنار من كليرفو، وانبأ الحاضرين بنجاحات المواعظ الصليبية فى اسبانيا وايطاليا وانجلترا. وفى ١٥ مارس ١١٤٧ عقد الريخستاغ الالمانى جلسة فى فرانكفورت وقرر موعد السير بالحملة فى اواسط مايو ١١٤٧.

ونحو الصيف كان قد تشكل فى فرنسا والمانيا جحفلان كبيران من الصليبيين. وكان كل منهما يضم حوالى ٧٠ الف فارس، التحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين الفقراء، بمن فيهم النساء والشيوخ والاولاد.

---

من يشآ ويرفع من يشآ. واما جوار الخدمة وعبيد الخدمة فباعهم مع بقية التركة.

وهذه نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ابن البيساني واسمه عبد الرحيم ابن علي الى امر دولة الغز في ذلك الزمان بوفاة الامام العاضد(*) وهو اخر خلفا الدولة الفاطميين بديار مصر وهو تمام اربعة عشر خليفة وفي ايامه زال ملكهم وملك

(*) خطاب بوفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين.

---

انطلق الصليبيون الفرنسيون من مدينة متز، وعلى رأسهم الملك لويس السابع، وقد أرسل البابا إليه نائبا عنه الكاردينال الشماس جويد والفلورنسي. و مع الملك لويس السابع راحت الملكة ايليونور داكيتين. وعلى رأس الجحفل الالماني الذى انطلق من نور نبرج وريغنسبورج، سار الملك كونراد الثالث؛ تحرك الالمان اولا، وبعد شهر سار الفرنسيون.

في البدء اجتاز الفرسان الالمان المجر بعد ان اعطى الملك غيزا الثاني موافقته الرسمية على مرور الصليبيين في بلده. ثم ساروا في ممتلكات الروم علما بان الصليبيين الالمان نهبوا السكان بلا رحمة ولا هوادة، رغم علاقات التحالف بين الامبراطورية الالمانية وبيزنطة.

قام التحالف بين الامبراطوريتين ـ الالمانية والبيزنطية ـ على اساس وحدة مصالحهما السياسية، وبصورة رئيسية بسبب التناقضات مع مملكة روجه الثاني النورمانية الصقلية. فقد ضم هذا الملك صقلية الى ايطاليا الجنوبية وواصل انتهاج سياسة الاقطاعيين النورمانيين الايطاليين القديمة المعادية لبيزنطة. وفي الوقت نفسه اقام شتى العقبات في وجه سلالة هوهنشتاوفن في محاولاتها لتوطيد سيادتها في ايطاليا. وان التناقضات مع مملكة صقلية في مضمار التوسع في البحر المتوسط هي التي ادت الى التقارب بين المانيا آل شتاوفن وبيزنطة. وفي سنة ١١٤٦، ترسخ التحالف بين الامبراطوريتين بزواج مانويل كومنينوس من سلفة (اخت زوجة) كونراد الثالث، الكونتيس برتازولسباخ.

صـلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ايوب الثـانى من ملوك دولة الاتراك:

كتـابنا هذا وارد عليك ايهـا الامـيـر الفـلانى، عندما كان من نزول قضا الله السابق، وقدره الذى انبا عنه الخبر الصادق، فيمن كان منتصباً بالقصر وموسـوما بالامر، وذالك لمرض اقتربت فـيـه ايامـه واشـتـدت فـيـه الامـه الى ان انقـضـت مـعـه عـزاه وانحلت معـه قـواه واتاه من امـر الله مـا اتاه وتلك

---

ومع ذلك عـانـت بيـزنطة من المزعـجات من حليفـتـهـا الالمانيـة. وقـد تضـررت تراقـيـا على الاخص من تهـور الفـرسـان الالمان، فـاضطر الامبـراطور مـانويل كـومنينوس حـتى الى تهـدئة الصليبيين بالسـلاح. كذلك انتقم السـكان المحليون انفسـهم على طريقـتـهم من النهـايين؛ فلم يكن من النادر ان يقتل البلغار واليونانيون المقاتلين الالمان السكارى حتى الغيبوبة والمتخلفين فى الطريق؛ ولذا حين و صل الفرسـان الفرنسيون الى هناك،كما يشهـد شاهد عيـان ، «كان كل شئ مسـمما بنتانة جثثهم (اى جثث الالمان ) غير المدفونة». وفي جوار فيليبوبول، حدثت اشتبـاكات ضارية بين القوات الالمانية والقوات البيزنطية. وعرض مانويل على كونراد الثالث توجيه القوات الصليبية بمعزل عن القسطنطينية، عبر هيليسبونت (الدردنيل) لاجل تجنيب العاصمة مآثم الفرسان وموبقاتهم، ولكن الحليف رفض هذا الاقتراح. وساق قواته في الطريق القديم الذى سبق ان سار عليه الصليبيون الاوائل.

احتفل الفرسـان الالمان بوصولهم الى القسطنطينية (١٠ سبتمبر ١١٤٧) باعمـال النهب والسلب، واجتياح القصر الامبراطورى الواقع غير بعيد عن العاصمة، وولائم العربدة والسكر. ويروى مدون الاخبار الفرنسى اودو من ديل ، الذى اشترك في حملة لويس السـابع الصليبيـة بوصفه كابيللانه، ان الالمان احرقوا بضعا من ضواحي المدينة. ولكن مانويل استطاع بالتملق والقوة ان يقنع حليفه الالمانى بعبور البوسفور الى السـاحل الآخر، الشرقي. ثم ان كونراد الثالث

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

سبيل عليها درج الاول والاخر وقضية استوى فيها
الضعيف والقادر، واوجبنا له من حفظ الذمام ورفع
المقام والوفا على اختلاف احكام الايام ان حضرنا
الى ابوابه ونقلنا انتقاله من اسرار الامر الى اعلانه
ليعلم ان الله قد استاثر بوفاته واثرنا بحسن العهد
بموافاته وبلغنا الغاية في الاجمال في امره والتوديع
له الى قبره، وطابت نفوس مخلفيه بقرارهم في
قصره وانكفينا الى مستقرنا والدهما ساكنه والدنيا

---

لم يكن يتحرق كذلك، من جانبه، الى اللقاء مع الصليبيين الفرنسيين ؛ فقد كان يخشى الانسياق في دوامة سياسة العداء للقسطنطينية.

وفي اواخر اكتوبر ١١٤٧، منى الصليبيون الالمان، غير المنضبطين وغير المنظمين، والذين لم يتحلوا لا بالاحتراس ولا ببعد النظر (فلم يأخذوا من احتياطي المأكولات الا لمدة ٨ ايام) بهزيمة نكراء في القتال ضد فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية في جوار ضوريليوم. وجاءت المجاعة والامراض التي قضت على افراد الجموع المسلحة الالمانية تستكمل هزيمة الصليبيين. وقد اضطر كونراد الثالث الى ان يطلب بمذلة ومهانة من لويس السابع الذى تلاقى معه في نيقية الاذن بضم هذه البقايا السالمة من جيشه الى الجموع المسلحة الفرنسية. ولم يقرر مواصلة الحملة الصليبية غير جماعة صغيرة من الصليبيين الالمان، بينهم كونراد الثالث وابن اخيه فريدريك، دوق شوابيا (فيما بعد، امبراطور المانيا فريدريك بربروسا). والباقون، ممن سلموا، عادوا الى الوطن بخزى وعار.

منذ بادئ بدء، تعقد الوضع الدولي الذى جرت فيه الحملة الصليبية الثانية. فقد انتهج روجه الثاني سياسة اغتصابية واسعة في منطقة البحرالمتوسط. واستأنف الهجوم على بيزنطة، مجددا تقاليد روبر غيسكار وبوهيموند دى تارنتو. وعندما سار الاستعداد للحملة الصليبية على قدم وساق في فرنسا، وصل رسل من صقلية الى بلاط لويس السابع؛ وقد حملوا معهم،

بنظرنا امنه وقلوب الاوليا موتلفة والنية عن العراه غير منحرفة ويجب على الامير ان يوعز الى الخاطب [الخطيب] في يوم الجمعة بالدعا لمن الكلمة فى الاقطار له مسموعة(*) والافاق على خلافته مجموعة الامام ابو محمد بنور الله امير المومنين مصرحا باسمه ولقبه وثبتا بما اطبق عليه المسلمين من منصبه وتوالى ذالك في كل جمعة وجماعة، ومن تعرض بيده او لسانه في امر

(*) الدعاء للخليفة العباسي في مصر بعد انقطاع دام طوال حكم الخلافة الفاطمية.

---

مقترحات مغرية لاجل الصليبيين ـ فقد تعهد روجه الثاني بتأمين المأكولات ووسائط النقل لهم، ومن جهة اخرى، حاولوا اقناع لويس السابع بان يختار الطريق الى الشرق عبر ابوليا وصقلية. فان روجه الثاني، «حامي المسيحية»، كما لقب نفسه رسميا، كان يريد سرا ان يجتذب الى جانبه الاعيان الفرنسيين وعلى رأسهم الملك، لاجل فتح القسطنطينية. الا ان جهود رسل صقلية لم تتكلل بالنجاح . فان الملك الفرنسي وباروناته فضلوا الانطلاق على نفس الطريق الذى انطلقت عليه القوات الالمانية، اذ ان الطريق عبر ممتلكات الامبراطور البيزنطي، حليف كونراد الثالث، كان يبدو لهم اكثر أمانة. ناهيك بانه كان معلوما ان روجه الثاني يطمع بامارة انطاكية، في حين ان سيد هذه الامارة، ريمون دى بواتيه، كان عم الملكة ايليونور وكان من اتباع الامبراطور البيزنطي. ولذا كان من شأن التقارب مع روجه الثاني ان يعقد علاقات فرنسا سواء مع الامبراطورية البيزنطية والعائلة الملكية في صقلية. ولذا قوبلت مقترحات ملك صقلية بالرفض.

واذ ذاك عمد روجه الثاني الى العمل على عهدته ومسؤليته. فعندما كان الصليبيون الالمان يتقدمون في اراضي بيزنطيا، شن ضدها عمليات عدائية. وفي صيف ١١٤٧، استولى اسطول صقلية على جزيرتي كورفو وسيفالونيا، وهدم كورنتس وثيبة ولربما أثينا، واجتاح الجزر الايونية. وتحالف «حامي المسيحية» مع مصر لكي يضمن لنفسه مؤخرة مأمونة. وكان الحاصل ظاهرة

الذاهب امس او القايم اليوم بما يحيف به حلفا
وبما يصدر عن هوا يشبهه حقا فليامر الامير باذنه
وليدم اليه نوسه واولى ما الزم الناس العافية فانها
اسبغ عطا واسبل غطا وفى تقلب الاحوال عبرة
لمن كان له قلب يسمع وهو شهيد، فليعلم الامير
ذالك ويعمل به انشآ الله تعالى. كتب فى العشر
الاول من المحرم سنة سبع وستين وخمسماية
للهجره. [١١٧١م]. وهذه السنة نهاية دولتهم

---

طريفة جدا : راح الفرسان الغربيون يشنون حربا مقدسة ضد الاسلام، فى ذات الوقت الذى تتفق فيه دولة من الدول المسيحية الكبيرة مع سلطان مسلم، لكي تستغل بصورة غير مباشرة الحملة الصليبية فى مصلحتها اى ضد بيزنطيا المسيحية. وهكذا تجلت بالفعل ، فى بادئ بدء هذا المشروع، الوحدة الموهومة بين مصالح المسيحيين الغربيين.

ان افعال روجه الثانى قد وضعت الصليبيين الفرنسيين، المتجهين الى القسطنطينية، والقائمين باعمال السلب والنهب فى اليونان، فى وضع مبهم جدا حيال بيزنطة. وقد تفاقم الارتياب فى بيزنطيا بصدد نوايا الصليبيين الحقيقية. فمن كان يعرف على ما اتفق رسل روجه الثانى ولويس السابع؟. وفي القسطنطينية كانوا لا يزالون يتذكرون كيف حاول بوهيموند منذ ٤٠ سنة ان ينظم حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية. ولكن مانويل كومنينوس حاول ان يتظاهر بالرضى. وقد وعد رسله الذين مضوا الى لويس السابع بانه سيسمح للصليبيين بشراء احتياطيات المأكولات بحرية فى اراضى الامبراطورية. وكانت رسائله الى الملك الفرنسى مكتوبة بلهجة حسن النية وحتى بلهجة الصداقة. ولكن الحكومة البيزنطية اتخذت تدابيرها. ويروى اودو دى ديل ان الفرنسيين واجهوا المصاعب عند شراء المأكولات؛ فان اليونانيين «لم يسمحوا لهم بدخول مدنهم وبلداتهم، وما كانوا يبيعونه كانوا ينزلونه بالحبال على الاسوار». وقد مضى

وهى تمام مايتى سنه وسنه واحده، وملكلو قبل هذه السنة بالمغرب منهم ثلثة: المهدى ، والقايم، والمنصور اربعة وسبعين سنة. فجميع دولتهم لاربعة عشر خليفة مايتى وخمسة وسبعين سنة. وقد نقش المعـز تاريخ اول ملكهم فى بلاطـه وبناها فى قنطرة باب القنطرة اسفل فمن اراد قراتها فيقرا هناك والسلام.

---

الفرنسيون الى العاصمة البيزنطية كأنما فى الصحراء، «رغم انهم دخلوا ارضا غنية للغاية، مليئة بالوفرة تمتد حتى القسطنطينية بالذات».

ردا على هجوم رئيس القراصنة النورمانيين الصقليين روجه الثانى، حشدت بيزنطة قواتها. وفى الغرب تحالفت مع البندقية مانحة اياها امتيازات تجارية جديدة؛ فالى عداد المناطق التى كان لتجار البندقية الحق فى المتاجرة فيها بدون دفع رسوم جمركية، اضيفت كريت وقبرص. كذلك عمد الامبراطور مانويل كومنينوس، الحليف «الامين» للصليبيين بقدر ماهم حلفاء «امناء» للامبراطورية البيزنطية، سعيا منه لاطلاق يديه فى الشرق، الى عقد الصلح مع سلطنة قونية التى بدأت الفرسان الالمان النضال معها والتى كان عليها مستقبلا ان تقتل الصليبيين الفرنسيين.

وهكذا رأى الصليبيون انفسهم بين نارين. فمن جهة ، سدد اليهم ضربة فى الظهر ملك صقلية الذى يعتنق مثلهم الدين نفسه؛ فهو لم يوقع اتفاقية مع مصر وحسب، بل هاجم بيزنطية كذلك، الامر الذى كان أشد وقعا عليهم، اذ انه اثار فى بيرنطية عميق الحذر والريبة حيال الفرسان الصليبيين وقادتهم. بل أن روجه الثانى استطاع بمختلف الحيل الديلوماسية ان يقنع الحكومة البيزنطية بان لويس السابع يتعاطف مع سياسته. ومن جهة اخرى، تعرضت

ولما كان في شهر ربيع الاخر سنة ثلاثة وسبعين وخمس ماية خرج امر الملك الناصر صلاح الدين بابطال جميع المكوس من الديار المصرية، صعيدها وبحريها شرقيها وغربيها وبرها وبحرها، عن كلمن فيها من المسلمين والنصارى والغني والفقير والقوى والضعيف والامير والمامور، وامر ان يستادى الزكاة على الوجه الشرعى المامور به من الله عز وجل، فصارو الاجناد المقطعين يقوو على سكان

---

خطط الصليبيين للخطر لأن بيزنطيا نفسها عقدت الصلح مع السلجوقيين. وكان هذا يعنى ان «الحجاج» لن يتمكنوا من دعم بيزنطية في الحرب ضد سلطنة قونية.

فى هذا الوضع، اخذت اهمية الدوافع الدينية عند الصليبيين تقل اكثر فاكثر بينما اخذت الاعتبارات السياسية تشغل المرتبة الاولى. وعندما اقتربت القوات الفرنسية في سبتمبر ١١٤٧ من القسطنطينية، اغلق الامبراطور امام الفرسان ابواب المدينة، «لأن الفرنسيين، - كما يعترف اودو دى ديل - احرقوا لهم (اى للروم) الكثير من البيوت ومزارع الزيتون. تعالت بين الصليبيين اصوات تدعو الى الاستيلاء على عاصمة امبراطورية الروم (اى بيزنطة) والى القضاء بالتالي على هذه العقبة في الطريق الى بلوغ الهدف من الحملة.

وفى محيط الملك لويس السابع، كما يفيد مدون الاخبار المذكور، اخذوا يعربون اكثر فاكثر عن الفكرة القائلة انه ينبغى الاتصال بروجه الثانى الذى يخوض الحرب ضد بيزنطية، وانتظار وصول اسطول صقلية، وفتح القسطنطينية مع النورمانيين. وهذا المشروع طرحه ودافع عنه بالحاح كبير الاسقف جودفروا دى لانجر. وقد لفت انتباه الفرسان الى ان تحصينات العاصمة البيزنطية متداعية، وان قوات الروم للدفاع عن المدينة قليلة؛ فاذا حاصر الصليبيون القسطنطينية، فانها سرعان ما تسقط فى ايديهم. ان هذا الاسقف التقى الورع لم يأبه البتة لكون بيزنطيا دولة مسيحية. أن اسقف لانجر، رجل «الاخلاق المقدسة» و«البالغ الحكمة»،

بلادهم وياخذو منهم المكوس، فبلغ ذالك الملك الناصر صلاح الدين وهو بالشام في الغزاه، وكان اخوه الملك العادل ابو بكر نايبا عنه، فكتب له كتابا بخطه هذه نسخته:

المجلس العالي الملكي العادلي اعز الله نصره. يعلم انه لم يقطع احد من المقطعين ناحية من النواحي انه يستادى فيها مكسا ولا يستبيح للرعية مالا ولا يضيق فيها على مستور مشاعا [معاشا]

---

كما يقول مدون الاخبار، قد تفنن الى اقصى حد في اختلاق الادلة على ان فتح العاصمة البيزنطية لن يلحق اى ضرر بقضية الصليبيين وان فتح القسطنطينية ليس الا في الظاهر عملا يناقض المسيحية، ولكنه لا يناقضها البتة في الواقع: ذلك ان الامبراطور البيزنطي دعم المسلمين غير مرة وحارب الصليبيين المستقرين في سوريا محاولا ان يحتل امارة انطاكية. وهاهو الآن قد تواطأ مع عدو الصليبيين، سلطان قونية!

صحيح ان جودفروا دى لانجر وجد عددا لا يستهان به من الانصار، الا ان البارونات القادة الفرنسيين صدوا خطط الكتلة المعادية لبيزنطيا؛ فقد كانت مفرطة في المجازفة...

اشاع الامبراطور مانويل كومنينوس ان الصليبيين الالمان احرزوا نصرا كبيرا في آسيا الصغرى وحتى استولوا على عاصمة سلطنة قونية، وبذلك حمل الصليبيين الفرنسيين الذين اهاجهم الحسد على الاسراع في عبور البوسفور مع ملكهم. وفي الحال طلب من رؤسائهم حلف يمين التبعية الاقطاعية والوعد بتسليم بيزنطة المناطق التي تخصها ما ان يستولي عليها الصليبيون. وهذا المطلب عزز، اكثر من ذى قبل، التوتر في العلاقات بين بيزنطية والفرسان الفرنسيين. ثم ان الكونت روبر البرشي انفصل عن الباقين دون ان ينسق اعماله معهم واندفع نحو نيقوميديا في الحال. ورغم ان البارونات اقسموا، باغلبيتهم، يمين التبعية للامبراطور

فليكشف جميع بلاد المقطعين ويحط [يحظر] عنها جميع المظالم والمكوس فانها غير داخلة فى اقطاع المقطعين ومن رضى باقطاعه بعد وضع مكوسها والا فليرتجع عنه ان شاء الله تعالى.

وفى المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسماية [٨٩٨ قبطية = ١١٨٢م] جمع صلاح الدين العسكر ومضى الى دمشق(*) بعد موت نور الدين محمد ابن قسيم الدولة، ففتحها وتسلمها بالامان وملكها

(*) غزوات صلاح الدين فى بلاد الشام ضد الصليبيين.

---

مانويل، الا انه لم يقدم لاحقا اية مساندة فعلية للصليبيين، بل حاول على العكس ان يعرقلهم، لان نجاحاتهم كانت تهدد بانتهاك السلام مع السلجوقيين.

فى اوائل نوفمبر ١١٤٧ التقى الصليبيون الفرنسيون فى نيقية ببقايا الجموع المسلحة الالمانية الحقيرة التى كانت برئاسة فريدريك دى شوابيا ثم مع الفصائل الباقية القليلة التابعة لكونراد الثالث (وقد جرح هو نفسه فى القتال ضد السلاجقة الاتراك). وسارت القوات الصليبية الالمانية والفرنسية الى الامام، ولكن لا نحو اعماق البلاد، بل بسبيل غير مباشر - فى ا لمقاطات الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى. ان الخوف هو الذى اجبر الصليبيين على اختيار هذا السبيل؛ فقد تخوفوا من التعرض للمصير الفاجع الذى حل بالقوات الالمانية التى هزمها السلجوقيون. صحيح ان الطريق كانت تمر فى المدن البيزنطية (ازمير، برغام، افسس) ولكن عبور الجبال العالية والسهول العاصفة رافقته خسائر كبيرة.

## فشل المغامرة الصليبية

فى اوائل سنة ١١٤٨، تحركت الجموع الفرنسية التى انهكتها المسيرة من لاودقية (اللاذقية) على الدروب الصخرية الى ابعد باتجاه الجنوب. وكانت المسيرة صعبة. ويروى اودو دى ديل ان فصائل الفرسان السلجوقيين «كانت تتخفى بمهارة وخفة، مثيرة قلقنا». وكان الادلة الروم يدلون الصليبيين قصدا وعمدا الى دروب كان فيها خطر التعرض لهجوم

وجميع قراها واعمالها، وتوجه الى حلب حاصرها فلم يقدر ياخذها فى تلك الايام، ففتح حمص وبعلبك، ثم عدى نهر الفرات ففتح سنجار ومنبيج وحران ونصيبين ومدن كثير فى ارض الموصل، ونزل على مدينة الموصل وحاصرها واقام عليها خمسة شهور، ثم تركها ومضى الى امد وميافارقين وفتحها ودفعها لرسلان ابن قليج، وعاد منها عدى الفراة [الفرات] رجع الى حلب فنزل

---

القواسين السلجوقيين على اشده. وفى يناير ١١٤٨ منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة.

وانهك السلجوقيون بغاراتهم المتواصلة الصليبيين الذين خسروا عددا من الارواح وفقدوا احتياطيات المآكل والاعلاف، اذ انتزع العدو منهم العربات. واضطروا الى ترك مواشى الجر لأنه لم يكن لديهم ما يعلفونها به. وكابد الفلاحون الفقراء المرافقون للحملة وضعا فى منتهى المشقة واضطروا الى تحمل افدح البلايا اثناء هذه المسيرة.

فى ١٩ مارس ١١٤٨، وصلت قوات الصليبيين الفرنسيين الى انطاكية بعد ان نقصت الى النصف. وبعد فترة وجيزة، وصل بحرا من القسطنطينية الى عكا فصيل صغير من الاقطاعيين الالمان بقيادة كونراد الثالث؛ ومن عكا انطلق الصليبيون الى القدس. استثارت اعمال كونراد الثالث الحذر والارتياب فى نفس لويس السابع؛ ولهذا السبب بالذات لم يقم هذا الاخير باية محاولة، رغم وصول مدد فى شخص الفرسان البروفانسيين برئاسة الكونت الفرنسى - جوردان، لكى يستعيد من السلجوقيين المناطق التى استولوا عليها بين انطاكية واعالى الفرات. مضى هو ايضا الى القدس بحجة الايفاء بالنذر الدينى الذى اعطاه.

فى ٢٤ يونيو ١١٤٧، تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث مع وصية العرش ميليساندا واعيان القدس. وعن هذا اللقاء تغيب - لاسباب مختلفة - كبار قيادات الصليبيين فى سوريا

عليها وحاصرها، فقتل عليها تاج الملوك اخوه، ووقع الصلح بينه وبين صاحب حلب، فدفع له المدن الذى يفتحها فى ارض الموصل وسنجار وحران ومنبيج ونصيبين واعمالهم كلها، وسلم حلب للسلطان، فتسلمها ولم يفرح بها منجل [من اجل] موت اخوه تاج الملوك عليها. ودخل قلعتها ليلا وملكها واعمالها وجميع قراها فى سنة تسع وسبعين وخمس ماية . ولما فتح حلب عاد

---

الشمالية ـ ريمون من انطاكية، ريمون من طرابلس، جوسلين من الرها. تناول البحث خططا مختلفة للعمليات الحربية. واخيرا تخلى قادة الصليبيين عن اقرب اهدافهم وهو استعادة الرها، ـ ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا، مع القوات التى تشكلت فى مملكة القدس، يحاصرون مدينة دمشق المحصنة تحصينا منيعا، لأن فتحها كان يبشر بغنيمة وافرة! دام الحصار خمسة ايام (٢٣ ـ ٢٧ يوليو) ولكن عبثا.

ويروى المؤرخان الشرقيان ابو الفرج الاصبهانى وميخايل السريانى أنه أرسلت من المدينة الى معسكر المحاصرين، الى ملك القدس بودوان الثالث، بعثة سرية. وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخص فيما يلى: على بودوان ان لا يأمل فى البقاء فى القدس اذا «ثبت كونراد العظيم (كونراد الثالث) قدميه فى دمشق». وعرض المبعوثون على الملك ٢٠٠ ألف دينار، وعلى بارون طبرية ١٠٠ الف دينار لكى يقنعا الملك الالمانى بالانسحاب. وفى اواخر يوليو ١١٤٨ تخلى فرسان الصليب عن مشروعهم ، دون ان يحصلوا على شئ، بناء على اصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقى معين الدين بالذهب (الذى كان مزيفا، كما اتضح فيما بعد) . وقد اضطروا الى ذلك، خصوصا وان معين الدين قد دعا ، من جهته، قوات الموصل الى نجدته. ومن الشمال اخذت تقترب من المدينة المحاصرة قوات سيف الدين الموصلى واخيه نور الدين من حلب. وبما ان الصليبيين كانوا قد خسروا عددا كبيرا من

الى دمشق فاستراح مدة يسيرة وخرج للغزاة ونزل على [حصن] الكرك وحاصره مده فلم يقدر عليه، فعاد الى دمشق واقام بها، ثم عاد الى الكرك في سنة ثمانين وخمس ماية [٩٠٠ قبطية = ١١٨٤م] وحاصره مدة ايضا فلم يقدر عليه، فرجع الى دمشق، وفي رجوعه [نزل] على نابلس فهدمها واخذ منها مال وسبى، ثم عاد الى مصر في احدى وثمانين وخمس ماية هلالية [١١٨٤م]

---

ناس، فقد تراجعوا الى حدود مملكة القدس . وبما ان كونراد الثالث قد اقتنع بان الوضع بؤوس منه، فقد عاد الى المانيا مع اتباعه القلائل فى ربيع ١١٤٩ عبر القسطنطينية وسلانيك وبعد بضعة اشهر عاد لويس السابع الى بلاده.

لم تعط الحملة الصليبية الثانية اية نتائج عملية. فان هذه المغامرة التى كانت سيئة التظيم لتى جرت بصورة أسوأ لم تسفر الا عن ضحايا بشرية وخسائر مادية جديدة، اكبر من ذى ل. والاموال الطائلة التى جمعت بالضغط الفائق القساوة على الجماهير الشعبية انفقت عبثا. لذلك تسببت الحملة بضرر سياسى مباشر للسلطة المركزية، سواء فى فرنسا ام فى المانيا. جتاحت فرنسا موجة من الحروب الاهلية الاقطاعية، واستدان لويس السابع الاموال، ولاسيما ، الهيكليين الذين اخذ منهم مبلغا كبيرا لتلبية الحملة، ولحق ضرر لا يستهان به بمواقع سلطاة الملكية فى المانيا، فوق ماهى عليه من تزعزع.

وقد قدمت الحملة الصليبية الثانية، مثلها مثل الاولى، البرهان الجلى على غياب الوحدة ، الغزاة الاقطاعيين الغربيين. واخذت الاعتبارات الدينية، كما بينت ذلك ببالغ الوضوح ساريع احتلال القسطنطينية، تفقد اهميتها اكثر فاكثر. وقد تذمر مدونو الاخبار فى القرن

. وعـمل مع الرعـيـة بديار مصـر الخـيـر مـا يعـجـز
الواصف عن وصفه، واعدل عليهم واحسن اليهم
وازال مظالم كثيرة، وامر بابطال ضمان الملاهي
في جميع ديار مصر، وانكر كل منكر واقام الحدود
الشرعية. وكان يجلس للعدل يومين في كل جمعة
وهما يوم الاثنين ويوم الخميس وصدور [صدر]
الدين قاضي القضاه جالس بين يديه، ويدخل الى
داره ويحضر بين يديه جميع الناس فينصف

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

الثاني عشر من ضعف الحماسة الدينية ابان الحملة الصليبية الثانية. ولم تحمل هذه الحملة اكاليل الغار الى الكنيسة الكاثوليكية. ثم ان التناقضات التي تفاقمت بين دول اوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية في منطقة البحر المتوسط، اخذت تعارض هذه الدول بعضها ببعض. وفي الوقت نفسه اشتدت المصادمات مع بيزنطة. وابان الحملة الصليبية الثانية تحطمت المشاريع الكونية الكلية التي واصلت البابوية حبكها لاجل بسط سيطرتها على العالم كله، اذ اصطدمت بتعاظم ميول التفرقة والتقسيم والتفتيت. كذلك اسهم بقسط كبير في فشل الحملة انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الجموع الصليبية، وخلافاتهم مع بارونات سوريا وفلسطين.

وعندما قام برنار دى كليرفو في سنة ١١٥٠ بمحاولة اخرى لتنظيم حملة صليبية، لم يلق التأييد حتى من البابا، رغم ان بعض البارونات الفرنسيين وبعض كبار رجال الكنيسة (ولاسيما بطرس المكرم ـ Pierre le Vénérable رئيس ومصلح دير كلوني) اقترحوا ان يترأس برنار نفسه الحرب المقدسة الجديدة. وبموجب مجمع شارتر مايو ١١٥٠)، صادق البابا اوجينيوس الثالث ببولا (مرسوم) بتاريخ ١٩ يونيو على تعين برنار، رئيس ومصلح ديركليرفو، قائدا للصليبيين. ولكن لم يذهب الامر الى ابعد من الاحاديث.

المظلوم من الظالم. ويكون في مجلسه جماعة من الفقها واكابر دولته للنظر فى الحكومات بين الناس والعمل بما توجبه احكام الشريعه الحق والعدل.

ولما اقام بمصر سنة كاملة عاد الى دمشق في سنة اثنين وثمانين وخمس ماية واقام بها ايضا سنة كاملة، وجمع العسكر وخرج من دمشق فى سنة ثلاثة وثمانين وخمس ماية هلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] يريد الغـزو والنزول على الكرك، وقـد

---

اخفقت الحملة الصليبية على الشرق اخفاقا تاما؛ وبعد وفاة برنار، دفنت لزمن طويل شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع.

كان النجاح فى الريكونكيستو فى شبه جزيرة ايبيرية النجاح الوحيد وغير المباشر الذى احرزه رجال حملة سنة ١١٤٧. فان قسما من الصليبيين الذين ابحروا فى مايو ١١٤٧ على السفن من مرفأ دار تموث الانجليزى ـ وكانوا من الفلمنكيين والفريسلانديين والانجليز والاسكتلنديين ـ قد استرجعوا لشبونة من العرب. وتوقف الصليبيون فى بورتو، واستجابوا لنداء اسقف بورتو بتقديم العون للملك البرتغال، الفونس، الذى كان يحاصر ليشبونة منذ ثلاثة اشهر. وبما ان الصليبين قد نالوا موافقته على نهب المدينة فى حال فتحها، فقد قرروا ان يتوقفوا برهة. وفى ٢٦ سبتمبر ١١٤٧ استولوا على لشبونة وغنموا فيها بالفعل غنيمة وفيرة. ومـذ ذاك، صارت هذه المدينة التى ظلت اكثر من ٤٠٠ سنة تحت حكم العرب، جزءا من المملكة البرتغالية.

## المرحلة الجديدة فى هجوم السلجوقيين المضاد.

## صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس

اخفقت الحملة الصليبية ١١٤٧ ـ ١١٤٨. وفى غضون ذلك، كانت ميول التلاحم والتوطد تتعاظم وتشتد فى الشرق الاسلامى رغم التناقضات. وفى السبعينيات من القرن الثانى

كـانو الافـرنج في تلك السنة ملكو عليـهـا رجل
غريب جا [جاء] من خلف البحر وكان قد تزوج
بالكندوسه [الكونتيسه] ابنة الملك مرى، فسلمت
له الملك، لان الملك كـان لها بعد ابوها فدفعته
لزوجها، فلم يوافق ذالك قومص طرابلس، وحمله
الغيض [الغيظ] والشيطان الى ان راسل صلاح
الدين وصادقه ووافقه على الفرنج، وحلف له انه لا
يحاربه ولا يضـرب في وجـهـه بسـيف. وكـانة

---

عشر، تشكلت هناك دولة كبيرة جمعت قسما كبيرا من آسيا الغربية. وقد لعب دورا بارزا فى تأسيسها القائد العسكرى يوسف صلاح الدين (١١٣٨ ـ ١١٩٣). كان صلاح الدين كردى الاصل.وقد سبق له ان ترقى وبرز عندما كان والده ايوب وعمه اسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة فى بلاط عماد الدين زنكى. كان ايوب فى البدء عامل بعلبك، ثم انتقل الى خدمة اتابك دمشق وساعد كثيرا شيركوه فى احتلال دمشق فى سنة ١١٥٤ بتكليف من نور الدين زنكى.

كان الشاب صلاح الدين من افراد حاشية شيركوه؛ وبعد فترة وجيزة اظهركفاءات عسكرية ممتازة. ففى اواخر الستينيات تميز صلاح الدين، كآمر عسكرى، فى حروب شيركوه ضد مصر الفاطميين وضد الافرنج الذين حاولوا فى عهد الملك آمورى الاول ان يستولوا على مصر. وفى سنة ١١٦٩ صار شيركوه وزيرا فى مصر، ولكنه توفى فى السنة ذاتها. وكان صلاح الدين ابن اخيه، قد صار بالفعل الشخصية الاولى فى بلاط الخليفة الضعيف العادل. وعندما توفى العادل فى سنة ١١٧١، استولى صلاح الدين على زمام السلطة العليا مباشرة. وقد قضى الوزير الجديد على انصار الخليفة الاخير، ونظم الشؤون المالية، واعاد تنظيم القوات المسلحة، ومذ ذاك صار المقاتلون من الاكراد والسلجوقيين (الذين حلوا محل السودانيين والبربر والارمن) عماده. وفى سنة ١١٧٥ منح خليفة بغداد صلاح الدين لقب السلطان.

[كـانت] طبـرية للقـومص فـارسل لصـلاح الـدين يقول له: انزل على طبريه هى لى وانا ادفعها لك تقـوى بهـا وتضـعف قلوب الافـرنج. فـجـا السـلطان ونزل قريب من طبرية فـسلمهـا له القـومص. فلما سـمع ملك الافـرنج الذى ملكوه بعـد مـرى، وكـان اسـمـه الكنـد جـفـرى [الكونت جـودفـرى] حـشـد عوام البلاد مع عسكر الساحل وجا اليه فى عسكر كـبـيـر فـسـبـقـه صـلاح الدين الى المـا [الماء] ونزل

---

فى حقبة قصيرة، وحد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من سوريا وبلاد ما بين النهرين؛ ففى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن؛ وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب، وفى سنة ١١٨٦، اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذى صار اقوى حاكم فى العالم الاسلامى. ومن حيث الجوهر، وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين. وقد وجه صلاح الدين، الذى اسس سلالة الايوبيين، جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج، وبما انه استهدف فى المقام الاول القضاء على مملكة القدس، فقد تعهد بشن الجهاد على اعداء الاسلام.

فى البدء كانت رحى النضال ضدهم تحتدم حسب الصدف، بين الفينة والفينة. فعندما كان صلاح الدين وزيرا، شن فى ديسمبر ١١٧٠، غارة على غزة، الحصن الواقع على حدود مملكة القدس. وبعد ذاك، استولى المصريون على ايلة، المرفأ الواقع فى خليج العقبة على ساحل البحر الاحمر. وفى سنة ١١٧٩، انزل فاروق الشاه، القائد العسكرى العامل فى خدمة صلاح الدين، خسارة جسيمة بقوات ملك القدس بودوان الرابع فى معركة بلفور. وبلغت بعض فصائل المسلمين صيدا وبيروت. وفى سنة ١١٨٠ انتزع اسطول السلطان صلاح الدين الذى اقلع من الاسكندرية، جزيرة ارواد من الصليبيين.

واخذت الغيوم تتلبد اكثر فوق مملكة القدس. ودخل الانتقام الاسلامى المرحلة الحاسمة.

عليه، فساق سوق كثير يطلب بسبق صلاح الدين
الى الما فوجده قد سبقه ونزل عليه، فطلع هو ومن
معه من الفرسان الى كوم عالي هناك يسمى كوم
حيطين [حطين] فنزلو عليه وهم قد هلكو من
العطش حتى صارو يشربو الخمر عوضا من الما،
والتقو مع السلطان وقتل بينهم خلق كثير
واكسرو عسكر المسلمين اول النهار ثم قوى
صلاح الدين اخر النهار. و اما قومص طرابلس،

---

ادرك البارونات الصليبيون ما يمكن ان تؤدى اليه حملة صلاح الدين لاحقا. ففى سنة ١١٨٣ قررت الكورية الملكية في القدس فرض ضريبة استثنائية عامة؛ وكان ينبغي انفاق الاموال المحصلة جميعها تقريبا على تعزيز الدفاع ضد «الكفار» الذين اشتد نشاطهم. كان مقدار الضريبة يتوقف على حجم الاموال، وكان الجميع ملزمين بدفعها بصرف النظر عن الجنس والانتماء الديني والاثني. وقد عهد الى الاسياد بتحصيل النقود من ا قنانهم. وفى ١١٨٤ ـ ١١٨٥ مضى بطريرك القدس والاستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين الى اوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد؛ لقد سافروا لطلب المعونة ضد «الكفار».

بدأ ضغط المصريين المنتظم والدائب على ممتلكات الافرنج منذ النصف الثانى من الثمانينيات في القرن الثانى عشر. ان غياب التلاحم بين الاقطاعيين الصليبيين المستغرقين كليا فى الهموم الدنيوية، وفى الخاصمات بسبب الاراضى والالقاب، وفى الحيل والمؤامرات الديبلوماسية، قد اتاح لصلاح الدين فى سنة ١١٨٧ ان يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس.

كانت الغارة اللصوصية التى شنها احد بارونات الافرنج البارزين، رينو دى شاتيون (De Châtillon) الذريعة المباشرة لاجل هجوم صلاح الدين. فان رينو هذا كان مغامرا وقحا، كسب شهرة مخزية «بمآثره» اللصوصية. وقد سبق له ان اجتاح قبرص البيزنطية فى سنة

الردى المنافق الذى باع قومه كما باع يودسي ربه، فكان يتبعه اربع مايت [مائة] فارس، فحمل بها كانة يقاتل فاوسعو له المسلمين الطريق فجاز بهم في وسط عسكر المسلمين، وتم على حاله لم يرجع يرد وجهه وسار على فوره منهزما الى صور فدخلها واستقر بها . فلما علمو الفرنج ذالك ظنو انه انكسر الى ان انكشف لهم خبثه وفساد نيته، فلم يزالو يقاتلو حتى نصر الله صلاح الدين عليهم

---

١١٥٥ واعمل فيها النهب والسلب. ثم تزوج هذا السيد زواج مصلحة من وريثة امارة انطاكية، واكتسب بهذه الطريقة بعضا من الممتلكات على نهر العاصي. واخيرا وقع ذات مرة في اسر نور الدين وامضى فى الاسر ١٦ سنة . وبعد اخلاء سبيله، لم تخف البتة ميوله الى المغامرة، فاستقر فى حصن الكرك، شرقي البحر الميت، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار المارة في الجوار، لأن الحصن كان يقطع الطريق من سوريا الى مصر والى الحجاز. وفى اواخر سنة ١١٨٦ ولربما في اوائل سنة ١١٨٧ ، شن رينو دى شاتيون، خلافا لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس (وقد سبق ان عقدت الهدنة فى سنة ١١٨٠) غارة على قافلة متجهة من القاهرة الى دمشق بتجارة كبيرة. ونهب كليا القافلة التى كانت فيها اخت صلاح الدين. واذا السلطان صلاح الدين، الذى اصيب بنكبة مزدوجة، يطالب فى الحال ملك القدس آنذاك جى دى لوزينيان (١١٨٦ ـ ١١٩٠) بالتعويض عن الضرر والافراج عن الاسرى ومعاقبة الناهب. ولكن الملك لم يجازف بمس واذلال تابعه القوى. فاستغل صلاح الدين رفض مطالبه وشن عمليات جبهوية حاسمة ضد «اعداء الله». فى البدء اجتاحت قواته فى الربيع الباكر من سنة ١١٨٧ مناطق قلعتى الكرك وكراك دى مونريال؛ وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الافرنج. واحتشدت قوات المسلمين الموحدة ـ من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين ـ فى رأس الماء وباشرت العمليات الحربية.

فكسرهم واسر من اسر وقتل من قتل، وقد تهلل اهل الخير لما يعلمه الله فى ذالك من صلاحهم، ولما ظفر بهم صلاح الدين وحل فى جملتهم الابرنس [البرنس] ارناط [رينو دى شاتيون] صاحب الكرك فاحضره بين يديه وخاطبه بكلام غليظ، ومسكوه له الاعوان وقربوه منه فذبحه بيده وغسل يديه بدمه. ثم ظفر بالكند جفرى [بالكونت جودفرى] ملك الافرنج بالشكل الذى قدمنا ذكره واحضروه بين يديه، وكان حاضر ذبح

---

انقضت الضربات المؤلمة على مملكة القدس الواحدة تلو الاخرى. وفي مايو ١١٨٧ ابيدت الى الشمال الشرقى من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة اساسا من الفرسان الرهبان؛ وقد لقى الاستاذ الاكبر لجمعيات الاوسبيتاليين روجه دى مولان مصرعه. وفي الثانى من يوليو استولى جيش صلاح الدين على طبرية ثم ضرب طوقا مكثفا حول قوات كبيرة من الصليبيين قرب قرية حطين، بين الناصرة وبحيرة طبرية.

فى القتال الدامى الذى دارت رحاه فى ٤ يوليو ١١٨٧ فى حطين، انتصر المسلمون. وقد جرت المعركة فى وضع غير ملائم للصليبين، فى قيظ رهيب. وكان ينقص ماء الشرب. وفى كل مكان احرق المسلمون الاعشاب والشجيرات، واذا الفرسان الصليبيون الذين انتظموا على المرتفع فى ثلاثة طوابير قتالية تلفهم سحب الدخان المتصاعد الى اعلى... دامت المعركة نحو ٧ ساعات على التوالى. وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة فى ساحة الوغى. ووقع فى اسر صلاح الدين الملك جى دى لوزينيان، والاستاذ الاكبر لجمعية الهيكليين جيرار دى ريدفور، وقائد الجيش الفرنسى اموری دى لوزينيان، وكثيرون من البارونات ـ غليوم دى مونفيرات، وغيره. ولم ينج سوى بضع مئات من الاشخاص فروا الى صور واحتموا وراء اسوارها.

الابرنس ارناط [صاحب] الكرك فلما راه متخبط يخور في دمه خاف واصفر لونه، فقال له صلاح الدين: لا تخاف ياملك فما تموت اليوم بل تحيا ولو بقى لقومك بقية كنت املكك عليهم واساعدك بمالي ورجالي طول ايام حياتك، وانا احدثك حديث الابرنس [ارناط] وسبب ما فعلته به، وذالك ان طريق التجار واكثر المسافرين على الكرك فكان يمسك القوافل بظلم وعنف، وكان

---

حفظ السلطان صلاح الدين حياة اغلبية الاسرى بمن فيهم الملك والاستاذ الاكبر (بأمل فدية كبيرة)، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين اعدموا بامر منه. اما البارون المتغطرس رينو دى شاتيون، فقد قطع صلاح الدين بسيفه رأسه.

كان انتصار حطين مقدمة للنجاحات التى احرزها المسلمون فيما بعد. فسرعان ما احتل صلاح الدين المدن الساحلية كلها تقريبا جنوبى طرابلس: عكا، بيروت، صيد، يافا، قيسارية، عسقلان. وقطع اتصالات القدس مع اوروبا. كذلك استولى المسلمون على اهم قلاع الصليبيين جنوبى طبرية، ماعدا الكرك وكراك دى مونريال. وفى النصف الثانى من سبتمبر ١١٨٧ حاصرت قوات السلطان صلاح الدين القدس. ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة ان تحميها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ آلف رجل. وحين رأى السكان عقم مواصلة المقاومة، قرروا بعد ستة ايام من النضال ان يستسلموا لرحمة الظافر. وفى الثانى من اكتوبر ١١٨٧ فتحت الابواب، واحتل المسلمون المدين. وفوقها اخذت تخفق راية السلطان الصفراء باعتزاز.

## الحملة الصليبية الثالثة

ان نبأ سقوط مملكة القدس الذى وصل إلى اوروبا الغربية كان بمثابة صاعقة فى سماء

نور الدين وغيره من ملوك المسلمين يرغبون في الصلح معه ليخفف ضرره عن المسلمين، فدفعة يفعل والف دفعة لا يفعل، فلما كان في ايامي ارسلت اليه وهاديته وحملت اليه مال ومتاع وخلع وحلف لرسولي انه لا يأذى احد من المسلمين ويحسن للتجار ويطيب لهم الطريق ولا يمكن احدا من اصحابه من مضرة مسلم ولا تاجر ولا عابر طريق وبعد ان حلف بثلث ايام عبرت قافلة

---

صافية. فان البابا اوربان الثامن، ما ان عرف بما حدث، حتى توفى من وقع الصدمة. ودعا خليفته، البابا غريغوريوس الثامن، بمنشور بابوى بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١١٨٧ وزعه من فيرارا، الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة، وا مرهم بالصيام كل اسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات كما امرهم بالامتناع كليا في هذه الحقبة من الزمن عن اكل اللحم مرتين في الاسبوع. والدعوة الى الحرب الصليبية ـ وقد قام بها ببالغ الهمة ا لكاردينال انريكو مـن البانو ـ تلقفها البابا التالي كليمنت الثالث، الذى حل بعد شهرين محل البابا جريجوريوس الثامن.

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٢. واشترك فيها بوجه الحصر تقريبا الاقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان اوروبا الغربية. ونحو اواخر القرن الثانى عشر صار الفرسان القوة الجماهيرية الاساسية في الحركة الصليبية. كذلك اضطلعت بدور فعال ونشيط في الحملة الصليبية الثالثة الدول الاقطاعية التى كانت مصالحها التجارية في الشرق قد اكتسبت مكانا مهما في سياستها.

اخذت الاهداف الدينية من الحملات الصليبية تتراجع اكثر فاكثر الى المؤخرة. وعلى العكس اخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز اكثر فاكثر من خلال الغلاف الصوفى الذى حاولت الكنيسة الكاثوليكية، من قبل، ان تموه به الحركة.

طالبة دمشق فساقها بجمالها ورجالها واموالها
طالع بها الكرك فاسر رجالها واخذ اموالها، فبلغنى
خبرها فعظم ذالك عندى وانذرت لله اننى متى
ظفرة به فعلت به ما رايت فلا تلومنى يا ملك. ثم
استدعا قدح شراب فجا به اليه الشربدار فاخذه
من يده شرب منه وناوله للملك فشربه، واخلى له
ولاصحابه نوبة خيم، ووكل به من الرجال من
يحفظه. ولم يزل عنده حتى سلم له عسقلان،

---

ولكن اذا كانت دوافع الفرسان الدينية قد اخذت تتضاءل، فان سعى دول اوروبا الغربية الى السيادة فى منطقة البحر المتوسط اصبح من أهم الحوافز الداخلية الدائمة للحملات الصليبية منذ اواخر القرن الثانى عشر. وهذا السعى جمع فى الظاهر، وبقدر معين، صفوف فرسان الغرب، وعارض بلدان اوروبا بالشرق.

وكل هذا ظهر بوضوح فى زمن الحملة الصليبية الثالثة.

فقد استقبلت الجماهير الشعبية دعوات باباوات روما بقدر من التعاطف اقل بكثير من ذى قبل. وعندما فرضت فى اوائل سنة ١١٨٩ فى انجلترا ثم فى فرنسا اتاوة عامة قدرها عشر جميع المداخيل، لاجل تغطية حاجات الحملة استثار ذلك الاستياء والغضب بين سواد الناس. وطفق الناس يستقبلون الجباة بالحجارة، ولذا كان لا بد من الغائها كليا فى فرنسا. كذلك تفاقم التذمر من الضريبة بين رجال الدين اذ رأوا فى فرض مثل هذه الضريبة تطاولا على امتيازاتهم. وكان رجل الكنيسة والكاتب الفرنسى البارز بيار دى بلوا يعتبر: «اذا فرض الامراء بحجة حج جديد... دمغة العبودية على كنيسة المسيح، مطالبينها بالضريبة، فانه يجب على ابن الكنيسة البار ان يموت ولا يخضع». وهنا وهناك اثار جباية عشر المداخيل بعض الاستياء حتى فى اوساط الفرسان. وان الفارس والشاعر كونون دى بيتون الذى اشترك فيما بعد فى الحملة على الشرق، أتهم اصحاب الحول والطول فى هذا العالم اتهاما حادا بانهم «اخذوا

لانها كانت له، وبعد ان تسلمها اخلع عليه واوهبه واطلقه فسار الى جزيرة قبرص فملكها ولم يزل فيها الى ان مات [سنة ١١٩٤م] ولما كسر السلطان عسكر الافرنج وابتدى فى فتح مدن الساحل كتب لولده الملك العزيز، الذى سلطنه على ديار مصر واقره فيها، كتابا يعرفه فيه قضية الحال وكيف كانة [كانت]، فكتب الملك العزيز الى ولات الحروب كتبا يعرفهم بذالك وهذه نسخة

---

الصليب لقاء نقود وانهم يفرضون العشر على رجال الدين وسكان المدن والاقنان. ان دافعهم ليس الايمان بل الطمع». اما دافع هذه الاقوال، فهو الموقف السلبى من مشروع الحملة الصليبية ذاته، وزوال الايمان السابق، العام كليا تقريبا، فى نزاهتها وقدرتها على الانقاذ.

لقى نداء روما الصليبى الدعم بصورة رئيسية فى الاوساط الاقطاعية، ـ جزئيا بين الفرسان الصغار والمتوسطين، وفى الاوساط الحاكمة فى الممالك الاقطاعية الغربية، وكذلك فى اوساط الاشراف فى مدن ايطاليا الشمالية. وفى سنة ١١٨٨ انطلق الى سوريا اسطول صقلية النورمانى التابع للاميرال القرصان مرجويتون، كما انطلقت بضع عشرات من السفن من بيزا وجنوه.

وفى انجلترا وفرنسا والمانيا، طفقوا يؤلفون قوات برية. وقرر ملوك هذه البلدان ـ هنرى الثانى بلانتاجينه وفيليب الثانى، الذى لقب فيما بعد اوغست، والامبراطور فريدريك الاول بربروسا اخذ الصليب. وكان لكل منهم اسبابه الخاصة للاشتراك فى الحملة.

سعى هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩) على امتداد كل عهده الى كسب مواقع ثابتة فى منطقة البحر المتوسط لدولة انجو. وبعد الحملة الصليبية الثانية بوقت قصير، تزوج فى سنة ١١٥٢ من ايليونور داكيتين التى طلقت زوجها لويس السابع وضم على هذا النحو الى

كـتـاب منهم ورد على والى تنيس بفـتح عكا وطبـرية(*) ويصف فيه هذه القضية وهذه نسخة الكتاب.

(*) خطاب صلاح الدين الايوبى إلى ابنه الملك العزيز بمصر يعلنه بفتح عكا وطبرية.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى اذهب عننا [عنا] الحزن ان ربنا لغفور شكور، كتابنا هذا وارد على الامير الاجل الاسفهسلار الاخص حسام الدين سيف المجاهدين عمده الملوك والسلاطين خاصة امير المومنين ادام الله رفعته

---

ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى فرنسا ـ كونتية انجو وكونتية بين ـ دوقية اكيتين التى كانت مدينة مرسيليا ضمن حدودها. وهذه الدوقية كانت تضطلع بدور كبير فى التجارة مع المشرق، التى مارستها انجلترا ذاتها ايضا. وكانت السفن الانجليزية تبحر فى المعتاد فى البحر المتوسط، اما بمحاذاة سواحل فرنسا واسبانيا، ـ نحو جبل طارق ، واما فى عرض البحر حتى بوردو؛ وهناك كانوا ينقلون مشحوناتها الى المراكب النهرية، المنطلقة على نهر جارون الى تولوز. وهنا كانوا يشحنون البضائع الانجليزية على مواشي الجر الى ناربون، حيث كانت تستقبلها السفن المتجهة الى الاسكندرونة والموانى السورية واللبنانية. وهذا الطريق هو الذى كان يمر عبر اراضى دوقية اكيتين.

فلا غرابة اذا كان هنرى الثانى قد حاول تأمين نفوذ انجلترا فى جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط. وكانت الزواجات السلالية وسيلة مهمة فى سياسته فى منطقة البحر المتوسط والى هذه «الديبلوماسية الزواجية» جر اولاده جميعهم تقريبا، فقد زوج احدى بناته ايليونرو، من ملك قشتاله، الفونسي الثامن وزوج بنتا اخرى، هى حنة، من ملك صقلية، غليوم الثانى (لم يسفر الزواج عن اولاد، ولذا لم يكن فى صقلية وريث انجليزى لعرشها)؛ وابنه البكر، ريشار، خطب له ابنة سانتشو السادس، ملك نافار، الاميرة بيرنجيز.

كذلك لم يكن هنرى الثانى يأنف من الأمل فى الاستيلاء على مملكة القدس. فاليها ايضا

وحرس بهجته وكتب حدثه، ناطقاً بما جا من نصر
الله العزيز وفتحه المبين، وما انتج من الظفر الذى
عفا اثار المشركين وشفا صدور المومنين، واستنطق
بشكر الله من سبح بحمد ربه واستغفره وعظمه
فذكره ووسع ذكر طوله ويسره، واوضح الى الله
عز وجل اطلع على النية السلطانية فى نصره دينه
فنصره، وعرف صدق عزمه فى قصد عدوه فاقدره
وعضده واظفره وايده بجنوده على من جحد

---

كانت تمتد خيوط قرابة بيت انجو من سلالة بلانتاجينه؛ ذلك ان ملك القدس فولك (١١٣١ ـ ١١٤٣) كان ايضا كونت دانجو، وكان ابنه جوفروا بلانتاجينه قد تزوج فى حينه من ماتيلدا ابنة ملك انجلترا هنرى الاول، فكان فولك بالتالي جد هنرى الثاني. وليس عبثا كان ملك انجلترا الذى فعل الكثير لتوطيد التمركز السياسى فى بلده، يهتم دائما بممتلكات اقاربه فيما وراء البحار. وغير مرة دفع مبالغ نقدية كبيرة لاجل حماية الارض المقدسة من «الكفار»، كما كان قد اتفق، قبل سقوط القدس، تارة مع لويس السابع، وطورا فيما بعد، مع صهره غليوم الثانى ملك صقلية، بشأن الحملة الصليبية.

ان هنرى الثاني، الذى كان يدغدغ من زمان بعيد فكرة بسط سيطرة دولة آل بلانتاجينه الانجليزية الفرنسية على العالم اجمع، قد وافق فى الحال على الاشتراك فى الحملة الصليبية التى اطلقت روما الدعوة اليها، لأن حربا ناجحة فى الشرق كانت تبشر بتوسيع منطقة نفوذ دولة انجو فى البحر المتوسط توسيعا كبيرا.

كذلك اثرت جهود البابوية فى ملك آخر فى ذلك الزمان كان يحبك خطط السيطرة العالمية هو الامبراطور الالمانى فريدريك الاول بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠)، ذلك الذى اشترك فى الحملة الصليبية الثانية، حين كان لا يزال دوق شوابيا. الا ان هذا الحاكم ذا المزاج العدوانى المتطرف والمحب للقتال لم يتعلم شيئا من التجربة المرة والمخزية.

تفرده بالوحدانيه وكفره، وامات بسيفه سلطان
الشرك فاقبره. ومقرب عن ورود الكتاب السلطاني
في يوم الاثنين الرابع من جمادى الاول مورخا بيوم
الجمعة متهله [مستهلة] مقصور على البشرى بما
فتح الله على يديه، وذكر النصرة الرادة لعدو الله
على عقبيه. وان من جملت ما انعم الله به في يوم
الخميس الثالث والعشرون من ربيع الاخر الى يوم
الخميس سلخه [آخره] ما يوضح في تاريخه يوم

---

وكان اشتراك فريدريك الاول في الحملة الصليبية الثالثة ينبع بصورة منطقية من كل السياسة العدوانية الاغتصابية التي سلكها آل شتاوفن في جنوب اوروبا. ولقد امضى فريدريك الاول بربروسا زهاء نصف زمن حكمه في حروب من اجل بسط السيادة على مدن لومبارديا. وقد منى هناك بالهزيمة. وحين هزمه اتحاد المدن في معركة لنيانو سنة ١١٧٦، اضطر الى الاستسلام فيما بعد امام الكرسي الرسولي ايضا ووقع في سنة ١١٧٧ صلح البندقية المذل له. وحين ملك روعه بعد الهزيمة، وجه انظاره الى ايطاليا الجنوبية وصقلية. فقد كان يدرك بوضوح اهمية صقلية في تجارة المشرق، وتلك المنافع التي يبشر بها امتلاك هذه الجزيرة. وعبرها كانت تمر اقصر طريق من اوروبا الى افريقيا الشمالية. وفي ثغور صقلية المناسبة ــ مسين، باليرمو، كاتانيا ــ كانت تتوقف جميع سفن البلدان الغربية، الى المشرق ذهابا وايابا. وكانت السيادة على صقلية تؤمن لحكامها مصادر ضخمة لواردات الخزينة؛ وكانت دول كثيرة معنية تقع في تبعية حكام صقلية.

ولاجل امتلاك صقلية وايطاليا الجنوبية، لجأ فريدويك الاول، مثل هنرى الثاني، الى ديلوماسية الزواجات السلالية؛ ففي سنة ١١٨٦، اقيمت في ميلان احتفالات زواج ابنه ووريثه، الامبراطور هنريخ السادس فيما بعد، من وريثة عرش صقلية، كونستانسيا. وبذلك ضمن فريدريك الاول بربروسا انتقال صقلية الى سلالة شتاوفن.

الخميس الاول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت
نوزلت جموع الافرنجية وكسرو الكسرة التى
تركت البلاد منهم على عروشها خاوية، والمعاقل
المنتزعة من ايديهم باعلا اعلام الاسلام عليها
حاله، وجمعت من طواغيت الكفر وبين امهم
الهاويه، واذاقتهم النار الحامية. وفى يوم الاحد
تسلمت طبرية وقتل الابرنس ارناط باليد العالية
السلطانية، وحصل الملك [جودفرى] اسير واخوه

---

واخيرا كانت بيزنطة تشغل مكانا مهما فى مشاريع الامبراطور الالمانى المغامرة؛ وكان يسمي بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية باحتقار وازدراء « اليونان الصغيرة». ويذكر مؤرخه البلاطي الاسقف اوتون من فريز ينجن في سيرة حياة فريدريك الاول الذى كان ابن اخيه، فيما يذكر، ان الامبراطور قد نعت نفسه غير مرة «سلطان العالم» واعلن على المكشوف عن عزمه الراسخ على توسيع حدود الامبراطورية الالمانية حتى حدود الامبراطورية الرومانية القديمة.

صحيح ان مبادرة الحملة الصليبية قد انطلقت من خصم سلالة شتاوفن السياسى فى الماضى غير البعيد، البابا، ولكن الحملة على الشرق كانت توفر ـ على الاقل كما كان من الممكن ان يبدو ـ فرصة مناسبة لاجل تحقيق مشاريع بربروسا الكلية الكونية. وقد نظر فريدريك الاول بربروسا الى المبادرة البابوية نظرة ايجابية؛ فان الاوساط الاقطاعية فى المانيا الجنوبية على الاغلب، التى كانت تطلعاتها تحدد سياسته فى كثير من النواحي، كانت لها مصلحة مباشرة فى الفتوحات فى الشرق. ولهذا السبب أخذ فريدريك الاول الصليب فى اواخر آذار (مارس) ١١٨٨ فى غوفتات ما ينتس، وذلك بصرف النظر عن عمره (كان يناهز الستين).

ومقدم الديويه [فرسان القديس يوحنا] والهنفرى
ابن الهنفرى صاحب الكرك، وصاحب عتيل
[عتاليت] وصاحب تل الصافية. وفي يوم الاثنين
قتل من فرسان الديويه والاستباريه على باب
السرادق السلطاني ما عديه [عدده] مايتا فارس .
وفي يوم الثلثا انتقل الركاب السلطاني الى مدينة
عكا لينازلها، وفي يوم الاربع وصلها وفيه جرد
العرم الذى حصلها [حاصرها] وفي يوم الخميس

---

وكان الملك الفرنسي فيليب الثاني (١١٨٠ ـ ١٢٢٣) الملك الثالث الذى اعرب عن رغبته في السفر الى ما وراء البحار.

الا ان هذا المشروع شغل فرنسا، بالطبع، اقل بكثير مما شغل انجلترا والمانيا. فان ملكية الكابيتيين كان يعود لها في ذلك الزمان مكان متواضع جدا في لعبات الغرب السياسية. وفيليب الثاني الذى ورث العرش من لويس السابع لم يكن سوى سيد اسمي لتابعه الاقوى منه بكثير وعدوه اللدود هنرى الثاني بلانتاجينه.

كانت اراضى المملكة الفرنسية تقتصر فعلا على ممتلكات التاج، ولذا لم يكن فيليب الثاني في ذلك الوقت بعد، عمليا، ملكا حتى لنصف فرنسا. فان مقاطعاتها الغربية، المطلة على المحيط الاطلسي كان يملكها الملوك الانجليز؛ وعليهم كان تتوقف كذلك الاراضى الجنوبية من فرنسا (كونتية تولوز)؛ وكان قسم آخر من الاراضى الفرنسية ـ مملكة بورغونيا ـ خاضعا للامبراطورية الالمانية.

وكانت الواردات من ممتلكات التاج المفصولة عن البحر من جميع الجهات، زهيدة جدا، وهذا ما حمل فيليب الثاني على الاشتراك في الحملة الصليبية. وكان هذا الملك منذ شبابه سياسيا مراوغا وداهية وحاذقا، يعرف كيف يستغل الظروف. وكانت الحملة على الشرق تبدو له وسيلة مناسبة لاصلاح شؤون السلطة الملكية، اى رفع مكانتها وسمعتها في داخل البلد

فتحت صلحا ورفع العلم المنصور على قلعتها المحروسة صبحاً، واستقر الاسلام فيها بوطنه وعاد الى سكنه ورجع جوهره فيها الى معدنه. وفي يوم الجمعة مستهل جمادى الاول أقيمت خطبة الاسلام في مسجدها بشعارة. وقام الموذن مكان النواقيس معلنا بكلمة التوحيد التى كان قايلها معقول اللسان. وفي تضاعف هذه المدة فتحت الناصره وصفوريا وحيفا والغولة [الحولة] ومعليا

---

وفي المسرح الدولي، وتكديس القوى والموارد الضرورية لاجل تسديد ضربة ماحقة الى العدو الرئيسي ـ سلالة بلا نتاجينه ـ والشروع في حل المهمة الاساسية التي تواجه سلالة الكابيتيين ـ اى جمع الاراضى الفرنسية وتوحيدها.

كذلك مفاهيم الشرف الاقطاعي لم تسمح للملك فيليب الثاني بان يواجه مبادرة البابا بعدم الاكتراث، خصوصا وانه توضح فيها على الفور الدور البارز لتابع التاج الفرنسي هنرى الثاني. وهكذا استرشد الملك الفرنسي في المقام الاول بدوافع المكانة والدوافع الكاثوليكية.

في يناير ١١٨٩، تلاقى عدوا الامس القريب في جوار جيزور وتبادلا قبلات السلام؛ فقد كان ينبغي تأمين الطمأنينة والهدوء في دولتيهما اثناء الحملة. واتفق الملكان على السفر في آن واحد ومعا. وبمثال الملكين اقتدى اتباعهما من على كلا جانبي المانش. واتخذ قرار بان يخيط الفرنسيون على اثوابهم صلبانا حمراء، والانجليز صلبانا بيضاء والفلمنيون صلبانا خضراء. وكانت قد بدأت التجمعات لاجل الحملة، واذا الحرب تنشب فجأة بين الملكين. اما الذريعة للحرب، فهي ان الابن البكر للملك هنرى الثاني، وريشار، كونت بواتو ودوق اكيتين، ر فض ان يتزوج من اخت الملك فيليب، اليس، بحجة ان الملك الانجليزى قد اغراها. الا ان فيليب الثاني ، الفنان في المؤامرات السياسية، استطاع ان يستحث الابن على الاب، واذا كل من الجانبين يمتشق السيف، وتتوقف الحملة الصليبية. وفي ٦ يوليو ١١٨٩ توفى هنرى الثاني.

والطور، والتمست اسكندرية [اسكندرونه] ونابلس بالامان، وسنين خلت من حرب الشيطان. وتضمن الكتاب الكريم ان عدة القتلا استوعبت عدة من حضر المصاف من الفرنج، الا القومص فانه نجا نجات من جز الحبل عنقه فضغطه الرعب وخنقه ولجا الى صور فى عدد يسير واستقر بها استقرار الاسير. واشير فى الكتاب المذكور ان عدة من قتل واسر يزيد عن عشرين الفا ادمى، وهذه والله



صلاح الدين يفاوض الصليبين فى تسليم عكا صلحا

---

وحل محله على العرش ريشار الذى لقب فيما بعد «قلب الاسد» وصار البطل الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة.

وهكذا لم تكن تتسم الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذا المشروع الرئيسين الثلاثة جميعهم باهمية جوهرية نوعا ما. فقد كانت الحملة الصليبية ١١٨٩ ـ ١١٩٢ منذ بادئ بدء مجرد حملة فتوحات ، وكان الدور القيادى فيها يعود بمعظمه الى سلطة الدولة. وهناك سمة مميزة طريفة: ان فريدريك الاول قد امر بان يدفع كل من الفقراء الذين اعربوا عن الرغبة فى الاشتراك فى الحملة ٣ ماركات؛ اما الذين لم يكونوا يملكون هذا المبلغ، كما كتب مدون الاخبار، فقد «منعهم تحت طائلة الحرم من السفر، لعدم رغبته فى ان يشكل العامة التى قلما تصلح للحرب عبئا على العساكر».

## الوضع فى البلقان والنزاع مع بيزنطية.

## مصرع فريدريك بربروسا واخفاق الفرسان الالمان

لم يهتم زعماء الفرسان الصليبين برسم خطة مشتركة للحملة الحربية، وتصرفوا منذ البداية بصورة منفردة.

فى ١١ مايو ١١٨٩ تحركت القوات الالمانية برئاسة الامبراطور من ريغنسبورج قبل غيرها.

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

المحمود نوبة [حادثة] ما يعرف عارف فى الاسلام مثلها، ولا يشهد تاريخ بما يشبه فعلها ولا يشبها قبلها. ومن فضايل هذا الفتح وبشاير هذا المنح تيسره، ولم يعدم من المسلمين سوى نفر دون العشره، وجراح من جرح والله المشكور سليمه، والنعمة عظيمة، ووجوه ولاة الامر بما يسره الله لهم من النصرة اصبحت وهى كريمة، وقد استخرنا الله وصممنا عزمنا على المضى الى الخيمر

---

وكانت تتألف من قرابة ٣٠ الفا من الفرسان والمشاة. وقبل بداية الحملة كان فريدريك الاول قد اجرى مفاوضات ديبلوماسية مع المجر وبيزنطية؛ فقد اراد ان يضمن عبور قواته فى اراضيهما بأمان. وكانت نتائج المفاوضات، على ما بدا، مؤملة. فان الملك المجرى بيلا الثالث (١١٧٣ ـ ١١٩٦) قد وافق على مرور الصليبيين عبر بلاده وحتى سمح لهم بشراء المأكولات. وبالفعل عبر الالمان المجر بسلامة، دون تجاوزات كبيرة. كذلك امكن الاتفاق مع الرسل البيزنطيين الذين وصلوا الى ريخستاج نورمبرج فى ديسمبر ١١٨٨ (برئاسة موظف كبير هو اللوجوفت دروم يوحنا دوقاس)؛ فقد اكد الروم ان بوسع الجيش الالمانى ان يعبر الممتلكات البيزنطية بلا عائق، وان يتلقى المأكولات والاعلاف لقاء ثمن مناسب. كذلك فريدريك الاول اكد بدوره للسفراء بالقسم. انه ليس لبيزنطية ان تخشى شيئا من المقاتلين الالمان . ولكن رغم ان الاوساط الحاكمة فى امبراطورية القسطنطينية اقدمت على الاتفاق مع فريدريك الاول، الا ان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ ـ ١١٩٥) سرعان ما شرع يقيم امام الصليبيين شتى الحوائل والعوائق. ففى القسطنطينية كانوا يعرفون عن نزعة بربروسا الى القتال ولم يكونوا يثقون كثيرا فى وعوده.

وكانت تتوفر لحكومة اسحق الثانى انجيلوس جميع المبررات والدوافع للقلق. فان علاقات فريدريك الاول الوثيقة مع عدو بيزنطية المباشر فى الشرق قلج ارسلان الثانى، سلطان قونية

[الخيم] المنصور السلطاني سلمه الله تعالى بعكا
حرسها الله تعالى. اعلمنا الامير ذالك لياخذ حظه
من هذه البشر ى التى عمت فضايلها الاسلام
والنعمة التى شملت الخاص والعام ان شا الله
تعالى. ولما كان بعد كسرة عسكر الافرنج وفتح
البلاد المقدم ذكرها نزل الملك العادل (ابو بكر)
على يافا وقاتل من فيها يومين وفى اليوم الثالث
طلبو منه الامان فامنهم، ثم بعد ذالك قتل من ظفر

---

السلجوقى (١١٥٥ ـ ١١٩٢) قد اثارت الشبهات. فقد تبادل الامبراطور الالمانى السفراء، وحتى اخذ منه وعودا تتيح الأمل فى ان يتمكن الفرسان الالمان من عبور آسيا الصغرى بلاعائق: ذلك ان قلج ارسلان الثانى كان يعادى صلاح الدين الذى كان الصليبيون يعتزمون قهره.

وارتسمت اخطار جدية على بيزنطة من صوب الغرب ايضا، من اوروبا الجنوبية الشرقية. فقبل بداية الحملة الصليبية بزمن وجيز، فى ١١٨٥ ـ ١١٨٧ ، ثار البلغار بنجاح ، بقيادة البوليارين (النبيلين) آسن وبيوتر، على الاستبداد البيزنطى. والى الشمال من جبال البلقان، تشكلت دولة مستقلة، اسميت بالمملكة البلغارية الثانية. كذلك كانت صربيا تسير نحو بلوغ الاستقلال.

ان تقدم الفرسان الالمان فى اراضى البلقان قد رافقته اعمال العنف والاجتياح والنهب من جانب الصليبيين، ولذا كانت الحملة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة عدوان واقتحام معاد. والحال ، بقى الفرسان فى الارض البلغارية اكثر من ستة اشهر (من صيف ١١٨٩ الى الربيع الباكر من سنة ١١٩٠). وفيما بعد افاد الكاهن الالمانى ابرهارد، المرسل الى المجر بمهمة ديبلوماسية، فى تقريره الى الامبراطور، انه رأى، اثناء مروره فى بلغاريا، جميع قبور الصليبيين الذين ماتوا فى الطريق، منبوشة؛ وكانت جثثهم مرمية من التوابيت ومبعثرة على الارض.

به منهم واسـر من اراد، وكـان فـتـحـهـا يوم الثلثـا
الثـالـث من جـمـادى الاخـر سنة ثلث وثمـانين
وخمسماية [١١٨٧م] الهلالية.

قـصـة بادويل الملك(*) [بـلـدويـن الاول ١١٠-١١٨٦م] فـاخبـرنا من تقدم من السلف ان البيت
المقـدس كـان في يد نفـر من المسلمين يسـمـون
الزدلفـيـة من ملوك التـرك، ثم ملك بعـدهم قـوم

(*) سيرة الملك بلدوين ملك القدس.

---

وبالطبع، كان تحقيق التحالف مع قائد الصليبيين الالمان فى هذه الظروف امرا عسيرا جدا على البوليارين البلغاريين، ولكنهما اتصلا غير مرة مع ذلك بالامبراطور فريدريك الاول؛ فقد كان بيوتر وآسن يحسبان ان بلغاريا ستتمكن، فى حال نشوب حرب بين الامبراطورية الالمانية والامبراطورية البيزنطية من توطيد استقلالها الذى نالته للتو.

ولكى نفهم كليا موقف بيزنطة من الصليبيين الالمان، يجب ان نأخذ كذلك بالحسبان ان الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية المستضعفة لم تكن تعتزم، رغم وضع الامبراطورية الداخلى والخارجى الشاق جدا، ان تستبعد القسم الشرقى من البحر المتوسط من مجال بصرها. ورغم ان نفوذ بيزنطة فى هذه المنطقة قد تقوض كثيرا فى اواخر القرن الثانى عشر بفعل مدن ايطاليا الشمالية التى توغلت فى مرافئ سوريا ولبنان وفلسطين، وبفعل نورمانيى صقلية الذين تسربوا حتى الى اليونان وحتى استولوا فى سنة ١١٨٥ (لفترة من الوقت) على اكبر مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية، هى مدينة سلانيك، بقيت القسطنطينية مع ذلك مركزا مهما لتجارة المشرق. ولم يكن بوسع بيزنطة ان تبقى عديمة الاكتراث بنضال الدول الغربية من اجل الهيمنة على البحر المتوسط. وكانوا فى القسطنطينية يعتبرون ان الصليبيين قد انتهكوا حقوق الامبراطورية البيزنطية فى منطقة سوريا ولبنان وفلسطين، هذه الحقوق التى كرسها واثبتها التاريخ نفسه.

منهم يسمون الباروقية، ومنهم ملكه بادويل ملك
الفرنج، وسبب ذالك ان الله لما شا ان ينقله منهم
الى غيرهم جعل في قلوب ملوكهم ان رغبهم
فيما يحصل لهم من مكس من يحج اليه من
جميع الافرنج، فحج بادويل واخفا نفسه وغير زيه
ولم يعلم به احد، ووصل الى يافا ستة بطس
[مراكب] في كل بطسة الف رجل وكانو
البرطيقية [الباروقية] ياخذو المكس ممن يحج الى

---

ولجميع هذه الاسباب انتهجت الحكومة البيزنطية نهجا معاديا للصليبيين. فقد اقاموا في وجههم شتى العوائق والموانع؛ ولم يقدموا لهم المؤن التى وعد بها اسحق الثانى انجيلوس. الطرق التى سار عليها الصليبيون كانت شبه مدمرة؛ فان خيول الفرسان المدرعين كانت تنزلق وتسقط ارضا، وتتكسر قوائمها. وكانت فصائل الروم المسلحة تغلق المعابر الجبلية. وكان الامبراطور يستبقى في عاصمته افراد البعثات التى كان يرسلها فريدريك الاول اليها من الطريق. بل انه زج في السجن بافراد البعثة الاولى. وكان مزاج العداء يتبدى فى لهجة رسل الامبراطور البيزنطى الى امبراطور «الرومانية المقدسة»؛ فقد كان يتجنب كليا تلقيبه «بالامبراطور» وكان يخاطبه بوصفه «ملك المانيا».

ثم ان الفرسان الالمان اثاروا بدورهم كره السكان المحليين بما اقترفوا من اعمال السرقة والنهب والعنف. ففى تراقيا احرق الصليبيون فى البدء ضواحى فيليبوبول (بلوفديف حاليا)، واحتلوا المدينة عمليا في اواخر اغسطس ١١٨٩ وكانوا يهاجمون المدن والقرى البلغارية على المكشوف ويقتلون السكان، ويمحون المساكن من على وجه الارض، ويحرقون الكنائس. ويتباهى مدونو الاخبار الالمان بالغنائم الوفيرة التى نهبها الفرسان الالمان فى فيرويا (حاليا ستارا زاجورا)، وسكر ينسيون (اسينوفجراد) وبرميس (بيروشتيتسا).

وحين عاد رسل فريدريك الاول في اواخر اكتوبر ١١٨٩ الى فيليبوبول، بلغوا عاهلهم ان

البيت المقدس من الفرنج وغيرهم، فكتب والي يافا
الى صاحب البيت المقدس يعلمه ان قد وصل الى
يافا ستة الف رجل يريدو الحج، فكتب اليه الجواب
يقول له: اقسمهم نصفين سير منهم ثلاثة الف
فاذا حجو وعادو اطلق النصف الثاني يحجو.
ففعل والي يافا كما امره واقسمهم، وسار بادويل
مع من سار الى القدس مخفيا، فدخل اليه وكشفه
وطاف المدينه وكشف الصور واماكن القتال، وسير

---

بطريرك القسطنطينية نعت المقاتلين الالمان في مواعظه في الكنائس بكلاب المسيح، وانه كان يعد الروم بان المجرم، مهما كان معتقا في الاجرام، و حتى اذا كان قد اقترف عشرات من جرائم القتل، سينال الغفران من ذنوبه اذا قتل مائة من الصليبيين. وبدأ فريدريك الاول من جانبه يوجه التهديدات الى اسحق الثاني انجيلوس. وفضلا عن ذلك، وقع اسحق الثاني في صيف ١١٨٩، حين كان «جنود الرب» يعبرون المجر، اتفاقية تحالفه مع عدو الصليبيين الاكبر ـ صلاح الدين، ووعده بالدعم ضد قلج ارسلان الثاني. وهكذا كان كل من الامبراطورين المسيحيين ـ الالماني والبيزنطي ـ في سنة ١١٨٩ متحالفا مع قوى اسلامية.

في تراقيا، دارت رحى الحرب، من حيث جوهر الامر، بين الصليبيين الالمان وبيزنطية. ولقد كانت، والحق يقال، حربا غير معلنة، حربا بين حليفين. ولكن الاحداث تطورت بجلاء في اتجاه اضفاء الصفة الشرعية عليها وتحويلها الى نزاع مسلح سافر. وفي اواخر خريف ١١٨٩ ارسل فريدريك الاول إلى ابنه هنريخ (السادس) رسالة تتضمن ضربا من مشروع هجوم على بيزنطة. فقد طلب من هنريخ ان يجمع المقاتلين، ثم ان يتفق مع جنوه والبندقية وبيزا وانكون، وان يجهز هناك اسطولا لاجل الشروع في ربيع السنة القادمة بمحاصرة القسطنطينية سواء من البر ام من البحر.وفي الوقت ذاته كان على هنريخ ان يحمل البابا على تنظيم حملة صليبية ضد الروم الذين يعرقلون حرب الكاثوليك ضد «الكفار».

رسول ثاني يوم دخوله القدس الى من بقي في يافا
يقول لهم: ضعو السيف في اهل يافا اذا عيدنا يوم
الاحد فان صبحية يوم الاثنين اضع السيف في
بيت المقدس واقتل كلمن فيها من الاجناد وغيرهم
من المسلمين، فاذا فعلتم ذالك تقوو باموال اهل
يافا وخيلهم والحقوني وخلو في المراكب من
يحفظها في كل مركب عشرين رجل: فلما فعلو

(*) حاصر الصليبيون بيت المقدس في يوم الثلاثاء ٧ يونيو ١٠٩٩م

---

اقيمت خطط اخضاع بيزنطة لامبراطورية سلالة شتاوفن. ولكن بابا روما لم يشأ اقامة سيادة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثوذكسية بسلاح عدو الكورية البابوية في الأمس القريب، فريدريك بربروسا. ففي روما لم يصدقوا فريدريك بربروسا. ولم تقم حملة صليبية ضد بيزنطة في سنة ١١٨٩. وتجنبت امبراطورية القسطنطينية ضربات القوات الصليبية، رغم ان البعثة التي وصلت الى جاليبولي من بيزا عرضت السفن على فريدريك الاول بصورة سافرة لاجل فتح العاصمة البيزنطية. الا ان التأجيل، كما سنرى، كان قصير الامد.

بعد ان نهبت الجموع الالمانية المقاطعات البلغارية من بيزنطة، انطلقت في اواخر مارس ١١٩٠ من اندريانوبول وعبر الدردنيل الى آسيا الصغرى. لم يقدم الروم لا المأكولات ولا الاعلاف. وكانت فصائل الخيالة من السلجوقيين تشن يوميا الغارات على الفرسان الالمان. فان وريث قلج ارسلان الثاني الذى تنازل عن السلطة لم يكن يميل الى التحالف مع الصليبيون خوفاً من حرب مع صلاح الدين. وفضلاً عن ذلك كله، كابد الصليبيين عذابات القيظ والعطش والجوع. واضطروا الى اكل لحوم خيولهم.

في ١٨ مايو ١١٩٠، استولى الصليبيون على سلطنة قونية. ووقعت في ايديهم غنيمة وفيرة. وفي ٢٣ مايو عقدوا هدنة مع السلطان. وغادر الصليبيون سلطنة قونية ونصبوا معسكرا وراء البساتين التي تحيط بها.

ذالك فتحو البيت المقدس(*) ويافا في يوم واحد وهو يوم الثلثا، ثم فتحوها المسلمين منهم في يوم الثلثا. كما عملو كذالك عمل بهم. فسبحان الله المكافي كل احد باعماله. ولما كان بعد فتح عكا بايام يسيرة خرج الملك الناصر منها يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الاخر [سنة ٥٨٣هـ= ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] من السنة المذكورة نزل على عسقلان(*) يوم الاحد سادس عشرة بعد ان

= ٨١٥ قبطية وبعد حوالى ٣٨ يوما في يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م سقطت في ايديهم، ونصبوا جودفرى ملكا عليها. وفي يوم الثلاثاء ٢٤ رجب ٥٨٣ = ١١٨٧م سقطت في يد صلاح الدين واستلمها في يوم الجمعة ٢٧ رجب = ٢ أكتوبر ١١٨٧م.

(*) سقطت عسقلان في يد صلاح الدين قبل سقوط بيت المقدس. والمؤرخ هنا يسبق الحدث حيث=

---

ومن هنا نزلت القوات الالمانية على دروب وعرة في جبال طوروس الى قيليقيا، حيث حدث امر غير متوقع. ففي ١٠ يونيو ١١٩٠، غرق فريدريك بربروسا اثناء عبور نهر اللامس الجبلى العاصف، غير بعيد عن سلوقية. بعد ذلك، عاد قسم من الفرسان بحرا من سلوقية وطرسوس الى الوطن؛ ومضى قسم آخر، عابرا المناطق الارمنية بالنهب والسلب، الى انطاكية؛ مات كثيرون بالطاعون في صيف سنة ١١٩٠. واقترب الباقون في الخريف من عكا التي سرعان ما حاصرتها قوات دول الصليبيين التي سلمت حتى ذاك وفصائل الفرسان التي قدمت الى هنا بصورة تلقائية بعد ان احتلها صلاح الدين. وبعد فترة من الوقت هرعت الى عكا فصيلة المانية اخرى، بقيادة الدوق ليوبولد النمساوى. واخذ الدوق في يده زمام قيادة جميع الصليبيين الالمان حين مات فريدريك، دوق شوابيا، ابن فريدريك بربروسا (في سنة ١١٩١).

## التناقضات الانجلو / فرنسية والمخاصمات

## في مملكة القدس. فتح عكا. نتائج الحملة

في ذلك الحين، كان الاعيان والفرسان في انجلترا وفرنسا قد بدأوا يستعدون للحملة؛ فان الاستعداد لها لم ينته في هذين البلدين الا نحو صيف ١١٩٠.

= انه سيذكر فيما يلي احداث سقوط عسقلان ثم احداث سقوط بيت المقدس.

صلى بالمسلمين يوم الجمعة في يافا واحاط العسكر بمدينة عسقلان وكان الكند [الكونت] جعفرى [جودفرى] الملك اسير معه فاحضره وقال له تسلم لي عسقلان بلا قتال والا ستقتل على بابها وانا بعد شنقك اخذها بالسيف فخاف الملك من الموت.وكانة [كانت] عسقلان له واجناده فيها فلما طلبها السلطان منه وخاف على نفسه من الموت لم يكن [له] حيله الا تسليمها فانفد

---

وقد وجد الملك الانجليزى ريتشارد الاول الاموال لاجل الحرب المقدسة بسفالة نادرة ودون التورع عن اللجؤ الى احقر الوسائل. ولم يكتف بابتزاز ضريبة «عشر صلاح الدين» من جميع من كان يتعين عليهم دفعها. فان هذا العاهل الذى تميز بجشع لاحد له، قد عمد الى بيع كل ما يمكن بيعه: الوظائف، بما فيها الوظائف الاسقفية، والحقوق، والقصور والقرى. وسمح البابا كليمنت الثالث للملك باعفاء الناس الضروريين لاجل الخدمة في انجلترا ذاتها من الاشتراك في الحملة. وقد استغل ريتشارد هذا السماح كما يطيب له؛ فلم يكن يمنح الاعفاء الا لقاء مبلغ كبير. وقد استطاع الاثرياء ان يفتدوا انفسهم من الحملة. اما الفقراء الذين لم تترك ابتزازات جباة الملك لهم شيئا، فقد استخدمهم ريتشارد بالنقود. ان قائد الصليبيين هذا، الذى مدحه مدونو الاخبار والشعراء اللاتين. على نبله وشهامته وحكمته قد صرح ذات مرة انه يبيع لندن ذاتها اذا ما وجد شاريا مناسبا!

في ٤ يوليو ١١٩٠ ، عبر ريتشارد الاول مع حاشيته ومعظم فرسانه مضيق المانش. واجتمعت الفصائل الانجليزية والفرنسية في مدينة فيزليه البورجونية، ومنها انطلقت في الحملة.وهكذا لم تبدأ حملة الانجليز والفرنسيين الصليبية الا بعد مرور سنتين ونصف السنة على سقوط القدس وبعد مرور سنة على تحرك فريدريك الاول. ومن الجلى ان الملكين الانجليزى والفرنسي لم يكونا يتسرعان.

لاصحابه وقال لهم لا تقاتلو وسلموها لهم بالامان فهو اصلح لكم، بعد ان قاتلو ثلاث ايام ولم يقدرو عليهم المسلمين، فسلموها اصحاب الملك بالامان يوم السبت التاسع والعشرون من جمادى الاخر من سنة تاريخه [٥٨٣هـ = ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م]. وفى ذالك اليوم بعينه كسفت الشمس نصف النهار ولما فتحها السلطان كتب الكتب بذالك الى ولاة الاعمال المصرية، وهذه نسخة (*) نص كتاب صلاح الدين إلى

---

في البدء سار الصليبيون معا، ولكن تأتى لهم فيما بعد ان ينقسموا؛ فقد تبين ان من الصعب اطعام مثل هذا العدد الضخم من المقاتلين. قاد فيليب الثانى فرسانه الى جنوه التى تعهدت بان تقدم لهم ثلاثة سفن لنقلهم الى الشام. وراح الانجليز الى مرسيليا. وهنا كان اسطول ريتشارد بانتظاره، اى اكثر من ٢٠ سفينة تسنى لها ان تدور حول اسبانيا وترسو فى سواحل فرنسا الجنوبية. وفى سبتمبر ١١٩٠ وصل الفيلقان الواحد تلو الآخر، الى صقلية، وتوقفا غير بعيد من مسينا. وهنا تقرر قضاء الشتاء لاجتناب المخاطر التى يتعرض لها البحارة فى هذا الفصل من السنة.

مضى الفرنسيون بحرا الى صور. اما ريتشارد الذى اراد ان يعوض عن اخفاقه فى صقلية، فقد احتل فى طريقه الى الشرق جزيرة قبرص التى كانت من قبل خاضعة لسلطة بيزنطيا ثم انفصلت عنها، وغنم فى قبرص غنائم لا تحصى. كما تزوج هناك بيرنجير دى نافار.

وبالاستيلاء على قبرص، أمن ريشار قلب الاسد، دون ان يدرك ذلك بنفسه، اهم نجاح لعموم الحملة الصليبية. فان مملكة آل لوزيان التى نشأت بعد وقت قصير فى قبرص قد تحولت فيما بعد الى حصن بالغ الاهمية لممتلكات الصليبيين فى القسم الشرقى من البحر المتوسط التى لم تستطع الا بفضل الدعم العسكرى من قبرص ان تدوم فى الشرق زهاء مائة سنة اخرى.

الاميـر ناصـر الدين خـضـر ابن بهـرام بخـصـوص سـقـوط عـسقلان.

الكتـاب(*) الى الاميـر ناصـر الدين [خـضـر] ابن بهرام والى الاعمال الغربية نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم ربى اودعنى ان اشكر نعمتك الذى انعـمت به على وعلى والدى وان اعـمل صالحا ترضاه،كتابنا هذا صادر الى الامير المفضل الامين نصـر الدين وعـمدة المجاهدين عز الخواص مملوك امـيـرالمومنين اطال الله بقـاه، وقـد من الله علينا وفـتح على يدينا مـدينة عـسـقـلان التى هى

---

وقد تبدت «وحدة» الصليبيين الانجلو ـ فرنسيين بقوة جديدة عندما نزلوا فى لبنان وانضموا الى الفرسان الذين يحاصرون عكا. وبين هؤلاء، وقد استمر حصار هذه القلعة المنيعة اشهرا عديدة. واستعمل المحاصرون الاكباش، ومدافع اطلاق الحجارة، وابراج الحصار على العجلات.

ومن أهم اسباب استطالة الحصار نشوب الخلافات بين قادة العساكر التى طوقت المدينة، اى بين البارونات الصليبيين المحليين والاسياد القادمين من الغرب. ومرد الخلافات الى الادعاءات بعرش القدس (والاصح القول بلقب ملك القدس)، من جهة، من قبل جى دى لوزينيان الذى اخلى سبيله من اسر المسلمين، ومن جهة اخرى، من قبل المركيز كونراد مونفيرات. وهذا المركيز الذى كان قد اصبح آنذاك فعلا سيد صور، رفض ان يسمح لسيدها الاسمى جى دى لوزينيان بدخولها. ورغم ان الخلاف دار حول لقب فارغ هو ملك بيت المقدس (اذ ان مملكة القدس لم يكن له وجود بالفعل)، خاض قادة الصليبيين غمار هذا الجدال بكل حماسة الفرسان. وبالنتيجة، بدت قوات جنود المسيح دون أى عمليات من حيث الجوهر.

ثم أن الخلاف بين الطامعين بعرش القدس جاء يعمق العداوة بين الانجليز والفرنسيين فوق ماهى من عمق . فان ريتشارد قلب الاسد الذى لم يصل الى عكا الا فى ٧ يونيو ١١٩١ قد دعم ادعاءات قريبه جى دى لوزينيان، بينما دعم فيليب الثانى ادعاءات المركيز مونفيرات.

افضل عروستى [عروسة فى] الدنيا وانقذها من
يد الكفر، نرجو بمشية الله النور فى الدار الاخرى،
وقد نصبت اعلام المسلمين على ابراجها واسوارها
وعمر [عمرت] بموحديها، ونبت بمشركيها
وكفارها ، وكثر المؤذنون فى اقطارها وارجايها،
وزالت سمت [سمة] الصلبان من جهاتها
وانحايها، واعلن الخطيب بلا اله الا الله على
منبرها. ومن قصص الفتح انها لما واجهتها جيوش

---

وعندما كان ملك يقترح في المجلس الحربى اقتحام القلعة، كان الملك الآخر يعارض؛ فان النصر المحرز بمبادرة من ريتشارد الاول لم يكن يناسب فرنسا. والعكس بالعكس. ومع ذلك كانت الغلبة لرأى ريتشارد؛ ففى ١١ يوليو ١١٩١، بدأ هجوم عام؛ وفى اليوم التالى استسلمت المدينة التي انهكها الحصار المديد. ولانقاذ حامية المدينة، وافق صلاح الدين على دفع فدية كبيرة وعلى عدد من التنازلات الاخرى؛ فقد اطلق من الاسر الافرنج المأسورين سابقا واعاد الى الكاثوليك ذخيرة دينية يكرمونها هي ما يسمى بالصليب المقدس او الصليب المحيى (عود الصليب).

بعد مرور اقل من شهر على فتح عكا، اعلن فيليب الثانى انه مريض، فذهب الى صور ومنها سافر فى اوائل اغسطس ١١٩١ الى فرنسا عبر ايطاليا. وبينما كان الملك الانجليزى يقاتل «الكفار» فى الارض المقدسة، كان حليفه الفرنسى يسرع فى توطيد مواقع سلالة الكابيتيين فى بيته؛ فقد انقض فيليب الثانى على ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى القارة. وسلفا عقد حلفا ضد ريتشارد مع اخيه الاصغر ، الكونت جان (فيما بعد الملك جان بلا ارض) الذى كان يحكم انجلترا فى غياب اخيه. وفضلا عن ذلك، تقابل فيليب الثانى فى ديسمبر ١١٩١ فى ميلانو مع الامبراطور هنريخ السادس واتفق معه بشأن الاعمال المشتركة ضد ريتشارد. ويقول مدون الاخبار الانجليزى رودجر أوف هوفدن ان الملك الفرنسى حصل من الامبراطور

الاســلام الناصــرية وانصــار المومنين التــوحــيــد الصلاحية، واحاط بكفارها سخط الله وحقو ان ينجــز لهم وعــده وان يتــمكن منهم اوليــآ الله وجنده، لجــا المشــركين الى الفــرار واخــذو فى الانحـصار فى الجدار، فنصبنا عليهم الات القتال واذقناهم من طعم الطعن شـديد الوبال واخـذنا بقوة فى باشورتها(*) الكبيرى [الكبرى] فهدمناها، ولما لحناها مع شـدة باسـهـا فـمـحـوناها، وصلت

(*) الباشورة: هى البرج فوق بوابة الحـصن وأصلهـا فى اللغـات الاوربيـة Bastion، وهى مـن =

---

الروماني على وعد بان يأسر الملك الانجليزى اذا عاد من فلسطين عن طريق الاراضى الخاضعة للامبراطور.

وهكذا اذا كان قائدا الحملة الصليبية قد صفيا حسابات احدهما الآخر بضراوة، حارصا احدهما على مكانته وسمعته كفارس صليبى، والثانى على توسيع وتعزيز مملكته، فان كونراد مونفيرات كان مستعدا على العموم لخيانة الصليبيين، وللانتقال الى صف صلاح الدين والحصول منه على الحق فى حكم المدن الفلسطينية. بل ا ن كونراد كان يعتزم خوض النضال معه ضد حلفاء الامس اخوانه فى الدين. وكان ذلك، من وجهة نظر مصالحه السياسية على كل حال عمليا اكثر من انتظار نجاح جدى نوعا ما يحرزه الصليبيون الذين كان يقودهم قائد عسكرى غير موهوب مثل ريتشارد قلب الأسد. وقد لاحظ مدون الاخبار امبرواز بامتعاض فى قصيدته الاخبارية ان كونراد مونفيرات لم يساند القوات التى حاصرت عكا، فقد فضل ان يحفظ الاحتياطيات فى صور، ولم يكن يحرص الا على ابقاء المدينة فى قبضته. الا ان وفاة كونراد مونفيرات الذى قتله فى صور فى اواخر ابريل ١١٩٢ اثنان من المسلمين من شيعة الحشاشين (وهم فريق من الاسماعيليين) حالت دون تحقيق مقاصده السرية.

حاول ريتشارد الاول ثلاث مرات ان يقترب من القدس. وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم على انتزاع المدن الساحلية من مصر. ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت

= الألفـاظ التى دخلت اللغـة المصـرية في عـهـود الحـروب الصليبية.

منجيقاتنا [مجانيقنا] فى قبلة اسوارها فما زالت سهامها [اسماها = اعاليها] تركع وحجارتها تسجد ونجومها برجومها لشياطين الكفر تقذف وتطرد، حتى هدمنا باشورة صغرى تحت سورها ودمرناها، واخربنا ابراج السور وابدانه ودمرناها، واستبحنا المعقل وان كان منيعا حصنه رفيعا تله جديد حده، وطال ما اعجز الايام والانام فله. فلما خشو باسنا جنحو للسلم فعملنا بظاهر الاية فى

---

بالفشل ايضا. وعندما خيم الخطر على هاتين المدينتين، امر صلاح الدين بهدمهما كما كانت عادته في هذه الحرب غير مكترث بسكانها العزل، ولذا لم يبق للصليبيين منهما غير ركام من الانقاض وبقايا سكانها الفقراء الذين لم يستطيعوا الفرار.

وفى آخر المطاف، حين منيت قوات الصليبيين العسكرية بخسائر فادحة في الحروب ضد صلاح الدين، وحين بدأ ريتشارد الاول يقلق جديا على شؤونه في الوطن، دخل فى مفاوضات مع عدوه وعقد معه الصلح فى سبتمبر ١١٩٢ . وبموجب شروط الصلح، احتفظ الاسياد الصليبيون بشريط ساحلى ضيق يمتد من صور الى يافا، وبقيت القدس خاضعة لمصر . ولم يوافق صلاح الدين الا على السماح للحجاج والتجار بزيارة القدس فى غضون ثلاث سنوات. ويقينا ان الاراضى الساحلية بما فيها صور وصيدا وطرطوس وغيرها من الموافئ كانت بالنسبة للبلدان الغربية اهم بكثير من القدس او من الناصرة الواقعتين بعيدا عن الساحل. ان امتلاك الشريط الساحلى كان يخدم فى المقام الاول صالح التجارة المشرقية. وبهذا المعنى احرز ريتشارد الاول حتى بعض النجاح. ولكن هذا النجاح الذى كان يطيب بقدر معين لتجار ايطاليا الشمالية لم يكن من الممكن اعتباره كافيا من وجهة نظر روما، إذ ان خسارة القدس كانت اخفاقا جديا الى حد انه كان يبدو للباباوية من المستحيل التسليم به.

فى اكتوبر ١١٩٢ هرع ريتشارد قلب الاسد الى بلده بعد ان تلقى من اوروبا انباء غير

الجنوح لها وتطارحو مبالغين فى المسلم [المزلة] فى
الامان فراينا تقبلها فامناهم ثقة انهم انما يسلمون
من الحمام [إلى الحمام]، وانهم يستاصلون بشية
الله بسيوف الاسلام، واشفاقاً من معرة الجيش على
من فيها من كتايب المسلمين، وصيانة الذمة عن
نهب تخريب الناهبين، وجملت الامر ان النزول
عليها كان يوم الاحد سادس عشر جمادى الاخر
[٢٣ أغسطس ١١٨٧م] [و] نصبت الالات يوم

---

مستطابة. ولكن لم يتسن له الوصول الى انجلترا فى وقت قصير. فقد اكتسب لنفسه عدوا، لا في شخص فيليب الثاني وحسب، وبل ايضا فى شخص قائد الصليبيين الالمان عند اسوار عكا، الدوق ليوبولد النمساوى. فقد استعجل الدوق فى رفع العلم الالمانى فى المدينة بينما كان الصليبيون يحتلونها. فأمر ريتشارد بنزق وحمية بنزع العلم ورميه فى الوحل. لم ينس ليوبولد الاهانة. وفى جوار فيينا عرف ليوبولد أن الملك الانجليزى ريتشارد متسترا بلباس التجار، واسره؛ ثم سلم ليوبولد اسيره الى الامبراطور هنريخ السادس. وقد رأى هذ الحاكم البالغ من العمر ٢٥ سنة فى الفاتح الانجليزى عدوا له فى تطلعاته الى منطقة البحر المتوسط، فابقاه فى السجن سنتين.

وهكذا نرى ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت فى كثير من النواحي عن سابقتيها. فبين المشتركين كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة، كما انها لم تكن تنطوى على اى من عناصر العفوية والجماهيرية. ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية ــ واثناء الحملة، تكشف بجلاء ووضوح سعى الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق البحر المتوسط. وفى هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية (المانيا وبيزنطيا، انجلترا والمانيا ــ فى صقلية، فرنسا وانجلترا فى صقلية وفلسطين، انجلترا وبيزنطيا فى قبرص، والخ.)، وهى التى قررت المصير المخزى الذى آلت اليه الحملة بمجملها.

الثلثآ ثامن عشر ووقع نقوب الباشورة الكبرى يوم
الاربع تاسع عشر، وتسلمت المدينة ونصبت اعلام
الاسلام عليها يوم السبت التاسع والعشرين منه [٤
سبتمبر ١١٨٧م]. هذا من فضل ربى ليبلونى
الشكر ام اكفر، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن
كفر فان ربى لغنى كريم. اعلمنا الامير المفضل
ناصر الدين ذالك لياخذ حظه من المسار [السرور]
ويشارك من هو قبله من المسلمين بحسن المنار

---

ومذ ذاك، صارت حدود مملكة القدس اضيق من ذى قبل، كما نقلت عاصمتها ذاتها الى عكا. فكانت ما يسمى بمملكة القدس الثانية.

كانت حملة ١١٨٩ ـ ١١٩٢ نقطة انطلاق لاجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسع الغرب فى منطقة البحر المتوسط. وقد حاول هنريخ السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧) تحقيق مشاريع فريدريك الاول بربروسا غير المحققة. ففى سنة ١١٩٤ استولى على صقلية ونكل بسكانها الذين ثاروا عليه. وضم تركة النورمانيين (صقلية) الى المانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هو هنشتاوفن القديم.

ان هنريخ السادس الذى كان بمقدوره اقل من ابيه ان يوازن بين نواياه التوسعية والاغتصابية وبين الامكانيات السياسية الفعلية، بدأ يفكر جديا فى تأسيس ملكية عالمية بعد ان وطد قدميه فى صقلية. فأطلق سراح ريتشارد قلب الاسد من الاسر بعد أن اخذ منه قسم التابعية وفدية ضخمة جدا. وبذلك اراد هنريخ السادس ان يضع حدا للادعاءات الانجليزية فى البحر المتوسط. ثم اعتزم ان يخضع فرنسا بمساعدة ريتشارد.

إلا ان الامبراطور الالمانى جعل من فتح بلدان الشرق الادنى، وفى المقام الاول بيزنطيا، مهمته الاساسية. وبجميع الوسائل استثار الحرب ضد بيزنطيا. فقد طلب من الامبراطور

والاســلام [والســلام]. واقــام السلطان نازل على عسقلان بعد فتحها حتى دبر حالها وسلمها لعلم الدين قـيـصــر من مماليكه الخـاص الكبـار ولاية واقطاع، ورحل منهــا وتوجــه منهــا إلى البــيت المقـدس(*) في يوم الاربعا الحادى عشر من رجب من السنة المقدم ذكرها، ونزل على البيت المقدس يوم الخميس من ناحيت عين سلوان ليجد العسكر الماء قريبا منه، ورتب العسكر مستدير [محاصرا]

(*) حصار وسقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين.

---

البيـزنطى اسحق الثانى ان يتنازل لالمانيا عن نصف الاراضى البيـزنطيـة (اراضى البلقان) وان يعوض عن الضـرر الذى لحق بالصليبيين الالمان التابعين لفريدريك الاول. وفيـما بعد، فى سنة ١١٩٥، حين اطيح بالامبراطور اسحق الثانى بنتيجـة انقلاب فى القصـر، وحل محله على العرش فى القسطنطينية اخوه الكسيوس الثالث، شرع هنريخ السادس فى تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم ان تكون بيزنطيا ضحيتها الاولى. وللحصول على حجة رسمية لاجل الادعاء بالتاج البيزنطى، زوج هنريخ السادس فى ٢٥ مايو ١١٩٧ اخاه فيليب، دوق شوابيا، من الاميرة اليونانيـة ايرينا التى وقعت فى يده فى باليـرمـو، ابنة اسحق الثانى انجيلوس وارملة روجيـة، العاهل النورمانى الاخيـر فى مملكة صـقليـة (ابن تنكريد دى ليـتـشـه). وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة الى قوام «الامبراطورية الرومانية المقدسة».

واعدت المدن الايطالية السفن. وفى المانيا تشكلت جموع جديدة؛ وفى فورمس قبل هنريخ السادس فى مارس ١١٩٦، مع القاصد الرسولى، خلال اربع ساعات، فى الكاتدرائية، النذور الصليبية من الفرسان.

اثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر فى بيزنطيا. فوافق المغتصب الكسيوس الثالث على شراء السلام باى ثمن كان. كان مستعدا لدفع مبلغ هائل ذهبا لهنريخ السادس. ولتحصيل

على المدينة من جميع جهاتها، وصلى المسلمين
على الجبل الذى حولها يوم الجمعة، وزحفو للقتال
بعد الصلاة وكان باليان ابن بارزان فارس كبير
محتشم من فرسان الافرنج يسكن فى مدينة بيت
المقدس واقطاعه مدينة الرملة كان دخل مدينة
القدس فى ذالك اليوم وهو الذى كان يدير الحرب
ومسك القتال مع السلطان قتال جيد والسلطان
يرسل اليه ان يسلم البلد بالامان فلم يفعل.

---

وجمع الاموال اللازمة فى البلد الفقير البائس. فرضت ضريبة استثنائية اسميت بالضريبة الالمانية (الامانيكون).

فى مارس ١١٩٧؛ تحركت نحو الشرق اولى الفصائل برئاسة رئيس اساقفة ما ينتش. كونراد فيتلسباخ، والمارشال هنريخ من كالدن، ومستشار الامبراطورية كونراد من كفيرفورت. ويقدر مدون الاخبار ارنولد من بولك عدد افرادها بـ ٦٠ الفا. وفى ٢٢ سبتمبر نقلهم الاسطول الى عكا. وتوقف قسم من الصليبيين فى قبرص. واعتبر ملك قبرص آمورى دى لوزينيان نفسه تابعا للامبراطور الالمانى وسرعان ما انتخب ملكا على القدس رسميا بضغط من القوات المسلحة الالمانية. ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية فى لبنان وسوريا، بل انهم استولوا على صيدا وبيروت.

الا ان كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنريخ السادس فى مسينا فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ .فقدى فتكت بهذا الامبراطور نوبة دورية من الملاريا؛ واذا صليبيوه الذين بقوا فى لبنان وسوريا حتى صيف ١١٩٨ وعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين)، يسرعون فى العودة الى المانيا لكى يؤمنوا مصالحهم فى الحرب الاقطاعية التى نشبت هناك.

وبعد حقبة قصيرة، تعالت فى الغرب من جديد صيحة باباوية: «الى الشرق!». فان نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع ابسط توقعات الكرسى الرسولى.

وكان رجل نصرانى من الملكية يسمى يوسف البطيط من اهل القدس كان وانتقل إلى دمشق وسكن فيها، وعرف صلاح الدين واخوته قبل ان يكون سلطان وقبل هذه الامور، وعرف ابوه وعمه اسد الدين شيركوه وهم بدمشق فى خدمة نور الدين محمود ابن زنكى قبل ان يملكو مصر، فلما ملك السلطان ديار مصر جا اليهم يخفظوه [يراعوه]، فاخذه الملك العادل ابو ابكر اخو

---

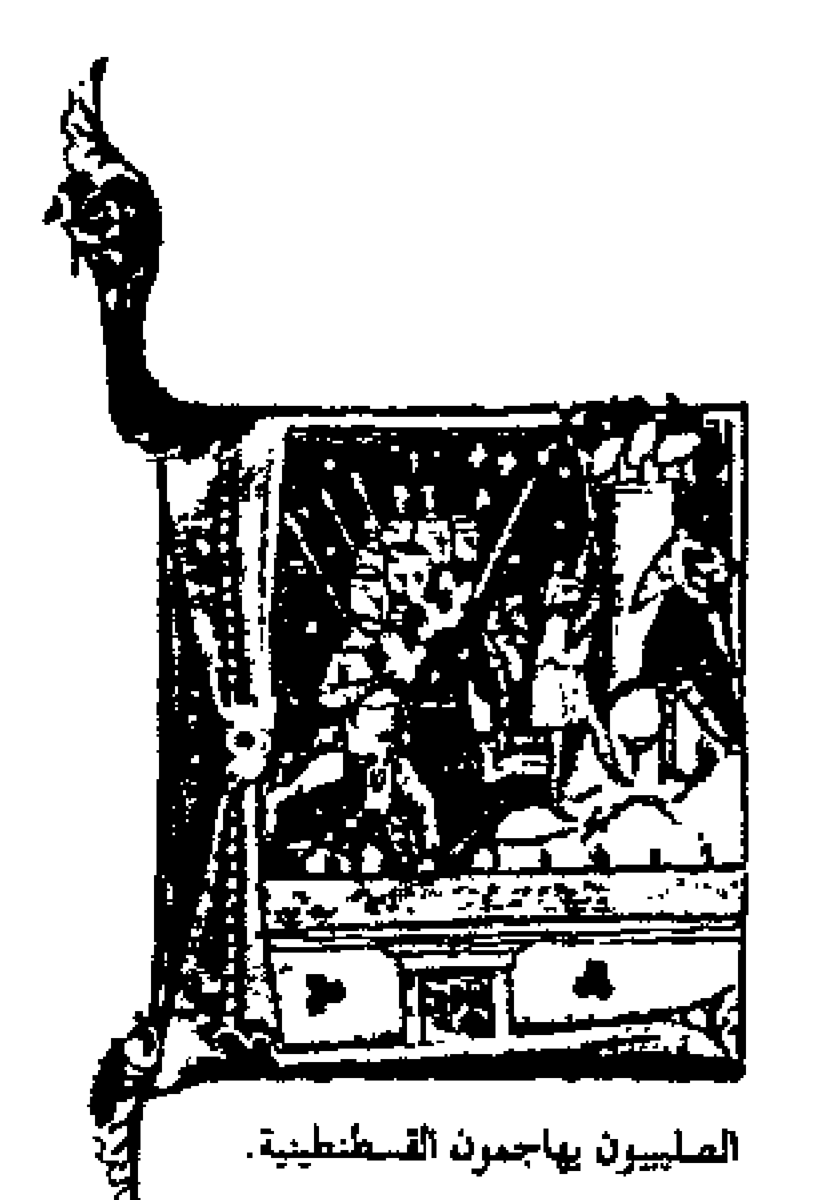
## الصليبيون فى القسطنطينية



## تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها

تشغل الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٩ ـ ١٢٠٤) مكانا خاصا فى تاريخ الحروب الشرقية التى شنها الفرسان الغربيون. فان بعض العلماء الغربيين يعتبرونها ضربا من صدفة تاريخية، ضربا من مفارقة تاريخية، ضربا من تناقض، ولهذا الاعتبار اسس شكلية معينة، ذلك ان هذه الحملة التى استهدفت تحرير «الاماكن المقدسة» من السيادة الاسلامية، قد انقلبت فى آخر المطاف الى هزيمة منيت بها بيزنطية والى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هى دولة الصليبيين، اى دولة اخرى فى عداد دول الصليبيين التى سبق ان تشكلت فى الشرق.

صـلاح الدين الى عنده وانعم عليـه واسكنه فى قصـر الخليفة فى قاعت [قاعة] باب الذهب فى القـصـر الشـرقى بالقـاهرة. وكـان صـلاح الدين يترسل به الى ملوك الافرنج قبل هذه الامور فصار يدرى احوال بلادهم ويعرف كبار فرسانهم، فلما رأى السلطان الحرب شـديد ولم يقـدر على المدينة المقدسة احضر يوسف البطيط واتفق معه ان انفذ الى النصاره الملكيـة يوعـدهم بكل خيـر ويفتـدهم



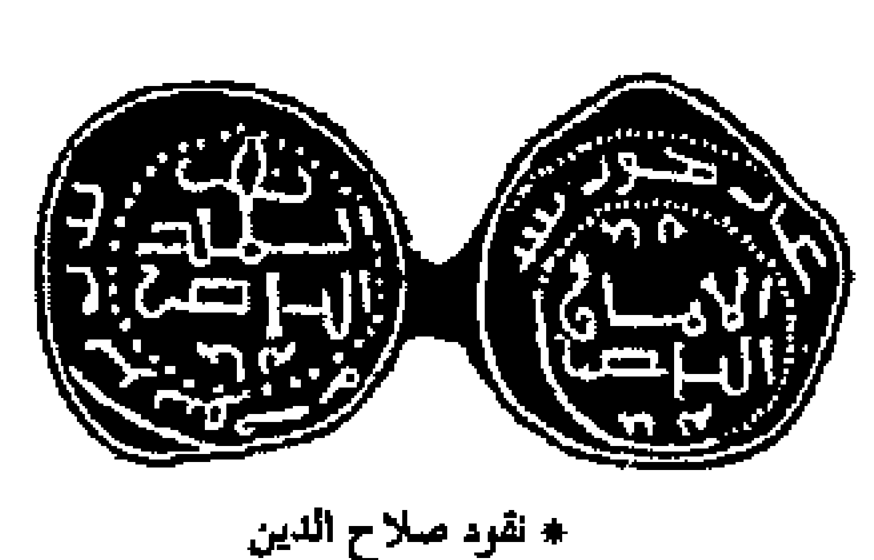
الصليبيون يهاجمون القسطنطينية.

---

فكيف حدث ان مضى الاقطاعيون المسيحيون الذين تجمعوا من مختلف بلدان اوروبا (وبصورة رئيسية من فرنسا والمانيا وايطاليا)، «الى ما وراء البحر»، حسب تعبير مدونى الاخبار، بحجة انقاذ الايمان المسيحى من نجس ودنس «الكفار» ولكنهم فتحوا ونهبوا عاصمة بيزنطية، عاصمة دولة اخوانهم فى الدين المسيحين؟ وهل كان هذا الانعطاف نتيجة لتجمع من باب الصدفة، لتجمع غير متوقع لظروف مشؤومة، غير متوقفة على نوايا الصليبيين الاولية؟ او لربما تحولت الحملة الصليبية المعادية لمصر الى مشروع فتوحات ضد بيزنطية بفعل افعال متعمدة قام بها المشتركون فى هذه الحملة؟ واذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فمن هم المسؤولون مباشرة عن «انحراف الصليبيين عن السبيل» أو لربما يقع الذنب الرئيسى عن «الانحراف عن السبيل» على قادة الحملة انفسهم، ومنهم، مثلا، الماركجراف الايطالى بونيفا سيوس دى مونفيرات؟

ان مسألة الاسباب التى اتخذت الحملة الصليبية الرابعة بفعلها اتجاها جديدا وانتهت كذلك نهاية مدهشة هى مسألة مشوشة جدا، وليس فقط من جراء تضارب اخبار المؤرخين. فان معاصرى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية الذين وصفوا نهب العاصمة البيزنطية (واحدى المدونات اللاتينية تسمى بالضبط : «اجتياح القسطنطينية») وكذلك المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا بعناد ومثابرة ان يحزروا لغز سنة ١٢٠٤، لم يكونوا براء من عدم التحيز. ان تأثير

عن مساعدة الافرنج في القتال وان يسلمو المدينة لصلاح الدين من ناحيتهم وقرر عليهم [لهم] مال كثير. فلما اتصل الخبر بباليان ابن بارزان، وكانو الملكية في المدينة اكثر من الفرنج خاف [أن] يسلموها [الملكية] فيهلكو الافرنج جميعهم بالسيف، اذعن [فاذعن باليان] الى الصالح [الصلح] وقرر القطيعة [الفدية] على جميع من في المدينة من الفرنج وغيرهم، وذالك غيظ على



* نقود صلاح الدين

---

نزعات العلماء الدينية الطائفية واتجاهاتهم السياسية قد انعكس كذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة في نتائج دراساتهم في القرنين التاسع عشر والعشرين لقضية الحملة الصليبية الرابعة الامر الذي صعب حل القضية حلا صحيحا، مناسبا، حسب مصطلحات الاختصاصيين.

هناك كثرة من الكتب والمقالات والمنشورات الوثائقية المشروحة بالتفصيل التي تتناول استيلاء الفرسان الصليبيين على بيزنطة. وهذه الاعمال تعرض شتى التفسيرات بصدد العوامل التي غيرت اتجاه الحملة الصليبية. وغير مرة كانت الحملة الصليبية في اوائل القرن الثالث عشر ومختلف وقائعها، ولا تزال الى الآن، موضع مناظرات حارة ومغرضة بين المؤرخين. بل انه من الصعب ان نتصور مقدار الجهود التي بذلها الباحثون في السنوات المائة ونيف الاخيرة (ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة قد اصبح موضع دراسة معمقة منذ الستينيات تقريبا من القرن الماضي) لتفسير وتوضيح ظروف تغير اتجاه الصليبيين، ومقدار الحبر الذي انفقوه، ومقدار العمل الدقيق الذي قاموا به لتفهم تطورات هذه الحملة.

لقد جمع العلماء وحللوا عددا ضخما جدا من المصادر باللغات اللاتينية، واليونانية، والفرنسية القديمة، الارمنية، والروسية، وغيرها من اللغات، ودققوا طائفة من التفاصيل المتعلقة باحداث ملموسة من الحملة الصليبية. وقد تسنى لهم سد الكثير من نقاط الفراغ والغموض

الملكية، لانه لولم يسبقهم ويقرر القطيعة كانو قد سلموها واهلكو الفرنج جميعهم الذين فيها. والقطيعة الذى قررها مع السلطان عشرة دنانير من كل رجل وخمسة دنانير من كل امرأاه ودينار واحد من كل صبى اوصبية لم يبلغ الحكم [الحلم]. ولما تسلمها السلطان كتب الى ولاة الديار المصرية يعرفهم بذالك، وكتب الى الامير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية، وقد كان المذكور



نقود صلاح الدين ضربت فى دمشق سنة ٥٨٣.

---

فى تاريخ هذه الحملة. ومع ذلك، لم يتم بعد حتى الآن الاتفاق التام بشأن المسائل المختلف عليها، ولا تزال المناقشات قائمة.

ولكن رغم الغموض المتبقى بصدد بعض وقائع الحملة ورغم قابلية بعض المسائل للنقاش، بلغت معارفنا اليوم درجة من الدقة والصحة بحيث نستطيع كليا ان نعيد بناء كل تاريخ احداث سنوات ١١٩٩ ـ ١٢٠٤ بخطوطه الكبرى.

## شمولية سياسة البابوية واعداد الحملة على الشرق

كان البابا اينوسنتيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) المبادر الى الحملة الصليبية الرابعة وروحها، وفى عهده البابوى بلغت البابوية قدرا كبيرا من الجبروت. وفى ذلك اسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته، الرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة. تحدر اينوسنتيوس الثالث من العائلة الاقطاعية الكبيرة دى سينيى، وشغل الكرسى الرسولى فى السابعة والثلاثين من عمره. ولكن رغم انه كان الاصغر سنا فى هيئة الكاردينالات التى انتخبته، كان لاختياره من قبل الشيوخ الكاردينالات اسس جديدة. ولا ريب ان اينوسنتيوس الثالث كان سياسيا بارزا فى زمنه لما تميز به الارادة الراسخة، والمثابرة فى بلوغ الاهداف المنشودة، والقدرة على استغلال جوانب الضعف فى اخصامه بعد دراستها جيدا، واخضاع نواياهم لمقاصده، والتنبؤ

ولى هذه الاعمال فى شوال سنة احدى وثمانين وخمس ماية [ ۹۰۱ قبطية = ۱۱۸٥م] وهو مستمر فيها الى يوم تسطير هذه السيرة فى شوال سنة ثلث وستماية الهلالية، ثلثة وعشرين سنة وهو مستمر، وكان رجلا جيد عادل [عادلاً] دين [ديناً] كثير الصدقات، مكفوف اليد عن اموال رعيته. وهذه نسخة كتاب السلطان اليه بفتوح البيت المقدس(*) :

(*) نسخة كتاب صلاح الدين بسقوط بيت المقدس إلى الأمير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية.

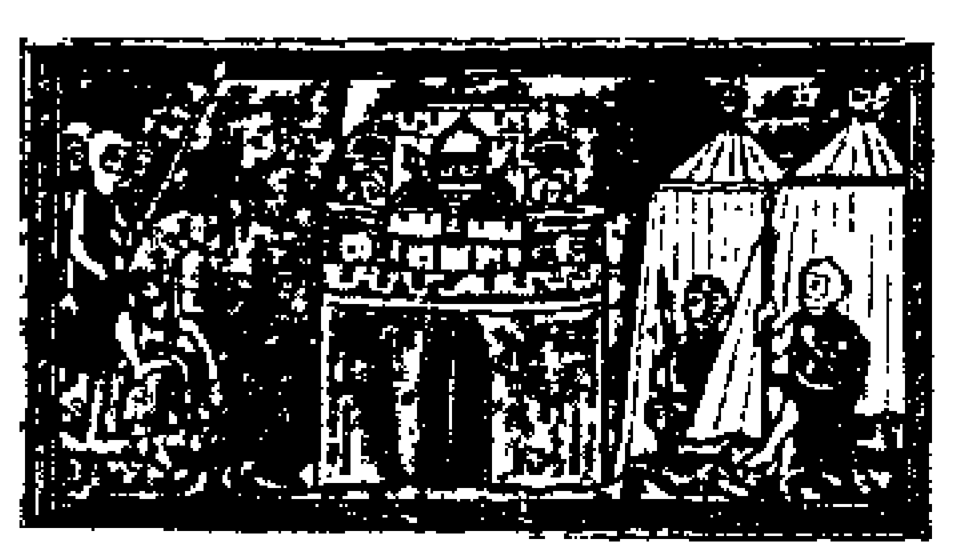
---

بالاحداث وتوجيهها ـ هذه المواهب وحدها كانت تكفى لاستمالة اصوات الكاردينالات الى جانبه.

كان الهدف الرئيسى الذى استهدفه اينوسنتيوس الثالث اقامة سياده (زعامة) الكنيسة الرومانية بصورة تامة على عموم العالم الاقطاعي في الغرب والشرق. وهذا الهدف بالذات هو الذى حدد الجهود العملية التى بذلها الحبر الاعظم الرومانى الذى لا يعرف الكلل. وليس عبثا أن اتهم ولا يزال يتهم حتى انصار الكاثوليكية البابا اينوسنتيوس الثالث بانه اخضع الاعتبارات الدينية للمصالح السياسية، وخالف المبادئ التى نادى بها بذاته. اما المؤرخون الكاثوليك فى ايامنا، فانهم يبدون رأيهم في هذا الصدد لاجئين الى صيغ اكثر مرونة؛ فان البابا، كما يزعمون، لم يكن دائما يسترشد بالدوافع الدينية، اذ انه لم يستطع ان يتغلب بنفسه على «التناقضات بين نائب المسيح ورجل الدولة». ولكن الواقع يبقى واقعا وهو ان البابا اينوسنتيوس الثالث كان قبل كل شئ رجل دولة وضع فى المقام الاول المصالح السياسية لروما البابوية.

كانت الحملة الصليبية منذ البداية جزءا مكونا فى غاية الاهمية من اجزاء البرنامج الشمولى للحبر الاعظم. وكانت الفكرة الاولى والاخيرة عند البابا اينوسنتيوس الثالث. وفى كل مدة حكمه البابوى بذل جهودا كبيرة لاجل بعث روح الحملات الصليبية القديمة. وما

بسم الله الرحمن الرحيم، كتابنا الى الامير الاجل الاسفهسلار الكبير نصير الدين فخر الاسلام عمدة المجاهدين خاصة امير المومنين، ادام نعمته واعلا رتبته واجزل من الخيرات موهبته وارهف عزمته، وقد طلعت على اسوار البيت المقدس (حرسه الله) اعلامنا، ونفذة [نفذت] فيه احكامنا، وذهب [ذهبت] ايام العدو الكافر واستقبلته ايامنا، وثبت بتاييد الله واقدامها اقدامنا.


الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

---

كاد الكاردينالات الذين تجمعوا فى دير القديس اندراوس ينتخبونه للكرسى الرسولى حتى وجه الى الغرب نداء مدويا دعا فيه الى القيام بحرب مقدسة جديدة ضد المسلمين لاجل تحرير القدس.

وفى الحال اتخذت تدابير ملموسة دينية عملية، ومالية وديبلوماسية ـ لاجل اعداد الحملة الصليبية.

ولإعداد للحملة الصليبية، توجه البابا اينوسنتيوس الثالث الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث. فقد كان على القسطنطينية، برأى البابا، ان تحرك عساكرها لاجل تحرير القدس. هذا المطلب تلقاه الامبراطور البيزنطى فى رسالة باباوية لام فيها اينوسنتيوس الثالث الامبراطور على انه من زمان لايساعد الارض المقدسة. هذه الملامات لم تكن سوى ورقة ديبلوماسية . فان اينوسنتيوس الثالث كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطة. وكان يهمه اشتراك بيزنطة فى الحملة الصليبية (مع ان البابا كان يريد بالتأكيد ان يستغل مواردها المادية والعسكرية لاجل فرض سيادة الكرسى الرسولى فى الشرق) اقل مما كان يهمه فى المقام الاول امر آخر هو اخضاع الكنيسة ا لارثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية). وقد طرح البابا فى رسالته الى الامبراطور البيزنطى، اول ما طرح، مسألة اتحاد الكنيسة. وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تتستر وراءها نوايا


الهجوم الصليبى على قلاع السلاجقة

وكان مدة المنازلة له ثلثة عشر يوما، وايام المقاتلة سبعة ايام جسوما رمى بالمناجيق حتى خربت الاسوار وحطمتها وحدرت الجدران وهدمتها، واقامت كلمة التوحيد وقومتها واظهرت شعاير الدين الحنيف وعظمتها، وكيف يقا يعوى [يقوى] الحجر الصغير على مصادمت الجبل الكبير، بل كيف يدوم مع الحق الضلالة ويقاتل بدوات الحجال [النساء البدويات ذات الحجال اى النساء

---

القضاء على استقلالية الكنيسة الارثوذكسية، واستملاك ثرواتها ومداخيلها، واخضاع بطريرك القسطنطينية، رئيس الكنيسة الارثوذكسية، ومن بعده الامبراطور نفسه.

وهكذا ظهر مشروع الحملة الصليبية واتحاد الكنيسة وثيقى الارتباط فى سياسة البابا اينوسنتيوس الثالث. وقد حدث ذلك لان البابا رأى في الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لاحراز نجاح مزدوج في آن واحد: جعل القدس والقسطنطينية معا تابعتين لروما. ومن المؤكد ان اينوسنتيوس الثالث لم يكن يرى آنذاك في الحملة الصليبية اكثر من وسيلة لتخويف الاوساط الحاكمة في الامبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتمة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الصليبيين. وببساطة نقول ان البابا هول على الامبراطور البيزنطي لاجباره على اجراء تنازلات تتعلق بالوحدة الكنسية. اما في الواقع، فان البابا لم يقتصر في رسالته الى الكسيوس الثالث على النصائح «الابوية» وعلى الاستشهادات بالانجيل. بل المح بما يكفي من الوضوح الى ان بعض قوى اوربا ستعمل، اغلب الظن، ضد بيزنطة اذ رفضت القسطنطينية مطلب الكرسي الرسولي. وهذا التهديد الغامض كان مجلببا بجلباب ديلوماسي.

ولكن القسطنطينية رفضت قطعا مطامع البابا اينوسنتيوس الثالث، وفي فبراير ١١٩٩ وجه الكسيوس الثالث اتهامات مقابلة الى الباباوية بسبب سياستها حيال بيزنطة. وكل هذا لم يفعل

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الضعيفات] عزايم ابطال الرجال. وما زالت الكفار في شقا وبلا وخذلان وعنا [عناء] منذ يوم المنازلة الي يوم التسليم، لا يخلو يوم من ا سارى وجرحاً بل قتلا وصرعا فنظرو، واذا حميت حماتهم قد خمدت، وعزايم كاتهم قد همدت، وطرف بلدهم قد فض، وجناح باشورتهم قد خض، وطور قلعتهم قد ذل، وثقل الابراج بكفات المناجنيق واصابع سهامها قد فل، وان لا مخلص لهم من براثين



الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

---

غير ان اثار غضب البابا. وبقدر ما كانت تتطور الاحداث، كان يحاول ان ينفذ تهديداته لبيزنطة: في ١١٩٨ ـ ١١٩٩ كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لاتزال، الحق يقال، غير واضحة، ولكن البابا اعرب بكل وضوح عن جوهرها.

وهكذا بدأت تنعقد في سنة ١١٩٨ تلك العقدة التي امتدت في سنة ١٢٠٤ انشوطة مشدودة حول القسطنطينية.

ان تناحر البابوية وبيزنطة الذى كانت سياسة البابوات الشمولية اساسه قد كان السبب الاول (من حيث زمن ظهوره)، وان لم يكن السبب الرئيسي، لتغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة. وسرعان ما انضمت اليه اسباب اخرى، اهم.

## الاستعدادات للحملة. دوافع الفرسان

لقي نداء البابا صدى، ولكن ليس في الحال، وبصورة محدودة جدا، وعلى الاغلب في الوسط الاقطاعي، وقبل كل شئ في فرنسا. ففي فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار الاقطاعيين ومعهم اتباعهم الفرسان. اما الملوك، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة لدعوة البابوية. ان ملك فرنسا فيليب الثاني اوجست، الذى مر منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة كان يتمسك برأى مفاده ان الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة. ولم يأبه فيليب الثاني اوجست لنداء القاصد الرسولي بيار من كابوا الذى وصل الي فرنسا، واستأنف الحرب، بعد

الاسد، وان الضلال قد اخفاه الحق ودفعه الرشد، وان مدة ولايتهم قد تصرمت، وجرت على مرادها الاقدار. وكان البلدان يدخل عليهم فيه من جميع الاقطار، وانهم اسارى في قيدى الجوع والحصار، وتوهمو بل تيقنو ان البلد سيلقيهم الى اوليا الله فيمضو فيهم حكمى السيف والنار، وان المسجد الاقصى قد لبس حلتي الفرح والاستبشار، واخلع الذل والصغار. هذا وامداد الاسلام متوافيه، والعدد

---

مصرع ريتشارد قلب الاسد، ضد اعدائه، آل بلانتاجينه، اذ انقض على الممتلكات الفرنسية خليفة ريتشارد، الملك الانجليزى الجديد جان بلا ارض (Jean sans Terre) (١١٩٩ ـ ١٢١٦). اما ريشار قلب الاسد ذو التأدب ـ وقد كان لايزال حيا عندما بدأ فولك دى نويى مواعظه ـ فقد سخر على المكشوف من خطابات هذا الكاهن النارية. ان بطل الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب مدون الاخبار الانجليزى جيرالد من كمبريدج، قد قال لفولك، ردا على دعواته، ما يلي تقريبا: «انت تنصحني بجحد ابنائى الثلاثة ـ التكبر والبخل والفجور. لا بأس. فانى اتنازل عنهم لمن هم اجدر منى، تكبرى للهيكليين، بخلى للسيسترسيين، فجورى للكهنة».

مر مارس ١١٩٩ ـ الموعد الذى عينه البابا اينوسنتيوس الثالث لانجاز الاستعدادات للحملة ـ ولكن لم تكن هناك القوات الصليبية.

لم تقم الاستعدادت المباشرة للحملة الا منذ اواخر سنة ١١٩٩. ففى نوفمبر اقيمت جولة بين الفرسان فى قصر اكرى بمقاطعة شامبانيا (على نهر الاين، منطقة الاردين). وهنا تعهد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك فى الحملة الصليبية. وقد انتشرت فى الادب اسطورة تزعم ان فولك دى نويى قد خطب في الجولة، وسحر الفرسان باقواله. ولكن مصدرنا الرئيسى الذى يروى بالتفصيل مجرى الاحداث، وهو جوفروا فيللاردوان، لا يذكر شيئا عن

وافيه، ونعم الله على وجوه احوال المسلمين ظاهرة
غيرخافية، والخيرات بالعسكر ا لمنصورة وافرة
كافية. ولما كان يوم الخميس سادس يوم المقاتلة،
وهو السادس والعشرين من شهر رجب، جا لهم
الموت من كل مكان، وادركهم الصغار والخذلان،
وزحف المومنون وتقدم الموحدون وتعلقو بشرافات
الاسوار وعليهم الزحف الموصون، وبايديهم كووس
الحتف والمنون، الا ان الجبال سايرة والبحار مايرة

---

موعظة فولك، ولو كان هذا الكاهن من نوبى حضر الجولة فعلا، لما كان تردد جوفروا فيللاردوان عن الاشارة الى ذلك. على كل حال، استحوذت الحمى الصليبية على الفرسان والاسياد منذ جولة نوفمبر. وبين الذين اخذوا الصليب، كان طواغيت اقطاعيون بارزون، اغلبهم من الشبان (لم يكن احد منهم تقريبا يتجاوز الثلاثين من العمر).

## المفاوضات فى البندقية. التجارة المشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية

نحو صيف سنة ١٢٠٠ اجتمع في فرنسا عدد ضخم بقياس ذلك الزمن من العساكر المستعدة للسفر بحرا . وقد انقسم الصليبيون الى زهاء ١٥٠ فصيلة بارونية (ترد في مدونات الاخبار والوثائق اسماء زهاء ١٥٠ بارونا قائدا)، تضم كل منها ٨٠ ـ ١٠٠ فارس. وعن اولى خطوات القادة العملية يحكى في يومياته بالتفصيل جوفروا فيللاردوان الذى يحاول قصارى جهده فى كل سرده ان يبيض صفحة المشتركين فى الحملة وقادتهم.

اجتمع كبار البارونات بادئ ذى بدء في سواسون ثم في كومبيان (الى الشمال من باريس) ـ وقد حضر فيللاردوان بنفسه هذين الاجتماعين ـ وانتخبوا تيبو الثالث، كونت دى شامبانيا، البالغ من العمر ٢٢ سنة ، قائدا عسكريا اعلى للجحافل الاقطاعية. ثم اختاروا في كومبيان

---

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

ورحى الموت على نفوسهم دايرة، فعندها لاذو
بالامان وعادو بالخذلان وارسلو واردهم وبعثو
ورايدهم يسال فى تقرير القطيعة، ويقرع فى قبول
ما قبلته انفسهم الابية مذعنة مطيعة، وما سمحت
به من ذخاير كانة [كانت] على ايام ممتنعة منيعة.
واختارو حكم الميزان القايم سلاقهم [بتلافيهم]
السيف وعذابه فيهم، وتقررت امور قرت بها عينى
النبى صلوات الله عليه فى ضريحه، ونطق به

---

ستة فرسان من الاعيان وارسلوهم رسلا الى البندقية. وكان على هؤلاء ان تفقوا مع حكومة البندقية بشأن نقل القوات الصليبية بحرا. وفى عداد الرسل كان فيللاردوان نفسه، كما كان الفارس الشاعر الشهير ببلاغته وفصاحته كونون دى بيتون، الذى نظم قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة. وصل الرسل الى البندقية فى اوائل فبراير ١٢٠١. وليس من المعلوم بدقة طول الوقت الذى اجروا فيه المفاوضات هنا: لربما ثمانية ايام ولربما زهاء شهرين (تختلف معلومات مصادرنا). وعلى كل حال، تم التوقيع فى اوائل ابريل ١٢٠١، بعد بضعة لقاءات مع دوق البندقية الطاعن فى السن انريكو دندولو (١١٩٢ ـ ١٢٠٥)، على معاهدة وافقت بموجبها البندقية، بشروط معينة ، على تقديم السفن للصليبيين.

كان توقيع هذه المعاهدة واقعة هامة جدا فى تاريخ الحملة الصليبية. فآنذاك تم، فى البندقية، اعداد اكبر عوامل هذا المشروع، العامل الذى دفع الصليبيين فيما بعد ، حين ا ستقام واستطال، بعيدا عن تحرير الارض المقدسة. ولفهم دور «عروس الادرياتيك» (هكذا كانوا يسمون البندقية احيانا) فى الاحداث اللاحقة وانحراف الحملة عن الارض المقدسة، ينبغى ان نتصور مكانها فى علاقات الغرب التجارية مع الشرق، وعلى الاخص فى العلاقات بين البندقية وبيزنطية.

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م ١٥٢٠

لسان الراى الصحيح مع صريحه، مستحقاً الخاشر [الخاسر] هذا وقربا لمربحه وهو : عشرة دنانير على الرجل، وخمسة على الامرآه، ودينار واحد على الصبى الذى لم يبلغ الحكم [الحلم] والصبية التى لم تبلغ. وعدة من فى البلد تقارب ماية الف او يزيدون. وقطعو ضعفا لا يقدرون على شي سبعت الف رجل ثلثين الف دينار يقدموها صدقة بين يدى كبارهم وجزية معجلة عن اجرة سكانهم. والحمد

---

## معاهدة النقل.مقاصد البندقية

بموجب الاحداث اللاحقة، كانت خطة زعماء الصليبيين الاولية تتلخص فى دفع قوات الصليبيين الى مصر، وسحق قلعة العالم الاسلامي الرئيسية، ثم شن الحرب من هناك فى سبيل القدس. وعلى كل حال ، حين تجمع الصليبيون فى البندقية بعد سنة، «اتفق» رؤساؤهم «بالاجماع على التحرك رأسا صوب الاسكندرية، ومحاصرتها، وقد عرفت هذه المقاصد من على لسان المشترك فى الحملة رئيس الدير المذكور، مارتين.

ولكن الحرب ضد مصر لم تكن تطيب البتة للبندقية. فقد كانت لها علاقات تجارية منظمة جيدة مع مصر. ان تجار البندقية محبي النقود، الذين كانوا يكسبون الارباح الطائلة من نقل الحجاج الى سوريا ولبنان وفلسطين ومن نقل الامدادات والحبوب من الغرب الى الافرنج فى الشرق، كانوا فى الوقت نفسه يبيعون الاسلحة من السلطان المصرى بكسب ونفع. وكانوا كل سنة يكسبون الملايين من التجارة مع مصر، عدا ذلك، الخشب والحديد، ومن شراء العبيد فى مصر. صحيح ان السلطان المصرى كان يجبى مختلف الرسوم والضرائب عن البضائع التى يستوردها ويصدرها البندقيون، ولكن التجار البندقيين كانوا بالمقابل يستطيعون ان يتاجروا فى عموم مصر وبدون اى قيد او عائق. ولكى تنمو التجارة وتتطور، تعهد السلطان ـ كما جاء فى صك امان منحه السلطان ـ بعدم اخذ اى شئ نافل منهم. وفى الاسكندرية والقاهرة كان

---

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

لله الذى اخفت دعوتهم واخفا دعواهم، واستاصل
بالسيوف الناصرية غيهم ومن اغواهم. وشكر لله
على استنقاذ المسجد الاقصى الذى اسرى اليه
بعبده وانجاز ما سبق به صادق وعده. والامير ياخذ
حظه من هذه البشرى بالمسرة التي غمرة [غمرت]
القلوب وملأت الايدى والخزاين، وبشرت بفتح
ماطلعت عليه الشمس من الامصار والمداين،
وطرزت سيرة ايامنا بغرر الميامن والمحاسن. ويامر

---

للبندقيين حوش (خان) تجارى حيث كان بوسعهم ان يعيشوا، كما جاء في صك الامان المذكور، بحرية وتقوى، وان يكونوا حتى بحماية جنودهم بالذات.

وهكذا لم يكن التجار من البندقية ضد ابتزاز ارباح كبيرة من المسيحيين والمسلمين على السواء اذ كانوا يهتمون بالنقود فقط. اما من وجهة نظر البابوية ودول الصليبيين، فان هذه كانت تجارة مع العدو. وفي الشرق الافرنجي كانوا يقولون ان الارباح التجارية بالنسبة للبندقية اهم بما لا قياس له من انتصار قضية الصليب (وليس من قبيل الصدفة أنه نشأ عند احد مدوني الاخبار هو أرنول، تفسير بصدد الحملة الصليبية انتشر فيما بعد واسع الانتشار، ومفاده ان انحراف الحملة عن هدفها الاولى حدث لان السلطان المصرى اشترى من البندقية واجب توجيه الصليبيين في اتجاه آخر !).

وقد اضطر البابا اينوسنتيوس الثالث الى التنديد بالبندقيين تنديدا حادا بسبب لامبدئيتهم، وقد سبق له ان منعهم في سنة ١١٩٨ من بيع الاسلحة للمسلمين. وقد اعلن بشكل عام دون ان يسمى البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح اليها بجلاء : «اننا نحرم من الكنيسة ونلعن اولئك المسيحيين الدجالين وعديمي التقوى الذين يحملون الى المسلمين ضد المسيح نفسه وضد الشعب المسيحى السلاح والحديد وخشب السفن، وكذلك السفن، او يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القرصانية، ويديرون آلاتهم الحربية، او يقدمون لهم نصيحة ما او

باشاعتها ويتقدم بطرب البشارة واذاعتها، وتزيين البلد وحضور [صلاة] جمعة هذه المسرة وجماعتها موفقا انشا الله:.

ولما تسلم الملك الناصر صلاح الدين البيت المقدس بالامان والقطيعة المقدم ذكرها فى شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس ماية الهلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] اقام فيه الى ان صام شهر رمضان من السنة المذكورة وصلى فيه صلاة

---

مساعدة ما لما فيه ضرر الارض المقدسة» . وامر البابا اينوسنتيوس الثالث بان يذكر الكهنة بهذا الحرم فى جميع المدن الساحلية البحرية فى ايام الاحاد والاعياد وبان يضيفوا قائلين ان الكنيسة لن تفتح ذراعيها للمسيحيين عديمى التقوى «اذا لم يمتنعوا عن الطمع غير المشروع بالمال». ان البابا قد وجه هذه التهديدات، بالطبع، الى البندقية . ولكن البندقية تجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية التى ابرق وروعد فيها الاساقفة ورؤساء الاديرة ضد اولئك الكاثوليكيين الذين لا يأنفون، فى سبيل الربح، من تقديم السلاح لاعداء الدين المسيحى.

وهكذا لم يكن ثمة بالنسبة للبندقية اى معنى من تقديم الدعم للصليبيين فى حربهم المفترضة العتيدة ضد مصر، فقد كان المسلمين شريكا تجاريا موثوقا، فى حين ان الاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار واصحاب السفن من البندقية. ولهذا حرصت جمهورية القديس مرقس حين تعهدت بنقل الصليبيين على ان تبقى لساستها حرية التصرف عند تحديد اتجاه الحملة.

بموجب المعاهدة، تعهدت البندقية بان تقدم السفن لنقل ٤٫٥ الاف فارس و٤٫٥ آلاف حصان، و٩ آلاف سلاحدار و٢٠ الفا من المشاة، وتؤمن لهم الغذاء طوال تسعة اشهر. وفضلا عن ذلك، تعهدت البندقية، «حبا بالله»، ان تجهز بنفسها (اى على حسابها) ٥٠ مركبا مسلحا آخر. اما الصليبيون، فقد تعهدوا، من جهتهم، ان يدفعوا لجمهورية القديس مرقس، عن

العيد بمن حضر معه من المسلمين، وخرج حاصر الكرك فاخذه، وقلعة كوكب فاخذها، وتوجه الى صيدا وبيروت وجبيله وعتيل وسار فى طول الساحل وعرضه والسهل والجبال ففتح مدن وقلاع وقرى هى الى يوم نظم هذه السيرة في يد المسلمين، وفتح وملك بالامان اكثر مما فتح بالسيف واوفا بعهوده ولم ينكث بكلمه من قوله ولا غدر وكانو فرسان الفرنج وامراهم وكبارهم

---

خدماتها، ٨٥ الف مارك فضة («عن كل حصان اربعة ماركات، وعن كل انسان ماركين»). وكان ينبغى دفع المبلغ بالتقسيط، على اربعة اقساط على ان يدفع القسط الاخير في موعد لايعدو ابريل ١٢٠٢. كذلك احتفظت البندقية لنفسها بنصف كل ما يستولي عليه الصليبيون بمساعدة اسطولها وقواتها المسلحة في البر او فى البحر: «النصف نحصل عليه نحن والنصف الاخر انتم».

فهل يفى الصليبيون بتعهداتهم؟ من الممكن تماما ان يكون الدوج انريكو دندولو لم ينطلق الا من مقدار المبلغ الذى عينه، فأخذ سلفا بالحسبان ان الصليبيين لا يستطيعون ان يدفعوا المبلغ المطلوب، رغم انه من المشكوك فيه، من جهة اخرى، ان كان هذا المسن الذى كانت له خبرة جيدة في العمليات التجارية الكبيرة النطاق، يميل الى بناء الاوهام الباطلة. فان حكمة رجل الدولة البارزة كانت تجتمع عنده بنحو رائع مع بعد نظر التاجر المحنك فى الاعمال. ان المصيدة التى نصبها للصليبيين حاكم البندقية «الحكيم والمجيد جدا» كانت تتلخص قبل كل شئ في امر آخر، ومعاهدة النقل لم تكن صفقة تجارية عادية، كما يظن بعض العلماء، بل كانت تنطوى على كل غدر الدبلوماسية البندقية التى تخدم نهج الجمهورية السياسى التوسعي في البحر المتوسط.

---

يخرجو من حصونهم وقلاعهم باموالهم ومواشيهم ونساهم واولادهم وجميع ما يملكوه من المال والخيل والبغال والجمال والجوار والمماليك حتى الاسارى من المسلمين(*) ومن رضى يبيعه اسير منهم دفع له فيه قيمته وزايد ومن لا يرضى قال له خذ اسيرك ولكن افعل معه الخير كما فعلت معك وكان كثير من الفرسان يدفعو له اساراهم ويحلفو ما ياخذو ثمن فيحسن اليهم وينعم عليهم باكثر

*) كان الفرسان الصليبيون يخرجون من قلاعهم بعد سقوطها فى يد صلاح الدين بما ملكوه من أموال ومواشى ومن اسروهم من المسلمين دون أى اعتراض من المسلمين أو صلاح الدين، بل وفى حراسة جنود من المسلمين.

---

فلا النقود بحد ذاتها، ولا نصف الغنيمة المقبلة، كانت العنصر الاساسى، الاول، فى مقاصد دندولو. فبموجب المعاهدة، كان على الصليبيين ان يدفعوا مبلغ ٨٥ الف مارك، وفى هذا المجال يبدو كأن كل شئ واضح ولكن نص المعاهدة لم يكن ينبس ببنت شفة لا بصدد هدف الحملة الصليبية المباشر، ولا ـ وهذا هو الاهم ـ بصدد كيفية العمل والتصرف فيما اذا لم يصل الى البندقية فى الموعد المعين ـ نحو ابريل ١٢٠٢ ـ عدد من الجنود يتطابق مع العدد المعين. فهل تتعدل التزامات الصليبيين اذا وصل اقل من ٤٥٠٠ فارس، واقل من ٩٠٠٠ من السلاحدار واقل من ٢٠ الفا من المقاتلين المشاة؟ لم ترد ا ية كلمة عن هذا فى المعاهدة. وفيها كان يغيب، قصدا وعمدا، الشرط الذى من شأنه ان يضبط بنحو ما مقدار المدفوعات عن النقل تبعا لعدد الصليبيين الفعلى. ومن هنا كان يتحتم عليهم، مهما بلغ عدد الواصلين منهم الى البندقية فى الموعد المعين، أن يدفعوا ٨٥ الف مارك عدا وتماما. وهنا بالذات كان يكمن المقلب، وفى هذا البند بالذات خدع الدوق الرسل الفرنسيين، الذين وقعوا المعاهدة، ونصب الشباك لاصطياد جنود المسيح.

ان الديلوماسى والتاجر البندقى قد حزر مالم يمعن فيه الفكر، والحق يقال، فيللاردوان ورفاقه، فان الدوق قد اخذ بالحسبان انه من المشكوك فيه ان يجتمع فى البندقية جميع الصليبيين اذ ان الحماسة الدينية السابقة قد خفت نارها كثيرا، وانه كان من الصعب جمع

مما تركوه وكانو يخرجون من حصونهم لباس الزرد
والدروع والخوذ كما كانو يخرجو للحرب فاذا
رآهم تبسم ثم تدمع عينيه ولم يعترض لاحد منهم
شي قيمته حبه بل يسير معهم الاجناد يحفظوهم
ويخفروهم حتي يدخلو بمن اراد صور اليها، ومن
اراد انطاكيه اليها. وهذه نسخة الخطبة التي خطب
بها الخطيب في البيت المقدس يوم صلاة عيد شهر
رمضان بحضرة الملك الناصر صلاح الدين ومن

---

زهاء ٣٥ الف رجل تحت راية المسيح. ولكن اذا لم يجتمع ٣٥ الف رجل، بل اجتمع عدد اقل، فان الحاضرين سيواجهون حتما مصاعب نقدية جدية في حال تصفية الحسابات مع البندقية. واذ ذاك، سيتوقف مصير الصليبيين اللاحق على حكومة البندقية، عليه، هو الدوق دندولو، اذ سيكون بمقدوره ان يملي ارادة البندقية، واذ أن الصليبيين سيجدون انفسهم كليا، بوصفهم مديونين عاجزين، غير مقتدرين، في ايدى البندقيين، وسيضطرون بالتالي الى فعل ما يطلبه منهم الدوق. وعلى الدوق سيتوقف الاتجاه الذى ستتحول نحوه قوات الفرسان بحيث يعود ذلك باقصى النفع على البندقية.

من المشكوك فيه ان يكون الرسل الفرنسيون قد خاطرهم الشك في هذه المقاصد الماكرة والغدارة التي حاكها الشيخ المسن الشايب والاجعد الوجه الذى تعاملوا معه والذى اقسم اليمين، واضعا يده على الانجيل، انه سيتقيد بالمعاهدة حرفا وروحا دون اى انحراف. ان الرسل لم يأخذوا بالحسبان تلك الملابسات والمضاعفات التي سيصطدم الصليبيون بها فيما بعد، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان حماسة مواطنيهم وحميتهم قد تبردان. بل بالعكس. فان الرسل قد فرحوا، عند توقيع المعاهدة، لكونهم ادوا بمثل هذا النجاح المهمة التي عهد بها اليهم.

البابا اينوسنتيوس الثالث وحده استشف نوايا البندقيين الخفية، ومع ذلك، صادق البابا في ٨ مايو ١٢٠١ على معاهدة الصليبيين مع البندقية. «قد فعل ذلك بكل طيبة خاطر» كما

كان معه من المسلمين وهى اول خطبة خطبو بها بعد فتح المدينة واخذها من يد الافرنج(*).

(*) نص أول خطبة فى بيت المقدس للمسلمين امام الملك صلاح الدين بعد الاستيلاء عليها من الصليبين.

الحمد لله، الله اكبر على [ما] سهل ويسر، وفتح ونصر، وخذل الاعدا وقهر، ومن[منّ] علينا بالمسجد الاقصى المطهر، و اخرج منه الكفر والاعلاج بنو الاصفر، وشتتهم وبددهم ودمر [هم] ورد الى الملة الاسلامية الارض المقدسة أرض المحشر والمنشر الذى بارك فيها وحولها واكثر، ان فى ذالك

---

كتب فيللاردوان. هنا يخطئ هذا المؤرخ الفرنسي بعض الشئ، او لربما يصور قصدا وعمدا موقف رئيس الكنيسة الكاثوليكية بهذه الصورة. يقينا انه لم يكن بوسع البابا ان يرفض المعاهدة، اذ انه بدون اسطول البندقية كان يستحيل على الصليبيين ان يمضوا فيما وراء البحر، وفضلا عن ذلك، ارسل البابا اينوسنتيوس الثالث، اثر المصادقة على المعاهدة رسالة الى رجال الدين فى البندقية اعرب فيها عن ارتياحه لكون «اولاده المحبوبين، الدوق انريكو وشعب البندقية قرروا ان يقدموا للارض المقدسة مثل هذه المساعدة الجبارة». بل ان البابا المنافق والمرائى مضى الى حد التظاهر بان كل شئ يسيرحسب نواياه، وبان كل شئ يتحقق تنفيذا لارادته، فقد خاطب، مثلا، رجال الكنيسة في انجلترا وفرنسا طالبا منهم ان يراقبوا بدقة وعناية امر ارسال الفرسان فى الحملة فى الوقت المناسب، لاجل التقيد بالموعد «الذى عينه ابناؤنا المحبوبون كونتات الفلاندر وشامبانيا وبلواه».

ومهما يكن من امر، فان ربيع سنة ١٢٠١ قد اعد التربة لاجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر الى حملة لصوصية ضد بيزنطية.

## الامبرطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطة

فى الوقت ذاته تقريبا ، فعلت فعلها فئة اخرى من الاسباب التى حرفت الصليبيين فيما بعد عن الهدف الاولى وغيرت اتجاه الحملة الجديد، تلك هى التناقضات السياسية بين

عبره لمن تذكر، وحسره فى قلب من ألحد وتجبر. احمده على تغيير البيع والصوامع بالمساجد والجوامع، وتبديل النواقيس بالتاذين والتقديس، وتحويل تعظيم صليب المصلوب بتمجيد الحى الذى لا يموت. لم تزل عوايده جميلة، وعطاياه للمومنين جزيلة والسلام.

اعلمنا من يقف على هذه السيرة بصفة هذه الخطبة لان هذا موضع ذكرها ليلا [لئلا] يمتد بنا

---

الامبراطوريتين الالمانية والبيزنطية. اما اساس هذه التناقضات التى تطورت فى القرن الثانى عشر فهو بصورة رئيسية تطلعات الاغتصاب والفتح الى البحر المتوسط من جانب تلك العناصر الاقطاعية فى المانيا (وعلى الاغلب فى اراضيها الجنوبية) التى تلاحمت حول سلالة هوهشتاوفن.

فان سياسة هنريخ السادس المعادية لبيزنطة قد واصلها اخوه الاصغر وخلفه فيليب دى شوابيا (١١٩٨ ـ ١٢٠٨). وتطبيق هذه السياسة كان يلائمه تقلقل الحياة السياسية فى بيزنطة، الذى كان يعكس ضعفها الداخلى فى عهد ينتهى فيه فى الامبراطورية نشوء الاوضاع الاقطاعية. ففى سنة ١١٩٥، حدث انقلاب قصرى جديد فى القسطنطينية وبنتيجته حرم الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس من السلطة واعتلى اخوه الكسيوس الثالث العرش (١١٩٥ ـ ١٢٠٣).

### الحملات إلى مصر والسياسة الدولية

ان النشاط الشديد الذى بذله الحبر الاعظم لأجل دعم روح الحملات الصليبية ونشره عمقا وسعة، وارساء اساس متين لتنظيم الحروب المقدسة، وتأمين الدور القيادى فيها للباباوية، لم يسفر عن النتائج التى كان يأمل فيها البابا اينوسنتيوس الثالث.

الكلام فتوردها فى غير موضعها او نتركها ومرادنا بذالك ان تقفو على صورة الحال وتفهمو من اين دخل على دولة الافرنج الاختلال ليعتبر بذالك اولو الالباب ويتذاكرو على ممر الدهور والاحقاب.

ثم نعود الى شرح ما كنا فيه مما ايد الله به صلاح الدين، وما مكنه له من النصر والظفر والتمكين، وما صنع مع اعدا دينه ودولته، كقول التوراه: اذا عبر عليك حمار عدوك وانت جالس

---

في معرض اتخاذ الخطوات الأولى لتنظيم حملة صليبية جديدة، اصدر اينوسنتيوس الثالث بولاً (مرسوما) خاصا، اعاد فيه الى الاذهان ما يعانيه آلاف المسيحيين فى سجون المسلمين. وفى هذه الوثيقة تحدث البابا عن القلعة الإسلامية الرهيبة التى بناها المسلمون قصدا وعمدا على جبل طابور بفلسطين، فى المكان الذى حدث فيه (كما جاء فى الانجيل) ما يسمى بقيامة يسوع المسيح. هذه القلعة تهيمن على عكا وتتيح للمسلمين الظن انهم من هنا «سيتمكنون من ان يقتحموا بلا عائق الأرض المتبقية عن مملكة القدس». كذلك كان يتضح من الرسالة التى دعا فيها البابا الى الحملة الصليبية انه لم يكن يعتزم الاكتفاء بالأعمال الدعائية المحضة، بل كان ينوى كذلك ان يحضر بشخصه عملية صعود الصليبيين إلى السفن. وكان من المرتأى تكليف نائب البابا (القاصد الرسولى) بالاشراف على عملية انشاء القوات البرية وارسالها. وقد ضحى البابا اينوسنتيوس الثالث على حاجات الحملة بـ ٣٠ ألف مارك؛ وبعد فترة من الوقت اعتمد ايضا ٣ آلاف مارك. وتعينت سنة ١٢١٧ موعد بداية الحملة.

لم يشر المرسوم البابوى باية كلمة الى من يوصى به البابا او يقترحه لمنصب قائد القوات الصليبية. اغلب الظن ان انسب مرشح لهذا المنصب المسؤول كان الملك الالمانى الشاب

ووسقه مايل فقم اليه واعدل وسقه عليه. وقول الانجيل يوكد بما هو اعظم من هذا مما قد علمتم من قوله: حبو اعداكم وباركو لاعنيكم وصلو على من يشتمكم واحسنو الى من اساء اليكم. مع بقية الوصايا ليلا [لئلا] يطول الكلام، فعمل صلاح الدين بامر هذين الشريعتين من غير معرفة ولا قراه بل الهام من الله، ولاجل ذالك مات على فراشه وكانة [كانت] عاقبته حميدة في نفسه وذريته.

---

والهمام، وملك صقلية في آن واحد، فريدريك الثاني هوهنشتاوفن. وفي ١٥ يوليو ١٢١٥، اعلن فريدريك الثاني، حين كان في آخن حيث جرت حفلة تتويجه «ملكا رومانيا» انه يأخذ الصليب. ولكن هذا الاعلان كان من جهته اجراء ديبلوماسيا صرفا. فقد كان براء تماما من التعصب الاعمى الصليبي؛ وما هو أهم بكثير، هو ان الملك الالماني، المستغرق في الهموم السياسية الداخلية في ممتلكاته الاوروبية الجديدة، قد شغل، من حيث الجوهر، منذ باديء بدء، موقف الانتظار والتربص حيال الحملة الصليبية التي نادى بها البابا. ومع ان فريدريك الثاني كان خاضعا لوصاية البابا اينوسنتيوس الثالث الذي وافق على الاعتراف به ملكا المانيا مقابل تنازلات سياسية معينة للكرسي الرسولي، الا انه لم يكن بوسع البابا، بالطبع، ان يرشح هذا الملك لقيادة المشروع الذي حاكته روما.

وفي عداد الملوك، اخذ النذر الصليبي، عدا فريدريك الثاني، ملكان آخران هما اندراش (اندره) الثاني (المجر) ويوحنا بلا ارض (انجلترا)، تابع البابا اينوسنتيوس الثالث. وهذان الاخيران، ماتا أحدهما تلو الآخر، الاول في ١٦ يوليو والثاني في ١٦ اكتوبر عام ١٢١٦.

انتقلت قيادة تنظيم الحملة الصليبية الى خلف اينوسنتيوس الثالث، البابا اونوريوس الثالث (Honorius) (١٢١٦ ـ ١٢٢٧). وقد واصل اونوريوس الثالث سياسة سلفه وسعى الى تحقيق نواياه، متمسكا ببرنامج المجمع اللاتراني الرابع. واول خطوة اتخذها البابا الجديد كانت

وقد كنا ذكرنا ان صور وانطاكية كانا قد بقيا في يد الافرنج لما اراد الله من اسراره الخفية، فاما صور فان الله ساق اليها ملك من ملوك الافرنج من خلف البحر من ناحية الغرب يسمى مركيس(*)، وقال قوم انه رومي ابن اخت ملك القسطنطينية، لانه لم يكن بقي في الساحل مكان لم يفتحه صلاح الدين سو [سوى] صور وقلعة صفد، فاما صفد فانه نزل عليها وحاصرها سبعة شهور

(*) هو ماركيز كونارد دى مونتفرا. وكان أمضى بعض الوقت في قسطنطينية ووصل إلى إلى قرب عكا سنة ١١٨٧م.

---

تعين القاصد الرسولي في قوات الصليبيين التي كانت تستعد للسفر بحرا. وهذا المنصب شغله الكردينال بيلاجيوس من البانو، الاسباني الاصل.

أخّر موت اينوسنتيوس الثالث الحملة الصليبية بعض الشيء. وفي سنة ١٢١٧ لم ينطلق الى الشرق غير اندراش المجرى، والاسياد الذين التحقوا به واغلبهم من اراضي المانيا الجنوبية، والدوق ليو بولد النمساوى. وبواسطة رئيس الاوسبيتاليين المجريين، تسنى الاتفاق مع البندقية على تقديم عشر سفن كبيرة بسعر مقبول ـ ٥٥٠ ماركا فضيا لكل سفينة ـ وقد تعين دفعه على ثلاثة اقساط ـ لجأ الملك المجرى الى الطرائق التي ألفها قادة الصليبيين وهي ـ تزييف العملة، بيع بعض الضياع الملكية، نهب الكنائس والاديرة. ويستفاد من معطيات مدوني الاخبار، المبالغ فيها على ما يبدو، ان نحو ١٠ آلاف فارس خيال وكثيرين من المقاتلين المشاة قد انضموا تحت لوائه. على كل حال، لم تكف السفن التي وصلت في ٢٥ يوليو ١٢١٧ إلى سبليت، ولذا عاد قسم من الصليبيين إلى بيوتهم وقد وطدوا العزم على السفر في ربيع السنة القادمة. ووصل الملك اندراش الثاني نفسه الى سبليت في ٢٣ اغسطس، ولكنه اضطر الى الانتظار بعض الوقت هناك حتى يبحر الصليبيون اخيرا الى عكا.

بدأت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١). ففي سبتمبر ١٢١٧ اجتمعت في

واخذها لما جاعو الذين فيها سلموها له لانهم لم يكونو اعدو شيآ للحصار. ولما سلموها له وراحو الى صور، وصار كلمن سلم قلعة او حصن او مدينة بالامان يمضو الى صور او الى انطاكيه. وفعل مع الافرنج لما قدر عليهم كل معروف.

فاما صور فانه نزل عليها ثلاثة دفوع وحاصرها وضيق عليها واقام عليها الى ان ضجر مقدار سنة يتردد اليها معسكر فى البر ومراكب الاسطول فى

---

عكا فصائل اندراش الثانى المجرى، وليو بولد النمساوى، والدوق اوتو من ميرانو، كما وصلت الى عكا فصائل ملك قبرص، جى دى لوزينيان، وفصائل الفرسان التابعة للاسياد اللاتين فى سوريا ولبنان وفلسطين ـ ملك القدس يوحنا دى بريان، وامير انطاكية بوهيموند الرابع، والاوسبيتاليين بامرة الاستاذ الأكبر جارن دى مونتيجيو، والهيكليين بامرة الاستاذ الاكبر غيوم من شارتر، والفرسان التوتونيين بامرة جرمن فون زالتس. وكان المعاصرون يعتبرون ان عدد المشتركين فى الحملة الصليبية الخامسة الذين توزعوا ورابطوا فى جوار عكا وفى المدينة، بلغ ٢٠ الف فارس و٢٠٠ الف من المشاة، وهذا ايضا من باب المبالغة الشديدة.

استقبل الاسياد اللاتين المحليون الصليبيين القادمين من الغرب الى عكا بدرجة كبيرة من البرودة، ان لم يكن بعداوة سافرة. فقد كانت البلاد الخاضعة لهم تعانى المجاعة؛ ففى السنة السابقة ساد الجفاف. بل ان كثيرين من الصليبيين ماتوا جوعا، ـ وحسب معطيات لمدونى الاخبار مبالغ فيها جدا، مات نحو ١٠٠ ألف. أما الاهم، فهو ان الافرنج فى سوريا ولبنان وفلسطين لم يكونوا البتة بحاجة الى حملة صليبية. فقد كانوا منذ زهاء ٢٠ سنة يعيشون بسلام مع مصر، ويتاجرون معها، بينما الحرب لم يكن بوسعها غير ان تخل بالوضع القائم وتضر بمصالح الطرفين الاقتصادية.

البحر فلا يقدر منها على شي، ولم يزل مركيس
فيها يحفظها ويدبرها بمشية الله تعالى لسلامتها
حتى وصلو اليها الملوك ونزلو على عكا ظاهر البلد
على تل المشنقة. ولما كان فى محرم سنة اربع
وثمانين وخمس ماية [١١٨٨م] توجه الملك الناصر
صلاح الدين الى دمشق بعد ان اقام مجاهد مرابط
فى ساحل الافرنج سنة اثنين وثمانين وخمس ماية
وسنة ثلاثة [١١٨٦م] وثمانين وخمس ماية

---

امضى الصليبيون المجريون والالمان سنة بكاملها فى عكا بلا جدوى. وقد حاولوا ان يشنوا غارات على دمشق ونابلس وبيسان؛ وكان الافرنج، كما يقول المؤرخ العربى ابن الاثير، يعرفون ان عساكر السلطان العادل كانت آنذاك موزعة فى مختلف انحاء دولته المترامية الاطراف. كذلك حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة طابور مع ابراجها الـ ٧٧ وقهر حاميتها المؤلفة من الفى رجل. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل من جراء الخلافات بين الزعماء العسكريين للصليبيين. فان بوهيموند الرابع، امير انطاكية، مثلا، كان يعارض قطعا اقتحام قلعة جبل طابور بينما كان يوحنا دى بريان يصر من جهته على ذلك.

حاول الصليبيون ثلاث مرات اقتحام القلعة، ولكنهم ردوا على اعقابهم فى كل مرة. وفى آخر المطاف تراجعوا وعادوا الى عكا. وكان الملك المجرى اندراش الثانى يفضل التخفى والاحتماء فى المدينة، وطفق فى اواخر سنة ١٢١٧ يستعد للعودة الى اوروبا؛ فقد اقتنع بعقم المشروع كله ناهيك بانه مرض. وفى يناير ١٢١٨، ابحر اندراش الثانى مع فصيلته الى الوطن رغم تهديدات بطريرك القدس باصدار حرم بحقه. واضطر الباقون الى ارجاء العمليات الحربية ضد المسلمين والى انتظار وصول فصائل جديدة من الصليبيين من اوروبا، والانصراف حتى ذاك الى تحصين القلاع الباقية للبارونات والفرسان الافرنج. وكان قسم من جنود الرب ـ الفرسان من فريزيا (هولندا) برئاسة الكونت غليوم، والفرسان الالمان ـ قد تأخر فى الطريق؛

هلالية، الى ان فتح الساحل جميعه وهدت اموره ووهب [اعطى الهبات] اجناده واصحابه ومن عاونوه من ملوك المسلمين وساعده من امراهم من الاموال والمواشي والاسارى والخلع مالا يحصى عدده، ولقد بلغني عن غلام من غلمان الاجناد انه اسر رجل من الافرنج فاباعه لفقاعي(*) بكوز فقاع فظهربعد ذالك انه فارس كبير، فاعوذ بالله من زوال النعم وحلول النقم . ثم ان السلطان اقطع

(*) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير يخمر حتى تعلوه فقاعاته.

---

فان هؤلاء الصليبيين قد توقفوا في ليشبونة واشتبكوا في حرب ضد المسلمين. ولم يصلوا الى عكا الا في ٢٦ ابريل ١٢١٨.

لم يكن لصليبيي الحملة الخامسة قائد عسكرى يتمتع باية مكانة ومعترف به عموما. فان ملك القدس يوحنا دى بريان لم يكن يتميز لا بالمواهب العسكرية ولا بالمواهب السياسية، ولم يكن يملك سلطة فعلية على سائر البارونات البارزين ناهيك بان معارضة قوية كانت قائمة ضده. وبعد مهاترات طويلة قرر قادة فصائل الفرسان ارسال العساكر الى مصر، قلعة العالم الاسلامي الرئيسية التي كان من المزمع الاستيلاء عليها اثناء الحملة الصليبية الرابعة. اختار الصليبيون المدينة ـ القلعة الكبيرة، ومنافسة الاسكندرية في التجارة، دمياط، الواقعة على احد فرعي دلتا النيل هدفا مباشرا لاجل الهجوم. وكانت دمياط بمثابة مفتاح مصر. وكانت تطوقها ثلاثة احزمة من الاسوار، وكان يحميها برج جبار قائم في جزيرة صغيرة وسط نهر النيل. ومن هذا البرج الموصول بجسر بالمدينة كانت تمتد عبر النهر سلاسل حديدية تسد الطريق الى المدينة من جهة النهر.

استمر حصار دمياط التي وصلت اليها اولى فصائل الصليبيين في ٢٧ مايو ١٢١٨ زهاء سنة ونصف سنة. في البدء استطاع الفرسان، بتحويل سفنهم الى ضرب من آليات حصارية عائمة وباستعمال السلالم الاقتحامية الطويلة، ان يستولوا على برج القلعة، ولكن القوات

مـدن السـاحل والقـرى والقلع [القـلاع] للاجناد، واقام بدمـشق مـدة يسيرة حتى اسـتراح العسكر، وخرج نزل على حصن الاكراد واقام يحاصره نحو شـهرين فلم يقـدر عليـه، وتوجـه منه الى اعـمـال انطاكيه ففتح اللاذقيه وبغراس وقرى وقلع [قلاع] وابراج. وجا [جاء] الى حصن برزيه(*) ونزل عليه وحاصره واقام عليه مده يسيره فيسر الله له فتحه فـفـتـحـه وملكه، وكـتب الكتب بذالك الى ولاة

(*) برزيه: من حـصـون السـاحل الشامي في شمال سوريا وقرب حمص.

---

المصـرية في دمياط التي انضم اليها ضغط عناصر الطبيعة ـ فيضـان النيل ـ وكـذلك الوباء الذى انتشر بين الصليبيين المحاصرين، ـ اوقفت نجاحهم وتقدمهم. وخلال بضـعة اشهر لم يحرز لا هذا الجانب ولا ذاك قصب التفوق. وقد يئس كثيرون من الفرسان من النصر، فتركوا العسـاكر في ربيع وصيف ١٢١٩ وعادوا الى اوروبا. ولكن الآخرين ظلوا يحاصرون دمياط بعناد.

عـانت المدينة المقطوعـة الاوصـال من جـمـيع الجـوانب الجـوع، بل ان الجوع هدد بهـلاك الحامية بالذات. وآنذاك كان السلطان العادل في دمشق؛ وحين تلقى نبأ اسـتيلاء الصليبيين على برج دمياط، مات. واخذ ابنه الاكبر الكامل زمام الحكم. ولانقاذ دمياط، اقترح السلطان الجديد على الصليبيين ـ وكانت تهدده فضـلا عن ذلك مؤامرة رجال البلاط، ـ رفع الحصار عن دمـيـاط على ان يسلمـهـم بالمقـابل مملكة القـدس في حـدود سنة ١١٨٧ (بدون الكرك وكراك دى مونريال) ويعقد الصلح معهم لمدة ٣٠ سنة.

كان يوحنا دى بريان واغلبية البارونات الافرنج يميلون الى قبول هذه الشروط المفيدة جدا ولكن نائب البابا بيلاجيوس الذى كان قد وصل الى دمياط في ١٢١٨ تدخل في الاحداث. وقـد تسنى له ان يحـمـل الى حد ما على الوفاق كتل زعمـاء الصليبيين المتعـادية حتى ذاك، وآنذاك اضطلع بدور لا ينـاسب البـتـة رجل الدين، هو دور القـائد الاعلى للقـوات المسلحـة.

الديار المصرية كل منهم باسمه، وهذه نسخة كتابه الى الاميـر نصـر الدين خـضـر ابن بهـرام والى الاعمـال الغربيـة(*): بسم الله الرحـمن الرحـيم، صـدرة [صـدرت] هـذه البشـرى الى الاميـر الاجل الاسفهسلار الاخص نصير الدين عز الاسلام ادام الله عزه، مما جـدده الله من الفتح العظيم والنصـر الكريم والعز المقيم، وهو فـتح حـصن برزية الذى ابتـهجـت به الالسنة ولهجت بشكر الله به السنه،

(*) كتاب صلاح الدين بفتح عدد من مدن وقرى الشام.

---

وكانت «استراتيجيته» تنحصر فيما يلي لا صلح مع «الكفار». وقد حظى نائب البابا بمساندة الاساتذة الكبار الثلاثة لجمعيات رهبان الفرسان وبعض القادة الآخرين. فقد بدا لهم التنازل عن القدس غير كاف. وكان بيلاجيوس يعتقد انه ينبغي فتح دمياط باى ثمن كان ثم فتح سائر مصـر. وقوبلت مقترحات السلطان السلمية بالرفـض. وحتى الاقتراح بايجاد واعـادة قطـع «الصليب المقدس» الذى استولى عـليه صلاح الدين اعتبره القائد الاعلى غير مقبول.

في ليلة الرابع الى الخامس من شهر نوفمبر ١٢١٩ احتل الصليبيون دمياط بانقضاض خاطف ونهبوها وغنموا غنائم بلغت، بتقدير جاك دى فيترى، ٤٠٠ الف بيزانط. واثناء الحصار انقـرض سكان المدينة عـمليـا؛ فـمن اصل ٨٠ ألف نـسـمـة لم يسلم، كـمـا حـسـب اوليـفـر السكولاستي، سوى ٣ آلاف. وفي ٢٤ فـبراير هنأ البابا اونوريوس الثالث الصليبيين بالنصر، ولكن الفرح، كما تبين بعد فترة وجيزة، كان قصير الامد.

فبين المنتصرين نشبت الخلافات والمخاصمات. فان يوحنا دى بريان، ملك القدس الرسمى، طالب بضم دمياط الى ممتلكاته. الا ان الكردينال بيلاجيوس، المتغطرس والطموح عارض هذا المطلب. فقد كان يرى انه يجب ان يبقى المكتسب للكورية الرومانية. كذلك لم يكن ثمة اجماع بصدد خطط خوض الحرب لاحقا. فان نائب البابا قد اصر بعناد على نقل العمليات الحربيـة فى الحال الى اعـماق وادى النيل. الا ان هذا الاقتـراح البـاطل بكل جـلاء لم يلق

وسمحت به مع ظن الايام والدهر الاقدار المحسنة،
وتنبهت عيون الانام لانارته وزالت السنه، ومكنت
من تحصيل المتعذر منه فرصته الممكنة، وهذا هو
الحصن الذى اتخذه الدهر له معتصما واليسر
الواقع له محتما فلم تثبت دعوة خاطب ولم ينفذ
ناره لحاطب، فلما حالوناه [حاولناه] وجدناه لا
تعمل فيه الحيل ولا يدور حوله الامل لكن فتحه
الله من حيث نحتسب وجعله كسبا لسيوفنا

---

التعاطف من جانب السواد الاعظم من الفرسان. وقد ادرك اكثر القادة العسكريين رشدا وتبصرا ان القوى لا تكفي الصليبيين لاجل هذا المشروع.

شرع بيلاجيوس يفتش بتسرع عن الحلفاء لاجل فتح مصر. بل انه بدأ مفاوضات... مع جنكيز خان التى كانت جحافله قد اقتحمت آنذاك بلاد فارس، مهددة العالم الإسلامى كله، كما كتب ابن الاثير. الا ان الخطر الناجم عن الصليبيين بدا الآن للمصريين اشد بكثير من الخطر الناجم عن الجحافل المغولية الزاحفة. وعندما تلقى الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، فى آن واحد، طلبا بالعون من الخليفة الناصر، ضد المغول، ومن اخيه، سلطان مصر، الكامل، ضد الصليبيين، قرر الاشرف انه يجب ان يرسل جيشه ضد الصليبيين بالذات.

فى ربيع سنة ١٢٢١، اخذت تصل الى مصر فصائل الحجاج الصليبيين الجديدة، وعلى الاغلب من المانيا الجنوبية ـ لويس، دوق بافاريا، وغيره من الامراء مع فرسانهم. وفى هذه الاثناء استطاع الكامل ان يبنى مواقع محصنة تحصينا منيعا جنوبى دمياط بعض الشىء، قرب مدينة المنصورة. ومع ذلك كرر مقترحاته السابقة للصليبيين بصدد الصلح. فارتفعت بين صفوف العساكر اصوات تشير على القادة بقبول هذه الشروط ولكن نائب البابا ابدى ايضا هذه المرة التشدد. وتلقى السلطان جوابا سلبيا. وعندما عرف الملك الفرنسى فيليب الثانى اوغست الذى كان يتميز عادة بسلامة الفكر فى تقدير هذا الوضع السياسى او ذاك، انه

وفتحناه بالسيف عنوة وذالك يوم الثلثا السابع
والعشرين من جمادى الاخر سنة اربع وثمانين
وخمس ماية ضحوة [١١٨٨م] فيالها من ضحوة
اظلمت على العدو افاقها وانكشف بليل العجاج
اشراقها، فيالها من ضحوة انالت حظوة وجليت
بالحب والحيا للاسلام حبوه ولا شك انه عرف ما
سبقه من الفتوحات وتقدمه والخيرات، وقد بقيت
انطاكيه مقصوصة الجناح ملقاة السلاح ونحن

---

سنحت الفرصة للصليبين لكى ينالوا «مملكة مقابل مدينة» وانهم حرموا انفسهم هذه الفرصة، فلم يستطيع تمالكا عن نعتهم «بالاغبياء والسذج».

في اواسط يوليو ١٢٢١، هاجم الصليبيون المنصورة. وقد حاول الملك يوحنا دى بريان ان يقنع بيلاجيوس مرة اخرى بان تصرفه مجازفة وبانه يجب اعادة النظر فى القرار المتخذ بالهجوم. ولكن كان قد فات الاوان. فان سواد الفرسان المتعطشين الى الغنائم اندفعت الى الامام. وامام انظارهم كانت تتراءى «بابليون» اى القاهرة. ويلاحظ مؤرخ مصرى من ذلك الزمن كتب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» هو مؤرخنا ساويرس: «لو ان الملك يوحنا لم يوافق على مواصلة الهجوم، لكان الافرنج قتلوه». ويرى مدون الاخبار الكاثوليكى اوليفر السكولاستى بدوره ان «نصائح الفكر السليم غريبة عن قوادنا».

استمر الهجوم. وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل فيضانا عاصفا، واغرق معسكر الصليبيين. وكان المصريون قد استعدوا لمقابلة الفيضان، فقطعوا طريق التراجع على ـ الصليبيين. وسرعان ما هبطت معنويات عساكر نائب البابا، فولت الادبار بلا انتظام، ولكن القوات المصرية حاصرت العدو من جميع الجهات وامطرته وابلا من السهام نهارا وليلا. وقد اتحدت ضد الصليبيين فى منطقة المنصورة قوات السلطان الكامل وقوات اخويه اللذين قدما

نرجو من الله تيسير فتحها والله تعالى يسعد الامال بنجحها فليعلم هذ البشرى ويشكر على هذه النعمة ان شآ الله.

وهذا الحصن كان كمال فتوح صلاح الدين وبعده لم يفتح شيا اخر من بلاد الافرنج فى ذالك الوقت الذى فتح فيه مدن الساحل، وكان السلطان قد اخذ بيت جبرايل بالامان وكان فيه صاحبه رجلا جليل القدر فى قومه كثير المال واسع

---

من سوريا، ـ الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، والمعظم، حاكم دمشق. فمن الخيالة مثلا، كان لدى المسلمين ٤٠ الفا.

طلب الصليبيون الصلح. وقد وافق الكامل بكل طيبة خاطر على مقترحات الصلح المعروضة عليه، خلافا لمقاومة اخويه اللذين كانا لا يريدان قبول الصلح قبل انزال الهزيمة التامة بالعدو، وادراكا منه ان خطرا جديا جديدا يخيم ويقترب هو الزحف المغولى. وفى ٣٠ اغسطس ١٢٢١ تم التوقيع على الصلح لمدة ثمانى سنوات. وكان على الغزاة ان يغادروا دمياط. وبسرور نفذ الصليبيون هذا المطلب فى أوائل سبتمبر ١٢٢١ متنهدين الصعداء.

ضاعت دمياط على الصليبيين. وفارق الصليبيون مصر. ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام، ومعه تبددت جميع الآمال فى استعادة الأرض المقدسة. ان الرب، كما كتب المؤرخ العربى ابن الاثير، لم يحفظ دمياط للمسلمين وحسب، بل ابقى فى حوزتهم ايضا المدن السورية والفلسطينية واللبنانية. وقد كلفت الحملة الغرب غاليا، وانزل اخفاق هذا المشروع ضربة جديدة بمكانة البابوية.

بعد مرور أقل من عشر سنوات على هذا، بدأت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩). وقد ترأسها الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الذى تزوج فى صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دى بريان واخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان فى

الحال وكان يسما القسطلان واظن ان تفسير هذه الكلمة الوالى وكان له في بيت جبريل نعم عظيمة واموال كثيرة وجباب كبيرة مملوه زيت طيب وخمر، فلما طلب الامان قطع السلطان عليه قطيعة مال كثير فقومهم على السلطان بمال كثير ودفعهم له فوفا به السلطان منه الجباب الزيت والمال فى بقية القطيعة، وخرج بعد ذالك من البلد بمال كثير ونعم ومواشي ونفوس مماليك وجوار

---

فلسطين. وقد اراد فريدريك الثانى ان يحقق مقاصده دون ان يسحب السيف من جرابه. فاستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل فى مفاوضات مع السلطان الكامل (١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، الامر الذى اثار غضب روما؛ فآنذاك بالضبط، في اواسط العشرينيات من القرن الثالث عشر، احتدم الصراع بين البابارية والامبراطورية الالمانية بقوة جديدة حول الزعامة فى العالم الاقطاعي. واذا البابا اونوريوس الثالث الذى كان حتى ذاك ينظر بعدم الرضى، ولكن بتساهل مع ذلك، الى التأجيلات العديدة، المتكررة سنة بعد سنة تقريبا، لايفاء فريدريك الثانى بالنذر الصليبى، قد قيّم هذه المرة مسلك هذا الامبراطور بكل قساوة. وفي سياق مواصلة المفاوضات مع فريدريك الثانى بصدد الحملة الصليبية (جرت المفاوضات فى سان دجرمانو بواسطة الكردينال جوجولينو من اوستى الذى صار فيما بعد البابا جريجوريوس التاسع) اتهم البابا المسنّ الامبراطور باهمال «قضية الرب». بل ان اونوريوس الثالث هدد الامبراطور بالحرم وبفرض غرامة قدرها ١٠٠ ألف اوقية من الذهب اذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف؛ وقد ارجىء البدء بها الى اغسطس ١٢٢٧.

بامر من فريدريك الثانى شرعوا فى ثغور صقلية وايطاليا ببناء السفن. واستأنفت روما الدعوة الى الحرب المقدسة، ولكن دعوتها قوبلت فى كل مكان بما يكفى من اللامبالاة. ولو شاء فريدريك الثانى لما كان استطاع ان يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لاجل

ونساء وحشم فسيره السلطان الى ديار مصر الى
مدينة اسكندرية وكتب الى واليها ياوصية عليه
وحفظه وضيافته مدة مقامه بالبلد وان ينفق عليه
من مال الديوان ويستاجر له المراكب ويزوده هو
ومن معه من مال السلطان الى ان يسير شاكر.
ففعل الوالي والمستخدمين معه كلما امرو به وسار
الى حيث اراد من بلاد الروم. وكان فخر الدين
قراجآ والى اسكندرية يركب اليه كل يوم ويقضى

---

«البعثة فيما وراء البحار». وفي هذه الاثناء توفى اونوريوس الثالث قبل الموعد المعين بخمسة اشهر.

نحو صيف ١٢٢٧، تجمع بضع عشرات الآلاف من الناس، المجندين بصورة رئيسية في المانيا، وجزئيا في فرنسا وانجلترا وايطاليا، في معسكر بجوار بريندیزی، وابحر بعضهم الى صقلية. ولكن الامراض بدأت بالجملة في صفوف العساكر الصليبية التي كانت تعاني من قلة المؤن ومن الحرارة الشديدة. ومرض فريدريك الثاني ايضا. وارجئت الحملة من جديد.

الا ان البابا الجديد، جريجوريوس التاسع، البالغ من العمر ٨٠ سنة (١٢٢٧ ـ ١٢٤١)، وابن عم البابا اينوسنتيوس الثالث، والمتمسك عن قناعة بمثل التيوقراطية البابارية، حرم فريدريك الثاني من الكنيسة بوصفه عدوا غادرا للايمان المسيحي. وتشفيا من البابا، ابحر الامبراطور المحروم في صيف ١٢٢٨ مع فصيلة كبيرة من بريندیزی الى سوريا. وآنذاك منع جريجوريوس التاسع الحملة الصليبية كليا. واعلن ان فريدريك الثاني ليس صليبيا بل قرصان، «خادم محمد»، وانه راح الى الشرق، لا لاجل الحرب ضد الاسلام بل لاجل «سرقة المملكة في الارض المقدسة». وكان ذلك، اذا تكلمنا بلطف، موقفا لايدل على الذكاء، اذ انه لم يفعل غير ان قلل من حظ البعثة الصليبية في النجاح واساء الى فكرة الحملة الصليبية، هذه الفكرة التي كانت قد فقدت في الغرب جاذبيتها السابقة. ولم تصبح الحملة الصليبية في يد البابارية

حوايجه وكان مع القسطلان نحو خمسماية نفس كان الوالى يقوم بهم وينفق عليهم من مال السلطان مدة مقامهم فى البلد الى ان استاجر له المراكب وسيرهم. فلم يقعد هذا القسطلان فى بلاده سوى ستة شهور ومضى الى البنادقة والجنويين والبيسانيين واعمر ماية شينى من ماله وانفق فى رجالها واخذها وجآ الى صور اجتمع هو ومركيس وباليان ابن بارزان وابن الابرنس ارناط

---

سوى ورقة فى لعبتها السياسية ـ اى فى النضال ضد الامبراطورية الالمانية. اما فريدريك الثانى الذى كان يبتغى على العموم اهدافا سياسية محضة، فانه لم يكن يرى من جهته فى الحملة الصليبية سوى وسيلة لبناء دولة آل شتاوفن «العالمية» (ولذا كان يتطلع الى ملوك القدس). وكان الامبراطور يبدى على الدوام اللامبالاة بالمسائل الدينية.

وحين وصل فريدريك الثانى الى عكا (وفى الطريق استولى على جزيرة قبرص)، بدأ المفاوضات من جديد مع السلطان. وآنذاك كان السلطان فى وضع صعب، لأنه كان يحارب ضد اميرى دمشق (اولا ضد اخيه، ثم ضد ابن اخيه). وعمليا لم يقم الصليبيون اثناء وجودهم فى فلسطين باية عمليات حربية تقريبا، واكتفوا ببعض الغارات. وانتقل مركز الثقل فى النضال ضد «الكفار» الى ميدان الديبلوماسية. وفى فبراير ١٢٢٩ تسنى لفريدريك الثانى بعد مناقشات طويلة ان يعقد فى يافا صلحا مع السلطان الكامل لمدة ١٠ سنوات. بموجب معاهدة الصلح، تنازل السلطان عن القدس (باستثناء الحى الذى كان فيه الجامعان الرئيسيان) وبيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطرق المؤدية الى القدس، وقسم من دائرة صيدا، وطورون (تبنين حاليا) للامبراطور الذى كان من حقه كذلك، حسب اقواله (وهى معروفة من رسائله الى الملك الانجليزى) ان يعزز بعض الحصون والقلاع ويعيد تنظيمها. كذلك تم التوقيع مع مصر على اتفاقيات تجارية مفيدة. وتعهد فريدريك الثانى بدوره بمساعدة

صاحب الكرك ومن حضر من فرسان الساحل وخرجو بالخيل فى البر والمراكب فى البحر وسارو حتى نزلو على تل المشنقة قبالة عكا فى الليل وما اصبح الصبح حتى حفرو عليها ثلثة خنادق واطلقو فيها الماء من النهر الذى هناك فصار ماها يخرج الى البحر المالح وحاطو [أحاطو] بعكا فى رجب سنة خمس وثمانون وخمس ماية[١١٨٩م] وكان والى عكا خادم من استاذين السلطان يسمى

---

الكامل ضد اعدائه، ايا كانوا، سواء من المسلمين ام من المسيحيين، وضمن للسلطان بان القلاع السورية الباقية فى ايدى الصليبيين ـ كراك دى شيفاليه (قلعة الاوسبيتاليين)، وشاتل بلان، وقلعة طرطوس (وكانت فى ايدى الهيكليين) لن تتلقى اية مساعدة من اى مكان.

بعد شهر، فى ١٨ مارس ١٢٢٩، دخل فريدريك الثانى القدس، ووضع بنفسه على رأسه التاج الملكى فى كنيسة قبر السيد (فقد رفض رجال الدين تتويج الملك المحروم من الكنيسة).

اغتاظ البابا من سياسة خصمه فى الشرق شديد الغيظ (وما فائدة الكنيسة الرومانية من انتزاع قبر السيد من ايدى «الكفار»؟)، فاتهم فريدريك الثانى بخيانة المسيحية. وباشارة من بطريريك القدس، فرض على المدينة المنع ( Interdit ـ قرار يمنع ممارسة الطقوس فى مكان معين). ففى جميع الكنائس منعوا ممارسة الشعائر الدينية، ذلك ان امبراطور محروما يقيم فى المدينة المقدسة!

وفى الوقت نفسه، دفع البابا جريجوريوس التاسع فصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك الثانى فى ايطاليا الجنوبية. فاسرع هذا فى مغادرة سواحل فلسطين واندفع الى ايطاليا حيث نشب صراع مسلح ضد الحبر الاعظم. منيت قوات البابا جريجوريوس التاسع بالهزيمة؛ وفى سنة ١٢٣٠، الغى البابا، بموجب شروط صلح سان دجرمانو الحرم عن فريدريك الثانى،

جـرديك فلـم يطيق ان يدفـعـهم عنهـا فكتب الى
السلطان الى دمـشق يعلمـه بذالك فـجـا السلطان
وتواصلت العسـاكـر فنزلو الافرنج وتواصلو من كل
مكان كانو فيه واجتمعو جميعهم وصارو عسكر
عظيم ولما وصل السلطان الى عكا ومـعـه الملك
المظفـر تقى الدين نزل على صـفـوريه وبعـد ايام
يسيـره وصل مظفر الدين ابن زين الدين صـاحب
سنجـار الى السلطان وكـان السلطان كل يوم

---

«خادم محمده منذ زمن قريب، وصادق فى السنة التالية على معاهداته مع المسلمين، وامر جميع الاحبار وبخاصة الهيكليين والاوسبيتاليين بمراعاة الصلح مع السلطان الكامل.

ولكن النتيجة العملية من الحملة الصليبية السادسة ـ استعادة القدس سلميا ـ لم تدم طويلا. فبعد رحل فريدريك الثانى الى اوروبا، نشبت المخاصمات بين الاسياد فى ممتلكاته الجديدة، الشرقية. وكثيرون منهم استاؤوا من زعامة الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن، وكانوا لا يريدون الانصياع للسلطات التى اقامها. وبعد فترة وجيزة، دخل الامبراطور من جديد فى نزاع مستطيل مع الكورية الرومانية؛ وصدر حرم باباوى آخر. واستأنف جريجوريوس التاسع الدعوة الى الحرب المقدسة. وهذه المرة كان القصد من الحملة الصليبية ان تكون اداة لنضال البابوية ضد فريدريك الثانى، وكذلك وسيلة لاملاء الخزينة البابوية. فقد طالب البابا الكاثوليك بتبرعات نقدية كبيرة. ثم ان الوعاظ البابويين الذين كان يهمهم، اكثر ما يهمهم، الجانب المالى من رسالتهم، كانوا يغفرون خطايا المتبرعين بالذهب والفضة، الذين كانوا يفدون انفسهم بهذا السبيل من الاشتراك الشخصى فى المشروع الصليبى الجديد.

عارض فريدريك الثانى البابا فى تنظيم الحملة الصليبية. وعندما تجمعت مع ذلك، عند انقضاء صلح السنوات العشر مع مصر، فصائل قليلة من الصليبيين فى ليون بقيادة الملك تيبو دى نافار والدوق هوغ الرابع البورغونى وغيرهما من الاسياد، اعلن البابا جريجوريوس التاسع

يركب يجي الخندق فى عسكر كبير يقاتل الافرنج
ثم يعود الى الخيم الى صفوريه بعد ان جعل على
الفرنج ستت الف فارس لا ينزلو عن ظهور خيلهم
لا ليل ولا نهار منهم ثلاثة الف النهار جميعه ترمى
عليهم النشاب وثلاثت الف الليل جميعه ترمى
عليهم النشاب ولم يمر عليهم شهر من الزمان
حتى عملو على حافة الخندق من ناحيت عسكر
السلطان صور طوب لبن ورتبو الرماه تقعد من

---

ان القدس لم تبق هدف الحملة، وان على الصليبيين ان يساعدوا الامبراطورية اللاتينية. وهكذا زحزحت الاعتبارات السياسية، من حيث الجوهر، الاعتبارات الدينية زحزحة كلية فى اعمال الكورية الرومانية المتعلقة بشن الحملات الصليبية.

وخلافا لنوايا البابا، ابحر القسم الاكبر من الصليبيين فى خريف ١٢٣٩ الى سوريا بدون حماسة كبيرة. ان هذه الحملة الصليبية ـ وفى عداد قادتها كان كذلك الايرل (لقب انجليزى ادنى من مركيز وارفع من فيكونت) الانجليزى ريشار بلانتاجينيه من كورنويل ـ لا يدرجها المؤرخون عادة فى سلسلة المشاريع الصليبية الرئيسية (مثلا، «تاريخ الحملات الصليبية» من عدة مجلدات، الصادر فى الولايات المتحدة الاميركية، اولاها اكثر من ٢٠ صفحة بقليل فقط)، لأنها لم تسفر فعلا عن اية عواقب. فان قادة الصليبيين الذين كان يحدوهم التعطش الى الغنائم فقط والذين منوا بعدد من الاخفاقات، قد دخلوا، باصرار من الفرسان الهيكليين، فى حلف مع دمشق ضد مصر، ولكن المصريين هزموهم فى جوار عسقلان (نوفمبر ١٢٣٩) مع قوات حليفهم الذى وعدهم بجملة من التنازلات الاقليمية فى فلسطين. وبعد ذلك احتدمت المخاصمات بين الصليبيين، وبخاصة بين الاوسبيتاليين والهيكليين، بضراوة مزدوجة. فقد عاد ملك نافار وغيره من قادة الحملة الى ديارهم بخفى حنين. وقد استغلت حكومة مصر جميع هذه الظروف بافضل نحو. ففى سبتمبر ١٢٤٤ اشرف الملك الصالح نجم الدين ايوب

خلفه بقسي الزنبورك يرمو بسهم غلظ ابهام رجل الانسان طوله ذراع وزن نصله خمسون درهما مضروب مكبب له اربعة اركان مهما وقع فيه اخرقه وربما نفذ من الشخص الى الذى وراه فقتلهما جميعاً ونفذ من طواريهما ودرعوهما وزردهما او غيره وغاص في الارض، ولقد اخبر عنه من رآه انه نفذ في حجر من حجارة السور الى رشيته فلما علمو ذالك ما بقي احد من عسكر

---

(١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) مع ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين على القدس واحتلها، وذبح السكان المسيحيين عن بكرة ابيهم. وهذه المرة انتقلت المدينة برسوخ الى المسلمين.

ومن جديد قلقت البابوية وارتعبت. وبناء على اقتراح من اينوسنتيوس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) اصدر مجمع ليون في سنة ١٢٤٥ قرارا بحملة صليبية جديدة. ولكن البابا، مثل اقرب سابقيه، كانت تشغله، اكثر ما يشغله، شؤون الكورية الزمنية اى الحرص على نشر وتوسيع ممتلكات الكرسي الرسولي. وواصل البابا اينوسنتيوس الرابع الصراع ضد فريدريك الثاني. وفي مجمع ليون لعن البابا وحرم من الكنيسة الامبراطور، ونادى بحملة صليبية ضده وضد كل آل هوهنشتاوفن. واستبدل مفوضو البابا المطلقو الصلاحية واجب شن حملة على الامبراطور العديم التقوى بنذر القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الاستغلال السافر لشعار الحملة الصليبية لاجل تحقيق هدف البابوية المباشر لفرض الزعامة والهيمنة في اوروبا، قد رافقه، كما من قبل، ابتزاز الاموال الى ما لا نهاية، علما بان قسما كبيرا من المبالغ المجموعة كان ينصب مباشرة في جيوب الوعاظ انفسهم. كذلك استعمل البابا اينوسنتيوس الرابع التبرعات لاجل تنشيط النضال ضد فريدريك الثاني. واذا اخذنا بالحسبان ان الحركة الصليبية كانت بسبيل الانحسار بصرف النظر عن كل ذلك، اتضح لنا لماذا لم تحرز الدعوة الى الحملة الصليبية نجاحا كبيرا.

---

السلطان يدنو من الخندق وقـوى امـرهم، وبنو
كنيسة لصلواتهم ومواضع اصطبلات خيلهم. ولما
رتبو اشغالهم اجتمعو ليلة من الليالى واتفقو
الصبح يسفروهم قد كبسو عسكر السلطان فقتلو
جماعة وقتل منهم جماعة. وهذه نسخة كتاب
السلطان لاخيه الملك العادل(*) وهو نازل على
حماه بعسكره يعرفه قضية ما جرى بينه وبينهم
وكتبه بيده: بسم الله الرحمن الرحيم ان تنصرو

(*) نسخة كتاب السلطان صلاح الدين الى اخيه الملك العادل يعلمه بحصار عكا.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

ومن زمان كان الفلاحون قد انصرفوا عن الحركة الصليبية. فان الحوافز السابقة للفرار الى البلدان البعيدة زالت عند الاقنان. الا ان النير الاقطاعي، والحق يقال، لم يصبح أخف. ولكن تأثير الكوارث الطبيعية الفتاك خف مع ذلك نظرا لتحسين المعدات الزراعية، ونشر الدورة الزراعية الثلاثية، واستعمال الاسمدة على نطاق اوسع. وفى اوروبا نشأت المدن وكبرت، وعند الاقتضاء، كان يمكن الاحتماء وراء اسوارها. واستطاعت السلطة الملكية المتوطدة ان تكبح الى هذا الحد أو ذاك جماح تصرفات الاقطاعيين الاعتباطية التى كان سكان الريف يعانون منها فيما مضى. ولم يعد يرى الاقنان اية ضرورة ملحة للبحث عن الخلاص «فيما وراء البحر». واكثر فاكثر اخذ الفلاحون ينخرطون فى طريق آخر هو طريق النضال من اجل الحرية والارض فى ديارهم بالذات.

كذلك لم يعد الفرسان، من جهتهم، يرون اى مغزى فى الحملات المضنية الى الشرق. ومع توطد السلطة الملكية، تواجدت فى بلاطات الملوك اتجاهات ضد سفك الدم فى مشاريع محفوفة بالمخاطر فيما وراء البحار، خصوصا وانها فى خدمة البابوية واهدافها السياسية؟

ان البارونات الانجليز الذين حضروا مجمع ليون رفضوا قطعا الموافقة على الاشتراك فى الحملة الجديدة؛ فان الكورية الرومانية تتلقى من انجلترا قدرا مفرطا من الاموال بصورة «المال

الله ينصـركم ويثبت اقـدامكم والذين كـفـرو فيشغالهم وابطل اعمالهم، الذى اعرف به المجلس العالى الملكى العادلى ادام الله دولتـه انه لما كان بكرة يوم الاربعآ الحادى والعشرين من شعبان سنة خـمس وثمانون وخـمس مـاية خـرجت جـمـيع الفرنجيه رجالهم وفرسانهم وساقو من قريب البحر الى القـضيب والنهر وكان جـمـيع سيوفـهم الى صـوب الولد تقى الدين، والميـمنه اخـذت اربعـة

---

الصليبى» ـ كل سنة كانت الخزينة البابوية تجبى ٦٠ الف مارك اى اكثر من كل دخل التاج الانجليزى. ومن حيث الجوهر احتج البارونات الانجليز مباشرة على الحملات الصليبية الجديدة التى تنظمها البابوية. واجاب الملك الانجليزى هنرى الثالث مبعوثى البابا بكل صراحة ان وعاظ الحملات الصليبية كانوا فى احيان كثيرة اكثر من اللزوم يخدعون رعايا التاج الانجليزى وان هؤلاء الرعايا لن يسمحوا بعد الآن بخداعهم!

وحتى بين رجال الكنيسة الانجليز، ارتفعت اصوات الشك فى صواب الحروب الجديدة فى الشرق. فان اللاهوتى رادولف نيجر قد اعتبر من باب الجنون التدخل فى الشؤون الفلسطينية حين تتعرض المسيحية فى الغرب بالذات للخطر من جراء انتشار الهرطقة. اليكم اين كان يكمن بنظره الخطر الرئيسى، وهو خطر افدح بكثير بالمقارنة مع ما يجرى فى الشرق. «فى الوقت الذى يداس فيه الايمان هنا، فى الغرب وضاعت اورشليم السماوية، وتعشش الهرطقة فى كل مقاطعة تقريبا علنا او سرا، لأى سبب يجب على الغرب المنشق ان يساعد الشرق (المسيحى)؟» . ويستطرد اللاهوتى الانجليزى قائلا: اى ثمار من شأن الجهود الرامية الى بعث اورشليم الارضية ان تعود بها ما دامت امنا ـ صهيون قد هلكت (ومن جديد يستعمل المؤلف صورة من التوراة للاشارة الى الايمان المسيحى)؟ وكتب رادولف نيجر ايضا: «اى معنى لتحرير

اطلاب الفقيه بطلب ومحمد ابن الامير حسين
بطلب والمماليك بطلب وشقة لحقتهم ولزت
[هجمت] الشالاشات والعسكرين، فلما لزيناهم
رجعت جميع الافرنجيه علينا الفارس والراجل
وحملو علينا والتقو اصحابنا الفرنج ردوهم وحمل
الراجل جميعه دفعنا وما برحنا نرد الخيل الى
الراجل والراجل يدفعنا حتى بعدت الخيل عن
الراجل دخل قيمان والحشام ما قصر اكسرو لراجل

---

فلسطين من المسلمين حين يتجذر الكفر في الوطن؟ لنفترض حتى ان الكفار سيُقهَرون (من جانبنا)، ولكن الإيمان الحقيقى فى ديارنا بالذات يتعرض للاهانات!».

ان الحملة الصليبية تبدو حتى فى عينى اللاهوتى خراقة تامة.

وهذا الموقف من الشعارات الصليبية التى كانت تنادى بها البابوية لم يظهر فى انجلترا وحدها. فان تجنيد الصليبيين، وبخاصة ابتزاز الاموال بلا نهاية لاجل حاجات الحملة الصليبية كما كان يزعم، قد استثار التذمر والاستياء. فيما مضى، فى الازمنة الغابرة، كان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة، وفيما مضى، كانوا يذمّون اولئك الذين يتذبذبون (أيمضون الى القدس ام يبقون فى ديارهم؟).

وقد أثر تأثيرا قويا جدا من مزاج الفرسان وحالتهم الفكرية والنفسية واقع ان الحملات الصليبية قد فقدت بكل جلاء مضمونها السابق، «المثالى»، الذى كان كثيرون لا يزالون يؤمنون بحكم التقاليد فى وجوده، علما بان هذا الواقع اخذ يتضح اكثر فاكثر. فان هذه المشاريع قد انحطت امام الابصار، اذ ان البابوية كانت تستغلها بمثابة سلاح سياسى فى يدها، لاهدافها السياسية، لاجل اقامة وتوطيد سيادة الكرسى الرسولى، ـ واحيانا فى النضال ضد الاعداء الشخصيين، الامر الذى كان يثير الاستياء والغضب واللوم فى اوساط الفرسان.

وكذالك الراجل قتل اكثره وعاد الملك المظفر
وكسرهم كسرة جيدة، وكذالك ياركوج وكمشيا
ورسلان نوعا وابار البرلو والاسديه والشهابيه(*)
كانو فى فرد طلب ما قصرو قتلو من الفرنج مقتلة
عظيمة وصارة الفرنج ترجع من خلفنا يتلقوهم
يقتلوهم ما انفلت منهم احد ولله المنة والحمد فما
كان يوم قليل. وما اعرف احد فقد الامجلى رحمه
الله استشهد الى رحمة الله وحسين الكردى رايته

(*) الأسدية هم جند اسد الدين شيركوه، والشهابية هم جند صلاح الدين.

---

واحيانا كانوا ينادون من اجل الصليبيين بمواضيع لا تمت باى صلة الى اهداف الحركة المباشرة، مثلا، صقلية التى حاول البابا كليمنت الرابع انتزاعها من آل هوهنشتاوفن. وكان هذا البابا يعتبر الحرب ضد اخلاف فريدريك الثانى موازية او يكاد للحملة الصليبية لاستعادة القدس. وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر، اعلن الباب مارتين الرابع حملة صليبية ضد الملك بدرو الثالث من اراغون؛ وبعد فترة من الوقت، اعلن البابا بونيفاسيوس الثامن حملة صليبية ضد عائلة كولونا الاريستقراطية الرومانية محولا نزاعا داخليا عاديا الى حملة صليبية.

وبالنتيجة نشأ وتعمق ضرب من تنافر، او توتر، حسب تعبير برسل، بين التصورات المنشورة فى اوساط الفرسان عن الحملة الصليبية بوصفها حربا مقدسة لانقاذ الرب وانقاذ النفس، من جهة وبين تحقيق هذه الفكرة عمليا من جهة اخرى.. ففى الازمنة السابقة كان مفهوم وواقع الحملات الصليبية يتواجدان، على الاقل شكليا، فى تناسق بينهما؛ اما فى القرن الثالث عشر، فقد زال هذا التناسق. فان البابوية، كما كتب برسل، اساءت الى الفكرة التى سبق لها ان تقدمت بها فيما مضى.

انتشرت الشكوك فى شرعية الحملات الصليبية انتشارا واسعا جدا فى اوساط الفرسان. فان الافكار التى بنت البابوية على الوعظ بها فى غضون اكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بافعالها الصليبية، قد تعرضت مذ ذاك لنقد ماحق، بل ان بعض الفرسان ذهب الى

مجرح مثخن واسماعيل المكلبس مجروح وسلار
ابن حسك هولاء جميع من عرفت ولعل عشرين
غلاما، ولكن قماش الناس نهبه بعضهم بعض وما
قصر اسد الدين اخو عز الدين والمشكور الحسام
وقيماز من الميمنه ومظفر الدين وياركوج والحمله
ما كانة [كانت] الا على وحدى والله اعلم
والسلام. ولما كبسو الفرنج عسكر السلطان على
صفوريه وجرت هذه الامور التي تقدم ذكرها رحل

---

حد الاعراب عن فكرة مفادها انه من المشكوك فيه على العموم ان يكون من العدل قتل ذوى الاديان الاخرى لمجرد انهم وثنيون؛ وهذا الضرب من الشكوك اعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الالمانى فولفرام فون ايشينباخ في احدى قصائده.

ونظرا لتدفق «موجة النقد» اضطرت البابابوية الى اخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية؛ ففي اواسط القرن الثالث عشر كتب الكاردينال اومبرتو دى رومانو، بتكليف من الكرسى الرسولى، مؤلفا ضخما بثلاثة اجزاء خصيصا لاجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية. ولكن اومبرتو دى رومانو وغيره من اصوب اللاهوتيين في القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى، كانوا يعتبرون ان الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى، ولذا رأوا من الضرورى واقترحوا اصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تستغل شعاراتها في اهداف «غربية».

وفي هذه الاحوال، امسى اصعب فأصعب على روما ان تنظم حملات صليبية جديدة. فعندما بلغ البابا اينوسنتيوس الرابع هدفه في سنة ١٢٤٨ واستطاع ان يستنهض الفرسان للحرب المقدسة، وينظم الحملة الصليبية السابعة، اشترك عدد قليل نسبيا من الاسياد واتباعهم، وكانوا اساسا من فرنسا وجزئيا من انجلترا. ناهيك بان الفرنسيين انخرطوا في الحملة، بمقدار كبير، تحت ضغط ملكهم لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠)، الذى سار على رأس الصليبيين.

---

السلطان من صفوريه نزل وادى الخروبه وكان البرك [الترك] يتردد اليهم نهار وليلا ستة الف فارس يرمى فيهم النشاب ولم يكونو يالو بهم. ولم يزل الحرب قايم بينهم الى ان حشد ملك الالمان(*) ستة مايه الف رمح وجا الى الدروندان وهى الدروب التى يدخل منها الى قونيه وغيرها بلاد الملك مسعود من ملوك الترك واكثر بلاده ورعيته روم رغبو فى سكناهم عنده لعدله وحسن

(*) ملك الالمان هو فردريك برباروسا. يقود الحملة الصليبية الثالثة الألمانيه ضد صلاح الدين بالرغم من العلاقات الطيبة التى كانت بينهما من قبل. وعن هذه الحملة وسيرها من اوروبا إلى الاناضول و الشام فيذكر بعض المعاصرين اللاتين أن العداء بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية

---

بعد مرور ٥٠ سنة، ادرجت الكنيسة الكاثوليكية لويس التاسع فى قائمة القديسين. وبلقب القديس دخل لويس التاسع التاريخ؛ والى الآن لا تزال عبادة لويس التاسع مرعية الاجراء فى الاوساط الاكليريكية فى الغرب. والى الآن لا يزالون ينسبون اليه تقوى خاصة والتعلق بالافكار الدينية الخالصة، ولا يزالون يكرمونه ويبجلونه كملك واصل التقاليد الحقيقية للحملات الصليبية فى مظهرها الاولىّ. وفى سنة ١٩٧٠، احتفلوا فى باريس وروما (فى آن واحد) على نطاق واسع بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة الملك الصليبى الفاجعة (فقد لقى مصرعه أثناء الحملة الصليبية الثامنة، التى سنتحدث عنها ادناه)؛ فقد جرت مؤتمرات علمية، واقيمت حفلات موسيقية تذكارية؛ ومعارض للذخائر التاريخية وعقد المعهد الفرنسى الكاثوليكى فى روايامون مداولة لمناسبة اليوبيل.

فى ٤ يونيو ١٩٧٠، عقدت جمعية العلماء التى تهتم بقضايا تاريخ آسيا، جلسة احتفالية فى كوليج دى فرانس لمناسبة اليوبيل؛ وكان موضوع الجلسة «القديس لويس والشرق». وقد اعلنت الوزارة الفرنسية لشؤون الثقافة سنة ١٩٧٠ «سنة القديس لويس» ودعمت كليا مبادرة الجمعية الآسيوية. خلاصة القول انه بذلت جهود متنوعة لاجل تذكير الفرنسيين من الاجيال الحالية بصورة الملك المثالى «النقى»، «التقى»، «الصادق» الجدير باحترام اخلافه، مثال الصليبى من الطراز الباكر، الاولى، الذى لا يسترشد، الا بالدوافع الدينية ـ بافكار تحرير القدس وحمل

سيرته معهم فشق بلاد الملك مسعود وبلاد ابن لاون ملك الارمن وعبر على ملوك كثير بالسيف وكثرت الرجال والاموال، وكان يحمل ثقله وزاد العسكر على العجل تجرها الخيل والبغال والبقر وغيــر ذالك واقــام فى بلاده الى ان وصل الى انطاكيـه يمشى سنة كـاملة. واخـبرنا بعض من حـضر عـسكره انه لما اراد ان يعدى البحر الى قسطنطينيه حشد ملك الروم ومنعه يعدى وانه

الرومانية المقدسة التى كان يتزعمها فردريك. قد زاد العداء بينهما عندما أتفق مع السلطان قلج ارسلان فى «قونية» على مساندته عسكرياً فى حملته على الشام حيث قيل انه أمد فردريك بألف جندى و مائة فارس. ولا شك أن ذلك احنق الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى انجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥م) بأعتبار أن السلطان قلج ارسلان من أعداء الامبراطورية البيزنطية. ولذلك أرسل الامبراطور البيزنطى فى ٢٥ أغسطس ١١٨٩م رسالة إلى فردريك يرفض عبور قواته الدردنيل حتى يرسل له

---

«الكفار» على اعتناق المسيحية. وقد كتب البروفسور ستراير من جامعة برينستون: «كان الغرور والسعي وراء النفع غريبين بالقدر نفسه عن طبيعته». ولكن هل يتطابق هذا التصوير مع الواقع التاريخي؟

ان الحملة الصليبية السابعة قد سارت فى اتجاه الحملة الخامسة؛ فقد كانت مصر هدفها المباشر. ففي الغرب ادركوا منذ زمن نجاحات صلاح الدين ان مفتاح القدس موجود في مصر على وجه الدقة. والملك لويس التاسع لم يكن البتة حالما يسبح بالفكر في عالم الاوهام. وحملته الصليبية، كما يجمع الباحثون على القول، كانت منظمة افضل من الحملات السابقة. ففي الوقت المناسب، عنى الملك بالاسطول (فقد استأجر ٦٠ سفينة في جنوه و٢٠ سفينة في مرسيليا). واستطاع ان يجد ما يكفي من النقود. فبموجب قرار من مجمع ليون، دفع رجال الدين الفرنسيون مبالغ ضخمة ـ على امتداد بضع سنوات (وقد اضطروا الى دفع زهاء مليون ليرة). وفي سياق الحديث عن الحملة الصليبية السابعة، اعرب المؤلفون المسلمون عن الدهشة من ضخامة كمية النقود الذهبية التي جلبها «الفرنسيس» (اى «ملك الافرنج») معه في الحملة. كذلك فكر لويس التاسع في ضمان المؤن للصليبيين؛ فقد جمعت في قبرص احتياطيات من الحبوب والخمور وغير ذلك من المؤن. وبلغ عدد الصليبيين الاجمالي زهاء ١٥ـ٢٥ الفا، وبينهم زهاء ٣ آلاف فارس.

رهائن من قواده وأن يتعهد باعطاء بيزنطة نصف ما يفتحه في بلاد الشام. ولكن الامبراطور فردريك رفض ذلك واحتل مدينة فيليبولس ومدينة ادريانوبولس، وهنا اسرع السلطان قلج ارسلان وارسل رسالة للامبراطور فردريك يعلنه بانه سيساعده ضد الأعداء وبامداده بالمؤن الوافرة مما اثلج صدر الامبراطور فردريك وشد من عزمه، فاندفع يستولي على العديد من المدن البيزنطية حتى صار قرب أسوار مدينة بيزنطة. وهنا توطدت الصداقة بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى الذى ارسل إليه يشجعه

وجد فى البر الذى هو عليه مدينة خراب ذكرو انها كانة [كانت] فى اول الدهر تسمى قسطنطينيه وان هذه الجديدة لما عمرت خربت تلك فنزل عليها واعمرها واقام فيها سنة كاملة يقاتل ملك الروم [اسحاق الثانى انجيلوس] حتى قهره وعدى اليه وحاصره فى مدينة قسطنطينيه وجبى خراجها وخراج جميع مدنها وقراها، واخذ مستغلها فى تلك السنة وتقوى به و سار يطلب الجهاد على

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

لقد حدد لويس التاسع ومحيطه اتجاه الحملة اثناء الاقامة المديدة فى قبرص الى حيث اوصلت سفن جنوه ومرسيليا رجال الحملة الصليبية (فقد نزلوا هناك فى ١٧ ايلول - سبتمبر ١٢٤٨ وبقوا حتى ٣٠ مايو ١٢٤٩).

كان لويس التاسع يرفع الصلوات الى الرب العلى بكل حمية واجتهاد وكان يعمد الى جلد نفسه بنفسه من باب التوبة والندم (ولهذا الغرض كان للملك سوط خاص!)، ولكن الاهتمامات الزمنية لم تكن تغيب البتة عن باله. فقد كان سياسيا واقعيا جدا، اعاد تنظيم الادارة بحذق ومهارة فى المملكة الفرنسية بسبيل النمو والرسوخ، ورجلا لا يعرف الكلل، وحافلا بالهمة. وقد حمل البارونات والفرسان على ارتداء البسة الحجاج، وترأس شخصيا الصليبيين لكى يؤمن لفرنسا، عن طريق الفتوحات الجديدة فى الشرق، مواقع اصلب واثبت فى منطقة البحر المتوسط، التى كانت ترتبط بها مدن مقاطعة لانغيدوك التى انضمت مؤخرا، فى سنة ١٢٢٩، الى املاك الملك. ولكن حسابات لويس التاسع ظهرت فى هذه الحالة خاطئة، اذ ان الوضع فى الغرب فى اواسط القرن الثالث عشر لم يكن ملائما للحملات الصليبية الجديدة. وكان الخصام بين الامبراطورية والباباوية يمزق ايطاليا والمانيا، ولذا لم يكن البابا اينوسنتيوس الرابع، ولا فريدريك الثانى، يفكران فى اى دعم جدى لحملة صليبية الى الشرق.

البيت المقدس وجاز على جميع بلدان ملوك الروم والارمن والمسلمين والفرنج بالسيف ولم يقف احد قدامه مع جميع ملوك الدنيا فلما قرب من انطاكيه سار الملك المظفر تقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين سارو من مخيم السلطان الى حلب لكشف اخبار ملك الامان [الالمان] فلما صح عندهم انه نزل على انطاكيه قطعو نهر ما[ء] الطريق الذى يريد يسلكها الى حلب ودمشق وغيرها، يسمى نهر الكلب فغرق جميع الطريق

على احتلال بقية المدن الصليبية بالشام ويخبره بأحوال الحملة الالمانية بقيادة فردريك. ولكن فردريك مارس ضغوطاً عسكرية على الامبراطور البيزنطى وهدده بأحتلال القسطنطينية مما اجبره على عقد اتفاق مهين يعتبر انتصاراً لفردريك وتمكن من عبور الدردينل بجيوشه في يوم الأحد الخامس والعشرين من مارس ١١٩٠م. ومنذ نزل أراضى الاناضول ناوشته صعوبات كثيرة وتعرض جيشة للبرد والجوع فماتت منه اعداد كبيرة من الجنود وبالرغم من ذلك تمكن من الاستيلاء على مدينة قونية في

---

زد على ذلك، كما افاد مؤلف مسلم، ان الامبراطور فريدريك الثانى الذى علم بنوايا القديس لويس وحتى تعاطف معه، حذر الملك الصالح نجم الدين ايوب بالحملة الجارى اعدادها ضد مصر. وبديهى ان الكنيسة الكاثوليكية اتهمت الامبراطور بخيانة القضية المسيحية. ولكن هذه الاتهامات لم تكن ترتكز على اى اساس؛ ذلك انه لم يكن ثمة ما يحمل فريدريك الثانى على فتح عيون المصريين ليروا «سر» اعداد الحملة الصليبية، اذ ان مئات التجار والبحارة من الاسكندرية ممن كانوا يمضون سنويا الى جنوه قد رأوا بام عيونهم ان الاستعدادات تجرى هناك على قدم وساق.

ان الخبر الذى ارسله الامبراطور الى الملك المصرى (اذا كانت معطيات المؤرخ فى هذا الصدد ثابتة) كان بمثابة خطوة ديبلوماسية. كتب فريدريك الثانى الى الملك الصالح: «احترس! اعلم ان الفرنسيين ـ وعددهم ٦٠ الفاـ ينوون ان يفتحوا القدس، وان يستولوا اولا على مصر». وبابلاغ هذا، كان الامبراطور يقصد (على كل حال)، اغلب الظن، ضمان حقوقه فى الشرق، فسعى الى وقاية نفسه من اية تطاولات قد تحدث من جراء الحملة الصليبية. والاكثر احتمالا كذلك، ان فريدريك الثانى اراد ان يحمل لويس التاسع، بصورة غير مباشرة، على الاحتراس: ينبغى عدم الاقتحام والتهور، وعدم اللجوء الى القوة الفظة، بل يجب الاستفادة بدقة من الظروف لاجل التوصل بالوسائل الديبلوماسية الى الاهداف المنشودة. وهذا

فلما وصل اليه الخبر بذالك ركب فى المراكب من انطاكيه ومضى فى البحر الى عكا ونزل عند عسكر الفرنج فى تل المشنقة فلما سمع صلاح الدين انه جا فى المراكب هان قدره عنده وطمع فيه وزحف الى الخنادق وقاتل الفرنج وبعد زمان يسير مات ملك الامان [الالمان] ومات ولده [فردريك سوابى] بعده ومات اكثر اصحابه من تغيير الماء والهوى وبقى من اصحابه بعضهم

مايو ١١٩٠ ثم عبر جبال طوروس ووصل إلى نهر سالف فنزل فيه للاستحمام فاصابته رعشة مات بعدها بعدة أيام، فتولى ابنه فردريك السوابى قيادة من بقى من جنود الحملة وهم حوالى خمسة آلاف جندى هم من بقى من الجيش الألمانى والمتحالفين معه والذى كان يبلغ حوالى مائتى الف جندى، حتى وصل إلى انطاكية حيث استقبله اميرها بوهيمند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١م) بالترحاب واعلن ولائه له. وقد اقنع كنراد مونتفران فردريك السوابى بالهجوم على عكا بقواته الباقية ففعل ذلك

---

يعنى ان الامبراطور حاول ان يدفع الملك الفرنسى على السير فى الدرب الذى سبق ان بنى عليه فريدريك الثانى نفسه علاقاته مع الكامل والد الملك الصالح، وبلغ عليه الكثير. ومهما يكن من امر، يعكس هذا الواقع بنحو معبّر الوضع الدولى فى الغرب عشية الحملة الصليبية.

كذلك لم يلاحظ ميل خاص، شديد، فى البلدان الاخرى الى الاشتراك فى هذه الحملة. وقد سبق ان اشرنا الى الموقف السلبى الذى وقفه الملك الانجليزى هنرى الثالث. ثم ان العداوة بين البارونات والملك حالت بدورها دون تضافر الجهود فى انجلترا الاقطاعية. وبقيت اسبانيا فى معزل عن الشؤون الشرقية، اذ كانت، كما من قبل، تواجه مشاكلها الخاصة. واكتفى ملك النروج هوكن الخامس بالوعود الفارغة.

وهكذا لم يكن لويس التاسع مع حملته الصليبية بالفعل سوى اداة فى يد الكرسى الرسولى الذى كان لا يزال يحوك مشاريعه التيوقراطية الكلية ويجددها ويحاول تحقيقها. وان العالم الفرنسى المعروف فى الشرون البيزنطية ليمرل الذى قدر على العموم نشاط لويس التاسع كرئيس دولة رفيع التقدير، قد كتب فى تقييم سياسته الشرقية: «انا لست واثقا من ان لويس التاسع ابدى فى هذا الصعيد ايضا صفات ابرز ملك فى الغرب الاقطاعى».

ولهذه الشكوك تتوفر بالفعل مبررات جدية. فان الحساسية الواقعية قد غابت عن لويس التاسع فى مشاريعه الصليبية. فان الملك ومستشاريه كانوا يجهلون ما يجرى فى الشرق، بل

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

اختلطو بعسكر الفرنج وخمد ذكره وبطل امره وكاانه لم يكن فسبحان الله الدايم الحياه بعدان كانو ملوك الدنيا قد لاذو من خوفهم منه، امنو وفرحو بوفاته، وكان وصوله الى تل عكا فى شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمس ماية وكانو الافرنج في تلك السنة قد عملو ثلثة ابراج خشب وزحفوها للقتال وكملوها بجميع ما يعمل فيها وقدموها حتى الصقوها بصور عكا وكان صلاح

بعد أن انضم إلى قوات صليبية أخرى ولكنه توفى فى ٢٠ يناير ١١٩١م = ٢٢ ذى الحجة هـ وتفرقت البقية الباقية من الجنود وكان هذا نهاية للحملة الألمانية على الشام.

---

انهم كانوا لا يعرفون البتة اى شيء عنه. فان اسم «بيزنطية» لم يرد ولو مرة فى سيرة حياة لويس التاسع التى وضعها فيما بعد جان دى جوانفيل، الذى كان قريبا منه!

اما فيما يخص المغول الذين كانوا فى ذلك الزمن بالضبط يوسعون فتوحاتهم فى آسيا، فان معلومات طفيفة جدا كانت تصل عنهم سواء الى باريس ام الى عموم اوروبا الغربية. وكانت آسيا تتراءى للاوروبيين الغربيين بصورة مائعة، وكانت تصوراتهم عنها شبه خيالية. وحتى الراهب الرحالة الفرنسيسكانى جوفانى دل بلانو كاربينى الذى توغل فى اعماق آسيا بتكليف من البابا اينوسنتيوس الرابع (فقد مضى الى هناك قبل مجمع ليون بزمن قليل وعاد الى ليون فى نوفمبر ١٢٤٧)، قد اسهب فى الحديث في يوميات سفره عن مملكة اناس ذوى رؤوس كرؤوس الكلاب، خلاصة القول انه ملأ اوصافه باختلافات باطلة. ومن الممكن ان يكون لويس التاسع ايضا قد اطلع على حكايات دل بلانو كاربينى.

ومهما يكن من امر، لم يحاول الملك الفرنسي، هذا الصليبى «النقى» «التقى»، ان يحمل المسلمين على مقاتلة المسلمين (المماليك فى مصر على مقاتلة الايوبيين في سوريا) وحسب، بل حاول ايضا ان يعقد ضدهم احلافا... مع المغول. فقد كان يأمل، على الارجح، فى توطيد اركان الممتلكات الصليبية بهذا السبيل.

الدين قد اخرج جرديك الاستاذ من عكا وسلمها لخادم اخر يسمى قراقوش(*) ونعته بها [ء] الدين وكان خبير فى عمارة الاسوار وهو الذى اعمر سور القاهره واداره عليها ومده الى المقسم [المقس] الى ان جعل بحر النيل من داخل السور ثم مده الى الجبل المقطم طالع الى مصر الى ان جازها داخل السور وبنا قلعه على القاهره فوق راس الجبل خارج المدينه من قبليها ونقر فيها جب للما بالازميل

(*) قراقوش: الخصي التركي نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي. ينسب إليه مسؤلية متابعة بناء سور القاهرة الإيوبى وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين). ولاه صلاح الدين على عكا عندما أخذها من الفرنج، ثم لما عادوا و احتلوها اسروه فافتكه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار. تنسب إليه أحكام غريبه نظم بعضها أبن مماتى (الكاتب المصرى مسؤل ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح = = الدين) فى كتابه المشهور

---

فى اواسط القرن الثالث عشر، عندما تقرر مصير الشرق فى سياق الفتوحات المغولية، عوّل حكام عدد من الدول المسيحية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط، بما فيها دول الصليبيين المتبقية، على المغول بالفعل؛ فقد عقدت كل من مملكة ارمينيا الصغرى (قيليقيا) وامارة انطاكية اتفاقية مع المغول. وقرر لويس التاسع ايضا ان يسير على منوالهما. وعملا بنصيحة ملك قبرص هنرى دى لوزينيان (١٢١٨ ـ ١٢٥٣) الذى عرف بهاتين الاتفاقيتين، قرر لويس التاسع هو ايضا الاتصال مع الغزاة المغول. الا انه سار فى طريق مطروق؛ واول من سار فى هذا الطريق من الغرب لم يكن غير البابا اينوسنتيوس الرابع الذى سبق له ان سعى وراء التحالف مع المغول. ولهذا الغرض أرسل الى الخان الاعظم للقبيلة الذهبية (مملكة اسسها المغول. وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوب روسيا. زالت فى القرن الخامس عشر) جوفانى دلا بلانو كاربينى. وفى سنة ١٢٤٧ ارسل البابا الى آسيا، لاجل عقد حلف مع المغول، بعثة اخرى برئاسة الراهب الدومينيكانى انسلم اسيلين، ـ وهذه المرة الى القائد العسكرى المغولى بيدو. وكانت الذريعة الرسمية لارسال هاتين البعثين «اطلاع الوثنين على الدين المسيحى». اما من حيث الجوهر، فقد كان المقصود التقارب مع الحكام المغول لاجل انقاذ بقايا السيادة الافرنجية فى الشرق ـ اى الامبراطورية اللاتينية التى كان يهددها اليونانيون والاتراك. كذلك كان البابا يعلق الآمال على ان يكتسب فى شخص «الانجاس» حليفا ضد الامبراطور الالمانى

الحديد من فوق الجبل الى اسفله حتى وصل الى
الما تقدير مايتى ذراع وعمل فيها صهريج يملاه
من مصانع [سواقى]عملها خارج من القلعه وفى
مده يسيره ادار على القلعة سور وابراج واعمال
يفنى الزمان ولا يكاد ان يفنا، ولاجل خبرت
صلاح الدين به سلم له عكا وكان مديرها قبالة
الفرنج، فلما وصلو الابراج قريبا من السور وطلعو
الفرسان عليها وشدو الحروب عليها وكشفوها

«الفاشوش فى حكم قراقوش». و يقول ابن مماتى فى سبب تأليفه لهذا الكتاب انه قصد به السلطان صلاح الدين، عسى أن يريح منه (أى قراقوش) المسلمين.

---

فريدريك الثانى، وان يتمكن ايضا من اقامة وتوطيد سيادة الكورية الرومانية فى الاراضى الروسية التى وقعت مؤخرا تحت النير المغولى.

ان لويس التاسع الذى انطلق فى حملة صليبية واقام اتصالات مع المغول قد تصرف، اغلب الظن، بالاتفاق مع البابا. ففى ٢٠ ديسمبر ١٢٤٨، استقبل فى قبرص الرسل المغول. وقد طرح الملك، بحضور اعضاء مجلسه، الكثير من الاسئلة على القادمين المجهولين، دون ان يخطر فى باله، اغلب الظن، ان بعثتهم كانت تتسم بطابع استكشافى صرف، رغم انهم انحنوا حتى الارض امام ملك فرنسا. ان واحدا من اقرب كبار رجال الكنيسة الى الملك ــ هو اودو دى شاتورو ــ قد نصح الملك، بدوره، بالجواب عن رسالة الخان الديغاى. وقبل الملك النصيحة؛ ففى اواخر يناير ١٢٤٩، راحت بعثة فرنسية مؤلفة من ثلاثة رهبان دومينيكيين (برئاسة اندرى لونجومو)، واكليريكيين وفارسين الى مقر قيادة الخان الاعظم. وفضلا عن رسالة الملك المتضمنة اقتراحا باعتناق الدين المسيحى، حمل الرسل الفرنسيون الى المغول الهدايا، ومن بينها «كنيسة صغيرة» ــ اى خيمة كبيرة طرزوا عليها بحذاقة وتفنن مشاهد من حياة يسوع المسيح.

ومع اجراء المفاوضات بصدد اعتناق المغول للدين المسيحى، حاول لويس التاسع، مثل البابا، ان يوجه قوى المغول ضد المسلمين وضد امبراطورية نيقية.

بالنشاب وكاد المسلمين ان يسلمو لهم عكا حضر
رجل يعرف بابن النحاس من اهل بغداد الى عند
بها [ء] الدين قراقوش وقال له انا بسعادة المولى
صلاح الدين احرق هذه الابراج فقال له بها الدين
ايش تعمل قال اصنع نفط كما اعرف واضرب به
الابراج احرقها ولو ضربت به جبل حديد احرقته
فقال له اعمل ما تريد ثم دفع له مايتى دينار
فمضى وعمل ثلثة قدور نفط وضرب بها الثلثة

---

وغنى عن البيان ان آمال لويس التاسع انقلبت الى وهم باطل تماما. فعندما وصل لونجومو ورفاقه الى المكان المقصود خلال سنة أو يكاد، بعد ان عبروا كل آسيا الوسطى (هكذا يروى جان دى جوانفيل عن ذلك)، اتضح ان ديبلوماسية ملكهم الحكيم مبنية على الرمال؛ فان المغول لم يكونوا يعتزمون اعتناق الدين المسيحى، وليس هذا وحسب، بل طالبوا كذلك من جهتهم لويس التاسع... بالخضوع. ولكن الملك لم يعرف بهذا المطلب الا بعد مرور وقت طويل، اذ انه لم يتقابل مع اندرى لونجومو الا فى سنة ١٢٥١. ونحو ذلك الزمن، كانت الحملة الصليبية قد جرت وانتهت بالفشل التام.

وقد تطورت الاحداث كما يلى.

فى اوائل يونيو ١٢٤٩ نزل الصليبيون فى مصب نهر النيل، واشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعمليا بدون اى قتال جدى، وغنموا غنائم وفيرة. ولكن الغزاة لم يستغلوا الوضع الملائم، وتوقفوا خمسة اشهر ونصف شهر فى دمياط. وكان حكام مصر يعتقدون انه سيتأتى للصليبيين ان يحاصروا المدينة زمنا طويلا، ولذا قوى سقوطها السريع حالة الذعر فى بلاط الملك المحتضر الصالح. وبعد مناقشات مديدة ناجمة عن كون قسم من القادة العسكريين الصليبيين قد اقترح الزحف على الاسكندرية، حاصر الفرسان قلعة المنصورة،

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

ابراج فاحرقها واحرق فيها ما تقديره ست ماية
لابس [جندی] كانو فوقها من كبار ابطال الفرنج
وكان يوم صعب على عسكر الفرنج وفرح وسرور
عند ملة المسلمين الحاضر منهم والغايب والقريب
والبعيد لان الفرنج قد اشرفو على اخذ البلاد. ثم
بعد حرق الابراج عملو الافرنج منجنيق على بسطة
كبيرة جدا وطلع فيها رجال كثير مقاتله وسارو بها
حتى الصقوها الى سور عكا من ناحيت البحر

---

واستولوا عليها فی اوائل فبراير ١٢٥٠. وساعدتهم الخيانة. واستشهد الآمر المصری فخر الدين.

ولكن سرعان ما افلح المسلمون فی حصر الغزاة فی المدينة؛ فقد رأى الغزاة امامهم جيشا لجبا على رأسه الملك المعظم طوران ـ شاه (١٢٤٩ ـ ١٢٥٠) الملك الاخير من سلالة الايوبيين. وقد لقی كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسنّ لهم اللجوء الى القلعة مصرعهم. وسقط بضع مئات من المقاتلين الصليبيين اثناء القتال، وبينهم اخو الملك، الكونت روبردارتوا.

ان الصليبيين، كما اتضح الآن، قد احرزوا نصرا على طريقة بيروس (ای نصرا كلّف غاليا جدا)، باحتلالهم المنصورة. فان هذا النصر قد اضعفهم غاية الضعف. وبعد فترة من الوقت اغرق المصريون الاسطول الصليبی الذی كان يرسو قرب المنصورة، وقطعوا طريق الفرسان مع دمياط التی كانت قاعدة لتموينهم. وتحت طائلة الموت جوعا اسرع الصليبيون فی الجلاء عن المنصورة؛ فقد فروا منها برا وبحرا ونهرا وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم. وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة. ووقع فی الاسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم. وفی عداد الاسرى كان لويس التاسع ذاته مع اخويه. وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الاسرى ضحية الامراض ـ الملاريا والزحار (الدوسنطاريا) والاسقربوط (الحفر). وقد ضعف الملك، كما تشهد

وكشفو الرماه من فوق السور بالنشاب منها وصار المنجنيق الذى فيها يضرب فى البلد فخرج ايضا ذالك النفطى ابن النحاس واحرق البسطة فاحترق كثير ممن كان فيها من مقاتلة الفرنج. ثم عملو الفرنج بعد حرق البسطة كبش حديد مركب على خشب عظيم جدا وصفحوه والبسوه حديد وعملو له راس لدكس [لدك] السور تقدير عشرين قنطار من حديد(*) ودكسو به السور فرمو منه بدن كبير

(*) القنطار = ٤٤,٩٢٨ كيلو جرام أى حوالي ٤٥ كيلو × ٢٠ = ٩٠٠ك. جرام.

---

المصادر، الى حد ان اسنانه اخذت تسقط، بل انه تعين حمل الملك على حمالة، كما يفيد مدون سيرة حياته غليوم دى ناجى، لاجل قضاء حاجته. وفى مايو ١٢٥٠، اخلى سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٨٠٠ الف بيزنط او ٢٠٠ الف ليرة) وشرط ان يغادر الصليبيون دمياط. ووصلت بقايا العساكر الصليبية الى عكا كيفما اتفق.

خلافا لرأى البارونات الذين نصحوا بالعودة الى الوطن (وهكذا فعلوا باغلبيتهم)، قرر لويس التاسع ان يواصل الحملة الصليبية، وبقى فى فلسطين اربع سنوات. وارسل الى فرنسا رسائل تحمل دعوات الى التحرك فى ربيع ١٢٥١ من اجل مساعدة الملك ضد «الكفار». ولكن الكونتات والدوقات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوات. فقد كفاهم الدرس الذى تلقوه فى مصر.

ترددت دعوة الملك فى صفوف الشعب الفرنسي، ولكن هذا الصدى لم يكن ذاك الذى كان يأمل فيه لويس التاسع. فان الوعظ بالحملة الصليبية اعطى ذريعة لانتفاضة قوية ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون وعامّة المدن. وقد كان للخطابات التعصبية التى القاها واعظ مسنّ سمّاه مدونو الاخبار «المعلم من المجر» تأثير كبير جدا فى بسطاء الناس. ومع الدعوة الى الحرب ضد «الكفار»، طوّر الفكرة القائلة ان الرب امر بعدم الشفقة على الفرسان المغرورين،

فخرجو اليهم المسلمين من عكآ قاتلوهم فاشتد
الحرب بينهم وقتل من الفريقين جماعة كبيرة
فخرج ايضا ذالك النفطى واحرق الكبش الحديد.
ولواخذت ان اشرح ماجرى بين المسلمين وبين
الفرنج على عكا وغيرها فى كل يوم وكل ساعة
وكل شهر وكل سنة فى ذالك الوقت الذى فتح
فيه صلاح الدين البيت المقدس وما هلك عليه من
الامم وتفانى عليه من الخلايق وافنى عليه من

---

اى ان انقاذ القدس هو شأن الفقراء. ونحن نعرف ان شعارات مماثلة قد انتشرت ذات مرة بين فقراء الريف؛ وكان ذلك فى سنة ١٢١٢.

تقبل الجمهور على طريقته مواعظ «المعلم من المجر» وغيره من الوعاظ الشعبيين. ذلك انهم كانوا يؤكدون على ان الرب العلى لا يميل الى الاعيان ولا يحسن اليهم، ويشهرون ببخل رجال الكنيسة وجشعهم. ولهذا اتجه غضب الفلاحين وفقراء المدن، لا ضد «اعداء الايمان المسيحى» البعيدين، بل ضد اسيادهم وحماتهم من رجال الدين. ومن مقاطعات فرنسا الشمالية حيث وعظ فيما مضى بطرس من مدينة ايمان، تحرك نحو باريس ومنها الى اورليان عشرات الآلاف من الصليبيين الفقراء. لم يتحركوا لانقاذ قبر السيد المسيح، بل انتقلوا الى الجنوب جموعا كبيرة، فاتكين فى الطريق بالناس الميسورين، والكهنة والرهبان. وقد اشترك فى الانتفاضة الفلاحين (الجاكرى) فى مقاطعة ايل دى فرانس عام ١٣٥٨. وقد بينت هذه الانتفاضة ان الدعاية للحملات الصليبية لم تصبح عقيمة بالنسبة للاقطاعين وحسب، بل امست كذلك خطرة اجتماعيا لأنها تستتبع امكانية نشوب تمردات «الرعاع».

عبثا انتظر لويس التاسع فى فلسطين الامدادات، فغادر عكا فى ابريل ١٢٥٤ وعاد الى فرنسا.

منذ الخمسينيات من القرن الثالث عشرى، اخذت مستعمرات الصليبيين فى سوريا ولبنان

الاموال وذهب بسببه من النفوس لطال الشرح وعظم الوصف والانتظار واقع لما يتجدد بسببه في كل زمان. وقد تقدم في السير الاولين فيه ماهو اعظم من هذه السيرة وتفانت [قتل] عليه من الامم ما هو اكثر من هذه الرقم، ولم تزال هذه صفته ما دامت ايام الدنيا، كل امه ترتكب فيه الفساد وتعمل بضد شروطه يرسل الله عليها امة غليظه لا ترحم ولا تشفق تخرجها منه بالسيف والسبى

---

وفلسطين، التي كان يمزقها الصراع الاجتماعي والسياسى الداخلي المتوتر، تبدى المزيد والمزيد من العجز امام اعدائها في الشرق ـ السلجوقيين والعرب والمغول. وفي اواخر الخمسينات انزل المغول هزيمة شنعاء بالخليفة البغدادى، وامتلكوا ـ لزمن غير طويل، المقاطعات الداخلية من سوريا. اما الخطر الرئيسى على الصليبيين، فقد كانت ترتسم معالمه من جهة مصر، حيث وصلت الى الحكم في سنة ١٢٥٠، بعد اغتيال المعظم طوران ـ شاه، سلالة جديدة هي سلالة المماليك. وكانوا يسمون بالمماليك المقاتلين الذين كان يتألف منهم منذ زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٠٧ ـ١٢٤٩) معظم الجيش المصرى. وكانوا من حيث انتماؤهم الاثنى من البولوف. وكانوا يترحلون في السهوب المشرفة على البحر الاسود؛ وقد وقع عدد كبير منهم في اسر المغول، فباعهم هؤلاء عبيدا من التجار الايطاليين، ثم باعهم هؤلاء من جديد في مصر. وتدريجيا ارتفع الآمرون المماليك الى وضع الشريحة السائدة في صفوف الاريستقراطية الاقطاعية. وممثلوها هم الذين قاموا في سنة ١٢٥٠ بانقلاب في البلاط، حملوا به الى الحكم ملكهم المعزّ ايبك (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) الذى بدأ منه بالفعل حكم سلالة المماليك.

استطاع المماليك ان يستبعدوا الخطر المغولي عن البلاد. فقد اوقفوا طليعة الجحافل المغولية في سبتمبر ١٢٦٠ في معركة عين جالوت. وكان بطل المعركة رئيس الحرس الملكى الذى

والجوع والحصار ونهب الاموال وبيع الاولاد والحريم لان الله قال عنه في التوراه: اني اخترت هذا البيت ليذكر فيه اسمى من جميع الدنيا واخترت داوود ملكا من جميع ملوك الارض. وعلى هذا الحكم يريد الملك الذى يكون البيت تحت سلطانه ان يكون فيه من الطهاره والعدل وصلاح السريره وملازمة الصلوات والصدقات مثلما كان في داوود ولاجل ذالك اقام ملكا عليه وساكنا فيه اربعون

---

ترقى في البلاط، العبد السابق، الظاهر ركن الدين بيبرس بندقدارى. وفى سنة ١٢٦٠ صار ملكا. وفى عهده قويت مصر كثيرا. وكان بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) يعتبر نفسه باعتزاز صلاح الدين الثاني. وقد وحد الملك الجبار، الذى سار على خطوات سلفه الشهير، مصر وسوريا. واعاد بناء الحصون، وملأ مستودعات الاسلحة، وبنى اسطولا كبيرا، وضبط المواصلات البريدية المنتظمة. وبعد ذالك، وجه بيبرس همته ضد الافرنج. وكان قد تقرر وضع حد لبقايا ممتلكاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين. وفى سنة ١٢٦٥ استولى على قيساوية وارسوف، وفى سنة ١٢٦٨ على يافا، وبعد شهرين ـ فى مايو على انطاكية، اغنى مدن الصليبيين. كانت سيادة الافرنج في القسم الشرقي من البحر المتوسط تقترب بكل جلاء من نهايتها.

## «انتزاع تونس من المسلمين»

في صيف ١٢٧٠ قامت حملة صليبية اخرى، كانت الحملة الاخيرة. وقد قام بها البارونات والفرسان الفرنسيون. وكان عددهم قليلا جدا؛ اذ قل من كانوا يفكرون آنذاك في استئناف الحروب في الشرق التى منيت بالفشل بكل جلاء والتى انحطت سمعتها كليا.

وهذه المرة ايضا كان الملك الفرنسي لويس التاسع، او القديس لويس، حليف البابوية القديم، والذى سبق له ان احرق اصابعه مرة في مغامرة صليبية، صاحب المبادرة الى الحرب

سنة ولم يكن في هذه المدة غلا ولا حرب ولا وبآ الا من قضيت امراه [قضية أمرأة] اوريآ يوم واحد ثم تاب داوود فقبله الله ورفع الموت عن الامه وعاش داوود بقية عمره مرتعش اليدين لما راى ملاك الله وبيده السيف وهو يقتل. وهذه القضية مشروحة فى كتاب اسفار الملوك، ونحن لما نقصده من الاختصار ونذكر ما تيسر ونترك ما سواه وقد يكون غيرنا اهتم بذالك وعلم من الاخبار وشاهد

---

المقدسة وقائد هذه الحرب. كان هذا الملك عنيدا ومثابرا في بلوغ اهدافه السياسية، تقيا بنحو تعصبي اعمى، وكان يحيط نفسه بمستشارين من الرهبان الدومينيكان؛ وقد اعلن للبارونات عن عزمه، الذى كان يضمره من زمان، في ٢٥ مارس ١٢٦٧، فى كنيسة سان شابيل فى باريس. وقد رأى الاسياد فى الكنيسة ذخائر من «الآلام الربانية» وسمعوا من فم الملك بالذات انه سيأخذ الصليب. وان جان دى جوانفيل، مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع، الذى كان من رجال البلاط، والذى عاش مع الملك جميع تطورات حملته المصرية، يروى ان نبأ الحملة الصليبية الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة له شخصيا وبالنسبة للاشخاص الآخرين المقربين من الملك، وانه اذهل البارونات.

لماذا اختاروا تونس بالذات هدفا؟ عن هذا يفيد بالتفصيل شخص اشترك في الاحداث هو معرّف الملك، الدومينيكاني جوفروا دى بوليه، الذى رافق الملك في الحملة. فهو يورد اساسا دوافع دينية محضة ألهمت، على حد زعمه، الملك الفرنسي. فقبل بداية الحملة الصليبية، تبادل لويس التاسع، حسب رواية دى بوليه، الرسل مع «ملك تونس» المستنصر، الذى كان على استعداد، كما اوحى الرهبان الدومينيكان، «الجديرين بالثقة»، للويس التاسع، لاعتناق الدين المسيحى بكل طيبة خاطر اذا كان في وسعه ان يفعل ذلك دون ان يتعرض لنقمة مواطنيه المسلمين. وحسب رواية جوفروا دى بوليه كان لويس التاسع يفترض هو ايضا ان

من الامور مالم نشاهده ولا علمنا وانما اعلمنا
اخوتنا بما وصل الينا علمه على قدر ما يسره الله
لنا ومنّ به علينا. ولم يزل الحرب بين الفرنج
والمسلمين الذى في عكا متصل الليل والنهار وكل
منهم لاياخذه عن الحرب قرار منذ نزولهم عليها
في شهر رجب سنة خمس وثمانون وخمس ماية
الى جمادى الاخر سنة سبع وثمانون
وخمسماية[١١٨٩ إلى ١١٩١م٩٠٦ إلى ٩٠٧

---

يجمد قوات المسلمين بهجومه المفاجيء على تونس، ويؤمن لامير تونس ومقربيه امكانية اعتناق الدين المسيحي بلا عائق، وبدون التعرض لاى خطر.

بعد مرور مئات السنين تلقف بعض الباحثين الفرنسيين من ذوى الميول المحافظة رواية جوفروا دى بوليه الذى اكد بكل الوسائل على الاعتبارات الدينية التى قامت، حسب زعمه، في اساس الاختيار الستراتيجى. وبعض منهم لا يزالون يدافعون الى اليوم عن هذه الرواية، مفتشين عن الجديد تلو الجديد من الذرائع في صالحها. فان المؤرخ الفرنسي المعاصر لونيون، مثلا، الذى يتبنى رواية جوفروا دى بوليه بكل حماسة، يصور لويس التاسع بصورة ملك ـ مرسل، يتحرق، اكثر ما يتحرق، الى استمالة المستنصر الى الدين المسيحى، والى تأمين انبعاث الدين المسيحى وانتصاره في بلد عاش فيه ووعظ فيما مضى احد آباء الكنيسة، القديس اوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠).

اما في الواقع، فان مدونات جوفروا دى بوليه تتضمن اوصافا اكثر واقعية بكثير لتلك الدوافع التى دفعت الملك لويس التاسع او القديس لويس الى تحريك اسطوله نحو تونس؛ فان الرهبان الدومينيكان الذين كانت لهم ارسالياتهم هناك قد اقنعوا الملك بانه من السهل الاستيلاء على تونس، وابلغوا لويس التاسع كذلك عن الثروات الطائلة في مدينة تونس، وقالوا له انه يمكن استعمالها لاجل استعادة الارض المقدسة، وان ملك مصر ذاته يغرف من تونس مقادير كبيرة من الاموال؛ فمنها يرسلون الى القاهرة الخيالة والاسلحة.

قبطية] وصل ملك فرنتسيس [فرنسا](*) بجنوده في تقدير ماية بطسة وشينى(*) الى عكا ونزل مع عسكر الافرنج واتفق معهم وتجدد القتال عليها وكان صلاح الدين قد اخرج العسكر القديم منها ودخل لها بعسكر جديد فيه جماعة من الامرآ الكبار المعروفين منهم سيف الدين على ابن احمد مقدم الاكراد، وعلم الدين ارسل، مقدم المماليك الصلاحية والاسدية، وابن سيف الدين الجاولى

(*) ملك فرنسا فى هذا الوقت هو فيليب.

(*) بطسة وشينى: نوعين من السفن التجارية تستخدم وقت الحرب فى نقل الجنود والتموين والدواب. والبطسة كانت معروفه للصليبيين و المسلمين، وكانت تستخدم كذلك فى شحن آلات الحرب، وتحمل حوالى ثلثمائة مقاتل.

---

اغلب الظن ان هذه الذرائع بالذات هي التي كانت في المقام الاول السبب الذى حمل الملك على توجيه السفن من كالابرى الى سواحل تونس. ويجب الظن ان زعماء الحملة استخلصوا الدروس من اخفاقات الصليبيين السابقة؛ فان الهجوم المباشر على مصر مشروع لا امل في نجاحه، فلم لا يحاولون العمل بطريق غير مباشر، ببدء النضال في سبيل القدس من اخضاع تونس حيث سيكون من الممكن انشاء رأس جسر لاجل بلوغ الهدف الرئيسى؟

يتبين من الوثائق المحفوظة ان لويس التاسع اعلم شارل الاول بمقصده. وقد فعل ذلك قبل المجلس في كالابرى؛ وفي ١٣ يوليو، امر شارل الاول، اثناء وجوده في باليرمو، بشراء الفى قالب من الجبنة في ابولي ونقلها الى مرفأ ترابانى في صقلية «لاجل سفرنا البحرى الموفق من صقلية الى تونس». وفي اوامر اقدم عهدا مؤرخة في مايو ـ يونيو ١٢٧٠، ومرسلة الى نابولى، طالب شارل الاول بشراء الفى رأس من الخنازير و٦٠٠ بقرة وخروف في كالابرى وشراء الخبز في ابولي لاجل تأمين كل هذا بوفرة للملك لويس التاسع. الا ان تونس لم ترد في هذه الوثائق بوصفها هدف الحملة: فقد تناول فيها الكلام ببساطة عن بعثة «فيما وراء البحر». وفي ٢١ يوليو، منح شارل الاول تجار مملكته الحق في تصدير احتياطيات المآكل بدون رسوم الى «ملك فرنسا الذى سيمضى بحرا الى تونس لعزمه على انتزاع هذه الارض من المسلمين».

ولكن ملك نابولى نفسه لم يتسرع الى الانضمام الى قوات اخيه. فقد كان شارل الاول

وعـز الدين يعقـوب الامـرى مـقـدم التـرجـمـان
[التـركـمـان] ولما شـدد عليـهم افـرنيـسس [ملك
فرنسا] القتال شهر جمادى الاخر ورجب واحاط
بالمدينة جميعها وما صار احد يقدر يدخل لها بميره
و لا نجده فتحها الظهر يوم الجمعة النصف من
شعبـان سنة تسع وثمانين وخمس مـاية الهـلاليـة
[١١٩٣م= ٥٩٠ قبطية] فجميع ما اقام الحرب
على عكا سنتين وشهر واحد وخمسة عشر يوم.

---

يفكر قبل كل شيء في مشاريع يونانية لم تسفر عن اية نتيجة. فان نحو عشرين سفينة ـ لم يفلح في جمع اكثر منها ـ لم تكن كافية لاجل الحرب ضد «المنشقين»؛ ورفض دوق البندقية لورنسو تيوبولو التحالف مع المغامر من انجو ضد الامبراطور البيزنطي ميخايل باليولوج. واستطاعت البندقية، حتى بدون حرب، ان تستعيد امتيازاتها السابقة في امبراطورية الروم. ولم تكن عند شارل الاول اية نقود ـ فان حياته الزواجية كانت تتطلب نفقات كبيرة ـ فغرق ملك نابولي في الديون.

وحتى عندما انطلق اسطول لويس التاسع في ١٥ يوليو ١٢٧٠ باتجاه تونس، وعندما نزل الصليبيون هناك في ١٨ يوليو دون ان يلقوا مصاعب جدية نوعا ما ودون ان يتكبدوا اية خسارة تقريبا، لم يتسرع شارل الاول في الالتحاق بهم. ولم يبحر الى تونس مع فصيلته الا في ٢٤ يوليو، ولكن افكاره ظلت مشغولة حتى في ذلك الوقت ايضا بالقسطنطينية واليونان. ولم يكن شارل الاول يرغب في حرب ضد تونس، وقد ارجأ الى الحد الاقصى اشتراكه في الحملة، رغم ان لويس التاسع كان ينتظر منه العون بفارغ الصبر. وفضلا عن ذلك، يتبين من رسالة لكابيللان لويس التاسع، بيار دى كونده، مؤرخة في تاريخ لاحق، ان «ملك صقلية طالب باروناتنا في بداية الحرب بعدم التفكير في الاشتباك في حرب ضد ملك تونس». لماذا؟

كان شارل الاول يفضل على العموم ان يقيم علاقات حسن الجوار مع البلدان الاسلامية

واخبرني رجل كان حاضر في عكا لما فتحوها
المسلمين انهم وجدو جامعها قد جعلوه الفرنج
كنيسة لما اخذوها من المسلمين اول دفعة وصورو
فيه صور فلما فتحها صلاح الدين من الفرنج
جمعو المسلمين الاسارى الذى عندهم من الفرنج
وجاآو بهم الى الجامع ملو الما وغسلو حيطانه
وابوابه وكشطو منه الصور وجابو الجير بيضوه حتى
ما بقي للصور اثر ولا خبر وصلو فيه بقية الجمعة

---

في افريقيا الشمالية. وكانت التجارة مع المشرق تعود على خزينته بارباح لا يستهان بها. كان دوق بروفانس صاحب السيادة على مدن ايطاليا الجنوبية ومدن صقلية. له تجارة قوية مع تونس فهي تستورد الحبوب من صقلية بانتظام. وكانت الحرب تهدد بالاخلال بهذه العلاقات التجارية القائمة من زمان بعيد.

وعدا ذلك، كانت للملك شارل الاول نظرات خاصة تماما الى تونس؛ فقد سبق له ان اجرى خلال زمن طويل مفاوضات مفعمة بروح الصبر مع المستنصر لكي يدفع له المستنصر جزية كانت تونس تدفعها فيما مضى للامبراطور فريدريك الثاني. وكان الطرفان يتبادلان الرسل بين الفينة والفينة. وشيئا فشيئا سارت المفاوضات اشواطا الى الامام. الامر الذى حمل ملك نابولي الى المماطلة في الجواب عن عروض لويس التاسع للاشتراك فى الحملة الصليبية.

ولكن سرعان ما تعقدت العلاقات بين شارل الاول وامير تونس. فان ملك الصقليتين، المستغرق في الديون، قد طلب من امير تونس، علاوة على الجزية العادية، دفع متأخرات عنها متراكمة منذ اواسط القرن الثالث عشر. وحين نزل صليبيو لويس التاسع فى تونس، دخلت المفاوضات مع المستنصر طريقا مسدودا. وآنذاك فقط التحق شارل الاول بالصليبيين لفهمه انه ليس له ما يخسره.

بعد ان نزل الصليبيون الفرنسيون فى تونس، استولوا على قلعة قرطاجا القديمة. وهب

---

التى فتحو عكا فيها. ولم يزل ذالك الرجل فى عكا مقيم الى ان فتحها ملك افرنس فاخذو الافرنج اسارى المسلمين جآو بهم الى الجامع ملو الماء غسلوه وجددو بياضه وصوره كما كان. فسبحان الله الذى بيده ملكوت كل شى يعز من يشا ويذل من يشا ويجازى كل احد باعماله. ولما فتح الافرنس عكا اسر كلمن كان فيها من العسكر واهل البلد، وانفذ صلاح الدين يقرر معه

(*) القوات الصليبية تأسر بعض الأمراء الكبار فى عكا بعد سقوطها فى ايديهم ومنهم سيف الذين على ابن احمد مقدم القوات الكردية وبهاء الدين

---

بيبرس، ملك مصر، الى مساعدة المستنصر. وكانت الشمس الافريقية اللاهبة تضنى الفرسان. وفى اواخر يوليو، دب فى صفوف قواتهم وباء - إمّا وباء الطاعون، واما وباء الكوليرا. وفى ٣ اغسطس، لزم لويس التاسع الفراش. وفى الوقت نفسه تقريبا شملت العدوى ابنيه اللذين كانا معه (فيليب الذى خلفه فيما بعد ولقب بالجرىء، وجان دى نيفر) وابنته ايزابيل وزوجها، ملك نافار، واخا هذا الاخير، والفونس دى بواتيه وزوجته جانّ، - خلاصة القول - كل العائلة الملكية. ولم يعودوا الى فرنسا، باستثناء ابن الملك البكر فيليب، الذى شفى.

فى ٢٥ اغسطس ١٩٧٠، توفى لويس التاسع؛ فان جسمه الذى اضعفته الامراض السابقة، لم يصمد للمحنة الجديدة. وفى اليوم ذاته، وصل اسطول شارل الاول الى سواحل تونس. فوجد ملك نابولى جثمان اخيه البارد. وقد فسدت معنويات العساكر كليا بسبب وفاة قائدهم المفاجئة. وكادت الحملة الصليبية تنهار وتفشل.

بعد وصول فصيلة شارل الاول الى تونس، خاضت مع الصليبيين الذين ترأسهم خليفة لويس التاسع، ابنه فيليب، بضع معارك ناجحة ضد قوات امير تونس؛ وانتهى الامر. فقد اعتبر شارل الاول من غير المعقول مواصلة الحرب فى تونس. وفى اول نوفمبر ١٢٧٠، تم التوقيع على معاهدة صلح مع المستنصر، الزمته باستئناف دفع الجزية لملك الصقليين، ودفعها بمقدار الضعفين، وبالتعويض على الملكين المسيحيين عن النفقات الحربية، علما بان ثلث المبلغ

قراقوش وعز الدين يعقوب الامرى مقدم القوات التركمانية، وهروب علم الدين ارسل قائد القوات الصالحية و الاسدية، و ابن سيف الدين الجاولي.

قطيعة فيهم فلم يتفق بينهم فيهم شي فاخذو الامر الكبار(*) مثل احمد وبهاء الدين قراقوش ويعقوب الامرى وغيرهم من الكبار افردهم وقيدهم، واما علم الدين ارسل [و] ابن سيف الدين الجاولي فهربو عندما فتحت عكا وخرجو بنفوسهم لا غير الى عسكر المسلمين وتركو اموالهم وما كان معهم من مماليكهم واجنادهم. واما باقى الناس فان افرنس [ملك افرنس] اعزل الكتانية وحدهم

---

الاجمالي ـ ٧٠ الف اوقية من الذهب ـ يعود الى شارل الاول. اما اهم شرط تضمنته المعاهدة، فهو انها أمنت الحصانة في تونس للتجار من رعايا مملكة صقلية؛ فانهم «سيكونون بحماية السيد اى هم بالذات واموالهم، سواء عند دخولهم البلد ام فى زمن تصريف امورهم». واخذ الطرف الثاني ايضا على عاتقه التزامات مماثلة. وهكذا انشأت هذه المعاهدة ضمانات حقوقية معينة لاجل تطور التجارة بين تونس وصقلية تطورا طبيعيا، عاديا. وبعد ١٧ يوما على توقيع المعاهدة، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

الا ان باباوات روما واصلوا دعوة الغرب الى تحرير القدس حتى بعد اخفاق حملة سنة ١٢٧٠. وفى سنة ١٢٧٤ طالب البابا جريجوريوس العاشر فى مجمع ليون (فرنسا) بتنظيم حملة صليبية جديدة. ولكن نداءاته ظلت معلقة فى الهواء: فلم يتواجد راغبون فى القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الموقف السلبي من الحملات الصليبية قد تجذر وترسخ الى حد ان مدون الاخبار الايطالي التقى ساليمبينه فسر وفاة البابا بأن الرب لم تطيب له سياسة البابا فعجل بوفاته: «ان الرب لم يشأ استعادة القبر المقدس من جديد، ولذا دعا البابا اليه».

واستمرت زمر الفرسان غير المنظمة تشن حملات منفردة حتى اواخر القرن الثالث عشر، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن اية نتائج جدية نوعا ما. وتوقفت الحركة الصليبية. وقد سحق مماليك مصر وابادوا آخر ممتلكات الافرنج فى الشرق الواحدة تلو الاخرى. وفى ٢٦

والسودان وحدهم والاكراد وحدهم والغز وحدهم ولم يخلط جنس مع غيره وقتلهم، والعسكر مع صلاح الدين ينظروهم واخذ ملك افرنس من وقع في نصيبه من الاسارى معه وعاد في البحر الى بلاده وكان في الايام التى فتحة فيها عكا وصل اليها ملك الانكتار [الانجليز](*) سمر نميد [ريتشارد الاول] وكان بطل شجاع لا يخاف، خبير عارفا بالحروب لا يخاف الموت ولا يهاب كثرت العساكر حتى انه

(*) ريتشارد الاول: سمر نميد، وصل بجنوده في اعقاب الحملة الصليبية الثالثة إلى عكا وحاول مع بقية الجيوش الصليبية استرداد بيت المقدس من يد صلاح الدين=

---

ابريل ١٢٨٩ استولت قوات الملك الاشرف خليل ابن قلاوون على طرابلس. وفى ١٨ مايو ١٢٩١، اى فى ١٦ جمادى الثانى ٦٩٠ هجرية سقطت عكا، وحولها فيما بعد الى انقاض. وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود.

ان مؤلف «البكاء على سقوط عكا»، الراهب الدومينيكانى ريكولدو دى مونتى كروتشه، قد فسّر فى اواخر القرن الثالث عشر فشل الحملات الصليبية بكون الغرب رفض ان يقدم للارض المقدسة دعما فعالا، لأن فكرة الاستشهاد من اجل القدس لم تعد، برأى هذا الراهب، تحمل الارتياح المعنوى. اما فى الواقع، فان الحروب الصليبية قد توقفت لأنها قدمت البرهان الجلى الساطع على عقمها، كما ان الحوافز الاجتماعية التى استثارتها فيما مضى، فى القرن الحادى عشر، قد فقدت قوتها فى غضون ٢٠٠ سنة.

وغير مرة، قامت، فى القرون التالية، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب من اجل الارض المقدسة، مثال ذلك ولكنها اخفقت جميعها؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى وإن كان ذلك لم يمنع حملة غزو الاسكندرية فى (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) فى عهد السلطان الطفل الاشرف شعبان الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان وصياً عليه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى. وكان والى اسكندرية فى هذا الوقت الامير صلاح الدين خليل ابن عوام والذى كان متغيباً بالحجاز.

لو كان قدامه الوف وهو وحده حمل فيهم، ولم يكن فى من وصل ملوك الافرنج مثله وكان اذا حمل لا يقف احد قدامه فسلم له ملك افرنس خمس مابة فارس من عسكره خلاها عنده وجعله مقدم العسكر مكانه وسلم له العساكر واوصاه وسار. وبعد ايام يسيرة من مسيره دبر ملك الانكتار رجال عكا ورتب فيها من يحفظها وخرج منها نزل حيفا وقام من حيفا نزل ارسوف وكان صلاح

= ولكنه فشل فى ذلك وانتهى الامر بعقد اتفاقية بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٩٢م = ٥٨٨هـ وبمقتضاها صارت للصليبين فى فلسطين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها من مدن مثل عكا.

---

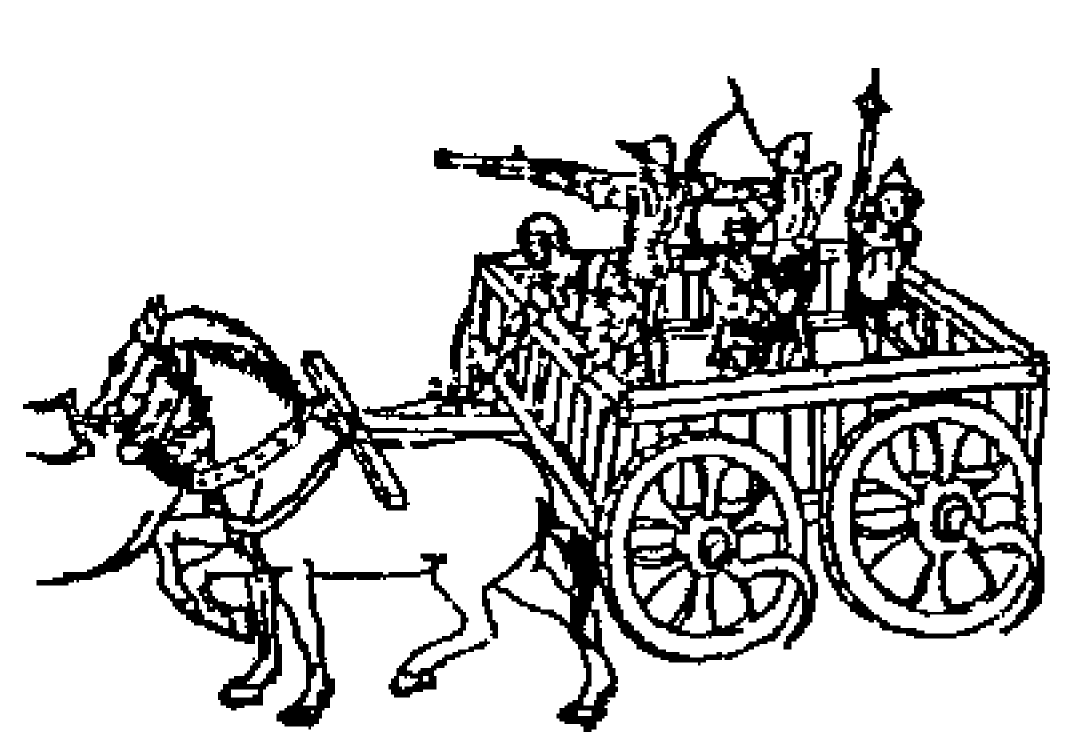
جاء هذا الغزو من ملك قبرص (بطرس الاول) فى اكتوبر ١٣٦٥م: وهو الذى وضع خطة الغزو التى بدأت بنزول جنوده فى اسكندرية يوم الثلاثاء الموافق ٩ أكتوبر.

## العلاقات المصرية الحبشية فى ظل حكم المماليك

يبدو لنا من الوثائق المعاصرة أن ركناً أساسياً من الاتصالات التى كانت تدور بين بطارقة مصر من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ـ طوال العصور الوسطى ـ دارت حول موضوع رئيسي واحد هو ترسيم مطران جديد للحبشة عندما يخلو الكرسى الأسقفى فيها. والواقع إن الحبشة بعد انتشار المسيحية فيها صارت لا تستغنى أبداً عن وجود مطران فيها، لا من أجل النهوض بالشعائر الدينية والإشراف على كنيستها فحسب؛ بل بعد أن صارت للمطران المصرى فى الحبشة مهام أساسية، اجتماعية وسياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد، ويرأس الحفل الكبير الذى يقام فى تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[1]. ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها فى حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، بالضبط مثلما كان يفعل سلاطين المماليك فى مصر من اصطحاب الخليفة العباسي معهم فى حروبهم الكبرى، طلباً للبركة وأملاً فى النصر. ومطران الحبشة هو الذى يضفي على القوانين الملكية صبغتها القانونية، وعن طريقه كان يصدر قرار

(١) أبو صالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

الدين نازل على برج الديويه ويسمى سفر عام، فسار لحقه وكان من تدبير ملك الانكتار انه رتب الرماة بالزنبورك على العجل وعمل عليهم ساير وكانه العجل سايرة بالرماة من جانبى العسكر ميمنة ومسيرة والعسكر فى القلب ولم يكن يقدر يدنو من العجل الا ويهلك، فلما لحقه صلاح الدين [فى] ارسوف قاتله فلم يبلغ منه مراد [و] خاف ان يتم الى عسقلان فيملكها فسبقه صلاح



عربة صليبية مدرعة عليها جنود بالزنبرك ومحصنة عند عجلاتها بالنصال حتى لا يقترب منها فارس أو جندى من المشاة.

---

الحرمان ضد أى فرد يغضب عليه ملك الحبشة، فيصير ذلك الفرد محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها. وإلى المطارنة المصريين فى بلاد الحبشة يرجع الفضل فى إصلاح كثير من الأوضاع والعادات الذميمة التى سادت المجتمع الحبشى، مثل عادة تعدد الزوجات دون حساب، وهى العادة التى حاربها فى غير هوادة المطران ساويرس تنفيذاً لتعليمات البطريرك كيرلس فى القرن الثالث عشر. هذا كله بالإضافة إلى أثر المطارنة المصريين - لافى رسوم الكنيسة الحبشية وطقوسها فحسب - بل أيضاً فى بعض المظاهر المتعلقة باستخدام الأجراس وتعليق بيض النعام فى الكنائس الحبشية، على نحو ما عرف فى الكنائس المصرية. ويؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من الكنائس التى شيدت بالحبشة فى العصور الوسطى، إنما تشبه فى تصميمها وطرازها وهندستها وزخارفها وأسلوب بنائها الكنائس المصرية المعاصرة لها مما يشير إلى قيام مهندسين وعمال مصريين بإنشائها.

وبناء على هذا الدور الكبير الذى نهض به المطارنة المصريون فى بلاد الحبشة فى العصور الوسطى، ازداد حرص ملوك الحبشة فى تلك العصور على استحضار مطران جديد من مصر كلما تعرض منصب المطرانية فى بلادهم للشغور، لأنه كان فى حقيقة الأمر ضرورة عاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى فى البلاد. وهنا نشير إلى أن الأحباش فى تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم ومنهجهم، فلم يرضوا عنهم

الدين اليها فاخربها واحرقها ولم يبقا فيها جدار
قايم ثم توجه صلاح الدين نزل الرملة فلما بلغ
ملك الانكتار انه اخرب عسقلان واحرقها بالنار
صعب عليه واقام على ارصوف اياما يسيرة ودبر
تدبير اخر يريد يكبس عسكر السلطان صلاح
الدين فمضى الجاسوس اعلم صلاح ادين بذالك
فرحل صلاح الدين من الرملة طلع الجبل ونزل
على النطرون وهو جبل شامخ عال لا يمكنه

---

بديلاً. حقيقة إنه حدث في بعض الفترات، عندما تعذر عليهم جلب مطارنة من مصر لظروف معينة، أن استحضر الأحباش مطارنة سوريين أو كاثوليك غربيين؛ ولكن هذا كان يحدث لفترة محدودة جداً لا يلبث الأحباش بعدها أن يظهروا نفورهم من أولئك المطارنة غير المصريين ويكررون محاولاتهم لاستحضار مطارنة من مصر. ولا يخفى علينا أن وحدة الكنيسة بين مصر والحبشة جاءت مصحوبة بوحدة المذهب اليعقوبي في البلدين. ويؤكد هذه المعاني ما يرويه المقريزى من أن بعض الكاثوليك الذين كانوا يريدون دخول الحبشة حرصوا على إخفاء حقيقة مذهبهم، والتظاهر بأنهم يعاقبة حتى لا يتعرضون للأذى أو القتل.

ويفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة، وأن هذه السفارة تأخرت في العودة إلى مصر، مما جعل الظاهر بيبرس يغضب على ملك الحبشة.

ومهما يكن من أمر، فإن بيبرس غضب لتعويق سفارته، وربما لعدم تمكينها من مقابلة «الحطى»، وهو ملك الحبشة المسيحى. وأحس ملك الحبشة بغضب السلطان بيبرس عليه، فلم يجرؤ على الاتصال به مباشرة عندما احتاج إلى مطران جديد لبلاده، فأرسل كتابه إلى مصر عن طريق صاحب اليمنى، وكان ذلك سنة ١٢٧٣ (٦٧٢هـ)، راجياً من السلطان أن يطلب من بطريرك الاسكندرية ـ غبريال الثالث ـ أن يبعث إلى الحبشة «مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة»؛ ويدعو للسلطان بيبرس، فيقول «وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول

الطلوع اليـه الا صـعـوبة ولا يكون فـيـه مـوضع
للحـمـلات فـرحل ملك الانكتـار نزل الرملة فلمـا
نزل الرمله رحل السلطان من النطرون طلب مدينة
القـدس فـرحل ملك الانكتـار نزل النطرون وتم
السلطان على حـاله دخل مـدينة القـدس واهتم
بحفر الخنادق وعمارة الابراج واقام ملك الانكتار
على النطرون مدة ثم عاد الى عسقلان نزل عليها
واعـمـرها وحـصنهـا وانتقل منها الى غزه اعمـرها

---

بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك عدوه..» ثم إن ملك الحبشة يحرص في رسالته على أن يوضح للسلطان الظاهر بيبرس أنه يحسن معاملة المسلمين في بلاده، وأن منهم في جيشه مائة ألف فارس مسلم، «وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون».

ولكن السلطان بيبرس امتنع عن تلبية رغبة ملك الحبشة في إرسال مطران إليه، ورد على رسالة الحطى الطويلة، برسالة قصيرة مقتضبة، يفهم منها استياء السلطان بيبرس لأن ملك الحبشة تغاضى عن قواعد البروتوكول، ولم يتصل بسلطان مصر مباشرة، وانما أرسل رسوله إلى صاحب اليمن حيث أقام الرسول حتى يأتي الرد من مصر. ويضيف جاستون فييت أنه لا يستبعد أن يكون سبب استياء بيبرس هو أن ملك الحبشة لم يشفع طلبه الخاص بالمطران بالهدايا الثمينة من الذهب والرقيق، وهي الهدايا التي جرى العرف على إرسالها عند طلب مطران جديد للحبشة.

وهنا نجد أنفسنا على خلاف في الرأى مع المقريزى الذى يقرر أن الحطى متملك الحبشة طلب من السلطان بيبرس «أن يجهز له مطران من عند البطريك، فأجيب» ذلك أن تطور الأحداث التاريخية فيما بعد يتعارض مع رواية المقريزى، لأن ملك الحبشة لم يلبث أن كرر طلبه في عهد السلطان منصور قلاون، واعتذر عما حدث من والده، وأشار إلى أن الأحباش لم يرتاحوا إلى المطران السرياني الذى جلبوه من سوريا. ومعنى هذا كله واضح، وهو أن الظاهر

وحصنها وانتقل من غزه [إلى] ديررناس وهي قلعة
الدراون وكانة [كانت] باقية في يد المسلمين الى
اخر جمادى الاول سنة ثمان وثمانين وخمس ماية
[١١٩٢م] ففتحها واخذها وقتل واسر كلمن
وجده فيها ثم مضى الى بيروت يقاتلها فخرج اليه
صلاح الدين من القدس ونزل بالعسكر على يافآ
وقاتلها يومين ففتحها وقتل كلمن وجده فيها في
الريض فاما الفرسان والمقاتلة من الفرنج فانهم

---

بيبرس لم يجب ملك الحبشة إلى طلبه، الأمر الذى اضطر الملك إلى جلب مطران من السريان. ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك أن ملك الحبشة ـ يكونو أملاك ـ عندما يئس من رد بيبرس اتجه إلى سوريا، فاستحضر منها مطراناً سريانياً اسمه يوب Youb؛ كما نزح إلى الحبشة في ذلك الدور جماعة من الرهبان الدومينكان.

وقد ذكر محيي الدين بن عبدالظاهر نص الرسالتين اللتين أرسلهما الملك يجبأ صيون (صهيون) ملك الحبشة إلى السلطان المنصور قلاون. من ناحية وإلى يؤانس السابع بطريرك الأقباط في مصر (١٢٧١ ـ ١٢٩٣) من ناحية أخرى. ففى الرسالة الأولى يذكر ملك الحبشة لسلطان مصر: أنه يحفظ المسلمين في مملكته، وأن المطران السيريانى الذى اضطروا إلى استحضاره «أتلف البلاد في زمان والدى». ثم يختتم ملك الحبشة رسالته بالإلحاح فى إرسال مطران من مصر؛ ويتعهد بإرسال العوائد ـ من هدايا وأحوال ـ «التي جرت العادة بها عند طلب المطران». وثمة عبارة لطيفة جاءت في رسالة ملك الحبشة إلى السلطان قلاون هي «السلام يا منصور. اسمع يا سلطان مصر ـ نصرك الله ـ اعطى البطرك الدستيور يبعث لى أسقفا؛ فنحن وهم أمتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم. والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لى أسقفاً. وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك، ومهما قلت فعلته...».

أما رسالة ملك الحبشة إلى بطريرك الأقباط في مصر، فهي تكشف لنا الكثير عن العلاقة

دخلو القلعة وتحصنو فيها الى ان ادركهم ملك
الانكتار فرحل صلاح الدين عنها وعاد نزل
النطرون وذالك في شهر رجب سنة ثمان وثمانون
وخمسماية ولما عاد ملك الانكتار من بيروت الى
يافا وخلص البلد ورحل صلاح الدين عنها نزل
على يافا وكان الملك العادل ابو بكر قد سار الى
بلاد العجم وديار بكر وغيرهم فجمع عساكر
وكان الملك المظفر تقي الدين قد فتح مدينة

---

بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية، وعن نظرة الأحباش إلى كنيسة مارمرقس وحرصهم على دوام الارتباط بها والحاحهم في التبعية لها، ورفضهم مطراناً من غير المصريين. ونص هذه الرسالة الخطيرة ـ كما أوردها ابن الظاهر ـ هي: ـ

«أتوسل للبطرك ـ البطرك ٧٨ ـ أبو يحنس (يؤانس السابع) ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص، وأنذر يانون يكون عليك: اسمع كلامي، واقض حاجتي، وابعث لي مطراناً جيد صالح، يعلمني كل شي جيد، ويكون ما ضرب داود عليه السلام المثل في الزبور من شأننا. وقال خلوا رجلا جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد. وقال في وصيته: لا تخلي يا بني خروفك يأكله الذئب. وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم. ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم. وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك. والساعة لا تخرب مدينتك، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح. واذكر مرقص لاتخلينا بخطيتنا. إن كنت وحدك تقدر تسير إلينا مطراناً فسيره، وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان. وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك. ونخلي هؤلاء السريان في بلادنا، ونخرجهم إذا قلت: اطردوهم. وإن قلت: خليهم، خليناهم. وأنت أنكرت علينا بسببهم، فاغفر

خلاط(*) واخذها من بكتم ومات واخذها ولده بعده نصير الدين وبقى فيها بعسكر ابوه فلما مضى الملك العادل يجمع عساكر الشرق مضى اليه فاخذ عسكر ابوه وجامع[جمع] الملك العادل هو ومظفر الدين صاحب اربيل ومدينة الموصل وغيرهم من عساكر الشرق خلق كثير لا يحصى عدده. ولم تجى الفرنج فى تلك السنة نجدة ولا رجل واحد وكانو العساكر يريدو المصاف وصلاح

(*) خلاط: شمال غرب بحيرة فان، فأما بكتم فهو سيف الدين بكتمر ملك أرمينيا فى ذلك الوقت.

---

لنا هذا الذنب، حتى لاتبقى علينا خطية. واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت...».

وكان أن أرسل السلطان منصور قلاون مطران إليه، وعندئذ طردت الحبشة المطران السريانى ومن معه من الرهبان الدومينكان، وتمت مصادرة جميع ممتلكاتهم. وقد أدى ذلك إلى تحسن العلاقات بين مصر والحبشة، فيذكر أبو المحاسن أن ملك الحبشة أرسل هداياه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٠م (٧١٠هـ) ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى فى ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاون. أما ابن إياس فيذكر أن الهدية التى أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) بلغت قيمتها مائة ألف دينار أو أكثر، «حتى عدت من النوادر» ولا شك فى أن هذه الإشارات فى مختلف المراجع المعاصرة تدل على حسن العلاقة بين مصر والحبشة طوال عصر الناصر محمد بن قلاون، الذى حكم أكثر من اثنتين وثلاثين سنة. ثم إن هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين استمرت حتى قيام سلطنة المماليك البرجية، فقدمت رسل ملك الحبشة إلى مصر فى عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) «ومعهم هدية على أحد وعشرون جملاً، فيها من طرائف بلادهم من جملتها قدور ملئت حمصاً صنع من ذهب، إذا رآه الشخص يظنه حمصاً؛ وغير ذلك». كما ذكر ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة والمقريزى فى خططه.

الدين يروض الحال معهم ومع الفرنج ولم يزل
يدبر والله يعضده بالتوفيق الى ان تصوب رايه فى
الهدنة والصلح وحقن الدما وصيانة الاموال
والنفوس من التلف للفريقين المسلمين والافرنج
فمال الى الصلح وتقررت الهدنة مع الفرنج اربعون
شهر اولها شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسماية مع
ملك الانكتار وعسكر الساحل، على انه اى من
وصل من ملوك الافرنج من خلف البحر وكان فى

---

وهكذا استمر رسل الحبشة يفدون على القاهرة، وخاصة عندما كان يخلو منصب المطرانية بالحبشة. وهناك إشارات فى المراجع المعاصرة إلى أن رسل ملوك الحبشة وفدوا على مصر فى سلطنة كل من برسباى وجقمق وقايتباى، وكانوا يحضرون معهم هدايا ضخمة للسلاطين. وفي الوقت نفسه كان سلاطين المماليك يكرمون رسل الحبشة طالما أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين البلدين. وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على أن لا يسمحوا لأولئك الرسل بتجاوز قدرهم فى حضرة السلاطين. من ذلك ما يرويه ابن إياس من وصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان الأشرف قايتباى سنة ١٤٨١م (٨٨٦هـ) «فأوكب له السلطان بالحوش موكباً حافلاً، من غير شاش ولا قماش. فجلس السلطان على الدكة وحوله الأمراء. فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان كان بصحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسي يجلسون عليها بحضرة السلطان، فمنعوهم الرءوس النوبة من ذلك. ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه، وأنزله فى مكان عُد له، ورتب له ما يكفيه فى كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده. وحضر صحبته تقدمه (هدية) حافلة للسلطان، فأكرم ذلك القاصد جداً. وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولي شخصاً يكون نائباً عنه ببلادهم».

على أنه ثمة سبب آخر أوجب تردد الأحباش على مصر فى العصور الوسطى، هو اتجاههم لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين والقيام بالحج وكانوا فى طريقهم من بلادهم إلى القدس

قوة يقدر على فسخ الهدنة كانو عسكر الحال ابريا من العـهـود والايمان، وعلى ان الذى فـتـحـوه المسلمين بسـيـوفـهم من المدن والقـرى والقـلاع والحصون يكون لهم والذى هو باق بيـد الفرنج لم يفتحوه المسلمين هو باق للافرنج. وذكر من حضر عقد الهدنة ان بيروت وصيد وجباله وجبيل وبلاد وقلاع لم اعرف اسـماها فـاذكـرها يكون بينهم مناصفة فاما البيت المقدس فانه كان بيد المسلمين

---

يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الاحمر، وذلك خوفاً عن البحر وغائلته. وقد ذكر بعض الكتاب فى أوائل القرن السادس عشر أنه شاهد بنفسه قافلة كبيرة من الحجاج الأحباش تتألف من نحو ثلثمائة حبشى يخترقون الطريق البرى السابق الذكر فى طريقهم الى القدس. وكان المفروض أن يدفع هؤلاء الحجاج ضريبة الخفر، وهى الضريبة التى يدفعها الحجاج المسيحيون أثناء مرورهم فى البلاد الإسلامية، مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم. وهناك نص على جانب خطير من الأهمية، اكتشف مكتوباً على باب من أبواب كنيسة القيامة فى بيت المقدس، ويرجع إلى سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)؛ وهو عبارة عن مرسوم أصدره السلطان الأشرف الغورى بإعفاء الرهبان والراهبات من أى رسم يدفعونه مقابل السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة فى القدس. وقد ورد فى هذا المرسوم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الأشرفى، السيفى... أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات، والملكانيين واليعاقبة، بموجب ولا بخفر ولا بظلم، عند دخولهم قمامة القدس الشريف [كنيسة القيامة]، أسوة برهبان الكرج والحبوش... الوارد من الرهبان والرهبانيات المذكورين فى البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس؛ مستمر حكم ذلك من تقادم السنين، من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك.».

والواقع إن أعداد الحجاج الأحباش الذين دأبوا على المرور بمصر فى طريقهم إلى الأراضى

فى ذالك الوقت فبقى لهم على حاله وقرر صلاح الدين ان يحجو اليه بحيث لا يدخلو معهم سيف ولا شيا من السلاح وشرط لهم امان لا يوخذ منهم مسكن. وجعل صلاح الدين سيف الدين يازكوج والى البيت المقدس وذكر [وضع] معه فيه ثلاثة الف فارس ممن [من] المماليك الاسديه وصام صلاح الدين هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على البينانى شهر رمضان فى البيت المقدس وانفذ

---

المقدسة كانت كبيرة. وهؤلاء كان يحرص السلاطين دائماً على حمايتهم من أذى العامة وتعرضهم لهم؛ وبخاصة فى عصور اشتهرت بالحروب الصليبية وطفحت بروح العداء الدينى. ونستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن أعداد الحجاج الأحباش من ناحية ، وما كانوا يصادفونه فى طريقهم عبر مصر من ناحية ثانية، ثم حرص الحكام على حمايتهم من العامة من ناحية ثالثة... من الوصف الذى أورده المؤرخ إياس فى حوادث سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) ـ أى زمن السلطان الغورى ـ قال ابن إياس ما نصه:

«وفى يوم الخميس خامس عشرينه، حضر قاصد من عند ملك الحبشة... فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولاقماش ـ كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة الى أنشأها بالحوش، ونصب على رأسه السحابة الزركش، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته. ثم طلع القاصد من الصليبة، وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط [من العامة] وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر، ومنهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب. وأما القاصد الكبير... فكان على رأس خوذه مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب ومنهم بعض فصوص، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة، وعليه

الرجال والاجناد وهدم صور عسقلان مستدير وتركها قرية بغير سور وكان الاتفاق على هدمها في عقد الهدنة. وكانو الفرنج والمسلمين بعد الصلح حتى صارو مثل الاخوة وكذالك الملوك مع صلاح الدين وحمل اليهم اموال وهدايا وحملو له هدايا وخيل وطوارق [دروع] وسيوف المانية مدارة في علب خشب وقنطاريات [رماح] مدهونة. فسبحان الله المولف بين القلوب المتباعدة والطباع

---

شاياه حرير ملون ، وعلى بقية أعيان آمراء الحبشة شايات حرير ملون، وعلى رءوسهم شدود حرير... فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير. وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها. وكان صحبتهم البترك الكبير، وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب . واصطفت جميع النصارى الذين في مصر للفرجة عليهم، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة. فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش قدامهم.. فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبل الأرض، فلما وصل إلى أوائل البساط قبل الأرض ومن معه من أعيان الحبشة. ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس، والبقية لم يدخلوا. فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة. ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة، وقيل من الذهب. فلما قرئ على السلطان وجد فيه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان، وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا (كنيسة) القيامة التي بالقدس، فلا تمنعوهم من ذلك فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة. فرسم لهم السلطان بأن يقيموا في ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا. وأرسل لهم خياماً ضربت لهم من داخل الميدان. ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام. فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالي والمهمندار وجماعة

المتضادة فهو سبحانه خالق الخلايق ومدبرها وباريها ومصورها لا اله الا هو ولا معبود سواه، فاما اسارى المسلمين الذى مع الفرنج واسارى الفرنج الذى مع المسلمين فلم يتقرر فى امرهم شيا(*) بل بقي كل منهم مع صاحبه على حاله يقوم بقطيعة ويتخلص. وبعد الصلح بايام يسيرة ركب ملك الانكتار المراكب فى البحر وعاد الى بلاده بماكسبه وغنمه ومعه جماعة واصحابه واجناده وتوجه

(*) بالرغم من الود والأخوة التي ظهرت بين صلاح الدين وقواد الحملة الصليبية إلا أنه لم يفكر أى منهما فى اطلاق اسراه من الفقراء والمدنيين، ولا وضع شروط لذلك فى معاهدات الود والصداقة التي كانت بينهما.

---

من الرءوس والنواب، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود...».

واذا كان جموع الأحباش القاصدة للحج وزيارة الأماكن المقدسة على هذه الدرجة من الكثرة ووفرة العدد؛ فإنه كان لابد للأحباش من مقر في بيت المقدس يكون بمثابة مركز لهم، ونقطة تجمع يلتفون حولها في تلك البلاد البعيدة عن أرضهم . وكان ذلك المقر للحجاج الأحباش هو دير فى بيت المقدس نسب إليهم، وله مقدم يعينه ملك الحبشة. وقد دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى ذلك الدير، طالبين من رهبانه الدعاء لهم. من ذلك الرسالة التي أرسلها ملك الحبشة يجبأصيون (صهيون) على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى رهبان دير الأحباش في القدس الشريف، ونصها: «السلام عليكم يارهبان الحبوش، الذين صبروا على العبادة والزهد الى هذه الأيام، وصبرتم على الحر والبرد. وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة؛ وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان: ماهو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد ولا يلبسه إلا القسيس الذى يعمل القربان. فعرفونى بوصول هذا، واكتبوا أسماءهم، واذكرونى فى صلواتكم ، واقبلوا ما سيرته فهو فى سرير سلطانى وزنارى. ولا تنسونى كل يوم..» وعلى الرغم من أن مقدم دير الأحباش

صلاح الدين من البيت المقدس الى دمشق فى شوال سنة ثمان وثمانين وخمسماية بعد ان صام فيه هو وجميع من معه من المسلمين شهر رمضان، ومضى الى دمشق طاهر[ختن] اولاده وكان له يوميذ اولاد كثير ذكور يركبون الخيل خلفة عددهم خمسة عشر ولد وهذه اسمايهم ونعتوهم(*) الملك العزيز عثمان سلطنه على مملكة ديار مصر والبيت المقدس واعمالها واقام ملكا عليها بعد ابوه صلاح

(*) اسماء ونعوت اولاد صلاح الدين الذكور الذين كانوا معه فى دمشق.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

بالقدس لم تربطة رابطة التبعية، بسلاطين مصر، إلا أنه لابد ـ فى نظرنا ـ وأن هذا الدير كان محوراً لاتصالات ودية بين ملوك الحبشة وحكام مصر في العصور الوسطى، بحكم سيطرة هؤلاء الحكام السياسية على بيت المقدس طوال شطر كبير من تلك العصور، وخاصة فى عصر سلاطين المماليك

على أنه لا ينبغى بأى حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين مصر وملوك الحبشة، وخاصة في عصر الحروب الصليبية عندما تحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين، وهو العداء الذى كثيراً ما انعكست صورته واضحة فى العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر، وبين غيرها من الدولة المسيحية، المجاورة وغير المجاورة. وثمة حقيقة لا نستطيع أن ننكرها، هى أن المسيحين فى مصر تعرضوا فى العصور الوسطى لشئ من الإضطهاد، وخاصة فى عصر الحروب الصليبية. وكان سبب هذان الإضطهاد رغبة حكام مصر ـ وبصفة خاصة الفاطمين وسلاطين المماليك ـ فى الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم فى نظر المسلمين. وهنا نجد ملوك الحبشة يفتحون أبواب بلادهم للأقباط النازحين من مصر فراراً من الإضطهاد. وقد حدث أن هاجر كثير من القبط من مصر إلى الحبشة فى عصر الخليفة الحاكم

الدين خمسة سنين ونصف، الملك الاعز يعقوب، الملك المويد مسعود، الملك فتح الدين اسحق، الملك الجواد ايوب، الملك الظاهر غازى وسلطنه على حلب واعمالها، الملك الافضل على وسلطنه على دمشق واعمالها، الملك المستمر خضر، الملك الزاهر داوود. وبقية الصغار نورشاه، شاهنشاه، ملك شاه احمد ابو ابكر. وهذه العده ليس من امرآه. واحدة بل عدة نسا. وكان فى يد صلاح الدين من

---

بأمر الله، ثم فى عهد السلطان الكامل الأيوبى عندما حاصر الصليبيون دمياط سنة ١٢١٩ وكذلك سنة ١٢٢٧ عندما أمر الملك الكامل بتدمير مدينة تيس واغراقها. فرحب بأهلها الفارين ملوك الحبشة وأكرموهم.

على أنه كان من العسير على ملوك الدول المسيحية أن يسكتوا عن ذلك الوضع، فنسمع عن ملوك الحبشة أنهم تدخلوا أكثرمن مرة عند سلاطين مصر وحكامها لتخفيف حدة المتاعب التى كان يعانيها الأقباط بين فينة وأخرى. ولم يحجم ملوك الحبشة عن تهديد سلاطين المماليك بالإنتقام من المسلمين فى بلادهم إذا استمرت الأمور على أوضاعها. من ذلك ما يرويه النويرى فى حوادث سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) من أن ملك الحبشة أرسل رسلا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب منه «إعادة ما خرب من كنائس النصارى، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر. فسخر السلطان منه ورد رسله!» ويكرر المقريزى خبر وصول رسول ملك الحبشة بعد ذلك سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) لنفس السبب السابق.

ويبدو أن عدم استجابة سلاطين مصر لرجاء ملوك الحبشة وسخريتهم منهم ـ كما أشار المقريزى فى النص السابق ـ جعل ملوك الحبشة ينفذون تهديداتهم على نطاق واسع. من ذلك

مملكات الدنيا في حال حيايه[حياته] يوميذ اقليم
ديار مصر وجميع اعمالها واليمن الى هنعا
[صنعاء] وعدن وزبيد فتحه بيد سيف الاسلام
اخوه وفي مدينة النوبة الى مدينة ابريم وبلاد
صاحب الجبل، والبيت المقدس والساحل وجميع
ما قدمنا ذكره من مدنه وقراه وحصون وقلعة.
ومافتحه في بلاد انطاكيه حصن برزيه واللاذقيه
وبغراس وغيرهم مما لم نعلم اسمه فنذكره

---

أن ملك الحبشة جبرة مصقل ـ واسمه الأصلى عمدة صيون (صهيون) ـ الذى امتد حكمه من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٢م (٧١٢ ـ ٧٤٣هـ) تطرف في اضطهاد المسلمين الذين حاولون الاستقرار في بلاده.، وشن ضدهم حروباً كثيرة. على أن المسلمين في الحبشة خاضوا حروباً بأسم الدين ضد ملوك الحبشة. ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه حدث سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩) أن قام رجل بالحبشة يدعي أبو عبد الله محمد يدعو إلى الاسلام «فاجتمع عليه نحو المائتى ألف رجل وحارب الأمحرى (ملك الحبشة) في هذه السنة حروباً كثيرة».

وعندما اشتدت وطأة المعارك بين ملك الحبشة والعرب الغزاة لبلاده سعى الفقيه عبد الله الزيلعي رئيس وفد أوفات لدى السلطان الناصر محمد بن قلاون ليتدخل لمساعدة العرب في الحبشة، فوسط السلطان بطريرك الأرثوذكس بالأسكندرية في ذلك الأمر. ويقال إن بطريرك الإسكندرية أرسل رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه ترك محاربة العرب في بلاده، ولكن تلك الجهود لم تثمر، فاستمرت الحروب طويلاً بين العرب في الحبشة وملكها عمد صيون . وقد فسر القلقشندى هذه الوساطة في ضوء الرغبة في التخفيف عن عرب الحبشة، فقال إن الفقيه عبد الله الزيلعي انتهز فرصة وصول رسول ملك الحبشة إلى مصر ليسعى لدى السلطان أن يطلب من البطريرك الكتابة إلى ملك الحبشة «بكف أذيته عمن في بلاده من المسلمين وعن

---

ومدينة دمشق التي هى شهوة ملك الدنيا المشبهة
بالفردوس فى انهارها الحلوة الطيبة واشجارها
واثمارها وطيب هواها، ومدينة حلب وقلعتها دار
ابراهيم الخليل عليه السلام، جسرة ملوك العرب
والعجم واعمالها ورستاقها، ومن خلف نهر الفرات
حران ونصيبين وسنجار ومنبيج والرها وامد
وميافارقين وغيرهم من قراهم ورستاقهم مما لم
نعلمه فنسميه. وكان امره ينفذ فى جميع ممالك

---

أخذ حريمهم. وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك، فكتب إليه عن نفسه كتاباً بليغاً شافياً، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وأنه حرم هذا على من يفعله».

أما سلطنة المماليك في مصر، فقد قامت باضطهاد المسيحيين في مصر ، وفصل من كان يعمل منهم فى الديوان السلطاني أو يشغل وظيفة رسمية فى الدولة؛ ففر بعضهم إلى بلاد الحبشة، وعلى رأسهم فخر الدولة الكاتب ـ وهو كاتب قبطى ـ فرحب به اسحق ملك الحبشة وأدخله فى خدمته . ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان لملك الحبشة على نمط الديوان السلطانى بالقاهرة، ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب. وبفضل هذه النظم التى انتقلت من مصر، صار ملك الحبشة ـ على حد قول المقريزى ـ «ملكاً له سلطان وديوان».

وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر فى ذلك الدور على فرار بعض الأقباط من مصر إلى الحبشة، بل لجأ بعض أمراء المماليك المسلمين أيضا إلى بلاد الحبشة، ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان، وخوفهم على أنفسهم من غائلته. وعلى رأس هؤلاء تذكر المراجع الأمير ألطنبغا حاكم قوص فى عهد السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ١٤٢١). وقد قام هذا الأمير بتدريب الأحباش على استخدام النار الإغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استخدام الحراب. كذلك يشير المقريزى إلى أحد

العرب والعجم والروم ولم يملك احد ممن عاصرناه ورايناه مثله. وطاعته امم وملوك، وكان امره ينفذ في بلاد الحبشه والنوبه والبجاه واليمن والحجاز وجميع اعمال القبلة [الجنوب]. وفي الشرق بيت المقدس والساحل ومدنه وقراه ودمشق واعمالها وحلب واعملها ومن خلف نهر الفراة [الفرات] مدن كبار وقراها وقد قدمنا ذكرها. وقد كان تردد الي مدينة الموصل وقاتلها وحاصرها زمان فلم

---

المماليك الزردكاشية ـ ولم يذكر اسمه ـ فر من مصر في ذلك الدور، فعهد إليه اسحق ملك الحبشة بعمل «زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها.. ويوضح هروب المسلمين إلى الحبشة أن الصراع مع الحبشة كان بين ملوكها وغزاتها من العرب وليس حرباً بين مسلمين واقباط.

وهكذا استفادت الحبشة في الربع الأول من القرن الخامس عشر من خبرة المصريين وتقدمهم الحضارى ـ وخاصة في النواحي الحربية والإدارية ـ مما ساعد مملكة الحبشة على التطور والتقدم. ويتردد في المراجع ـ في ذلك الدور ـ اسم تاجر مسلم، هو نور الدين على بن محمد بن يوسف التبريزى ـ نزح إلى بلاد الحبشة ، واستقر فيها حيث ازدهرت تجارته وصار موضع ثقة اسحق ملك الحبشة. ويقول أبو المحاسن أن على التبريزى قام بشراء كل ما احتاج إلى بلاط ملك الحبشة من نفائس مصر، فضلاً عن أنه اشترى للملك الحبشة ما يحتاج إلى جيشه من أسلحة وخيول وفي احدى رحلاته التجاريه عاد التبريزى إلى الحبشة عن طريق مصر، فوشى به أحد رفاقه فقبض عليه ، ولم يقبل منه مال مقابل إطلاق سراحه، وبادر السلطان بتشهيره ثم تسميره.

وهكذا دخلت العلاقات بين مصر والحبشة في القرن الخامس عشر دوراً عنيفاً، يتصف

---

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

يدفعها الله له ولا ظفره بها. كان ديار مصر فى
جميع ايام دولته من اولها الى اخرها راخية الاسعار
كثيرة الخيرات القمح الطيب عشرة ارادب بدينار
والشعير عشرين اردب بدينار والفول مثله والعدس
والجلبان والبرسيم والترمس جميع ذالك سعر
واحد عشرين اردب بدينار واما العسل الدفن المتبن
الطيب بدينار القنطار بالمحلى، والقطاره بدينار
وقيراطين [و] القنطار بالمحلى والعسل النحل بدينار

---

بالتحدى والإستشارة من كلان الجانبين ، فأبطل اسحق بن داود ملك الحبشة إرسال الأموال والهدايا المعتادة إلى بطريرك الإسكندرية وسلطان مصر جميعاً. على أن سلاطين المماليك فى مصر عملوا بغباء شديد على قطع الصلة بين الكنيستين المصرية والحبشية، الأمر الذى جعل ملك الحبشة يولى وجهه شطر روما. وقد أدركت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية أنه خير للكنيسة الحبشية أن ترتبط بكنيسة روما من أن تضيع وتبقى وحيدة معلقة دون كنيسة أم تشرف عليها وتوجهها مما يعرض مصير العقيدة المسيحية نفسها فى الحبشة للضياع.وهكذا أقر بطريرك الإسكندرية مشروع ربط الكنيسة الحبشية بكنيسة القديس بطرس فى روما، وخرجت من مصر إلى روماسفارتان سنة ١٤٤٠ ، إحداهما برآسة الراهب أندراوس الأنطوانى والأخرى برئاس بطرس الشماس. وفى نفس الوقت حرص زرء يعقوب ملك الحبشة (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨) على تكليف مقدم دير الأحباش بالقدس إرسال بعثة من الرهبان الأحباش للإشتراك فى مجمع فلورنسا الدينى (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩). وليس أدل على التقارب بين ملك الحبشة والبابوية فى ذلك الدور من سماح البابا إيو جنيوس الرابع للأحباش بإقامة دير لهم فى روما.

ونستطيع أن نستكشف الكثير عن طبيعة العلاقات بين مصر والحبشة أواسط القرن الخامس عشر من الرسلة التى أرسلها ملك الحبشة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ ـ

واحـد ونصـف وربع القنطار بالمصـرى. والكشـاطه
بنصف دينار القنطار بالمصـرى. والقند الاحـمـر
[عسل القصب المجمد]كانت اسعاره مختلفة على
حـسب تربه بلد خـلاف بلد والنقى من الوسخ
فوقت يباع الطيب بدينار القنطار بالمصرى واذا قل
ابتاع بدينار وربع والبياض الذى مثل السكر بدينار
ونصف القنطار بالمصرى، والقطر بعشرة الدراهم
القنطار بالمصرى المحبوب، الكتان بخمسين درهم

---

١٤٥٣)، وقد وصلت هذه الرسالة مصر سنة ١٤٤٣م (٨٤٧هـ)، وذكر السخاوى نصها بالكامل، وفيما يلي بعض فقرات منها:

«المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قسطنطين، من نسل أرعد، من بنى سليمان بن داود عليه السلام. ملك سلاطين الحبشة، وصاحب النواب بالمملكة النجاشية، إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى الظاهر جقمق، سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام، سيد الأنام... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم... ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والإتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف... وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعى من النظر في حال رعيته،وأن الله يطالبه بذلك. وأبرنا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً، ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا. وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما في بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا، ونحن لهم ولملوكهم مالكون، ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين... وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيل المسومة.. وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الإستطاعة على أن نمنع للزيادة التى تروى بلادكم... ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله. وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى

القنطار  بالليتى الطيب ودونه بتلتين درهم الشمع
الكافورى بتلت دراهم الرطل بالمصرى والمشا ع
الشرب كثير، والقماش والصوف والادم كثير جد
والتجار يبيعون ويشترون ويربحون والبركة حالة
فى كل شى. وكانة ايام دولته كلها حسنة طيبة
واحوال الرعية مستقيمة ولم يصادر احد من رعيته
ولا ظلم احد كعادة من تقدمه والطرق امنه والامور
صالحة. ومات(*) فى مدينة دمشق يوم الاربعا

(*) وفاة صلاح الدين فى دمشق.

---

إعلامه، فاعلموا أنتم يلزمكم، وبما يلقى الله فى قلوبكم،ولم يبق لكم عذر تبدونه...[1]».

هذه هى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان جقمق سنة ١٤٤٣، ومنها نستطيع أن نخرج بالمعانى الآتية: أولاً حرص ملوك الحبشة على عدم قطع علاقاتهم مع مصر قطعاً تاماً. ثانياً تعمد ملك الحبشة إظهار قوته وقدرته على إلحاق الأذى بالمسلمين فى بلادهم، وأنه إذا كان ممتنعاً عن ذلك، فليس خوفاً من سلطان مصر، وإنما رغبة فى الاحتفاظ بحسن العلاقات معه . ثالثاً جمع ملك الحبشة فى ر سالته بين أسلوب التهديد وأسلوب الترغيب، فلوح بقدرته على تحويل جرى نهر النيل، وذكر أن السلطان لم يبق له عذر بعد ذلك، فإذا لم يحسن معاملة المسيحيين فى بلاده فعليه أن يتحمل النتائج... وفى الوقت نفسه أرفق ملك الحبشة برسالته السابقة هدية للسلطان جقمق عبارة عن سبعين جارية وطشت وإبريق من ذهب وسيف مسقط من ذهب وحياصه وبناد ومهماز، وربما كانت هذه الهدية فى حد ذاتها عاملاً مخففاً من عنف بعض عبارات الرسالة، فاكتفى السلطان جقمق برفض طلبات ملك الحبشة، وإن كان قد رد على هديته بهدية طيبة، فيها سرجان من ذهب وشقق مذهبة، وطائر مجوف مصنوع من

(١) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ ـ ٧١.

السادس والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين
وخمس ماية للهجرة [١١٩٣م] في قلعة دمشق
ودفن في المدرسة التي بناها فيها وكان عدد
عسكره يوم وفاته عشرة الف فارس، منه طواشه
اربعة الف، ومنه قرا غلاميه ستة الف، وكان قد
كمل له من العمر سبعون سنه وملك مصر وعزها
مما قدمنا ذكره اربعه وعشرين سنه وتسعة اشهر
ونصف لانه ملك بعد وفات اسد الدين شيركوه

---

البللور، وقطع من الجوخ والصوف الملون، وكمية من الزيت الطيب... وحمل رسالة جقمق وهديته مبعوث خاص إلى ملك الحبشة هو يحى بن أحمد[١].

ويبدو أن ملك الحبشة استاء من رد جقمق، فحجز رسوله عنده، وأمر بقتل سلطان عدل الإسلامية ـ وهو شهاب الدين أحمدفى حضرة رسول السلطان، ولما بلغ السلطان جقمق ذلك، استحضر بطريرك الأقباط فضربه وهدده بالقتل، فأسرع البطريرك إلى كتابة رسالة إلى ملك الحبشة يحكى ما حل به من هوان، ويطلب منه الإفراج فوراً عن رسول السلطان. فاستجاب ملك الحبشة أخيراً لذلك.

ومن الواضح أن دولة المماليك كانت في ذلك الوقت ـ قرب منتصف القرن الخامس عشر للميلاد ـ تعانى كثيراً من المتاعب التى تعانيها كل دولة في خريف عمرها؛ فانتاب الخلل جهاز الحكم، وكثرت ثورات المماليك الجلبان، واضطربت أطراف الدولة بالحركات الانفصالية، وازداد خطر الإمارات التركمانية على حدودها الشمالية... كل ذلك في الوقت الذى ما فتئت القوى الأوربية المسيحية تفكر في الثأر لنفسها. لذلك وقف السلطان جقمق موقفاً سلبياً من ملك الحبشة، وخاصة لأن موقع الحبشة الجغرافى كان يجعل الحطى بعيداً عن متناول يد السلطان. وإذا كان المسلمون بالحبشة لم يكفوا عن طلب النجدة من سلطان المماليك في

(١) المرجع السابق، ص ٧١.

في جمادى الاول سنة اربع وستين وخمسماية هلالية وخراجية [١١٦٨ / ١١٦٩م] ومات بدمشق في التاريخ المذكور وذكر بعض اهل العلم انه ملك ديار مصر يوم الاربعآ ومات بدمشق يوم الاربع ومن حسن سيرته وفضل دولته ان بعد موته لم تركض فرس لا بالشام ولا بمصر ولا [......] ولم تختلف اولاده ولا ذريته ولا طلب منهم احد الملك لنفسه ولا خالف اولاده أحد من اصحابه بل

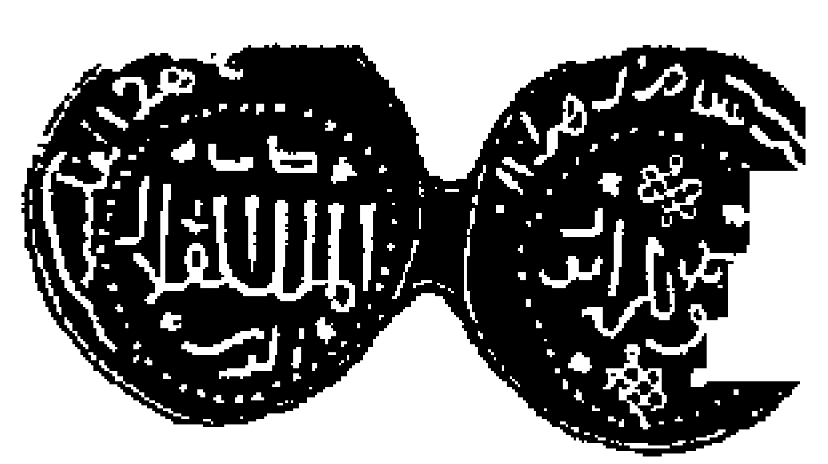
---

مصر، فإن الظاهر جقمق اكتفى بأن أرسل رسولاً ـ هو مثقال الحبشي ـ إلى سلطان عدل ينصحه بمصانعة ملك الحبشة والبعد عن التطرف في سياسته معه، حرصاً على سلامة مملكته.

وهكذا دأب سلاطين المماليك في مصر في أواخر أيام دولتهم على غض النظر عما كان يأتيه ملوك الحبشة من أعمال استفزازية. من ذلك أنه حدث سنة ١٤٤٩م (٨٥٣هـ) أن حضر إلى مصر قاضي سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرء بن يعقوب أعد أسطولاً ضخماً من مائتي سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطئ الحجاز، فضلاً عن تصميم ذلك الملك على قطع ماء النيل عن مصر. ومع ذلك استمر سلاطين المماليك في ذلك الدور يحسنون استقبال سفراء ملوك الحبشة وحجاجهم،وهي السفارات التي تكرر وصولها، و التي أشرنا إلى بعضها في عهد السلطان الأشرف قايتباى والسلطان قانصوه الغوري.

على أن الفتح العثماني لمصر، وسقوط دولة البرين والبحرين ـ وهي دولة المماليك التي ملكت بر مصر وبر الشام وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر ـ في قبضة السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧ ؛ جاء إيذاناً بمرحلة جديدة في التاريخ. ولعدة قرون تالية، لم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة، تتصرف بوحيها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية، وإنما كان عليها أن تسير في فلك السياسة العامة للدولة العثمانية.

اتفقوا جميعهم على الذى ملكوه من اولاده: الملك العزيز مصر والبيت المقدس، والملك الظاهر حلب، والملك الافضل دمشق الى [أن] دبر اخوه الملك العادل ابو بكر ما دبر اخذ الملك بمصر ودمشق منهم وسنشرحه فيما بعد وهذا ما انتها الينا علمه والسلام.



نقود الملك العادل

وبعد تقدم ما شرحناه من ايام بطركية هذا الاب السعيد القديس الطاهر انبا مرقس وما قاساه من

---

## الأمير برقوق اليلبغاوى
## ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣م ـ دخول برقوق فرقة اليلبغاوية ـ اشتراك برقوق. فى ثورة اليلبغاوية على السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨م ـ عودته الى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣م فى خدمة أمير على وأمير حاجى ابنى السلطان شعبان ـ قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦م وتولية ابنه أميراً على السلطنة ـ الصراع بين اليلبغاوية على الوظائف الهامة ـ تعيين برقوق فى منصب الامرة المملوكية فى خدمة الأمير اينبك البدرى اليلبغاوى ـ استغلال برقوق للشحناء بين زعماء اليلبغاويه ـ تولية البدرى الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ ترقية برقوق الى أمير طبلخاناة ـ طمع اينبك فى السلطنة سنة ١٣٧٧م وفشله ازاء معارضة الخليفة ـ تحريض برقوق المماليك الترك على اينبك البدرى ـ المنافسة الخافية بين برقوق واينبك البدرى والتخلص منه ـ الاتفاق بين اليلبغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة ـ تعيين برقوق فى منصب أمير سلاح ـ استبداد برقوق وبركة بالأمور دون يلبغا الناصرى ـ وصول برقوق الى منصب الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ سعيه الى تعيين أقاربه فى وظائف الدولة ـ التنافس بين برقوق وبركة واشتداد النزاع بين الترك والجركس ـ مؤامرة فى صفوف الجراكسة سنة ١٣٧٩م لهدم نفوذ الجراكسة ـ اثارة برقوق للعامة على بركة ـ انتصار الجراكسة بزعامة برقوق وسجن بركة

المصاعب وشاهده من الشدايد فى بداية مملكة
صلاح الدين من خروج امره بان تنزع الصلبان
الخشب الذى كانو على كل قبه عالية فى كل
كنيسة من جميع الكنايس التى بارض بديار مصر
[وكل من ] راى كنيسة كان ظاهرها ميض تليس
بالطين الاسود من فوق البياض، وان لا يدق
ناقوس فى جميع ديار مصر ولا يدور النصارى
بالزيتونة فى مدينة ولا قرية كالعادة الاولى وان

---

ـ ثورة العرب ضد الجراكسة ـ اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الجراكسة ـ وفاة السلطان على بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١م ـ تولية حاجى بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١م ـ اتجاه برقوق نحو العامة ـ تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢م.

* * *

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالقة بأذهان اليلبغاوية الذين عادوا إلى القاهرة، غير أن الذى يثير الدهشة حقا أن يفكر فى هذا الأمر مملوك من أجناد اليلبغاوية العائدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسى.

وأصل هذا المملوك من قبيلة «كسا» الجركسية [١]، ولد حوالى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) [٢] وحين بلغ العشرين من عمره بيع فى أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية [٣]، ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م)[٣] وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخاصكى وهو وقتذاك أتابك

(١) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٢، ٢٢٣.
(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٦.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب.
(3) Huart : Hist. Des Arabes T1lp. 59.

يغيرو النصاره زيهم ليعرفو من المسلمين بان يشدو
زنانيرهم في اوساطهم ولا يتردون [يسيروا] بعرضى
ولا طيلسان ويرفعون عدب عمايمهم ولا يركبون
الخيل ولا البغال بل يركبون الحمير ولا يتظاهرون
بشرب الخمر وان يخفضو اصواتهم فى صلواتهم.
وطمع او باش المسلمين فيهم فى ذالك الوقت
واهانوهم ورتبو على بعض الكنايس في المدن
والقرى فهدموها ونال القوم من ذالك مشقة

---

السلطان محمد بن حاجي. ومر برقوق فيما مر به غيره من مماليك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد في مناظر الكبش، التي جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل في مظاهر القوة والسيادة، وعمل بها على إضعاف المركز السياسى لأسرة قلاون تمهيداً لتحويل العرش عنه[1].

ونظراً لما لمسه الأمير يلبغا العمر الخاصكى في مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات، وأصبح برقوق من جملة مماليكه الكتابية المقربين إليه [2] واقترن اسم برقوق بالعثمانى نسبة إلى التاجر الذى جلبه؛ ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من السبق فى ميدان الفقة وسائر العلوم الدينية. وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الخلقة [3] والتفوق في فنون الحرب والفروسية [4].

(١) راجع ابن الطولوني: النزهة السنية ص ٢٢١.
(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤٧٥.

Iorga : Notes & Extraits T11p. 532.

(٣) الإسحاق: لطايف أخبار الدول ص ١٤٠. ينفى ابن تغرى بردى ماذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقا لنتوء فى عينيه ويؤيد رأيه بأن أقاربه وإخوته حين حضروا نادوه «برقوقا» راجع النجوم جـ١١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، المنهل جـ١ ورقة ٣١٦ أ، ب، انظر السيوطى كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأشرف قايتباى ص ٩.
(٤) العيني: السيف المهند ص ٣٩.

عظيمة حتى خرج جماعة من كتاب المصريين
والقاهريين من اديانهم وجحدو مسيحهم. ولم تزل
الامور تتوطا بصلات هذا القديس مرقس البطرك
وهو يجاهد على شعبه ورعيته الى ان اصلح الله
لهم قلب سلطانهم ببركة صلواته فقربهم وادناهم
واستخدمهم فى ديوانه فى اموال دولته وانعم
عليهم فعادو الى ارفع مما كانو عليه وركبو الخيل
والبغال ولبسو الخفاف والثياب المفرحة وسارو معه

---

وأخلص برقوق لسيده أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨هـ - سنة ١٣٦٦م [1]. ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية. وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان «بحسم دائهم» ونفى العناصر الثورية منهم، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم إلى الكرك [2] سنة ٧٦٩هـ - ١٣٦٨م، غير أن اليلبغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلى بغا، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كللت مساعيهم بالنجاح، فأفرج السلطان شعبان عنهم فى سنة ٧٧٣هـ - سنة ١٣٧١م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركى من اليلبغاوية هو بركة الجوبانى ليعملا فى خدمة الأمير منجك اليوسفى نائب دمشق [3]. بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسفى لم تشبع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء. وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التى تمهد لعودته إلى القاهرة ولاسيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣.
(٢) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢، راجع بداية حياة برقوق فى العسقلانى: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ١ ورقة ١٨.

في الغزوات كتاب ديوانه وكتاب اهله واقاربه وكتاب اجناده وتعلق كل نصراني بكتاب امير من امرآ دولته ومن اهله واقاربه وحفظ كل منهم حرمة كاتبه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاه ونفاذ كلمة وعز، ونقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم الى الله وطاعتهم لريسهم ذلهم الى عز واهانتهم الى كرامة وبغضهم الى محبة وضعفهم الى قوه واكثرو من الصدقات ولازمو الصلوات

---

وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر الجراكسة [1]، وأنهم سيحكمون سورية. وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً في نفس برقوق، مما يبن أن طمع برقوق في عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً. والخلاصة أنه ما كاد اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرون للسلطان شعبان خطورة اعتماده على مماليكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلبغاوية من سورية، فعاد برقوق وزميله بركة في سنة ٧٧٥هـ (سنة ١٣٧٣م) مع عدد كبير من اليلبغاوية الجراكسة والترك إلى القاهرة [٢]، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل في القصر السلطاني في خدمة ولدى السلطان أمير علي وأمير حاجي وشغل كل منهما منصب أمير عشرة [٣].

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عاديا ولكنه امتاز حقاً عن أمراء المماليك بذكاء فائق ودهاء خارق، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكاءه ودهاءه في التدبير على السلطنة المملوكية الأولى، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر [٤]. ولم لا؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم في اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم.

(1) Iorga : op cit, p. 532.

(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلة ٣ ورقة ١٤٦.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٢٤١.

(٤) الجبرتي: عجايب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ص ١١٣ وما بعدها.

وتشبهو ببعضهم بعض فى المسارعه الى فعل
الخيرات فنمت ارزاقهم وصحت اجسامهم وكثرة
بنوهم وبناتهم وخزاينهم من خيراتهم وصلحت
امورهم وطابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وعلت
كلمتهم عند سلطانهم فتنجزو التواقيع مته
والكتب عنه الى ولات الاعمال بمرمة يبعهم وما
تشعث من كنايسهم وفتحها لاقامت صلواتهم
والدعا لله بسلامة سلطانهم فرمو ما كان وهى

---

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين: أولاهما، أن يعمل ـ وهو أمير عشرة ـ من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد الجراكسة فى الدوائر المملوكية، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن الجراكسة من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وقتذاك، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية فى إثارة المماليك اليلبغاوية جميعها بما فيهم من ترك وجركس على المماليك السلطانية أنصار بيت قلاون، حتى إذا نجح فى إضعاف شأن المماليك السلطانية استعان بالمماليك الجراكسة فى داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على المماليك الترك فى فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان. وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضآلة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلائى الدوادار ـ وهو أكبرالأمراء اليلبغاوية آنئذ ـ دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة، رتب برقوق لصهره الخطة وخلاصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذى

---

[ضعف ووهن] وبنو ما كان هدم ورمو ما كان تشعت وعادت الامور الى اوفا ما كانة من السلامة ورخص الاسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الامطار. وتنيح هذا القديس انبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين ولم يهلك منهم الا ابن الهلاك، لا زلنا يا اخوة نحن واياكم بصلواته محفوظين وبعين السلامه والكفاية من الله ملحوظين بصلوات القديس امين.

---

شفاه من الطاعون [1] وبعيداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته. ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والخليفة المتوكل. وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرفية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد فى إخلاصهم له، ومنهم الأمير يلبغا الناصرى الصغير. [2]

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدرأ عنه شر المؤامرات بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان فى العقبة فى الوقت الذى يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذى بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل. وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣، انظر كذلك.
Muir: the Mamluk Dynasty p. p. 101 ` 201.
(٢) أصله من مماليك الأمير يلبغا العمرى الناصرى الكبير فنسب إليه وقد أصبح مقدما فى دولة الصالح حاجى ـ راجع العسقلانى الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤٠.

## الاب القديس انبا يوانس [يوحنا] البطرك الثانى
## من الدور الثانى من عدد الاباً
## البطاركه الرابع والسبعون
## [١١٨٩ / ١٢١٦م]

ولما تنيح الاب انبا مرقس ابن زرعه البطريرك رزقنا الله بركة صلواته في اليوم السادس من طوبه سنة تسع مايه وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس وثمانين وخمسماية للهجرة اتفق الشعب

---

بتحريض المماليك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمستحقاتهم في وقت لم يكن يملك في يده شيئاً [١]. ونجحت الخطة حين ضيق المماليك الأشرفية على سلطانهم الخناق وحاولوا قتله، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة. ولكن طشتمر تخلى عن السلطان شعبان [٢] الذى أسرع وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة.ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفطنوا إلى أهداف مدبرى هذه المؤامرة. وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل، ولكن الخليفة رفض موافقتهم [٣]؛ فأسقط في أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة.

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو في العقبة نفذ باقي اليلبغاوية في القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمرائهم الترك وهم طشتمر اللفاف وقرطاى الطازى واينبك البدرى وقطلقتمر العلائي. وادعوا أن السلطان شعبان مات رأنهم يريدون سلطنة أبنه. ولعب برقوق دورا هاماً في ترتيب ثورة القاهرة [٤] التى تمكن فيها الثوار من كسر

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان: ورقة ١ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٧٩.
(٤) راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦.

الارتدكسي المسيحي والشيوخ الاراخنة بمدينة
مصر والقاهرة ومن حضر من الابا الاساقفة على
قسمة الاب العالم البتول الفاضل الطاهر القديس
الدين المسيحي انبا يوحنا [يوانس] وكان اسمه
قبل تقدمته ابو المجد ابن ابو غالب ابن سورس
فاخذوه قهر في يوم الاحد الحادى عشر من امشير
سنة تسع ماية وخمسة للشهد وهى الموافقة لسنة
خمس وثمانين وخمس ماية للهجرة وهى السنة

---

شباك الزمام المطل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطاني وسلطنوه ولقبوه المنصور وذلك فى ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ سنة ١٣٧٦ [١].

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة فى الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مختفياً بالقاهرة ، وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من اليلبغارية قد يحدث انقساماً فى صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد.

أما مشكلة المماليك السلطانية فإنها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لابس زى النساء، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق [٢]، وقضى اليلبغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة. وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام اليلبغاوية فى ذى

---

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٨٩.

(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ راجع كذلك السيوطى تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٥ب.

التى تنيح فيها انبا مرقس البطرك بعد نياحته بشهر
واحد وخمسة ايام وقسموه بطركا وكان المساعد
لهم فى تقدمته عند السلطان القاضيان المرضى
والرضى اخاه ابنا الجباب [الجابى] وكان هذا الاب
كما قلنا بتولا عالما لما قد قرى من [الكتب]
العتيقة والحديثة، كاملا فى جسده وقامته، باشوش
الوجه حسن الخلق لين الكلام طيب المحاضرة ملازم
اوقات الصلوات كثير الصدقات ذو مال وايسار

---

الحجة سنة ٧٧٨هـ (سنة ١٣٧٦م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى اليلبغاوية. وما لبث أن تدعم مركز اليلبغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقروا شرعية إجرائهم وجددوا البيعة للسلطان على.

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح فى تهيئة الفرصة لليلبغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلبغاوية سادة الجيشى المملوكى [(١)]. ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة فى الدولة فصار طشتمر اللفاف قائد ثورة القاهرة أتابك العساكر بمصر وتولى اينبك البدرى أمير آخور كبير وقرطاى الطازى رأس نوبة.

وأما طشتمر الدوادار الذى حرض على ثورة العقبة فإن كبار الأمراء اليلبغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للمماليك الأشرفية، فعينوه بنيابة دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته [(٢)]، وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من الجراكسة إلى العمل فى خدمة اينبك البدرى [(٣)].

(١) أنظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٢.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٨٠.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

من صباه صار ذالك اليه من ابوه واجداده وكان له
دار وكالة بمدينة مصر يتجر فيها ويبيع ويشترى
اصناف البضايع وله سكرية لعمل السكر
وطواحين واملاك وكان كاملا فى دينه ودنياه وغير
محتاج الى شى من امور الدنيا يصدق صدقات
كثير، ومع اشتغاله بامور الدنيا ما كان يغفل عن
صلوات السواعى الليلية والنهارية محبا ومجتهد
فى ضيافة الغربا وافتقاد المرضى والمحبوسين ويدفع

---

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلبغاوية على المماليك السلطانية (الأشرفية) هى بداية التطاحن بين الأمراء اليلبغاوية الترك فيها على الزعامة. أما برقوق فإنه استغل الشحناء بينهم ورسم لهؤلاء الزعماء الخطة ليباغت الواحد منهم الآخر. وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاى الطازى منصب الأتابكية خلفاً لطشتمر اللفاف الذى مات سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) حتى صاهر الأمير أينبك البدرى أمير آخور الأتابك قرطاى الطازى ولكن هذه المصاهرة اتخذها أينبك البدرى وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته [١]. وبدأ الأمير أينبك البدرى مؤامرته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية فى المحرم سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) [٢]. ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل، وأعد الأمراء والمماليك لقتال قرطاى وأتباعه. غير أن قرطاى سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه، حتى إذا اطمأن إلى أينبك وحضر إليه قبض عليه أينبك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة [٣].

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقا دبر هذه المؤامرة كذلك ومكن أينبك من الوصول إلى الأتابكية [٤]، فانتقل أينبك بمماليكه إلى مدرسة السلطان حسن والسلطان شعبان، ثم

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣.
(٤) راجع ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٦.

الجوالى عن الفقر من اهله والمحتاجين من قومه وكان كثير المودة لكل احد ويفعل الخير مع كل احد حتى ظهر امره واشتهر ذكره، فلما تنيح انبا مرقس ابن زرعه البطرك الذى كان قبله لم يحتاجو الاراخنة ان يطلعو دير ابو مقار ولا غيره من الديارات كما جرت العادة يطلبو ويبحثو عنمن يصلح لهذه الرياسة المسيحية والمملكة العلوية والخدمة الروحانية والدرجة الفاضلة السليحية لما

---

أخذ الأمير أينبك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه سلطاناً، فأخذ يرقي أبناءه ومماليكه [١]. وحظي برقوق بالترقي من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة [٢]. ومع هذا بدت خطوة إعلان أينبك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد، فأعلن رغبته في سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلبغا العمرى الكبير، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلبغاوية فإنه يسهل عليه خلعه متى أراد لضعف شخصيته. غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة الجريئة لأن أحمد بن يلبغا العمرى «ليس من بيت السلطان»[٣]، فلم يسع أينبك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواثق فى الخلافة مكانه [٤] في ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ.

وحسب الأمير أينبك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستعانة بالخليفة الجديد

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ١ ورقة ١٧٣.
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقي إلى أعلى المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة فى التراتب الوظيفى المملوكي أصبح بيد كبار الأمراء إرضاء لأتباعهم من أهل الثقة ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٩.
(٤) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة).

صح عندهم وعلموه وتحققوه مما قدمنا ذكره من صفاته لم يحتاجو الى شهادة ولا التمسو على ما وصفناه زيادة فقدموه بتشديد الله لهم والهام روح القدس الذى اختاره ورضيه لرعاية قطيعه كما قال الرب لبطرس ان كنت تحبنى فارع خرافى، وكذلك لما علم السيد المسيح ان هذا الاب يحبه سلم له خرافه ليرعاهم كما قال فى المزمور [٧٩] فرعاهم بطهارة قلبه وبرفق يديه ساسهم واهداهم

---

وبتأييد عدد كبير من خشداشينه بعد ترقيتهم السريعة. ولكن الخطوة الجريئة التى أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلبغاوية فى سورية، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع اينبك البدرى. فثاروا فى ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) على أينبك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها. وحين أحس الأمير أينبك بالثورة استشار برقوقاً فى أمرها، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإقماع الثائرين.

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أينبك على استجلاب رضا الشعب، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستصحبه إلى سورية، كما صحب الحملة السلطان على، ومن الأمراء اليلبغاوية الترك اختار أينبك يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة[1]. ووجد الأمير برقوق فى هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أينبك، فوضع خطة لقتل أينبك أوعزله، عهد بتنفيذها إلى يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح المقريزى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاتجاهه وأطماعه فى السلطنة فى قوله «غير أنه لدهائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماماً» [2].

(١) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص٣١٢.

واهتـدت البـيعـة فى ايامـه وصلح حـال الشـعب
ودامت السلامة. وقد كان اتصال الكلام وشـرح
مـا جـرى في ايام دولة صـلاح الدين قـادتنا فـيـه
الضرورة الى كمال سيرته فى ايام بطركية القديس
الطاهر انبـا مـرقس وقد كـان هذا الاب تنيح قـبل
وفـات صلاح الدين باربع سنين لانه توفا فى سنة
خمس وثمانين وخمس مايه وصلاح الدين توفا فى
سنة تسع وثمـانين و خـمس مـايه، وكـان ينبـغى ان

---

واخلاصة هي أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أينبك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ سنة ١٣٧٧م واضطر أينبك إلى الفرار ونجحت خطة الأمير برقوق [١]، وهدأت الأحوال مؤقتاً فى سورية وعاد الأمراء الثلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ [٢].

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى. على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقدماً لليلبغاوية، لا احتراماً لأقدميته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر. ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصية من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون «أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير» [٣] ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاوون ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغاوية.

---

(١) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أينبك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاون بدليل أنه صحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة. راجع ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.
(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٧.

يكون مـا جـرى فى هذه الاربع سنين الزايدة فى
هذه السـيـرة وانما قـادة الضـرورة لا يرادها هناك
لاجل فتوحه واموره وحروبه كانت متصله ببعضها
بعض الى ان انفصلت بالهدنة والصلح لان بعدها
توجـه الى دمـشق من مـصـر بعـد ترتيب الأمـور
وتهـديتـهـا واحكامـهـا فـمـات فى دمـشـق على مـا
وصفنا من السـلامـة له ولرعـايته ودفن فى المدرسة
التى بناها بدمـشق الملك العزيز، وتوفـا كـمـا تقـدم

---

واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة فى كثير من الأمور حتى أقنعاه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعامة الأميرين دمرداش وتمر باى الحسنى، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما فى الوظائف التى خلت [1].

ثم بدت أمام برقوق ناحيـة فى غـاية الأهمـيـة وهى أنه وجـد أن الأتابك أصـبح يسكن الاصطبل بعـد هدم مناظر الكبش، وأن الأتابك نتيـجـة لهذا يسيطر على الخيل والسـلاح، فما زال حتى أقنع الاميـر يلبـغـا الناصـرى بتـرك الاصطبل والخروج من القلعـة ليـسكن فى بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل.

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية فى البلاد وظهـور عـدة مـحـاولات من جـانب بعض الأمـراء التـرك لإنقـاذ سلطنة بيت قـلاوون وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة [2]. وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، فاتفق مع يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية فى مـصر [3]. وأراد بهـذا أن يتـخلص من طشـتـمـر الدوادار

---

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

شرحه، وملك بعده ولده الملك العزيز عثمان ديار
مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله في شهر
ربيع الاول سنة تسع وثمانون وخمسماية الهلالية
[١١٩٣م] وقد كان صلاح الدين هادن الفرنج
قبل وفاته فلم يغدرو به بعد موته ولا فسخو الهدنة
ولا تحرك منهم احد من مكانه ولما عادو ملوك
الفرنج الانكتار والامان [الألمان] والافرنس وغيرهم
الى بلادهم ملكو الكندهر [الكونت هنرى دى

---

نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك، كما أن في هذا التعيين ما يرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون. ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين، وحين وصل القاهرة في ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩هـ ١٣٧٧م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان في استقباله (١)، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصرى لطشتمر الأتابكية، وأن يعمل بدلاً منها في إمرة السلاح.

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد في الدولة، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالت بالاصطبل للتدبير عليه، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصرى إلى نيابة طرابلس (٢). غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخافية بين هذين الأميرين. واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية، إذ تسابق الأميران في شراء المماليك من جنسيهما «استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما».. كما أخذا «يبذلان الجاه لتابعيهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة لهما، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما» (٣)، وخطا برقوق خطوات

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ٤أ (نسخة خطية)
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧.

كامبني] على الساحل وكان رجل بطل شجاع قد
جا من جملت المجاهدين لله من المغرب من خلف
البحر ولاجل ذلك كانة [كانت] هدنة صلاح
الدين معه ومع فرسان الساحل. ولما ملك الملك
العزيز وكانة الهدنة بين المسلمين والفرنج ولم يكن
الاجناد مكار ولا سفر مدة سنين الهدنة مسكو
ايديهم عن بيع الغلة فبلغ القمحماية وسبعون
دينار المابة اردب وكان السعر لا يثبت على حال

---

واسعة في هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك، وجعل بعض هؤلاء نوابا في البلاد [1].

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق [2]. ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ماظهرت واضحة في غرة ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبهما المتكرره في نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النيابة في سورية، أومطالبته بعزلهم وتولية أصحابهما مكانهم، ثم طالباه آخر الأمر بنفي الأمير كتبغا رأس نوبته أو تسليمه لهما، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به في ٩ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة [3]. ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاى طواشية. ولم تجد شجاعة تقطاى حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيرا من أتباع الأميرين [4]. وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كمشبغا

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٣٢٣.
(٤) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٩٢.

واحد بل يزيد عن هذه الجملة مدة اسبوع ثم رجع
ينقص وكذلك ساير الحبوب اردب بدينار ودونه
وجميع القطانى(*) يتضاعف اثمانها واقامو الناس
بديار مصر مكابدين الضر ثلث سنين. ثم ان الملك
العزيز جمع العسكر وسار من مصر الى دمشق فى
الدفعة الاولة فى الخامس والعشرون من جمادى
الاول سنة تسعين وخمسماية الهلالية
[١١٩٣/١١٩٤م] يريد ياخذها [من اخيه

(*) القطانى: هى الحبوب التى تطبخ كالعدس والفول. سميت بذلك لأنها تُدخر حيث يقطن الانسان أى فى منزله لمدد طويله بسبب قابليتها للتخزين.

---

وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق الذى قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعة وحبسهم بالإسكندرية ثم نفى باقى اليلبغاوية من أنصار طشتمر إلى قوص فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) (١).

وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٢)، كما عين أحد أقربائه من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسى أمير أخور(٣). وحرص برقوق على استمرار سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمرداش أمير أخور، وأسكنه معه فى جانب الاصطبل. وبدا كأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء فى هذه السنة بمصر واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق:

إن برقوق الغصن كعـ ... به فى النـاس أخضر (٤).

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور فى سرعة عجيبة فى وقت لم يعد للسلطان على أحد أى نفوذ. وبدا كأنما الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط، إذ زالت هيبتها من نفوس

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ٤ب (مخطوط).
(3) Sauvaget: Noms Et Surnoms Des Mam, pp. 39-40.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٩٤.

الأفضل] فلم يقدر عليها فعاد الى القاهرة فتبعه الملك العادل فاغلق الملك العزيز ابواب القاهرة فى وجهه فحاصره الملك العادل فيها شهور ثم مشى القاضى الفاضل بينهما فاصطلحا ودخل الملك العادل الى القاهره واقام فيها اربعة اشهر ثم عاد الى دمشق ومعه الملك العزيز فحاصروها واخذوها من الملك الافضل على فتسلمها الملك العزيز. ولما كان فى محرم سنة اربع وتسعين وخمسماية

---

الناس، وانصرف الناس عن السلطان، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد فى الدولة . وعبر الناس عن هذا الموقف الغريب بقولهم: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة» (١).

ومع أن الخطوة التالية تركزت فى ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله ابن بركة، إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب، وأصبح لزاماً عليه أن يبذل أقصى جهده لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم. بيد أنه على حين أخذ يعد عدته لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه، وهو الأمير إينال اليوسفى الجركسى.و كادت هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلاصتها أن الأمير إينال اليوسفى كان شديد الكراهية لبركة، وطالما حرض الأمير برقوق للثورة عليه وقتله، ولكن برقوقا لم يجبه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال، فانتهز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة فى شعبان سنة ٧٨١هـ (سنة ١٣٧٩م) (٢)، وخروج بركة فى نفس الوقت للصيد خارج القاهرة، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية. وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ فى نهب

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٣.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.

[١١٩٧/١١٩٨] تواصلت مراكب الفرنج الى عكا وفسخو الهدنة فبادر اليهم الملك [العادل] فى اول امرهم قبل ان يكثرو ويدخلو الحصون فنزل على يافا وقاتلها ثلثة ايام ففتحها وقتل فيها خلق كثير وسبى اكثر مما قتل، ثم تواصلت مراكب الفرنج وطلع منهم الى الساحل خلق كثير فمضى منهم عسكر كثير[إلى مصر و] نزلوا على حصن المسلمين يسمى تبنين فكتب الملك العادل كتاب

---

بيت برقوق وما في خزائنه [١]، ثم خدع صغار مماليك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه في خطته [٢]، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلي، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض إجابة طلبه [٣].

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مسرعاً إلى القاهرة، ونهض لإنقاذه قريبه ايتمش البجاسي أمير أخور، فأنزله أيتمش في اصطبله وجعل مماليكه في خدمته. وقصد برقوق القلعة بمماليك ايتمش، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق. وبعد أن أحرق برقوق باب السر ـ أحد أبواب القلعة ـ استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى، والحجارة [٤]. ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن مماليك برقوق حين رأوا أستاذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهام واضطروه إلى الفرار وفي جسمه نشابة [٥]. ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨١ب.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ (شمسية) ورقة ١٧٦.
(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.

للملك العزيز يعرفه بذالك ويطلب منه ان يسير اليه [يرسل إليه] عسكر مصر فسار الملك العزيز الى الشام بالعسكر فى شهر ربيع الاول سنة اربع وتسعين وخمسماية [٩١٤ قبطية = ١١٩٧م] نازل الافرنج وضيق عليهم وجا عليهم مطر وسيل كثير من الجبل وحجاره برد فرحلو من تبنين بعد ان هلك منهم ومن دوابهم وقماشهم شي كثير جره السيل فى الماء فرحلو ونزلو حوالى مدينة صور

---

يستدل منه على شركائه فى المؤامرة دون جدوى، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكتفى برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره [١].

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة فى هذه المرة بالثورة على برقوق دفعة إلى الشك فى مدى إخلاص عنصره له مما جعله ينقلب على الجراكسة، وقبض علي من اشتركوا مع إينال فى الفتنة، ثم استدعى يلبغا الناصرى الذى أبعده من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال [٢] وحين حضر بركة اجتمع ببرقوق وبحث الاثنان الموقف واتفقا على التعاون فى توزيع الوظائف التى خلت وشغلها بالمقربين من أتباعهما.

ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة فى هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصرى فى هذه الظروف ذو قيمة كبيرة فى كسب الجولة المقبلة. ولذا بدأ برقوق يعد عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جد من عوامل.

وأول هذه العوامل ما ظهرمن كراهية الناس لبركة بسبب قسوته، حتى إن العلماء تذمروا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ـ مما قاله ابن العطار الشاعر فى هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابته ... نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا ... وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٤٦٨.

وعكا وغيرها من مدن الفرنج وبقى الملك العادل
والملك العزيز [فى] منازلهم بالعسكر فلما كان فى
العشرة الاخيرة من جمادى الاخر سنة اربعة
وتسعين وخمسماية عاد الملك العزيز ومعه بعض
العسكر الى مصر وبقى الملك العادل منازلهم
[منازلتهم] واقام يقاتلهم شهرين ثم هادنهم على
البر دون البحر مدة ستة سنين. ثم تركهم وتوجه
الى دمشق لان الملك العزيز اوهبها له فدخلها

---

حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠هـ (١)، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها إقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم (٢). واستغل برقوق سيرة بركة السيئة، وكراهية العلماء له وشهر به، كما ملأ الأسماع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين فى الوصول إلى مناصب القضاء (٣)، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة (٤).

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق، دبرها المماليك السلطانية الترك، بعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده (٥). ولا شك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال فى المحيط السياسى بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من أهتمام الناس الجانب الأكبر.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٣٦.

(2) Ziadeh. N: Urban life In Syria: p. 42.

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢.

(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٩، ص ١٢٦.

(٥) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٦.

وملكها واقام فيها بقية سنة اربع وتسعين وخمسماية [١١٩٧م] ولما عاد الملك العزيز الى مصر اعدل على الرعية بديار مصر واحسن اليهم واستقام امره وانحلت الاسعار وابيع القمح الطيب اربعة ارادب بدينار والشعير والفول وساير الحبوب عشرة ارادب بدينار. ولما كان المحرم سنة خمس وتسعين وخمسماية [١١٩٨م] خرج الملك العزيز الى برية الفيوم يتصيد فوجد غزالة فتبعها وكان

---

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستبداد بأموال الدولة امتاز برقوق بالتثبت فى الأمور وميله إلى تغليب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيرا ما عارض برقوق أصحاب بركة فى استبدادهم بالأموال وضرب على أيدى الكثيرين منهم، فلا عجب أن عمل مماليك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمور الدولة دونه والغدر به[١] .

وثمة ناحية توجب الالتفات فى هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق، وهى أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة ـ وهم قلة ـ فرقتين من الترك، أولاهما فرقة الأشرفية مماليك السلطان الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق، وثانيهما فرقة مماليك بركة، وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسى لهم تحقيق مآربهم. ولم يشأ برقوق أن يحارب فى ميدانين بل أخذ يتودد إلى الأشرفية ويقابلهم فى طباقهم يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع [٢]؛ على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير فى الوظائف لتأييد مركزه. وأهم هذه التغيرات إبعاده بعض المماليك الترك إلى نيابات الشام [٣]، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة،

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٤٢.
(٣) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٧.

معه كلب من كلاب الصيد فلحق الحصان الذى
تحته كلب الصيد وقد اكسر الغزالة فوطى الحصان
بيده على ذنب الكلب فدار الكلب من تحت بطن
الحصان وعض خصاه فنفر منه ورماه بنفسه الى
الارض فوقع الملك العزيز من فوقه صار تحته وجا
الحصان فوقه وانقلب عليه بالسرج فدخل
القربوس فى صدره مع فواده فعاد الى القاهرة
محمول وكان الاطبآ يداووه فلم ينفع فيه دوا

---

كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى. وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض فى تعيين مماليك منافسه ويحل فى الوظائف الرئيسية المماليك من بنى جنسه. واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما فى إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق، ثم تأزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى، أمير أخوره واحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه، ورفض برقوق بطبيعة الحال، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب فى التنحى عن وظيفته بشرط ترشيد السلطان، وفى نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة. وبذل القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة فى الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووعد ألا يتحدث فى أمر من أمور الدولة. وسر برقوق لهذه النتيجة، وخلع على من سعى فى الصلح وجمع الأمراء للعب فى الميدان ابتهاجاً بعودة الوئام [١].

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لجأ إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول فى معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تتم استعداداته؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات فى أول ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ (سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

ومات ليلة الاحد ثاني وعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمس ماية [١١٩٨م] وقد كمل له في ملكه خمسة سنين وعشرة شهور وعشرين يوما فسبحان الله الذى لافنا لملكه ولا راد لحكمه وبه المستعان.

**الملك الناصر يوسف**(*). وملك بعده ولده يوسف وانعتوه نعت جده الملك الناصر وهو الملك الثالث من ذرية صلاح الدين وهو يوسف ابن عثمان ابن

(*) سيرة الملك الناصر يوسف: وهو الملك الأيوبى الثالث.

---

على أميرين من أتباع بركة [١]. وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى هذا الصراع الذى عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركى بالقاهرة [٢]. وأوضح المقريزى صورة هذا الصراع العنصرى السافر فى قوله. «وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أنزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالحراقة من الاصطبل، ودقت الكوسات جميعا بالطبلخاناه من القلعة [٣]».

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكنته من السيطرة على السلاح، كما زاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغيان الأمير بركة.

وبدأ برقوق تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلق والأجناد البطالة طوائف، وركز كل طائفة منهم على تربة من الترب فيما بين القلعة وقبة

---

(١) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١، السيوطى: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٦ ب.
(٢) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٠ ـ ٦١١.

يوسف ابن ايوب ملك ديار مصر والساحل والبيت
المقدس وما كان بيد اخوه غير ما كان بيد الافرنج
من عكا وصور وغيرهما وكان جلوسه في الملك
يوم الاحد الثاني والعشرون من الحرم سنة خمس
وتسعين وخمس ماية وكانة بين الفرنج والمسلمين
باقية فلم يتحرك احد منهم من مكانه ولا تحرك
احد ايضا من ديار مصر ولا ضاع لاحد في القاهرة
ومصر شيأ قيمته حبه وكان يوسف ابن الملك

---

النصر [1]، وعزل برقوق والى القاهرة الموالى لبركة وأعاد حسين ابن الكورانى المعروف بشدته وصرامته التى سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوانيت أصحاب السلاح وأخذ ما فيها ، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب. وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل ، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة للقلعة ودار الضيافة وصهريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة فى هذه المنطقة للأمير بزلار العمرى [2].

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ايتمش البجاسى الذى نادى فى العامة بأن «من قبض مملوكاً من مماليك بركة فلة بركة ولنا الرمح» [3]. كما حرض ايتمش على نهب بيت بركة. ووجد العامة والزعر فى هذا كله فرصة طيبة للحصول على غنائم فى وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه. وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن نهبوه سرقوا رخامه وشبابيكه، ثم أشعلوا فيه النيران. وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه. وعلى

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤١.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١.

العزيز صغيرا لا يكمل لتدبير المملكة فجعلو الملك المستمر حضر وانعتوه بالملك الظاهر نايبا عنه فى السلطنة فلم يكمل له شهرا واحدا فيها حتى وصل الملك الافضل نور الدين على عمه من قلعة سلخد الى القاهرة ودخل لها يوم الخميس السابع من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسماية.

**الملك الافضل على**(*): فملك وامر ونهى ورفع وتصرف واقام الى سلخ رجب من السنة المذكورة

(*) سيرة الملك الأفضل علي.

---

الرغم من أن برقوقا استدعى يلبغا الناصرى ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركي والجركسي أسرع يلبغا الناصرى وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك [1]، ولهذا رجحت كفة بركة في المناوشات الأولى التى اشتبك فيها عسكره مع عسكر آيتمش [2].

وإذ وجد بركة نفسه مضطراً للقتال فى أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر، والثانية إلى ناحية دار الضيافة، والثالثة إلى بين العروستين[3]؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بحرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيخونى بخلعة بنيابة الشام، غير أن بركة الذى أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق رفض قبول عرضه.

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق فى هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بداً من الاستماتة فى

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ١٨٢أ.

ثم جمع العسكر وسار الى دمشق يطلب ياخذها
من عمه فى مستهل شعبان من السنة المذكورة
فوجد عمه الملك العادل قد سبقه ودخل اليها قبل
وصوله بيومين وقد حصنها بالرجال والعدد فلم
يقدر يدخلها فانفذ الى اخوه الملك الظاهر صاحب
حلب وابن تقي الدين ومظفر الدين ابن زين الدين
وجمع عساكر الشام وعسكر مصر واقام محاصر
عمه الملك العادل فى دمشق من مستهل شعبان

---

القتال رغم الخسارة التى لحقته [1]. والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة فى أيدى أصحاب بركة [2].

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه فى ١٠ من ربيع الأولى سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م). وتفرقت عساكر بركة فى هذا اليوم الذى قيل إنه إشتدت فيه الحرارة. وهرب بركة إلى جامع المقس وظل مختفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه [3]. واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التى قيل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها فى أثناء توليه وظيفته الأخيرة. وأثرت هذه الفتنة فى أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مقفلة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص [4]، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة الموالين له، وعزل يلبغا الناصرى وسجنه وقبض على مماليكه

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٣.
(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٨.

سنة خمس وتسعين وخمسماية الى سلخ صفر سنة
ست وتسعين وخمسماية [١١٩٩م] الى سلخ
صفر سنة ستة وتسعين وخمسماية اختفا الملك
العادل في دمشق مدة خمس عشر يوما لم يبصره
احداً من الناس وشاع الخبر عنه بانه خرج يدبر
ديار مصر فاجتمع الملك الافضل نور الدين على
واخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وتقى
الدين ومظفر الدين ابن زين الدين وتشاورو فيما

---

ووزع إقطاعاتهم وإقطاع بركة على المماليك الجراكسة [١]. ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال في مصر، بل أجرى حركة تطهير في الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه[٢].

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة في هذه السنة[٣]، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان[٤]، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركي وليقضي على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك

---

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ، ابن إياس بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨.
(٢) ابن أياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨ في ذلك يقول ابن حبيب الحلبي:

ياويحها من حالة ... وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة ... فيها أزالت بركة

(٣) ابن قاضي شهبة: الذيل على تاريخ الإسلام، المجلد ٣ ورقة ١٤٦.
(٤) من هؤلاء الشعراء القيم خلف الغبارى ومن قوله:

مصر صارت بعد انقباض في انشراح ... وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهي احفظ لنا برقوق ... واحرس الجند وانصر المنصور

ابن إياس جـ١ ص ٢٤٨.

يعملوه فتقرر الراى منهم ان يعود الملك الافضل نور الدين الى ديار مصر يحفظها وان حضر العادل اليه لحقوه بقيتهم بالعساكر من خلفه ويكون هو بالعسكر من قدامه فيحصل فى الوسط، فعاد الملك الافضل الى ديار مصر ودخل مدينة بلبيس فى اليوم العشرين من ربيع الاول سنة ستة وتسعين وخمسماية واخلاها من النساء والقوام ولم يبقا فيها سوى الباعة والتجار وخرج اليه سيف الدين

---

متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه. وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر بسياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين؛ تلك السياسة التى قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة. ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الاسكندرية سرا بقتل بركة فى السجن [1]، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام، واتهمه بقتل بركة دون إذن منه. وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى مماليك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاء متناثرة [2].

ويعلق المقريزى على النتائج التى ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة فى السلطة فى قوله «فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنه كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك.. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غيراحتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم» [3].

غير أن هذه المدة التى تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.

ازكج النايب عنه كان بمصر ومعه جماعة من
الاجناد وبعد ايام يسيرة تواصلت الاخبار بان الملك
العادل قد وصل الى قطيه فاتفق رايه وراى سيف
الدين ازكج على قتاله ومحاربته ورد جميع الثقل
الى القاهرة وتوجه اليه بعسكر وخيل مجردة بغير
ثقل وتحاربوا فى موضع يسمى الشامخ والعرابى
وهما منزلان بظاهر بلبيس من منازل العرب في
يوم الثلثا الظهر الثامن من ربيع الاخر سنة ستة

---

واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العرب فى مصر من الثورة رغبة فى إعادة الحكم إليها. وكانت هذه فرصة مواتيه لقبائل العرب فى مصر إذ طالما نادت طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك [1]، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر [2]. و لعل أهم هذه التمردات التى أقلقت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية فى سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) هى تمرد بدر بن سلام كبير عربان الهوارة فى غرب الدلتا. وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج، ووجد بدر بن سلام الفرصة مواتية لإعادة النفوذ العربى إلى مصر، وهاجم دمنهور فى خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياع. وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله فى مقاومة المماليك الترك [3]، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين فى ربيع الآخر سنة ٧٨٢ هـ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك، وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحي البحيرة حيث ضربوا خيامهم. وخدم الحظ الأمير برقوق فى هذه المرة، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من

(١) راجع عن هذه الثورات المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وتسعين وخمسماية فاكسر عسكر الملك العادل عسكر الملك الافضل واعطاه الله النصر فى ذلك اليوم فغنم اموالهم وامسك عن قتلهم ونجا الملك الافضل بنفسه ودخل الى القاهرة ولحقه من اصحابه من كان فرسه سابق فلما دخل الى القاهرة حصنها بالرجال والعدد فتبعه الملك العادل ونزل بعسكره على المطرية وارسل خيله الى معادى البحر [النيل] ضبطوها حتى لا يعدى احد الاجناد

---

أحد كبار العرب على خطتهم فى هجوم معسكر المماليك وهم فى خيامهم فى أثناء الليل، فأخذوا حذرهم وخرجوا من الخيام وكمنوا بالقرب منها. فلما انتصف الليل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية؛ وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربى وأسروا منهم أكثر من ذلك. وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعرب حاسماً، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العرب جمالهم وأغنامهم وخيولهم وعادوا بها إلى مصر [١] ، فإن عرب البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة [٢]، وكما نفى برقوق باقى عرب هوارة إلى الصعيد ليأمن شرهم [٣].

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التى واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة ليمكنه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التى اعتزم القيام بها وهى نقل السلطنة من الأتراك الى الجراكسة، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر [٤]، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٣) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦٤.

اليه ينجده او يدخل القاهرة ثم احاط الملك العادل
القاهرة بالعسكر في نصف ربيع الاخر سنة تاريخه
وارسل الى كبار الامرآ الذى دخل القاهرة من
الاسدية والصلاحية ومن جملتهم ما عرفناه
فاسميناه وكثير منهم لم نعرفه والمشهور منهم
سيف الدين ازكج وعلم الدين كرجى وغرس
الدين يمن وسيف الدين سنقر الدوادار وناصر
الدين خضر ابن بهرام وبقية العسكر الذى داخل

---

العطايا، حتى بذل جهوداً كبيرة في جمعهم واحضارهم لمصر [1]. ولما حضر أنس والد الأمير برقوق في ذى الحجة سنة ٧٨٢هـ (سنة ١٣٧٩م) في عدد كبير من أقاربه وأولادهم صحبتهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق [2].واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعا، فأركب العساكر وسائر الناس «على طبقاتهم» لا ستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسمطة بسرياقوس . ودخل «الخواجه» عثمان وعليه خلعه بطرز زركش، وركب عن يمينه نائب دمشق، وركب أنس عن يساره. وحين التقى برقوق بوالده مد له والده يده فأخذها برقوق وقبلها ووضعها على رأسه إجلالاً له أمام الناس ثم أخذ في تقديم كبار أمراء مصر إليه [3]، وبعد أن خلع على أنس بإمارة الف [4] أجلسه في صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء. وما أن انتهت مراسيم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التي زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة [5]. وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده

---

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤، و رقة ٢٧٣.
(٢) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٣.
(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٤.

القاهرة مع الملك الافضل فاصلح قلوبهم فمالو
اليه ومسكو نفوسهم عن قتاله وتركو الملك
الافضل وحده فى القاهرة في نفر يسير من
اصحابه وخرجو جميعهم للملك العادل
واصطلحو معه وفتحو له ابواب القاهرة فدخل
اليها يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر سنة
ست وتسعين وخمسماية وحضر فيها صلاة الجمعة
بجامعها. فلما صح عند الملك الافضل صدر

---

بالاصطبل كما أنزل أقاربه وبنى عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم فى وظائف مختلفة [(١)].

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها يعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجركس، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه «دون أن ينتطح فى هذا عنزان» على قول العسقلانى [(٢)].

وفى يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣هـ (سنة ١٣٨١م) توفى السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر، ولم تكن له فى هذه المدة من السلطنة إلا اسمها[(٣)]. ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون بسلطنته عقب وفاة السلطان على، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التمهيد لإعلان السلطنة لم تكن كافية، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلبغا» [(٤)] حين ردد الناس هذا الخبر. ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضى التريث فى الأمر، وأن هذه الحركة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤.
(٣) الطيب: قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر جـ٣ ورقة ١٠٩٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٧.

عسكره وامرآ دولته خرج من القاهرة باكر يوم السبت السابع عشر من ربيع الاخر سنة تاريخه ومعه ثمانين جمل اموال واثاث. وذكر من شهد خروجه انه لم يصحبه من عسكره واصحابه وامرآ دولته سوى ضيا الدين اخو الفقيه عيسى ومماليكه نحو خمسة عشر فارساً، ومع الافضل من مماليكه نحو من خمسة عشر فارساً يكون الجميع ثلاثين فارساً وتوجه الى قلعة سلخد وهو مقيم بها الى

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

لم يحن أوانها. ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل، وتحدث بنفسه معهم في سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان، وفي هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقضي بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاوون [١] وإذ لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هو أكبر من أمير حاجي الذى لم يجاوز التاسعة من عمره أحضروه وسلطنوه في ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م) وبايعه الخليفة ملقباً إياه بالملك الصالح، وأكد الخليفة في تقليده للأمير حاجي بالسلطنة أن يشترك معه في تدبير أمور الدولة الأمير برقوق «لتشد الناس إلى عقدة محكمة»[٢]. وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة.

ومن الطبيعي أن تولية أمير حاجي السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ [٣] أوضحه ابن تغرى بردى في قوله «بعد أن انفض الموكب أخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وفي خدمته بقية الأمراء،

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٧٥.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.

(٣) راجع Ency of Islam Art. Barkuk.

يوم نظم هذه السيرة فى سنة ثلث وستماية
الهلالية ومضى وقد انتزع منه الملك بديار مصر
والبيت المقدس والساحل وغيرهم فيما بين الظهر
والعصر يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر
سنة ستة وتسعين وخمسماية وهذا اليوم بعينه
يكون اخر ايام ملك الملك الافضل واول يوم من
ملك الملك العادل ديار مصر من السنة المذكورة.
فسبحان الله الدايم الملك دايم البقا يزيل ملوكا

---

يركبون فى خدمته وينزلون عنده ويأكلون السماط» [1]. وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من اليلبغاوية فى الوظائف الرئيسية [2]. كما اهتم بترتيب الأمور فى الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية، واتبع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب، ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جركس الخليلى فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة فى الشراء عن هذا الطريق السهل. ومن هذه الفلوس التى أخرجها الأمير جركس فلس زنته أوقية بربع درهم، وفلس زنته نصف أوقية وفلس بفلسين. وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء. فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس، وكان لهذا أكبر الأثر فى إنعاش الحالة الاقتصادية [3]. ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغانى [4] بحماة والكرك والشوبك

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٨.
(٢) أوضح ابن تغرى بردى أن طريقة الوصول إلى الوظائف فى وقت سيطرة الأمراء هى «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغرى بردى : النجوم- جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨.
(٤) قال المقريزى عن ضمان المغانى (الغوانى) أنه كان بلاء عظيما وهو عبارة من أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرس امرأة أو =

ويقيم ملوكا ويهب الحكمة للطفل الصغير، الذى ليس لملكه فنآ ولا لقدرته انتها جلا وعلا سبحانه تعالى.

(*) سيرة الملك العادل ابو بكر.

**الملك العادل ابو بكر**(*)، وكان دخوله القاهرة كما قلنا يوم الجمعة سادس عشر ربيع الاخر سنة ستة وتسعين وخمسماية [١٢٠٠م] وزعم قوم انه لم يدخل الى يوم الاثنين التاسع عشر منه ونزل فى الدار الوزارة واهتدى الحرب واطمانة الرعية وامنت

---

والمنيا، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح [١] بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستوارة وشورى وبلطيم [٢]، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق [٣].

أما فى الخارج فإن الأمير برقوق انتهز الفرصة لإظهار قوته، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣هـ على حلب مواتيا إذ استطاع برقوق هزيمتهم وردهم على أعقابهم [٤].

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومخيفة، حتى إن أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله. غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبئه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله. واتفق فى هذا الاجتماع على القبض على متزعمي هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم في سجون القلعة [٥].

= خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف» المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(١) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء ممن يبتاع من أردبين فما دونهما. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(٢) كان مقرراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنويا (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة).

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٤.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٧.

الطرق وخرج الملك المستمر خضر مع اخوه الملك
على واقطع الملك العادل الملك المستمر خضر بلاد
السواد من اعمال دمشق واستقر الملك العادل فى
الملك بعد ان تقرر بينه وبين الاسدية والصلاحية
وجميع العسكر ان يكون ولد الملك العزيز سلطان
مصر وغيرها من ملك ابوه وجده، ويكون الملك
العادل مدبر الدولة حتى يبلغ اشده لان الملك
العزيز استحلف الامرآ والاجناد قبل وفاته ان ولده

---

وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة فى سلسلة المؤامرات التى دبرت للوقوف أمام العنصر الجركسى وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نفى برقوق إيتمش الخاصكي وبطا الأشرفى متزعمى هذه المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجو ه فلم يبق له معاند، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فرقاهم إلى مالم يخطر لهم ببال» [1].

ومع كل هذا ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه، بل إنه حين شعر بأن الرعية «أنست بحسن سياسته وجميل سيرته»[2]، تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجى فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان. وكان لكشف هذه المؤامرة صدى في موقف الأمراء المناصرين لبرقوق، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم، واجتمعوا للتفاوض فى إسقاط «سلطنة الصغار» وإقامة برقوق سلطاناً على البلاد [3] وتوالت الاجتماعات التى أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد فى وقت تولى أمرها سلطان صغير. كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدى إلى طمع

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤.
(٣) ابن خلدون: نفس المرجع والجزء والصفحة.

يكون سلطان على مصر من بعده وكان اسمه يوسف وانعتوه بالملك الناصر فابقاه الملك العادل على هذه الحالة شهر رجب من السنة المذكورة ثم سير عسكر الى دمشق مقدمه عز الدين اسامة. واسد الدين سنقر ومعهما جماعة كبيرة من الاجناد واحضرو ولده الكامل منها الى ديار مصر فسلطنه عليها وحمل الفاشية [الغاشية](*) قدامه وهذه هي سنة الملوك الفرس القديمة من ايام

(*) الغاشية: السيف أو الصولجان أو فروة الاسد توضع فوق حصان يقوده أحد جنود الملك.

---

الأعداء في البلاد [1]. ثم عرض الأمراء الجراكسة: إيتمش البجاسي وجركس الخليلي وقردم الحسني على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه [2]، ولكن برقوقا أبدى رغبته في أن تأتي هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء في مصر وسورية، ولهذا ركب الأمير سودون الفخرى حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استرضاهم ومازال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق في أمر سلطنته «وهونوا عليه الأمر» وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء في سورية. وإذ زالت كل العقبات التي اعترضت الأمير برقوق، وآخرها موت اثنين من كبار الأمراء اليلبغاوية أقدم من برقوق هجرة وإمارة، وهما: الأميرأقطمر عبد الغني والأمير ايدمر الشمسي، قبل برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء في أمر سلطنته [3].

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله في ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢)، إلى الاجتماع به مع القضاة الأربعة وسائر الأمراء في باب السلسلة. وقام القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر في وسط

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

كسرى وسابور واردشير الملوك الاكاسرة. وضرب اسمه على سكة الذهب والفضة المتعامل بها فى ديار مصر وامر الخطبا بالديار المصرية ان لا يرجع احد منها يذكر صلاح الدين ولا احد من اولاده على منبر بل يذكرو الخليفه اول [أولاً] والملك العادل ثانى وولده ولى عهده الملك الكامل ثالث(*). ولا يذكر بعد ذالك سوى تمام الخطبة والدعا ثم الصلاة ووهب خطباء الثغور [الاقاليم]

(*) الملك العادل يتسلطن على مصر ويعين ابنه الملك الكامل ولياً لعهده.

---

المجلس وقال: «يا أمير المؤمنين، ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب» [1]. وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى المجلس «أن الأمور مضطربة، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وإفهام» [2] ولم يكن هناك بطبيعة الحال من يجرؤ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان الصالح حاجى بعد أن حكم سنة وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق [3]، لما علموا فيه من «حسن سيرته وإحكام سيرته وإحكام سريرته، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته، وحسن تدبيره فى سياسته، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته، ولما فيه من المصلحة التامة للخاصة والعامة» [4]. وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٥.
(٢) ابن أبى السرور: الروضة الزهية ورقة ٤٠.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.

والغربية والشرقية وقوص والمدن الكبار لكل خطيب خمسين دينار ثمن خلعه. واستوزر رجلا من اهل دميرة القبليه(*) يسمى عبدالله ابن على قاضياً عدلا من صباه حسن الوجه تام القامة فقيها عالم بحفظ القران ذو معرفة بصناعة الكتابة وجمع الاموال من وجوهها والحديث على الحسبانات [الحسابات] والنظر فى ترجيه الارتفاعات [اصحاب الرتب العالية] فانعته

(*) دميره القبليه: مركز طلخا. على الضفة الغربية المقابلة لمدينة المنصورة.

---

إلى أهله بالدور السلطانية، ثم أخذا منه النمجاه (١) وأحضراها إلى السلطان برقوق، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه «بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ما تحت ولايته شرقاً وغرباً، براً وبحراً. (٢)».

جلس برقوق على تخت السلطنة فى وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ وأفيضت عليه خلعة السلطنة وهى خلعة سوداء، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى أن يلقب «بالملك الظاهر» فإنه تسلطن وقت «الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافيا» (٣) .

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التى رسمها لهذا الغرض. واعترف به فى الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم فى الوقت الذى كان فيه برقوق مملوكاً عادياً فى صفوف الجيش (٤).

(١) النمجاه هى شارة السلطنة، وهى كلمة فارسية معربة ومعناه السيف الصغير أو السكين المنحنية. انظر ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ حاشيه ٢ ص ٢٣١.
(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ١ب.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفة.
(4) Muir: The Mamluk Dynasty p. 106.

بالقاضي صفي الدين واسماه الصاحب وسلم له الدولتين المصرية والشامية فنهض فيهما واستقل بهما حتى صار يستخدم ويصرف ويامر وينهى ولا ينعمل شيأ في صغيرة ولا كبيرة الا بعلمه وبثبوت خطه حتى صار الملك العادل لا ينفرد عنه بشي ولا يطلق ولا يمنع ولا يوقع في شي الا برايه وقلمه وبلغ منه ما لم يبلغه الصاحب ابن عباد وزير الخليفة ببغداد الذى سمي هذا باسمه. وكان من قوم يعرفو ببني شكر وله اثار واخبار قد تداولتها

---

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطانى، والقبة والطير على رأسه، وطلع من باب السر، وعند ركوبه «بأبهه السلطنة» أمطرت السماء فتفاءل الناس بيمن السلطنة الجديدة. ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق. وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل، كما زينت القاهرة وأنحاء البلاد سبعة أيام، ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق [١] وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله [٢]. وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلطن بعده [٣].

والواقع أن نجاح السلطان برقوق في الترقي من صفوف الجندية إلى السلطنة مرجعه

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ب.

(٢) مما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار:

ظهور يوم الأربعاء ابتدأ ... بالقاهرة المعتز بالقاهر

والبشر قد تم وكل امرئ ... منشرح الباطن بالظاهر

و مما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدى:

تولى الملك برقوق المفدى ... بسعد الجد والأقدار حتم

نهار الأربعاء بعد الظهر ... وللتربيع في الأفلاك حكم

راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) نفس المرجع ولاجزء ص ٢٢٦.

الالسن وشاهدتها الاعين ولو تكلفنا شرحها حتى ندرك بعض ما كان منها بالديار الشاميه لفرغت الصحف ولم تفرغ وكلت الالسن والايدى ولم تغني - واقر بها واعجبها ما جرى بديار مصر في سنة سبع وتسعين وخمس ماية [١٢٠٠/١٢٠١م]، للهجرة فانه فيما كان خلفا الدولة المصرية وملوكها قد اطلقوه ووقعو به من الصدقات لاهل الفاقات والرواتب للاقارب

---

حكمته ودهاؤه، وإحكام خطته التي رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة. ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصري ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك، ولذا حرص في بداية سلطنته على إرضاء الأمراء اليلبغاوية من الترك والجركس على السواء، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلي الجركسي مشيراً للدولة، وفي الوقت نفسه، جعل الأمير سودون الفخرى التركي نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن يلبغا الناصرى وأقره في نيابة حلب بعد أن حضر يلبغا وقبل الأرض بين يديه (١). على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات في يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعا إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم في شئ إلا بعد مراجعته.

وهكذا أيضا أنهى برقوق سلطنة الترك في مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاوون، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة. وأقام برقوق دولة جديدة هي الدولة المملوكية الثانية التي أطلق عليها المؤرخون المعاصرون

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١.

والاجانب مما تساوى فيه فى ايام دولتهم الفقرا والاقويا والاغنيا والضعفا لان معروفهم وخيرهم كان واصل الى كافة الناس اعداهم واولياهم، فاشار هذا الوزير بقطع ذالك جميعه فقطع فمنع الله النيل فى تلك السنة ان يصعد على ارض مصر فشرقت جميعها من برج اسوان الى برج دمياط وكان مبلغ ما حصل منه فى المقايس فى تلك السنة ثلثة عشر ذراعا وثمانية اصابع فشرقت البلاد

---

«دولة الجراكسة»[1]، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف. وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارات الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور، وأخذ يوجه سياسة الدولة فى الداخل والخارج، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك، ذلك النفوذ الذى أضعف السلطنة المملوكية الأولى، ومن هذه العبارات ما قاله ابن خلدون: «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم فى إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها»[2].

## حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق ـ ثورة الطنبغا السلطانى التركى نائب الابلستين ١٣٨٢م ـ طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣م فى السلطنة وسجن المتوكل ـ كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦م ـ ثورة المماليك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨م ـ اعلان

---

(١) راجع المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٤١.
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١١ ، جـ١٢.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤.

وخربت وهلكت الرعية وتفرقت وتشتت الخلايق
وتمزقت ومضى خلق كثير من ديار مصر الى
الشام باموالهم واولادهم فهلكو واخذوهم العربان
في الطريق وماتو بالبرد والجوع والقتل من العربان
واخذ النفوس والاموال حتى كان الرجل منهم
يموت ولده او اخوه او اعز الناس عنده فيتركه
مطروحاً ويروح ولا يقدر يقف حتى يدفنه في
الرمل بل ينجا بنفسه مع الناس ولا يلتفت الى وراه

---

السلطان برقوق عداءه للترك ومحاولته قتل يلبغا الناصرى ـ توحيد صفوف الترك لمقاومة الجركس ـ اعلان الصراع بين الترك والجراكسة ـ معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك الترك سنة ١٣٨٩م ـ عودة جيش برقوق منهزما الى القاهرة ـ استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩م خلع برقوق واعادة السلطان حاجى الى الحكم ـ عوامل انقسام الترك على أنفسهم ـ النزاع بين منطاش ويلبغا الناصرى ـ خروج السلطان برقوق من الكرك الى دمشق في أواخر سنة ١٣٨٩م انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق ـ عودة السلطان برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجى.

* * *

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تدبيرها وتنفيذها، غير أن الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط المؤامرات التى دبرها المماليك الترك ضد سلطنته. ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ في إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك، فرقة اليلبغاوية الترك وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان. ولما كان لليلبغاوية الترك فضل الموافقة على سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمرائهم في الحكم إشراكاً شكلياً، حتى يمكنه أن ينصرف إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك: وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية من إقطاعاتهم وتركهم بطالين وبرز السلطان

ولا ينقطع من رفيقه فيهلك. واخبرني من شاهد
الخلق موتا رم من باب بلبيس الى باب غزه هم
ودوابهم ومواشيهم الواحد الى جانب الاخر وكانة
[كانت] ثلثة ضربات ضرب الله بها المصريين الغلا
والجلا والوبا (*) وذالك بنية سلطانهم ووزيره
[حتى] بلغ القمح بدينار الويبة مغربلة، والخبز
بنصف وربع درهم الرطل المصرى وبدرهمين وربع
ورقا [فضة]الرطل بالحلي والشعير بخمسة

(*) اجتماع الغلاء والجلاء والوباء على أهل مصر حتى اكل الناس اولادهم.

---

برقوق إجراءه هذا بقوله : «إن هؤلاء. خانوا أستاذهم بعد أن عاشوا في نعمته مدة طويلة، وانه لهذا «لم يعد يأمن لهم» (١). وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك الأشرفية الترك. ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التى أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق فى جركسة الدولة كلها وما تبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية.

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنبغا السلطاني الأشرفي نائب أبلستين (٢). ذلك أن هذا الأمير هاجم فى ذى القعدة سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) قلعة دارنده (٣) المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً. غير أن مماليك هولاء الأمراء تمكنوا من القبض على مماليك الطنبغا السلطاني وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته. ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلبغاوية فى سورية بدليل أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب لم ينضم

---

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥أ.

(٢) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية ـ راجع ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٨٦.

(٣) قلعة دارندة كانت من بلاد الثغور والعواصم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طبلخاناه ـ انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٢٨.

وعشرين درهم الوية والفول بعشرين درهم الوية
واما الحمص والعدس والجلبان فكانو قليل والذى
يجد منهم شيأ يشتريه بدرهمين وربع القدح،
وكان الترمس والبرسيم بدينارين الاردب ثم بلغ
الترمس درهم القدح مبلول. فباعو الناس من
الاثاث والقنايا والدور والجوار والعبيد مما قيمته دينار
بدرهم وناس كثير باعو بنيهم وبناتهم كالمماليك
للخدمة واحتجو بقولهم نبيعهم لمن يطعمهم الخبز

---

إلى الطنبغا السلطانى فى حركته هذه، بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه.

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان فى نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم فى الثورة على حكم الجراكسة، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنئذ، حتى إن الطنبغا السلطانى حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب سوريا من اليلبغاوية الترك فر هارباً إلى بلاد التتار بعد أن أعلن رأيه صراحة فى قوله. «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى»[1].

على أن الأشرفية جربوا حظهم مرة أخرى فى أول رجب سنة ٧٨٥هـ (سنة ١٣٨٣م)؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قرط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلائى أمير جندار ومعهما نحو ثمانمائة فارس من الترك [2] باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان، وإعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد [3]. وحين كشفت هذه المؤامرة وجئ بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق هددهم

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

فيعيشو به اصلح من ان يموتو بالجوع وكان الولد
يخطف الخبز وغيره من يد ابوه ليحيى به نفسه
والاب يخطف من ولده حتى يحيى نفسه واكلو
لحوم الميتة من الحمير والبغال والخيل والكلاب
والقطط وجميع الهوام والوحوش والطير الحى
والميت. وكانو نساء مرضعات يعجزو من الجوع
عن الرضاعه فيرمو اولادهم فى جامع المحلة وغيرها
من المدن فى جميع ديار مصر فيرمو الاطفال اولاد

---

بالويل والثبور،حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم «هؤلاء ظلمة وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً مني في الباطن، ولم أقلد برقوقاً إلا غصباً» [١]. وظهر من اعترافاتهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم [٢]. وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت، ووافقه البعض على هذا الحكم، على حين اختلف القضاة فيما بينهم في أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين؛ وهذا تخلص عجيب في بابه من ورطة هذا اليوم [٣]. وإزاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعيين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقيبه بـ « الواثق بالله» وبالحكم على قرط بن عمر بالموت[٤].

على أن هذه المؤامرة التى وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيرى الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم، كما نفى عدداً آخر إلى سورية بطالين.

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٧أ.
(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦٠.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب جـ٦ ص ٢٨٦.

شـهـر وشـهـرين وثلثـة وفـوق ذالك فى الجـوامع
والمساجد والطرقات والاسواق بالليل فياتو نسا اخر
ورجال فـياخـذوهم فى اقـمطتـهم انهم يربوهم لله
فياكلوهم وقوم يربوهم وكان كل يوم يصبح فى
جامع المحلة منهم جماعة كبيرة فلا يجى المسا
حتى ياخذوهم وكان الشرط [الشرطة] يمسكو
نسا كثير ومعهم قدور يجدو فيها لحوم الناس صغار
وكبار مطبوخين ومسلوقين ومشويين فيودوهم

---

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجسوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية اليلبغاوية كذلك، ومما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب سلك مسلكاً شاذاً فى سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) من سولى بن دلغادر التركمانى عدو السلطنة المملوكية الثانية، ذلك أن سولى بن دلغادر حضر إلى حلب طائعاً، فأنزله يلبغا الناصرى عنده، وكاتب السلطان برقوق فى أمره، فأرسل برقوق إلى يلبغا بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً. غير أن يلبغا الناصرى وجد فى القضاء على سولى بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالى توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك ـ فتظاهر يلبغا بطاعة السلطان وقيد سولى وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه. وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على براءته بخروجه بالعسكر فى طلب سولى، ولكنه سار يوماً فى غير الطريق الذى سار فيه سولى بن دلغادر، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه [٢]. وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبغا، وخشى تكرار مؤامرته بعد أن ظهرت نياته واضحة، فأرسل بعزله عن نيابة حلب، وعين مكانه الأمير سودون المظفرى

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

للولاة فيضربوهم وبعضهم يجدوه قد ذبح او قتل فيقتلوه، وكانو جماعة من الناس صبيان شباب يقفو في الاسواق الليل والنهار ويخطفو ما يشتروه الناس. وجملة الامر انهم اكلو بعضهم بعض وكان القوى يقوى على الضعيف فياكله ولم يبق احد يوارى احد التراب وهان الموت حتى صارو مطروحين في الشوارع والازقة والطرقات والكيمان ولا احد يبكي على احد ولا امراه تندب ولا تنوح

---

صاحب حلب الذى طالما دس على يلبغا الناصرى عند السلطان. وحين جاء يلبغا الناصرى إلى القاهرة فى رجب سنة ٧٨٧هـ عنف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية [١].

وما كاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصرى وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته فى السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء فى دمشق. وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٨٨هـ (سنة ١٣٨٦م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدين ليقفوا بين يدى السلطان برقوق. وحين واجههم السلطان بتهمة «السعى فى نقض المملكة والدعاء لإمام قرشى» [٢] تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان فى جرأة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه «غير أهل للقيام بأمر المسلمين إلا إمام قرشى» [٣]. وكانت هذه الحركة غريبة فى بابها وقتذاك، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن للترك ضلع فى هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبوهم حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك؛ غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمايل [٤]. واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء أكانوا من فريق الأشرفية أو اليلبغاوية،

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٧٦.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٧٠.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦.

وانقلعت الحنه [الحنيّة من] قلوب الناس وانقطع
من الحياة الرجا وحصل الاياس وهلكت الناس
وخربت المدن وخلت القرى لان اهل القرى انضوو
الى المدن لطلب المعاش لانه لم يبق احد يعمل
صنعة ولا يعمر عمارة، وضعفت قوة الخلق من
الجوع والموت وما بقى احد اذا طلب يقول لله
كسره ولا لقمة بل يقول لله لبابه هذا كان قول من
يطلب. وكانو كبار الناس بمصر والقاهرة من

---

فتتبعهم بالقتل والنفى كما ترك عدداً كبيراً منهم بطالين. وزيادة فى الحيطة أمر بوقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراءالقصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتثل الأمراء لهذا الأمر [1].

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرفية عز الأمر على تمربغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية. [2] وأخذ فى جمع الترك الذين تفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان. وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته. ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء، وأرسل دواداره ملكتمر بعشرة آلاف دينار لينفقها فى أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش [3]. وأثبتت المعلومات التى جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن

---

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٣.
(٢) أصله من مماليك السلطان الأشراف شعبان الترك ابقى عليه الظاهر برقوق وعينه فى نيابة ملطية بشفاعة قجماس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذى جلبه بالغ فى الإحسان إليه ـ راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة جـ٤ ص ٢٦٤.
(٣) ابن الفرات : تايخ الدولة والملوك جـ٩ ص ٢٣.

الاجناد والكتــاب واهل الخيـــر من المسلمين
والنصارى يصدقو على الفقر ويعمل كل احد على
قدر طاقته. ولم تزل هذه الامور مستمرة سنة سبع
وسنة ثمان ولما كان في شهر ربيع الاول سنة تسع
وتسعين وخمس ماية [١٢٠٢م] نظر الله جلت
قدرته تلاف الخلق ورحمهم وانجلت الاسعار وابيع
الخبز ثلثة ارطال بدرهم بالمصرى وبرطل المحله رطل
بدرهم وفي ربيع الاخر ابيع برطل المصرى ستة

---

محاربته(١). وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن في وسعه إطلاق سراح يلبغا الناصرى وإعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى (٢) وذلك في ربيع الأول سنة ٧٩٠هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلبغاوية ويثيرهم على الأشرفية وبذا يستفيد من الانقسام في صفوف الترك.

بيد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضى ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه في ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرفية الترك (٣). وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يلبغا الناصرى وتوقع أن ينضم يلبغا إلى بنى جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة.

على أن يلبغا الناصرى لم يجرؤ على الانضمام علناً لمنطاش، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن انضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس، وفرار محمد التركمانى، ونائب البيرة. أما يلبغا الناصرى، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه. ولكنه بدلاً من

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٥.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٠.
(٣) راجع العسقلانى: الدرر الكامنة جـ٤ ص ٣٦٤.

بدرهم وبرطل المحلة رطلين بدرهم فتراجعت الناس قليلا قليل وبدو يعمرو، والقزازين والحيكه وارباب الصنايع بدو يعـملو وفى سنة تسع ابيع الخـبـز بالمصـرى احـد عـشـر رطل بدرهم وبالمحلى اربعـة ارطال بدرهم وتراخت الاسـعـار وامنت الطرقـات وسـافـرو الناس في البـر والبـحـر بعـد ان كـانت الطرقات انقطعت وما كان احد يقدر يسافر وحده الا ياكلوه الغيـلان الذى تغولو من بنى ادم فـاعـوذ

---

أن يتجه إلى منطاش فى ملطية اتجه أولاً إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها [١]. ويبـدو أن صاحب سيواس خشى أن يقع بين هجومين: أحدهما هجوم تيمور لنك الذى أخذ يزحف غرباً، والثانى هجوم جيوش السلطان، فبادر إلى إعلان الطاعة [٢] واكتفى يلبغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان فى وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها [٣]. والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يلبغا الناصرى سبب للسلطان برقوق متاعب كثيرة، إذ أنه لم يشتبك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله المماليك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوحد صفوف المماليك الترك.

وفى ربيع الآخر سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع فى خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبغا الجوبانى نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إخلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكثار الأمير الطنبغا الجوبانى من شراء المماليك[٤]. وفسـر الترك مسلك برقوق من الجوبانى بأنه حمل كل معانى الغدر. ذلك أنه حين حضر الطنبغا الجوبانى

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨.
(٤) أصل الطنبغا الجوبانى من اليلبغاوية ـ وثق به برقوق وجعله أمير مجلس ومعناه صاحب الشورى فى الدولة ـ راجع ابن خلدون جـ٥ ص ٤٧٧.

بالله من سـخط الله. وهذا مـا انتـهى الينا علمـه
وسطرنا هذه السـيـرة والاب البطرك رزقنا الله بـركـة
صـلاته حي في شوال سنة ثلاثة وستماية الهلالية
الموافـقـة للنصف من بشنس سنة ثلث وعـشـرين
وتسـعـمـاية للشـهـدا الابرار [١٢٠٦م] صلواتهم
تحفظنا واياكم. وكتب معاى [معى] ابن ابو المكارم
ابن بركات ابن ابو العلا بخطه لنفسه فمن ادرك
نياحت الاب يوحنا [يوانس] وعرف شي تجدد في

---

إلى مـصـر ليـدلل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسـجنه بالإسكندرية وأقر منافسـه طرنطاي في نيابة دمشق(١).

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم، وخاصة مثيرى الفتن من المماليك البطالين. وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه (٢). وتـكـتـل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة (٣)، أما يلبغا الناصرى فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وآثر الحياد واحتجب في بيته خشية اصطدامه بإينال اليـوسفي الجركسي. غير أنه في الوقت نفسـه اتصل بمنطاش سراً وشـجعه على الاحتـمـاء بحماه، حيث وجد في أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية (٤).

أثارت هذه الأخبـار السلطان برقوق، ولكنه كظم غيظه ريثما تتم استعداداته للانتقام من يلبغا الناصرى، حيث إنه لم يكن يستـهان بقوة يلبغا الناصرى بعد أن ازداد نفوذه في حلب بسبب تمكنه من أسر حوالى ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم (٥).

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٤.
(٢) راجع ابن دقماق: الجوهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصـورة).
(٣) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٤) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٠.

ايامه فليذكره ويتم به سيرته والمجد للاب والابن والروح القدس الاله الواحد.

وفى ايام هذا الاب انتهى اليه ان قسيس من اهل البشمور سكن مدينة الاسكندرية وكانو كهنتها يحلفو عليه يقدس فى كنايسها واقام على ذالك حيناً وزماناً فحضر رجل يعرفه من اهل بلده الى الاب البطرك انبا يوحنا [يوانس] واعلمه ان القسيس المذكور توفت زوجته وتزوج ثانية وانه

---

وحتى تتم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك فى سورية أخذ يتودد إلى يلبغا الناصرى وبعث إلى بهدية من جملتها «خيول عربية وكنابيش وأطرزة زركش، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور فى أمر منطاش [1]. غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله فى مقاومة حركتى التركمانى ومنطاش، وخوفه على حلب منهما [2]، وبعث يلبغا الناصرى برده على يد رسول من عنده، ولكن رغبته فى الانتقام من السلطان برقوق دفعته إلى الكتابة سراً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق، كما طلب من رسوله أن يكشف له فى أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره ا لسلطان له ولإخوانه الترك من المكائد [3].

وبرغم أن السلطان برقوق اظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصرى إلا أن خوفه من مكائد يلبغا الناصرى وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته، الذين كسب ودهم

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٥٠.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٤.
(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.

تعدى قانون الكهنوت فصعب ذالك عليه جدا
ومنع القس المذكور واغلق الكنايس بالاسكندرية
وكتب الى الكهنة كتابا صعب، وطلعو له الى
مصر فاغلظ عليهم وعظم ذالك عندهم جدا
فسالوه وثقلواعليه باراخنة مصر حتى صفح عنهم
وتقدم لهم ان لا يرجع غريب يتصرف عندهم
واخذ خطوطهم بذالك واستمر ذالك في جميع
ايامه. ولما فسح الله جلت قدرته وعظمته لاخوكم

---

بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والإربعاء من كل أسبوع [١]؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكتمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها؛ ظاهرها مطالبة يلبغا الناصرى بصلح سودون المظفرى بحضور ملكتمر والأمرا والقضاة والأعيان وأن يلبسا خلعتى السلطان بعد الصلح. ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التى دبرها السلطان مع خاصكيته، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى، لما بينهما من عداء مستحكم. فكتب السلطان إلى سودون المظفرى وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصرى وقتله فى أثناء اجتماع الصلح[٢] وتعمد السلطان أن يؤخر رسول الناصرى عنده حتى يسبقه دوداره ملكتمر إلى حلب، بيد أن يقظة رسول الناصرى مكنته من أن يلم بتفاصيل مؤامرة السلطان. وحين أزمع رسول يلبغا السفر جد فى السير إلى حلب حتى سبق ملكتمر وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة، فاحتاط الناصرى للأمر [٣].

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ ـ روى ابن الفرات أنه رأى بخط بعض المؤرخين أن الأمير ملكتمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصرى مصاهرة، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أخبر الشيخ حسن بما أبطنه. راجع ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

المهتم بهذه السيرة المقدسة الذى اجهد نفسه فى
طلبها من كل مكان وجمعها وكتبها بخطه لنفسه
في الحياة ادرك فى ايام هذا الاب الجليل قضية
جرت في ايامه وقد ذكر بعض ابهاتنا من الشيوخ
انه كان جرى مثلها فى ايام من تقدمه من
البطاركة رزقنا الله واياكم صلواتهم المقبولة
مصطفيين من الله مويدين بروح القدس الساكن
في قلوبهم.كان رسل ملك الحبشة والنوبة قد وردو

---

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١هـ - سنة ١٣٨٩م خرج الأمير يلبغا الناصرى واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان، وبعد أن أخذ منه هدايا السلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب [١]، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان. وبعد أن قرئ الكتاب أرسل الناصرى إلى سودون المظفرى يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلكأ بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصرى. وإزاء إلحاح الناصرى عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملابسه خشية غدر الناصرى، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشي أمير آخور الناصرى، وتقدم قازان ولمس كتف سودون، فوجد السلاح تحت ملابسه، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله: «يا أمير! الذى يجئ للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب؟» [٢] فسبه سودون حتى سل قازان سيفه وضربه. ثم أخذت سودون المظفرى السيوف من كل جانب من مماليك الناصرى الذين رتبهم لهذا الأمر. وتبع هذا معركة بين مماليك سودون ومماليك الناصرى انتهت بهزيمة مماليك سودون[٣].

---

(١) دار السعادة هى دار الحكومة التى يقيم فيها الوالى والحاكم ومنها يدير شئون الحكم.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٠١.

عليـه بكتـاب الملك يلتـمـسـو منه ان يقـسم لهم
مطران لكون المطران الذى كـان عندهم قـد تنيح
ومن عـادة الملك انه اذا ارسل رسل الى البطـر ك
يسير معهم هدية جليلة لسلطان مصر وكتاب اليه
بان يتـقـدم للبطرك بقـسـمـة المطران فلمـا وردت
الرسل الى البطرك اقامو عنده نحو من ثلثة اشـهر
وهو يرسل تلامـيـذه الى الديارات بوادى هـبـيب
وغيره ويتامل هل عنده بمصر والقاهرة من يصلح

---

وهكذا كشف يلبغا الناصرى عن موقف السلطان برقوق ونواياه إزاءه وإزاء المماليك الترك. وبدأ يلبغا الناصرى منذئذ يواجه السلطان علناً، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق (١). كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها(٢). ودخل فى طاعته أهل حلب وأمراؤها وعسكره وبعض التركمان والعرب (٣)، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك، فكتب إلى منطاش يدعوه إلى محالفته، وصادفت هذه الدعوى هوى فى نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل فى طاعـته (٤) وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد المماليك الترك فى فرقة الأشرفية مع المماليك الترك اليلبغاوية وأنذرت بالتالى بسوء مصير سلطنة برقوق.

ولم يكن فى وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق تقليداً بنيابة حلب، وأمره بالقبض على الناصرى (٥). غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقله من قبل ولم يسارع إلى تنفيذ أوامره.

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٣.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٤) العسقلانى: الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤١.
(٥) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦.

للمطرنة فلم يجد احد وضجرو الرسل من طول مقامهم عنده وعزمو على ان يعرفو السطان قصة حالهم وكان ملك ديار مصر لملوك الغز والملك فى ذالك الوقت العادل ابو بكر ابن ايوب(*) وكان فى ذالك الزمان قد احتوى على ملك مصر والبيت المقدس وجميع الساحل ما خلا عكا وصور وبعض القلاع والقوى التى كانة باقية للفرنج وكان فى ملكه ايضا دمشق واعمالها ومن خلف نهر الفرات

(*) هو العادل سيف الدين أبوبكر أخو صلاح الدين (١٢٠٠/ ١٢١٨م = ٥٩٦ / ٦١٥هـ).

---

وفى التاسع من صفر سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م) تحرج موقف برقوق، فاستدعى قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمراءها وشاورهم فى أمر عصيان الناصرى، وعرض عليهم أن يخرج لقتاله، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال الناصرى من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم (١). وتردد السلطان كثيراً فى قبول ما أشار به الأمراء.ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان لم يرغب فى أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى فى القاهرة بعدد قليل، ولهذا تودد إلى الأمراء كثيراً، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته (٢).

وظل الموقف مائعاً حتى بدا السلطان برقوق فى مركز لايحسد عليه حين جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله، والأمير نزلار العمرى الناصرى، والأمير دمرداش اليوسفى، والأمير كتبغا الخاصكى الأشرفى اجتمعوا بعدد كبير من المماليك الأشرفية الترك فى سورية (٣) وهاجموا طرابلس، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير استدمر المحمدى، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمرائها الموالين للسلطان برقوق(٤). وفضلاً عن هذا أعلن يلبغا الناصرى فى حلب نبأ

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩أ.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٥٩.

وحران ومنبج ونصيبين والرها وعدة اماكن وقرى
لم تعرف اسمايا وكان ملكا عادلا حريزاً قوياً كثير
الغزاة في الفرنجة والمسلمين وفتح مدناً وقرى وكان
له نحو من خمسة عشر ولد ويكون عدة عسكره
عشرة الف طواشي وقرا غلام ومماليك نزل
اشتراهم بماله [العادل ابو بكر بن ايوب]، فلما
ورد اليه الكتاب من ملك الحبشة كما قلنا بدياً بان
يتقدم للبطرك بقسمة مطران ويسيره مع رسل
الملك تقدم مراده فاتفق رايه مع من بحضرته من

---

خلع السلطان برقوق وسلطنة الخليفة المتوكل على الله، وبعث يلبغا الناصرى بهذا الإعلان إلى نواب القلاع الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأييدهم له [(١)].

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط في سياسته، فلم تكد تمضى عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة في ٥ من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ [(٢)] حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانه وأصحابه من الدخول إليه. ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ أنه خشى أن يرسل الناصرى إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته [(٣)]. ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خلصائه في خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهز الناصرى فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان [(٤)]، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى. ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف [(٥)]، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته[(٦)].

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦.
(٢) الهيثمى: إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ب.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩أ.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ب.
(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

الاصحاب والاراخنة والكهنة على رجل يسمى
كيل ابن الملبس من اهل طوخ موثر[غنى] من
اعمال الغربية كان قد اقسمه اسقفاً على مدينة
فوه وكان بتولا عالماً [بالكتب] العتيقة والحديثة
بشوش الوجه طويل القامة اكحل العينين اسمر
اللون بحمرة حسن المنظر جدا، فى فاه لدغه،
كاملا فى اعضايه وعلمه فاخذه وقسمه مطرانا
وسيره مع رسل الملك، واخبر من كان سار معه

---

وفى العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ يونيو سنة ١٣٨٩م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية ـ فيما عدا قلعة دمشق وبعلبك والكرك ـ فى طاعة يلبغا الناصرى. وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولى بن دلغادر التركمانى ونعير بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركا يلبغا الناصرى ومنطاش فى الدعوة إلى نصر الخليفة [١]، ولم يجد السلطان برقوق بداً من تجريد عدد من أمرائه، سا روا فى خمسمائة من مماليكه لقتال الناصرى [٢]. غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان فى سورية، ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور فى العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة. وفى ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ [٣] رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسى، وأغدق السلطان برقوق عليهم الكثير من النفقات. وبرغم أن العساكر خرجت فى تجمل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لذهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس.

---

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦ ـ آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

وعاد ان الملك لقيه من سيرة [مسيرة] ثلثة ايام من
المدينة بالخلع والكرامات ومعه كهنة واساقفة
وعسكر عظيم وخلق كثير، ولما وصل الى مدينة
الملك خرج كلمن فيها تلقوه وعملو على راسه
مظلة منسوجة بالذهب مكللة بالجواهر واحرقو
عود وعنبر في مجمرة الكنيسة كثيرا جدا وانزلوه
في دار المطرنة واقامو له عشرت قسوس لخدمته
وحفظ ما يكون من جراية المطرنة من الذهب

---

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلي أمير آخور السلطان على نائبها الأمير ابغا الصفوى التركي وسجنه بالكرك، وأقر في نيابة غزة الأمير حسام الدين بن باكيش [1]. ثم تشجع جركس وتقدم شمالاً، وهناك أعلن قرا محمد التركماني رغبته في الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه في محاربة الناصرى. وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب في تدخل التركمان أو صاحب ماردين في هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذهم في سورية، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والثناء، وأنه «ادخرهم لما هو أهم من ذلك»[2]. ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فتلقاهم نائبها حسام الدين طرنطاى، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم في نزهة عسكرية فاقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا باللهو والمجون فيها حتى «سئمهم الناس، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفي مرسلهم» [3].

وانتهز يلبغا الناصرى ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجونهم في دمشق وتقدما

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٣٧.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

والفضة والثياب وكتب الكنيسة وخزاين اخر
ومخازن يكون فيهم حاجات المطبخ للطعام
والقمح والحبوب وحمل اليه الملك والامر آ معه
خيل كثير وبغال لركوبه وخدمته عبيد وجوار
وكانت البلاد قد انقطع عنها المطر فازداد به
فرحهم وخافو منه ووقروه وصار الملك يركب في
كل وقت الى داره وعظم قدره عندهم واقام
عندهم على هذه القضية اربع سنين ولما كان في

---

بالمماليك الترك في ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليو سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق. فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة [١]، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه. ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك، بيد أن يلبغا الناصرى عاد فجأة وانقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلبغا الزينى الأعور من قتل الأمير جركس الخليلي أهم قائد في جيش السلطان برقوق [٢].

ولا شك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفراده نحو الخمسمائة، كان الترك يعدون بالألاف فضلاً عمن انضم إليهم من التركمان والعرب [٣]. واستطاع يلبغا الناصرى بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش البجاسي وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة في قلعة دمشق [٤].

---

(١) برزه: قرية من غوطة دمشق. انظر ياقوت، معجم البلدان جـ٢ ص ١٢٤.
(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ٣٧.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٤) السيوطي: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ١٢٧أ.

السنة الخامسة تواصل خبره الى الاب البطرك انبا
يوانس انه فارق مدينة الملك وخرج منها متوجه
الى مصر الى القلاية البطركية فصعب ذالك على
الاب البطرك ولم يزل منقسم الفكر مشغول
القلب بسببه الى ان وصل الى مصر وحضر بين
يديه فساله عن السبب الموجب لعودته فذكر ان
للملكة زوجة الملك اخ اسمه خيرون وانها لم تزل
تلح عليه وتثقل عليه وتتشفع عنده بالملك الى ان

---

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية، أولاهما أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق، وثانيتهما اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطاني على هذا نحو، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق فى وقت انتشر فيه الطاعون [1] وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمناقشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر فى التجريدة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى، واتفقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لا تقل عن ألف وأربعمائة مملوك [2].

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجريدة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق، وأن اينال اليوسفى اضطر لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى. وتقدم الترك ومعهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة [3].ولم تكن لدى السلطان فى هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويحلفهم على الموالاة واسداء النصح، كما أظهر

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٠أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٠أ.

اقسمه اسقف على مدينة الملك فلما اقسمه صار يركب بالمظلة مثل المطران ولايسلمو عليه ولايطيعوه في شي. وكان الملك قد خرج من مدينته بعسكره لمحاربة اعداه فعمل خيرون في الحيلة على قتل المطران وتعب عليه قوم من عنده تسلقو إلى دار المطران بالليل ليقتلوه فهرب منهم فتبعه نحو من خمس مايه نفس اصحاب المطران وعبيد كان اشتراهم ووكلا وغيرهم لبلاد قلاية

---

احترامه الزائد للخليفة، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التي قطعت من قبل[1].

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان في معركة دمشق - التي عرفت بمعركة الخمسمائة -[2] كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جركس الخليلي، ويونس الدوادار[3]؛ وتحرج مركزه وخشي انتقام العامة؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب في شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخوني النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى في الناس «أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وانا قد سألنا العدوالباغي في الصلح فأبي وقد قوى أمره، فأغلقوا دوركم، وأقيموا الدروب على الحارات، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم[4]». غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة في اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق، لأن السلطان عاد فعدل عن قراره وألزم مباشري جهات المكس

(١) نفس المرجع ورقة ٢٠ب، المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٥٠٤.
(٢) عرفت بمعركة الخمسمائة لأن السلطان قاتل فيها بخمسمائة من العساكر - راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٩.
(٣) انظر السيوطي: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧أ.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ٢٦٩ - ٢٧٠.

المطران وعدتها على ماذكر اربعين قرية فلما خرج من مدينة الملك وسار عنها راجعاً الى مصر مدة ثلثة ايام امر الكهنة والقوم الذين ودعو بالرجوع فرجعو وصحبه جماعة منهم نحو ماية رجل فهلكو في الطريق بالجوع والعطش لانهم لما خرجو من بلاد الملك وقعو في بلاد غيره من الملوك الكفار فقاسو منهم شدة عظيمة وكانو يمنعوهم العبور على بلادهم الى ان ياخذو منهم الذهب وغيره

---

بمطالبة الباعة بمكس مابيع [1]، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات[2]. والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا في الهروب من القاهرة والانضمام لجيش الناصرى والعمل على التخلص من حكم برقوق. أما من بقى من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آنئذ سوى «عمل الدروب وجمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار [3]» في وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يئسوا من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم.

وازاء هذا الشعور الذى لمسه السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين فى كفاحه مع الترك بعرب هوارة وعرب الوجه البحرى [4]، واعتمد على مماليكه في حفر خندق حول القلعة، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأقوات والمجانيق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار، ثم

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٢.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٠.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.

فلم يصل المطران الى مصر الافقيرا وقد هلك
ماكان معه من مال ونفوس ووصل معه من
الجميع عبدين وجارية وقط زبدة(*) وهلك الباقى
فلما اخبر البطرك بما قدمنا ذكره ان يقيم ببعض
كنايس القاهره حتى يكتب للملك كتابا يستفهم
صحة ما ذكره المطران فمضى المطران الى القاهرة
واقام فى كنيسة حارة زويلة عند قوم من الاراخنة
يقال لهم اولاد جمال الكفاه وكتب الاب البطرك

(*) قط زبدة: هو نوع من السنانير يسمى سنور الزباد.

---

أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار. وبعد أن تمت استعداداته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة [1].

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق فى هذه الآونة إذ تبع هذه الاستعدادات سوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فنودى «بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر [2]». أما باقى آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بثمن مرتفع جداً [3]. وبرغم ما أنفقه السلطان برقوق على مماليكه من المال والخيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به، حتى أخذ يحرض مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبى، كما أعطى الأمير اقبغا الماردينى حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع على قول ابن تغرى بردى: «مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب، ثم بطل الحكم فى القاهرة وانعدمت سلطة الدولة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٣.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة.

الى الملك كتابا وسيره على يد القس موسى ومعه
تلميذ من تلاميذه فغاب عنه رواح ومجى [اى
اخذ فى ذهابه وإيابه] مدة سنه ثم عاد الجواب من
الملك وهو يقول عن المطران انه قتل قسيس كبير
فى طقسه مقدم العشرة قسا الذى برسم حفظ
خزانة المطرنة وسبب ذلك انه اتهمه انه قد اخذ
قضيب ذهب من خزانة المطرنة فبطحه وامر عبيده
بضربه فضربوه قدامه بغير رحمة وهو يامرهم

---

وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار»[١]، والخلاصة أن الأحوال ساءت فى داخل القاهرة ولم ينقذ برقوق من ثورة العامة عليه سوى آنتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم[٢].

أما يلبغا الناصرى فإنه سار من غزة إلى قطية[٣] فى ٢٨ من جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ (أغسطس سنة ١٣٨٩م) وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصرى بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه[٤]. وفى قطية وجد الناصرى بعض جواسيس برقوق فعاقبهم[٥]، ثم ما كاد خبر وصول الناصرى إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنئذ من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصرى على موقف السلطان برقوق السئ مما شجع الناصرى ودفعه إلى التقدم بسرعة

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٣) قطية قرية فى الطريق بين مصر والشام قرب الفرما وكان بها مكان أخذ المكس من الوافدين على مصر. راجع رمزى: القاموس الجغرافى ص ٤٢.
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣.

بضربه حتى اسلم روحه وسالوه جماعة من الكهنة
فيه فلم يقبل فيه سوال وان اهل القسيس الذى
قتله هم الذين كانو يتسلقون عليه ليقتلوه عوض
قتله صاحبهم، واما خيرون الذى اقسمه المطران
اسقفا ذكرو الرسل انه مات بعد خروج المطران
من البلاد بشهرين ولم يمطر مطراً فى تلك السنة
فى بلادهم ولذالك انفذو الرسل بطلب مطران
غيره وانه بنا فى المدينة التى للملك دار وغرس

---

نحو القاهرة. وحين وصل يلبغا الصالحية، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العايد كل معونة سواء من المال أو الرجال، وسار يلبغا الناصرى بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة [1].

أما السلطان برقوق، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة، أمر فدقت الكوسات الحربية، ثم ركب مع الخليفة فى مقدمة العساكر، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه ببكائه حتى إنهم بكوا إشفاقاً لحاله [2].

وعندما أشرف الناصرى على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة؛ بسبب فرار واليها حسام الدين بن الكوراني واختفائه خوفاً من انتقام الزعر، الذين انتشروا ينهبون فى أنحاء المدينة.

والواقع، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجئ عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة، حتى إن من بقى معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يلبغا الناصرى برغم ما أنفقه السلطان عليهم [3]. ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذى دفع السلطان إلى إغلاقه، وبذا أصبح محصوراً فى داخل القاهرة. وزاد فى ضعف مركز السلطان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٧.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٣.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان(مخطوطة) ورقة ١٢١أ.

فيها اشجار واجرى فيها مياه تتخرق فى مجالها
وانفق فيها مال كثير وبيضها وعمل لها دهاليز
طوال يتعب الذى يدخلها قبل ان يصل الى قاعها
وعلاها، وحصنها وسماها القصر وكان يحتجب
فيها عن الناس لا يخرج الا من يوم الاحد الى يوم
الاحد يركب الى الكنيسة بغلة عالية والمظلة على
راسه وحوله وخلفه فرسان ورجاله نحو خمس ماية
رجل غير الكهنة والشعب الذى يتبعوه الى الكنيسة

---

برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بخزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم، وكسروا أبواب الحبس، وخرجوا ليعيثوا فى القاهرة فساداً. ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق فى منع العامة من التوجه إلى الناصرى بل إن العامة رجموهم بالحجارة، واضطر الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمى العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلى مرير [1].

وفى يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م أقبلت طليعة الناصرى «كأنها الموت الأحمر» [2] مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان فى جماعة كبيرة، وأخذ فى قتالهم وعاونه المماليك الذين فى القلعة بالهجوم على الترك بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع وهم يكرون ويفرون. والواقع أن باقى الجراكسة ثبتوا ثباتاً راسخاً، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصرى وخطورة موقفهم بدءوا فى التسلل للانضمام إليه [3]، حتى إن السلطان برقوق يئس وعرض على من بقى معه من الأمراء أن يسلم نفسه [4]، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم

(١) نفس المرجع ورقة ٢١ب، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٣
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١ب.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٤) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ب.

ويـدل اذا طلع الهيكل ثياب منسوجة بالذهب مكللة تساوى مال كثير وذكر عنه كلام كثير لم اقف عليه، هذا بعض ما سمعته من جملت الكتاب الواصل الى البطرك ووصل صحبة القس موسى رسل الملك وصحبتهم هدية جليلة وتاج ذهب للبطرك وهدية جليلة للسلطان ومن جملتها وحوش وهم فيل وسبع وزراف وحمار وحش وكان يوم وصولهم فرح عظيم عند البطرك وكان الملك

---

ولايموتون إلا على ظهور خيولهم (١)، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهرى أحد كبار الأمراء الجراكسة المتحمسين، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته، أرسل النمجاه إلى الناصرى وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته،فكتب له الناصرى أماناً.

والظاهر أن الناصرى حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصرى من قبل مع كثرة أخطائه، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصرى لانتقام الجراكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصرى حاملي الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمرا (٢).

وهكذا اختفى السلطان برقوق، ودخل الناصرى وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله فى قبة النصر (٣)، وأخذوا في الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم. وعلى أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعانى أشد أنواع الاضطراب؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركمان من أصحاب يلبغا الناصرى فى الهجوم عى بيوت الأمراء

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣ .
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦ .

العادل سلطان ديار مصر فى تلك السنة وهى سنة
ست وستماية الهلالية الموافقة لسنة ست وعشرون
وتسعماية للشهدا الابرار غايباً فى الغزاة على مدينة
سنجار ومحاصرها بجنوده وولده الملك الكامل(*)
نايبه فى ديار مصر فاخذ البطرك الرسل والهدايا
الواصلة معهم له وللسلطان حمل الجميع له
فاستحسن التاج وقال ما كنت اظن ان عندهم
من يعمل هذا فقال له الرسول يا مولاى الملك

(*) الكامل ابن العادل صار ملكا على مصر فى الفترة ١٢١٨ / ١٢٣٨م = ٦١٥ / ٦٣٥ هـ.

---

وحواصلهم ونهبها وتخريبها. ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة ـ مع ما بذلوه في المقاومة والدفاع ـ من النهب والسلب. ونهب الترك والتركمان الاصطبل السلطاني؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل: إنهم نهبوا ألفين ومائتى إردب شعيرا، ونهبوا من الدراهم مائتى ألف درهم[1]، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم. وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصرى عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والى البهنسا واليا على القاهرة [2]، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح، ودخل جامع الحاكم، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصرى، وطلب منهم أن يمتنعوا عن النهب، غير أن نداءه لم يكن مجديا إذ استمر الترك فى النهب وقتال العامة حتى اضطر الناصرى إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبى بكر أمير حاجب، وتنكزبغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر، فأمر فنودى بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئا فلا يلومن إلا نفسه، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال»[3].

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذى حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة فى وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.

نعرف اتضاع البطرك وانه ما يلبسه ولو علم انه
يلبسه ويجلس به كان يكلله بجواهر يكون قيمتها
خراج ديار مصر جميعها، فتعجب الملك الكامل
من كلامه وساله عن الملك وعسكره وحروبه
فاخرج اليه الرسول كتابا من الملك للسلطان وقال
له اذا قرات كتابه عرفت كيف هو وكيف عسكره
فلما قرى كتاب الملك وجد من جملته يقول
للسلطان تتقدم الى الاب البطرك الكبير العظيم

---

يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة. ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصرى ومنطاش الأشرفى إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاوون والعمل على إعادة الترك إلى مراكزهم التى أقصاهم عنها برقوق، فاجتمع الناصرى بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة، ونصب للخليفة خيمة عظيمة، وللقضاة أخرى، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق. ورغم أنهم أجمعوا على سلطنة الناصرى باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك، فإن الناصرى امتنع عن ذلك أشد الامتناع، ذلك أنه أدرك أن سلطنته ستواجه حملات المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة. ولهذا استقر الرأى على إعادة الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة. فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك [1] فى يوم ١٠ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ.

وهكذا خلع السلطان الظاهر برقوق الذى استطاع أن يرتقى من صفوف الجند إلى وظيفة أمير آخور دفعة واحدة، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها، وظل يشغلها حوالى خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاوون وأكثر من شراء المماليك من

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٦.

الجليل ويقـــول للسلطان ومملكتك ايهـــا الملك
محفوظين بصلواته فاحفظه واكرمه وتقدم له بان
يقسم لنا مطران غير المطران الذى كان عندنا ولا
يعيـده لنا البتـة. فلمـا وقف الملك الكامل على
كتاب الملك تقدم للبطرك بان يقسم لهم مطران
غيـره سـرعـة ولا يعـوقـهم عنده ثم التـفت الى
الرسول وقال له قد قرات كتاب ملكك وهو رجلا
عاقل هات عرفني قولك لى اذا قرات كتابه عرفت

---

العنصر الجركسي حتى بلغ ما اشتراه في هذه الفترة منهم نحو ألفي مملوك [1]، قدمهم على الترك والروم [2]، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون.

وامتاز برقوق في سلطنته الأولى التي استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالحزم والهيبة وحبه لأهل الخير والعلم، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام اليه، على حين لم يعرف أحد قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية [3] بين القصرين. غير أنه يؤخذ على سياسته في هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية في وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها، حتى أصبح لايصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال. ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» [4] مما عجل بنهاية حكمه.

دعى أمير حاجي في سلطنته الثانية بالسلطان المنصور وتقدم الأمراء على عادتهم وقبلوا

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٣.
(٢) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٨.
(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٩١.

من هو قال له الرسول لو اخذة [لو أخذت] اصف
لك فضايله وعساكره وحروبه وتاييد الله له ونصره
اياه على اعداه لطال الوصف ولكن اختصر لك
على اليسير لتعلم منه الكثير انى قبل صفرى
[سفرى] يوم واحد اعرض الملك عسكر امير
واحد من الامرآ وانا واقف فى ركابه فكانة عدته
ستين الف فارس غير من يتبعهم من غلمانهم
وحواشيهم. فتبسم الملك الكامل من قوله وامر

---

الأرض بين يديه، ودقت الكوسات وهو فى طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه (١).
ومن الطبيعى ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصرى منصب الأتابكية، وسكن الاصطبل السلطانى، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس.

وبدأ الأمير يلبغا الناصرى، فى تنظيم الأمور الداخلية، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان. وعين من يطمئن إليه من الأمراء فى خدمته (٢)، وكتب مرسوما على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس، ثم عين الناصرى من الترك نوابا فى الشام، وأمرهم بالتوجه فوراً إلى نيباباتهم (٣). غير أن الأمير يلبغا الناصرى لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة، فأخذ فى تتبعهم وأمر بأن ينادى فى القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على قطاعه ومن اختفى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان» (٤) ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم، أو سجنهم، أو توزيعهم على أمراء سوريا (٥).

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٣أ.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٥.
(٣) نفس المرجع والجزء والصحفة.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٠.
(٥) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨.

بتسليم الهدية، وقال للبطرك: خذ هديتك كيف
يكون الملك يخصك بشى تحمله الينا فحلف ما
ياخذها واقسم عليه بحياة والده الملك العادل ان
يقبلها فقبلها وامر بنجا [بعودة] رجال الرسل وان
يقسم لهم مطران ولا يعوقهم فخرج من حضرة
الملك الكامل وعاد الى مصر واحضر كهنة مصر
والقاهرة واراخنتها وجمع مجمع عظيم وتسامعو
المسلمين بالقاهرة ما جرى للبطرك مع الملك

---

غير أن الأيام القليلة التى حكمها الناصرى أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره، وحملت سياسة الناصرى فى ثناياها العوامل التى عجلت بحكم الترك، وأول هذه العوامل أن الناصرى أبقى على عدد من الجراكسة الذين اطمأن إليهم، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص، وثانيها أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم، ذلك أن الأشرفية اختلفوا مع اليلبغاوية وقامت بينهم الشحناء بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التى انتقلت إليهم نتيجة نفى عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم[(١)]، ثم إن حالة العنف والتهديد التى دأب عليها الناصرى مع العامة وعجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يجرؤ أحد على منعهم، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصرى، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التى أبطلها الظاهر برقوق، أدركنا سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وتيرانه» [(٢)].

وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصرى أنه عاد يخشى أن يؤدى اختفاء السلطان برقوق إلى ثورة داخلية، ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه، وخصص مكافأة لمن يعثر عليه، وهدد

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٢٦.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٣.

الكامل وانه طلع الى مصر يقسم مطران،
فاستاجرو كل دابة من باب زويلة وغيره من
الابواب وطلعو الى مصر وبلغ اجرة الحمار من
القاهرة الى مصر [مصر عتيقه] ثلثة دراهم حتى
طلعو يتفرجو فلما امتلت كنيسة المعلقة من الخلق
نصارى ومسلمين وقفها [المتفرجين] واخلا الناس
من الفريقين احضر البطرك كيل ابن الملبس
المطران القديم وخلعه من المطرنة وضجر عليه

---

من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك ـ كان والى القاهرة السابق قد عاقبها ـ أنه في بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا الجوباني لاعتقاله. والواقع أن شخصية برقوق كانت جديرة باحترام أعدائه حتى في هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوباني أراد تقبيل يده فاستنكر الطنبغا الجوباني هذا العمل ومنعه [1]، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه وعمم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبة في وسط النهار، والواقع أيضا أن سياسة الناصرى غيرت شعور الناس سريعاً نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصرى، ومالوا إلى برقوق، وبدا ندمهم على زوال حكمه واضحا، فأخذوا يبكون ويدعون له بالنصر على طول الطريق، حتى صعد السلطان إلى الناصرى في الاصطبل، فأمر الناصرى باعتقاله في قاعة الفضة بالقلعة، وهناك صفد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام والشراب[2].

ثم عقد الناصرى في ١٦ من جمادى الأخرى سنة ٧٩١هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩م) جلسة لمشاورة في شأن السلطان المعزول فانقسم الأمراء حياله فريقين، نادى الفريق الأول بقتله، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش [3]، على حين نادى الفريق الثاني بحبسه، وصاحب هذه

---

(١)ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٤أ.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

وابعــده وكـان لما وصل رســول الملك قـد حــصل

اخوين رهبان من دير انبا اندونه وسلمهما للتلاميذ

وكـانا على غاية من الصـلاح والنسك والزهد فى

الدنيـا والوحـدة والانفـراد عن الرهبـان فى ديرهم

ومـلازمـة الصـلاة الليل والنهـار والاتضـاع وخـدمـة

اخوتهم بلا ضجر ولا ملل احدهما اعلم من الاخر

يشهد بصلاحهما جميع من يعرفهما وأسماهما

---

الفكرة هو الناصرى الذى أخذ بها فيما يبدو لعاملين؛ أولهما خوفه من ثورة مماليك برقوق الذين أبقى عليهم وضمهم إليه، وثانيهما أن بقاء برقوق فى الحبس يجعله شجا فى حلق منطاش إذا فكر منطاش فى الثورة على يلبغا [١]. ولهذا أرسله الناصرى إلى الكرك فى ١٩ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م [٢] بعد أن عين الأمير حسن الكجكنى نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصرى بالعناية بالسلطان برقوق والمحافظة عليه، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان برقوق [٣].

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوبانى وثلاثة من صغار مماليكه. وأنزل حسن الكجكنى السلطان برقوق بقاعة النحاس فى قلعة الكرك، وجعل فى خدمته ابنة أستاذه يلبغا العمرى الكبير، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المعزول عن نيابة الكرك «فصارت تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملونة» [٤].

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن

(1) Muir: the Mamluk Dynasty p 107.

(٢) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٤٤١.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٧.
(٤) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٥أ.

(*) البشطمير: هى من ضمن النواحى التى تشكلت منها مدينة المنصورة.

اسحق ويوسف من اهل البشطمير(*) فقسم اسحق وهو الصغير مطرانا وقسم يوسف وهو الكبير قسا وسيره معه وذالك في يوم الاحد الثانى من الصوم الكبير المقدس حادى عشر من برمهات سنة ستة وعشرين وتسعماية للشهدا الابرار الموافق للتاسع من شهر رمضان المبارك سنة ستة وستماية الهلالية [١٢١١م] فاما كييل ابن الملبس المطران المقطوع فانه نزل من كنيسة المعلقة بخجل عظيم

---

الجراكسة، وبالتالى يمكنه من إعادة نفوذ الترك. فأقدم على خطوة خبيثه إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقى منهم بمصر بسفك دمه (١).وأدت هذه الحركة إلى الحط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولاسيما أن يلبغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا فى خدمة السلطان حاجى، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة(٢)

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن فى مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتيت الجراكسة فى سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفاه إلى مماليكه فى سوريا لمعاونته على إعادة سلطنته. وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعبثهم (٣).

وثمة عامل هام ـ يتعلق بسياسة الناصرى ـ أدت إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته فى القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٥أ، ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٩.

وهو يصرخ ويحتو [يحثوا] التراب على راسه
ومضى الى حال سبيله وقد عدم المطرنة والاسقفية
بسو تدبيره واما المطران الجديد واخوه القس
فاخذوهم رسل الملك وتوجهو بهم بكرامة وسلام
الى مدينة عرفه مدينة الملك الذى اقسم المطران
عليها وعلى جميع الحبشة ويوسف اخو المطران
قسيسا، وكان اسم الملك فى ذالك الزمان لا لبله
ابن شنوده وتفسيره الاسد واسم امراته مسقل

---

أقام في جامع السلطان حسن [1]، كما رفع يلبغا الناصرى شأن أمرائه دون غيرهم حين وزع المثالات [2] عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة وعشرين مقصورة عليهم، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر فى المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة: بأن من ظلم من مدة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصرى ليأخذ حقه [3]. وانعكس أثر هذه السياسة فى نفس منطاش وفى نفوس أتباعه الذى بدءوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصرى وأمرائه، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوبانى وحضوره مائدته بعد أن أفرج الناصرى عن الجوبانى وأصبح أمير مجلس[4]. ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه.

وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصرى وبين منطاش فى ١٦ من شعبان سنة ٧٩١هـ - (سنة ١٣٨٩م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض. وفطن الناصرى إلى مكيدة منطاش

---

(1) Ency. OF Islam, Art Barkuk.

(٢) المثالات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت له. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٨٧.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٠.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٧.

كبرى(*) الذى تفسيره عظيم هو الصليب وجنس الملك قبيلة يقال لها النكبة وسكنه مدينة عرفة وله ولدين اسم الكبير يارك والصغير ابيا(*).

ولما كان نهار يوم الاثنين الرابع عشر من بشنس سنة سبع وعشرين وتسع ماية للشهدآ الاطهار الموافق للرابع والعشرون من ذو القعدة سنة سبع وست ماية وصل الى دمياط(*) ثمانية عشر مركبا من الافرنج حربية فنزلو على دير ارميآ الذى

(*) ربما يكون اسمها مسقل كبلى حيث معناه بالأمهرى «صليب عظيم».

(*) ابيا ومعناها بالأمهرى زهرة وهو اسم علم لكثيرين.

(*) حملة جوتير دى مونتبلان الصليبية سنة ١٢١٠م على دمياط.

---

فلم يتوجه لعيادته، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوباني. ولكن منطاش بدا غبيا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوباني وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف.

وهكذا بدأ كأنما الأحوال تخدم السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك، إذ ركب منطاش فى أصحابه ومن انضم إليه من مماليك برقوق الجراكسة الذين نقموا على الناصرى، لأنه لم يف بوعده لهم بل إنه شرد إخوانهم [١].

واتجه منطاش فى ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩م إلى باب السلسلة بعد أن نهب مافى الأصطبل من الخيول. غير أنه تعذر عليه اقتحام الباب ومباغتة الناصرى بسبب إغلاق مماليك الناصرى الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته فى مدرسة السلطان حسن [٢]. وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المئذنتين ومن حول القبة. والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصرى بسبب انضمام العامة إليه، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصرى وأصحابه عليهم [٣].

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين (النسخة الخطية) جـ٢ ورقة ١٣أ.
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٢.
(٣) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٥أ.

للملكيين قريب من دمياط مقدار فرسخ من ناحيت الشط الغربى شط بورة(*) والحيرة [بوره والجيزه](*) وكان من جملة المراكب بسطة كبيرة عمارتها الف رجل بحرية ،ومقاتلة وطريدتين لحمل الخيل فى كل طريدة خمسون فارساً، وسبع شوانى وثمان حراقات عمرو من عكا وخرجو منها نزلو على الدير المذكور وكان مقدمهم ومدبرهم رجل

(*) بورة: اشتهرت بوره بصناعة المنسوجات الراقية. وهى تقع بين دمياط وفارسكور.
(*) الجيزة قبلى دمياط وتسمى احياناً جيزة دمياط. دمرت فى فترة الحروب الصليبية.

---

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكورانى الذى أعيد والياً على القاهرة فى القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية. وبرغم ندائه فى الناس بنهب مماليك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف جانب الناصرى. وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف، إذ أرسل منطاش جماع قاتلوا من حضر لهذا العمل (1) .وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكورانى الذى عينه منطاش والياً على القاهرة وألزمه بجمع النشاب، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً، ثم نادى فى القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس(2).

وعندما رأى الناصرى ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يساله فى الصلح حتى تخمد الفتنة (3). غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة، كما أكد طاعته للسلطان حاجى، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصرى.وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصرى من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ، ثم ذكر أن الناصرى حلف

(1) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٦أ.
(2) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٤.
(3) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٥.

يقال له الكندافلنك(*) وطلع من المراكب الماية فارس والف رجل اقتسمو نصفين خمسون فارسا وخمس ماية رجل مضو الى الجيزة قتلو واسرو من اهلها الرجال والنساء ونهبوها واحرقوها بالنار، وخمسون فارسا وخمس ماية مضو الى بورة قتلو واسرو منها الرجال والنساء ونهبو منها متاع كثير [فيه] شرب(*) قطع مثمنة من جملتها للسلطان بخمسة الف دينار ولرجل قاضي يقال له على

(*) الكونت افلنك: تعرف الحملة المذكورة هنا بانها كانت تحت قيادة جوتير مونتبلان Gautier de Montbé Liand وهي ليست حملة جان دى برين الذى هاجم دمياط فى ٢٩ مايو ١٢١٨م. وحتى هذا التاريخ لم تكن دمياط قد سقطت فى يد الصليبيين.

(*) شرب: قماش مطرز غالي الثمن كان يصنع في دمياط وتنيس وشطا ودبيق للقصور السلطانية ودار الخلافة.

---

له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه، وقرب خشداشيته اليلبغاوية وأبعده وخشدا شيته الأشرفية، وتمادى فى إهماله لشأنه والحط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى هو على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه [1]، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال، وأعطى الناصرى لنفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات، ولمنطاش أصغرها وأضعفها. ثم جعل منطاش ذلك كله فى عنق السلطان الصغير [2].

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصرى والرضوخ للصلح، كأن مصالح البلاد لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء المتنازعين. وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة. ولعبت الخيانة دورها بين الترك اليلبغاوية، إذ خرج على الناصرى عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من المماليك الجراكسة الذين خدعهم، وانضموا إلى منطاش مما أنذر بهزيمة الناصرى. وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله: «أنا واحد منكم» [3]، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى جمع النشاب والحجارة من على

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٤٨.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان جـ ورقة ١٢٦أ.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٤٠.

ذكرو انه له سنتين مقيم فيها يستعمل ويشد شدات
قالو بعشرة الف دينار وقالو اكثر منها. واما اهل
البلد فما عرف مقدار ماخدوه لهم من شدات
متاع واكياس مملوه دنانير على اوساط نساهم ومن
جملتهم زوجت القاضى على قاضى بورة كان
على وسطها كيس الف دينار ولما نهبو البلد وقتلو
واسرو من قدرو عليه. احرقو بعضها بالنار. كل
ذالك يوم الاثنين، واخرجو من المراكب خيام

---

الأرض وحملها إلى منطاش. وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسى أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته، فاعتذر ابن الطرابلسى له حتى عفاعنه، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر الات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهريه وصار يرمى على حيث جلس الناصرى، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة، ففر السلطان حاجى من الخيمة إلى مكان آخر، وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصرى إلى منطاش [1].

وهكذا فشل الناصرى فى سياسته، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك واضحاً نتيجة للمطامع الشخصية، وبدا جانب الناصرى ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطانى، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصرى وخزائنه [2] ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجى وأعلمه أنه فى طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من مماليك أبيه الأشرف شعبان. وخدع السلطان بهذا القول وأعلن ابتهاجه لهذه النتيجة، خاصة بسبب تضييق أتباع يلبغا عليه [3]، ثم أقر السلطان حاجى الأمير منطاش أتابكا للعساكر فى رمضان سنة ٧٩١هـ سنة ١٣٨٩م.

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٠.

ضربوها قدام مراكبهم على البر منهم خيمة حمرة للملك الذى معهم واقامو ينهبو ويقتلو وياسرو كلمن وجدوه يوم الاثنين ويوم الثلثا والاربعا وفى هذه المدة لم يخرج اليهم عسكر ولا قاتلهم أحد لأن عسكر مصر كان بالشام مع الملك العادل ولم يجسر جلدك والى دمياط يعدى اليهم يقاتلهم لقلة اجناده بل اغلق ابواب دمياط وعمر السور باهل البلد واجناده، وكان على دمياط ثمنية شوانى

---

وتتبع منطاش يلبغا الناصرى حتى تمكن من القبض عليه بسر ياقوس ثم أمر به فقيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه.

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبغا الناصرى أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق في الوقت المناسب، وبهذا أصبح يواجه عدوين في وقت واحد، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة.

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد حظا من يلبغا الناصرى؛ ذلك أنه انفق جهده في تتبع أصحاب الناصرى والقبض عليهم، وتحريض أتباعه على الانتقام منهم ثم إنه لم يجده أن تزوج من أخت السلطان المنصور حاجى [(١)] رغبة في تأييد مركزه، إذ سرعان ما شعر بحرج موقفه أمام الجراكسة الذين حنث بعهده معهم في إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصرى، وحين وزع الإقطاعات على مماليكه وأخذ يقرب خشد اشيته ومماليكه وأولاد الناس، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم ـ بإمرة أو إقطاع، مما أوغر صدورهم عليه [(٢)]. وإذ أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة

---

(١) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازا لا مثيل له لعظم مافيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلفة الألوان، وحمل جهازها على خمسمائة جمل ـ راجع إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٨.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨٠.

اصطول [اسطول] مع الريس منصور فلم يخرج
اليهم ولاقاتلهم. ولما لم يرو احد يقاتلهم طمعو
وعلمو ان ما في البلد من يمنعهم عدو بعضهم في
الحراقات الى بر دمياط فقاتلوها فلم يقدرو منها
على شي فعادو الى مراكبهم وطاب لهم الريح
فعادو الى بلادهم بكسبهم. وقد كان العدو ايضا
طرق ديار مصر في ايام هذا الاب دفعة اخرى من
ناحيت فم رشيد وفعل فيها وفي فوه في الجيزة

---

فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترضاهم، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم، [1] وبعد أن أخذ خيولهم قيدهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل [2].

وجاءت هذه الحادثة ضغثاً على إبالة بالنسبة للسلطنة التركية؛ إذ بدأ الجراكسة يتكتلون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى فى الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم.

ثم شغل منطاش فى تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق فى إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكوراني والياً على القاهرة إجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر [3].

أمام هذا التكتل الجركسي أرسل منطاش يستدعي المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات[4] غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال فى القاهرة وبرغم وجود الخفر فى شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءاً. بل إن حوادث أخرى أنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه، وأهم هذه الحوادث اضطراب

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٧أ.
(٣) نفس المرجع ورقة ٢٧، ٢٨ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٣.

وبورة هذه دفعتين ينجح العدو فيها ويكسب من
اطراف البلاد ويعود سالما والامر لله سبحانه ما شا
فعل. وبعد هذه الامور عاد السلطان الى ديار مصر
في سنة ثمان وستماية واقام بها ولما كان في شهر
رجب سنة تسع وستماية خرج يتصيد في الجيزه
ومعه ولده الملك الكامل وسار في الحاجر الى
الاسكندرية ودخل اليها وكشف اسوارها وقلاعها
وابراجها واخلع على البنايين والمهندسين. ومضى

---

أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعير ابن مهنا مع سولى بن الغادر الأمير التركماني ونهبهما حلب، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق، وحرض نواب سورية على مؤازرته في ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلبغا الناصرى [1].

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك في سورية دبر مقتل السلطان برقوق سراً، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكني نائب الكرك، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق، ولكن حسن الكجكني لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان برقوق دون أذن كتابي من السلطان والخليفة. وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برقوق فإن حسن الكجكني ماطل الشهاب البريدى وأنزله في قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برقوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله، وحلف حسن الكجكني لبرقوق بالأيمان المغلظة ألا يفعل به شيئاً [2]. وحين أيقن الشهاب البريدى بأن الكجكني يماطل في قتل برقوق، عزم على العودة، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضي الكرك الجميلة[3]، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برقوق. ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٧ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

الى اشمون نزل عليها فجا اليه ولده المعظم واعلمه انه طلب ياخذ قلعة كوكب [بالشام] من عز الدين اسامة(*) لانه اشتراها من المملوك الذى فيها لاسامة بعشرة الف دينار وتقرر ان يسلمها له فطلع [فأطلع] مملوك اسامة الذى فى القلعة زوجته على القضية وقال لها ناخذ هذا المال الكثير نعيش فيه ونشترى به ضياع واملاك وقد حلف لى المعظم انه ما يخرجنى منها وان يكون حكمى

(*) عز الدين اسامه: هو والى بيروت الذى أمد القوات المسلمة المحاصرة فى عكا بالاغذية والعتاد بواسطة سفينة دخلت سرا إلى ميناء عكا.

---

الشهاب، فاجعوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برقوق، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين: «دس برجلك على عدوك»[1].

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكنى عزم على إطلاق سراح السلطان برقوق حسب اتفاقه مع الناصرى، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصرى ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل فى تنفيذ كتاب الناصرى وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة[2].

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة، إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برقوق فى ٩ من رمضان سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م وبدأ السلطان برقوق حكمه بتحصين الكرك[3]، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم فى الكرك فأسرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر، وأقاموا خارج الكرك، كما أيده فى حركته عرب بنى عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذى قدم له الخيل والمال. هكذا أصبح لبرقوق جيش فى فترة وجيزة، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق. ويبدو أن بعض

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.
(٢) راجع ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقه ٤١ ، الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.
(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقه ١٨٨.

عليها وعلى غيرها من قلاعه ويدفع لى بوق وعلم واكون عنده مثل استاذى. فقالت له زوجته جيد افعل ما تريد. وكانة [كانت] تعرف تكتب فقامت من ساعتها وكتبت لابن اسامة وكان مقيم فى قلعة صفد تعرفه القضية وتقول له اسرع واسبق الى القلعة والا المعظم يسبقك اليها. فقام عند وقوفه على كتابها وسبق طلع الى القلعة واخذ المملوك قيده ورماه فى الجب الذى فيها، وفى

---

أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيرى قاضى الكرك، واتفقوا على القبض على السلطان برقوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا بإجماع السفهاء، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا القاضي فأغلق باب المدينة [1]. ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين، أحد إخوة القاضي المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضروا لنصرته خارج الكرك [2]. وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق. وفي شقحب إحدى قرى دمشق ـ تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخي طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهما من الخيل والسلاح والقماش. وبرغم أن ما أستولى عليه برقوق شئ كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال، ولذا تذرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير إينال اليوسفي الجركسي والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتي مملوك [3] من الجراكسة مستعدين بالسلاح، كما وصل إليه مملوكه كمشبغا الحموى بجنده من حلب، وقدم له خيلا وإبلا وكثيراً من آلات الحصار، وهكذا أعانه كل هؤلاء في التقدم لحصار دمشق [4].

(١) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر: ص ٩٢.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: جـ١١ ص ٣٥٢.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩١.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨١، صالح بني يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٤٧.

صبيحة اليوم الثانى جاء المعظم اليها فسلم عليه
ابن اسامة من فوقها وقال له ارى مولانا شرفنا
بعبوره فى ارضنا فقال له المعظم اريد الصيد قال له
ابن سامة قد فاتك فضحك منه ثلثة وتم على فوره
إلى مصر حتى اجتمع بابوه واعلمه القضية، ولما
بلغ عز الدين اسامه ماجرا من المعظم اخذ
عسكره، وذكروا العوام انه سار معه امرا اخر و انه
سار فى نحو الفى فارس الى الشام، وقال قوم انه

---

وعمد الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الحيل الحربية والزمن للاستعداد لقتال منطاش، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع فى قبضة العرب [1]. فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة الأف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش فى إنفاق جهده فى الانتقام من الجراكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة. وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة الجركسية فى قوص الأمير مبارك شاه، نائب الوجه القبلى، الذى استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلى عاونوه فى تشتيت التجريدة التى أرسلها منطاش لمحاربة الجراكسة الفارين.. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره فى شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التى اندلعت فى الصعيد كله، على حين ازداد عدد المماليك الجراكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق [2].

وإذ تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق، وجد منطاش نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجى. غير أن المال شكل

---

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقه ٣٦٤.
(٢) ا لخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٩أ.

يمضى الى قلاعه وقال قوم انه يمضى الى حلب للملك الظاهر وذالك في شهر شعبان سنة تسع وستماية وذكرو ان الملك الكامل سار في تبعه بعسكر ومنجنيقات لمحاسرته في قلاعه ولما تحقق الملك العادل سفره سار من اشموم ونزل العباسية ونادى على الاجناد ان يجهزو بركهم [معسكرهم وقواتهم] لسفر الشام وسار اسامه مع العرب فغدور به وسلموه للملك المعظم فسلمه لابوه الملك

---

عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لانه كان على قول العسقلانى «نهابا وهابا»(1). ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام ، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه. وطلب البابا متاوس الأول سنة ١٣٧٨ ــ ١٤٠٨م البطريرك السابع والثمانين في عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول (2). ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشتى الطرق، فقرر على المماليك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعي الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه (3). وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للانتفاع بها في الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها (4).

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعي الإنشاء والمماليك البحرية، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان

(1) العسقلانى : الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٦.
(2) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ١٧٣أ.
(3) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ب.
(4) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٧٣.

العادل وقد كان الملك العادل فى طلبه كما تقدم
قولنا فلما اظفره الله به مضى الى قلعة كوكب
ونزل عليها وحاصرها فسلمها مملوك اسامة الذى
فيها فتسلمها وحمل جميع ما فيها من المال
والغلال والسلاح الى غير ها وهدمها وحمل
حجارتها الى غيرها وهى قلعة جبل اسامة وتسلم
بقية قلاعه وهم قلعة صفد وقلعة عجلون وغيرها
مما لانعرفه وقد اختلف القول فى امر اسامة فقوم

---

البلد حين قبض على عدد كبير منهم وألزمهم بدفع أموال كثيرة ليمكنه سد نفقات الحرب[1]. والخلاصة أن البلاد تعرضت لحال سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة من انتصار الظاهر برقوق أو انهزامه.

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا فى أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله فى الشهر الحرام، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التى حرم الله قتلها، ولذا وجب قتاله [2].

وعبأ منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق، ثم قسم قواته، وجعل قوة لحراسة لقلعة، وقوة لحراسة القاهرة، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذه إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية. ولكن منطاش وقع فى خطأ جسيم حين قبض على عدد كبير من مماليك يلبغا وسجنهم. كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته. وفى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٣٠أ.
(٢) نفس المرجع ورقه ٢٩ أ. ب.

يقولون قتله وقوم يقولو اعتقله فى الكرك. وبعد هذه الخطوب اسلم راهب من دير ابو مقار من قلاية البتريرخس اسمه يوحنا على يد الملك الكامل فدفع له حسبة منية غمر واقام فيها ثلثة سنين محتسب ويصلى مع المسلمين فى الجامع بها والمساجد وبعد ذلك ذكر دينه ورهبانيته فندم فاشترى شقة خام(*) ومنديل واخذهم ومضى ووقف للملك الكامل وقال له هؤلاء كفنى اما

(*) شقة خام: هو ما يستخدم فى تكفين الموتى، وهو هنا غالباً مقطع قماش من الكتان.

---

والخليفة والقضاة وترك الأميرتكا الأشرفى نائباً للغيبة بالقاهرة فى أسوأ الظروف، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة فى كل مكان،حتى فى المدارس والمساجد [١].

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشى أنه يهاجمه من الخلف . وإذ اطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كمشبغا الحموى نائب حلب له [٢]، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان لملاقاة منطاش فى شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفا بأربعة آلاف فارس فقط [٣]. واعتمدت هذه الخطة على عاملين، أولهما: تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجى ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية، وفى الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن بيده إعلان شرعية السلطنة [٤]. ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين، وتولى هو قيادة الميمنة. وحين التقى الفريقان فى

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣١ب.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠.

(3) Iorga : Notes & Extraits T11. p. 534.

(4) Iorga, Op. Cit. T11 p. 534.

تقتلني او ترد لي ديني فوقع له توقيع حسن الى
كافة الولاة بان يرد له دينه ولبس ثياب الر هبنة
وتظاهر بدين النصرانية واقام على ذالك زمانا الى
ان اتفق ان رجلا نصراني اسلم من اهل الصعيد
ثم ذكر دينه فندم فاخذ كفنه ووقف للملك
العادل قبل سفره الى دمشق وقال له ترد على
ديني كما رد ابنك الملك الكامل على الراهب دينه
ووقع له ان يعرضه احد، فلما سمع الملك العادل
فجدد اسلامه على يده واعاده الى حسبة منية غمر

---

١٤ من المحرم سنة ٧٩٢هـ ـ سنة ١٣٩٠م هزمت ميسرة الظاهر، وانسحب كمشبغا الحموى نائب حلب عائداً إلى بلاده، وعاد حسن الكجكني إلى الكرك. غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجيباً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة [١] حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجي والخليفة المتوكل والقضاة، واستحوذ على ما معهم من الخزائن والذخيرة التي وصفتها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة [٢]. وعمد الظاهر برقوق إلى دهائه المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش، إذ تلطف بالسلطان حاجي والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره. وحين رأى عسكر منطاش انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدءوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان برقوق، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك.

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق في اليوم التالي نحو دمشق التي فتحت أبوابها لمنطاش الذى تقهقر إليها ليحتمي بها. واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا القتال طيلة الليل،

---

(١) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠.
(٢) المقريزى : السلوك جـ٣ ص ٦١٣، ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

واقام فيها بعد سفرة السلطان زمانا ثم حضر الى
الملك الكامل وقال ان الرهبان حفرو بير في ديرا
بومقار فوجدو فيها مطلب واواني ومصاغ كثير
وكانو الرهبان جابو بنآ مسلم بنا لهم البير وهو
الذي حفره وكان قصد الراهب يوحنا ان ياخذ
الملك الكامل جميع اواني الديارات اذا تم اخذ
اواني دير ابو مقار فاظهر السيد المسيح فضايل
القديس ابو مقار ودر[ء] هذا الفاجر عن محبيه

---

ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكتل من الثلج على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها [1].

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشبغا الحموي نائب حلب، وبعد أن استولى إينال اليوسفي على قلعة صفد، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الهرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم ينهبون البضائع من بعض السوقة [2]، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من المعدات ما يكفي لحصار دمشق فإنه تقهقر إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف.

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام في شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاه وعرض كتاباً من السلطان حاجي ذكر فيه رغبته في التخلي عن السلطنة لعجزه عنها [3]. وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجي بخلع نفسه من السلطنة، وحكم بذلك القضاة ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة [4]. وبعد هذه البيعة التي

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.
(٢) كرد علي : خطط الشام جـ٢ ص ١٦٦.
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٤) ابن أبي السرور: النزهة الزهية ورقه ١٦أ.

وقديسيه حقيرا مهانا لم يظفر بمقصوده وذالك انه
قال للملك الكامل انه مطلب من عهد الروم
وكان قوله ذالك تدبير من الله لتكذيبه وسبب
السلامة فندب الملك الكامل معه ثلثة من المماليك
ومعهم شهود وساروا الى الدير فى جماعة كبيرة
ولم يكن الفاجر يعرف موضع الاوانى لانها مخفية
تحت الارض لايعرف موضعها الامقدم الدير او
رجل اخر من ثقات الشيوخ فمسك يوحنا جماعة

---

عرفت ببيعة شقحب[1]. خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة، ونودى بذلك فى العسكر.

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل، ولهذا رأى السلطان برقوق أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التى أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة وذلك لعدة عوامل: أولها: أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعير [2]، وثانيهما أن الأحوال الاقتصادية فى سوريا ساءت حتى عدمت الأقوات وغلا ثمنها حتى بيعت البقسماطة بخمسة دراهم، وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة مانهب[3] وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار مماليك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعامة مملوكة الأمير بطا الظاهرى وعددهم نحن ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم مماليك يلبغا الناصرى رغبة فى الأنتقام لأستاذهم. واتجه الثوار إلى سجون القاهرة التى أودع فيها منطاش عدداً كبيراً

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٦٩.

(2) Iorga: Op. Cit. T11, p. 535.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٩.
العينى: عقد الجمان : جـ٢٤ قسم ٢ ورقه ٣٨٥.

من الرهبان كان فى قلبه منهم حسد فعاقبهم فلما
علم مقدم الدير ان توانا [توانى] فى اظهار الاوانى
تسلط على الرهبان بالعقوبة واخرجهم من اديانهم
بادر وحضر بين يدى الشهود قال لهم وللاجناد
الذى معهم ان هذا الرجل نقل للسلطان الكذب
وغير الحق ظنا منه ان يوافقه على ظلمه وليس
عندنا من الاوانى الا كاس فضة و صنية فضة وستر
حرير نكسى به الهيكل وقت القربان وجميعهم

---

من الجراكسة فأخرجوا من فيها، ثم سار الثوار إلى بيوت الأمراء المنطاشية ونهبوها [(١)]. وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطاني، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته [(٢)].

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطيه أن يحفظ الطرقات، تقدم بمن معه من المماليك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التى فشلت فيها الدعايات السيئة التى بثها ضده ابن الكورانى والى القاهرة، إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة فى مقاومة أنصار منطاش ووالى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء [(٣)]. ويعجب ابن تغرى بردى من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة فى أمن من الزعر وفسادهم [(٤)]. ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهرى بعد أن قبض على ابن الكورانى، وصفده بقيد من حديد، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلى والياً على القاهرة. وأسرع

---

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠١.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٢ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ٣٧٥.

برسم القربان اهتمو بهم النصارى وانقذوهم وكل
واحد منهم اسمه مكتوب على ما عمله. فقالو له
الشهود اذا صح ما قتله فان الملك الكامل عادل
خلد الله ملكه ومن عدله ان لاياخذ منها شيا
فطيب قلبك وقلوب اصحابك واحضرها حتى
نرها ونعرف ان خصمك كذب فيما حكاه عنكم
اذا قرى ما عليها من المكتوب. وكان هذا بتدبير
الله جرى فقام مقدم الدير بين يدى الشهود وفتح

---

الوالى الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق [1]. وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته، فإن بطا قضى على ما بقى من مقاومة الترك الأشرفية، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة، وسقطت القلعة في يده فتمكن بطا من إعادة مقررات المماليك الجراكسة من الحكم وغيره مما كان مقرراً للمماليك الترك [2]. وبدأ بطا فى إقامة الكثير من الاستحكامات حتى بلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد فى نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة [3].

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر فى العاشر من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م فأمر بطا الظاهرى بدق البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه [4]. فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولمن معه [5].

---

(١) المرجع السابق ورقه ١٣٣أ، ب.
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢ .
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣١.
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٤ .
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

الموضع واخرج الاوانى فاثبتوها الشهود جميعا فى الاوراق وحملوها الى القاهرة واحضروها بين يدى الملك الكامل فقراها جميعها وكان جملتها ساقية لطيفة بلور صنعة عجيبة وشبكة لولو فاحضر الملك عرفا الصاغة والبرازين وقومو المصاغ والستور الحرير وجميع الانية فذكر من حضوانها قومت بثلثة الف دينار على حكم الاختصار وربما تميز بازيد من ذالك فاحضر الملك الكامل البطرك انبا

---

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى تودى بزينة القاهرة وبلغ سرور الناس أشدة حتى تنافسوا فى إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجاً للقائه فرحين «مقدرين فيه عقله وتثبته» [1]. وليس من شك فى أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق ويلبغا الناصرى، ومنطاش. وظهر واضحاً انهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الآخيرين، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظراً لسياسته الشعبية.

ويصور لنا المقريزى استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس تصويراً حياً وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول: «فى ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها، والعساكر بلبوسها الحربية، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، ومعهم شموع كثيرة مشعلة [2]، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شئ زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقوه وأحاطوا به. وقد فرشت الشقق بالحرير من الترب إلى باب السلسلة، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال لتواضعه مع المنصور فى حالة غلبته

(١) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٥.
(٢) راجع كذلك يوساب: تاريخ البطاركة ورقة ٣٩.

يوانس [يوحنا] فسلم له جميع الاوانى بعد ان
قال: ابصرو رجلا نصراني واسلم واخذ دين
الاسلام بقبول وهو مشهور فيه بثقة وديانة وامانة
يقرا لنا ما هو مكتوب على هذه الاوانى. فاحضرو
رجلا من اهل الاسكندرية اسمه بطرس ابن يوحنا
كان شماسا ببيعة السيدة بها واسلم فقرى للملك
الكامل القبطى الذى على الكاسات والصوانى
والصلبان والملاعق اسم كل من عمل شيأ عليه

---

وقهره له، وأنه معه أسير، وعد هذا من فضائله. وصارت القبة والطير أيضاً على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما، وقضاة القضاة بين يدى الخليفة، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد، وكانت العادة أن الشقق لجمدارية السلطان، ولكنه قصد بذلك التحبب للعامة، فإنه صاحب كيد ودهاء، وكذلك لما نثر عليه الذهب والفضة تناهبه العامة، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور، وهو راكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأنزله. فحسن هذا منه إلى الغاية. وأخذ فى المبالغة فى تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه [1]».

ومما ذكره المقريزى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة فى إكرام السلطان حاجي ليتظاهر بمدى زهده فى السلطنة، ولتنكشف أمامه اتجاهات الناس نحو سلطنته، حتى إذ تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم فى الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة.

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣٨ ـ ٦٣٥.

فعجب الملك الكامل من ذالك وامر ان يستحلف
بثلثة شيوخ من الرهبان ان هذه الانية لم توجد في
بير فحملو واحضرو البنآ الذى حفر لهم البير
وبناها وكان رجلا مسلم فشهد بين يدى السلطان
انه الذى حفر البير وبناها ولم يكن فيها شيا.
فصدقة السلطان، فعند ذالك قال الحكيم ابو
شاكر للملك الكامل يامولانا قد كان رفع للملك
الناصر صلاح الدين رحمه الله فى هذه الانية

---

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة ـ ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذره من الترك، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطاني، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال [١]. ثم أخذ السلطان برقوق فى تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية فى الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهرى دويدار كبيراً وإينال اليوسفى أتابكا للعساكر [٢].

## استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك ـ الصلح بين برقوق ويلبغا الناصرى ـ بقاء قوة الترك فى دمشق واستعانتهم بالعربان ـ قضاء يلبغا على معظم المماليك الترك. عودة الخصام بين يلبغا الناصرى وبرقوق ـ محاولة يلبغا الناصرى انقاذ منطاش ـ ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١م ـ القبض على يلبغا الناصرى وقتله ـ فرار منطاش ـ عودة برقوق الى القاهرة ـ تطهير القاهرة من الترك ـ القبض على منطاش وقتله ـ مطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة ـ محاولة العربان اقامة الشريف العنابى سلطانا سنة ١٣٩٤م ـ موقف السلطان برقوق من

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣٣ب.
(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٣.

واحضرها وعلم كذب الرافع واعادها الى ديرها.
فعند ذالك اعادها الملك الكامل وامر بتسليمها
للبطرك فاخذها وجعلها فى اطباق على رووس
الحمالين واشترى شمع كثير ودار بها جميع شوارع
القاهرة واسواقها والنصارى تصرخ بالدعا
للسلطان وكان يوم مشهور عظيم جدا وصعب
على الشامتين بمصر دوران الصلبان فى اسواقها
وشوارعها ولكن لم يجسر احد يتكلم ولايمد يده

---

باقي التمردات العربية ـ فشل مبدأ وراثة العرش في دولة المماليك الثانية ـ الصبغة الجديدة ـ التغيرات فى نظم الحكم والادارة.

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير ١٣٩٠م، وبدا على عادته سياسياً عاقلاً، متوخيا الحرص والتأنى فى كثير من أموره السياسية ولاسيما فى علاقاته مع أعدائه، فهو أراد بناء دولة جديدة معتمداً على العصبية الجركسية. ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية التركية التى حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء، كما أن العصبية العربية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها ممثلة فى عدد كبير من القبائل العربية التى اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة للحكم. وتحمست هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة، ولذا عمل السلطان برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابه مع هاتين العصبيتين، وذلك حتى يضمن الاستقرار لدولته.

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومحاربة الإشاعات المسببة للفرقة والانقسام فى صفوف مماليكه، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان [1]، على حين أمر بالعفو عن

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.

من هيبة الملك الكامل خلد الله ايامه. وبعد ذالك
جا راهب آخرمن دير ابو مقار من قلاية سقيط
وقف للملك الكامل وكان اسمه عبد المسيح
المصور كتب له رقعة فى حق البطرك يقول فيها ان
البطرك فى كل سنه يحمل اليه مال كثير من
الاساقفة وقد كانو البطاركة الذى قبله جرت
عادتهم ان ينفقو فى مراكب الاصطول من اموالهم
فاخذ القاضى الاعز صاحب الديوان الرقعة منه

---

الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش، مع تحديد أماكن إقامتهم [١]. ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة، بل إن الأحوال الداخلية اضطرته إليها، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢هـ يناير سنة ١٣٩٠م ــ وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق، وتحريضه لقطلوبغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه ـ ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصالحه، ثم عينه أمير سلاح والطنبغا الجوبانى اليلبغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء [٢]. وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلبغاوية فى مناصبهم كسباً لودهم، حتى إذا انتظمت أموره فى العاصمة استغل عداءهم لمنطاش فى القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرفية الترك.

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة فى القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلبغاوية، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم فى القتال فى سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرفية. ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلبغاوية بإقطاعات فى

---

(١) السلامى: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٦.

اعرضها على الملك الكامل فقال للقاضى الاعز ياقاضى اذا كان غيرنا ظالما ما نكون نحن مثله دع هذا الراهب يمضى الى ديره حتى نطلبه فخرج اليه القاضى الاعز وقال له ما قاله الملك الكامل فمضى بوجه مخزى وحرس الله الاب البطرك من كيده. وجرى فى ايام حياة هذا الاب من الامور الصعبة الحروب والغلا والجلا ما قدمنا ذكره ولو ذكرنا ما جرى فى ايام رياسته بجميع الديارات

---

سورية [1]، ثم جعل الطنبغا الجوبانى نائباً لدمشق، والأمير قرادمرداش الأحمدى اليلبغاوى نائبا لطرابلس [2]، وبعثهما على رأس التجريدة، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعاً، وجعل مرجع الأمور كلها إليه، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله «هوغريمك، اعرف كيف تقاتله» [3].

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية فى ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٠م ـ بدأ الحظ فى جانب السلطان برقوق؛ إذ خرج على منطاش حليفه قطلوبغا الصفوى، وحضر إلى مصر طائعاً، وجعل هذا العمل منطاش يشك فى نيات أتباعه، فقبض على عدد منهم وسجنهم، مما دفع بعض المماليك الأشرفية إلى تركه والهروب إلى مصر للانضمام إلى جانب السلطان [4]. وبدا جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من ستمائة فارس، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التى قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش [5]، وتوجه إلى بلدة النبك ـ بين

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٤ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، المجلد الثانى ورقه ١٥أ.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٥٥.

المصرية لم نبلغ ذالك ولاوصلنا اليه وانما ضمنا
هذه السيرة ما نقلناه ممن تقدمنا من ا سلافنا وما
وصل الى علمنا بسماع الاخبار من ثقات شيوخنا
الى مدينة المحلة بحكم سكننا فيها ومقامنا بها وقد
نشر غيرنا من اخوتنا المومنين المقيمين بالقاهرة
ومصر مما شاهده حقا وعلموه يقينا. ثم تنيح الاب
المغبوط انبا يوانس المذكور يوم الجمعة السادس
عشر من شهر رمضان سنة اثنى عشر وستماية

---

دمشق وحمص [1] ــ فتمكن الأمير إيتمش البجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من الجراكسة. ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش، إذ دخلوا دمشق دون قتال فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ــ أبريل سنة ١٣٩٠.

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجى صدى كبيراً فى القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر، وأنفق أموالاً كثيرة فى الناس، الذين شغلوا بالتسابق فى إقامة الزينات [2].

ثم نجحت عساكر السلطان برقوق فى كسب جولة أخرى فى سورية وذلك حين انتصر الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفى الذى استعان بأهل بانقوسا [3]، وحاصر كمشبغا فى قلعة حلب فأسرع كمشبغا ونقب القلعة وقاتل الأشرفية بالمكاحل من النقب حتى ضعف أمرهم، وقبض كمشبغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا [4].

---

(١) راجع : معجم البلدان جـ٨ ص ٢٤٧.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٤٤.
(٣) كرد على: خطط الشام جـ٢ ص ١٦٧.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ص ٣٩٨.

الموافق للتانى عشر من طوبة سنة اتنين وتلتين وتسع مايـة للشهداء الاطهار صلواته تحفظنا امين.
وكان هذا الاب البطرك قد سمع وهو حى ان انبا زخارياس البطرك لما تنيح أمر أن يدفن جسده المقدس فى الحبس تحت قبر زخارياس البطرك [البطرك ٦٤] فدفن فى مقبرة الحبس بمصر وهما فيها الى يوم تسطير هذه السيرة والسلام والمجد لله دايما ابديا سرمديا امين.

***

---

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربى نعير بن حيار أميرا آل فضل، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصرى. فخرج يلبغا الناصرى والطنبغا الجوبانى من دمشق إلى سلمية، وترك بدمشق الأمير إيتمش البجاسى مع الحامية الجركسية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية. غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية الجركسية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة، وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق. ولما كان يلبغا الناصرى حريصا على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه، فإنه ما كاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع فى طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الابغا العثمانى، حاجب حجاب دمشق، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً وأفنى عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق [1].

وبعد أن أعاد الأمير يلبغا الناصرى الأمن إلى نصابه فى دمشق عاد إلى سلمية [2]. فى رجب سنة ٧٩٢هـ ـ مايو سنة ١٣٩٠م ـ، واجتمع بباقى النواب لرسم خطة قتال منطاش وحليفه نعير. واتفق فى هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى يلبغا الناصرى

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٥ب.
(٢) سلمية بليدة من أعمال حماه. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ حاشية ١ ص ١٥.

نبتدى بمعونته وحسن تاييده بشرح ماجرى على اقليم مصر(*) وما اصاب الشعوب المومنين بالمسيح المقيمين فيه من برج دمياط الى برج اسوان بعد وفات الاب المغبوط البكر الطاهر انبا يوانس البطرك نيح الله نفسه مع الابرار

انا اذكر ما وصل الى علمى فى المواضع الذى انتهى اليها فى هذه السير ة ومدة مقام الكرسى بغير بطرك كما تنبا بذالك يوانس. ولما طال الزمن خفت ان اموت ولم اشرح ذالك وقد امهلنى الله

(*) الاحداث التاريخية فى الفترة من عام ١٢١٦م، وهى سنة وفاة البطرك ٧٤ يوانس (يوحنا)، وفترة من حكم الملك الكامل الأيوبى ومن أتى بعده، حتى عام ١٢٣٥م وهى السنة التى تولى فيها البطرك ٧٥ كيرلس (ابن لقلق) وهى حوالى ١٩ سنة ونصف، تمثل نهاية الحكم الأيوبى بمصر.

---

قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعير بن حيار، وأن يقوم الأميران قرادمرداش الأحمدى نائب طرابلس ، والطنبغا الجوبانى نائب دمشق، بقيادة الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش.

وحين بدأ القتال فى شعبان سنة ٧٩٢هـ ـ يونيه سنة ١٣٩٠م ـ استطاع يلبغا الناصرى أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعيربن حيار، أما قرادمرداش فإنه اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق بين مماليك منطاش وبين الفرقة التى قادها الجوبانى. ورغم انتصار الجوبانى فى بادى الأمر، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوبانى نفسه. وتأثر جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطر الناصرى إلى التقهقر بجيش السلطان إلى دمشق ليصلح أمره [١].

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر ما تحمس فى نفسه لنجاح فكرته، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من الأجناد الترك. فاستدعى عدداً كبيراً من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا الناصرى. واستطاع

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٤٩.

حتى سمعته وعلمت وابصرة فاكون كانى قد
منعت [منحت] نفسى تذكار رحمة الله وبخلت
على غيرى بها فقدمت خيرة الله وسالته المعونة لى
على ذالك متكل على عفوه واثق بلطفه انه على
كل شى قادر. وقد كنت ذكرة [ذكرت] فى اخر
سيرة انبا يوانس [يوحنا] البطرك [رقم ٧٤] انه
تنيح يوم الجمعة الثانى عشر من طوبه سنة تسع
ماية اثنين وثلثين للشهدا الاطهار الموافق للسادس

---

يلبغا أن يخرج بهم من دمشق فى نهاية شعبان سنة ٧٩٢هـ ـ يونيه سنة ١٣٩٠م ـ وأن يهاجم عرب آل على ـ على مقربة من دمشق ـ وقتل نحو مائتين منهم، ونهب بيوتهم وجمالهم، ثم عاد سريعا إلى دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به منطاش [١].

وأدى هذا الانتصار مع توالى الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعير طاعته للسلطان وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان، ولم يتأخر السلطان برقوق فى إجابته إلى ما طلب، وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته [٢].

ولا شك أن منطاش فقد بخروج نعير جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه، إذ أصبح لا يخشى عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك، ولذا اضطر منطاش إلى الارتماء فى أحضان سولى بن دلغادر التركمانى وطلب معاونته [٣].

وفى ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣هـ ـ يناير سنة ١٣٩١م ـ لجأ يلبغا الناصرى إلى حيلة للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية. إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعدائه للأمير

(١) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ و رقه ٤٠٦.

عــشــر من رمــضــان سنة اثنى عــشــر وستمـاية[١٢١٥م] وابتـديت انا فى كـتـابة هذه السـيرة يوم الاثنين السـابع عـشـر من برموده سنة سبع وثلثين وتسع ماية الموافق للشامن عـشـر من صفر سنة ثمان عشر وستماية [١٢٢١م] يكون مـقـام الكرسى خـال بغيـر بطرك الى هذا التـاريخ خمس سنين وثلثة اشهر وما زاد على ذالك يضاف اليه عند قسمة البطرك. كان والذى بلغنى ممن كان

---

إيتمش البجاسي وللحامية الجركسية، ونادى بدمشق «من كان من جهة منطاش فليحضر» وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان، فانضم إليه نحو ألف ومائتى فارس منهم، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم [١]، ثم خلع عدة الحرب وكتب بذلك إلى السلطان الذى أجابه بالشكر والثناء [٢].

على أن منطاش لم ييئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه ، بل استعان بعدد كبير من عامة دمشق فى مناوءة يلبغا الناصرى، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب. ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش [٣]. ونتج عن هذه الهزائم المتلاحقة خروج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى مصر طائعين [٤]. وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء، بل إنه خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذى حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية [٥].

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٦.
(٢) ا بن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٧ .
(٣) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق:
راجع المقريزى: جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ورقة ٤٤ب.
(٤) ا بن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٧ .
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٤.

حاضر عند انبا يوانس يوم نياحه من شيوخ مصر قبل موته بيوم واحد انه غشي عليه نحو ثلثة ساعات ثم فتح عيناه وتحدث مع الحاضرين عنده وسالهم عن منصور تلميذه وكان مر يضا فقالو له مات فقال: كفنوه وادفنوه فانا اغدا اكون عنده. ثم غشي عليه دفعة ثانية ثم فتح عينيه وقال للحاضرين عنده: يكون بينكم بعدى خلاف عظيم فيمن تقيموه ويكون الكرسى بلا بطرك زمانا

---

ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت فى القضاء على أكثر المماليك الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم فى هذه المعارك المتصلة، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية، إلا أنه انقلب فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجئوا إليه، وعفا عنهم من وقت قصير، فى الوقت نفسه الذى قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوبانى الذين عادوا إليه بعد قتل أستاذهم فى المعركة التى دارت خارج دمشق فى شعبان سنة ٧٩٢هـ [١] وجعل هذا الانقلاب المفاجئ الأمير يلبغا الناصرى يفهم نيات السلطان، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء !!؟ وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركى وأنه لاشك عازم على التخلص من باقى اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية. ولذا انقلب يلبغا الناصرى بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية فى سورية، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد عدم مقابلته فى معركة حاسمة، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر [٢].

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣١٧ ـ ١٨.

طويلا حتى يقيم لكم المسيح رجل ياتى به من حيث لاتعرفون وتكون ايامه هادية وروح الله تكون فيه. ثم تنيح ثانى يوم ودفن فى الحبس بمصر الى جانب قبر زخارياس البطرك. وبقى الكرسى خال بغير بطرك من يوم نياحته الى يوم تسطير هذه السيرة كما تقدم القول وكان ذالك بامر الله كما تنبا به عليه الاب انبا يوانس بروح القدس المتكلم من فاه الطاهر. ونشرح ها هنا

---

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصرى اتفق فعلاً مع منطاش، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق، وأنه لن يقف فى طريقه على أن يظل هذا الأمر سراً بينهما؛ فعاد منطاش من مرعش فى أول رجب سنة ٧٩٣هـ ـ يوليو سنة ١٣٩١م ـ وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس[١]. ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعلبك واستولى عليهما، وفر نائب بعلبك إلى دمشق حيث أخبر الناصرى بزحف منطاش على دمشق[٢]. وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصرى للقاء منطاش من الطريق الذى سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبدانى[٣]. وبذا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذى تقدم إليها بمعاونة بعض من عامة دمشق الذين فتحوا له باباً من وراء الجبل، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرفية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها[٤]. ثم تمكن منطاش فى النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق، ونزل أمراؤه فى البيوت المجاورة للقصر الأبلق،واحتل باقى أتباعه جوامع المدينة.

وهكذا مكن يلبغا الناصرى منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٥٥.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٦٦.
(٣) الزبدانى قرية بين دمشق وبعلبك راجع ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٧٤.
(٤) كرد على: خطط الشام جـ٢ ص ١٦٨.

ماجرى من الخلف بين المصريين فى من يقيموه
بطركا ممن يصلح كامل الاوصاف والشروط الذى
يشهد عليه بها قانون البطركيه اولها أن يكون بتولا
لايعرف له صبوة ولا يشهد عليه بخلطة، مشهودا
له بالعفة والديانة وكثرة الامانة والعلم والاتضاع،
قد قرى [الكتب] العتيقة والحديثة. وكانو
مجتهدين فى طلب من هذه صفته وكانة ديار
مصر فى مملكة الغز والملك عليها الملك العادل ابو

---

الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق. ولكى يدارى يلبغا الناصرى موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق. ورغم أنه حاصر القصر الأبلق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار[1]، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصرى للحضور واستلامه، ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ، وزينت له فإن يلبغا الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه [2].

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش، وليشترك بنفسه فى الصراع الدائر [3].

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة، بعد أن أطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عدد كبير من المماليك الترك. ويبدو أن الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل، حتى أمر السلطان برقوق أن «ينادى فى القاهرة ومصر

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٨.

بكر ابن ايوب وكان فى ملكه ديار مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله ومن خلف نهر الفراة [الفرات] حران والرها ونصيبين ومنبج وآمد وميا فارقين وكل اعمالهم، وكان اولاده كثير، فدفع ملك ارض مصر لولده الكامل واسمه محمد، ودفع دمشق والبيت المقدس لولده المعظم واسمه عيسى الكريدى، ودفع خلاط لولده الاشرف موسى، وفرق المدن التى تضاف اليهم على بقية

---

ألا يركب أحد من المتعممين فرساً سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص فقط، ومن عداهم يركب البغال، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه [1]».

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى، ووضح أمام السلطان برقوق خطر بقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ، وولى بدلاً منهم من مقدمى الحلقة الجراكسة [2]. ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين بالقاهرة، وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء [3] وفى ٢٦ من شعبان سنة ٧٩٣هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ـ أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش [4]. وعهد السلطان إلى الأمير كمشبغا الحموى بنيابة الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وما كاد السلطان برقوق يرحل على القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية [5]، وشدة متناهية قصد بها

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٥ .

(٥) من هذه الأحكام القاسية أن كمشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٧٩٣هـ بمنع النساء فى يوم العيد من الذهاب إلى المقابر، وأن من خرجت وسطت هى والمكارى، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب، =

اولاده. وقيل عنه ان له عشرين ولد. ودفع اليمن لاقسيس ولد ولده الملك الكامل ثم مات بعد ان رتب الامور وسنذكر ذالك في موضعه ان بلغنا الانتها[ء] اليه. وكان الملك الكامل ملك مصر قد خرج من القاهرة يريد الفرجة والصيد فعدى الى الغربية وسار فيها يريد الاسكندرية فعدى بحر ابيار فراى صومعة الحبيس الذى هناك فوقف تحتها وصاح له فكلمه من فوقها ودعا له، فشكا له وجع

---

إنزال الرعب في نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لا تحدث نفسها بالثورة. وبلغت شدة الأمير كمشبغا درجة لم يجسر معها أحد في مدة حكمه أن يحمل سلاحاً.

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق في ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣هـ سبتمبر سنة ١٣٩١م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصرى فإنه أخفى مافى نفسه على من معه، بل إنه أعلن في دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم، وصار لهذا العفو أكبر الأثر في كسب عدد كبير من عامة دمشق [١].

وفي الثاني من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بحمص وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش [٢]، الذى فر إلى سالم الدوكارى التركماني. ولاشك أن وجود السلطان برقوق في حلب كان له أكبر الأثر في إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على

---

= وألا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مبالغة النساء في سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً. ولم يجسر أحد على مخالفة كمشبغا. راجع العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٢٣.

(١)المقريزى : السلوك جـ٣ ص ٦٧٢.

(2) Ioga: Notes & Extraits T 11 p. 535.

في فواده فصلى له على زيت طيب ودفعه له وقال
له اذا دهنت موضع الوجع والله الشافى. فدهن به
الوجع فبرى لوقته فوهبه شي من يده وصار له في
قلبه مودة. ثم عاد إلى القاهرة فوجد رجل من
اولاد القبط اسمه ابو الفتوح ونعته نشو الخلافة
يعرف بابن المقياظ قداستخدمه الملك العادل في
ديوان الجيوش فقربه منه وكان يصدق بكلما
يملكه ولايدخر شيا ويعمل خيرا مع كلمن يقصده

---

جماعة من المماليك الترك الأشرفية، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته(١). كما أرسل إليه سالم الدوكارى بخبره أن الأمير منطاش في قبضته وأنه ينتظر من يسلمه. واعتقد السلطان برقوق أن سالما مخلص فى قوله، فأرسل إليه الأمير قرادمرداش مع عدد من العسكر لإحضار منطاش. غير أن سالما الدوكارى عاد واتفق مع يلبغا الناصرى على الإبقاء على منطاش فماطل قرادمرداش عدة أيام (٢)، حتى أن قرادمرداش حين تحقق أن سالما الدوكارى لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٣). وإذ عرف السلطان برقوق بمماطلة سالم الدوكارى، أرسل إلى يلبغا الناصرى يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له. ثم إن بعض الأخبار التى نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قرادمرداش بسالم الدوكارى سل سيفه وأراد قتل قرادمرداش لولا تدخل الأمراء (٤).

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق مما أشيع عن اتفاق الناصرى مع

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.

(٢) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٦أ.

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧٠ ـ سنجار مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ـ راجع ياقوت: معجم البلدان ص ١٤٤.

(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.

من النصـاره والمسلمين وجـمـيع الناس ولم يكن متزوج قط وهو كامل بكل عمل حسن فأوى اليه رجل قس اسمه داوود ويعرف بابن لقلق(*) مـن اهل الفيـوم وهو خـيـرا عـالما قـد قـرى [الكتب] العتيقة والحديث وجادل مخالفى دينه وظهر عليهم فصـار لنشـو الخلافـة ابو الفـتـوح كـالمعلم. وكـان يقول بالاعتراف فمال ابو الفتوح اليه فاتصل خبره بالاب انبا يوانس فى حياته وكان يكره القس داوود

(*) ابن لقلق: اصبح فيما بعد البطرك رقم ٧٥ للكنيسة القبطية سنة ٩٥١ للشهداء = ١٢٣٥م. واقام بطركاً مدة سبع سنوات وتسعة شهور. وتوفي يوم الثلاثاء ١٤ برمهات ٩٥٩ للشهدا ١٢٤٣م.

---

منطاش، وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصرى من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش، كما تحقق السلطان مما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا، وأن يلبغا تخاذل فى القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق [١]. كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتمعا فى هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط [٢]. وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش فى كل ليلة بما يأمر به، وأن سالما الدوكارى لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصرى [٣]. وأكثر من هذا فإن قرادمرداش عثر عند سالم الدوكارى على خطاب من يلبغا الناصرى جاء فيه «خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجوداً فنحن موجودين» [٤] وتحركت عند السلطان برقوق الكمائن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحبسه بالكرك، وما تسبب فيه من الفتن. ولم يجد السلطان برقوق مجالا للشك فى نيات يلبغا حتى سأل إيتمش الذى أرسله لتتبع الأشرفية عن سبب عودته فجأة، فأبلغه أن يلبغا الناصرى هو الذى أرسل إليه كتاباً

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧١.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩أ.
(٤) ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

وكره ابو الفتوح من اجل انه مقيم عنده ومات
وهو غير راضي عليهما وكان لما مات مطران
الحبشة في حياة انبا يو انس وجا رسولهم يطلب
قسمة مطران فسمع القس داوود بذلك فحمل
للملك العادل مايتى دينار على انه يأمر البطرك ان
يقسمه مطران للحبشة فسير السلطان رسول
للبطرك يامره ان يقسمه للحبشة فقال البطرك
لرسول السلطان قول لمولانا السلطان ان هذا ما

---

ليعود سريعاً إلى دمشق [1]. ولهذا انتظر السلطان برقوق فى حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصرى يعلن فشله فى مهمته فقبض عليه وعلى أمير أخورة ورأس نوبته، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ (نوفمبر سنة ١٣٩١م) [2].

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصرى يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة، ولو لم يكن أكثر اليلبغاوية قتلوا فى هذه المعارك، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك، والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيراً على يلبغا الناصرى مع أنه تسبب فى كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة [3] ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرفية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم فى هذه الحروب، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش.

وفى ١٧ من المحرم سنة ٧٩٤هـ ـ يناير سنة ١٣٩٢م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة التى استقبلته استقبالا رائعاً إذ «تلقاه المسلمون بالختمات الشريفة واليهود بالتوراة والنصارى

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٦ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ورقة ٤٣٦.

يصلح لان امانته بالله فاسدة لانه يقول فى الله ما تقوله الروم فان مضى الى بلاد الحبشة افسدهم جعلهم روم ويخرجو عن طاعتى وطاعة السلطان وربما حملهم على محاربة المسلمين الذين هم مجاوريهم(*) فى البلاد ويسفك بينهم دما كثير ويكون ذالك فى ذمة السلطان وانا وشعبى براآمنه. فعاد الرسول الى السلطان واعلمه بما قاله البطرك فلم يكلفه ولاجبره على قسمته. وابطل الله امره

(*) هذا سبب من اسباب تمسك الحكام المسلمين فى مصر بالكنيسة المصرية، باعتبارها أحد مصادر قوتهم فى الحكم. ولعل تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية كان من أهم اسباب استقرار احوال مصر الجنوبية. ولقد سعت بيزنطه وروما والبرتغال وانجلترا للوقيعة بين الكنيسة المصرية واقباط الحبشة حتى يمكنهم الإنفراد بنفوذ خاص لدى ملوك الحبشة. وهذا

---

بالأناجيل والشموع الموقدة. وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس (١) واصطف الناس لرؤيته إلى أن طلع القلعة فى موكب جليل إلى الغاية (٢)».

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصرى هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم، فخلع الأمير استدمر الأشرفى من ولايته فى نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولى مكانه واحداً من مماليكه(٣). ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة (٤)، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة. ومن هؤلاء الذين ارتقوا فى هذه الحركة ايتمش البجاسى الذى أصبح رأس نوبة الأمراء. ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكة الأمير تنبك الحسنى الظاهرى المعروف بتنم نائباً لدمشق، بعد أن توالى عليها نواب من الترك اليلبغاوية (٥)

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٩٥.
(٢) ا بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩.
(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٨.

ما جعل الحكام المسلمين في مصر يخطبون ودّ الاقباط المصريين في بعض الاحيان.

وشاع عليه ما حمله. وقالو قوم ان السلطان رده عليه بسوال نشو الخلافة ومساعدة فخر الدين عثمان، وللوقت اقسم البطرك مطران غيره للحبشة وسيره مع رسول الملك اليهم فلما تنيح الاب البطرك انبا يوانس اراد نشو الخلافة ابو الفتوح ابن ميقاظ ان يساعد القس داوود عند السلطان والشعب وان يقسمه بطركا وشرع في ذالك واجتمع بجماعة من الكتاب المصريين

---

غير أن الأحوال في سورية عادت إلى الاضطراب في شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م ـ بسبب عودة منطاش إلى مزاولة نشاطه المعادى للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه ـ بعد أن اتفق مع نعير بن حيار الذى حنث بعهده الأخير مع السلطان، مع ابن بزدغان التركماني وهاجم الجميع سلمية. غير أن الأمير العربى محمد بن قاراً ـ الذى عين أميراً على آل فضل بدلا من نعير ـ استطاع بمعاونة التركمان الموالين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش وإلحاق الأذى به، كما قتل ابن بزدغان واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثناءه على جهوده في خدمة السلطنة المملوكية الثانية [١]. وكما فشل هجوم منطاش على سلمية في شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م، فشل هجومه بالاشتراك مع نعير على حماة في الشهر التالى بسبب مقاومة نائبها الأمير اقبغا الصغير . وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقنه أهلها درساً قاسياً، فاضطر إلى الفرار إلى العراق [٢].

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت في ٣ من رمضان سنة ٧٩٥هـ ـ سبتمبر سنة ١٣٩٣م على يد الأمير جلبان الكمشبغاوى الجركسي نائب حلب [٣] الذى استطاع الاتفاق

---

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٣٢.

(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقة ٤٠ب.

(3) Sauvaget, J: Noms et Surnoms Des Mamlouks, J. R. A. S. p. 47. Pais 1950.

وغيرهم في ان يقيمو القس داوود عليهم بطركا
فوافقه منهم اليسير وخالفه الكثير ولم يقدر ان
يجمعهم الكل على الرضا به ولاعلى راى واحد
فيه، فانفذ رسله الى كراسي الابا الاساقفة بالوجه
البحرى والى اسقف طمبدى [مركز مغاغه]
بالوجه القبلي وكان خيرا عالما فاجتمع منهم سبعة
اساقفة فاضافهم واكرمهم واوهبهم وطلب منهم
ان يكتبو خطوطهم في مسطور عمله له بانه
يصلح بطركا وكان فيهم اسقفين احدهم اسمه

---

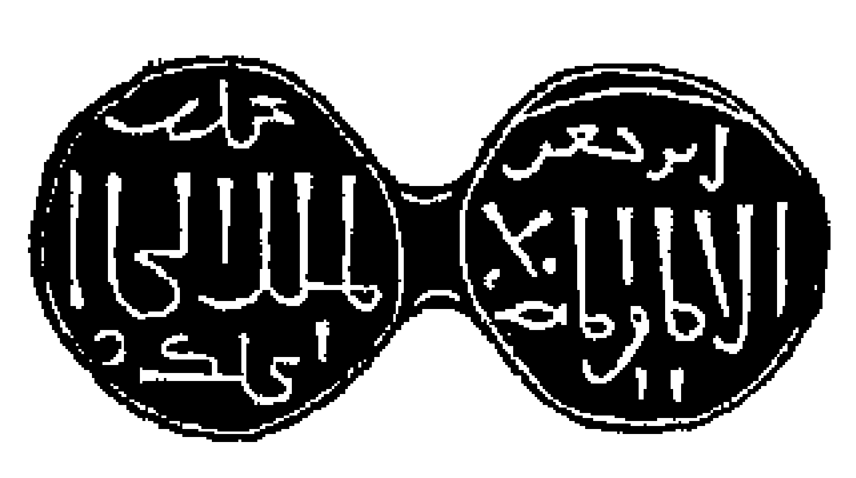
مع نعير بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتمى بنعير، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل. وأرسل الأمير جلبان شاد شربخانه في خمسة عشر مملوكاً، وندب نعير أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الهرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان [١].

وحين بلغ السلطان النبأ سر له سروراً عظيماً، وأنعم على جلبان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه «فوقانيا بطرز ذهب مزركش» ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جلبان بالخلع، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة في اليوم التالى زينة عظيمة، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله، غير أن منطاش لم يعترف بشئ، فذبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب، ثم أخذه وعاد به إلى القاهر، وبعد أن طاف به شوارعها علق الرأس على باب القلعة، ثم نقل ليعلق أياما أخرى على باب زويلة [٢].

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التى أثارها على الترك إزالة أهم عقبة

(١) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١١٨أ.

هديه اسقف دميره والبرمون والآخر اسمه اصطفن اسقف البنوان (مركز ميت غمر). دفع القس داوود له شي فكانا يقفا للسلطان اذا ركب يطلبوا منه ان يقسم لهم داوود بطرك، ويقولوا للسلطان قدكتبو له الاساقفة خطوطهم وجماعة الشعب انه يصلح بطركا وكان من سابق تدبير الله ما قدمت ذكره من امر حبيس ابيار مع الملك الكامل فلما سمعهم الملك الكامل يطلبو لهم بطركا قال لهم



* نقود الملك الكامل

---

اعترضته في سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية [١].

غير أنه ينبغي أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب، بل ضد الجراكسة كذلك، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسي من جيش برقوق في أيدى الترك فإنهم جردوه من ملابسه، ألقوه في السجن، والعكس حين وقع في أيديهم مملوك تركي من جيش برقوق فإنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراحه [٢].

ومن المشكلات الداخلية التي واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات العربان[٣]، فمع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعي كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين، نظراً لأنهم كانوا يشتركون في الجيش المملوكي بكتائب احتياطية، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن في البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة [٤]. وكانت العادة المملوكية

(١) راجع ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ١٠٤ وما بعدها.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٦٤.
(3) Piloti : I' Egypte An Commencement Du XV siecle, pp. 18 ` 19.
(4) Poliak : Les Revoltes Populaires PP. 256 ` 257.

انا آمر ان يكون حبيس ابيار بطرككم وانا ارضاه
لكم وكتب للوقت كتاب الى شمس الدين.....
ولوالي الغربية بان يمضى الى ابيار وينزل بالحبيس
من صومعته ويسيره الى القاهرة فانزله من
صومعته وسيره الى القاهرة فلما سمع نشو الخلافة
ابو الفتوح ذالك اتفق مع الامير فخر الدين عثمان
وزير الملك الكامل ان يقولو عنه للسلطان انه يسال
مولانا السلطان ان لايزعجوه ولاينزلوه من صو

---

القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منهم ويكتب له تقليداً سلطانيا بذلك ، ويلبس الأمير المعين «تشريفا أطلس» أسوة بأقرانه في الترتيب الإقطاعى [١].

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت تمردات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج . أما عربان الشام فإنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعهم ضده. ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هوارة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد [٢]، فإنهم لم يكفوا عن العصيان، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وامتد عصيانهم حتى نواحي أسوان وأذعنت لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادهم [٣]، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى.

على أن أهم تمردات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى تمرد الشريف جمال الدين محمود العنابى [٤] سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٤م - أى فى السنة الثانية عشرة لحكم

(١) القلقسندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٠٥.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب ص ٦٠.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٦٩.
(٤) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه=

معته فانفذو رسل ردوه بعد ان وصل الى قليوب
ففرحو اهل ابيار برجوعه لهم وطلعو به الى
صومعته فسمع بخبره رجل نصراني يعقوبى من
اهل القاهرة يعرف بالاسعد ابن صدقة ضامن دار
التفاح فغار لله كما غار فنحاس واخذ معه جماعة
من الناس ووقف للسلطان وعاند نشو الخلافة ابو
الفتوح في قسمة داوود وجعل عمدته [وجهته]
الملك الكامل وقال له عن داوود انه يصانع بالمال

---

السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين (١).

وسبب هذا التمرد أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك، وجاء في الكتاب أن الشريف العنابي اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه فى أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابي الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون فى الخطة.

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابى وقع فى يد على بن الطبلاوى والى

---

=بالكرك، وأفضى هذا الشريف إلى السلطان بأسرار صحت عنده فيما بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته، ورتب له فى كل شهر ألف درهم.

واجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٧٦.

(١) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شمايل بالقاهرة هو وأقاربه وإخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه.

واجع نفس المصدر المصدر والجزء والصفحة.

حـتى يتـقـدم علينا ومـا نرضـاه وقـد دفع للملك
العـادل مـالا كـثيـر حـتى يامـر البطرك ان يجـعله
مطران[و] مـا صـلح يحل الله لك تجـعله علينا
بطرك يفسـد ديانتنا ويجعل قبط ديار مصـركلهم
روم ويخـرجـهـا من ايدى المسلمين. فـانفـذ الملك
الكامل الى والى مصـر يقول له ان انت مكنت ابو
الفـتوح واصحابه يقيـمو لهم بطرك بغيـر امرى
شنقـتك. وبعـد ايام قليل خـرج الملك العـادل الى

---

القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق [١] وأسـرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابى وشريكه وعذبهـما ليقرا على من اشترك معهما فى المؤامرة، فلم يعترفا بشئ سوى أنهما استعانا بطائفة من مماليك بركة الترك.

والخلاصـة أن السـلطان برقـوق تخلص من هذه المؤامرة بأن ترك الشـريف جـمال الدين محمود العنابى وشريكه يقضيان نحبهما فى العذاب الأليم [٢].

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحى ببا، واستولى على نحو خمسين من جيادهم، كما قبل فى نفس الوقت عقد الصلح مع نعير بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعير إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ ودخل عند السلطان وفى رقبته منديل، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه فى إمرته [٣].

ثم عـاد عـرب هواره يهـددون السلطان برقـوق فى ربيع الآخر سنة ٧٨٩هـ ـ مارس سنة ١٣٩٦م ـ حين أرسل إليه على بن غريب أمير عرب هواره بمنع القود السنوى من العربان والخيل، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظى رأس نوبة، فقبض نوروز على على

---

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٦٦.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ١٠٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٨٤.

اسكندرية فاستاذنه ابو الفتوح فى قسمة داوود
فقال له اجعله بطرك والحقنى الى الاسكندرية
ولاتبطى فلما سمع القس داوود بذالك عمل
عكازين احدهما عليه صليب وموشى بذهب
والاخر موشا بخيوط فضة، وفصل ثياب وغفافير
حرير وهيآ ما يحتاجه لقسمته واخذه ابو الفتوح
مع الاساقفة وطلع الى مصر الى [كنيسة] المعلقة
يقسمه بطركا فاتصل خبره بوالى مصر فركب

---

بن غريب وأولاده وإخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم [١]. بيد أن عرب هواره حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قطلوبغا الطشتمرى نائب الوجه القبلى ، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا واليها إلى الفرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة، وإزاء هذا ولى السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلى بالإضافة إلى وظيفته فى ولاية منفلوط، وأمره بالتوجه إلى أسوان، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الشوار [٢].وظل العربان يناصبون السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقماعهم سنة ٨٠١هـ ـ سنة ١٣٩٩م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين [٣].

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربى دفعه إلى استخدام العرب بالجيش[٤]. ودليل هذا ماذكر عن استعانة برقوق بعرب هواره سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م[٥]، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية فى صد غارات تيمورلنك،

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ، المجلد الثاني ورقه ١٢٣أ.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ب.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٣ (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث سنة ٨٠١هـ.
(4)Paliak ; op . cit. p. 260.
(٥) راجع ماسبق بالفصل الثالث ص ٩٢ ـ ٩٣.

ومعه جماعة من اجناده واعوانه وجا الى كنيسة
المعلقة ونزل بهم انجس نزول واخرق بهم و هرب
داوود وخرجو الاساقفة من الكنيسة هاجين على
رووسهم من مصر الى كراسيهم وبطل امر داوود
الى يوم تسطيرة هذه السيرة على ما تقدم من
التاريخ وكهنة كل مكان يدبروه ولم يرجع نشو
الخلافة يتحدث في امر داوود ولاغيره. ونعود الى
تمام سيرة الملك العادل ابو بكر ابن ايوب ملك

---

حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة، وأسهمت باقى القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس [1].

وليس من شك فى أن قوة السلطان برقوق وتتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان.

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبية التركية، وحد من نفوذ العرب وواجه كل هذه الحروب والفتن فى شجاعة وقوة.

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التى صار لها أكبر الأثر فى تدعيم كيان دولته، ومن هذه الإصلاحات إبطال الكثير من المكوس التى كانت عبئاً كبيراً على الناس [2]. ثم إنه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحرى، هذا الجسر الذى عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين. وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التى أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية، وحتى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٢) راجع ما سبق بالفصل الثانى ص ٥٦.

ديار مصر وما معها، ولما كان يو م الاثنين النصف من جمادى الاخر سنة اربع عشر وستماية تواصلت له الاخبار ان ملك من ملوك الفرنج يقال له الهنكر (*) من جزيرت برشيلية وصل الى عكا فى ماية وستين بطسةو طريدة وانه نزل فى مرج عكا واعرض عسكره وكان عدته اربعة الف فارس وتسعين الف راجل فجمع الملك العادل عساكره وسار فى مصر ونزل على نابلس ونزل قريب من

(*) الهنكر: لعله الملك اندرو الثانى ملك المجر الذى وصل عكا فى سبتمبر ١٢١٧م.

---

تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية، أى ناحية الجيزة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس فى حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب. وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى الأمير جهاركس (جركس) الخليلى، أحد قواده المخلصين [1]. وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً فى عرض عشرين، وأصلح خزائن السلاح بثغر الاسكندرية، وسور مدينة دمنهور ليقيها من هجمات البدو. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو، كما عمر زاوية البرزخ بدمياط [2]، وقناة العروب بالقدس، وبنى بركة بطريق الحجاز إلى الحج. وجدد السلطان برقوق القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وزرع به بعض النباتات، وبنى صهريجاً للماء، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلا تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة [3]، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التى أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجرى، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر فى مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ص ٢٦٩ جـ٢ ـ المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبى النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان ـ راجع كذلك ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ١٦ ـ ١٧.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥.

الافرنج، واقام ايام في نابلس حتى كمل عسكره
وسـار الى عكا ونزل على الطور [طابور] في
مستهل رجب سنة تاريخة ثم وصلت الى عكا
بطس وطرايد اخر من ملوك اخر حتى امتلأ مرج
عكا ونزلو فيه بالخيم حتى ضاق بهم المرج وسمع
الملك العادل انهم يريدو يكبسوه في الليل فرحل
من الطور ونزل على انهار بيسان عند عين جالوت
لكثرت الما هناك وكان عسكره نازل نابلس الى

---

بعد[1] .ثم إن السلطان برقوق اهتم بالصوفية من أهل جنسه إذ افتتح مدرسته التى بناها بين القصرين فى أثناء سلطنته الأولى فى احتفال عظيم، وأوقف عليها الاوقاف الجليلة واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم الإسلامى [2]، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير ، ودرساً للحديث ، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها، الذين جمعهم من بنى جنسه، فى كل يوم الخبز واللحم، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدراهم والملابس والخدم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضى والدور ونحوها [3].

وفى شوال سنه ۸۰۱هـ ـ يونية سنة ۱۳۹۹م ـ مرض السلطان برقوق مرض الموت. وحين شعر بدنو أجله فى ١٤ من شوال، وخشى أن ينهار هذا البناء الذى كافح من أجله طويلا، فكر فى أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده، ولذا استدعى الخليفة المتوكل، والأمير ايتمش، وقاضى القضاة، وسائر الأمراء، وأجلس الخليفة عند رأسه، والقضاة الأربعة بين يديه،

---

(1) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٢) راجع السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٣) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣.

قصر معين الدين عند قنطرة اسامة. وانفذ ملك الهنكر يطلب من السلطان المصاف وقال الملك لرسوله قول له اذا خرج من عكا الى برآ عنها فانا اصافيه فاعاد رسوله عليه ما قاله السلطان فسار من يومه فلما قرب من عسكر المسلمين راى السلطان ما هاله من كثرت الفرسان والرجاله لان ملك الهنكر وملك عكا وصاحب جبلة وطرابلس ومن كان قد بقى فى الساحل من الملوك اتفقو

---

وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده بالسلطنة لأولاده من بعده، وهم فرج وعبدالعزيز وإبراهيم على التوالي، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد، وأن يستمر جميع الأمراء في وظائفهم حسب ترتيبه، وأن يكون ايتمش أتابكاً لصغر سن فرج. وفي ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ - ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م توفي السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة [١].

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق. ذلك الرجل الذى امتاز بهذه العقلية الفذة في وسط مملوكى طغى عليه الضعف والجهل فى آن واحد. تحدث عنه العينى بأنه «كان حسن القامة، عريض الكتفين، فصيح اللسان، ذكى الفهم، عالماً بألوان الفروسية، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزانة والصبر والتحمل...... لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التمر بغاوى في يومي الأحد والأربعاء مع الأمراء [٢]. وامتدحه الخطيب بأنه «كان كثير الإحسان للمحتاجين محبا لأهل العلم والخير والدين، متواضعاً معهم، ولم يعرف لأحد من السلاطين

(١) ابن تغرى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٤.

(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٢ ، ٦٣ - القمز عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان القمز يسكر راجع ابن إياس جـ١ ص ٢٦٩ - أما التمر بغاوى : فهو شراب صنعه الأمير تمربغا سنة ٧٩٧هـ من الزبيب أعجب به السلطان برقوق وسمى التمربغاوى: راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦.

وحلفو لبعضهم بعض كلمة واحدة ان لايخون
احد منهم صاحبه وصارو بقلب واحد لحرب
المسلمين فلما علم الملك العادل ذالك رحل من
على بيسان نزل عقبة فيق فكلمن لحقه من
عسكره مسلم فوقعو الافرنج على سوق
[مخيمات] العسكر ومن لحقوه فنهبوه وقتلو خلق
كثير واخذو الخيم والدواب وكلما كان فى المنزلة
ونزلو تحت عقبة فيق فى منزلة السلطان ـ وذكر

---

قبله هذه الصفات» [١]. والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشتغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر فى دولة المماليك الأولى، ولكن يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاة والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته [٢]، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة. فى بداية سلطنته فى الوظائف المختلفة فإنه فشل [٣] كما فشل فى إيقاف تيار غش النقود [٤]، مما كان له أكبر الأثر فى الأحوال الاقتصادية وقتذاك.

وإذ حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذى عرف فى بيت قلاون، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد [٥]. حقيقة لم يكن فى وسع أحد من مماليك السلطان برقوق أن يعارض فى تنفيذ وصيته لفضله عليهم، فسلطنوا ابنه فرج فى ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ ـ ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له، ولكن سرعان ما ناصب الخاصكية ـ بزعامة الأمير يشبك الخازندار ـ الأمراء المناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً. وما زال الخاصكية بالسلطان حتى طلب من

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٤.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ٣ ورقة ٢٨.
(٤) الأسدى: كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣.
(5) Devonshire: l' Egypte Musulmane p. 93.

من اخبر ان الملك العادل انفذ رسل الى اولاد اخوه
صلاح الدين وغيرهم من ملوك المسلمين ان يجو
اليه بعساكرهم ويساعدوه على الافرنج فلم يجيه
واحد فتوجه الى دمشق ونزل فى مرج السعار
[الصفر] وخلا مع ابنه الملك المعظم الفى فارس
مع جماعة من الامرآ نازلين على القدس يحفظوه
وفى يوم السبت النصف من شهر رمضان وصل
كتاب جلدك والى دمياط كان يخبر فيه ان ملوك
الافرنج قالو للميبازنه(*) والجنويين انتم الطور [ جبل

(*) الميبازنه: يقصد هنا أهل مدينة بيزا بالساحل الغربى لإيطاليا، أما الجنويين فهم أهل مدينة جنوة.

---

أيتمش أن يرشده. كما نجحوا فى طرد أيتمش من القلعة فسكن خارجها. غير أن نجاح الخاصكية فى إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذى لم يرض أفراده بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذى استحوذ على النفوذ (١). وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ سنة ١٤٠٠م (٢).

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الثائر على فرج فى سورية. واجتمعت فى سورية الفئات المملوكية الثائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق، وشيخ المحمودى نائب طرابلس،ويشبك الخازندار، ومع أن جميعهم من مشتروات السلطان برقوق الجراكسة، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج (٣). وظل فرج عاجزاً عن اقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار فى ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة. ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم، فتمكن جيشه من هزيمتهم، ففروا إلى سورية ولكنهم عادوا فى ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ فبراير سنة ١٤٠٥م، واشتركوا فى خلع فرج الذى اختفى فى

---

(١) المقريزى: السلوك (النسخة المصورة ) جـ٣ ورقة ١٣.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

طابور] لكم امضو وقاتلوه وخذوه فخرجو من عند
الافرنج اربعة الف رجل لانه حصن على جبل عال
لايقدر فارس يصل اليه وكان معهم عرب من بنى
عقبة المخالفين مع الفرنج وكانو يقاتلو معهم
المسلمين فجا اليهم الملك المعظم ومعه الفى فارس
وكانو قد صعدو الى الطور ونقبو القلعة واشرفو
على اخذها فادركهم الليل فانفذ الملك المعظم الى
العرب بنى عقبة فافسدهم على الفرنج وحلف لهم

---

بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه.. ولم تكن هناك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموى عنيف، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبدالعزيز[1]. غير أن عبدالعزيز لم يستمر فى السلطنة طويلا، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلفى وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقى مختفيا تسعة وستين يوماً، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ ـ أبريل سنة ١٤٠٥م. واستمر فرج فى السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥هـ ـ يناير سنة ١٤١٢م [2]. ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة فى السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة فى بيت برقوق، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعه عاملان: أولهما إعداد الجيوش لصد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس لدولة جديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر فى أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم فى خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر، حتى إذا انمحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ المحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله، وسلطن الخليفة المستعين

---

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٦٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠.

انه يدفع لهم مالا قرره معهم ويقطعهم بلاد
وحلف لهم على ذالك وقال لهم ما يحل لكم من
الله سفك دما المسلمين بيد الكفار فى شهر
رمضان فاطاعوه وحلفو لرسوله انهم لايقاتلو مع
الفرنج ولايكونو معهم على المسلمين. وقالو له
الفرنج ينامو بالليل [فكبسهم] نصف الليل،
فتخلو عنهم العرب فانتصر عليهم وقتل اكثرهم
وسلم ونزل على الطور وقواه بالعدد والمال

---

فى ٢٠ من المحرم سنة ٨١٥هـ [١]. وجعل الأمير شيخ المحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه [٢]. ولكن محاولته سنة ٨٢٣هـ لإبقاء السلطنة فى بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١م. وبرسباى سنة ٨٢٥هـ ـ ٨٤١هـ وجقمق سنة ٨٤٢هـ ـ سنة ٨٥٧هـ وإينال سنة ٨٥٧هـ ـ سنة ٨٦٥ هـ فى تولية ابن كل منهم السلطنة بعده، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهور أو أيام، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين فى دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشترواته للظفر بالقوة والسلطة، فضلا عن الإكثار عن عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشتروات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا و لاءهم من سلطان إلى آخر [٣]، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية.

وهكذا صار المماليك فى دولة المماليك الثانية ينتخبون للسلطنة أوفرهم حظا من الكفاية

---

(١) العينى: السيف المهند ص ١٩٢.
(٢) الهيثمى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣٢أ.
Demombynes : La Syrie Al'Epoque Des Mamlouks; intr. p XXV.
(٣) راجع العرينى: الفارس المملوكى ص ٦٧ ب.

والرجال. وفى مستهل جمادى الاول سنة تاريخه ماتو الانفار فى جميع ديار مصر بامر الله وكانو مطروحين موتا حول بلادهم الى [أن]. جافت البلاد من روايحهم، وذكر قوما من العربان والمسافرين ان ابقار الوحوش فى البرية ماتو وماتو ابقار الجيش، وانا كاتب هذه السيره رايت موت الابقار فى ديار مصر فى سنة اربع وخمسين وخمس ماية للهجرة [١١٥٩م] قبل هذه الدفعة

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

والقوة والعنف والمقدرة، أو أكبرهم سنا فى بعض الأحيان، ولم يكن هؤلاء فى غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً فى مصر أو سورية. ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة، وانتهت شيئا بعد شئ إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه[١]. Primus Inter pares ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليجاركية العسكرية ممثلة فى زعماء المماليك المقدمين، وكان هؤلاء شديدى الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية، فعهدوا فى تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية [٢]. والجراكسة على وجه الخصوص.

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية أصطبغت بصبغة جديدة هى الصبغة الجركسية، وهى التى أصبحت أهم الصفات التى ميزت دولة المماليك الثانية عن دول المماليك الأولى، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ى٧٨٢هـ ـ سنة ١٣٨٠م، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم. من تجار

........................

(1) Hitti : Hist. of the Arabs : P. 694.

(2) Brockelmann,C: Hist. of Islamic Peoples: P. 236.

وبعد تلك السنة بعشر ة سنين زالت دولة الخلفاء
الفاطميين وملكو الغز [الاكراد] ارض مصر فى
سنة اربع وستين وخمس ماية للهجرة [١١٦٩م]
وعشت حتى رايتها فى هذه الاخرى بعد ستين
سنة. وتواصلت الاخبار ان ملك الافرنج لما رجع
من الطور الى عكآ عبر على قرية من قرى الغور
تسمى رحر النصار ة فيها خلق كثر نصارى ملكية
وسريان ومسلمين كثير فخرجو للملك ولقيوه

---

السلطان برقوق الذين عاونوه فى هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى [١].
وعلى حين بلغ عدد الجراكسة فى بداية سلطنة برقوق نحو ألفى مملوك، ارتفع هذا العدد فى نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جركسى [٢]، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العينى بنحو عشرة آلاف مملوك [٣].

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى. ووضح هذا التمييز العنصرى فى تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاعات الكبيرة وتوظيف شبابهم فى الوظائف الكبرى، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأية صراحة فى قوله «هم أولاد عمى وعشيرتى» [٤] ولم تأت سنة ٨٠١هـ ١٣٩٩م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة [٥].

وبلغت حرب الإبادة التى شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى

---

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ١٨٩ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٣.
(٤) كتاب قهر الوجوه العابسة ص ١٢ ـ ١٣.
(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩١.

بالانجيل والصلبان والمباخر ووقفو بين يديه
فشكرهم وقال لهم بقى فى العسكر اربع فرسان
مرضى خذوهم عندكم وداووهم فاذا فاقو سيروهم
الى عكا مع من يوصلهم الى وتركهم عندهم
ومضى فقامو مسلمين القرية على النصاره
واخذوهم منهم وقتلوهم ولم يقدرو النصاره
يمنعوهم عنهم من خوف السلطان،و وصل خبرهم
الى الملك بعكا فسير عسكر قتل كلمن فى رحر

---

أنهى موسوعته: «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» سنة ١٤١٢م ، ذكر أنه فى وقته «قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم» [١] فضلا عن أن حروب تيمور لنك فى وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية، وأدى هذا إلى تغير واضح لا فى العناصر التى كونت الجيش المملوكى فحسب، بل فى حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك، إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية ـ وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى فى دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام فى دولة المماليك الثانية [٢].

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى فى ضمان بقاءى السلطنة فى بيته، ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى فى أواخر أيامه إذ رغم اعتزازه بالجركسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له، وذلك أنه فى ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م دبر الأمير على باى ـ رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتز بهم برقوق ـ مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو فى طريقه إلى حفل فتح

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٤٥٨.
(2) Poliak: le Caractére Colonial p. p. 212. 244.

النصاره والمسلمين الرجال والنساء والأطفال لانه
كان قال للنصاره عندكم مسلمين قالو له لا فلما
رجعو اعتذرو ان المسلمين قتلوهم فلم يقبل
عذرهم وقتلو قسيس كنيسة رحر وشقو بطنه
وعملو فيها كلب ميت لانه كان حلف لهم ان ما
في القرية مسلما. وبعد هذه القضية عاد ملك
الفرنج الى بيسان وحمل ما كان فيها من القمح
الى عكا على رووس اهل الغور، فحمل الصبى

---

الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذره، وعمل حتى فشلت خطة علي باى ثم قبض عليه وخنقه [١].

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسي في نفس برقوق تأثيرا كبيراً جعلته يندم على اعتماده على بني جنسه، وبدت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير علي باى من مشترواته الذين رباهم، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دواداره، وأقطعه إقطاعاً وافراً. ولم تمضى مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه [٢]. وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه «لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة» [٣]. والخلاصة أن السلطان أمن له في كل الأمور، ولم يتصور أن يقدم علي باى على الخيانة، ولهذا لا نعجب أن تؤدى هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير علي باى وتعذيبه، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون علي باى ذكر واحداً منهم من قسوة العقوبة. ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم يتنصح بنصيحة زوجته التركية «خوند الكبرى

---

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٤٣٨.
(٢) العيني: عقد الجمان جـ٥ ، ورقة ٣٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥٤أ.

القــوى نصف اردب، ومــا دونه ثلث اردب من
بيسان إلى عكا، إلى أن حملو كلما في بيسان من
القـمح وكـانو اذا تعب صبى وحط حـمله حـتى
يسـتريح قـتلوه وحـملوه لغـيـره من الاسارى. ولما
حـملو القـمح الى عكا اخـذ ملك عكا النصف
وملك الهنكر النصف وكان عدد الجميع ثلثة الف
وستماية نفس. فاما ملك عكا فقيد الذى اسرهم
ولم يقـتلهم واما ملك الهنكر [المجر] فـقتل منهم

---

شيرين» التى طالما حذرته من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها: «اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس: تتر، وجركس ، وروم، وتركمان، تستريح أنت وذريتك» [1]. وبالطبع لم تنصحه بأن يتخذ عسكراً من المصريين ولا قام هو بالتفكير فى ذلك خشية أن ينشاء منهم من يعتمد على القوة لتحقيق مكانة فى توازنات الحكم. ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصحية بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته «الذى كنت أشرت به على هو الصواب ولكن هذا كان مقدراً، ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم[2]».

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشترواته الجراكسة، وأخذ فى ترقية بعض العناصر الأخرى [3]، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة فى دولة المماليك الثانية لعاملين : أولهما أن عدول السلطان عن تماديه فى الاتجاه العنصرى جاء فى أواخر أيامه، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجراكسة من مشترواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى فى

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٣) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧.

جماعة وقطع من كل مسلم كف يده اليمنى وسير بقية الاحيا مع اكف القتلى الى بلاده فى بطس الى بابا روميه وكتب اليه ويقول له انى قد فتحت بلاد المسلمين وقد سيرة اليك قليلا من الاحيا واكف القتلا حتى تراهم واما ملكهم فانه ما يقف لى واذا طلبت المصاف يهرب من موضع الى موضع ولايقف قدامى وانا افتح ما بقى من القلاع والحصون واطلبه اين ما كان الى ان اخذه،

---

الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجند من الجراكسة، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية ومصر بالذات حيث الوفرة والنعيم والخانقاوات والتكايا التى يعيشون فيها دون عمل أو جهد، فهذا متروك للمصريين.

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسي، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة الممالك الترك، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجراكسة. ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى بردى الذى امتدح حكم طشتمر العلائى التركى (سنة ٧٧٩هـ)، ووصفه بالازدهار على حين بين أن هذا الازدهار اختفى بعزله وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غيره من العناصر المملوكية واعطاء الجراكسة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم. وبين ابن تغرى بردى المرارة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : « أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فإنهم حينما وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأدنوه ، فكان لايلى وظيفة إلا من يستحقها» [1].

---

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٢٢٨ب.

واما البيت المقدس فقد حصنوها بالرجال والاسوار
وانت قلت لايرمى فيه احدا من ملوك النصرانية
سهما ولاحجر منجنيق وكيف اخذه من المسلمين
بغير قتال عليه ولازحف اليه وهم ما اخذوه الا
بالقتال الشديد والمنجنيقات فان كنت تحضر الينا
فقدم حضورك لعل الله يدفعه لنا فنعيد فيه جميعا
ان شا الله. وهذا اخر ما وصل الينا عن ملك
الهنكر وكانو المسلمين يقولو انه قتل في الحرب

---

على أن سياسة الجركسة التى بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراكسة أنفسهم . ويرجع هذا إلى مخالفة السلطان فرج لاتجاه أبيه، حيث مال إلى المماليك الروم لأن أمه « خوند شيرين» كانت رومية [1]. وحين مال فرج إلى الروم وزاد في إكرامهم حقد عليه الجراكسة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسى أكبر الجراكسة سنا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣هـ [2] ـ سنة ١٤٠١م ـ ثم عاد الجراكسة يتحينون الفرص لقتل فرج، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع مماليكه في حمام في ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ ـ سنة ١٤٠٥م، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومى [3] . وكان سبب اختفاء فرج في هذه السنة إحساسه بكراهية الجراكسة له، وأنهم لم يهتموا بشكواه في موضوع اعتداء بعض المماليك الجراكسة عليه في الحمام [4]. واعتقد الجراكسة أن سلطنة أخيه عبد العزيز ربما تبعد النفوذ الرومى الذى بدأ فرج في تشجيعه. غير أن عودة فرج إلى عرشة في جمادى الآخر سنة ٨٠٨هـ قضى على حلمهم، إذ تعقب

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٦٨.
(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ١٥٨.
(٣) المرجع السابق و الجزء ص ٣٢٩.
(٤) المرجع السابق والجزء والصفحة.

وقالو انه اسر ولم اتحقق عنه شي انه قتل او اسر او عاد الى بلاده والله اعلم بما كان من امره وهو حسبي وبه استعين. ولما كان يوم الاثنين الثالث من ربيع الاول سنة خمسة عشر وستماية عشية النهار ضرب الراقوبى [المراقب] بدمياط على مراكب كثيرة في اللجة [البحر]، فلما اصبح الصبح يوم الثلاثاً الرابع منه ضرب الراقوبى ذالك اليوم جميعه والمراكب تتواصل بعضها ببعض وترسى في



ريتشارد يدخل عكا بعد سقوطها في عام ١١٨٩م.

---

السلطان فرج الجراكسة في سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم في يوم واحد مائة جركسي [١] ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا في سنة ٨١٤ هـ سنة ١٤١١م[٢]، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج بانقسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب، ولم يكن عجيبا أن يتمكن واحد منهم من قتله في ١٧ من صفر سنة ٨١٥هـ [٣].

أما شيخ المحمودي الذي تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه، وتردد في سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جركسي مثلهم، فلم يظهر ميلا نحوهم ، كما أنه لم يظهر ميله للروم كما فعل السلطان فرج، وأوضح ابن تغرى بردى سياسة شيخ في قوله : «كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من المماليك ، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره، بل حيثما ظهرت له النجابة من الشخص قربه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك [٤]». على أن ابن تغرى بردى عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٢٥١.
(٢) العسقلاني : إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٣٠ب.
(٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩، انظر ماسبق.
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي جـ٢ ورقة ٢٠٦.

اللجة مقابل البروج ولم تزل المراكب تتواصل مدة اسبوع حتى صار فى ربيع الاول عشرة ايام فلما كملو صعدو على البر(*). وضربو جميعهم من المسجد الذى على شط البروج ويعرف بمسجد ابن الخيار الى فوق من بوره وحفرو عليهم خندق عرضه ثلثون ذراعا وعمقه خمسون ذراعا وطوله من البحر الحلو [النيل] الى البحر المالح واطلقو فيه الماء من البحر الحلو فامتلأ مآ حلو وصار لهم

(*) حملة جان دبرين علي دمياط سنة ١٢١٨ = ٩٣٤ للشهدا.

---

الترك لأن أكثر أمرائه كانوا منهم [١]. وكيفما كان الأمر فإن النكسة التى منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً فى عهد برسباى.

ومهما يكن من شئ فإن هذه الصبغة المملوكية الجديدة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم [٢]، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشى أتابكاً له، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشى ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطمعه فى السلطنة، لأنه على قول ابن تغرى بردى «كان من جنس غير جنس القوم لاغير [٣]».

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق. فى

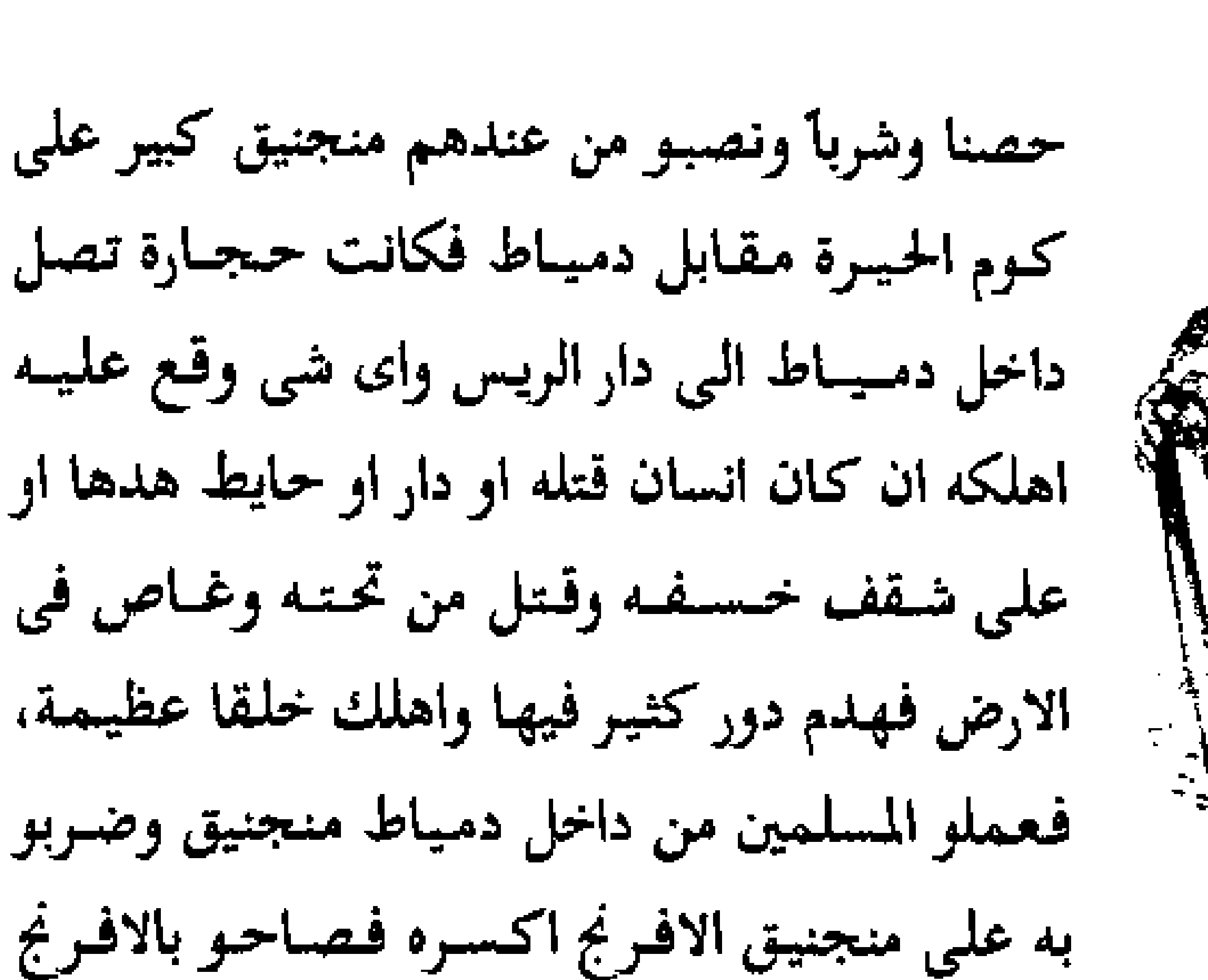
(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٤٣٠.

(٢) بلغ تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية فى سياسة الجركسة أن برسباى أطلق من بقي من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥هـ حتى تهتكوا فى المتنزهات وفسد حالهم وباع بعضهم ارزاقهم وصاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى فى الأسواق (راجع ابن تغرى بردى، المنهل الصافى جـ١ ورقة ٢٦٥).

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٥٤٧ ـ وثمة أدلة أخرى على أن عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية، حالة الخليفة المستعين الذى جعل ألعوبة فى عملية التنافس السياسى حين انتخب سلطانا قبل سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة =



(*) ريتشارد قلب الاسد



حصنا وشرباً ونصبو من عندهم منجنيق كبير على كوم الحيرة مقابل دمياط فكانت حجارة تصل داخل دمياط الى دار الريس واى شى وقع عليه اهلكه ان كان انسان قتله او دار او حايط هدها او على شقف خسفه وقتل من تحته وغاص فى الارض فهدم دور كثير فيها واهلك خلقا عظيمة، فعملو المسلمين من داخل دمياط منجنيق وضربو به على منجنيق الافرنج اكسره فصاحو بالافرنج

---

جلب أقاربهم من بلادهم الأصلية فى أعداد كبيرة [1]. ومع أنه لاينقصنا الدليل على هذا

= شهور فى سنة ٨١٥هـ ـ سنة ١٤١٢م (راجع .Arnold the Caliphate (p.p 100. 101) ثم فى الحالتين اللتين اعتلى فيهما السلطنة اثنان من الروم وهما خشقدم وتمربغا (راجع ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة «كاليفورنيا» جـ٧ ص ٦٦٧، ٧٤٢ السيوطى: نظم العقيان ص ١٠٩) وفى سلطنة خشقدم فى ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانم نائب الشام لأنه «رجل عظيم ومن الجنس» (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧). وإذا انقسم المماليك فرقاً وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيص فإن أهم ما كان يعنيهم أن يتولى السلطنة واحد من فرقتهم ليمكنهم تحقيق مآربهم فى السيطرة على شئون الدولة. ولذا عرض الأمير جانبك المشد على الأمراء حسماً للموقف سلطنة الأمير خشقدم المؤيدى «فإنه من غير الجنس، يعنى كونه رومى الجنس، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام». (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة). ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم؟ أما الإجابه فتتضح فى أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة فى سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane- poole Hist'of Egypt. p. 325) أما تمربغا الذى وصل إلى السلطنة فى ١٠ من جمادى الاولى سنة ٨٧٢هـ سنة ١٤٦٧م. فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا للسلطان يلباى سنة ٨٧٢هـ كما أنه كان بحكم أقدميته فى الإمارة مقدماً للمماليك الظاهرية الجراكسة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ «كاليفورنيا» ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨) وتوهم تمربغا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايتباى الجركسى والرجل الثانى فى فرقة الظاهرية الجراكسة أتابكا للعساكر. غير أن قايتباى أمكنه أن يجمع شمل الجراكسة ويخلع تمربغا دون كبير عناء وذلك فى ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨).

(١) راجع السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٩، ٣٠٧.

---

صيحة عظيمة سقطت منها الجبال. وعملو [الصليبيين] منجنيق اكبر من الاول ومعه اربعة منجنيقات اخر وكانو يضربو بالكبير على دمياط والصغار على برج السلسلة فلما لم يبلغو مرادهم بالمنجنيقات فاوسعو الخندق الذى تقدم ذكره انهم حفروه فاتسع حتى صار بحرا كبيرا فدخلو منه إلى بحر النيل تسعين مركب شواني وحراريق فلما صارو في بحر النيل عمرو مراكبهم بالرجال وقاتلو

---

الاتجاه في عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ. وبلغ هذا الجلب أكثره في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى برغم مغالاة التجار في أثمان المماليك الجراكسة لتهافت السلاطين على شرائهم [١]. وإذ شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريباً عسكرياً دقيقاً كما كانوا في سن مبكرة عن هذا. وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا في الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم سواء من الناحية الدينية أو العسكرية مع أهمية هذه التربية في إعداد المملوك خلقياً وعسكرياً. ثم ساد في دولة المماليك الثانية محاباة السلاطين وكبار رجال الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والإقطاعات في غير نظام [٢]. وتبع هذا كثرة المصادرات وانتزاع الأوقاف وتوزيعها إقطاعات[٣] وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعيات [٤].

---

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان: ورقه ٤٨١.

(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافي جـ١ ص ٢٤٣ب، ٤٥٦أ، جـ٢ ورقة ٦٢أ، جـ٣ ورقة ٢٥ب.

(٣) المقدسى : نزهة الناظرين ص ٢٥٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦ وكاليفورنياه ص ١٩٥ ـ ذكر ابن تغرى بردى فى نفس المرجع والجزء ص ٣٨٦، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن مملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المغارم والظلم المستمر للمصريين وقلة نظر الحكام فى إحكام البلاد.

اهل دمياط يوم الجمعة الحادى والعشرون من ربيع الاول سنة تاريخه [١٢١٨م] وكان بينهم قتال شديد وقتل من المسلمين ومنهم وجرح من الفريقين كثير وافترقو عند دخول الليل عليهم ولما يظفرو بمرادهم لان المسلمين كانو يرموهم من البرج بالنشاب ولعبه عليه يرمو بها مراكبهم بالحجارة. وقد ذكر قوم ان الملك الذى كان

---

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء إينال وقايتباى [١]. ولم يكن غريبا بعد هذا الاتجاه أن يأتى الجلبان من الجراكسة إلى مصر، وخيال السلطنة فى رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية السلطنة [٢].

ولا شك، أن سرعة تخريج المماليك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم صار عاملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية فى دولة المماليك الثانية، ذلك النظام الذى كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى. وأنحى المقريزى باللائمة على السلطان برقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه «رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج، فنزلوا من الطباق من القلعة، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد[٣]». ويضيف أيالون Ayalon إلى العوامل التى سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عاملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمرينات الحربية، التى كانت من ألزم الأمور لتربية الفارس المملوكى فى الدولة الأولى، تلك التمرينات التى اعتمدت على

(١) راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٦٤، ٢١٠.
(٢) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

يدبرهم وحروبهم اسمه كند [كونت](*) الريش لانه كان على راسه اكليل ذهب مر صع بجواهر يخرج من جوانبه شبه الريش من ذهب مركب فيه فاسموه كندالريش. وقال قوم اخر ان مراكبهم الذى وصلو فيها ثلثماية بسطة وطريدة وقالو انها اكثر من ذالك ولم يتحقق عددهم. وذكر قوم ان فيهم سبعة ملوك مع كل ملك الف فارس وعشرة راجل، يكون الجملة سبعة الف راجل ولم يتحرر

(*) كونت : هوجان دى برين.

---

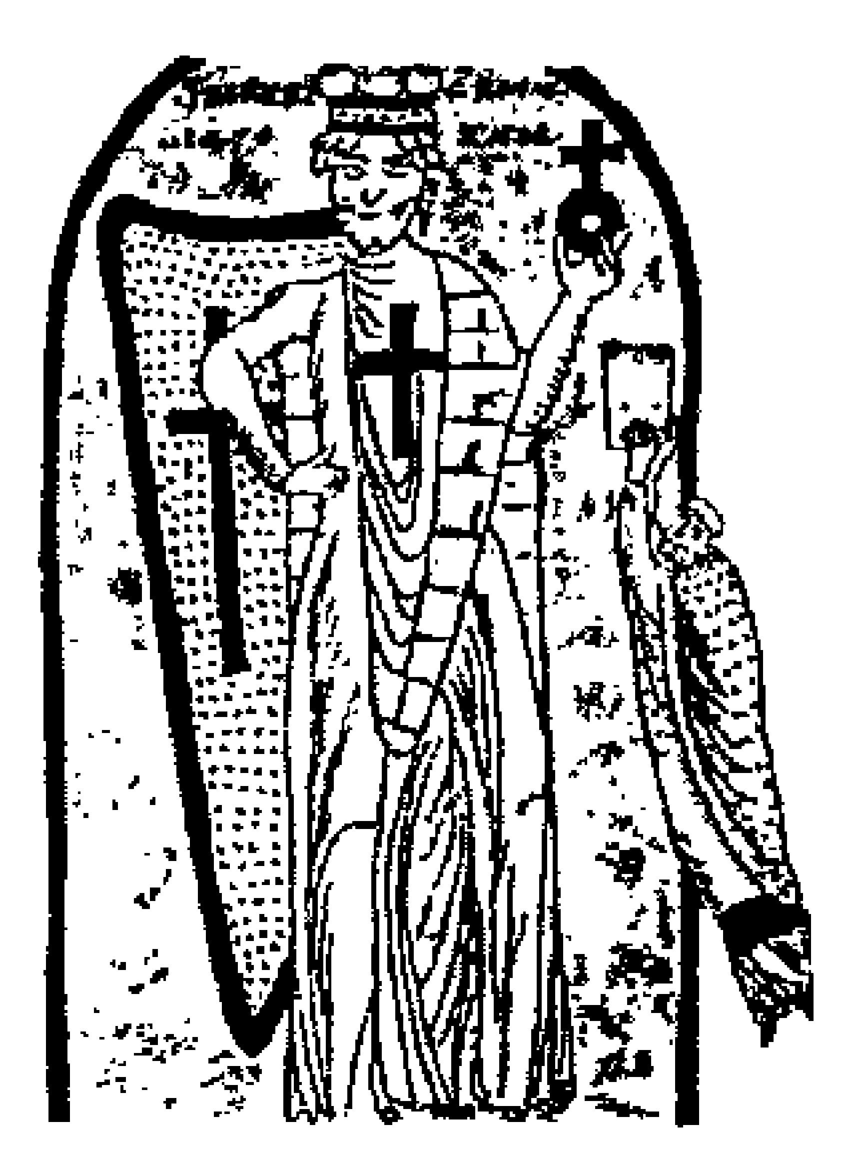
السيف والنشاب والقوس، واستبعد أيالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية في الجيش المملوكي وقتذاك [١]. والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التى أدت إلى فساد عام في المجتمع الحربى المملوكي، ومن أهم هذه العوامل ـ إلى جانب ما ذكرنا ـ إبطال السلطان برقوق عادة الركوب إلى الميدان، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيدين في الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على إى سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٨٩م ـ صلى السلطان برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة، لخوفه من المؤامرات وهجر الميدان [٢]، وهجره من جاء بعده من السلاطين، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطانى [٣]. ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام

(1) Ayalon : Gunpowder & Firearms. P. P. 52.54.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢٢٩.

(٣) راجع ابن تغرى بردى: منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان في عهود باقى السلاطين حتى عهد الغورى حين بدأ في صفر سنة ٩٠٩هـ يوليه ١٥٠٣م بإنشاء ميدان كبير رغبة في عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصفوى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع.
Ayalon : op. Cit . p. p. 57. 58.

ذالك عن يقين بل نقل سماع لانه لم يقدر احد يمضى اليهم ولا يجى من عندهم، واما المنجنيق الذى نصبوه على كوم الحيرة فعملو فى راسه صندوق رصاص وزنه قنطارين شامى واسموه المعرى وكان تحته يجره ستماية رجل وكان يرمى الى وسط دمياط حتى هد دار الريس واخلا ما حواليها وكان وزن الحجر الذى يخرج منه قنطار


(*) فردريك بربار وسا من مخطوط بمكتبة الفاتيكان

---

السلطان فرج بن برقوق لتفضيل المماليك الراتب النقدى، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم حتى صار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره [١]. وأضاف المقريزى عوامل أخرى أسهمت فى ضعف هذا النظام فى قوله : «وبقى الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار وغير ذلك. واستقر رأى الناصر فرج على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم، فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، مافيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب. لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه [٢]».

واقتضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان برقوق عدة تغيرات فى نظم الحكم والإدراة .

---

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

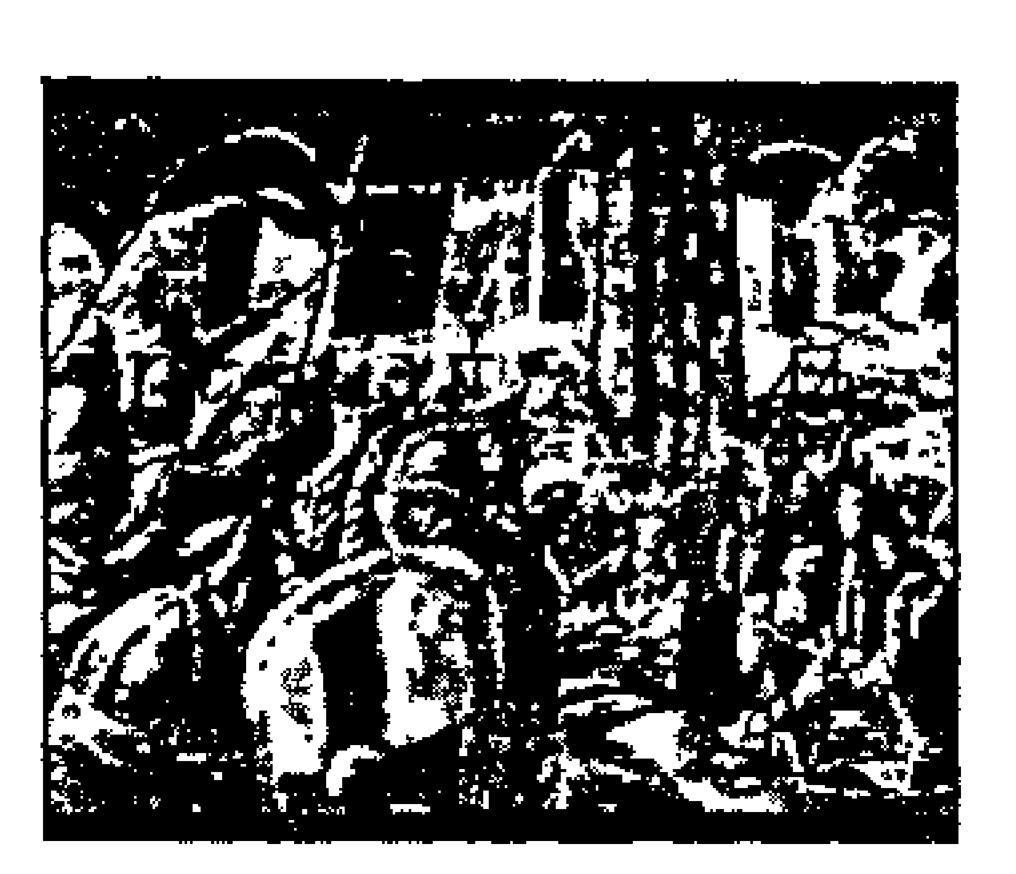
شامى وقتلو به خلق كثير فى مدة مقامهم على
دمياط وفى عسكر الفرنج نسا كثيرا مسلمات من
اهل الغور وأفرنجيات من اهل الساحل يطحنو لهم
القمح ويخدموهم وكان معهم صغار كثير وبقر
وخنازير ودجاج وكان فى البحر مراكب كثير
صيادين سمك يبيعوه فى عسكر الفرنج فلما قالو
للملك كندالريش عنهم مسكهم وضمنهم السمك
بخمسين دينار فى يوم. وقد كنا قلنا انهم فتحو

---

وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتى كادت تتلاشى، ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة فى أوائل دولة المماليك الأولى [(١)] لكن استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها، واقتصر متوليها فى دولة المماليك الأولى على التحدث فى الأمور المالية، ووزعت باقى اختصاصات الوزير على ثلاثة: هم «ناظر المال، واختص بتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، والثالث هو كاتب السر واختص بالتوقيع فى دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً»[(٢)].
أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة فى يده، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذى أقام فيه ناظراً وشادين وكتابا، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف مايتحصل منه فى جوامك مماليكه المشتروات، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة[(٣)]، حتى اقتصر اختصاص الوزير

(١) كان أول مملوك تولى الوزارة فى الدولة المملوكية الأولى هو سنجر الشجاعى (٦٩٣هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد فى هذا العصر مؤداه «أن الوزارة إن لم يتقلدها مملوك فسد الحال» ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضعاف شأن الوزارة دون إلغائها . راجع.
Ayalon: Studies, 111 p. 61.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ ٢٩ .
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٢٢٢ ٢٢٣، راجع كذلك
Poliak : Feudalism: p. 4 .Ayalon: Studies, 111 p. 61.



(*) حصار الصليبين لدمياط

بحـــر مـــــن خـــلـــف البـــرج ودخـــلو فـــيـــه بالشواني والحراقات لقتال المسلمين وكانو فى كل يوم يقاتلو اهل دمياط فيقتل بينهم قتلا كثير ثم يفـرقـو عند الليل فـاقـامـو على ذالك ربيع الاول وربيع الاخـر ثم اخذو مركبين كبار من مراكبهم وسمرو عليهم اخشاب جافيه وعملو فى وسطهم اربع صــــوارى وضـــمـــو الواحــدة الى الاخــرى بحكمـتـهـم حـتى صارو واحـدة واسـمـوها المرمـة

---

على التحدث في أمر المكوس، فيحصلها من جهاتها ويصرفها في شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات إنفاق القصر السلطاني. وبلغ من ضعف شأن الوزارة آنئذ أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش، يشترى (الوزير) اللحم والحطب وحوايج الطعام، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافي والسنجاب وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص في القديم فقد بطل[1]».

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاص والوزير، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك في دارالعدل وفي داره، وأخذ الاستادار التصرف في نواحي أرض مصر والتحدث في أمور الدواوين السلطانية وفي كشف الأقاليم وولاية النواحي وفي كثير من أمور الوظائف، وأخذ ناظر الخاص جانباً كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها في متعلقات الخزانة السلطانية، وبقى للوزير شيء يسير جداً مما

---

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.

واسمروها بكل مسمار طوله ثلثة اذرع وذراعين وذراع ونصف وشبر، كل شى منهم فى موضعه وعملو على الاربعة صوارى سقف سفلى يحمل ماية وخمسون رجل وسقف فوقه يحمل ماية وخمسين رجل فيكون ثلثماية رجل مقاتله فقدموها الى البرج الذى فى البحر فلم تلصق به لان زلاقة من كل ناحية خارجية منه فلما يقدرو يلصقوها للبرج [ثم] قوى عليها التيار فردها بامر الله الى

---

كان يتحدث فيه، فاقتصر على النظر فى المكوس وبعض الدواوين وناظر بيت المال وناظر الاهراء ومستوفى الدولة، وناظر الجهات. أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره[1].

وثمة تغير آخر فى نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم فى دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب[2]. وكانت رتبة الحاجب فى دولة المماليك الأولى رتبة جليلة. وتأتى فى الترتيب الوظيفى بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجبة حاجب الحجاب. والحجبة وظيفة من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر فى مخاصمات الأمراء والأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات، ونحو ذلك تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب. وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند. وكثيراً ما قام الحاجب مقام النائب فى غيبته أو اعتقاله[3]. ويبدو أن السلطان برقوق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ص ١٩٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٩ .

خلف وانكسـرت الصـوارى من ثقل الرجـال
بالسلاح ووقع منهم فى البحر جماعة كبيرة غرقو
بلا حرب ولاقتـال. وبعد هذه المرمة لم يرجعو
يقدمو مرمة اخرى. ولما جرى عليهم ذالك في
المرمة نصبو منجنيقين اخرى على البرج [برج
السلسلة] الذى فى وسط البحر وكانو يقاتلو بها
وبالزنبورك، وكان له من دمياط [جسر] خشب
معمول بالمراكب والاخشاب مسمورة عليها ولم

---

الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم فى القبض على المتآمرين منهم بمجرد صدور أمر السلطان.

ولم يكن أحد من الحجاب فى دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم فى شيء من الأمور الشرعية، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صار للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكاتبة الولاة فى مختلف الأعمال والأقاليم[1].

وفى عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية. ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع، وانما ارتزقوا من النظر فى مظالم الناس، وصار الحاجب يحكم فى الناس جميعاً حتى فى الأحكام الشرعية، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر فى قضايا الناس، حتى صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه بضربه أو أخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك[2].

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحرى ونيابة الوجه القبلى. ولم تكن هناك بالوجه البحرى سوى نيابة الإسكندرية التى رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨ هـ بسبب

(١) المقريزى: نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

يزالو يضربو الخشب حتى كسرو مراكيه واخشابه
وقطعو حباله فلما كان يوم الجمعة الثامن من
جمادى الاخر تكاثرو الافرنج على البرج بالمراكب
والرجال فاخذوه وكان فيه ماية وخمسون من
المسلمين قتل منهم وغرق منهم وهرب منهم من
عام الى دمياط فسلم واسر منهم ستين رجل
سيروهم الافرنج الى عكا وغيرها من بلادهم. ولم
ير جعو من يوم اخذو البرج يقدمو مرمة. وذكر من

---

كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية. وفى عهد السلطان برقوق أصبحت دمنهور مقر نائب الوجه البحرى. وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان في البحيرة، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبها أهمية كبيرة. ويؤيد هذا الرأى ما ذكره القلقشندى أن نيابة دمنهور «ليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة[1]».

وترتب على هذا التغيير الإدارى أن جعل للوجه البحرى كاشفاً من أمراء الطبلخاناة يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع فى كل أموره إلى نائب الوجه البحرى[2]. وإلى جانب هذا أبقى السلطان برقوق على وظائف الولاة التى عرفت فى دولة المماليك الأولى فى الوجه البحرى فى بلبيس وفى منوف والمحلة؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحرى[3].

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التى هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشىء نيابة أخرى بالوجه القبلى صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها فى رتبة نائب الوجه البحرى بل لعله أعظم شأناً منه، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .

اخبر ان الملك العادل مات بدمشق يوم الجمعة
الثامن من جمادى الاخر سنة تاريخه وهو يوم
اخذو الافرنج فيه برج دمياط وذكر من اخبر ان
جاسوس السلطان اعلمه ان مراكب كثير من
الفرنج تفللت [تسللت] وراحت الشام فعدى اليهم
بالعسكر فاخذهم فلما كان يوم الثلثا الحادى عشر
من رجب سنة خمسة عشر وستماية[١٢١٨م] امر
الملك الكامل العسكر ان يعدى فاسرع نحو ثلثة

---

بأسرها[١] على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه والى الولاة. وحين ازدادت الأخطار التى هددت البلاد من النوبة والحبشة استحدث برقوق وظيفة والى أسوان، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والى قوص. والخلاصة أن الوجه القبلى صار فيه خمسة ولاة فى البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان، وجميعهم تابعون لنائب الوجه القبلى[٢].

ثم إنه نظراً للأخطار الخارجية التى أحدقت بالسلطنة المملوكية فى بدايتها، جعل السلطان برقوق نواب الثغور والبلادالواقعة على الحدود من مقدمي الألوف بعد أن كانوا فى الدولة الأولى فى رتبة أقل. ومن هذه النيابات عينتاب ودندره وشيزر والأبلستين واياس وطرسوس والبيرة [٣].

## دولة المماليك الثانية وجيرانهما
## حتى سنة ١٤١٢ م

ظهور تيمور لنك فى الشرق الأوسط ـ علاقته بدولة المماليك الثانية ـ موقف السلطنة

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

الف راجل وعـدو الى بر الافـرنج قـبل ان يعـدى
العـسكر وكـان السلطان الملك الكامل قـد اوصـا
جـمـيع العـسكر الفـارس والراجل [المشـاة] ان
لايتقدمو للقتال حتى يرفع لهم العلم الذى له على
البرج الذى هو فيـه من دمياط فنهض من الراجل
جماعة طلبو بجهلهم الكسب من قبل ان يكمل
العسكر فهجمو خيم الفرنج وقتلو وكسبو وتمادى
بهم الطمع وتطلعوا الفرنج لم يرو خلفهم عسكر

---

المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ـ دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوية والروادس حتى سنة ١٤١٢م ـ سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد المغرب ـ برقوق وامارة مكة ـ اليمن والسلطنة المملوكية الثانية ـ علاقة السلطان برقوق بالحبشة والنوبة وآثارها.

* * *

اقترن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التى تاخمت حدودها الشرقية، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة فى التمتع بحمايته وطلب معونته، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها. ولم يتأخر السلطان برقوق فى أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه، حتى إن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ ـ سنة ١٣٨٣م إلى السلطان برقوق برغبتهم فى إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق سار السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة فى بلده[١].

والواقع أن خطر التتار فى الشرق الأوسط وَضَحَ فى هذه السنة حيث ظهر تيمور لنك[٢]،

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٠١ .
المقريزى: اسلوك جـ ٣ ص ٤١٦ ، ٤٦٢ .
(٢) أصله من قبيلة كوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاى الابن=

فرجعو عليهم فقتلوهم في الخيم ورمو البحر بسلاحهم ولباسهم فشالوهم الفرنج بالمراكب واخذو ما عليهم وهم موتا(*) وحزن السلطان عليهم وامر ان يرجع العسكر واعرض الرجالة فوجد الذى قتل منهم ثلثة الف رجل قتلا وغرقا. وفيما هو حزين عليهم تواصلت الاخبار بموت ابوه الملك العادل في دمشق من تخمة اصابته في مرج الصغار وحمل الى دمشق فمات فيها ودفنوه

(*) كان جان دى برين هو الذى عاود الهجوم على الاكراد وهزمهم.

---

واستولى في سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لدولة اسلامية كبرى ناطحت الإمارات والممالك الاسلامية في غرب آسيا، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان[1]. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٦م وطرد حاكمها قرا محمد التركماني. ومن هناك أرسل تيمور لنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردين يستدعيه. غير أن حاكم ماردين الذى احتمى بالسلطنة المملوكية الثانية، أرسل إلى تيمور لنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكي في هذه الزيارة[2]. وغضب تيمور لنك لهذا الرد. ورغبة منه في إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمور لنك الكتابة إليه بقوله: «ليس لصاحب مصر يملكك حكم»[3]، كما أوضح له أنه لا يهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه. وبرهن لصاحب ماردين على صدق

= الثاني لجنكيز خان، أطلق عليه تيمور كور كان ومعناه صهر الملوك؛ وأصل اسمه «تمر» ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج لإصابته في فخذه حين كوّن عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج ـ وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أرضهم حتى وصل إلى الملك ـ راجع ابن عربشاه: فاكهة الخلفا ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية.

(1) Sykes: A History Of Persia: VII P.P. 281 _ 202.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه والجزء والصفحة؛ الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .

بجانب صلاح الدين اخوه في المقبرة يوم الجمعة
الثامن من جمادى الاخر سنة خمسة عشر وستماية
وهو يوميذ ملك مصر والشام وبيت المقدس
والساحل والقلاع ودمشق واليمن. [وكان] دفع
دمشق وما معها من الشام وبيت المقدس والساحل
والقلاع وما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج
لولده الملك المعظم يسمى عيسى ويعرف
بالكريدى، ودفع مصر واعمالها لولده الكامل

---

نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير[١]. ولم ينتظر تيمور لنك رد صاحب ماردين إذ رحل فجأة في سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها في غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمور لنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدين له كل ملوك الأرض بالطاعة، وأن تظهر شخصيته الخيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه[٢]. ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة، أو ارتبطت معها بأواصر الصداقة والتحالف في الوقت الذى قام فيه تيمور لنك بالتوسع رغبة فى إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته فى العالم المعروف وقتذاك، جعل وجود هذه الدولة شجاً فى حلقه. على أن اتساع رقعة البلاد التى فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه في وقت واحد، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمور لنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨م أسرع قرامحمد التركمانى واستعاد بلاده، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بعودته إلى عرشه وأنه ضرب فى تبريز السكة باسم السلطان، ودعا له فيها على منابره، وسأله أن يكون نائباً عنه[٣].

(١) المقريزى: السلوك جـ ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .

(2) Malcom : Hist. Of Persia pp 482 _ 483 .

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٤٩٥ .

محمد، ودفع حران ومنبج واخلاط وكلما خلف نهر الفراة لولده الاشرف. وكان مدة ملكه تسعة عشر سنة وثلثه وخمسون يوما منذ دخل الى مصر ومات وعسكره عشرة الف طواشي. وملك ولده الملك الكامل محمد ديار مصر واليمن وسير ولده اقسيس الى اليمن فملكه واستقر هو فى مملكة مصر ونفذ امره وحده بعد موت ابوه لاستقال [لاستهلال] شهر رجب خمسة عشر وستماية للهجرة.

---

وعلي حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردين ليبعث برسله إلى برقوق ينبئه بما جرى بينه وبين تيمور لنك، عاد تيمور لنك، سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م فجأة وهاجم بغداد، فازداد خوف مجد الدين عيسى، وأسرع فى إرسال الرسل إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع[1]. وبيّن مجد الدين عيسى فى رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمور لنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجلايرى حاكم بغداد[2]، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو سنة ١٣٩٣م، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير علي بلاده، وأنه لا يطلب سوى ضرب السكة فى بغداد باسمه. فلبس أحمد بن أويس الخلعة وطاف بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمور لنك. ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمور لنك يقترب من بغداد ومن غربيها، وهي الناحية التى لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورك لنك بهجومه منها. فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر[3]. فتقدم تيمور لنك بجحافله لحصار

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو السلطان أحمد ابن أويس بن حسن بن حسين بن اقبغا أيلكان الجلايرى تولى الحكم فى بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحوا العراق راجع العينى: السيف المهند ص ١٨ ـ ١٩ .

(3) Yazdi: Zafarnama VI, p. 434 .

**سيرة الملك الكامل محمد**(*) ابن الملك العادل ابو بكر ابو ايوب: وكان كتاب الملك العادل قبل موته وصل الملك الكامل ان العدو توجه من عكآ الى مصر مراكب كثيرة فاحترز على الثغور وما تقابله واخلى البلاد قدامه مسيرة ثلثة ايام فانه اذا غار يقطع مسافة اربعة ايام في يوم واحد يقتل ويسبى وينهب ويعود الى خيمه في بقية يومه. فاخلى الملك الكامل قدامه من الغربية مسيرة اربعة ايام

(*) سيرة الملك الكامل محمد.

---

بغداد سنة ٧٩٥هـ ـ يولية سنة ١٣٩٣م. وبرغم هذا فإن تيمور لنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين، قتل فى أثنائها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها(١). ومن بغداد أرسل تيمور لنك ابنه ميران شاه فى أثر ابن أويس فأدركه بالحلة(٢). ونهب ماله، وسبى بعض حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه (٣)، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه فى نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراه، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان برقوق(٤).

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفزع لهذه الأخبار التى أنبأه بها صاحب ماردين، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية(٥)، كما أن السلطان برقوق

(١) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٢) مدينة بين الكوفة وبغداد ـ راجع ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(3) Grousset : L'Empire Des Steppes . p, 512

(٤) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٣ ـ بدأت علاقة السلطان أحمد ابن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥هـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقماش. ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقات الود بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨هـ ـ راجع المقريزى: السلوك جـ ص ٤١٦ ، وما بعدها.

(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

واخلى المحلة وكلما حواليها وسنجار وسنهور وفوه
وكانو هذه المدن خالية وابوابهم مغلقة ولم يقدر
احد يخرج باكثر من ثيابه الذى عليه وما ينام فيه
وتركو كلما فى دورهم من القمح و الحبوب
والنبيذ وجميع القطانى فيها، فمنها من سالم
[سلم] ومنها ما نقص بعضه ومنها ما اخذ كله.
ومضو الناس الى القاهرة وقوم الى مصر
[الفسطاط] والى الشام ودمشق وتفرقو فى جميع

---

عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له، فضلاً عن أن تيمور لنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية[1]. على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته؛ حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه، فكتب السلطان برقوق إلى نعير أميرا آل فضل بإكرامه، والقيام له بما يليق به. ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس. واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تتم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه. وأنفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار، فضلاً عن بعثة سلطانية رافقت ابن أويس[2]. واستقبل السلطان برقوق أحمد ابن أويس استقبالاً رائعاً إذ خرج الأمراء للقائه فى ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٤م)، ونزل معهم ومع العسكر إلى الريدانية. وحين قرب أحمد بن أويس من مسطبة السلطان بوقوق نزل عن فرسه، ومشى عدة خطوات، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد، على حين عانقه كبار الأمراء[3]، ثم بكيا وسارا متشابكى الذراعين

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ.

الدنيـا ومنهم من رجع ومنهم من لم يرجع وامـا
سـمنود فـما خليت وبقيت عامـرة وسكنوها ناس
كثير من اهل البلاد وكـان واليهـا نعتـه نور الدين
على وكان حازم طول ليله يدور حوالها والناس تنام
فى المراكب وعلى البـحـر مـا يروعـهـم مـروع
ولاخرج منها واحد ولما كان يوم الثلثا السابع عشر
من ذو القعدة حمل عماد الدين ابن المشطوب بين
الملك الكامل وبين اخوه الملك الفايز كلام افسد

---

نحو المصطبة السلطانية، حيث دارت المناقشات فى طريقة إعادته عرشه. وخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس. وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة فى بركة الفيل حيث أرسل له السلطان مائتى ألف درهم فضة، ومائتى قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية[١].

وكأنما أراد تيمور لنك أن يحدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٣م إلى القاضى أبى العباسى أحمد صاحب قيصرية وتوقات وسيواس، رسالة سبَّه فيها وهدده «بقوته التى لا تقام»، وبشره «بالمستقبل المظلم» إن لم يعلن طاعته له. غير أن أبا العباس أحمد الذى تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥هـ قطع رءوس كبار رسل تيمور لنك وعلقها فى أعناق باقى الرسل، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقين إلى السلطان العثمانى بايزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما. وسرّ كل من السلطانين برقوق وبايزيد برسالة أبى العباس وما قام به، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قيصرية لمقاومة تيمور لنك[٢].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(2) Ibn Arab Shah: Tamerlane, pp. 89 - 91.

قلوبهما بعضها ببعض وذكر عنه انه حالف الملك
الفايز على قتل الملك الكامل ويملك الملك للفايز،
وكان جنديا من اجناد الملك الكامل حاضر معهم
فمضى اليه واعلمه بكلما جرى وقال له انج
بنفسك فقام من خيمته وركب في الليل وساق مع
اصحابه وخواصه ومماليكه ولم يشعر به احد الى
اشمون(*) ونزل فيها. ولما اصبحو الاسرا طلبوه
فلم يجدوه اضطرب العسكر فلما سمعو انه نزل

(*) اشمون: هي من أقدم المدن المصرية فتاريخها يمتد إلى الممالك الفرعونية وكان اسمها=

---

ثم إن تيمور لنك أرسل من بغداد في نفس السنة «أكتوبر سنة ١٣٩٣م» بعثة إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ السواح، وزوده بهدايا عديدة وقيمة، وكتاباً إلى السلطان برقوق(١)، وحين وصلت بعثة تيمور لنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية(٢). أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه في تمكينهم من الدخول إلى البلاد، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها مماليك وجوار وغير ذلك. فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وارسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمور لنك. وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذى تعامل به مع ملوك الدول التي قهرها، إذا اشتملت الهدية على أسرى من أعيان بغداد وقضاتها(٣). كما أن كتاب تيمور لنك إلى السلطان برقوق أشتمل على نوع من التهديد، إذ طالب تيمور لنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكى في أسباب الأضرار الجسيمة التي لحقت ممتلكات المغول من حكام مصر السابقين، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التي قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت ايلخان بن سعيد سنة ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م(٤)، وطالب

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

(2) Bouvet: L'Empire Mongol, p. 49 .

(٣) السلوك جـ ٣ خطية ص ٧١٤ .

(٤) انظر Browne: Litrary Hist. of Persia, VII, p. 159.

على اشمون لحقوه وكان فى العسكر ضجة حتى
تركو خيمهم واموالهم ومواشيهم فلما اصبح
الصبح يوم الثلثا سابع عشر ذو القعدة عدت
حراقة من الفرنج للقتال فلما يخرج لها احد
فدخلت البر فلم يرو فى الخيم احد والخيم كلها
منصوبة والبسط فيها مفروشة والخيل والبغال
والجمال حولها مربوطة وليس فيها انسان، عادة
[عادت] الحراقة واخبرة الفرنج فقالو هذه مكيدة

= الفرعونى «شمون» أى «ثمانية» و ذلك لأنه كان بها ثامون مقدس ـ ومنه جاء الاسم القبطى: Chemoun Erman الذى عُرف فى العربية باسم أشمون الرمان، ثم بأشمون طناح لأنها كانت مدينة أعمال الدقهلية والمرتاحية. و تنسب أشمون إلى طناح لأنها كانت معها فى كورة واحدة. وفى فترة الاحتلال العثمانى أعيد إليها اسمها القبطى وهو شمون أرمان محرفاً إلى أشمون الرمان. وكانت من هذه الفترة من أزهى

---

كذلك بطرد أحمد الجلايرى[1]. ثم بين تيمور لنك فى كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمر قند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية. وأن أهالى هذه المنطقة يتمتعون بحمايته، وعلى السلطان المملوكى أن يرعى الحدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل، وأن يمكن تجاره من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين[2].

غير أن الكلام المسعول الذى ورد فى نهاية هذه الرسالة لم يعجب السلطان برقوق. وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر نائبه بقتل رسل تيمور لنك[3]، وأعلن عداءه الصريح له، فإنه كان على حق فى مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً.

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ فى هذه السنة (٧٩٥هـ) بين السلطنة المملوكية الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذى هددهم جميعا. يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركمانى زعيم قبيلة قرة قويونلو «الشاة

(1) Bouvet: op. cit. p 49 .

(2) Price: Memoirs, VIII. p 160' Yazdi: Op. Cit. pp. 440 _ 441.

(٣) ميرخواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

عملوها علينا المسلمين فطلعو منهم قوم الى منارة جامع الحيرة لينظرو ان كان ثم كمنا [كميناً] فلم يرو احد فنزلو اعلمو الملك فامر ان يعمر شنى [مركب] برجال ابطال يعدى الى الخيم بكشف الخبر فعدو وكشفو الخيم من اولها الى اخرها فلم يجدو فيها احد فعادو واعلموهم فسير المراكب والرجال فحملو الخيم وكلما فيها من الاموال والاوانى والدواب وشون القمح و الشعير والحبوب

=وأشهر المدن المصرية. وفى الدول الناصرى سنة ٧١٥هـ ضم إقليما الدقهلية والمرتاحية إلى بعضهما وجعلت أشمون هذه قاعدة لهما لتوسطها بينهما بعد أن كانت دقهله قاعدة لإقليم الدقهلية و فى أوائل الاحتلال العثمانى أى فى سنة ٩٣٣هـ جعلت المنصورة قاعدة لولاية الدقهلية ومن ذلك الوقت أضمحلت أشمون الرمان وأصبحت قرية عادية من قرى مركز دكرنس.

---

السوداء»[1]. اشتبك رتَّنذاك مع «أطلمش توجين» قائد «قلعة أرنيك[2]» وقريب تيمور لنك. وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذين سجنه بدوره[3]. وبرغم غضب تيمور لنك من هذا العمل الجرىء ومن رد كل من السلطان المملوكى وصاحب قيصرية، وتحدى كل منهما له، فضلاً عن تحدى السلطان العثمانى له كذلك، فإن تيمور لنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونته الآخران[4].

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه فى بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المئونة بها[5] ولذا اتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد جهودهم. فاستولى فى ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ ـ مارس ١٣٩٣م على ماردين بعد حصار قاس، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركمانى، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة فى شمال شرق البحر الأسود. ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية مكتوفة الأيدى إزاء تحركات تيمور لنك، بل اصطدمت جيوش نائب حلب، ونائب ملطية، بطلائع جيوش

(١) تقع على حدود جورجيا ـ راجع Grousset: Op. Cit. p 512
(٢) تقع هذه القلعة فى كورة باسين فى ارزروم ـ راجع مراصد الاطلاع جـ ١ ص ١٠٤.
(٣) خواند امير: حبيب السير جـ ٣ ص ٥٦ .

(4) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p 94.
(5)Yazdi: op. Cit.p 442.

وكلما للسلطان والامرا والتجار وملكو اموال لاتحصى بلاسيف ولاقتال بامر الله ومشيته واخذو من النعم والاموال والدواب والزاد والسلاح مالا يدرك له قيمة ولايحصى له عدد واتو به الى خيمهم واخذو اساره [أسرى] كثير من المسلمين غلمان وغيرهم خلاف ما قتلوه خلق كثير. وفى بقية يومهم قدمو البطس والمراكب الكبار وعدو بالخيل والفرسان الى بر دمياط ونزلو الفرنج فى

---

تيمور لنك عندالرها. وتمكن جيشا النائبين من هزيمتها وأسرا من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقى التتار[1].

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لنك، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش. وعلى حين كنت الاستعدادات لتعبئته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من تيمور لنك. وبدأ تيمور لنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة، ثم عنفه على قتله لرسله السابقين، وأنكر عليه إيواءه لأحمد بن أويس، وطالبه بإرساله ورد جوابه[2].

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسملة، ثم أخذ فى نقد ما جاء فى كتاب تيمور لنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمور لنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء، وأنه لن يعلن طاعته إلا «لأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين»[3].

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) راجع المقريزى: السلوك جـ ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٦ ـ ٦٧.


وصول كونت أرتوا أخي الملك لويس التاسع إلى القصر السلطاني بالمنصورة.

خيم المسلمين على العادليه وتقدمو الى دمياط ونزلو عليها واختلطو بها، فقطعو اهل دمياط قنطرة باب الريس وكانو يقاتلو الفرنج الى ان وصل الملك المعظم عيسى الى اشمون يوم الاثنين الثالث والعشرون من ذو القعدة سنة تاريخه فوجد الفرنج محيطين بدمياط فسال اخوه الملك الكامل عن القضية فاعلمه ان عماد الدين ابن المشطوب افسد عليه العسكر واستحلف الاكراد ان يقتلوه

---

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمور لنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام[١]. ونظراً لأن منطاش ترك خزائن الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات[٢]، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بخزانة شمائل[٣]، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذى سار «فى أبهج زى وأفخر هيئة وأحسن ملبس، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة[٤]. وسار السلطان فى ربيع الثانى سنة ٧٩٦هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٤م على رأس هذا الجيش الضخم، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه.

ويبدو أن تيمور لنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده، فاضطر إلى الاشتباك معه، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه[٥].

---

(١) المقريزى: السالوك جـ ٣ ص ٧٢٤ .
(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .
(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٧٨ .
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٥) العزاوى: تاريخ العراق جـ ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

ويملكو الفـايز ، وانه هرب منهم فى الليل وترك كل شى له خوفا على نفسه، فلما سمع كلامه جـهـز ثلثـون فـارس وثلثين هجين بثلثين راجل (مـشـاة) من العـرب و احـضـر عـمـاد الدين ابن المشطوب فلمـا حـضـر بين يديه قـال له: مـا هذه الاعـمـال التى فـعلتـهـا[ ؟] طلبت تقـتل السلطان وتكون سلطان ولو علمت قـدر نعـمـة الله عليك علمت انك اروح سـر من السلطان واهنى عيشا



مندوبى الصليبين يطلبون اسراهم من مندوبى توران شاه بعد هزيمتهم فى المنصورة.

---

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمور لنك فإنه استمر يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ ـ مايو ١٣٩٤م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشمالية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمور لنك[١]. وفى دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى، إذ أن رسل طقتمش ، الذى تقهقر أمام تيمور لنك إلى حدود بلاده، قدموا يعرضون معاونة طقمش للسلطان ورغبتهم فى عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمور لنك[٢]. كما أرسل السلطان العثمانى بايزيد رسله يعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمور لنك[٣]. ورد السلطان برقوق على كل منهما بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتارى[٤]، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط.

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة[٥] ببغداد، وزوده «بالأمراء

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٦ .
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٨١ .
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٣٧١ .

منه فـاى شى طلبت تكون. وامر الاجناد القـيـام قدامه فرموه. [هذا] اخر ما وجد من اخبار الابا البطاركة بالكرسى المرقصى رزقا الله تعالى قبـول دعاهم الصالح(*).

(*) هذا آخر الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع والأخير من المخطوط.

---

والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه»[1]. ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد فى أواخر جمادى الثانى سنة ٧٩٦هـ - يونية سنة ١٣٩٤م فتمكن أحمد بن أويس بهذ الجيش المملوكى وبمعاونة قرا يوسف التركمانى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد. وأخذ فى بناء سورها وتعميرها[2].

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها، ولو على هذه الصورة الشكلية التى أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قِبَل السلطان برقوق فيها، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق. ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثمانى بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتى ألف مقاتل لعونه على حرب تيمور لنك، كما قدم حكام الأمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون طاعتهم للسلطان برقوق[3].

غير أن السلطان برقوق الذى أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد، دون أن يهمل

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٧١.

(٢) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨، ذكر العسقلانى فى إنباء الغمر أن الأمير العربى نعير أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها، غير أن باقى المصادر أجمعت على أن أحمد بن أويس، بمعاونة الجيش المملوكى، طرد ابن تيمور لنك من بغداد واستولى عليها.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ (خطية) ص ٧٣٣، ص ٧٤٧.

مراقبة حركات تيمور لنك، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سوريه وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها[١].

بيد أن تيمور لنك رغم انشغاله في غزواته لقلعة تكريت في ربيع الأول سنة ٧٩٧هـ فبراير ١٣٩٥م، وروسيا في ربيع الثاني من السنة نفسها، والهند سنة ٧٩٩هـ وسنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م [٢] واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية، إذ أرسل في ديسمبر سنة ١٣٩٨م رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش. وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإبقائهم وإرساله الكتب التي معهم إلى مصر؛ ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلي تيمور لنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه «من الخير والإحسان بالديار المصرية [٣]». وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذى تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمور لنك إلا إذا أطلق تيمور لنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق[٤].

ومهما يكن من شيء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمور لنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضى أبى العباس أحمد صاحب قيصرية، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما.

وأظهر تيمور لنك سروره لهذه الأنباء[٥]. واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج، وبدأ تيمور لنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل أن يتمكن السلطان المملوكي الجديد من ترتيب أموره، أو محاولة الاتصال بالدولة المجاورة، وعلى الأخص الدولة العثمانية التي حمل تيمور لنك لها أشد الكراهية؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان، الذين سبق أن احتموا بتيمور لنك [٦].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ٤ (خطية) ص ٣٣ .

(2) Browne: op. Cit. p 193 .

(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٤٥٢ .

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٤ .

(5) Ibn Arab Shah : tamerlane p. 100.

(٦) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥

وفي صفر سنة ٨٠٢هـ ـ يوليه سنة ١٣٩٩م غادر تيمور لنك الهند، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التي أزمع غزوها[١]. ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه برقة ألا يساعد قرايوسف التركماني أو أحمد بن أويس، وأن يقف محايداً في هذه الحرب القادمة معهما، كما وقف هو محايداً في حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦[٢]، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التي طلبت أن تكون في حمايته، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمور لنك، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه: «ليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم». ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب[٣].

وأدرك تيمور لنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال في بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده فتقدم تيمور لنك في ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ ـ ديسمبر سنة ١٣٩٩م، واستولى على بغداد للمرة الثانية. أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرا يوسف التركماني فإنهما اتجها غرباً لا تذين بالسلطان المملوكي حتى أشرفا على حلب، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب في نزولهما لديه. غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما في حلب في نحو سبعة الاف من فرسانهما[٤]. فقاتلهما بمعاونة عسار دقماق نائب حماة. ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأسر مائة ألف درهم[٥]، وكتب ابن أويس وقرا يوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاصطدام بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتهما، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهم إلى إهمال كتب أحمد بن أويس

(1) Lamb: La VieDe Tamerlane p. 204.

(٢) حرب نيقوبوليس، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149 - 150.

(3) Ibid p. 150 .

(٤) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركماني، ومناصبتهما العداء. وبدلاً من الاستعانة بقواتهما في هذه الظروف الحرجة، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده في سياسة الحرص على تزعم العالم الإسلامي والحرص على وحدته، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيره لقتالهما، فاضطرا إلى الالتجاء إلى السلطان بايزيد الذى أكرمهما، وعقد معهما محالفة مما أثار حفيظة تيمور لنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية[1].

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائبها أمير مصطفى التابع لابن عثمان[2]. وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد فى سنة ٨٠٣هـ ـ يوليه سنة ١٤٠٠م وحمل تيمور لنك على الجيوش العثمانية وهزمها؛ وفر سليمان إلى أبيه في مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركماني، وأخذ تيمور لنك مدينة سيواس، «وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها»[3].

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمراء الدولة المملوكية الثانية فى هذا الوقت بالذات، ولو لم يحدث لغيّر مجرى الحوادث، ذلك أن السلطان العثمانى بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكى فرج لإمكان الوقوف في وجه الخطر التيمورى، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثمانى بسبب تحركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ. ويبن ابن تغرى بردى خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة، وأوضح أهميتها آنذاك فى قله الدراية الحربية التى كانت تنقص الجيش المملوكي والتى كان يمكن تعويضها من ناحية الجيش العثمانى في فنون الحرب، فى حين أن قلة عدد عساكر «ابن عثمان» يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية[4].

وكيفما كان الأمر، فقد تقدم تيمور لنك وزحف على ملطية فى ٢٥ المحرم سنة ٨٣هـ ـ

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ.
(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب.
(٤) بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢١٧ .

اكتوبر سنة ١٤٠٠م وأبادها على عادته[١]. ومن هناك أرسل تيمور لنك كتابه الأول إلى السلطان فرج. وفى هذا الكتاب فند تيمور لنك للسلطان فرج أخطاء أبيه، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه، وأنه سيصب انتقامه على الشعبين السورى والمصرى إن لم يجبه إلى مطالبه[٢]. وحين وصل رسل تيمور لنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبها ـ كالعادة ـ ليخبر السلطان أولا بمجيئهم . غير أن فرج، جرياً على تقاليد والده، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم فى السجن.وأضاف هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليلا آخر على جهله وأمرائه بأمور السياسة فى هذا الوقت الذى تحرج فيه الموقف على حدود سورية. وحين عرف تيمور لنك هذا الأمر تحركت فيه مكامن الغيظ والرغبة فى الانتقام مما فعله برقوق وابنه فرج فى رسله؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثمانى والزحف أولا على بلاد السلطنة المملوكية الثانية ليبيد كل ما فيها بالنار والسلاح[٣].

زحف تيمور لنك فى رجب سنة ٨٠٣هـ ـ نوفمبر سنة ١٤٠٠م على البهسنا[٤]. التى أعد نائبها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها، غير أنه حين وجد ضخامة جيش تيمور لنك تملكه الذعر، وأرسل إلى تيمور لنك يعرض رغبته فى التسليم مع الاعتراف بعجزه وحاجته لمعونة تيمور لنك، فأجابه لما أراد وأحسن استقباله، وفى الحال سكت نقود جديدة باسم تيمور لنك، ودُعى له فى خطبة الجمعة بهذه المدينة[٥]. وبعد أن استولى تيمور لنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة، زحف إلى عينتاب شمال حلب. وعلى الرغم من أن عينتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سُلمت إليه، وفتحت أبوابها، فعين تيمور لنك عليها نائباً من قبله، وفر نائب عينتاب إلى حلب[٦].

---

(1) Ibn Arab Shah: Tamerlene p. 116

(٢) Yazdi: Op. Cit VII p. 159 .

(3) Ibid: p. 160

(٤) البهسنا قلعة بغرب مرعش وسميساط وهى من أعمال حلب. انظر مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٨٣ .

(5) Ibid: p.p. 163 _ 164.

(6) Ibid: p.p. 164 _ 165 .

والعجيب أنه حين تحدق الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في سورية من زحف تيمور لنك يزداد تنافس الأمراء في مصر على النفوذ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك[1]. وتحت الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة التي أحاطت بالدولة، اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار للمعاونة في نفقة العساكر. ولم يكن في وسع القضاة الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم لقتال تيمور لنك[2].

وتحايل تيمور لنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثماني، وأنه بقدومه إلى مصر أراد أن تُضرب السكة باسمه، وأن يذكر اسمه في الخطبة، ثم يرجع بعد أن يقر في مصر سلطاناً يرضى عنه، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه[3]. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسّط[4].

وإزاء هذا التحدي الصارخ من نائب دمشق، زحف تيمور لنك على حلب التي اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل في أول ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ ــ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (إحدى قرى حلب)[5]، فتصدى له الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمور لنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضخماً، وتكون من أحسن المحاربين، وزود بأسلحة كافية لصد أي هجوم[6]. غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثيرمن الفرص وعرّض سورية للضياع، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطربلس وحماه وصفد وغزة في حلب، وعرض عليهم خطورة الموقف، وقوة تيمور لنك ودهاءه ونصحهم بضرورة التعاون

(1) Grousset: Op, Cit. p. 527

(٢) المقريزي: السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣ .

(٣)ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .

(٤) العيني: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٢٤ .

(٥) راجع الأنصاري: نخبة الدهر ص ٢٠٥ .

(6) Yazdi: Op. Cit. VII p. 161

بينهم جميعاً، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ فى هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها للقاء تيمور لنك ، ووضع خطة ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمور لنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحى[1]. غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء. ومع أن نواب سورية فى عهد برقوق أسهموا بقسط كبير فى صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية، فإنه من المخجل أن يختلف الأمراء وقتذاك فى سورية على الزعامة فى هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف امراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة[2].

وكيفما كان الأمر، فقد عمد تيمور لنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء، فأرسل إلى دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون نائب دمشق، وجاء فى كتاب تيمور لنك إلى دمرداش نائب حلب «إنا لما وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة.. فلما وصلنا العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد، فتوجهنا إليهم، فأظفرنا الله بهم، ثم رجعنا إلى الكرج، فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب الصبى ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، فشغلنا بسيواس، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا فى الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها،... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا قريبنا أطلمش، وإن لم تفعلوا، فدماء المسلمين فى أعناقكم والسلام[3]».

ونشر تيمور لنك بوساطة رسله جواسيسه الذين انتشروا بين العساكر بأن دمرداش كاتبه لاحتلال حلب[4]. غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمور لنك ودهاءه، بل

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٨٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٧ .

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلامن مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢١ .

على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان. على أنه مما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع، بدليل أن دمرداش حين رأى مطاولة تيمور لنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو، وغضب دمرداش وبرأ جانبه بقتل رسول تيمور لنك، واحتفظ برأيه لنفسه[1].

وعلى حين أخذ النواب في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمور لنك على قرية جيلان، خارج حلب في ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠م). ثم تقدم لحصار حلب. وبرغم هذا الانقسام الذى ساد الأمراء، فإن أهل حلب استماتوا في الدفاع عن مدينتهم، وركبوا أسوار المدينة، وقاتلوا تيمور لنك أشد قتال، مما أخجل النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة، ورتبوا عساكرهم فوقف سودون نائب دمشق في الميمنة، ووقف دمرداش نائب حلب في الميسرة وكوّن عساكر النواب الآخرين قلب الجيش. غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهرحين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها، وصبيانها، في مقدمة الجيش مما سهل على تيمور لنك اكتساحهم[2]. ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمور لنك لهم بجيوشه وفيلته، ففرزا قاصدين داخل حلب رغبة في الاحتماء بأسوارها[3]. فتتبعهم جيش تيمور لنك وهاجم المدينة بكل قواته التى قدّمت بنحو ثمانمائة ألف جندى[4]، فهلك تحت حوافز الخيل من البشر ما لا يدخل تحت حصر. وتناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضا «حتى صارت الرمم طول قامة»[5]. ولجأ تيمور لنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهم وربطوهم بالحبال وأعملوا فيهم السيف. ثم «صارت الأبكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن

---

(1) Yazdi; Op. Cit. II p. 168.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.

(3) Price : Memoirs VIII. p. 330.

(4)Thoumin: Hist. De Sryie p. 245.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٩١.

من غير احتشام» وبذل عساكر تيمورلنك السيف في عامة حلب وأجنادها، حي امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى [1].

ومع أن القتال استمر أربعة أيام، فإن تيمورلنك لم يستطع ـ الاستيلاء على قلعة حلب[2]. التى نقل إليها الناس أموالهم، والتى كافح فيها سودون ودمرداش كفاحا مريراً، حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة. ولكنهم بعد أن اطمأنوا إليهم أمر بحبسهم، ثم سيق إليه من بقى من نساء حلب سبايا، وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه، أباح النهب والسلب والقتل فيمن بقى من أهل حلب، ثم أمر بقطع الأشجار، وهدم البيوت، وإحراق المساجد حتى «جافت حلب ظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لايجد الشخص مكانا يمشي عليه إلا وتحت رجليه رمة»[3]. وتسلى تيمورلنك برءوس القتلى «فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعا»[4]. وقبض تيمورلنك على سودون ودمرداش، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقى الأسرى. ولكن السلطان فرج وأمراءه كانوا في واد آخر.

وينعي ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعز وها إلى سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم في وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى فقدت بقيتهم الثقة في قدرتهم على الدفاع عن المدينة. أما العسقلاني فيرى أن غباء دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكي خارج حلب، إذ أن دمرداش أثار الفتنة. بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعير أمير آل فضل، فغضب نعير من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التى لم يكن يستهان بها في مثل هذا الظروف[5].

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.

(٢) تسمى هذه القلعة الشهباء لبياض حجرها ـ راجع الأنصارى: نخبة الدهر ص ٢٠٢.

(٣) القرمانى: أخبار الدول ص ٢٠٨.

(4)Yazdi: Op. Cit. VIII p. 176.

(٥) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣١.

وبعد أن أقام تيمورلنك في حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية «من سكانها وأنيسها» مظلمة بآثار الحريق، وسار قاصداً دمشق، ومر ابنه ميران شاه بمدينتي حماه وحمص واستولى عليهما، وقام بنفس الدور الذى قام به والده في حلب [1]. ثم احتل تيمورلنك بعلبك التي دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها[2].

وأما أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها، وأنه في طريقه إليهم، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها[3]. وتحمس المخلصون منهم في الدفاع عن مدينتهم ونادوا في الناس بأن«من سافر نهب [4]. وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو، وهكذا بدأ الناس في تحصين المدينة ونصبوا المجانيق على قلعتها، والمكاحل على أسوارها.

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميما رائعا وإيمانا قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان. وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الجديد وهم النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحاً [5].

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضاع الكثير من الفرص لإبعاد الخطر التيمورى، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامي لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك .

وعلى الرغم من وصول السطان فرج إلى دمشق في ٦ جمادى الأول سنة ٨٠٣هـ يناير ١٤٠١م فإن الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمرداش نائب حلب، الذى تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش في حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً في الجراكسة، وأنه لوثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك [6].

---

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة.٩٠ ب.

(2)Yazdi: Zafarnama II p. 180.

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٧.

(٥) ابن قاضي شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ .

(٦) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ ـ ١٧٥ .

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق الذين أخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته. وعسكر فرج بجيشه في سهل يلبغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة ـ إحدى قرى دمشق ـ ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي. وظل على هذه الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة[1]. وفي المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكي، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبدته خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السطان فرج مرة أخرى في طلب الصلح على أساس إطلاق أطلمش، وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة[2]. واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين. وبعد عرض عسكري كبير أمام رسول تيمرولنك الثاني، الذي وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطلمش في ظرف خمسة أيام، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا[3].

ولم يكد تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف. فزحف على غوطة دمشق[4] بعد ذلك بعشرة أيام، فسلمت له دون قتال. وعقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط[5]. وعاود الأمير تغري بردي النصح في ضرورة قبول الصلح في هذه الظروف الحرجة، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة. فكتب

---

(١) ابن خلدون: التعريف ص ٣٦٧.

(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184.

(٣) شرف الدين علي يزدي: ظفر نامة جـ٢ ص ٣١٧.

(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفي أطرافه جبال عالية وترويه عدة أنهار راجع Le Strange : Palesline p. 33.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٥.

السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقه على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذى قام به بعض الأمراء في الليلة السابقة ١٩ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠١م، وأنه سيطلق الاسرى من عنده في اليوم التالي. غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً، ولاسيما أن عيون تيمور لنك أوقفوه على حقيقة الحال في داخل دمشق مما جعله يرفض موافقة السلطان فرج، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة.

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل في النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه، ومن المماليك السلطانية، وتبعتهم جماعة أخرى، وهرب الجميع إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج ، وتتبعهم لمواجهة هذه الفتنة، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيمور، وذلك في ليلة الجمعة ٢١ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ [١].

وعرف تيمور لنك هذه الحقيقة فنشر الذعر في صفوف الجيش المملوكي حين قبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا النبأ، كما أضرم ناراً في أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكي أن عساكره ملئوا جميع نواحي المدينة بقدر أماكن النار [٢].

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ يناير سنة ١٤٠١م ـ أدى إلى تسلل بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمورلنك لهم [٣]. وتتابع دخول الفارين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة، وهم في أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له في الطريق من الجوع والعرى [٤].

أما العساكر الذين بقوا في داخل دمشق فإنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم، فإنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال

-----------------------

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit p. 141.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٥٩.

(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٥٢.

(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣٣.

دون أن يعلموا برحيل السلطان [1]. ولكن تيمور لنك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حين علم برحيل السلطان. غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال، حتى ردوه بعيداً عن السور والخندق وأسروا عدداً كبيراً من جنده، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف [2]. وإزاء تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمور لنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح، ونجح في هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضى القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلي للمفاوضة على رأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم [3].

وحين اجتمعت البعثة بتيمور لنك عرض عليهم تيمور لنك أنه لايريد سوى أن يخرج إليه أهل دمشق «الطرقزات» [4]. ثم يعود، وخدع ابن مفلح بكلام تيمور لنك وعاد ليثنى عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال [5]. وعلى الرغم من أن بعض الأمراء في قلعة دمشق حاولوا جاهدين منع ابن مفلح من نشر رأيه، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل. فضلاً على أن أكثر الأهالي حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمر الواقع.

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج «الطقزات» من باب النصر منعه. نائب القلعة، وهدد بإحراق المدينة. فأخرجوا الطقزات من السور، واتجهوا إلى معسكر تيمور لنك الذى رحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق [6]. وحين قرئ الأمان بالجامع الأموى فتح الباب الصغير (باب المدينة القبلي)، ثم طمأن تيمور لنك الناس حين بعث

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p. 141.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٨.

(3) Fischel : Op. Cit. p. p. 33 - 34.

(٤) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسعة» ويسمون ذلك «طقزات» والطقز باللغة التترية معناه تسعة. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٩.

(٥) القرماني أخبار الدول ص ٢٠٩.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٤٠.

بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية، وصلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق [١].

وانتقم تيمور لنك من المدنية أبشع انتقام؛ فلم يكتف بأخذ ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافي المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها [٢]. وبعد أن قسم المدينة على أمرائه، ونزل كل أمير بقسمة، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين، وغم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، وإذا أشرف على الهلاك، يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به ويصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط. وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملاء من الناس... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب ، إذ أخذ التتار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال بكتفي الرجل، وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه. واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣هـ ـ فبراير سنة ١٤٠١م بعد أن هلك في هذه المدة في أهل دمشق خلق كثير [٣] ولم يحترم يتمورلنك في ذلك الأخوة الاسلامية التي كانت تجمعه مع أهل هذه البلاد.

وحين عزم تيمور لنك على دك معالم الحضارة فيها، أشعل النار بها في يوم عاصف، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموى وزالت أبوابه [٤]..وفنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها. والخلاصة أن تيمور لنك ترك

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٧ ص ٦٤.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (مصورة) ورقة ٢٧.

(٣) نفس المرجع والجزء والورقة.

(٤) ذكر علي شرف الدين يزدى أن سقوف ا لجامع الأموى احترقت مصادفة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تعمد إحراقها وأيد هذا الرأى شاهد عيان هو الرحالة البافارى Schiltbeger الذى ذكر أنه=

دمشق أطلالاً بالية، وفيها أطفالها معرضين للجوع والموت، وأخـذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمر قند عـاصـمة بلاده حيث استخدم هـؤلاء في تجميل عاصـمته [1] الإسـلامـيـة الجديدة.

على أن غزو تيمور لنك لسورية تمخض عنه عدة نتائج، أولها ما أصاب مدن سورية وقراها من نقص في السكان، فضلاً عما أصابها من الخراب، حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة في إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمور لنك [2]؛ ثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج [3]. وثمة نتيجة ثالثة لغزو تيمور لنك لسورية هو نشاط طرق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار في طرق وسط اسيا وغربيها [4].

أما صدى غزوة تيمور لنك لسورية في القاهرة فإنه عند عودة السلطان فرج بجيشه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة، ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له، وما لبثت أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته، فانتشر الرعب بين الناس. وزاد سوء الأحوال الاقتصادية «لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمور لنك على القاهرة» [5]. وغلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشا لشدة الحاجة إليها، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها. ومما زاد الحال سوءا أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمور لنك، وفرض على سائر أراضي مصر وأوقافها ضرائب كثيرة، ثم عاد فجبى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً، وأخذ يلبغا السالمي ا ستاداره يهاجم الفنادق والحواصل في الليل،

---

= بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور فيه النار - راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23.

(1) Hitti: Hist. of The Arabs p. 701.

(٢) راجع ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢، ٥٧.

(3) Huart: Hist. Des Arabes T11 p. 94.

(4) Ibid: P. 115.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ١٨٣.

فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه، وأخذ نصف مايجده فيها، وإذا لم يجد صاحب المال، أخذ جميع ما يجده، كما استولى على ماوجد من حواصل الأوقاف[1]. وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لايستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض [2].

على أن تيمور لنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني. على أننا نلاحظ من حركات تيمور لنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة فى أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له. ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكي ودك معالم الحضارة في سورية، اتجه إلى الشمال ليفاجئ بايزيد قبل أن يفاجئه. ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع، إذ وجد تيمور لنك السلطان بايزيد يقظاً لحركاته، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد [3]. ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثماني، فأرسل تيمور لنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له، وأن أى تعد على أملاكه يعتبر تعدياً على أملاكه هو [4]. ثم بعث تيمور لنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرا يوسف التركمانى اللذين احتميا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه . وإذ أصبح الجيش العثمانى قوة لايستهان بها خاصة بعد أنتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦م فإن بايزيد تحدى تيمور لنك ورد عليه رداً خشناً مما دفع تيمور لنك إلى الإغارة عليه في سبعمائة ألف فارس وثلثمائة ألف من المشاة وذلك في سنة ٨٠٥هـ ـ يوليه سنة ١٤٠٢ [5].

وحين وصل تيمور لنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه عما نويل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٤٧، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ورقة ١٧٩.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦٥.

(4) De Clavijo: Op. Cit p. 73 - 74.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦.

المشاة والفرسان. كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحرب [1]..ولم ينتظر تيمور لنك مساعدة هذا أوذاك كما أنه لا يوجد مايشير إلى عقد محالفة مع الغرب، بل تذكر المصادر أن تيمور لنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد، واستخدام الحيلة في سيره عبر الجبال إلى أنقرة في طريق غير الطريق التي توقع بايزيد أن يسير فيها تيمور لنك [2]، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جحافل تيمور لنك [3]. ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه في أسر تيمور لنك.. وصار يبدو أن الامبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون[4].

ولانتصار تيمور لنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية ـ وهما القوتان اللتان حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامي آنئذ ـ أثر كبير في محاولة الغرب النيل منهما، وذلك حين أرسل هنرى الثالث ملك أسبانيا في يوليه سنة ١٤٠٢ سفارة سياسة من playo De satomayor ومن Fernando لدعم علاقات بلاده مع تيمور لنك وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضي، وحمله خطاباً وديا وهداياً من جملتها جواهر وجوار إلى هنرى الثالث. وشجع هذا الود هنرى الثالث على محاولة الارتباط بأى نوع من التحالف مع تيمور لنك فأرسل في ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣م بعثة أخرى برئاسة De Glavijo[5].

---

(1) De Clavijo : Op. Cit . pp. 76 - 77.

(2) Ibid . pp. 76 - 77.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ ـ ٥١.

(4)Gibbons:foundation of the Ottoman Empire, p:225

Oman: The Byzantie Empire,p334

(٥) De Glvijo pp.76-77 هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره في أنقره إلى هنرى الرابع ملك انجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجارى مع بلاده، ورد هنرى الرابع عليه بالتهنئة بانتصاره على العثمانين وأصول هذين الخطابين موجود في

Vide Originah Letters llustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis pp 56-58

غير أنه برغم إكرام تيمور لنك لهذه البعثة فإنه لايوجد ما يشير إلى إى تحالف رسمي بينهما. ويبدو أن السبب هو مرض تيمورك مرة أخرى[1].

على أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمور لنك على الدولة العثمانية ثم انسحابه في نوفمبر سنة ١٤٠٢، وهي ضياع أرمينية من أيدى السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء، والشاة البيضاء، (قراقويونلو، آق قويونلو)[2].

وفي طريق تيمور لنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنبأه فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطلمش، وأنه إذا قدم عليه، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين. وأما إذا امتنع السطان فرج عن تنفيذ مطالبه، فإنه سيعود إلى تخريب مصر[3].وحسما للموقف طلب السلطان فرج أطلمش من سجنه بالقلعة، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطلمش عليه أن يكون عيناً له عما من أمور تيمولنك فضلا عن إشادته بما لفرج ولوالده من أفضال عليه [4].فخلع عليه السلطان فرج وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم واطلقه مصحوباً ببعثة من أمرائه [5].

وهكذا تم الصلح بين السلطان فرج وبين تيمور لنك.

ولم تقف علاقات تيمور لنك بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل إن تيمور لنك حين استقبل أطلمش في المحرم سنة ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج، وعرض فيه تيمور لنك رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية، فشكر الأمراء على إرسال أطلمش، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج، إذ ارسل إليه هدية شملت على علمين لونهما أخضر وخلعة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج

(١) صادف وصول بعثه De Clavijo وصول بعثة من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومعها هدايا ـ راجع
Le strange: Clavijo Embassy To Tamerlane pp.9_12

(2) Kevork:Armenia p. 101

(٣) مير خواند: روضة جـ ٦ص ٢٤٦ .

(٤) ابن قاضي شهبة. ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ورقة ٢٠٤ .

(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣٨.

نائبه على الديار المصرية والشامية. نتج عن هذه للإساءة إلى السلطان فرج أنه رفض الهدية واعادها.

ولم يفتأ تيمور لنك يظهر عدم تقديرة للسلطان فرج إذ أرسل إليه في ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذى عينه تمورلنك حاكماً على بغداد من قبله. وذكر تيمورلنك في خطابه أنه أرسل إليهما ولده مير ان شاه في مائه ألف فارس فهربا منه. وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين الفارين، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه(١).

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلي الذى تمثل في إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة، فإن العامل الخارجي الذى تمثل في غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة في وقت الحروب حتى انتصرت على المغول في واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ــ ١٢٥٧م وفي مرج الصفر في رمضان سنة ٧٠٢هـ ــ ١٣٠٣م، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبيات سبب هزيمتها أمام التتار (تيمور لنك). وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص في حملات كسبت نصراً مؤزراً وضع حداً للأخطار التي تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة(٢).

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامي. وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودها متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين، الهدايا مع صاحبه (٣). ثم زاد في أواصر هذه

(١) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الأسلام مجلد ٣ورقته ٢١٣ .

(٢) راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع.

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ١٩٩.

الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر. والبداية التاريخية لهذا الاتصال هى سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثماني رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لرده [١]. ويبلغ من ثقة السلطان برقوق، وبعد نظره أنه لم يربط بتحالف مع السلطان العثماني، وإنما أظهر استعداده لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثماني. وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته في الوقت الذى لم يكترث فيه بخطر تيمورلنك بدليل قوله«إني لاأخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدني عليه وإنما أخاف من ابن عثمان» [٢]. ويبدو أن برقوق كان على حق فى اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة ٧٩٣هـ ـ سنة ١٣٩١م على قيصرية وقبض على صاحبها وهى وقتذاك فى حماية السلطان برقوق. غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦هـ ـ سنة ١٣٩١ م جعل بايزيد يبعث باعتذراه إلى برقوق وهو فى سورية كما أرسل مفاتيح المدنية وهدية قيمة [٣]. ولم يتأخر السلطان برقوق فى قبول الاعتذار، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكنى إلى بايزيد، وعقد الصلح بينه صاحب قيصرية [٤].ووجد السلطان بايزيد فى صداقة السلطان المملوكى خير معين له على دفع الخطر التيمورى.. فرد فى نفس السنة ٧٩٦هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليلة وكتاب يحذر فيه السلطان برقوق من خطر تيمولنك، وأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس، كما سأل السلطان برقوق فى تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداوية [٥]. غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثمانى وإكرام رسلة وأرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان [٦].

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ب.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ص ٣٨٥.

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة٦٩.

(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ ١ص ٣٣٦، ٣٤٠،

(٥) المقريزى: السوك جـ١ ص ٧٠٨.

(٦) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان و رقة ١٤٥أ.

وفي أواخر سنة ٧٩٦هـ ـ بعث بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة. ومع أنه لايوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب بايزيد الذى كتبه حوالي سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠٠م إلى تيمورلنك ذكره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة» الذين لجئوا إلى مصر، ليذكر هذا الحاكم الفظ أنه لاتزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أوعلى الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التي يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك[1].

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م حين وصل إلى القاهرة رسل السلطان بايزيد ومعهم هديه للسلطان برقوق؛ منها مائة أسير من الفرنج الفرنسيين والإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في البحر [2]. ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بانتصار بايزيد الحاسم على الفرنج في نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ سنة ١٣٩٦م [3].

بيد أن العلاقات بدأ يشوبها السوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر وأغار في أواخر شوال سنة ٨٠١هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة [4]. وارتكب السلطان بايزبد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في تزعم العالم الإسلامي، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة، كما دلّ ذلك على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسة بين البلدين في تلك الظروف العصيبة التي أحاطت بالدولتين، وصار لهذا الخطا أثره في نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية، وأرسل بايزيد يطلب محالفه السلطان فرج لصد خطر تيمورلنك

---

(1) Arnold: The Caliphate p. 105, D'Ohosson : Tableau De L'Empire Othoman VI p. 233-234.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤١٤.

(٣) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣.

(٤) االعيني: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧٨.

رفض الأمراء محالفته، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١هـ. ولم يدرك السلطان فرج أن الأمراء بانتهاجهم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمناها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة، وهي الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسل مع جيرانه حتى غير تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً.

وإذ شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثماني والمملوكي زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣هـ-١٤٠٠م. وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التي لحقته من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك في واقعة أنقرة التي أسر فيها بايزيد، والتي أباد بعدها عدة مدن عثمانية [1]. وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانيين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية في شبه جزيرة اسيا الصغرى، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسره كانت مخجلة حقاً، حتى أن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦م). إما مصادفة أو بناء خطة مرسومة لمدة ست سنوات لتحطمت قوة العثمانين إلى الأبد.

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني والاصطدام بينهما حوالي قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء. وبقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثماني محمد بن بايزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٢م وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا في كثير من المناسبات [2].

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧هـ - يناير سنة ١٤٠٥م أزال منافساً خطيراً من طريق العثمانيين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم في الشرق. وبدأ ميزان القوى في الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية. وأصبحت صداقة الدولتين صورية، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر، إذ صار كلما اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح

(١) الزياني: الترجمان المعرب ورقة ٩٠.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٦١.

قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة [1]. وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهنئة والتبريك، حتى إذا شعر السلطان العثماني بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وازالها سنة ١٥١٧م.

وكما واجهت دولة المماليك الثانية في بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق، فإنها واجهت مشكلات إخرى من جانب الغرب، مرجعها أن التجارة في البحر المتوسط أصبحت احتكاراً للبندقية التي تخلصت من منافستها جنوا [2].واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة. ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونيين ومن انضم إليهم من الروادسة (جزيرة رودوس) والقبارصة.

وشغلت أعمال القرصنة التي قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق ومن ابنه فرج. ففي جمادى الآخرة سنة ٧٨٥هـ ـ يولية سنة ١٣٨٣م هاجم الجنوية صيدا وبيروت، ونزلوا إلى البر [3].فاتجه اينال اليوسفي أتابك دمشق إلى الساحل ، وحاول أن يقذف بهؤلاء الفرنج في البحر حين احتموا بمراكبهم، لولا أن أسرع لنجدتهم الفرنج المقيمون في بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم [4].

وفي الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوية لتهريب بضائع في مراكبهم من الاسكندرية [5]. ويبدو أن فشل هؤلاء الجنويه جعلهم يتجهون إلى مهاجمة ثغرى رشيد ودمياط. غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرق في ثغر رشيد بقيادة الأمير

---

(١) راجع زيادة: نهاية السلاطين المماليك في مصر ١٩٩ وما بعدها.

(٢) Kirk : Ashort. Hist. Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال القرصنة من جانب القبارصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم: بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البندقية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية. راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٨٢.

(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٢٩.

(٤) العيني: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٨.

(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ.

أحمد بن يلبغا الخاصكي، وفرقة أخرى في ثغر دمياط بقيادة الأمير ايدكار[1]. فتعذر على هؤلاء الجنوية غزو رشيد ودمياط، ولذا أعادوا الكرة على ثغر بيروت وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطر نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب في طردهم[2].

وحين تكرر هجوم الجنوية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٦هـ ـ١٣٨٤م إلى الأمير الطنبغا الجوباني ببناء أغربة وشواني لغزو الجنوية في بحر الروم . غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧هـ سنة ١٣٨٥م، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول المملوكي من قتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم، وقيل إن ثلاثة بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسرهم. وبعد هذا الانتصار وصلت الأغربة إلى بولاق في جمادى الآخرة سنة ٧٨٧هـ ـ يونيه سنة ١٣٨٥م بالأسرى والغنائم حيث عرضوا على السلطان في اليوم التالي من وصولهم [3].

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوية لم تؤثر في حصول بعض تجارهم على ارتباطات تجارية وقنصلية [4]. ولذا فإن الجنوية لجئوا في سنة ٧٨٨هـ ـ سنة ١٣٨٦م إلى مصالحة السلطان برقوق [5]. ولم يتأخر السلطان في قبول الهدايا منهم حرصاً على مصالحه التجارية في البحر المتوسط.

غير أن الجنوية عادوا سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال السلطان برقوق بالنزاع الداخلي مع الترك ـ إلى اعمال القرصنة، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة في المياه السورية في مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم ، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه. فهاجم

---

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ.

(٢) المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٤٦٣.

(٣) العسقلاني: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٤.

(٤) Lammens: la Syrie, VII p. 36 .

(٥) المقريزي: السلوك جـ ٣ ص ٤٦٣ .

الجنوية مراكب السلطان وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من الجراكسة، فثار السلطان برقوق، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج سواء كانوا تجاراً أوقناصل أورعايا، ونهض نائب الإسكندرية فى القبض على عدد كبير منهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١).

وإذ تحرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوية وبين السلطان حتى اتفق الجنوية على أن يطلقوا من بأيديهم من الأسرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم، وأسرع الجنوية بتنفيذ الاتفاقية، وقدم بالأسرى الجراكسة تاجر السلطان الخاص الخواجا على بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق فى آخر ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨م (٢).

وفى سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٩٠م تحرك أسطول مكون من اثنتى عشرة سفينة جنوية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا، وهاجموا جميعا ميناء طرابلس، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركباً واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غربا حيث استولوا على جزيرة Jerba فى خليج قابس التابعة لأبى العباس أبى بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهدية وحاصروه، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج، وقتلوا الكثيرين منهم (٤).

وفى عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانى الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلى ففى سنة ٨٠٤هـ ـ ١٤٠١م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بالبضائع المعدة للتصدير لمصر، وأسروا من فيها، وتوغل هؤلاء القراصنة فى إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالى تمكنوا من اعتقالهم(٥).

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٢٣.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ ـ ٥٠.
(3) Atiya : Op. Cit. P. 398.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥١ ـ ٦٥٣.
(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجارية بالسلاطين فإن هذا المركز تعرض للضعف في سنة ٨٠٦هـ ـ ١٤٠٣م حين تقدم اندريه جستنيان قنصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج، عرض فيها مدى جهود البنادقة في إنعاش تجارة الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة، وأنهم برغم هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء. ولم يكن قنصل البنادقة موفقاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه، وأنهم (أى البنادقة) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد «بقوة الله» فإنهم في هذه المرة سيكونون «ذوى مكانة مرموقة». أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكترائه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده، لأن الغرب المسيحي منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من «بابا على حين اتحد العالم الإسلامي في اعترافه بشخص الخليفة الواحد»(١).

أما جنوا فإنها استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦هـ، وفي هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبارصة، وذلك حين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها؛ وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا. غير أن غرض De Boucicaut لم يكن كذلك، بل إنه عزم على ضرب الإسكندرية، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيجنان ملك قبرص وعقد معه الصلح (٢). بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaut منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهبته لصد الهجوم. أما De Boucicaut فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية ـ ذر للرماد ـ سفينة بها سفيرين من لدنه أعلنا أنهما جاءا لعقد الصلح مع السلطان. وحين علم السلطان بهذا النبأ أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaut إلى سفيره، الآخر بالعودة إلى رودس. وأدرك De Boucicaut عدم

(1) Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XVS. pp. 83- 84.

(2) De Iaville le Roulx : La France En Orient, p. 422.

جدوى هذه المفاوضات فاتجه بأسطوله، وهاجم ميناء انطالية فى آسيا الصغرى، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية. ولكنه بعد أن قا م بعملياته الحربية فى ميناء انطالية عاد إلى فاما جوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية؛ على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاماجوستا. غير أن حملته فشلت فى الاستيلاء على الإسكندرية فى أغسطس سنة ١٤٠٣م بسبب استعدادات السلطان فرج [١] ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال شوارع الإسكندرية مع الفرنج، وكذلك فشل فى إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية [٢].

علـى أن De Boucicaut لم يكتف بفشله فى الإسكندرية بل جرب حظه فى طرابلس، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك، ولكنه فشل حين هاجمها فى ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣م، فرحل إلى بيروت [٣]. وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من ناحية متاجر البنادقة. وبعد أن نهبها رحل من بيروت مسرعا إلى فاماجوستا غير أنه فى الطريق اصطدم بأسطول للبنادقة، الذى انتقم للرعايا البنادقة فى بيروت [٤].

وهكذا عـاد De Boucicaut بعد فشله الذريع فى القيام بعمل واضح من أجل إعادة نشاط جنوا التجارى فى منطقة شرق البحر المتوسط [٥].

على أن القبارصة ـ وأعنى الملك يوحنا لوزيجنان بالذات ـ يعتبر مسئولاً عن الهجوم الذى شنه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaut بأربع سفن قبرصية [٦]. كما أنه فى المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦م وعد بتعويض التجار البنادقة فى المدينة لما أصابهم من الجنوية [٧].

---

(1) Piloti: Op. Cit. pp. 89 - 90. (2) Ibid : p. 90.

(٣) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٨٦.

(4) Piloti : Op. Cit. pp. 29.

(5) De Bouard : La Roulx : Op. Cit. VI pp. 475 - 477.

(٦) راجع المقريزى: السلوك جـ٣ (شمسية ورقه ٤١).

(7) Delaville La Roulx: Op. Cit. VI pp. 475 ` 477.

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً فى السعى لعقد الصلح من السلطان فرج رغبة فى إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية. وفى هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضا عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الجنوية فى مصر سيقبض عليهم جميعا [١].

وكما عادت التجارة مع جنوا، فإنها عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨م، وتوسط فى هذا الصلح بيلوتى Piloti التاجر الكريتى بمصر، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية. وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم [٢].

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة المماليك الثانية [٣]، واعتبروا سلاطينهم ورثاء دولة المماليك الأولى فى «ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين» [٤]. فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية [٥]، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة المماليك الأولى فى صد الأخطار الصليبية التى تعرض لها المغرب كثيرا.

---

(1) Piloti : Op, Cit. pp. 94- 95.

(٢) تعرضت الموانى المصرية لهجمات القراصنة القطالونيين، ونهبوا السفن الراسية فيها، وكثيرا ما لجئوا بأسلابهم إلى قبرص وبعض جزر بحر إيجه وخاصة جزيرة ناكسوس. وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧م أن هاجم القرصان بطرس القطالونى سفينة تجارية مصرية محملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى جاك كريسبوس فى جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية. وغضب السلطان= = فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها وعاتبه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى. وصادر فرج سفينة للبندقية كانت راسية بميناء الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس، ووسط بيلوتى فى هذه المهمة، وحين نجح كافأه فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهرياً بدون ضرائب راجع : Miller: The Latins In The Levant : p. 399

(٣) ابن أبى السرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ٢٩١.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(5) Piloti : Op. Cit. pp. 57- 87.

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ ـ سنة ١٣٨٢م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية. وإذ احتاج السلطان برقوق للجياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق . ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصي بأولاد أبن خلدون رغبة في عودة ابن خلدون إليه، أرسل إليه السلطان برقوق في ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٤م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر [١] وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد. غير أن سوء الحظ صادف السفينة التي وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبي العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق وأعاده إلى سلطانه بهديه من الملابس الفاخرة [٢].

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة. وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه. واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة [٣].

ونظراً لكثرة حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول استمر وده لبلاد المغرب، حتى إنه في سنة ٧٩٣هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن علي بن غانم شيخ أعراب المعقل بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم ـ من ملوك بني مرين بفاس ـ سنة ٧٧٥هـ ـ ٧٩٦هـ [٤]. كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتابا شفع له فيه، وبعث إليه بهدية، كما أوصاه بانتقاء الخيل له، وقبل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته،

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.
(٣) المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٦٥٢.
(٤) السلامي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ ص ١٤٠.

وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦هـ ــ سنة ١٣٩٧م [١]. فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن علي. وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشترى له الخيل. فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلى، وكتب كتابا إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر بن أبى حفص سلطان تونس، و كتاباً إلى سلطان تلمسان من بنى عبد الواد، وكتاباً آخر لسلطان فاس. وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسى، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية فاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من المنح[٢]. وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانها أبى زيان بن أبى حمو، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانها من أحسن الجياد. ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه [٣].

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز لها، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز [٤]. وجرت العادة أن يولى السلطان المملوكى على مكة أميراً من اهلها وله حق عزله إذا ثبتت مخالفته لأوامره. بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية. واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمير قوى يدين له بالطاعة، حتى يضمن أمان طرق التجارة. في البحر الأحمر. وفى بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان وابنى عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس فأشركهم جميعاً فى إمرة مكة، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقبة من ناحية، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى، فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ ــ ١٤٢.

(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠ ــ ٣٤١.

(٣) نفس المرجع ص ٣٤٤ ــ ٣٤٥.

(4) Piloti : Op. Cit. p. 41

أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة [١].

ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان في رشوة رجال مصر إرضاء السلطان برقوق بالهدايا، بل إنه حين رأى كبيش - رسوله إلى مصر - إقبالاً من رجال الدولة على عنان، وافق على مارسمة السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة، وعرف أحمد بن عجلان بما دار في مصر، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أوقتل عنان، فقرر الرأى الأخير. وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقبة وإخوته الخمسة وقيدهم جميعاً سنة ٧٨٧هـ - ١٣٨٥م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم، فإنه ماطل في تنفيذه وبقي الإخوة بالسجن. أما عنان فإنه تمكن من الهرب واستجار بالسلطان برقوق، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض [٢] ، ورد عليه بقوله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة [٣].

غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحة في الحجاز، وتجارته في البحر الأحمر، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر. غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين: أولهما، عزم السلطان على التخلص منه، وثانيهما، خوفه من انتزاع أقاربه الولاية منه. ومهما يكن من شئ فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨هـ - سنة ١٣٨٦م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان في الطعام [٤].

وحين مات أحمد بن عجلان في ٢٠ شعبان سنة ٧٨٨هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخدع محمد بن أحمد بن عجلان، الذى طالب السلطان بأن يخلف أباه، بأن أرسل إليه العهد والخلعة بولاية مكة، على حين أنه أذن لعنان في التوجه صحبة بعثة الحج [٥].

---

(١) الفاسي: الثمين في تاريخ البلد الأمين حـ١ ورقه ٢٤ب.

(٢) نفس المرجع: والجزء ورقة ٢٥أ.

(٣) الخزرجي: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣.

(4) De Gaury : Rulers of Mecca. p. 102.

(٥) المرجع السابق والصفحة.

وأمر أمير الحج بقلة مراعاته لعنان فى الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر. والخلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد مائة يوم من موت والده كما ساعد قاتله على الاختفاء بين الحجاج، ومكن عنان من تولى إمرة مكة [1].

غير أن عودة عنان إلى مكة لم تجد السلطان برقوق شيئاً، إذ ظهر ضعفه من عدم قدرته على التغلب على ابن عجلان، الذى اغار على جدة واستولى على ما فيها من أموال وغلال تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة[2]. وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى على بن عجلان إمرة مكة. غير أن أصحاب عنان تحمسوا وامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان، وتمكن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان. غير أنه طلب عناناً لخدمة المحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله، ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان. ولم يجد السلطان بداً من أن يترك المسألة جانباً، وأرسل سنة ٧٨٩هـ ـ سنة ١٣٨٧م إلى عنان يقول له «انت على ولايتك فافعل ما تقدر عليه» [3]. غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين نهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه [4] فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠هـ سنة ١٣٨٨م إلى مصر، حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل. وظل بها حتى عاد السلطان حاجى إلى العرش وسعى عند يلبغا الناصرى لإعادته فأجابه، غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقدوم محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة، وحبس منطاش عناناً مع بعض مماليك برقوق سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش وفر إلى دمشق. وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١.

(٢) الفاسى: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٥.

(٣) نفس المرجع، ورقة ١٩٦.

(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨.

شفع بطا، كبير مماليكه، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار علي بن عجلان على نصف إمرة مكة معه [1]، واتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لحاجته، فإذا قضاها خرج منها ولكل منهما فيها نواب، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المتحصل؛ وبعضهم للحكم بها، «وأن يكون القواد مع عنان والإشراف مع علي» [2].

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان سنة ٧٩٤هـ ـ سنة ١٣٩٢م، وهموا بقتله وأخرجوا نوابه من مكة، فانعدم الأمن في داخل البلاد. وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد. وإذ حضر علي وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى علي بمفرده، وذلك بسبب ما قدمه علي إلى السلطان من الهدايا الوافرة [3]. ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر، ورتب له ما ينفقه ثم عاد فسجنه بالقلعة في ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م [4].

وحين قامت الحرب سنة ٧٩٧هـ بين ابني حسن وقواد مكة ببطن مر، وقتل فيها الشريف علي بن عجلان، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها بني حسن، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان، الذي كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير يلبغا السالمي ليمكنه من تولي مهام وظيفته، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التي نهبت في العام الماضي [5]. وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار، وخاصة تجار السلطان، وتجار اليمن. وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ويحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن، كما أسقط عن التجار ثلث الجباية،

(1) De Gaury : Op. Cit. p. 103.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٦ ب، ١٩٧أ.

(٣) الخزرجي: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦.

(٤) الفاسي: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧أ.

(٥) كان السلطان برقوق قد أرسل قمحا إلى ينبع للبيع فاستولى عليه أميرها ـ الفاسي العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٥ أ.

ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر، وسر السلطان برقوق بجهود حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعتين سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م [١].

وظل حسن بن عجلان على ولائه للسلطان برقوق ولابنه فرج من بعده، وأثرى من النشاط التجارى ثراء كبيراً، حتى اقتنى عدداً كبيراً من المماليك سنة ٨٠٣هـ. وفي العام الثاني أصبح لحسن بن عجلان من القوة والنفوذ ماجعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين، في أحدهما؛ ألا يمنع الدعاء بمكة لسلطان اليمن، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن، وفي الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر في أثناء السنة على صاحب مكة «يد ولا حكم» بل «يعضدونه ويقرون كلمته ويعلون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالف وطلبكم للقتال قاتلوه» [٢]. ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه ألعوبة في أيدى أمراء مصر الذين صار بيدهم الأمر. وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير بيسق أمير الحج سنة ٨٠٤ ـ سنة ١٤٠١م [٣].

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصةحين استولى سنة ٨٠٥هـ ـ سنة ١٤٠٢م ـ على الذهب الموجود بمركب في طريقه إلى اليمن، يملكه ابن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج عن عنان ليهدد به حسن بن عجلان ، ولكن المنية عاجلت عناناً قبل أن يصل إلى مكة [٤] ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨هـ هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته. وفي سنة ٨٠٩هـ ـ سنة ١٤٠٦م ـ وافق على ما طلبه حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له في إمرة مكة، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً في علاقة

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٦ أ.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٣) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤ هـ ـ ١٤٠١م بسد النوافذ التي بالجانب الغربي من الكعبة: فأمر حسن بفتحها، كما تحداه حين أمر بنقل السوق من المسعى فألغى قراره. راجع الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧ .

الدولة المملوكية الثانية بإمرة مكة. وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات في الحكم، وأن يلقب حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية[١].

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن ٨١٢هـ ـ سنة ١٤٠٩م، وما تبع هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج، وأمره بالقبض على حسن وولديه. غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمراء مصر وارساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مثقال [٢].

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالي في عهد دولة المماليك الأولى، فإنه وجد نفسه مضطرا لتحمل سيطرة حكام مصر في عهد دولة المماليك الثانية. على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مداراة حكام مكة والاكتفاء بذكر أسمائهم في الخطبة وارسالهم الهدايا [٣].

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن، وسبب هذا حرصه على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها. ووضحت هذه السياسة في تبادل الهدايا بين الدولتين. بيد أن السلطان برقوق هو الذى بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧هـ. سنة ١٣٨٥م ثم توالت هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة في نهاية الدولة المملوكية الأولى [٤]. ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م إلى السلطان برقوق. واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار، وسيف محلي بالذهب ومرصع بالعقيق، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض، وأربع مراوح مذهبة، وعدد من العدد الحربية المذهبة، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى

---

(١) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٥٩ ب.
(٢) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦١ ب، ١٦٢أ.
(٣) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦٣ ب.
(٤) الخزرجي: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٨٢.
راجع كذلك السلامي: مختصر التواريخ ورقة ١٨٨أ.

والعمود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار. وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمي برهان الدين المحلي [١].

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة في ميناء عدن التي أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب[٢].

بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة ـ من أجل تجارتهم في الحجاز ـ على حساب ميناء عدن. ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم في مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشي قوة أمراء مكة، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلان حين قام بمحاولته سنة ٨١٢هـ سنة ١٢٠٩م لغز وبلاد اليمن [٣].

وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسي، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية. ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطرك اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر في ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان [٤].

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أرعد سنة ١٣٨١ ـ ١٤١١م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة في مصر والناتجة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم أسوان في أواخر سنة ١٣٨١م، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذى أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولاً إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٤ ص ٢٣.

(2) Piloti : Op. Cit. P. 42.

(3) Piloti: Op. Cit. p. 42.

(٤) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣.

عليه هذا الهجوم، ويطلب منه العودة إلى بلاده، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة. وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم الدمياطي[1].

ويبدو أن الملك داود بن سيف أرعد حرص بدوره على اتصال الود[2]. فلم يتردد في إجابة الطلب، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة ١٣٨٢م وبعث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون جملاً، واشتملت على طرائف بلادهم، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على هيئة الحمص[3]. ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين في الحبشة، وأكد أنهم في حالة طيبة، وأن لهم مطلق الحرية في التنقل والكسب. وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك القبطي والمصريين القبط، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التي عزلوا منها كما بين له أن حسن معاملة المسيحيين في مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين في بلاده والعكس[4].

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر[5].

غير أن داود عاد في سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٢م، وانتهز فرصة الشحناء بين الأمراء في سلطنة فرج، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع، وقتل من أهلها من المسلمين عدداً كبيراً[6].

على أن قبط مصر برغم هذا أسهموا بقسط كبير في تطوير الحياة في الحبشة، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أرعد الذى تولى سنة ١٤١٢م فخر الدولة هارباً من اضطهاد الدولة للمصريين القبط، فرتب له أمور مملكته، ونظم له طريق جباية الأموال، كما أنشأ له ديواناً،

---

(١) العسقلاني : إنباء العمر جـ١ ص ١٦٢.
(٢) راجع: الحيمي سيره الحبشة ص ٢٨.
(٣) المقريزي: السلوك جـ٣ (خطيه) ص ٤٧١.
(٤) راجع اسكاروس: توابغ الأقباط ص ٤٨ - ٥٨.
(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٢٥٣ أ، ب.
(6) Budce: AHist. of Ethiapia VI p. 300.

ووضع له القوانين التى ضبطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشي يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء [١].

ويبدو أن هذا العمل الذى قام به فخر الدولة لملك الحبشة شجعه على استقدام عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا فى وظائف «ذرد كاش» بمصر فعمل هؤلاء لملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقريزى أثر هذا التقدم فى السلاح فى الحبشة التى ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحراب، إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشي فنون الفروسية من رمى النشاب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث فى تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المصريون فى تعليم الأحباش استخدام النفط فى الحروب [٢].

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنوكنز على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥هـ ـ ١٣٨٥م هاجم بنوكنز أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعيين الأمير حسين بن قرط التركمانى والياً على أسوان [٣]. غير أنه كثيراً ما التجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠هـ ـ ١٣٩٨م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافقه على تعيين إبراهيم الشهابى والياً على أسوان، وأعاده إلى بلاده[٤]. ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر فى عهد فرج بهجمات بنى كنز.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج أواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

---

(١) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ص ٤ ـ٥.
(٢) نفس المرجع ص ٤.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٢١.

# ملاحق توضيحية

## من مصادر عربية وفارسية

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسى شرف الدين على يزدى (جـ١ : ص ٦٤٢ ـ ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥هـ. ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق التترى إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة.

والملحق الثاني منقول من المؤرخ المصرى أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثانى كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظى، ويحتوى على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له.

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثانى من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صور شمسية بدار الكتب المصرية جـ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦هـ، وفى هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك.

والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (جـ٢ ص ٢٦٧)، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك، هو القائد أطلمش الذى وقع فى يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج، ومطالبته بإعلان الطاعة، والدعاء له فى خطبة الجمعة بالقاهرة. وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية، وهو منقول كذلك من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (جـ٢ص ٣١٥ ـ ص ٣١٦)

وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته، وهو فى الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة.

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ـ ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣هـ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق.

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ص ٣٢٧)، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو فى داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال.

والملحق الثامن منقول من مخطوط، «كتاب روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا حـ ٦ ص ٣٤٦)، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند، هذا الكتاب بالفارسية كذلك، وتاريخه سنة ٨٠٥هـ؛ وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثمانى فى واقعة أنقره، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة.

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف»، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ ـ ٣٣٩)، وهو كتاب من النجاشى داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون فى الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية، وينفى النجاشى ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشى للرعايا المسلمين فى بلاده، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى فى بلاده ويهدد بقطع مياه النيل، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان لقبط مصر.

## الملحق(١)

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، حـ١، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣).

**ترجمة الكتاب:**

«لما كان بيت جنكيزخان في حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاف الرسل، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين؛ غير أنه منذ وفاة الايلخان العظيم سعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم في بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذى نظم أمور الناس، ولكن على العكس قام حكام فى كل الإمارات فى هذه الامبراطورية الكبيرة مكان ملوكها، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية. أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربى الذى تتاخم حدوده حدود بلادكم، فإن المحبة التى ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب، وأن يأتى الرسل، ويعودوا فى يسر بين بلدينا، وأن ينتقل تجار البلدين فى أمن حتى تنتعش البلاد، ويكثر السكان، ويعيشوا فى سلام. ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين.».

## الملحق(٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق فى سنة ٧٩٦هـ (المقريزى، أحمد بن على: السلوك صور شمسية حـ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

«قل اللهم مالك الملك»[١] ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٢] اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلطون على

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٢) القرآن الكريم: سورة الزمر: ٤٦.

من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكى [١]، ولا نرحم لبـاكى [٢]، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا فى الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل [٣] فقل له:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [٤]، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام ـ وعزنا أبدا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل. وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا [٥] إلا أنفسكم، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولايسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم، وقد أكلتم الحرام، وظلمتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعدت لكم النار وبئس المصير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [٦]، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك فى النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[٧]، فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، قد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم الإله، له أمور مقدرة وأحكام محررة، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل، لأننا

---

(١)، (٢) كذ فى الأصل.

(٣) كذا فى الأصل.

(٤) القرآن الكريم: سورة النمل : ٣٤.

(٥) كذا فى الأصل.

(٦) القرآن الكريم سورة النساء: ١٠.

(٧) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠.

ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾[1]، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزاً، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2]. قد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[3]، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام».

## الملحق (٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقريزى، أحمد بن على: السلوك، صور شمسية، جـ٣ ص ٢٣٨)

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[4] حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5]، ففي كل كتاب لعنتم ، وعلى لسان كل مرسل نعتم، وبكل قبيح

---

(١) القرآن الكريم سورة الحاقة : ٨.
(٢) القرآن الكريم سورة مريم: ٩٨.
(٣) القرآن الكريم سورة النور: ٥٤.
(٤) القرآن الكريم سورة آل عمران : ٢٥.
(٥) القرآن الكريم: سورة الكافرون.

وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع. نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركة تأويله، فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾(1)، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت(2) بالتوت(3)، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة فى المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(4). وأما قولكم: قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (5). الفرارا الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (6). عد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أنا ينكشف الغطاء، ففى نظمه تركيك. وفى سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلها ثان، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (7) قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته. وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب، ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا

---

(1) القرآن الكريم: سورة الانفطار: 1.
(2) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط).
(3) كذا فى الأصل.
(4) القرآن الكريم: سورة آل عمران: 169 ـ 171.
(5) القرآن الكريم. سورة البقرة: 249.
(6) القرآن الكريم: سورة المائدة: 56.
(7) القرآن الكريم: سورة مريم: 89 ـ 90.

يَقُول﴾ (1) إن شاء الله تعالى [لقد خلطتم في الأمر فى الذى أرسلتم][2] ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [3] والسلام».

## الملحق (٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية فى شهر المحرم سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه حـ٢، ص ٢٧٦).

**ترجمة الكتاب:**

«لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة. وينبغى عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق إلى الثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها. وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم فى عنقك».

## الملحق (٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦).

**ترجمة الكتاب:**

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا فى الأمور، وعلو همتنا فى تحصيل المطالب، وإتمام المقاصد والمآرب، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب. وإن الهدف الأصلى للملوك من قيادة الجيوش وفتح

-----

(١) القرآن الكريم : سورة مريم: ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).

(٣) القرآن الكريم: سورة الشعراء : ٢٢٧.

- - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - - -

المالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس فى الحال وبقاء الذكر الجميل فى المآل، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال.

إن أهم الأعمال فى الدنيا رعاية الناموس وابقاء الذكر الطيب، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز.

وقد طلبت أطلمش مرات، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادك، وتنزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال فى دياركم.

« إذا نطق الصخر، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً» .

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا، وطويت بساط النزاع بيننا، ورحمت نفسك وأهل ديارك، لانتهى كل شئ ، وإلا جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف المخالفين، ويقهر المعاندين، ويستولى على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود.

«هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج»

«الأول يؤدى إلى الأمن والثانى يؤدى إلى الحرب»

«وقد أظهرت لك العقل فانتصح»

«واختر طريقاً من الطريقين» .

الملحق(٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه جـ٢ ص ٣١٧)

**ترجمة الكتاب:**

« نحن عبيد فى مقام الطاعة والانقياد. وسنرسل أطلمش فى خلال خمسة أيام. فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر فى أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر، وإظهار الخضوع وسنفعل كل ما فى مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية» .

## الملحق (٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين علي يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣٢٧).

«إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم. ونحن باقون على العهد الذى عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم، فإننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور».

## الملحق (٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥هـ (مير خواند: روضة الصفا، جـ٦ ، ص ٢٤٦).

ترجمة الكتاب: «أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغي أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم، وأن تطلقوا سراح اطلمش فى الحال، وترسلوه إلى بلاطنا الذى هو ملجأ للعالم، وإذا تغافلتم فى هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها. وقد قلت كل ما فى نفسي وأنت تعرف ما بعد ذلك. وقد أعذر من أنذر».

## الملحق (٩)

كتاب من النجاشي داود إلى السلطان برقوق: (ضمن مجموعة سيرة برلام ويواصف: مخطوطه بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ ـ ٣٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

«من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالي المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام. ملك الأنام، الخاص منهم، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره. ورفع لواءه ومناره. ومحا بعدله

أسباب الظلم وآثاره، وجعل الفضل بالعدل شعاره. أما بعد رحمة الله تعالى، يقلد ملك أرضه من يشاء من عباده، وحافظ عدل أوليائه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده، نحمده على ما أولانا من جزيل نعمائه. فنشكره شكراً على جزيل آلائه، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة. إنه على ما يشاء قدير، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك، وأنهم منصورون من الله تعالى فى تصرفاتهم، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين، ويتعمدون العدل، والإنصاف فى عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ العهود لأولياء العهد ما داموا عليه حافظين، وانصاف المظلوم من الظالمين. السلام عليكم سلاما جزيلاً وافراً كما يليق لعظيم سلطانكم. السلام على أمراء دولتكم الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم أجمعين. آمين.

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة، واتفاق سائر الملوك والأمراء، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد والشكر، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين. وفتحنا أبواب السبل للتجار والمسافرين وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم، وفى الوصية بأولادكم والتجار الكارمية وغيرهم فى البر والبحر، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم، وبالخاصة ما كان بين الملك الشهيد الأكمل عبد سنون جدى، وبين الملك الناصر محمد بن قلاون من المحبة والاتفاق وما كان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية. و الآن فقد ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومربينا البطريرك أنبامتاوس بطريرك الإسكندرية والديارالمصرية والحبشة والنوبة على يد الأسقف المكرم إبراهام ورفقته، وكتابكم الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء. فقابلناهما ثم قابلناهما بالإكرام والتبجيل،

وهما يتضمنان أن قوماً أنهوا عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول في ديننا بالجبر والقهر، وأنهم فى أمور صادرة، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغي لمن له النظر في تدبير المملكة الإسلامية ومقابلة القوم المنفيين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين، لأن هؤلاء القوم المذكورين الذين أنهوا عنهم إنما هم مقيمون في بلادنا راضين غير مكرهين، وكانوا فقراء فصاروا تجاراً مثقلين، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولاحق ولامكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد يكرمون. ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا، فلا نمنعه من ذلك، وأما الإكراه على الدخول في ديننا فهذا غير واجب فى كتبنا، وإن اتفق شئ من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية، وأما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين. أول ذلك بحر النيل المبارك الذى يجرى فى بلاد الحبشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جريانها للديار المصرية بعيدة صعبة المسالك. ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها، ثم يصرفونها إلى أماكن أخرى، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها، ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحيها، والكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية والمسافرين إلى الأقطار الحجازية، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بحراً وبراً . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذيين، وتقفية آثار المعتدين. وأما طرق الإقامة بالبلاد الحبشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادرين أوواردين، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده فى البلاد مع وسعها وكثرة أهلها، فهو على نفسه وماله من الآمنين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وببلادهم التى تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين. ولك من توفى منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله، ونسلم إليهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلا شكوى، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهى واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهوا إليكم بما قد طالعتمونا به لا يعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً، والقطيعة التى

عليه في كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحدمن الأمراء مثل ما تفعلون مع العربان ببلادكم ولكن اسألوا من التجار المترددين إلي بلادنا عن أخبارنا. وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا. وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى في أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريرك، وأخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة فى أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان، وحصل فى حقهم مالم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين. إذا وجهنا بهم إليكم تقابلونهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام، وتسمعون منا ما سألناكم فيه وتجيبوننا عنه بالقول، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمنة وغير ذلك. فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أرعد، وامتنع عنك وعن مرأسلاتكم، وكان في عقابه بدا من جهتكم مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا ما يحصل من مصالح لكم من جهتنا إذا نقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا حبل الوصل عنكم وصرمناه.

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا ورأسنا ورئيسنا السيد الأب البطرك، فإننا تحت طاعته ولا نستطيع مخالفته. والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الخصيصين بنا، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتي، وزرع الأمانة بمحل مارى سعاده بمحل اخر سطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التى تليق بمثلكم . وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطرك واخوتنا النصارى بالديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم وإكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا بخلاف ما أمربه صاحب شريعتكم من حفظ الذمة. فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألنا كم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك.ومهما فعلتموه مع أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه من سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم

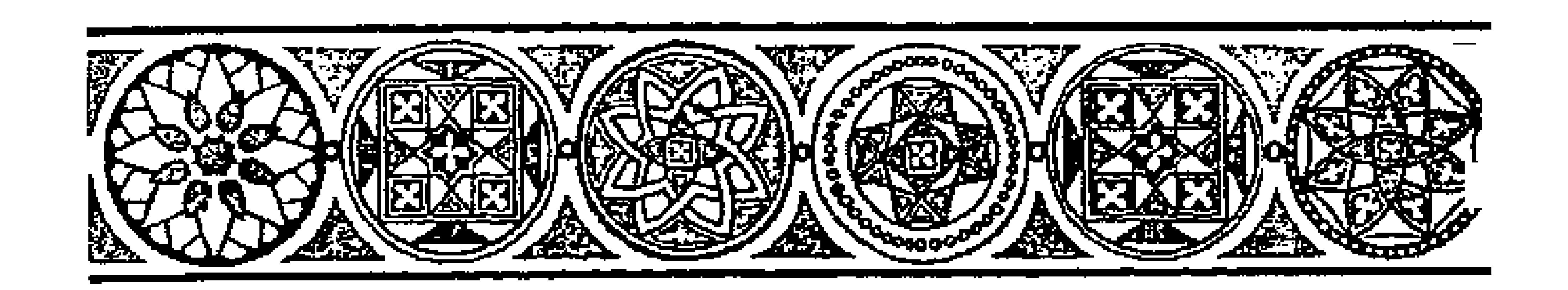
مطالبون بما يأتيهم. أعاذكم الله من ذلك. ولابد من أن عظمتكم علمتم من التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف وعدهم الله فى آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به، وكيف يسهل لنا الطرقات ولا يخفى على علمكم ما نطقت به الكتب. ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا فى توزيع مجارى النيل المبارك وصده عن الديار المصرية مالم يكشف لأحد من الملوك المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازون الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا، والواصلون إليكم من رسلنا تقابلونهم بما يليق بمثلكم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسيحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة. وقد بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفرا أخرجوه من كنيسته وذكروا أنه عند بعض الأمراء فى بيته، والقصد من سياستكم تشرفون بإرسال الشهيد المشار إليه صحبة رسلنا وواحد من رءوس بلادالمسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله وفقهاء البلاد، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين على الخيول والبغال المثمنة. ولكن نحن منتظرون ما يرد علينا من الأخبار على يد رسلنا سريعاً فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا، خيراً كان أوشراً. وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به، وجماعة من رسلنا أيضاً تخاصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين، وهذا غير واجب فى الشريعة ولاجرت به عادة فى زمن المسلمين السالفين.

وبلغنا أيضاً من المترددين إلينا أخبار الملك، وما هو عليه من العدل والإنصاف، والإحسان والشفقة على سائر خليقة الله تعالى فسررنا بذلك كثيراً، وفرحنا الفرح الكامل بما خصكم الله تعالى من الجلوس على كرسى المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم. ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطرك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التى أخذتموها وعملتموها مساجد بغير حكم حق فتعيدونها لهم، وتأمروا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والاراخنة الذين منهم، والكتاب الذين فى الدولة ومن تجرد

منهم على عوائدهم التى كانت فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون. فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخواتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم. ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطرك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم في أعلى كتابنا، ومهما يحل بهم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم.

ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أسماؤهم:

سلطان سنقرا وأقاليمه. سلطان كنزا وأقاليمه. سلطان من وأقاليمه. سلطان فاتا وأقاليمه سلطان أنون وأقاليمه. وبأرض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين. سلطان بر بأرض نوحا وأقاليمه. سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا. سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً. سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا. وسلطان دفاه. فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتي. سلطان سرجه وأقاليمه. سلطان أحواره وأقاليمه. سلطان باراتا وأقاليمه. فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك. وأما الذمة الذين فى وسط بلادنافلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. وإنا ما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلاليحاط علمكم بذلك ويستدرك فارطه في رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد. فمتى والعياذ بالله لم تجيبونا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم ـ لكن أجروا أبانا البطرك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التى كانت فى أيام السلطان محمد بن قلاوون. والمرجو من الله تعالى إصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه وخفى لطفه، فإنه سابغ مراحمه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمى بلادكم وكل من يلوذ بكم وبمقامكم الشريف. ونشكر الله تعالى على الدوام فى مدى الليالى والأيام أجمعين آمين.



# المراجع

## أولا. المخطوطات العربية


ابن أبي السرور ، محمد بن السيد (١٠٨٧هـ):

أـ عيون الأخبار ونزهة الأبصار ـ دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢.

ب ـ النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ـ دار الكتب القاهرة برقم ٢٢٦٦ تاريخ.

ابن أيبك أبو بكر عبد الله : (ق ٨هـ):

كنز الدرر وجامع الغرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ. ابن بهادر.

ابن بهادر. محمد بن محمد (القرن ٩ هـ): فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، جزءان، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩ تاريخ.

ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤هـ): المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ٣ مجلدات ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ.

ابن حبيب، الحسن بن عمر (+ ٧٧٩هـ): درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ح.

ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد (+٨٠٩هـ): الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ـ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ.

* ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد (+٨٥١هـ): ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ.
* الأسدى، محمد بن أحمد: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ـ دار الكتب بالقاهرةرقم ٥٤٨٦ تاريخ.
* البسطامي، عبدالرحمن بن محمد على (+٨٤٣هـ): مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع.
* البغدادى، أحمد بن عبدالله (١١٠٢هـ): عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان ـ مصورة فى مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ.
* الخزرجي، عبدالقادر بن محمد الأنصارى (ق٩هـ): درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٧م.
* الخطيب، علي بن داود (ق٩هـ): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ـ نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب القاهرة برقم ١١٦م. وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤تاريخ.
* الزياني، أبو القاسم عبدالله (ق١٣هـ): الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤تاريخ.
* السلامى، شهاب الدين أحمد (ق٩هـ): مختصر التواريخ ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ.
* السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ): تاريخ السلطان الأشرف قايتباى - دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ.
* الصفدى، صلاح الدين خليل، (+٧٦٤هـ):
(أ) أعيان العصر وأعوان النصر ـ ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٩١ تاريخ.
(ب) الوافي بالوفيات ـ ١٧ مجلداً مصورة دار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩تاريخ.
* الطيب، أبو محمد بن عبدالله (ق١٠هـ): قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ـ ٣ أجزاء فى ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ.
*العسقلاني، أحمد بن حجر (+٨٥٣هـ):
(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر ـ جزءان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ.
(ب) تاريخ المائة التاسعة ـ مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ.
* العينى، بدر الدين محمود (ـ٨٥٥هـ):
(أ) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ فى ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة).
(ب) السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤.

* الفاسي، أبو الطيب محمد بن أبي العباس (+٨٣٢هـ):
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ـ ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ.
* القدسي، محمد أبي حامد (ق٩هـ): دول الإسلام الشريفة ـ ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ.
* الكتبي، عبدالله محمد بن أحمد بن شاكر (+٧٦٤هـ): عيون التواريخ ـ ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ.
* المقدسي، مرعي بن يوسف (+١٠٣٣هـ): نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين ـ بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٠٧٦ تاريخ.
* المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (+٨٤٥هـ):
(أ) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ٣، جـ٤ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ.
(ب) المقفى الكبير ـ ٤ مجلدات مصورة برقم ٣٥٧٢ تاريخ.
(جـ) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار ـ دار الكتب القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزي.
* النويري، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب ـ من جـ١٨ حتى جـ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة.
* النويري، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندري (+٧٧٥): الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ في مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ.
* الهيثمي، أبو العباس أحمد بن حجر (+٩٧٤هـ): إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ.
* بيبرس الدوادار (+٧٢٥هـ):
(أ) التحفة الملوكية في الدولة التركية ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩.
(ب) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨.
* يوساب، أسقف فوه (ق١٥م): كتاب تاريخ البطاركة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادي النطرون.

## ثانيا.المصادر العربية المطبوعة

* ابن أبي الفضائل، مفضل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ـ نشر E. Blochet (باريس ١٩١١ ـ ١٩٣٢م).
* ابن الشحنة الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب.
* ابن الطولوني، حسن بن حسين (ق٩هـ): النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية (القاهرة ١٢٩٤هـ).

* ابن العماد، عبدالحي (+١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١٨ جزءاً (القاهرة ١٣٥١هـ).
* ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (+٨٠٧هـ): تاريخ الدول والملوك جـ٧، جـ٨، جـ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢).
* ابن إياس، محمد بن أحمد (+٩٣٠هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ١، جـ٢ (بولاق ١٣١١هـ).
* ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+٨٧٤هـ):
(أ) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ـ جـ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦م).
(ب) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة حتى ـ جـ١٢ (سنة ٨٠٨هـ) طبعة دار الكتب بالقاهرة ٩٣٠ ـ ١٩٥٦. طبعة كاليفورنيا جـ٥، جـ٦، جـ٧ (١٩١٥ ـ ١٩٣٩).
(جـ) منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ـ نشر Popper (كاليفورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٣١).
(د) مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ـ كمبردج ١٩٧٢م.
* ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (+٨٠٤هـ):
(أ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ـ نشر محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة ١٩٥١).
(ب) المقدمة.
(جـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ جـ٥، جـ٦ (بولاق ١٢٧٤هـ).
* ابن شاهين، غرس الدين خليل الظاهرى (+٨٧٣): كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. نشر Ravaisse (باريس ١٨٩٤م).
* ابن عربشاه، شهاب الدين محمد بن أحمد (٨٤٦هـ):
(أ) عجائب المقدور في أخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفا (بولاق ١٢٩٠هـ).
* ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+٧٧٤هـ): البداية والنهاية ـ ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨هـ).
* ابن مماتي، أبو المكارم بن سعيد (+٦٠٦هـ): كتاب قوانين الدواوين ـ نشر عطية (القاهرة ١٩٤٣).
* أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ـ٧٣٢هـ): المختصر في أخبار البشر (الاستانة ١٢٨٦هـ).
* اسكاروس، توفيق: نوابغ الأقباط بالقاهرة في القرن التاسع عشر ـ جـ٢ (القاهرة ١٩١٠).

* الإسحاقي، محمد بن عبدالمعطي (القرن ١١هـ): لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (القاهرة ١٢٩٦هـ).
* الأنصاري، أبو عبدالله: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بطرسبرج ١٨٦٦م).
* الجبرتي، عبدالرحمان (١٢٣٧هـ): خمسة أجزاء: تحقيق عبدالعزيز جمال الدين. القاهرة.
* الذهبي، أبو عبدالله (+ ٧٤٨ هـ) دول الإسلام - جزءان في مجلدين (الهند ١٣٣٣هـ).
* الحيمي: سيرة الحبشة - نشر الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٥٨).
* الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن: العقود اللؤلؤية في تاريخ الدول الرسولية (القاهرة ١٩١١م).
* السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (+٩٠٢هـ):
(أ) التبر المسبوك في ذيل السلوك (بولاق سنة ١٨٩٦م).
(ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع -١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ).
* السلاوي، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ (القاهرة ١٣١٢هـ).
* السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ):
(أ) تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩هـ).
(جـ) نظم العقيان في أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧).
* الشوكاني،محمد بن علي اليمني (+١٢٥٠هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - جزءان (القاهرة سنة ١٣٤٨هـ).
* العريني، دكتور السيد الباز: الفارس المملوكي - بحث في المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس (١٩٥٦).
* العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين جزءان (بغداد ١٩٣٥م - ١٩٣٦م).
* العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (+٨٥٢هـ):
(أ) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - ٤ أجزاء - حيدر أباد الهند ١٣٤٨ - ١٣٥٠هـ).
(ب) رفع الأصر عن قضاة مصر - جـ١ (تحقيق حامد عبدالمجيد وآخرين - القاهرة ١٩٥٧).
* القرماني، أبو العباس أحمد (+١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢هـ).
* القلقشندي، أبو العباس أحمد (+٨٢١هـ):
(أ) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣).
(ب) ضوء الصبح المسفر و جنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦م).
* الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤هـ): فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣هـ).
* المقريزي، أحمد بن علي (+٨٤٥هـ):

(أ) إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال.
(ب) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥م).
(جـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦م).
(د) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ جـ١، جـ٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨).
(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ).
* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب من جـ١ حتى جـ١٧ (القاهرة ١٩٢٣).
* حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ليزج ١٨٣٥).
* خريطة القاهرة والوجه البحرى الدولية. دائرة المعارف الإسلامية.
* دحلان، أحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣هـ).
* رشدى، راسم: مصر والشراكسة (القاهرة ١٩٤٨).
* رمزى، محمد: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤).
* زترستين: تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ (باريس ١٩١٩).
* زيادة، دكتور محمد مصطفى:
(أ) المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٤٩).
(ب) نهاية السلاطين المماليك في مصر ـ بحث في المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع مايو سنة ١٩٥١.
* سرور، دكتور محمد جمال الدين: دولة بنى قلاوون في مصر (القاهرة ١٩٤٧).
* صالح بن يحيى، (ق٩هـ): تاريخ بيروت ـ نشر لويس شيخو (بيروت ١٩٠٢م).
* عاشور، دكتور سعيد عبدالفتاح: قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧).
* عزت، يوسف: تاريخ القوقاز.
* فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢م).
* كرد على، محمد: خطط الشام ـ ٤ أجزاء (دمشق ١٩٢٧).
* مؤلف مجهول: كتاب قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش (بولاق ١٢٨٧هـ).
* مؤلف مجهول: مراصد الاطلاع في أسماء الأماكن والبقاع (ليدن ١٨٥٠ ـ ١٨٥٩).
* هازارد، أ. و: أطلس التاريخ الإسلامي ـ ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة.
* ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى (+٦٢٦هـ): معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة ١٩٠٦م).

# ثالثا. مراجع أفرنجية

* Arnold, T.W: The Caliphate, Oxford, 1924.
* Atiya, A.S.: The Crusade in the Latar Middle Ages, London, 1938.
* Ayalon, D.:

  A) Studies on the Structure of the Mamluk Army. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V. 16, Part 1, 1954.

  B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956.

  C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S 1949.
* Browne, E.G. : Literary History of Persia. VIII, Cambridge 1951.
* Bouvet, L.: L'Empire Mongol, Paris 1927.
* Brockelman, C. :

  A) History of Islamic Peoples, London 1949.

  B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and Berlin) 1898-1902.
* Budge: A History of Ethiopia VI, London 1928.
* Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1 and 111, 1954.
* De Bouard, M.: La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris1936.
* De Clavijo, R.G.: Embassy to Tamerlanc, London 1859.
* De Gaury, G.: Rulers of Mecca, London 1951.
* Delaville Le Roulx, J.: La France en Orient au XIVéme siécle, 2 Vol., Paris 1886.
* Demombynes, G.: La Syrie á l'époque des Mamelouks Paris 1922.
* Devonshire, L.: L'Egypte Musulmane, Paris 1926.
* D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris 1824.
* Dozy, R.: Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.
* Dussaud, R. Topographie Historique de la Syria Antique et Médiévale, Paris 1927.
* Encyclopedia of Islam.
* Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlanc, California 1952.

* Gibbons, H.A.: The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford 1916.
* Grousset, R.: L'Empire des Steppes, Paris 1939.
* Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levan, 2 Vols., Leipzig 1885.
* Hitti, Ph, K.: History of the Arabs, London 1937.
* Huart: Histoire des Arabes, 2 Vols. Paris 1913.
* Ibn Arab Shah: Tamerlanc or Timur the Great Amir, Eng. tr. by Sanders J.H., London 1936.
* Ibn Iyas: Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G. Wiet, Le Caire 1945.
* Iorga: Notes et Extraits puur servir á l'Histoire des Croisades au XV siécle, T. 11, Paris 1899-1916.
* Journal Asiatique (J.A.).
* Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).
* Kevork, A.: Armenia and the Armenians, New York 1920.
* Kirk, G.E.: A Short History of the Middle East, London 1949.
* Lamb, H.: La vie de Tamerlanc. Trad. de l'anglais par Robert P.J.
* Lammens, H.: La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.
* Lane-Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.
* Le Strange, C.:
  A) Clavijo Embassy to Tamerlanc, London 1918.
  B) Palestine under the Moslems, London 1990.
* Malcolm, J.: History of Persia, London 1815.
*Malet and Isaac: L'Histoire du XIV, XV et XVI slécles, Paris 1927.
* Miller: The Latins in the Levant, London 1908.
* Morgan, J.: Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.
* Muir, W.E.:
  A) The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.
  B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall., Oxford 1902.
* Oman, C.W.C.: The Byzantine Empire, London 1915.
* Piloti, E.: L'Egypte au commencement du Quinziéme Siécle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

* Poliak, A.N. :

A) Les Révoltes Populaires en Egypte á l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractére Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

* Price, D. : Memoirs of the Principal of Mahommedan History from the Deat of the Arabian Legislator to the Accession ot the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.

* Quatremere, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.

* Sauvaget, J.: Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.

* Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V. LVIII, 1879.

* Sykes, P. : A History of Persia VII, London 1951.

* Thoumin, R.: Histoire de Syrie, Paris 1929.

* Wiet, G.:

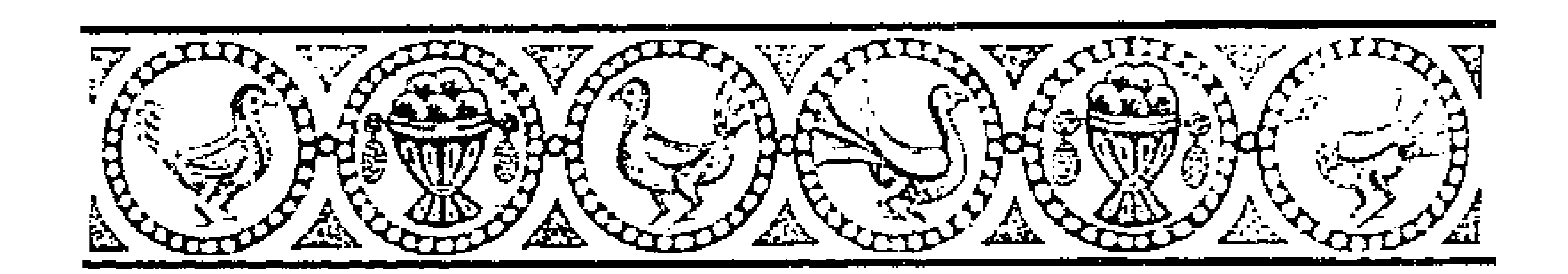
A) Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.

B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.

C) Biographie du Manhal Safi.

* Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII
En. Trans by Darly, London 1723.

* Ziadeh, N. : Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beiruth 1953.



## فهرس الجزء الثالث
## [المجلدين]

## هذه الموسوعة

مبدئياً علينا أن نؤمن بأن هناك مايسمى بالقوة الطليعية التى قادت البشرية نحو التطور والتقدم . فعندما نرى المصريين وقد تحولوا إلى أمة متحدة تقيم الدولة الواحدة لأول مرة فى التاريخ ،بمؤسساتها المتعددة والقوانين التى تنظم علاقاتها الاجتماعية ، وما تمارسه فيها اللغة والكتابة كوظيفة كبرى. فحين ذاك يبدأ تاريخ البشرية الذى صنعه المصريون منذ آلاف السنين على ضفاف نيلهم ،وسجلوه كتابة ورسماً ونحتًا على جدران عمايرهم ومسلاتهم وأهراماتهم وأوراق البردى فأمكننا بذلك معرفة أين بدأ البشرية تاريخها ومن الذى صنعه.

ولكن عندما قسم تاريخ أمتنا المصرية إلى بطلمى وروماني وأموى وعباسى وفاطمى وأيوبى ومملوكى وعثمانى .. إلخ قام بعض المرتزقة والمنتفعين بنهب هذه الأقسام وافتعلوا بينها تناقضات وصراعات . ولم يعد فى ذهنهم أن هناك تاريخاً طويلاً متواصلاً لأمتنا المصرية يمتد لآلاف السنين نفتخر به وليس لنا سواه.

إلى جانب هؤلاء المرتزقة كان هناك كتابات تاريخية أدركت أن تاريخ المصريين ووطنهم الأم نسيج واحد ينساب عبر التاريخ منجزاً أعظم حضارات البشر ،دون أى تقسيمات أو فواصل ،من هذه الكتابات الأثرية مخطوطنا « تاريخ البطاركة » الذى رصد أول فترة من تاريخ المصريين تمتد لعشرين قرناً، من بدايات القرن الأول الميلادى وحتى بدايات القرن العشرين .

يرصد فيه العديد من أحداثنا التاريخية التى لم ترد فى مخطوطاتنا التراثية المعروفة ، ننشره هنا كاملاً ومحققاً.

وقد استكملت فى موسوعتنا هذه أحداث القرن العشرين حتى نهايته، وزودته بالملاحق العديدة وأضفت ( من الكتب التراثية) متابعات موازية للأحداث الواردة بالمخطوط من أجل المقارنة والدراسة ، إلى جانب العديد من اللوحات والخرائط لنستكمل بها رؤية تاريخنا .

**عبد العزيز جمال الدين**


MADBULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Cairo Tel : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت ٥٧٥٦٤٢١

مكتبة مدبولى